



البَحْرُ الْمُرْتَمِلُ فِي تَارِيخِ الْإِسْلَامِ
مَوْجَزُ تَارِيخِ الْبَحْرَيْنِ عِبْرَةُ عُمُورِ الْخَلِيفَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ

(٢)





جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م

ISBN 978-9933-549-17-6



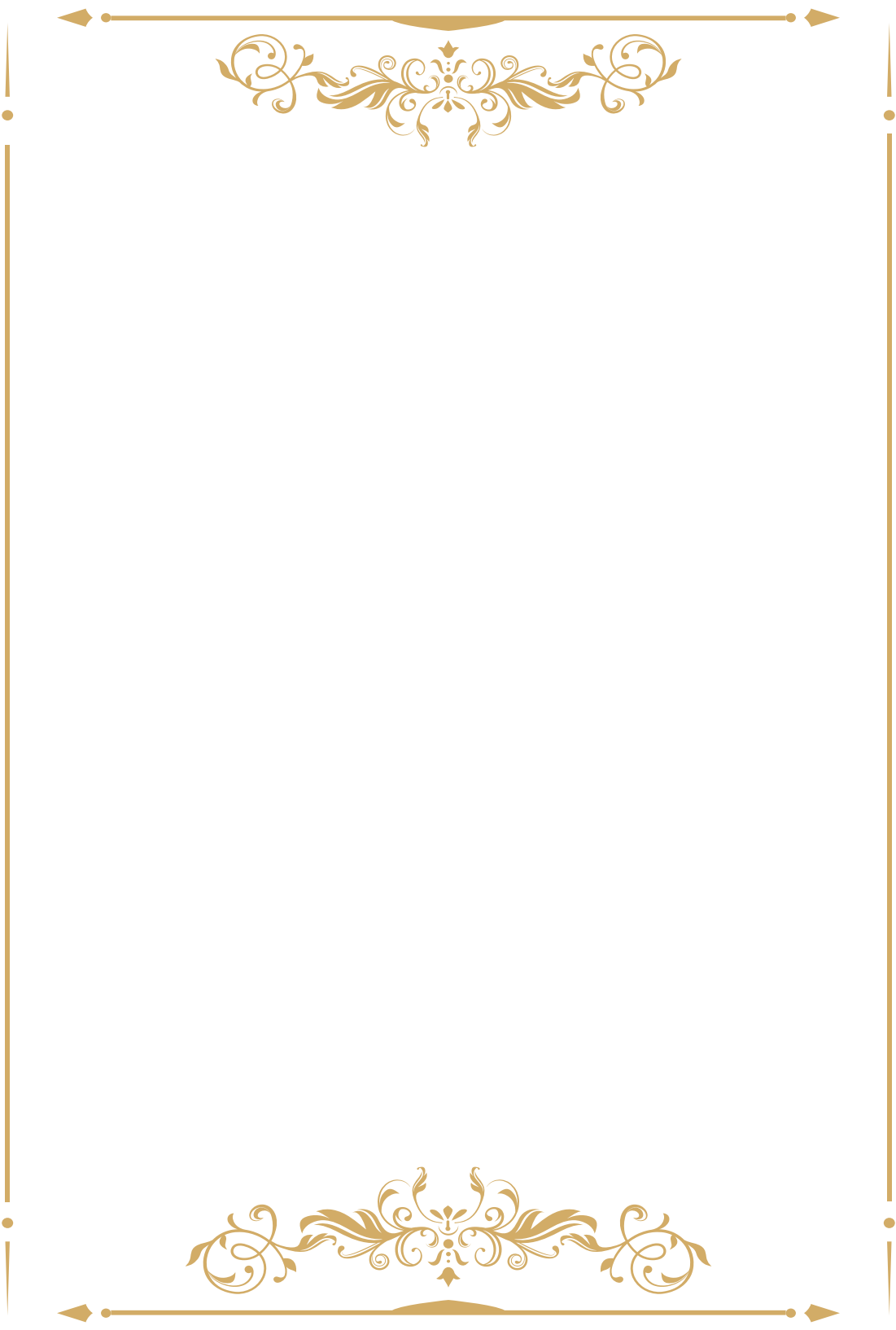
لِبَحْرِ مِزَانَةِ نَبْلِ مَخِ الْأَمْتِ

مُوجَزُ تَارِيخِ الْبَحْرَيْنِ عِبْرَةُ صُورِ الْخِلَافَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ

تَأَلَّفُ

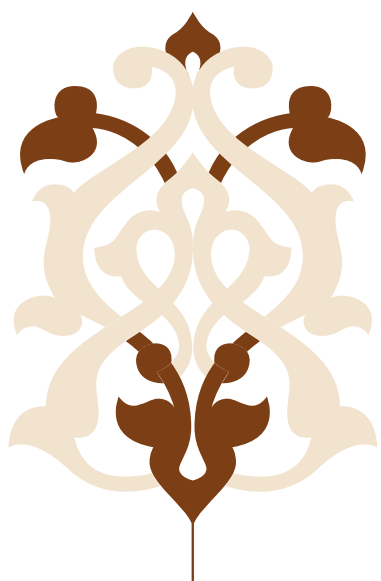
نَاصِرُ عَبْدِ الْمَجِيدِ مُحَمَّدُ ابْنُ الْعَلَاءِ

الْمَجْلَدُ الثَّانِي





الباب الخامس
البَحْرَيْنِ
فِي عَهْدِ الْخِلَافَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ فِي مِصْرَ
٦٥٩ هـ - ٩٢٣ هـ



قال علي بن يحيى جمال الدين أبو الحسن المخرمي^(١) في كتابه «نتائج الأفكار» والذي جمع فيه فنوناً كثيرة في الرياضة والعقل وذم الهوى:

السلطان إمام متبوع، ودين مشروع، فإن ظلم جارت
الحكام لظلمه، وإن عدل لم يُجْزَ أحد في حكمه، من مكنه
الله في أرضه وبلاده، وائتمنه على خلقه وعباده، وبسط يده
وسلطانه، ورفع محله ومكانه، فحقيق عليه أن يؤدي الأمانة،
ويخلص الديانة، ويكمل السريرة، ويحسن السيرة، ويجعل
العدل دأبه المعهود، والأمن بحر غرضه المقصود، فالظلم
يزل القدم، ويزيل النعم، ويجلب النقم، ويهلك الأمم^(٢).

(١) علي بن يحيى المخرمي: أبو الحسن جمال الدين فاضل من أهل بغداد، كان ينظم شعراً جيداً، له من الكتب «نتائج الأفكار» مختصر في رياضة النفس ومدح العقل وذم الهوى. (ت: ٦٤٦هـ).

(٢) ابن كثير/ البداية والنهاية (١٧/ ٢٩٩).



بعد سقوط بغداد حاضرة الخلافة العباسية، وعاصمة الدولة الإسلامية بيد المغول سنة (٦٥٦هـ) زالت الخلافة الإسلامية عن سماء الدنيا ولأول مرة، وظل العالم الإسلامي بلا خليفة لثلاث سنوات متوالية، من سنة (٦٥٦هـ) إلى سنة (٦٥٩هـ)، فقام رجل بالقاهرة يدعى الكوراني، يدعو لنفسه بالخلافة وإعادة النفوذ الفاطمي العبيدي، فقام السلطان ببيرس البندقداري بالقضاء عليه وعلى فتنه.

وكان السلطان الظاهر ببيرس البندقداري قد تولى السلطنة في مصر بعد السلطان سيف الدين قطز، ورأى أن يوحد المسلمين تحت راية الخلافة مرة أخرى، فقام بتعيين أحمد أبي القاسم العباسي في رجب سنة (٦٥٩هـ) خليفة على المسلمين، وبايعه بذلك مع القضاة والعلماء، وعلى رأسهم الشيخ عز الدين بن عبد السلام، وخطب له، ونقش اسمه على السكة، ولقب بالمستنصر، وخطب بالناس يوم الجمعة، وتوالى من بعده سبعة عشر خليفة عباسي بالقاهرة، ولقد كان منصب الخليفة في زمانهم ضعيفاً، وكانت السلطة الفعلية بيد سلاطين المماليك، وقد تولى الخلفاء المنصب على النحو التالي:

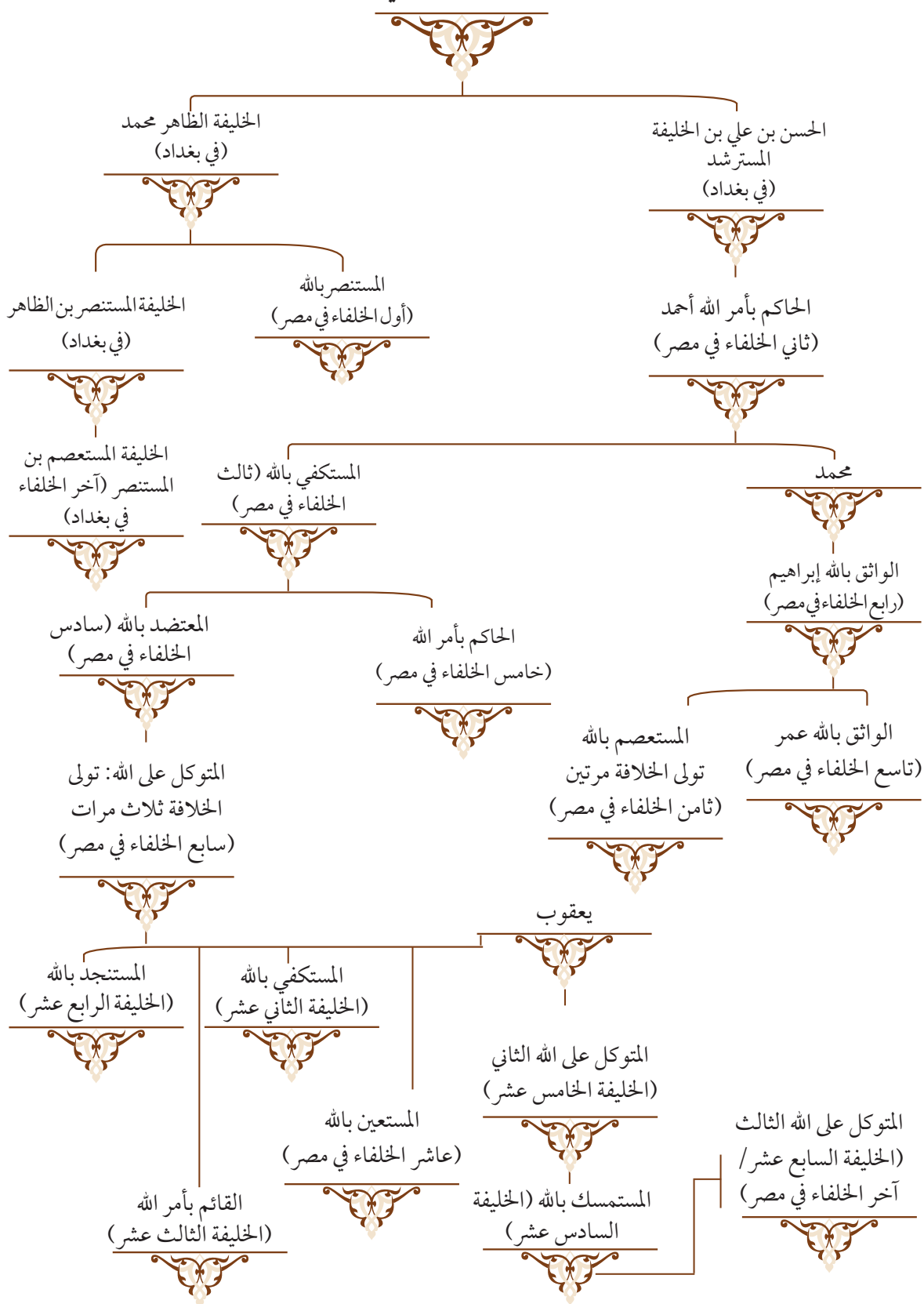


خلفاء الدولة العباسية بمصر:

العدد	الخلفاء	ولاية الخلافة	نهاية الخلافة
١	المستنصر بالله بن الظاهر	٦٥٩ هـ	٦٦٠ هـ
٢	الحاكم بأمر الله أبو العباس	٦٦١ هـ	٧٠١ هـ
٣	المستكفي بالله أبو الربيع سليمان	٧٠١ هـ	٧٣٦ هـ
٤	الواثق بالله إبراهيم بن محمد	٧٣٦ هـ	٧٤٢ هـ
٥	الحاكم بأمر الله أحمد بن المستكفي	٧٤٢ هـ	٧٥٣ هـ
٦	المعتضد بالله أبو الفتح بن المستكفي	٧٥٣ هـ	٧٦٣ هـ
٧	المتوكل على الله عبد الله بن المعتضد	٧٦٣ هـ	٧٧٨ هـ
٨	أبو يحيى زكريا المستعصم بن الواثق	٧٧٨ هـ	٧٧٨ هـ
	عودة المتوكل مرة أخرى بعد خلعه	٧٧٨ هـ	٧٨٥ هـ
٩	أبو حفص عمر الواثق الثاني	٧٨٥ هـ	٧٨٨ هـ
	عودة المستعصم بن الواثق ثم خلعه	٧٨٨ هـ	٧٩١ هـ
	وعودة المتوكل مرة ثالثة بعد خلعه	٧٩١ هـ	٨٠٨ هـ
١٠	المستعين بالله أبو الفضل بن المتوكل	٨٠٨ هـ	٨١٦ هـ
١١	أبو الفتح المعتضد الثاني بن المتوكل	٨١٦ هـ	٨٥٥ هـ
١٢	أبو الربيع سليمان المستكفي الثاني بن المتوكل	٨٥٥ هـ	٨٥٩ هـ
١٣	القائم بأمر الله أبو بكر بن المتوكل بن المعتضد	٨٥٩ هـ	٨٥٩ هـ
١٤	أبو المحاسن يوسف المستنجد بالله	٨٥٩ هـ	٨٨٤ هـ
١٥	أبو الأعز عبد العزيز المتوكل الثاني بن المستعين	٨٨٤ هـ	٩٠٣ هـ
١٦	أبو الصبر يعقوب المستمسك بن المتوكل الثاني	٩٠٣ هـ	٩٢٣ هـ
١٧	المتوكل الثالث بن المستمسك	٩٢٣ هـ	٩٢٣ هـ



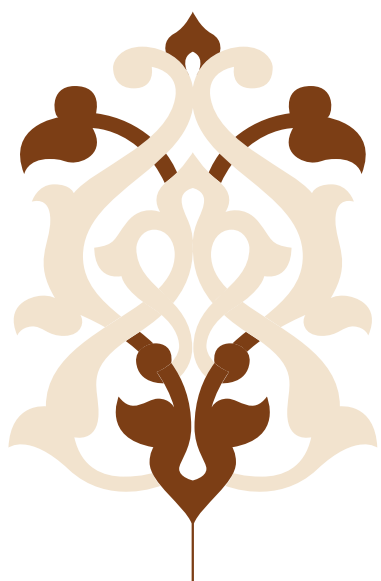
الخلفاء العباسيون في مصر





الفصل الأول

البحرین فی عهد الخِلافة العباسیة فی مصر ٦٥٩ هـ - ٩٢٣ هـ



أهمُّ الأحداثِ
وأبرزُ الوقائعِ فی عهدِ
الخِلافةِ العباسیةِ فی مصر
«١»



١. ظهور إمارة بني عامر - العصفوريين - في البحرين (٦٣٦هـ - ٧٨٥هـ)^(١):

شاء الله تعالى مع سقوط بغداد وانهيار دولة الخلافة العباسية في العراق، وضعف دولة العيونيين أن تظهر إمارة جديدة في البحرين، هي إمارة العصفوريين.

تنسب إمارة العصفوريين إلى عصفور بن راشد بن عميرة العامري، من بني عامر بن عقيل، وبنو عامر بن عقيل ينتسبون إلى عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة من العدنانين^(٢)؛ وقد استقروا قديماً بطونهم المختلفة في تلك المناطق من البحرين وفي العراق.

وقد اشتهر بنو عقيل بأنهم من أهم بطون بني عامر بارتباطهم ببلاد البحرين، وعاشوا إلى جوار جيرانهم من قبائل بكر بن وائل، وتميم، وعبد القيس، وبني سليم، منذ أواخر القرن الثالث الهجري في زمان القرامطة.

ومن المؤسف أن هؤلاء عملوا على مؤازرة القرامطة في حكم البحرين، وعند انهيار دولة القرامطة تولى العيونيون حكم المنطقة، كما أسلفنا من قبل.

ولما ضعفت دولة العيونيين، خشي أصحاب رؤوس الأموال والتجار والأعمال على أموالهم ومصالحهم التجارية من خطر بني عامر، فأسرعوا لكسب المودة مع العصفوريين بالأموال والهدايا، والتواطؤ معهم ضد العيونيين، حتى تم الاتفاق بين وجهاء وأعيان الأحساء على تسليم السلطة في البلاد إلى زعيم بني عامر عصفور بن راشد بن عميرة؛ وقاموا بالاتصال به، ووضعوا له خطة لمحاصرة الأحساء ومهاجمة الحاكم العيوني الأمير الفضل بن محمد بن مسعود، على أن يقوموا هم بدورهم لإقناع أمير العيونيين بأنهم لا طاقة لهم لمقاومة بني عامر، وأنه لا جدوى من قتالهم، وعليه أن يسترضيهم، وأن يفتح لهم أبواب الأحساء.

(١) د. عبد اللطيف ناصر الحميدان/ إمارة العصفوريين ودورها السياسي في شرق الجزيرة العربية، دورية الوثيقة (٣/ ٢٦-٧٥).

(٢) وهم من عبد القيس، ولا يستبعد أنهم انضموا إلى كثير من عشائر عقيل بن عامر، كالجبور والعصفوريين وغيرهم، وغلب على الجميع اسم بني خالد، وهو الاسم الذي يعرفون به الآن. الوثيقة (٣/ ٧٥).



وقد فعلوا ذلك مقابل أن يستولي عصفور بن راشد بن عميرة على أملاك العيونيين في الأحساء دون أن يتعرض لأموالهم وممتلكاتهم؛ وقد تم تنفيذ هذه الخطة، واستطاع عصفور بن راشد بن عميرة أن يلقي القبض على الأمير العيوني الفضل بن محمد، وقام بطرده من الأحساء، واستولى على ممتلكات العيونيين.

كان للدولة العيونية السابقة للعصفوريين علاقات قوية مع بني قيصر ملوك جزيرة (قيس) بالخليج العربي؛ وكانوا يقدمون لهم جزءاً من الواردات الزراعية من الأحساء، وذلك وفق معاهدة معقودة بين بني قيصر وبين العيونيين، وكان على عصفور بن راشد أن يتقي شر استعانة العيونيين ببني قيصر عليه، لذا قام بتقديم جزء من واردات الزراعة لبني قيصر، كما كان يفعل العيونيون، وبذلك يضمن عدم إغلاق ميناء العقير منفذه الرئيسي على الخليج العربي، ولذلك أقام عصفور بن راشد علاقات حسنة مع الملك جمشيد ملك جزيرة (قيس) من بني قيصر.

استطاع الشيخ عصفور أن يضم إليه القطيف وبقية بلدان البحرين شيئاً فشيئاً، بل امتدت سيطرته إلى اليمامة وإلى عمان، وما بقي للعيونيين آنذاك سوى جزيرة (أوال) التي كان تحت يدها ثروة عظيمة من أثمن الثروات في الخليج في تلك الأزمنة؛ وهي مغاصات اللؤلؤ.

استطاع العصفوريون التغلب بعد ذلك على العيونيين في (أوال)، وأن يضموها إليهم، وأن يتغلغلوا في أرياف بلاد البحرين وسواحلها، فامتلكوا المزارع والبساتين، وعيون المياه، والسفن البحرية، ومغصات اللؤلؤ.

ثم دارت الدوائر، وشاء الله عز وجل أن تزول دولة العصفوريين بسبب الصراع بين أمراء الأسرة العصفورية من جانب، وصراعات الأسر المحلية في المنطقة من جانب آخر، وكان على رأسها الجبوريون من بني عامر الذين تمكنوا من القضاء على إمارة العصفوريين تقريباً في سنة (٧٨٥هـ / ١٣٨٣م) بعد أن بقي العصفوريون حكاماً للمنطقة نحو قرن ونصف من الزمان.

٢. ظهور إمارة الجبوريون في البحرين^(١):

تنسب دولة الجبور إلى جبر بن حسين (حصين) بن ناصر بن عقيل من بني عامر، ويعتبر جبر هو شيخ هذه الأسرة وكبيرها، نشأت إمارة الجبور على أنقاض إمارة أبناء عموماتهم من العصفوريين كما أسلفنا، وبقيت لنحو قرن ونصف من الزمان، وقام عليها نحو عشرة من الحكام، اشتهروا بشفقتهم وعدلهم واحترامهم للعلماء، أولهم زامل بن جبر العقيلي، والذي كان ظهوره في نجد والأحساء، واستطاع أن ينازل الدواسر في واديهم، ويكسرهم (٨٥٢هـ)، كما نازل الفضول وهزمهم (٨٥٥هـ)، وغزا بلاد نجد في سنة (٨٦٦هـ)، وعاد بغنائم كثيرة.

تلاه في الحكم بعد وفاته ابنه سيف بن زامل، والذي استطاع أن يوسع نفوذه في بلاد البحرين، واشتهر بعدله، فدان له معظم أهلها، وشهدت البلاد في عهده فترة من الازدهار والرخاء.

كما استطاع أن يستولي على عمان سنة (٨٩٣هـ)، وولى عليها إماماً من الإباضية، يدفع بعض المحاصيل له في كل عام، وقد أعانه أهلها، وقاموا بنصره، فهدم جميع حصونها، وأمر عليهم عمر بن الخطاب الإباضي الذي كان أميراً عليها وعُزل عنها، فأعاده أميراً عليها.

تولى الحكم بعد وفاة سيف بن زامل أخوه أجود بن زامل الذي يعتبر أعظم حكام الجبور؛ وبلغت الدولة في عهده مبلغاً كبيراً، حيث شملت مناطق واسعة، وزادت ثروتها، وانتشر الرخاء، وانتشر العلم لاهتمام الأمير أجود بالعلم والعلماء وإكرامهم لهم، ونصر السنة لكونه وُلد وتعلم بالأحساء، وقرأ على يد علمائها، فكان له إمام بفقهِ الإمام مالك رحمه الله.

يُعد عهد أجود بن زامل من أزهى العصور لهذه الأسرة الجبورية، فقد ساد العدل، وانتشر العلم، حتى قال عنه مؤرخ المدينة السمهودي (ت: ٩١١هـ)، والذي كان على صلة قوية بالأمير: أجود رئيس أهل نجد ورأسها، سلطان البحرين والقطيف، فريد

(١) د. علي أباحسين/ الوثيقة (٣/ ٧٩-٩٨).



الوصف والنعت صلاحاً وأفضالاً، وحسن عقيدة، أبو الجود، أجود بن زامل بن جبر، أيده الله وسدده. ١٠٠هـ.

وقد جعل الله لهذا الأمير نصيباً من اسمه، فلقد اتسع ملكه في سواحل الخليج العربي، وأخذ الجزية من بعض ملوك العجم المجاورين له.

ذكر المؤرخون أن الأمير أجود رحمه الله كان يكثر الحج، وأنه حج في سنة (٩١٢هـ)، ومعه خمسة عشر ألفاً، كما حج قبلها في سنة (٨٩٣هـ)، ومعه ثلاثون ألفاً من قومه.

وتولى من بعده ابنه محمد بن أجود بعد أن تنازل له والده عن الحكم بسبب تقدم عمره، وأطلق على محمد لقب سلطان البحرين، وذلك في سنة (٩١٢هـ).

سار محمد بن أجود مسيرة أبيه وأجداده في نصرة الديانة، فلقد مدّد يد العون لشريف مكة الشريف بركات عندما استعان به لإخماد الفوضى والاضطرابات التي أثارها البدو في جدة.

فقام بقيادة جيش تعداده خمسون ألفاً للقضاء على الفوضى، وعند وصوله إلى جدة وجد أن ممالك مصر سبقوه إلى ذلك، فدخل محمد بن أجود إلى مكة، وطاف مع جيشه بالبيت معتمرين، وبعد تحلله من الإحرام رجع إلى البحرين.

تولى من بعده أخوه السلطان مقرن بن أجود بن زامل، والذي قال عنه ابن إياس المصري^(١): أمير عرب بني جبر، متملك جزيرة البحرين إلى بلاد هرمرز الأعلى،.... كان أميراً جليل القدر، معظماً مبجلاً في سعة من المال، مالكي المذهب، سيد عربان الشرق على الإطلاق.

وكان الأمير مقرن يجلب إلى مكة اللؤلؤ والمعادن الفاخرة والطيب من المسك والعنبر والعود، كما كان يجلب الأقمشة والتجارات المختلفة، وقيل إنه عندما دخل مكة والمدينة تصدق بخمسين ألف دينار.

(١) بدائع الزهور في وقائع الدهور.



وفي زمانه قام البرتغاليون بمهاجمة البحرين، فواجههم الأمير مقرن بعد أن رفض دفع عائد بعض البساتين إلى ملك هرمز طوران شاه، والذي أقامه البرتغاليون عليها بعد سيطرتهم على هرمز، مما دفع البرتغاليين لغزو البحرين، ونهب سفنها والهجوم عليها بقيادة خواجه عطار عم ملك هرمز سنة (٩١٧هـ / ١٥١١م).

قاوم الجبوريون هذا الاعتداء البرتغالي مقاومة شديدة حتى اضطر خواجه عطار والبرتغاليين للانسحاب إلى هرمز.

وبعد سنوات قليلة تقدم البرتغاليون بقيادة بيرو ابن عم البوكريك مع أسطول بحري لغزو البحرين، غير أن الأمير مقرن استطاع أن يكسرهم، فرجعوا مهزومين.

أعاد البرتغاليون الكرة بقيادة أنطونيو كوريا والذي صحبه ثلاثة آلاف مقاتل من المرتزقة الفرس والعرب، تقلهم مئتا سفينة مع أربعمئة برتغالي، تقلهم سبع سفن بمدافعها الثقيلة.

استعد الأمير مقرن مع اثني عشر ألفاً من العرب، وأربعمئة من الرماة، وثلاثمئة فارس، وعشرين جندياً تركياً يحملون البنادق، ويقومون بتدريب الجند على استخدامها.

شاء الله سبحانه وتعالى أن يُجرح مقرن في ساقه أثناء المعركة التي استخدم فيها البرتغاليون المدافع الضخمة التي دكت أسوار القلعة، والتي تحصن بها مقرن وجنوده، كما أن خيانة ملك هرمز والمرتزقة الفرس والعرب معه ساعدت في هزيمته واحتلال البرتغاليين للبحرين.

كما جرح القائد البرتغالي كوريا في ذراعه، وتوفي الأمير مقرن متأثراً بجراحه بعد أيام، وانتشر الخبر الذي رفع معنويات جيش العدو، في الوقت الذي تولى فيه قيادة الجند بعد وفاة الأمير مقرن حميد^(١) ابن أخت مقرن، الذي رأى أن الانسحاب بقواته إلى القطيف في هذه الساعات أسلم، فانسحب بقواته، وحمل معه جثة مقرن الذي وقع جثمانه في أيدي قائد مرتزقة قوات هرمز، واسمه رئيس شرف الدين، فحز رأس مقرن، وحمله معه إلى هرمز.

(١) وأما حميد ينسب إليه آل حميد من بني خالد، وسموا بآل غرير، وآل عريعر.



لقد شهد البرتغاليون ببطولات الأمير مقرن حاكم البحرين، والذي أسموه (مكرم)، ونسجوا حوله في كتبهم قصص البطولات، وجعلوه من القديسين والأبطال الخياليين، ودخلت البحرين تحت النفوذ البرتغالي في سنة (٩٢٧هـ / ١٥٢١م).

بقي البرتغاليون بالبحرين لنحو ثمانين عاماً، ثم دخلت ضمن الدولة العثمانية، تتبع الوالي العثماني في الأحساء، غير أنه عند انشغال العثمانيين بفتوحاتهم في أوروبا استغل الفرس في إيران ذلك، وامتدت أيديهم على جزر الخليج العربي - ومنها البحرين - لفترة محدودة، ثم عُمان سنة (١١٣٠هـ / ١٧١٧م)، وبقيت عمان تحت حكمها إلى سنة (١١٥٠هـ / ١٧٣٧م)، إذ عادت الأسر التابعة لفارس مرة أخرى، ثم بعض قبائل الهولة أيضاً لفترة محدودة للغاية إلى سنة (١١٧١هـ / ١٧٥٧م)، ثم استولى عليها حاكم بندر بوشهر ناصر آل مذكور، وهو من عرب المطاريش، واستمر حكمه لها حتى (١١٩٧هـ / ١٧٨٣م)، فتوالى على حكم البحرين بعد البرتغاليين لفترة قصيرة جمعٌ من الحكام غير المستقرين، وكأن الله تعالى كان يهيئ أن تعيش هذه البقعة من العالم هذه المرحلة المضطربة إيداناً بقدوم أسرة آل خليفة، والتي قامت على أمر البحرين إلى يومنا هذا، أدام الله حكمها على كتابه وسنة نبيه، وأبقاها ذخراً للإسلام والمسلمين.

بعد موت السلطان مقرن حَكَم عليُّ بن أجود الأحساء مع المناطق التي انحسر إليها حكم الجبور لمدة أشهر، ثم تولى من بعده ابن أخيه ناصر بن محمد بن أجود لثلاث سنوات، ثم تولى من بعده ثلاثة من الجبور، كانوا مجرد حكام بالاسم، وسقطت الدولة على يد آل مغامس، الذين حكموا الأحساء بعد الجبور لعشرين سنة، وانتهى حكم الجبور من الأحساء في منتصف سنة (٩٣٢هـ / ١٥٢٥م)، ثم تسلمها العثمانيون حيث ولّوا على الأحساء محمد باشا فروخ في سنة (٩٥٧هـ) والياً من قبل العثمانيين، وتولى من بعده علي بن أحمد بن لاوند البريكي سنة (١٠٥١هـ)، ثم استعاد بنو خالد سلطانهم على الأحساء على يد آل عريعر بعد عدة أحداث وصراعات متتالية.

٣. التصدي للمغول ومحاولة استرداد بغداد:

لم تكن عين جالوت هي المواجهة الوحيدة بين المماليك والمغول، فلقد واجهوا المغول في مواطن عدة، ومن ذلك عندما أعلنت الخلافة في مصر، حيث قام الخليفة المستنصر بالله بالتعاون مع السلطان بيبرس البندقداري بإعداد جيش لمواجهة المغول في بغداد؛ وخرج معه السلطان الظاهر بيبرس يشيعة، حتى وصل معه إلى دمشق، وانضم إلى هذا الجيش الأمراء والملوك في بلاد الشام، وبقية الأسرة العباسية في حلب، الذين كانوا قد بايعوا للحاكم بأمر الله العباسي خليفة عليهم، غير أنه انضوى تحت إمرة الخليفة المستنصر، وساروا جميعاً إلى العراق، فدارت معركة عنيفة بينه وبين المغول عند مدينة هيت بالعراق، قُتل فيها الخليفة المستنصر، ولم يتمكن الجيش من الدخول إلى بغداد، فرجع مَنْ نجا منهم وعلى رأسهم الحاكم بأمر الله العباسي المذكور آنفاً، وكان ذلك في الثالث من شهر المحرم سنة (٦٦٠هـ).

بويع لأحمد أبي العباس الحاكم بأمر الله بعد أن دعاه السلطان الظاهر بيبرس إلى القاهرة، فأثبت الخليفة نسبه، فبايعه السلطان والقضاة وبقية الناس في الثامن من الشهر المحرم سنة (٦٦١هـ)، وبقي العالم الإسلامي لأقل من سنة أخرى بلا خليفة.

تراجعت فكرة استعادة بغداد عن سلطان المماليك لإبقاء الخليفة في القاهرة، وجعلها حاضرة العالم الإسلامي، وتقوية مركزها بوجود الخليفة فيها الذي هو رمز لوحدة المسلمين، ولدعم الدولة المملوكية وزيادة أهميتها ومكانتها في العالم الإسلامي، وهذا الذي أصبح بعد ذلك، حيث ارتفعت مكانة المماليك في العالم الإسلامي.



٤. موقعة شقحب:

استقرت الخلافة العباسية في مصر، وأصبحت القاهرة محط أنظار المسلمين في العالم، خاصة بعد انتصار المماليك على المغول في موقعة عين جالوت، والتي لم تكن وحدها هي مواجهة المماليك للمغول، فلقد واجهوهم، وكسروا شوكتهم، ورُدوهم عن الشام في موقعة شقحب - مرج الصفر - سنة (٧٠٢هـ).

فلقد وصلت الأخبار إلى السلطان المملوكي في مصر الناصر محمد بن قلاوون بعزم المغول على غزو بلاد الشام، فاستعد السلطان، وتوجه على رأس جيش كبير إلى الشام، غير أنه تأخر في قدومه إليها، مما أزعج أهل الشام وأرهبهم؛ وزاد من رعبهم دخول المغول إلى حمص وبلعبك، وعاثوا في الأرض فساداً.

اجتمع الأمراء من أهل الشام مع العلماء بحي الميدان بدمشق، وتعاهدوا، وتحالفوا أن يواجهوا المغول، وينازلوهم، فاجتمع إليهم عسكر من مناطق الشام، وخاصة من حماة، فواجههم شيخ الإسلام ابن تيمية، وبشرهم بما تحالف عليه الأمراء في دمشق، وظل بهم حتى تعاهدوا وتحالفوا على لقاء العدو، وكان ابن تيمية يحلف لهم إنهم منصورون، فيقول له الأمراء: قل: إن شاء الله، فيقول: إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً، متأولاً قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ بَغَى عَلَيْهِ لِيَنْصُرَّهُ اللَّهُ﴾ [الحج: ٦٠].

ثم إن الجند لما علموا بأن التتار القادمون من بغداد قد أعلنوا الإسلام، سألوا ابن تيمية: كيف نقاتل هؤلاء التتار، وهم يظهرون الإسلام؟ فهم ليسوا بغاة، إذ إنهم لم يكونوا في طاعة الإمام ثم خرجوا عليه.

فرد عليهم شيخ الإسلام قائلاً: هؤلاء من جنس الخوارج الذين خرجوا على علي وعلى معاوية رضي الله عنهما، ورأوا أنهم أحق بالأمر منهما، وهؤلاء يزعمون أنهم أحق بالإمامة وإقامة الشريعة من المسلمين، وهم متلبسون بما هو أعظم من الذنوب والمعاصي بأضعاف مضاعفة^(١).

(١) يقصد الانحراف العقدي عند هؤلاء التتار.



ففطن العلماء والأمرء والناس لذلك، خاصة بعد أن قال لهم شيخ الإسلام: إذا رأيتموني في ذلك الجانب - يعني مع التتار - وعلى رأسي مصحف، فاقتلوني، فتشجع الناس لقتالهم، وقويت قلوبهم ونياتهم^(١).

وخرجت العساكر الشامية من دمشق في الرابع والعشرين من شعبان إلى منطقة الكسوة؛ ليجنبوا دمشق والناس مخاطر الحرب، والتقت هناك مع الجيوش المصرية التي قدمت، وعلى رأسها الخليفة المستكفي بالله والسلطان الناصر محمد بن قلاوون.

وكان الناس داخل دمشق في هلع، ولا يدرون ما الذي يجري هناك؟ حتى اضطربوا اضطراباً كبيراً، وأصبحت دمشق بلا أمرء ولا عسكر، فأرسل إليهم السلطان الناصر بن قلاوون أحد أمرء دمشق، ليبشر الناس، ويطمئنهم بوصول الخليفة والسلطان والعساكر، وذلك ليلة ثبوت الرؤية لشهر رمضان المعظم، وقد أعلن القاضي تقي الدين الحنبلي ذلك للناس، فاستبشروا خيراً، وعلقوا القناديل في الطرقات، وعلى أبواب البيوت، وصلّوا التراويح في المساجد، وارتفعت الأكف بالدعاء لله تعالى لنصرة دينه وأوليائه.

وفي يوم السبت الثاني من رمضان التقت الجيوش بعد الظهر، وقد أفتاهم شيخ الإسلام والعلماء بوجوب الإفطار للتقوي على قتال العدو، ودرات رحى معركة عظيمة، ثبت فيها المسلمون تحت راية السلطان، واستطاعوا أن يحققوا النصر على المغول الذين فرّوا لأعالي التلال، والحمد لله رب العالمين.

ودخل شيخ الإسلام ابن تيمية مع أصحابه والأمرء، وفرح الناس فرحاً عظيماً، ثم في اليوم التالي دخل السلطان مع الخليفة أبي الربيع سليمان المستكفي بالله، فزينت البلد، وهنأ الناس بعضهم بعضاً، وسجدوا شكراً لله تعالى على ما منّ به عليهم من النصر والتمكين مع قدوم شهر رمضان.

(١) ابن كثير / البداية والنهاية (١٨ / ٢٢).



٥. ظهور سلطنة العثمانيين (٦٩٩هـ - ١٣٤٢هـ):

تُنسب الدولة العثمانية لعثمان بن أرطغرل بن سليمان، وكان جده سليمان زعيماً لقبيلة قاي، الذين قدموا من وسط آسيا، واستقروا في الأناضول^(١)، وذلك بسبب الضغط المغولي على وسط آسيا أو بلاد الترك، فخرج سليمان جد عثمان بقبيلته قاي، واتجه إلى الغرب، حتى وصل إلى منطقة يقال لها خلاط قرب حلب، واستقر هناك بقبيلته إلى أن هدا الزحف المغولي، فأراد العودة بالقبيلة إلى موطنه الأصلي، غير أنه في أول طريق العودة غرق أثناء عبوره نهر الفرات، ودفن هناك وقبره مازال شاهداً على ذلك التاريخ^(٢). فاختلف أبناؤه من بعده في أن يستمروا في العودة إلى موطنهم، أو أن يتوجهوا إلى الشمال، حتى استقر الأمر بهم أن تولى قيادة القبيلة أرطغرل بن سليمان، وتوجه إلى الشمال نحو الأناضول في عدد كبير من القبيلة، وأما بقية القبيلة مع اثنين من إخوانه فرغبوا في العودة إلى موطنهم الأصلي.

وأثناء سير أرطغرل بقبيلته نحو الشمال شاهد جيشين يقتتلان: أحدهما من المسلمين السلاجقة، والجيش الآخر من المغول، الذين كادوا أن ينتصروا على جيش السلاجقة، لولا أن الله تعالى قيض أرطغرل الذي اندفع بعاطفته العرقية التركية ليقف إلى جوار السلاجقة الأتراك الذين استطاعوا تحقيق النصر بتوفيق الله، ثم بفضل معاونة أرطغرل له، مما دفع قائد جيش السلاجقة علاء الدين السلجوقي أن يمنح أرطغرل وقبيلته أرضاً في شمال الأناضول متاخمة للدولة البيزنطية، وجعله مقدمة جيشه في حروبه مع خصومه، وكلما تحقق نصر، كان علاء الدين يمنح أرطغرل أرضاً جديدة؛ حتى اتسعت هذه الأرض في منطقة يني شهر.

(١) يقصد بالأناضول أو آسيا الصغرى جمهورية تركيا الحالية، وكانت الدولة الرومانية الشرقية البيزنطية هي المسيطرة عليها حتى استطاع السلطان السلجوقي ألب أرسلان أن ينتصر على الروم انتصاراً حاسماً في موقعة ملاذكرد - منكرت - سنة (٤٣٦هـ) كما أسلفنا، وقد أتاح هذا النصر للسلاجقة أن يؤسسوا إمارات كثيرة في الأناضول، وفتح الكثير من أراضيها خاصة في عهد السلطان ملك شاه بن أرسلان.

وقد وقعت معظم هذه الإمارات بيد المغول عند هجومهم على المنطقة، غير أنهم بعد هزيمتهم في عين جالوت وخروجهم من بلاد الشام انكسروا في الأناضول على يد السلطان الظاهر بيبرس الذي سار إليهم في سنة (٦٧٥هـ)، فأدبهم هم ومن حالهم من السلاجقة والكرج - جورجيا - في معركة سميت في التاريخ باسم معركة البستان، وقد استطاع بيبرس أن يحقق نصراً حاسماً عليهم واستطاع أن يفتح عاصمتهم قيصريه، وتحولت الأناضول بعد ذلك إلى عدة إمارات إسلامية متناحرة، كاد أن يصيبها ما أصاب ملوك الطوائف في الأندلس، فقيض الله تعالى العثمانيين الذين استطاعوا أن يوحّدوا الأناضول تحت رايتهم، وينشئوا دولتهم العثمانية.

(٢) يسمى قبر سليمان بترك مزارى، أي مزار الترك، وتقوم الدولة التركية إلى الآن عليه من ناحية النفقة والترميمات والخدمات ووضع حرس خاص من الجيش التركي على قبره ومسجده. أحمد آق كوندز / الدولة العثمانية المجهولة (ص: ٥١).



ولما توفي أرطغرل، قام بأمر القبيلة ابنه عثمان، الذي عمل على توسعة إمارته الصغيرة في منطقة أسكي شهر بالأناضول، مستغلاً الفوضى والإهمال المسيطرين على الأراضي البيزنطية بالأناضول.

ولقد قام عثمان بأمر إمارته أحسن قيام، واتخذ لها الراية التي مازالت شاخحة، وأنشأ لها نظاماً إدارياً، استطاع به حكم الدولة، مما جعلها تتحول من نظام القبيلة المترحلة إلى الدولة المستقرة، مما ساهم في إبرازها بين الإمارات الأخرى في الأناضول، وتطورها تطوراً سريعاً، فكانت هي اللبنة الأولى وحجر الأساس للخلافة العثمانية التي كانت بعد ذلك.

كان نظام الحكم الذي سار عليه العثمانيون وفق شريعة الإسلام، ولقد أظهروا حماسة واضحة في تطبيق نظم الإسلام، وذلك بسبب عاطفتهم الدينية المتأججة، والتي أكسبتهم روحاً عسكرية مجاهدة في سبيل الله، دفعتهم لإنشاء جيش دائم للجهاد في سبيل الله تعالى في عهد السلطان أورخان.

ولقد قام العثمانيون من وقت لآخر بغارات على ما وراء حدودهم في البلاد النصرانية، بقصد فتحها وإخراج أهلها من الظلمات إلى النور، وتحقيقاً لجهاد الطلب، لرفع رايات الإسلام خفاقة عالية على ربوع المعمورة.

وكان العثمانيون يأخذون الصغار من الذكور الذين وقعوا في السبي، ويضعونهم في مدارس خاصة تهتم بهم وبنشأتهم، ويدرسون خلالها الديانة الإسلامية والفنون العسكرية، حتى غدا هؤلاء الأطفال جيشاً عثمانياً قوياً، ولاؤه لله ولرسوله ثم للدولة العثمانية، عرف باسم جيش الإنكشارية^(١).

ولقد اتسع العثمانيون شيئاً فشيئاً غرباً، حتى استطاعوا أن يتغلغلوا في شبه جزيرة البلقان^(٢)، وأن يتموا فتح الجزيرة كاملة.

(١) الإنكشارية: فيالق عسكرية تكونت من أبناء رعايا الدولة العثمانية الذين تم جمعهم من الولايات الأوروبية وأعمارهم بين السادسة والخامسة عشر، وقد قدمت لقرنين من الزمان خدمات جليلة للدولة، ثم بدأ نظامها في التضعف والفساد، وأصبحت عبأ على الدولة ورأس المشاكل، حتى قضى عليهم السلطان محمود الثاني. د. سهيل صابان/ المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية.

(٢) البلقان: شبه جزيرة البلقان: تقع شمال البحر المتوسط شرق إيطاليا وتضم عدة دول منها ألبانيا والبوسنة والهرسك ومقدونيا والمجر واليونان وبلغاريا وصربيا والجبل الأسود وسلوفاكيا وكرواتيا.



كما توسَّع العثمانيون في الأناضول، حتى بلغت حدودهم إلى جبال طوروس، وأصبحوا متاخمين لدولة المماليك في الشام.

أقلقت هذه الفتوحات الدولة البيزنطية في القسطنطينية، والتي أصبحت تحسُّ بخطر العثمانيين، غير أنها لم تستطع أن توقف الفتوحات المتقدمة والتي سارت بسرعة نحوهم حتى عهد السلطان الرابع «بايزيد الأول» الملقب بالصاعقة^(١).

ولقد توالى على السلطنة العثمانية، في عهد الخلافة العباسية في مصر، قبل أن تتحول الخلافة إلى العثمانيين تسعة سلاطين من سنة (٦٩٩هـ) إلى (٩٢٣هـ)، وقد أصبح تاسعهم وهو سليم الأول أول خلفاء المسلمين من العثمانيين؛ وكان سلاطين الدولة العثمانية يحملون لقب الغازي، أي: المجاهد في سبيل الله، وأول من اتخذ السلطان عثمان، وهم على الترتيب التالي:

(١) لقب بايزيد الأول بالصاعقة لحمله على أعدائه في معارك القتال بطريقة خاطفة وسريعة. أحمد آق كوندز/ الدولة العثمانية المجهولة (ص: ٩٠).

سلاطين الدولة العثمانية «عهد السلطنة»

السلطان عثمان غازي



السلطان أورخان غازي



السلطان مراد خان الأول



السلطان يلدرم بايزيد خان الأول



السلطان جلبي محمد خان



السلطان مراد خان الثاني



السلطان محمد الفاتح



السلطان بايزيد خان الثاني





١. السلطان الغازي عثمان الأول: (٦٩٩هـ - ٧٢٦هـ)^(١):

استطاع أن يؤسس الإمارة على هيئة دولة، واتخذ لها الراية الشاخحة التي لم تنكس بعد ذلك، إلى الآن، وهي علم تركيا الحالي، كما اتخذ لها عاصمة هي مدينة يني شهر، أي: المدينة الجديدة، وتقع إلى الشمال الشرقي من مدينة بورصة، ودعا من بقي من أمراء الروم في الأناضول إلى الإسلام، أو الجزية، أو الحرب؛ واستطاع بذلك أن يخضع هذه المناطق للإسلام، كما قام بفتح مدينة بورصة سنة (٧١٧هـ) بعد أن أمّن أهلها، وأحسن إليهم، مما دفع حاكمها أفرينوس أن يعلن الإسلام.

وظل عثمان مجاهداً في سبيل الله، راعياً لرعيته، حتى توفي رحمه الله في سنة (٧٢٦هـ)، ودفن بمدينة بورصة.

٢. السلطان الغازي أورخان الأول: (٧٢٦هـ - ٧٦١هـ):

تولى أورخان الحكم بعد أبيه بعهد من عثمان الذي أوصى له، على الرغم من أنه الابن الثاني له، وذلك لما اتصف به أورخان من صفات الشجاعة وعلو الهمة، ولم يخالفه في ذلك أحد في اختياره.

نشأ أورخان نشأة إسلامية مع إخوته، وتلقى خلالها تعاليم الإسلام، كما تلقى فنون القتال وحمل السلاح والأساليب العسكرية الرفيعة؛ ومما اتصف به السباحة وحسن الخلق والحلم والرقّة في تعامله مع خصومه، وقد تولى الحكم، وعمره خمس وأربعون سنة.

عمل أورخان بسيرة أبيه في الفتوحات وتوطيد الحكم، وكان شديداً على الكفار، وفاق والده في الجهاد، وفتح البلاد والقلاع والحصون المنيعة، واتخذ من بورصة عاصمة للسلطنة، وأوكل إلى أخيه الأكبر علاء الدين الأمور الداخلية في السلطنة، كما قام بصك أول عملة عثمانية من الذهب والفضة، كما سن نظاماً للجيش وجعله جيشاً

(١) تراجع تراجم السلاطين العثمانيين في المراجع التالية: ابن العماد / «شذرات الذهب في أخبار من ذهب» - محمد فريد بك / «الدولة العلية العثمانية» - يلماز أوزتونا / «تاريخ الدولة العثمانية» - عبد العزيز الشناوي / «الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها» - أحمد آق كوندز / «الدولة العثمانية المجهولة» - «ألبوم السلاطين العثمانيين» / دار كاكنوس - عبد القادر ده ده أوغلو / «ألبوم العثمانيين» - راشد كندو غدو / «السلاطين العثمانيون».

مستقراً، حتى بلغ عدد الجيش النظامي تسعين ألفاً، منهم أربعون ألفاً خيالة، وخمسون ألفاً مشاة.

كما اتخذ وزيراً له، هو خير الدين باشا، والذي أشار عليه بإنشاء جيش الإنكشارية، فأنشئ لأول مرة جيش الإنكشارية، الذي كان اسمه يني تشري - الجيش الجديد - من أبناء الأطفال المشردين، والذين فقدوا آباءهم في الحروب مع الروم، أو الذين وقعوا في السبي، حفاظاً عليهم من الانحراف والضياع، وأخذاً بيدهم إلى طريق الله تعالى وإلى الإسلام، وأيضاً للاستفادة منهم لحماية الإسلام وأهله، كما ساعد هذا الجيش في حماية الدولة، وساهم مساهمة كبيرة في الفتوحات الإسلامية في أوروبا^(١).

ولقد استطاع أورخان تحقيق فتوحاتٍ في أزمير وقره سي داخل الأناضول، كما توجه أورخان إلى الشاطئ الأوروبي، وفتح الأراضي غرب القسطنطينية، مستغلاً ضعف الدولة البيزنطية، وقد استطاع التحكم في مضيق الدردنيل، فكان ذلك أول الجهاد في شرق أوروبا، وقد استطاع توسيع رقعة الدولة من (١٦) ألف كيلو متر مربع إلى (٩٥) ألف كيلو متر مربع.

ولم يشغل الجهاد أورخان عن المشاريع العمرانية الهامة في البلاد، فلقد قام بفتح المدارس، وإنشاء المساجد، واهتم بالعلم والعلماء وأجزل العطايا لهم، ووضع الأنظمة الثابتة للأمن الداخلي.

ظل أورخان مجاهداً إلى أن توفي رحمه الله في سنة (٧٦٠هـ / ١٣٦٠م)، ودفن بمدينة بورصة، إلى جوار والده السلطان عثمان رحمه الله، بعد أن بقي في الحكم خمساً وثلاثين سنة؛ وقد توفي عن عمر يناهز الثمانين سنة.

(١) استطاع جيش الإنكشارية التدخل في شؤون الحكم بعد ذلك في عهد الضعفاء من السلاطين العثمانيين، مما أدى إلى الصراع بينهم وبين قادة الدولة في أحيان كثيرة حتى ألغيت الإنكشارية (١٢٤٢هـ)، في عهد الخليفة محمود الثاني كما أسلفنا.



٣. السلطان الغازي مراد الأول: (٧٦١هـ - ٧٩٣هـ):

نشأ مراد الأول نشأة إسلامية طيبة، تلقى خلالها تعليماً رفيع المستوى، كما تلقى فنون الإدارة والحكم، ولّاه أبوه قائداً للجيش العثماني المتجه إلى أوروبا، كما عقد له ولاية العهد قبل وفاته، فتولى الحكم، وهو في سن السادسة والثلاثين من عمره.

تولى مراد في وقت كانت فيه اضطرابات بالأناضول، فكان أول أعماله إخضاع إمارة القرمات^(١) بقيادة علاء الدين بعد أن انتصر عليهم، واستطاع دخول أنقرة عاصمة القرمات، كما ضُمَّت في عهده مدينة كوتاهية، واستطاع فتح مدينة أدرنة في سنة (٧٦٢هـ) المتاخمة للقسطنطينية في أوروبا، واتخذها عاصمة للدولة، فبقيت كذلك إلى فتح القسطنطينية سنة (٨٥٧هـ).

انطلق مراد الأول إلى فتح البلقان، فاستطاع أن يفتح جنوب بلغاريا، وأحاط بالقسطنطينية من كل جهة، مما دفع الإمبراطور البيزنطي إلى الذهاب إلى بابا النصاري، برغم اختلاف المذهب، فالإمبراطور أرثوذكسي والبابا كاثوليكي، لم يمنع ذلك الإمبراطور أن يركع بين يدي البابا، ويقبل يديه ورجليه، ليستحثه، ويستنجد به لحشد جيوش أوروبا الصليبية، لمواجهة المسلمين العثمانيين، ووقف المد الإسلامي في أوروبا.

دعا بابا النصاري أربانوس الخامس أمراء أوروبا وشعوبها إلى توحيد صفوفهم، والتوجه في حملة صليبية نحو العثمانيين للقضاء عليهم، فقام ملك المجر وصربيا والبوسنة وأمير رومانيا بتحالف واتحاد لحرب الدولة العثمانية، وتوجهوا نحو أدرنة في جيش، قوامه ستون ألف جندي^(٢).

ولقد لقي هذا الجيش الصليبي الذي هاجم أدرنة هزيمة منكرة في موقعة صرب سديفي، فولوا الأدبار، مما اضطر ملك الصرب والبلغار إلى دفع جزية سنوية للسلطان مراد، الذي تزوج ابنة أمير البلغار.

ووضع العثمانيون بعدها بلغاريا وجزءاً من صربيا تحت حمايتهم، وذلك في سنة (٧٦٤هـ)،

(١) تقع بلاد القرمات ما بين أنقرة شمالاً، والبحر الأبيض المتوسط جنوباً، وقصرية شرقاً، وقونية غرباً، وكانت عاصمتها قونية.

(٢) كانت هذه بداية ظهور المسألة الشرقية كما سيأتي.



ووقعوا أول اتفاقية دولية مع جمهورية دبروفنيك الإيطالية، وأحرزوا نصراً مؤزراً على البلغار والصرب والأفلاق - رومانيا - الذين تجمعوا في تحالف ضد العثمانيين في معركة شيرمان؛ كما سارعت إمارة راجوزة على البحر الأدرياتيكي لإبرام الصلح مع العثمانيين، ودفعت بموجبه جزية سنوية.

خضعت مدن البلقان للسلطنة العثمانية، ثم استغل الصرب انشغال السلطان العثماني في حربه مع أمير القرماني في الأناضول؛ فباغتوا الجيش العثماني بهجوم، انتصروا فيه في معركة بلونشيك، مما دفعهم أن يغتروا بأنفسهم طانين أنهم يستطيعون تحقيق النصر مرة أخرى، فأعدّ ملك الصرب لازار جيشاً جراراً، قوامه مئة وخمسون ألفاً، وتقدم بهم لملاقاة العثمانيين في قوصوا - كوسوفا - التي سار إليها السلطان مراد ليلاقى الصرب وملكهم تأديباً لهم على معركة بلونشيك.

• معركة قوصوا - كوسوفا - (٧٩٣هـ / ١٣٨٩م):

دارت رحى معركة، يشيب لها الولدان بين العثمانيين والصرب، تناثرت فيها الرؤوس، وزهقت النفوس، فلا تسمع إلا صوت الأجساد، ترتطم بالأرض ساقطة من فوق الخيل، وصبر الجيش العثماني صبراً جميلاً، حتى اضطر صهر الملك لازار أن يفر، ومعه عشرة آلاف فارس، والتحق بجيش المسلمين، وجرح لازار ووقع أسيراً في أيدي العثمانيين، الذين قتلوه جزاء ما فعل في يوم بلونشيك، فتحقق للعثمانيين نصر عزيز مؤزر، وكان يوماً من الأيام العظيمة في حياة المسلمين.

ووصلت الأخبار إلى المشرق والمغرب بانتصار المسلمين الذين أزالوا استقلال الصرب؛ ومكنت هذه الحرب للعثمانيين، حيث كان يوماً مشهوداً، فتح الطريق لفتوحات أوروبا بعد ذلك، مما أبقى البلقان في أيدي العثمانيين لأكثر من خمسمئة سنة، وتعتبر معركة قوصوا أول معركة استخدم فيها العثمانيون المدافع الثقيلة بعد فتح القسطنطينية، لذا حُسمت المعركة في ثماني ساعات.

وشاء الله تعالى أن يلقي الفارس ربه، وهو في ساحة القتال والجهاد، فلقد سار يتفقد القتلى ماشياً على قدميه، فإذا بجندي صربي - كان بين القتلى - لم يمت بعد، واسمه



ميلوش أوبليش يطعن السلطان بخنجر طعنة، كانت قاضية، وسقط القاتل قتيلاً تحت سيوف الجيش العثماني، الذي تقدم بسرعة، لكنه بعد فوات الأوان، حيث قُتل السلطان، وأسلم روحه إلى ربه في الخامس عشر من شعبان، وفي ساحة المعركة سنة (٧٩١هـ) عن عمر ناهز الخامسة والستين، وكان الله استجاب دعاء السلطان مراد الأول ليلة المعركة، حيث نقل عنه أنه قال: اللهم إني أقسم بعزتك وجلالك إنني لا أبتغي من جهادي هذه الدنيا الفانية، وإنما أبتغي رضاك، ولا شيء غير رضاك، اللهم قد شرفتنني بأن هديتنني إلى الجهاد في سبيلك، فزديني تشريفاً بالموت في سبيلك.

وقد بلغت مدة حكمه نحو ثلاثين سنة، خاض خلالها سبعاً وثلاثين معركة، انتصر فيها جميعاً، ليزيد من رقعة الدولة مساحة أعظم بكثير من التي استلمها من أبيه، حيث بلغت خمس مئة ألف كيلو متر مربع، ودُفنت أحشاؤه في كوسوفا، بينما نقلوا جسده إلى بورصة، ليُدفنَ إلى جوار آبائه هناك، قريباً من المسجد الذي بناه، وأطلق عليه لقبه خداونديكار، أي: مراد الله.

رحم الله السلطان مراد الأول رحمة واسعة، وغفر له، وأفسح له في قبره، وأفاض عليه من رحماته، وتقبله عنده شهيداً.

٤. السلطان الغازي بايزيد خان الأول الملقب بالصاعقة: (٧٩٣هـ - ٨٠٥هـ):

نشأ السلطان بايزيد نشأةً إسلامية، تتلمذ خلالها على يد المشاهير من علماء عصره، كما تعلم فنون القتال وقيادة الجيش، وتنقل في المناصب في حياة أبيه، فلقد عُين والياً على مدينة كوتاهية، كما شارك في العديد من المعارك والحروب، وكان قائداً في معركة قوصوا إلى جوار أبيه، كما أصبح ولياً للعهد بناءً على وصية أبيه.

قال ابن العماد^(١): كان السلطان أبو يزيد (بايزيد) من خير ملوك الأرض، وكان مُهاباً، يحب العلم والعلماء، ويكرم أهل القرآن، ويجلس في مرايح من الأرض، وأمامه العامة، ليتلقى منهم مظالمهم التي كان يقضيها في الحال، وكان الأمن في بلاده فاشياً للغاية، وكان يشترط على كل من يخدمه ألا يكذبَ وألا يخون.

(١) «شذرات الذهب» (٧٥/٩).



ابتدأ أول أعماله بمتابعة الحرب ضد الصرب، وقام بتولية الأمير إسطفان بن لازار حاكماً على الصرب، كما تزوج أخته أوليفيرا، وترك له حرية الحكم بقوانينهم في صربيا، بشرط دفع الجزية وانضمام عدد من جنودهم إلى الجيش العثماني وقت الحرب؛ ولقد كانت هذه مغامرة من بايزيد مع الصرب، لعلمه أن الصرب لا يهدؤون ولا يسكن لهم بال إلا بالاستقلال في الحكم، فأراد بذلك ألا يكونوا شغلاً شاغلاً له، خاصة أن أمامه فتوحات أخرى في آسيا وفي أوروبا.

تقدم بايزيد إلى آسيا ليضم إليه مدينة ألاسهر، وهي المعروفة باسم فلادلفيا، وتقع في غرب الأناضول جهة الشرق من مدينة أزمير، وهي آخر المدن التي بقيت في أيدي الروم في آسيا، فاستطاع أن يضمها إليه، وبقيت بعض المدن التابعة لها تحت نفوذ أمرائها، وذلك بمراد بايزيد، مثل: أيدين وصاروخان وكرميان ومنيتشا، والتي تعتبر فتحت صلحاً.

وبعد هذه الفتوحات عاد السلطان إلى أوروبا ليواجه عمانويل ملك الروم، وحاصره في القسطنطينية، وضيق عليه الحصار، ثم ترك حولها جيشاً جراراً سنة (٧٩٤هـ)، وتوجه السلطان بعد ذلك بنفسه ليواجه علاء الدين أمير القرمات، الذي لم يف بعهدته مع العثمانيين، ونقض عهدهم، وهاجم مدينة أنقرة، فلقية السلطان بجيشه، وهزمه شر هزيمة، وأسر هو وولديه محمد وعلي، ومحا من الوجود - بقدر الله - إمارة القرمات، التي أصبحت ولاية عثمانية.

ثم توجه السلطان إلى إمارات سيواس وطوقات في الشمال الشرقي من الأناضول ليضمها إلى الدولة العثمانية، فلم يبق من إمارات السلاجقة إلا إمارة قسطنطيني - أسفينديار - وأميرها أيضاً اسمه بايزيد، والذي فرّ إليه أبناء أمراء المدن الرومية التي فتحها السلطان بايزيد.

هاجم السلطان بايزيد إمارة قسطنطيني، واستطاع أن يضمها إليه، وفرّ الأمير إلى تيمورلنك زعيم التتار القادم إلى هناك.

أثارت انتصارات السلطان بايزيد حفيظة ملوك أوروبا، خاصة ملك المجر الذي استنجد بالبابوية وبملوك أوروبا، فأعلن البابا حرباً صليبية، ودعا إليها الملوك والأمراء، فتقدموا في جيش ضخم، فواجههم السلطان بايزيد بجيشه عند مدينة نيكوبلي شمال بلغاريا، في



ذي القعدة سنة (٧٩٨هـ)، واستطاع أن يحقق نصراً كبيراً على الجيوش الصليبية، كما استطاع أن يعقد صلحاً مع عمانويل الإمبراطور البيزنطي، تمّ بموجبه رفع الحصار عن القسطنطينية مقابل عشرة آلاف دينار من الذهب، والسماح للمسلمين ببناء مسجد في القسطنطينية؛ وهو غير المسجد الذي بني في زمان السلاجقة.

- تيمورلنك والتتار من جديد^(١):

عمل تيمورلنك في أول حياته باللصوصية، وكانت سبباً في إصابته، حتى أصيب بالعرج، وعندما تعافى ظل يمارس اللصوصية وقطع الطريق، ومعه أربعون رجلاً، ثم تغير مجرى حياته، عندما استعان به أحد الأمراء، ليكون مساعداً لابنه في إحدى الحملات على تركستان.

فبدأ الطريق نحو الحكم، حيث انضم إلى أمير آخر، هو السلطان حسين، وترقى عنده، حتى عظم شأنه، وصار من جملة الأمراء، وتزوج بأخت السلطان حسين، ثم انتقل بعد ذلك إلى خراسان، ومنها إلى قندهار، واستطاع أن يجمع الأنصار والأتباع هو والسلطان حسين، حتى تمكن من السيطرة على بلاد ما وراء النهر.

كان تيمورلنك رجلاً لا عاطفة له، فلقد وقع الخلاف بينه وبين صهره السلطان حسين، فقام تيمورلنك بقتل زوجته أخت السلطان انتقاماً من السلطان، ثم انتصر على السلطان، ودخل سمرقند، وأعلن نفسه حاكماً عليها، وادعى أنه من نسل جهتاي بن جنكيز خان، ويريد إعادة مجد دولة المغول.

كوّن تيمورلنك مجلس شورى من كبار الأمراء والعلماء، كما نظم جيشاً ضخماً، معظمه من المغول، واستطاع أن يستولي به على خوارزم وخراسان وسجستان وأفغانستان ومزندان وآذربيجان وفارس وأصفهان، والتي بلغ عدد القتلى فيها سبعين ألفاً، أقام تيمورلنك من جماجمهم عدة مآذن.

كما استطاع التوجه إلى العراق، فسيطر على واسط، وخرّبها، والبصرة وبغداد والكوفة، وواصل سيره بتخريب البلاد، فخرّب ديار بكر وأرمينيا والكرج (جورجيا)، وحاول

(١) ابن العاد/ «شذرات الذهب في أخبار من ذهب» (٩/ ٩٦-١٠١).



مهاجمة الشام سنة (٧٩٨هـ)، فلما علم بخروج السلطان المملوكي الظاهر برقوق مع جيش عرمرم، رجع من حيث أتى، ولم يعد للهجوم مرة أخرى على الشام، إلا في حملته التي سميت بحملة السنوات السبع.

استطاع تيمورلنك السيطرة على الهند، واحتل دلهي عاصمتها، وقام بتدميرها وتخريبها، وجمع غنائم وفيرة وعظيمة، حتى أنه حملها إلى سمرقند على سبعين فيلاً، تحمل الرخام والأحجار الكريمة، ليبني بها معبداً ومسجداً للرافضة في سمرقند.

ولما علم تيمورلنك بموت الملك الظاهر برقوق المملوكي، وموت أمير سيواس في الأناضول، بدأ يعدُّ العدة للتوجه للسيطرة على مملكتيهما، فقام بالخروج في حملة كبيرة، سميت بحملة السنوات السبع، من سنة (٨٠٠هـ) إلى سنة (٨٠٧هـ)، وكان هدفه السيطرة على مناطق الأناضول التابعة للعثمانيين، خاصة أن السلطان بايزيد رفض تسليم أمير بغداد أحمد بن أويس الجلائري، الذي فرَّ إليه مستعيناً به على تيمورلنك.

قام تيمورلنك باكتساح المناطق التي مرَّ بها، وكلَّها لأهل السنة في قرّة باغ، فقتل بوحشية وسبى، وكما توجه إلى تفليس عاصمة الكرج (جورجيا) ونهبها، ثم إلى سيواس، وأسر مقاتليها الثلاثة آلاف، ودفنهم أحياء في سرداب تحت الأرض، وعمل في ذبح أهل البلد وتخريبها، حتى محارسوها.

ثم توجه إلى عنتاب، ثم إلى حلب التي سقطت في يده، وأعمل في أهلها القتل بوحشية، حتى بلغ عدد القتلى نحو عشرين ألفاً، وعدد الأسرى أكثر من ثلاثمئة ألف، وقام بتخريب المدينة، وحرق أجزاء منها، ونهب ما فيها من خيرات.

ثم توجه إلى حمّاه والسلمية، ففعل بهما ما فعل بحلب، ثم توجه إلى دمشق التي حاول أهلها الدفاع عنها، لكنهم اضطروا إلى التسليم في النهاية، فدخلها تيمورلنك، فأحرقها، وأشعل النار في بعض مناطقها ثلاثة أيام، وأقام بها ثمانين يوماً، وتوجه إلى طرابلس وبعلبك، فدمرها، وعند عودته مرّ بحلب مرة أخرى، فهدم أبراجها وقلعتها، وأحرقها مرة ثانية، كما دمر ماردين، ولم تسلم منه إلا مدينة حمص.

ثم اتجه إلى بغداد، ودمر أسوارها، وأحرق أبنيتها، وأوقع القتل بعشرات الآلاف من



أهلها، حتى بلغ عدد القتلى نحو مئة ألف إنسان، ثم توجه مرة أخرى إلى الأناضول ودخل سيواس مرة ثانية، وواجه الجيش العثماني في الأناضول واستطاع أن يحقق النصر. ثم عاد إلى عاصمته سمرقند، وأعدَّ لغزو الصين في أجواء شديدة البرودة، واستمر في حملته، مما سبب معاناة لجيشه ولنفسه من قسوة البرد والثلج، فأصيب بالحمى، وقد طلب من أطبائه أن يُعدُّوا له نوعاً من الدواء، أصله من الخمر ليقاوم به البرد، فشربه، فأذاب الله كبده، وهلك في شعبان سنة (٨٠٧هـ) بعد أن أسس دولة من دلهي إلى دمشق، قامت على أجساد وأشلاء ودماء المسلمين من أهل السنة والجماعة، ممن ادعى زوراً أنه ينتسب إلى ديانته، ونقل جثمانه إلى سمرقند، وقبر هناك في ضريحه المعروف بكورأمير، أي: مقبرة الأمير، عليه من الله ما يستحقه.

• في مواجهة تيمورلنك: «وكان أمر الله قدراً مقدوراً».

– معركة أنقرة:

التجأ الأمير أحمد بن أويس الجلائري أمير بغداد إلى السلطان بايزيد الأول، فأرسل تيمورلنك في طلبه، فرفض بايزيد ذلك، واتخذها ذريعة لمحاربة العثمانيين، فدخل مدينة سيواس، وقبض على أميرها أرطغرل ابن السلطان بايزيد وقتله، فتوجه إليه السلطان بايزيد في جيش تعداده مئة وخمسة وعشرون ألف مقاتل، ليواجه بهم ثمانمئة ألف مقاتل، انضم إليهم الأمراء الفارون من بايزيد في الأناضول.

التقى الجيشان بسهل أنقرة في (١٩) ذي الحجة سنة (٨٠٤هـ)، واستمرت المعركة طيلة ذلك اليوم، وبرغم شجاعة السلطان بايزيد إلا أنه كانت النتيجة على غير ما يشتهي، حيث فر إلى تيمورلنك من جيشه بعض الفرق، التي كانت تابعة للأمراء الفارين من الأناضول، وانضمت إلى جيش تيمورلنك، ووقع السلطان بايزيد وابنه موسى في الأسر، واختفى ابنه مصطفى، وفر من المعركة أبنائوه سليمان وعيسى ومحمد، ووضع السلطان تحت الحراسة الشديدة والمراقبة لسبعة أشهر، مما أصابه بالغم، وقد أصيب بالحمى الشديدة، فمات رحمه الله كمداً وحزناً على ما جرى في (١٥) شعبان سنة (٨٠٥هـ)، وعمره لا يزيد على أربع وأربعين سنة، وسُمح بنقل جثته لتدفن في مدينة بورصة.

ثم تقدم تيمورلنك بعد معركة أنقرة، واستولى على بورصه ونيقية وأزمير، وأعطى الأمراء الفارين إليه من قبل إماراتهم، فأعاد التجزئة في الأناضول.

• الركود يحل بالسلطنة العثمانية:

استغلت الإمارات الأوروبية التابعة للعثمانيين هذه الأحداث، فأعلنت استقلالها عن الدولة، مما حصر رقعة الدولة بعد أن اتسعت، فلقد أعلن البلغار والصرب والأفلاق الاستقلال عن الدولة.

وبعد عودة تيمورلنك دخل أبناء السلطان بايزيد في صراع على السلطة، مما زاد الدولة وهناً وضعفاً وشتاتاً وتمزقاً، إلى أن كان دور السلطان محمد بن بايزيد.

٥. السلطان الغازي محمد الأول: (٨١٦هـ - ٨٢٥هـ):

ولد السلطان محمد جلبي^(١) الأول سنة (٧٨١هـ)، وتولى السلطة في سنة (٨١٦هـ)، وعمره خمس وثلاثون سنة، وقد عاصر أحداثاً جساماً، أسلفنا ذكرها، ولم يتمكن السلطان محمد من التفرد بالحكم والسلطة إلا بعد صراع دام مع أخويه سليمان وموسى، والذي انتهى الأمر بقتلهما.

وأدى هذا العمل إلى خشية الناس حوله من بأسه، فخافوا منه بعد فعله هذا مع إخوته، ويعتبر السلطان محمد جلبي الأول هو المؤسس الثاني للسلطنة العثمانية.

كان السلطان محمد شجاعاً، ومقداماً، مجاهداً، فتح عدة قلاع وبلاد، وبنى المدارس، وعمّر البنيان.

قام السلطان محمد الأول بإخماد الثورات وحركات التمرد والعصيان في الأناضول، كما تصدى لملك المجر جون سيجسموند، الذي أعد حملة صليبية، واستطاع السلطان دخول بلاد البوسنة (البوشناق) لأول مرة، كما استطاع التوجه إلى بلاد الأفلاق^(٢)، وقتل ملكها، ونصب مكانه أخاه، ورفع مقدار الجزية التي تدفع للدولة العثمانية، كما

(١) جلبي: الأنيق والمثقف المرتب، أطلق هذا اللقب على أمراء آل عثمان حتى عهد السلطان محمد جلبي، كما أطلق على المنحدرين من نسل جلال الدين الرومي، وقد استعمل أيضاً لذوي النبل والفضل. د. سهيل صابان / «المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية» (ص: ٨٦).

(٢) بلاد الأفلاق: يقصد ببلاد الأفلاق رومانيا حالياً. «ألبوم السلاطين العثمانيين» / دار كاكينوس (ص: ٥).



خاض أول معركة بحرية مع البنادقة، غير أنه لم يوفق فيها.

كما استطاع السلطان إخماد كل مظاهر التمرد الداخلي، ومن ذلك أن أخاه الأمير مصطفى بن بايزيد ظهر فجأة، وطالب بالحكم، وواجه أخيه السلطان في معركة، غير أنه هزم، وفر أمامه إلى مدينة سلانيك، ودخل في حماية الإمبراطور البيزنطي، فطلب السلطان تسليمه، فرفض الإمبراطور، غير أنه وعد بإبقائه تحت الإقامة الجبرية مادام السلطان على قيد الحياة؛ فوافقه السلطان على ذلك، وعين لأخيه مصطفى مخصصاً شهرياً حتى يحيا من مال العثمانيين.

كما ظهر في أيام السلطان محمد قاضي من العلماء يسمى بدر الدين^(١)، بدأ ينشر مذهباً باطنياً اشتراكياً، يقوم على العقل، يدعو إلى المساواة بين الناس جميعاً في الأموال والأمتعة، وأن الناس سواء في الأديان، ولا فرق بينهم، وأعاناه على ذلك رجل من أصول يهودية، واسمه طورلاق كمال، وانتشر أمر بدر الدين، وكثر أتباعه من النصاري والمسلمين، فأرسل إليه السلطان محمد جيشاً لمحاربته وأتباعه، فانتصرت جماعة بدر الدين بقيادة رجل يقال له بير قليجة مصطفى، والذي استطاع قتل قائد الجيش العثماني، لذلك وجه السلطان جيشاً كبيراً بقيادة الوزير الأول بايزيد باشا، والذي نالهم في أزمير في موقعة تسمى قرة بورنو، وتعني الرأس الأسود، واستطاع أن ينتصر عليهم، وأن يقتل مصطفى وكثيراً من أتباعه، وتم القبض على بدر الدين في مقدونيا، وتم إعدامه بناءً على فتوى أهل العلم آنذاك.

ولقد بذل السلطان محمد جهداً واسعاً في إزالة آثار هذه الفتن، ووضع نظماً تواجه الفتن، إذا اشتعلت مرة أخرى، غير أنه أدركه الموت في سنة (٨٢٤هـ) في أدرنة عاصمة الدولة، وكان عمره آنذاك ثلاثاً وأربعين سنة، وقد أوصى بالحكم من بعده لابنه مراد.

(١) بدر الدين: اسمه محمود بن إسرائيل، كانت معتقدات بدر الدين ثورة على العقيدة الإسلامية، حيث أنه قام بخلط عقيدة جديدة بين الإسلام واليهودية المنحرفة والنصرانية المنحرفة، وقد تم القبض عليه وإعدامه بتهمة العصيان هو وعدد من كبار مشايخ القلندرية الذين كانوا يؤيدونه لآخر لحظة. ويعد أول من نادى بالجمهورية في العهد العثماني، وأول من ثار على الدولة، وقيل عنه أول شيوعي تركي في التاريخ، مما دعى الشاعر الشيوعي ناظم حكمت إلى نظم قصيدة مديح له، وكذلك فإن النصيرية كانوا يعتبرونه أحد شيوخهم، وفي الجملة كان شخصاً ضالاً يحمل أفكاراً باطنية. للاستزادة راجع أحمد آق كوندز / «الدولة العثمانية المجهولة» (ص: ١٠٦-١٠٩).



وتوفي السلطان بعد أن خاض أربعاً وعشرين معركة حربية كبرى، وجرح بسبب ذلك في أكثر من أربعين موضعاً في جسده، وترك الدولة من خلفه مستقرة، قد بلغت مساحتها أربعة وتسعين وستمئة ألف كم^٢، وكان سبب وفاته أنه سقط من صهوة جواده، فأصيب بالشلل، وما لبث أن توفي رحمه الله رحمة واسعة، وعفا عنه، وقد دُفن في مقبرة آبائه في مدينة بورصة.

٦. السلطان الغازي مراد خان الثاني: (٨٢٥هـ - ٨٥٥هـ):

ولد السلطان مراد الثاني سنة (٨٠٦ هـ) بمدينة أماسيا^(١)، وحاز رعاية خاصة، وتلقى الآداب والعلوم الشرعية منذ طفولته، كما تلقى تدريباً على فنون القتال، وأصبح والياً على أماسيا، وتولى السلطنة وعمره ثماني عشرة سنة، وعرف باسم مراد الثاني.

وقد عمل منذ أن تولى الحكم على إعادة إمارات الأناضول إلى دائرة الدولة، بعد أن خرجت عن سيطرتها على يد تيمورلنك، ولذلك هادن ملك المجر، وعقد معه صلحاً ليضمن عدم الإغارة على أدرنة عند ذهابه للأناضول، كما صالح أمير القرمات.

غير أن إمبراطور بيزنطة عمانويل طلب من السلطان أن يتعهد له بوقف القتال مطلقاً، وأن يسلمه اثنين من إخوته ضماناً لتنفيذ التعهد؛ وإن لم يفعل السلطان ذلك، فإن الإمبراطور سيطلق سراح عمه مصطفى من منفاه.

غير أن السلطان رفض هذا التعهد، فأطلق الإمبراطور سراح مصطفى بن بايزيد، وأمدّه بعشرة مراكب حربية، مما أعان مصطفى على حصار مدينة جريولي، ثم توجه بعدها إلى أدرنة العاصمة متوجهاً إلى السلطان مراد، وانتهى به الأمر أن تخلى عنه جنوده، ففر مسرعاً إلى مدينة جريولي، وتم القبض عليه، وأعدم.

من أجل ذلك حاصر السلطان مراد القسطنطينية، غير أنه عجز عن فتحها، واضطر إلى رفع الحصار عنها بعد أن تمرد عليه أخيه مصطفى بمساعدة أمراء الأناضول؛ فذهب إليه مراد، وتمكن من هزيمته وقتله.

(١) أماسيا: واحدة من أقدم مدن تركيا، من أقاليم البحر الأسود بشمال تركيا، وتقع المدينة على طريق الحرير التاريخي، بها نهر عظيم هو نهر يشل إبرماك، ويطلق عليها مدينة الأمراء العثمانيين، وبها معالم تاريخية كثيرة.



ثم تقدم بعدها السلطان مراد نحو الأناضول، حتى استطاع أن يخضعه لسلطة العثمانيين، وأصبح بإمكانه العودة إلى أوروبا لتصفية حساباته مع الأمراء الذين استغلوا محنة العثمانيين أيام غزو تيمورلنك، ثم يتوجه بعدها لفتح القسطنطينية.

بدأ السلطان بمحاربة ملك المجر في عدة معارك، فتح خلالها مدينة كولمبار، ثم قام بتوقيع معاهدة بينه وبين ملك المجر على الحدود بينهما.

وكذلك قام أمير الصرب جورج برونكوفيش بتوقيع اتفاق، يلزمه دفع جزية سنوية، قدرها خمسون ألف دوكا ذهباً، ويعين السلطان بفرقة من جنوده لمساعدة السلطان وقت الحرب، وبقطع علاقات الصرب مع ملك المجر، وأن يتنازل للعثمانيين عن مدينة كروشيفاتس، كما تزوج السلطان ابنة أمير الصرب مارا.

تقدم السلطان مراد الثاني وفتح مدينة سلانيك بعد أن حاصرها خمسة عشر يوماً، كما أقر أمير الأفلاق بسيادة العثمانيين على بلاده، ودخلت أرناؤوط - ألبانيا - أيضاً في أملاك الدولة العثمانية بعد حروب هينة، وبذلك أصبح لدى السلطان القدرة على التوجه لفتح القسطنطينية.

غير أن ملك المجر لعب دوراً خبيثاً، في تحريض أمير الأفلاق وأمير الصرب في نقض العهد مع السلطان، مما أدى إلى انشغال السلطان مراد بحروب متوالية معهم ومع ملك المجر، انتهت بهزيمة السلطان في ثلاث معارك متوالية، مما اضطر السلطان إلى عقد هدنة مع خصومه لمدة عشر سنوات.

أراد السلطان بعد هذه السنوات أن يخلد إلى الراحة، وأن يتفرغ للعبادة، فتنازل عن الحكم لابنه محمد الذي لم يبلغ الرابعة عشرة من عمره^(١).

استغلت البابوية التي كانت ترقب الموقف اعتزال السلطان للسلطة، فأرسل البابا إلى ملك المجر، يستحثه على نقض العهد مع الدولة العثمانية، ويعلمه أن هذا النقض من الناحية الدينية لا شيء فيه، كما استحث ملوك النصرى في أوروبا لشن حملة صليبية

(١) كان للسلطان مراد الثاني ابناً يكبر محمد هو علاء الدين توفي سنة ٨٤٨هـ قبل اعتزال أبيه للسلطة، فغم السلطان غماً شديداً لذلك، وقيل أنه اعتزل السلطة بسبب وفاة علاء الدين.



جديدة، واستغلال هذه الفرصة، فأعدوا حملة عظيمة، وتوجهوا إلى بلاد البلغار التي هي تحت السيادة العثمانية، مما اضطر السلطان أن يعود إلى السلطنة مرة أخرى، وقاد بنفسه الجيش، واستطاع أن يحرز نصراً عظيماً على جيش الصليبيين الذي نال هزيمة قاسية، وقُتل في هذه المعركة ملك المجر، كما قُتل الكردينال سيزاريني مندوب الباباوية، وتم ذلك في رجب سنة (٨٤٨هـ)، ومما يذكر أن السلطان كان على رأس جيشه المكون من أربعين ألفاً، واستطاع تدمير جيش الصليبيين، ولم يخسر سوى خمسين ومئة فقط من جنوده^(١).

لم يرق للصليبيين في أوروبا ذلك النصر الذي تحقق للعثمانيين، فأرادوا أن ينتقموا من العثمانيين، بعد هذه الهزيمة النكراء، وبتأييد من الباباوية، فكانت معركة قوصوا -كوسوفا- الثانية، وتحقق نصر مبين للسلطان في شعبان سنة (٨٥٢هـ)، تماماً كما انتصر السلطان مراد الأول على ملك الصرب في معركة قوصوا الأولى.

ثم توجه بعدها إلى ألبانيا ليؤدب ملكها الذي نقض العهد، غير أن السلطان بعد أن حاصر ألبانيا اكتفى بهذا الحصار، وعاد إلى أدرنة عاصمة الدولة، بعد أن أخضع البلقان للعثمانيين، فوافته المنية في الخامس من محرم سنة (٨٥٥هـ)، ودفن في مدينة بورصة إلى جوار آبائه، وكان عمره آنذاك تسعاً وأربعين سنة، قضى منها ثلاثين سنة سلطاناً للعثمانيين، مجاهداً عادلاً جواداً رجلاً قائداً مخضرمًا محنكاً، استطاع أن يحافظ للمسلمين على مكانتهم في الأناضول وفي أوروبا؛ رحمه الله رحمة واسعة.

(١) «ألبوم السلاطين العثمانيين» / دار كاكينوس (ص: ٦).



٧. القائد الغازي محمد الثاني الفاتح: (٨٥٥هـ - ٨٨٦هـ):

ولد محمد الفاتح سنة (٨٣٥هـ)، ونشأ نشأة راقية، تلقى خلالها العلوم الشرعية والآداب والطب والرياضيات على يد كبار علماء عصره، وكان أشهرهم آق شمس الدين^(١)، وأجاد محمد الثاني التحدث بعدة لغات، منها: اللغة العربية والفارسية واليونانية والصربية واللاتينية، تولى قيادة لواء أماسيا، وهو صغير السن، كما تولى السلطنة، وهو ابن أربعة عشر عاماً، عند تنازل والده له، ثم تنحى لوالده مرة أخرى، وصار والياً على منيسا، ثم تولى السلطنة في سنة (٨٥٥هـ)، وكان عمره عشرين سنة.

(١) آق شمس الدين: محمد بن حمزة الدمشقي، ثم الرومي، المعروف بابن شمس الدين، ولد بدمشق سنة (٧٩١هـ/١٣٨٩م)، ولقب بآق شمس الدين؛ وآق تعني الأبيض، والطاهر والعفيف، معلم السلطان محمد الفاتح ومربيه، انتقل من دمشق إلى أرض الروم، ولازم الشيخ الحاج بيرم، وأخذ عنه طريقته الصوفية، فأصبح صوفياً منحرفاً، كان من المؤسسين والداعمين للتصوف الغالي في الدولة العثمانية، وخاصة عند فتح القسطنطينية، حيث أنه حدد موضع قبر الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه وقال: إني أشاهد في هذا الموضع نوراً، لعل قبره هاهنا، ثم ذهب لذلك الموضع وبعد فترة رجع وقال: التقت روحه مع روحي، وهنأني بهذا الفتح، وقال لي: شكر الله سعيكم، حتى خلصتموني من ظلمة الكفر، وقد انخدع السلطان الفاتح بهذا، وأمر ببناء قبة على ذلك الموضع، فكان ذلك أول خطوة في التأسيس للقبورية في القسطنطينية بعد أن فتحها الله تعالى، وهو أول من خطب الجمعة في آيا صوفيا بعد أن تحولت إلى مسجد، وذلك لمكانته عند الفاتح.

تدل المؤلفات التي تركها آق شمس الدين على انغماسه في بدع التصوف، وغلوه فيها، فقد ألف رسالة تسمى بالرسالة النورية، أفردتها في الدفاع عن محيي الدين بن عربي الملحد، وأقره فيها على ما يسمى بالتوحيد الذاتي الثلاثي الذوباني الاضمحلاحي المحوي، وقد رد عليه العلامة ملا علي القارئ في الرد على القائلين بوحدة الوجود بقوله: انتصار آق شمس الدين لابن عربي في رسالته هذه يدل على كل حال أنه من الطائفة الإلحادية، لمخالفته ما هو مقرر في العقائد الشرعية، توفي في سنة (٨٦٣هـ/١٤٥٩م)، أي بعد فتح القسطنطينية بست سنوات. الشوكاني/ «البدر الطالع» (٢/١٦٦-١٦٧)، محمد داود كوري/ «دعوة جماعة قاضي زاده الإصلاحية في الدولة العثمانية» (ص: ١١-١٢)/ بتصرف.



كان فتح القسطنطينية هو أهم أولويات محمد الثاني، لإنهاء دور تلك المدينة العجوز من التاريخ، إذ إنها أصبحت هي البقعة الوحيدة الرومية في وسط الدولة العثمانية المترامية الأطراف في أوروبا والآنضول، ولذلك أعدَّ السلطان العدة ببناء قلعة على مضيق البسفور، في البر الأوروبي، مقابل القلعة التي بناها السلطان بايزيد الأول، من الجانب الآسيوي، وذلك ليمنع وصول الإمدادات البحرية إلى القسطنطينية، مما أقلق إمبراطور الروم قسطنطين، الذي شعر بعزم السلطان على فتحها.

وكانت مدينة القسطنطينية مدينة حصينة منيعة، حيث أنها كان يلتف حولها من الخارج قناة من الماء أمام الأسوار، كما كانت هناك المياه الطبيعية المتمثلة في بحر مرمرية، حتى مدخل القرن الذهبي، وقد وضع أهلها سلاسل عظيمة، تمنع دخول أي سفينة إلى هناك إلا بإذن منهم، إلى جانب الحصن المقام عند مدخل القرن الذهبي، كما كانت هناك الأسوار العظيمة ذات الأقسام الثلاثة والأبراج التي بها إلى جانب الطعام المدخر ومياه الشرب، التي تكفي أهل القسطنطينية لسنوات، وقد عرض الإمبراطور قسطنطين دفع الجزية للسلطان محمد الثاني، فرفض السلطان ذلك، وأصر على فتح المدينة.

عرض السلطان على الإمبراطور تسليم المدينة، حتى لا تتعرض للأذى، ولا ينزل بأهلها النكبات، ويضمن السلطان حرية العقائد وإقامة الشعائر لأهل المدينة، فرفض الإمبراطور ذلك.

كان السلطان محمد قد أعد المدافع من أجل هذا الغرض، واستخدم المدفع الهاون لأول مرة في التاريخ، وأعد الجنود إعداداً معنوياً ومادياً لذلك اليوم المشهود.

- فتح القسطنطينية:

تقدّم السلطان محمد الثاني مع جنوده من الجهة البرية لحصار المدينة بربع مليون جندي، كما حاصرها من الجهة البحرية بثمانين ومئة سفينة بحرية، وكان يكثّر الموعظة والتذكير لجنوده هو والعلماء، مما ألهمهم لفتح المدينة، ومما قاله للقادة:

وأضاف: ويجب على كل جندي أن يجعل تعاليم شريعتنا الغراء نصبَ عينيه، فلا يصدر عن أحد منهم ما يجافي هذه التعاليم، وليجتنبوا الكنائس والمعابد، ولا يمسوها بأذى، وأن يدعوا القساوسة والضعفاء والنساء والعجزة الذين لا يقاتلون.

ظل الجيش العثماني بقيادة السلطان يحاصر المدينة ثلاثة وخمسين يوماً، وقعت خلالها معارك هائلة، كما دكت المدافع أسوار المدينة، مما أرعب الروم، وساهم في اقتحام الجنود المسلمين للمدينة، في العشرين من جمادى الآخرة سنة (٨٥٧هـ)، واستطاعوا التقدم داخل المدينة، ودخلوا إلى كنيسة آيا صوفيا، وتبعهم السلطان في دخوله المدينة ظهراً، ووصل إلى كنيسة آيا صوفيا، فأمر أن يؤذن للصلاة، وحوَّ لها إلى مسجد، وقد أَمَّنَ الناسَ، وسمح لهم بإقامة شعائرهم، وأعطاهم نصف كنائسهم، وأطلق على القسطنطينية اسم إسلام بول، أي: مدينة الإسلام، والتي أصبحت القاعدة والعاصمة بعد ذلك للدولة العثمانية، ومن يومها لُقِبَ السلطان محمد الثاني بالفاتح.

وبهذا الفتح انتهت في التاريخ الأوروبي العصور الوسطى، وبدأ العصر الحديث، كما أحدث هذا الفتح صدًى هائلاً في العالم الإسلامي بعد أن أرسل السلطان محمد بشرى الفتح إلى أصقاع العالم الإسلامي.



قال ابن العماد^(١): كان من أعظم سلاطين بني عثمان، وهو الملك الضليل، الفاضل النبيل، العظيم الجليل، أعظم الملوك جهاداً، وأقواهم إقداماً واجتهاداً، وأثبتهم جأشاً وفؤاداً، وأكثرهم توكلًا على الله واعتقاداً.

له مناقب جميلة، ومزايا فاضلة جليلة، وآثار باقية في صفحات الليالي والأيام، ومآثر لا يمحوها تعاقب السنين والأعوام، وغزوات كسر بها أصلاب الصلبان والأصنام، من أعظمها أنه فتح القسطنطينية الكبرى، وساق إليها السفن، تجري رخاءً برًا وبحراً، وهجم عليها بجنوده وأبطاله، وأقدم عليها بخيوله ورجاله، وحاصرها خمسين يوماً أشدَّ الحصار، وضيق على من كان فيها من الكفار الفجار، وسلَّ على أهلها سيف الله المسلول، وتدرع بدرع الله الحصين المسبول، وثبت على متن الصبر إلى أن أتاه الله تعالى بالفرج.

ففتح إسطنبول، وأسس بها للعلم أساساً راسخاً، لا يُخشى على شمسهِ الأفل، وبني بها مدارس كالجنان، لها ثمانية أبواب، سهولة الدخول، وقنن بها قوانين، تطابق المنقول والمعقول، فجزاه الله خيراً عن الطلاب، ومنحه بها أجراً وأكبر ثواب.

وصارت إسطنبول أم الدنيا ومعدن الفخار والعلياء، واجتمع فيها أهل الكمال، من كل فن، وأهل حِرَفها أدقُّ الفطناء في الأنام، وأرباب دولتها هم أهل السعادة العظام. ا.هـ.

لقد كان لهذا الفتح أثر عظيم على معنويات العثمانيين، مما حدا بهم أن يتوجهوا إلى أوروبا، لينهوا أولاً دول الصرب التي كانت تماطل الدولة العثمانية لسنوات طويلة، واستطاعوا أن يدخلوا إلى بلاد الصرب، وأن يعزروا سيطرتهم عليها في سنة (٨٥٨هـ)، كما تمكنوا من فتح بلاد المورا في جنوب اليونان في سنة (٨٦٣هـ)، واستعادوا مدينة أثينا مرة ثانية.

كما سار السلطان محمد الفاتح إلى أمير الأفلاق، ليؤدبه على خيانتته وتعدّيه على العثمانيين، ففر أمير الأفلاق إلى ملك المجر، فقام السلطان بضم الأفلاق إلى الدولة العثمانية، كما سار إلى البوشناق (البوسنة)، وضمَّها إلى الدولة العثمانية، ودخل أهلها في دين الله أفواجاً.

(١) «شذرات الذهب» (٩/٥١٦-٥١٧).



لقد استطاع السلطان محمد الثاني الفاتح أن يحقق نصراً عزيزاً، بذل المسلمون من أجله الغالي والنفيس والدماء الزكية، منذ الدولة الأموية، في حصارها الأول والثاني والثالث للقسطنطينية، ومحاولات فتحها المتتابعة من المسلمين.

لقد كانت معركة فتح القسطنطينية واحدة من المعارك المجيدة بين الإسلام والنصرانية، تضاف إلى رصيد المسلمين في محاولاتهم لإنقاذ النصارى عبدة الصليب من النار، تذكرنا بمعارك المسلمين الأوائل من الصحابة الكرام رضوان الله عليهم مع نصارى الروم البيزنطيين، وانتصاراتهم عليهم في اليرموك، وفي مصر، وفي بلاد الشام.

لقد انطلق العثمانيون فاتحين للقسطنطينية وأوروبا الشرقية من منطلقات إسلامية بعاطفة جياشة متأججة في صدورهم؛ فاستنقذ الله بهم شعوباً كثيرة من ظلمات الشرك وجهالة الكفر.

- ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله:

حرص السلطان محمد الثاني الفاتح كأسلافه من السلاطين على نشر أخبار انتصاراتهم؛ فكانوا يرسلون الوفود الخاصة بمناسبة الانتصارات إلى الخليفة العباسي في مصر، وسلطان المماليك، وإلى شريف الحجاز، وهذا ما فعله أيضاً السلطان محمد الثاني الفاتح عند انتصاره يوم القسطنطينية، فلقد أرسل رسالة مطولة إلى سلطان مصر، يشره فيها بما من الله عليه بالفتح، ومما جاء فيها:

«إن من أحسن سنن أسلافنا أنهم مجاهدون في سبيل الله، ولا يخافون في الله لومة لائم، ونحن على تلك السنة قائمون، وعلى تلك الأمانة دائمون، متمثلين بقول الله تعالى:

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]،
وتمسكين بقوله ﷺ: «مَنْ أَغْبَرَتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ»^(١)، معتصمين بحبل ذي الجلال والإكرام، وتمسكين بفضل الملك العالم، إلى أداء فرض الجهاد في الإسلام، مؤتمرين بأمره تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣].

(١) رواه البخاري (٣٧/٦) ح: (٢٨١١).

وجهبنا عساكر الغزاة والمجاهدين من البر والبحر، وفتحنا مدينةً، ملئت فجوراً وكفراً، والتي بقيت وسط الممالك الإسلامية تباهي بكفرها فخراً^(١).

كما قام السلطان محمد الثاني الفاتح بإرسال الهدايا من الغنائم إلى شريف مكة، كما أرسل له رسالة، يبشره فيها بالفتح، مما جاء فيها:

«فقد أرسلنا هذا الكتاب مبشراً لما رزق الله لنا في هذه السنة من الفتوح التي لا عين رأت، ولا أذن سمعت، وهي تسخير البلدة المشهورة بقسطنطينية.

والمأمون من مقرر عزتكم الشريفة أن يبش بقدوم هذه المسرة العظمى، والموهبة الكبرى مع سكان الحرمين الشريفين، والعلماء والسادات المهتدين، والزهاد والعباد الصالحين، والمشايخ والأعاجد الواصلين، والأئمة والأخيار المتقين، والصغار والكبار أجمعين، المتمسكين بالمقام بيت الله الحرام، والمشرفين بزمام والمقام».

ثم أضاف: «وبعثنا مع الكتاب هدية لكم خاصة، ألفي فلوري من الذهب الخالص التام الوزن والعيار المأخوذ من تلك الغنيمة، وسبعة آلاف فلوري أخرى لفقراء الحرم، وألف للخدم المخصوصة للحرمين، والباقي للمساكين والمحتاجين في مكة المعظمة والمدينة المنورة، زادها الله شرفاً، فالمرجو منكم التقسيم بينهم بمقتضى احتياجهم وفقدهم، وتحصيل الدعاء منهم لنا دائماً باللطف والإحسان، إن شاء الله تعالى؛ والله يحفظكم، ويبقيكم بالسعادة الأبدية إلى يوم الدين»^(٢).

وعلى الجهة الأخرى من القسم الآسيوي زحف العثمانيون لإنهاء دور آخر إمارة رومية هناك، وهي إمارة طرابزون، كما قضى السلطان على دولة وإمارة قرمان التي كانت تمثل شوكة في خاصرة الدولة في قلب الأناضول لسنوات عديدة؛ كما استطاع الفاتح أن ينتصر على أوزون حسن حاكم إمارة أقيونو في معركة أوتولوك، كما أعاد الفاتح الكرة على أوروبا بحملات على المجر وبلاد الأرناؤوط؛ واستطاع السيطرة على مدينة شقودرة، مما

(١) محمد سالم الرشيدى/ «السلطان محمد الفاتح» (ص: ١٤١).

(٢) المرجع السابق (ص: ١٤٧).



أصاب نصارى أوروبا بالرعب، وأصيبوا بالهلع أكثر عندما استولى السلطان على مدينة أوترانتو الإيطالية، بعد أن قرر فتح روما، ليجمع بذلك لنفسه شرف تحقيق نبوءة النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه الحاكم بسند صحيح: عن عبد الله بن عمرو قال: بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب، إذ سئل رسول الله ﷺ أيّ المدينتين تُفتح أولاً؟ قسطنطينية أو رومية؟ فقال النبي ﷺ: «لا بل مدينة هرقل أولاً - يعني القسطنطينية»^(١).

واستطاع السلطان بذلك أن يخضع الأناضول كاملاً للعثمانيين، لتصبح الدولة العثمانية واحدة من أعظم السلطنات الإسلامية في العالم.

وكان السلطان الفاتح قد أقسم أن يتوجه إلى روما، وإذا تمكن، سيربط حصانه في كنيسة القديس بطرس بالفاتيكان، وقد أعد لذلك حملة عظيمة في سنة (٨٨٦هـ) بعد فتح أوترانتو، من أجل إتمام ذلك الفتح.

ولما بلغ خبر فتح القسطنطينية آفاق الأمة الإسلامية، فرح المسلمون فرحاً عظيماً، وأرسل سلطان المماليك والخليفة العباسي وأمراء المسلمين التهنة للسلطان محمد الثاني.

• وفاة الفاتح ودور اليهود الخبيث^(٢):

كان للسلطان محمد الفاتح طبيب يهودي من البندقية، اسمه مايسترو، ادعى أنه اهتدى إلى الإسلام، وتسمى باسم يعقوب باشا، وعمل هذا الرجل بالاتصال مع أهل البندقية للقضاء على الفاتح مقابل مكافأة كبرى، يحوزها، إذا استطاع القضاء عليه، فقام بدس السم للفاتح بصورة تدريجية، حتى أن الفاتح بعد أيام أصابه مغص مفاجئ، ظل يعاني منه عدة أيام، إلى أن أسلم روحه لله تعالى، في يوم الرابع من ربيع الأول سنة (٨٨٦هـ) عن عمر يناهز إحدى وخمسين سنة، بعد أن حكم إحدى وثلاثين سنة هجرية، استطاع

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٤/ح: ٥٥٠-٥٥٤)، وقال الذهبي في «التلخيص»: صحيح، والألباني في «الصحيحة»، وقال الألباني: قد تحقق الفتح الأول على يد الفاتح العثماني بعد ثمانئة سنة من إخبار النبي ﷺ بالفتح، وسيحقق الفتح الثاني بإذن الله تعالى ولا بد. ١. هـ. (ح: ٤/١/٣٣).
ومما ورد في فتح القسطنطينية ما رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣١/٢٨٧/ح: ١٨٩٥٧) أن النبي ﷺ قال: «لَتَفْتَحَنَّ الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ، وَلَنَعَمَ الْأَمِيرُ أَمِيرُهَا، وَلَنَعَمَ الْجَيْشُ ذَلِكَ الْجَيْشُ». ضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١/٦٧/ح: ٤٦٥٥).
ورومية المقصود بها مدينة روما التي تحتضن الباباوية.

(٢) عبد القادر ده ده أوغلو/ «ألبوم العثمانيين»/ الدار العثمانية للنشر - «ألبوم السلاطين العثمانيين»/ دار كاكوس/ إسطنبول.



خلالها مواجهة أعتى الإمبراطوريات، وأن يقضي على إمبراطوريتي الصرب والمجر، وأن يقضي على أربع عشرة دولة، وقام بفتح مئتي مدينة، واتسعت رقعة الدولة في زمانه إلى مئتين وأربعة عشر ألفاً ومليونين كم^٢، كما كانت له مهارة عالية في إدارة الدولة؛ فإليه يرجع ترتيب الحكومة العثمانية على النسق الحديث، وسماها بالباب العالي، وجعل لها أربعة أركان: الوزير، وقاضي العسكر، والدفتر دار (ناظر المالية)، والنياشنجي (كاتم سر السلطان)، كما أضاف قاضي عسكر الروملي (أوروبا)، وقاضي عسكر آخر للأناضول (آسيا)، كما رتب وظائف الجند وقادة الجيش، كما قام بترتيب وظائف القضاء من أعلاها إلى أدناها، كما اهتم بالعمارة خاصة في القسطنطينية، بعد أن اتخذها قاعدة للدولة، حيث أنشأ بها المساجد والكتاتيب والمدارس، ونظمها أحسن تنظيم.

ودفن السلطان محمد الفاتح في قبره المتواضع إلى جوار جامعته الشهير المسمى بالفاتح، وقد صُلي عليه في ذلك المسجد رحمه الله، وكان ذلك أول السلاطين الذين لم يدفنوا في بورصه منذ السلطان عثمان، فرحمه الله رحمة واسعة، وغفر له ذنبه.

وعند وفاة الفاتح قام الجنود بتمزيق يعقوب باشا بسيوفهم، والذي لم ينل مكافأة البنادقة له، ولكن يناله جزاء قتل سلطان المسلمين عند الله سبحانه وتعالى يوم القيامة.

- أوروبا تحتفل بوفاة الفاتح:

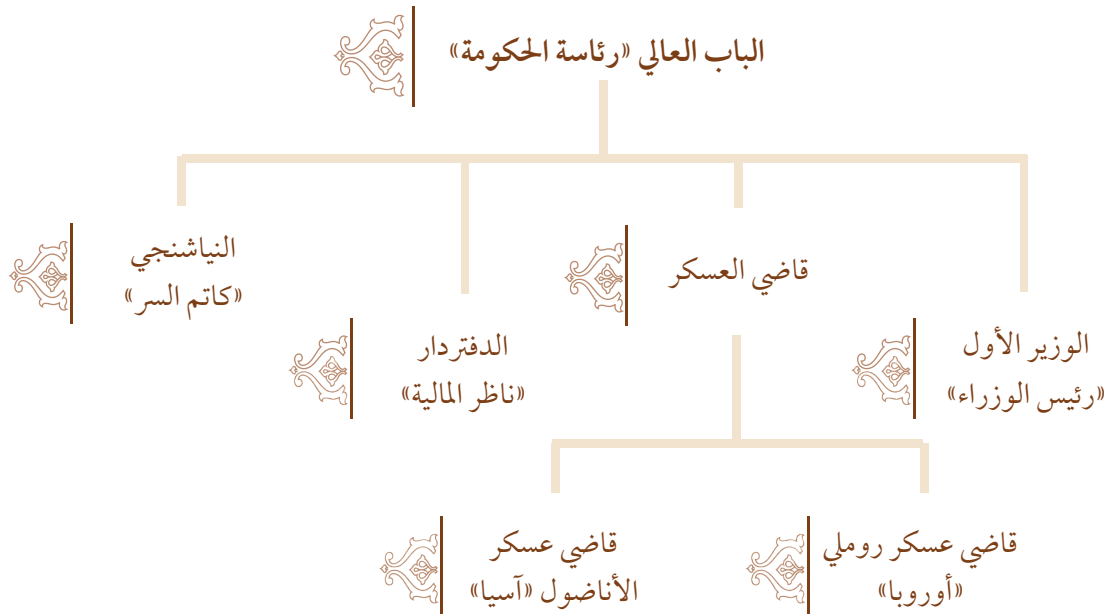
طار إلى البندقية خبر موت الفاتح بعد نحو ستة عشر يوماً من وفاته، عن طريق البريد السياسي لسفارة البندقية في إسطنبول، والتي احتوت رسالة، كان أهمها جملة: مات النسر الكبير.

وقد أمر البابا الكنائس بدق الأجراس في كافة أوروبا، وإقامة صلوات الشكر لمدة ثلاثة أيام بلياليها^(١).

(١) عبد القادر ده ده أوغلو / «ألبوم العثمانيين» / الدار العثمانية للنشر - «السلاطين العثمانيون» / راشد كندو غدو.



الهيكل الإداري للدولة الذي وضعه محمد الثاني الفاتح



٨. السلطان الغازي بايزيد بن محمد الفاتح - بايزيد الثاني: (٨٨٦هـ - ٩١٨هـ):

ولد السلطان بايزيد الثاني سنة (٨٥١هـ)، ونشأ نشأة أبناء الأمراء على الديانة والأدب والفنون العسكرية، وكانت طبيعته المسالمة والمودعة، وكان يكتب الشعر، ويحجده، وله أشعار وقع عليها باسم مستعار هو عوني.

كان محباً للعلماء، والمشايخ، وطلاب العلم، وفي أيامه تزايد الفتح ببلاد الروم، وفتح عدة قلاع وحصون، وبنى المدارس، والجوامع، ودار الشفاء، والحمامات، والجسور، ورتب للعلماء رواتب سخية، وأرسل للحرمين الشريفين في كل عام أربعة عشر ألف دينار ذهبي.

عُين في حياة أبيه والياً على أماسيا، وتولى السلطنة بعد وفاة والده، في ربيع الأول سنة (٨٨٦هـ)، وهو أول سلطان يتقلد مراسم الحكم في مدينة إسطنبول.



ابتدأ حياته العملية في السلطنة بصراع مع أخيه الأصغر منه حاكم قرمان المدعو جيم^(١)، والذي كان يطمع في أن يتولى السلطنة بعد أبيه، وقد دعمه في ذلك نصارى أوروبا والمماليك في مصر والشام، الذين كانوا يخشون قوة السلطنة العثمانية، وظل هذا الصراع نحو خمس عشرة سنة، ولم ينتهِ إلا بوفاة جيم في سنة ٩٠٠هـ^(٢)، فاستراح السلطان، وبدأت سلطته الفعلية في البلاد.

ولقد أدى ذلك الصراع بين السلطان وأخيه إلى توقف الفتوحات في عهد السلطان بايزيد الثاني، سوى ما قامت به الجيوش العثمانية لصد هجمات المتآخمين لهم في الحدود، كالمماليك في الجنوب، ونصارى أوروبا في الغرب، كما غلبت طبيعة السلطان بايزيد السلمية في صراعه مع المماليك، خاصة أنهم أبناء ملة واحدة.

كما خاضت الجيوش العثمانية في عهده الحرب مع البنادقة، وانتصروا عليهم، فاستنجدت البندقية بالبابا وبملك فرنسا، غير أن العثمانيين استطاعوا أن يستعيدوا شبه جزيرة مورا، وبعض المدن التي استولى عليها البنادقة فترة صراع السلطان مع أخيه.

كما ظهرت دولة روسيا سنة (٨٨٦هـ) بعد أن استطاع دوق موسكو إيفان الثالث^(٣) أخذ موسكو من أيدي التتار^(٤)، وبدأ بالتوسع على حساب التتار، ثم أقام علاقات مع السلطنة العثمانية في سنة (٨٩٧هـ)، وأرسل أول سفير لإسطنبول يحمل معه الهدايا للسلطنة العثمانية، ثم تبعه السفير الثاني سنة (٩٠١هـ).

وبذلك استطاعت روسيا الحصول على بعض الامتيازات للتجار الروس.

(١) اشتهر جيم عند المؤرخين الأوروبيين باسم البرنس زيزون.

(٢) توفي في الثامن عشر من جمادى الأولى سنة (٩٠٠هـ / ١٤ فبراير ١٤٩٥م) في مدينة نابولي، ودفن في بلدة جاييت بإيطاليا، ثم نقل جثثانه بعد ذلك بفترة إلى مدينة بورصة، حيث دفن في قبور أجداده. د. أحمد آق كوندز / «الدولة العثمانية المجهولة»، (ص: ٢٠١).

(٣) إيفان الثالث أو الكبير بن فسيلي الثاني، القيصر الروسي الذي قام بتوسيع حدودها، ولد في سنة (١٤٤٠م)، وتولى الحكم عن عمر يناهز (٢٢) سنة، خاض حروباً عديدة مع جيرانه في مناطق مختلفة، واستطاع أن يوسع دولته من (٤٠٠٠ كم^٢) إلى (٢٠٠٠٠ كم^٢)، كما استطاع أن ينهي من روسيا حكم القبيلة الذهبية المغولية التتارية، الذي دام (٢٥٠) سنة، قام بإعادة موسكو بعد الحرب، وقام بتشييد قصر جديد في الكرملن، كما قام ببناء كاتدرائية صعود مريم العذراء كما يزعمون، هلك إيفان سنة (١٥٠٥م). الموسوعة الحرة.

(٤) تعد موسكو عاصمة الاتحاد السوفيتي السابق، وعاصمة روسيا الحالية، وهذا أول ظهور تاريخي لها كدولة مستقلة.



كما ظهرت في فارس إمارة الصفويين الشيعية الاثني عشرية، وظهر مذهب الإلحاد والرفض، وغير الصفوي اعتقاد أهل العجم من الحق إلى الباطل إلى يومنا هذا، وتقدم الصفويون إلى الأناضول، واحتلوا إمارة ذي لقادر، وأذاقوا أهلها الظلم والهوان، لأنهم من أهل السنة والجماعة، فأرسل السلطان بايزيد الثاني ولده سليماً أمير طرابزون، على رأس جيش عبر الكرج (جورجيا)، واستطاع طرد الصفويين من هناك.

وكان السلطان بايزيد قد أقام أبناءه الثلاثة ولادة، فكان كركود بن بايزيد والياً على شرقي الأناضول، وأحمد على أماسيا، وسليم على طرابزون، كما عين حفيده سليمان بن سليم والياً على مدينة كافا في شبه جزيرة القرم^(١).

أراد سليم والي طرابزون أن يمارس الجهاد، بتأييد من الجيش والإنكشارية، خاصة ضد أوروبا، فرفض السلطان الذي كان يميل للموادعة ذلك، ورفض سليم الاستمرار والياً على طرابزون، وانتقل إلى ابنه سليمان في كافا، وجمع جيشاً كبيراً سار به إلى أوروبا، مما أدى إلى تراجع السلطان عن قراره، وعين سليم والياً في أوروبا سنة (٩١٦هـ)، على مدينتي سمردنية وودين ببلاد البلغار.

وبسبب طبيعة السلطان السلمية والتراخي في حسم المواقف مع ولده سليم^(٢)، طمع سليم، وسار إلى أدرنة، وأعلن نفسه سلطاناً عليها، فحاربه السلطان، وهزمه، ففر إلى القرم، ثم عفا السلطان عنه، وأعادته إلى أوروبا، فأطمع ذلك الأمير كركود الابن الأكبر للسلطان الوالي على شرقي الأناضول أن يتولى إمارة مقاطعة صاروخان دون أمر أبيه، فحاربه السلطان، وهزمه.

ثم أعيدت الكرة بدعم الإنكشارية لسليم، مما اضطر السلطان أن يتنازل عن السلطنة والحكم لابنه سليم، فوافق، ونحى نفسه عن السلطنة في الثامن من صفر سنة (٩١٨هـ)، وأعد العدة، وسافر بعيداً عن إسطنبول، وعن مشكلات الحكم الذي تركه لولده سليم، وتوجه إلى بلدة جيموتيقا جنوب أدرنة.

(١) شبه جزيرة القرم: كانت جزءاً من الدولة الإسلامية في زمان التتار والعثمانيين، وتقع شمال البحر الأسود، ومساحتها (٢٦) ألف كم^٢، وكانت عاصمتها في الماضي مدينة بخش سرايا، ومن أهم مدنها مدينة يالطا التي عُقد بها مؤتمر الحلفاء بعد الحرب العالمية الثانية سنة (١٩٤٥م)، وكذلك مدينة سينفروبل، وكان اسمها في الماضي آق مسجد، وتعني المسجد الأبيض، قبل أن يستولي عليها الروس، وتبعية الآن جمهورية روسيا الاتحادية، وبها قاعدة بحرية روسية؛ تعد الوحيدة من نوعها في المياه الدفئية.

(٢) اشتهر السلطان بايزيد بالزهد والتقوى، وكثرة العبادة، حتى أطلق عليه أهل زمانه لقب الولي.

ولا شك أنه ليس ضعفاً من السلطان أن يعتزل الحكم، بل تعقلاً وديانة، فكيف يضحي بجيشه في صراع مع إخوانهم في جيش ولده سليم، وكيف يقبل بإضعاف القوة العسكرية لبلده وهجوم خصومها عليها بعد ذلك، فكأنه أثر السلامة حفاظاً على هيبة الدولة ومقدراتها، وحفاظاً على ميراث آبائه وأجداده.

هذا من جانب، ومن جانب آخر لعله رأى أن يلقي الله عز وجل، وليس عليه شيء من أوزار الحكم، وظلم الشعب، إن هو أخطأ في حكمه، وحاد عن الشريعة.

توفي السلطان بايزيد، وهو في طريقه إلى أدرنة، في يوم الأحد الثامن عشر من ربيع الأول سنة (٩١٨هـ)، عن عمر يناهز سبعاً وستين سنة هجرية بعد أن بقي في السلطنة اثنتين وثلاثين سنة هجرية، وصلي عليه، ودفن في المقبرة القريبة من مسجده الجامع في إسطنبول، رحمه الله، وعفا عنه.

وتولى من بعده ابنه السلطان سليم الأول، وهو تاسع السلاطين العثمانيين، وأول الخلفاء للمسلمين منهم كما سيأتي، إن شاء الله.

٦. سقوط الأندلس (٨٩٧هـ)^(١):

من أهم الأحداث التي وقعت في عهد الخلافة العباسية في مصر، بل في التاريخ الإسلامي زوال حكم المسلمين في الأندلس سنة (٨٩٧هـ)، وكانت مملكة غرناطة هي آخر الحصون، والبقية المتبقية من دولة الأندلس العظيمة، والتي أصبح حكم الإسلام والعرب محصوراً فيها، وقد استطاعت أن تبقى صامدة شامخة في مواجهة النصارى الأسبان نحو قرنين ونصف من الزمان.

وكانت آخر الدول التي حكمت غرناطة هي دولة بني الأحمر، الذين حاولوا الحفاظ عليها، واستطاعوا أن يجعلوها تحتل مكانة عالية في العلوم والآداب والفنون، ورغم حصار أعدائها لهم من كل جانب، وقد ساعدها على الصمود دعم بني مرين في المغرب لأهل غرناطة، واستطاعت أن تصل إلى مكانة علمية عالية في عهد محمد الخامس من

(١) يراجع الحافظ ابن كثير / «البداءة والنهاية» - المقري / «نفح الطيب» - ابن خلدون / «العبر».



بني الأحمر سنة (٧٦٣هـ)، ومن بعد موته بدأ العد التنازلي لنهاية حكم المسلمين، وذلك بسبب ما عاشه الحكام والمحكومين من ترف وهو وتعلق بالدنيا، ومن طرب وغناء، في الوقت الذي اتحد فيه خصومهم من النصارى بعد زواج فريدناند ملك أرجون من إيزابيلا ملكة قشتالة، واللذان اتحدا، وعملاً معاً على إنهاء حكم المسلمين في غرناطة.

في الوقت الذي كان الصراع بين أبي عبد الله الزغل أمير غرناطة وبين ابن أخيه، مما عجل بسقوط غرناطة التي تقدم إليها الصليبيون، وحاصروها، وضيقوا الخناق عليها، وبدأت تسقط مدينة بعد أخرى، وحصناً بعد حصن، وكان النصارى يستخدمون البارود والمدافع في دك الحصون، وهو اكتشاف جديد بالنسبة للفريقين، وكلما صمد المسلمون في حصن من الحصون، كان الأمير عبد الله ابن أخي أبي عبد الله الزغل يأمر جنوده أن يصدوا جيش عمه، غيرة منه وحسداً، وعمى بصيرة، حتى سقط غربي غرناطة في يد النصارى، مما اضطر العرب إلى الانحياز إلى القسم الشرقي، الذي تقدم إليه فريدناند، وخاض عدة معارك خلال سنتين، هُزم في بعضها، وكان الحسم النهائي له، بجيش قوامه خمسون ألفاً محاصراً غرناطة حصاراً شديداً، مما أدى إلى نقص المؤن داخل غرناطة، فاضطر أبو عبد الله الزغل أن يفاوض فريدناند على التسليم، فوقع على المعاهدة التي حوت سبعة وستين شرطاً، ثم سلم مفاتيح المدينة، ووقف من بعيد يودع ذلك الملك الذي بقي ثمانية قرون، أضاعه الفساد والشهوات، وحب الدنيا وكراهية الموت، وهذا حال كل مُلك مضاع.

وقف في مكان يسميه الأسبان اليوم بمكان زفرة العربي الأخيرة، حيث بكى هناك، ورأته أمه عائشة الحرة^(١)، فقالت له قولاً، اشتهر في التاريخ:

ابك مثل النساءِ مُلكاً مضاعاً لم تحافظ عليه مثل الرجالِ

ثم خرج مع أبنائه إلى المغرب، ونزل بفاس، حيث عاش هناك مع أبنائه، يتسول، ويسأل الناس الرزق.

(١) عائشة الحرة زوجة محمد الحادي عشر، ووالدة محمد الثاني عشر، اشتهرت في التاريخ باسم عائشة الحرة، وهي ابنة عم زوجها، وهي أم آخر ملوك الأندلس أبو عبد الله الزغل أو محمد الصغير، وكانت امرأة عاقلة حازمة، لعبت دوراً كبيراً في إنقاذ عرش غرناطة، وبثت روح المقاومة لدى أبنائها، ومازال الأسبان إلى يومنا هذا يذكرونها بالاحترام والتقدير، بل وكتبوا حولها القصص والأساطير، ومازالوا يحافظون على دارها في حي البيازين الشهير بغرناطة، وقد أطلقوا عليه دار الحرة، وذهبت مع ابنها إلى المنفى، حيث ماتت هناك. د. محمد عنان / «دولة الإسلام في الأندلس» (٤/ ١٩٧).



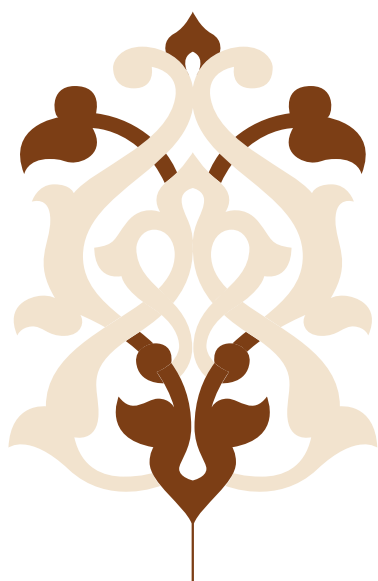
ولم تستطع الخلافة العباسية الهزيمة في مصر - ولا سلطنة المماليك التي كانت تعاني الضيق والضعف من أزماتها الداخلية، ولا المسلمون في شمال أفريقيا - نصرة إخوانهم في غرناطة، فالكل كان مشغولاً بما عنده من هموم داخلية، كما أن السلطنة العثمانية القوية التي كان يمكن لها المساعدة كانت مشغولة بالحروب في أوروبا، ولعلها ارتأت أن تحقيق الانتصار على أوروبا والوصول إلى الأندلس من خلالها، هو أفضل وسيلة لاستنقاذها وإعادة تأسيسها إلى الدولة الإسلامية، ولكنه كان هدفاً لم يتمكنوا من تحقيقه.

ولم يف الأسبان بعهدهم للمسلمين في غرناطة سوى فترة قصيرة، أصدرها مرسوماً يخيّر المسلمين بين أن يتحولوا إلى النصرانية، أو أن يغادروا البلاد، ثم اتخذوا من أجل ذلك إجراءات، منها إغلاق المساجد، وتحويلها بعد ذلك إلى كنائس، وإحراق المخطوطات والكتب العلمية، ومنع التحدث باللغة العربية، ومنع إظهار الشعائر الإسلامية، ثم قاموا بالتنكيل بمن يقيم الشعائر، أو يبقى على دينه، وساموهم أشد أنواع العذاب، فيما سمي في التاريخ بمحاكم التفتيش، مما أدى إلى فرار الكثير من المسلمين واليهود إلى شمال أفريقيا ومصر والسلطنة العثمانية، وتحول الكثير إلى النصرانية، حتى أتى العام (١٠١٧هـ / ١٦٠٩م)، والأندلس خالية تماماً من العرب، بعد أن خرج منها العرب المسلمون.



الفصل الثاني

الحمّلات الصليبيّة البرتغاليّة والإسبانيّة على العالم الإسلاميّ



الالتفاف حول العالم الإسلامي وحقيقة الكشف الجغرافية.

أهمّ الأحداث
وأبرز الوقائع في عهد
الخلافة العبّاسيّة في مصر
«٢»



لم يكتفِ الأسبان والبرتغاليون بسقوط الأندلس وإخراج المسلمين منها وما قاموا به من التنكيل بالمسلمين في الأندلس، بل تعدّوا ذلك إلى تتبع المسلمين خارج الأندلس عبر البحار سواءً إلى شمال أفريقيا أو بالالتفاف والدوران حول العالم الإسلامي لإحكام قبضتهم عليه، بالسيطرة على مواطن القوة الاقتصادية المتمثلة في الحركة التجارية بين المشرق والمغرب، واكتشاف طرق بحرية جديدة، لا تمر بأراضي المسلمين.

ولقد سبق البرتغاليون الأسبان في ذلك قبل سقوط غرناطة بسنوات، حيث إنهم اعتمدوا في ذلك على كتب الجغرافيين والرحالة المسلمين، وقد استعانوا بما وجدوه منها في مكتبات الأندلس الزاخرة، وباليهود الذين قاموا بجمع المعلومات والمخطوطات من العالم الإسلامي، وسلموها إليهم، وقد استغلها البرتغاليون والأسبان لتحقيق أطماعهم الاستعمارية، فيما يسمى بحركة الكشف الجغرافية.

فلقد كان للمسلمين معرفة بالملاحة وعلوم البحر، وكانوا متقدمين على غيرهم من الأوروبيين في هذا الميدان، وقد بذل الأوروبيون جهداً كبيراً في تعرف علوم المسلمين، واستغل النصارى اليهود في مجال الترجمة من العربية والتجسس لحسابهم لجمع المعلومات البحرية، وكان اليهود قد التجؤوا إلى البرتغال، ومعهم علوم العرب وخرائطهم وجداولهم الفلكية، وكانوا قد ترجموها إلى العبرية، وهذه العلوم الإسلامية لها أكبر الأثر في تقدم البرتغاليين في مجال الرحلات البحرية.

وقد ساعد اليهود على نجاحهم في عمليات التجسس معرفتهم باللغة العربية.

وقاموا برحلات بين المشرق والمغرب براً وبحراً، بغرض جمع المعلومات عن الطرق البحرية من الغرب إلى الشرق، وعن الرحلات التجارية إلى الهند والصين، وعن مقدرة المسلمين العسكرية والبحرية، وتظاهر هؤلاء بأنهم مسلمون.

ففي سنة (٨٩٢هـ / ١٤٨٧م) - أي قبل رحلة فاسكودجاما بعشر سنوات - قامت جماعة من الجواسيس اليهود متخفين في زي المسلمين بالسفر إلى مصر، وقد انخرط هؤلاء الجواسيس في قافلة الحج المتجهة من المغرب إلى الحجاز عبر مصر، ثم ألقوا من السويس إلى جدة، ومنها استقلوا سفينة متجهة إلى الهند.



وفي هذه الرحلة تمكنوا من جمع كثير من المعلومات عن طرق التجارة، ووضع المراكز التجارية بالهند، ثم عادوا إلى البرتغال عن طريق مصر، وفي القاهرة التقى هؤلاء الجواسيس ببعثة تجسس يهودية أخرى، كانت تضم جمعاً من اليهود، وانضموا إلى هذه البعثة، واتجه الجميع إلى هرمز، ومروا في طريقهم على «زيلع» على البحر الأحمر،^(١) ومنها إلى الحبشة، ثم عادوا إلى مصر، ومنها إلى البرتغال.^(٢)

ومن الأخطاء التي وقعت في دراسة هذه الظاهرة أنها تدرس من منظور الغرب الصليبي الحاقد، على أنها نشأت بحجة بحث الأوروبيين عن ظروف اقتصادية أفضل، واكتشاف أماكن لهم واستغلالها.

وعرض هذه الظاهرة بهذه الصورة عبر الإعلام ومناهج التعليم يحقق هدفاً مقصوداً، وهو الدفاع عن الغرب النصراني، وأن حملاته لم تكن حملات صليبية، والواقع أن كل من يمعن النظر في هذه الظاهرة، وظروفها، وما صاحبها من ملابسات سياسية ودينية يدرك أن الأمر غير ذلك، كما يعي جيداً أن هذه الحملات كانت دوافعها صليبية منذ البداية متعصبة ومسرفة في عدائها للمسلمين، وخاصة صراع ماجلان مع مسلمي جزر عذراء ماليزيا، والذي انتهى بمقتله، ودخول المسلمين في دوامة الصراعات مع الصليبيين الأسبان، وانتهى الأمر بتحويل تلك الجزر إلى جزر نصرانية، باسم الفلبين على اسم ملك أسبانيا فليب.

وكان خروج الأسبان والبرتغاليين قد سبق ذلك في أول الأمر إلى أقاليم المغرب الإسلامي، واحتلال موانئه المطلة على البحر المتوسط والمحيط الأطلسي، واحتلال الأقاليم الإسلامية في أفريقيا الواقعة جنوب المغرب العربي.

وقد حققوا نجاحاً في احتلال بعض الموانئ بالمغرب العربي والإسلامي، وامتد الصراع في هذه الجهة زمناً طويلاً، حيث صمد المسلمون في الدفاع عن شمال أفريقيا، وذلك

(١) زيلع: تقع زيلع بالقرن الإفريقي في الشمال الغربي من الصومال، على ساحل خليج عدن في البحر الأحمر، وكانت تتبع مصر في عهد الخديوي إسماعيل. الحموي/ «معجم البلدان» (٣/ ١٨٤) بتصرف.

(٢) د. مصطفى رمضان «الخلافة في التاريخ الحديث والمعاصر».

بفضل الله عز وجل، ثم بتضامن المغاربة مع العثمانيين في جهادهم ضد الصليبيين، وقد خرج المسلمون بأمثلة عظيمة في التضامن تهديهم إلى مفاتيح النصر على عدوهم، إن هم أرادوا إلى ذلك سبيلاً.

توزعت الأدوار بين الأسبان والبرتغاليين على العالم الإسلامي، فبينما يلتف البرتغاليون جنوباً حول أفريقيا، ينطلق الأسبان نحو الغرب عبر الأطلسي، بقصد الوصول إلى شرق بلاد المسلمين في جزر الهند الشرقية وإحكام القبضة عليهم.

ولقد عمل البرتغاليون على الاتصال بمملكة الحبشة النصرانية، للتحالف معها من أجل تطويق البلاد الإسلامية من الجنوب، وخاصة مكة والمدينة.

ونلمس ذلك من رائحة الحقد الصليبي التي تبدو واضحة من الرسائل المتبادلة بين ملك البرتغال «عمانوئيل» وملكة الحبشة «إليني»، ومن ذلك ما جاء في إحدى هذه الرسائل التي قامت فيها ملكة الحبشة بالرد على ملك البرتغال:

«بسم الله، والسلام على عمانوئيل سيد البحر، وقاهر المسلمين القساة الكفرة، تحياتي إليكم، ودعواتي لكم، لقد وصل إلى مسامعنا أن سلطان مصر جهّز جيشاً ضخماً ليضرب قواتكم، ويثأر من الهزائم التي ألحقها به قوادكم في الهند، ونحن على استعداد لمقاومة هجمات الكفرة، بإرسال أكبر عدد من جنودنا في البحر الأحمر، وإلى مكة، أو جزيرة باب المندب، وإذا أردتم نسيروها إلى جدة أو الطور، وذلك لتقضي تماماً على جرثومة الكفر، ولعله قد آن الأوان لتحقيق النبوءة القائلة بظهور ملك مسيحي، يستطيع في وقت قصير أن يبيد الشعوب الإسلامية المتبربرة.

ولما كانت قواتنا متوغلة في الداخل، وبعيدة عن البحر - البحر المتوسط - الذي ليس لنا فيه قوة أو سلطان، فإن الاتفاق معكم ضروري، إذ إنكم أهل بأس شديد في الحرب البحرية»^(١).

(١) محمود شاكر / «التاريخ الإسلامي» (١٦ / ٢٢).



وكانت البابوية قد شجعت هذا المخطط الصليبي لغزو الإسلام في عقر داره، ولقد عبّر ملك البرتغال عمانويل عن ذلك بقوله: إن الغرض من اكتشاف الطريق البحري إلى الهند هو نشر النصرانية، وقطعُ طريق البحر الأحمر الذي يتحكم فيه المسلمون.

وكان من أهدافهم عرقلة حركة التجارة والموارد المالية، التي كانت دولة المماليك تستفيد منها في صورة جمارك ورسوم، على البضائع التي تمر عليهم من الشرق إلى أوروبا أو العكس، كما أرادوا أيضاً الحصول على ثروات الشرق وخيراته.

ولقد سيطرت على الأسباب والبرتغاليين فكرة تحويل أعدائهم المسلمين إلى النصرانية، أو على الأقل أن يكونوا تبعاً لهم على الدوام.

رحلات البرتغاليين الاستعمارية الصليبية

المرحلة الأولى:

استطاع البرتغاليون أن يستفيدوا من كتابات وخرائط المسلمين، وأن يوظفوها من أجل تنظيم رحلات بحرية، لتحقيق أهدافهم الاستعمارية، ونشر الديانة النصرانية.

كما استعان البرتغاليون ببعض البحارة المسلمين، منهم «أحمد بن ماجد النجدي»^(١)، صاحب كتاب «الفوائد في أصول علم البحار والقواعد».

ولقد بدأت حملاتهم منذ عهد ملك البرتغال حنا الأول، وذلك قبل سقوط غرناطة بمحاولة تطويق المسلمين، فلقد أعطى الأوامر لجيشه لحملة صليبية على المسلمين في مراكش، واستطاع أن يحتل سبتة، ونصب ولده هنري الملاح حاكماً عليها، ثم توجهوا إلى السواحل الإفريقية الغربية، حتى وصلوا إلى الرأس الأخضر، وتجاوزوا بعد ذلك خط الاستواء، ثم وصل قائد حملاتهم إلى الجنوب من أفريقيا، ودار حولها إلى أن وصل إلى سواحل أفريقيا الشرقية المطلة على المحيط الهندي، وقد أطلق على الطرف الجنوبي للقارة الإفريقية رأس العواصف، غير أن ملك البرتغال غيره إلى رأس الرجاء الصالح، حيث كان يأمل تطويق المسلمين من هذه النقطة.

كل ذلك وهذه الحملات يحدوها الأمل لتطويق المسلمين، وإغلاق بلدانهم عليهم من جهة البحر، والعمل على نشر النصرانية في السواحل التي يصلون إليها، والاتصال بنصارى الشرق للاستفادة منهم في هذه المهمة.

استطاع البرتغاليون في هذه المرحلة أن يستفيدوا من معلومات بحرية هامة، تخلصهم من لغز الهدوء الاستوائي، حيث تهدأ الرياح في هذه المنطقة، فلا تتحرك السفن الشراعية هناك، وذلك عن طريق معرفتهم بأزمة حركة الرياح من خلال خبرات المسلمين هناك.

(١) أحمد بن ماجد بن محمد السعدي النجدي، شهاب الدين الملقب بالسائح ماجد، هو الريان الذي أرشد فاسكو دجاما قائد أسطول البرتغاليين في رحلته الاستكشافية على ساحل أفريقيا الشرقية، توفي في سنة (٩٠٤هـ). الزركلي / «الأعلام»، (١/ ٢٠٠).



المرحلة الثانية:

أرسلت البرتغال حملة صليبية بقيادة فاسكودجاما الذي توافرت لديه المعلومات التامة والهامة لنجاح رحلته، واستطاع الوصول إلى رأس الرجاء الصالح سنة (٩٠٣هـ - ١٤٩٧م)، وقام بالدوران حول أفريقيا، واستطاع الوصول إلى زنجبار^(١)، واستولى على مدينة وميناء كولوه داخل زنجبار، والتقى في مالندي بالرحالة المسلم أحمد بن ماجد، الذي كان دليلاً له على طريق الهند، الذي كان هدفاً لفاسكودجاما.

وعند وصول البرتغاليين إلى السواحل الهندية، وقفوا بأنفسهم على الأسعار الحقيقية للبضائع الشرقية، من التوابل والعطور وغيرها من التجارات.

كما وقفوا على أهم ما جاؤوا إليه، وهو حقيقة قوة المسلمين العسكرية، وخاصة البحرية في تلك المناطق، فلم تكن المدافع والبارود قد استخدمت بعد بسبب إهمال الممالك المسؤولين عن حماية العالم الإسلامي آنذاك، وانشغالهم بمشكلاتهم الداخلية^(٢)، فلقد تأكد البرتغاليون من تفوق سلاحهم البحري وسفنهم على السفن الإسلامية في الهند، بل في المحيط الهندي.

وعند عودتهم إلى البرتغال استقبلت لشبونة عاصمة البرتغال فاسكودجاما استقبال الفاتحين، بعد رحلة استمرت نحو عامين، استطاع خلالها أن يقف على أحوال العالم الإسلامي عامة، والعسكرية والتجارية خاصة، ثم بدأ البرتغاليون في الإعداد لحملة صليبية، لبناء مراكز استعمارية صليبية في الشرق.

(١) تقع في شرق أفريقيا، وكان يعيش بها العرب من عمان واليمن إلى جانب الأفارقة.

(٢) وياليت الممالك استفادوا من أهل غرناطة، وقاموا بصناعة مدافع البارود، كما استفاد خصومهم من النصارى الذين أخذوها وطوروها، ذكر الأستاذ الدكتور أحمد الطوخي في كتابه: «مظاهر الحضارة في الأندلس في عصر بني الأحمر»، (ص: ٢٣٨)، وكذلك ذكر د. عز الدين فراج في كتابه: «فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوروبية» وصف ابن الخطيب للمدفع الذي استعمله أهل غرناطة عند هجومهم على قلعة أشكر سنة (٧٢٤هـ)، وما أحدثه هذا المدفع من دعر في صفوف القشتاليين، وهذا الوصف يعتبر من أقدم النصوص التاريخية حول استعمال المدفع، وهذا في كتابه: «اللمحة البدرية». كما تؤكد المصادر الأسبانية ذلك، وتشير إلى أن ملك غرناطة يمتلك سلاحاً جديداً ميبداً، أي أن مسلمي الأندلس قد توصلوا لاستعمال المدفع والبارود قبل أن يتوصل إليه الأوروبيون.

كما تؤكد زغريد هونكه في كتاب: «شمس العرب تسطع على الغرب»: أن الأوروبيين لم يعرفوا المدفع إلا من الأندلسيين (ص: ٥٠) - عز الدين فراج «فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوروبية» (ص: ١٢٤).

واتصف نشاطهم البحري الاستعماري في هذه المرحلة بامتزاج العوامل الدينية الصليبية بالعوامل الاقتصادية، حتى إن حملاتهم كانت تضم القساوسة والمنصرين، لتحقيق هذا الغرض.

ولقد اتصفت مواقفهم من الشعوب الإسلامية بالعداء والكراهية، واستخدام أسوأ أنواع العنف، والتعدي عليهم وعلى مدنها ومقدساتهم، حتى إنهم عند دخولهم إلى مدينة كيلوا في شرق أفريقيا كان بها ثلاثمائة مسجد، دمروا معظمها بمجرد دخولهم إلى هناك، وذلك في سنة (٩١١هـ - ١٥٠٥م)، وقاموا بالعمل على طرد المسلمين من قواعدهم التجارية بالهند وسواحل أفريقيا، ولم يكتفوا بذلك، بل ظلوا وراء السفن التجارية الإسلامية، يعرقلونها، ويطاردونها، ويعملون على إغراقها أو الاستيلاء عليها^(١).

كما قام فاسكودجاما بالتعدي على إحدى السفن الإسلامية التجارية، والتابعة لسلطان مصر، واسمها مريم، وكانت متوجهة إلى جدة، تحمل عدداً كبيراً من الحجاج الذين واجهوا حتفهم على يد فاسكودجاما ومن معه، رغم أن هذه السفينة تجارية غير مسلحة، واستولى فاسكودجاما على ما بها من أموال وبضائع، ثم أمر بإغراقها بمن بقي عليها من الركاب، وهم أحياء.

ولم يكتفِ فاسكودجاما بذلك، بل قام بعمل أسوأ، لطخ اسمه بالعار، عندما قام بمذبحة خمسين بحاراً من مسلمي كاليكوت الذين دافعوا عن أنفسهم، وقام بقطع أيديهم وآذانهم، وأرسلها إلى المدينة، ثم قام بضرب المدينة بالمدفعية حتى تهدم معظمها، واحترقت منازلها الريفية بما في ذلك القصر الملكي^(٢).

واستطاع البرتغاليون أن ينتصروا على المسلمين بسبب ما لديهم من مدافع قوية وسلاح حديث، وقام البرتغاليون بنهب الغنائم، بعد المعركة، من سفن المسلمين.

كما قام فاسكودجاما بوضع سفن عند مدخل البحر الأحمر، لمنع السفن التجارية الدخول إليه إلا بإذن منهم، وذلك لقطع طريق الحج، ولضرب المسلمين في اقتصادهم وتجارتهم التي تمر من هناك.

(١) محمود شاكر «التاريخ الإسلامي»، (١٦ / ١٦٥)، وكذلك كتاب: «الكشوف الجغرافية»، (ص: ٢٧) / بتصرف.

(٢) د. مصطفى رمضان «الخلافة في التاريخ الحديث والمعاصر» - محمود شاكر «الكشوف الجغرافية»، (ص: ٢٧).



ولقد قام قائد البرتغاليين هناك في رجب سنة (٩٠٨هـ) بمهاجمة جزيرة سوقطره في مدخل خليج عدن، لإغلاق البحر الأحمر، وأقام البرتغاليون بها بعض التحصينات لهذا الغرض، ثم هاجموا عدن في نفس السنة، ولكن لم يستطيعوا أن يقتحموها.

ثم توجهوا إلى الخليج العربي لإحكام السيطرة عليه، فبدؤوا في غزو المراكز التجارية به، وأهمها من الجنوب إلى الشمال «قلهان - قريات - مسقط - صحار - خورفكان - هرمز - البحري - القطيف - البصرة» وارتكبوا أثناء ذلك الكثير من الفظائع والأعمال الوحشية كما سيأتي.

ثم قاموا بالسيطرة على مملكة هرمز الإسلامية^(١)، التي كانت تتحكم في مدخل الخليج العربي طوال قرنين من الزمان قبل الغزو البرتغالي، وتخضع لها غالب الإمارات الممتدة من البحرين والقطيف حتى الساحل العماني، وجعلوها في تبعية كاملة لهم.

ولقد كانت سفن البرتغاليين - ومن بعدهم الأسبان - تحمل على أشرعتها صور الصليب، كما نالت تلك الحملات دعم الباباوية لها، والتي أعلنت أن من يشارك في هذه الحملات سينال العفو عند الحساب، ويفوز بالجنة، وكما أسلفنا كان يرافق هذه الحملات القساوسة، مما يظهر الروح الصليبية التي سادت رجال هذه الحملات^(٢)، ويتضح ذلك جلياً من خطاب ألقاه البوكيرك على جنوده، قبل الهجوم الثاني على مدينة ملقا، في شبه جزيرة الملايو سنة (٩١٧هـ - ١٥١١م)، حيث قال: الخدمة الكبرى التي سنقدمها للرب عندما نطرد المسلمين من هذه البلاد، ونخمد نار هذه الطائفة المحمدية، حتى لا تعود للظهور بعد ذلك أبداً^(٣).

(١) يعتبر مضيق هرمز من أهم المضائق البحرية الاستراتيجية في العالم، إذ يمرُّ منه نحو نصف التجارة العالمية من البترول الخام والغاز المسيل، مما أكسبه أهمية كبرى في التاريخ المعاصر، ومما دفع المنطقة أن تكون محط أنظار القوى الاستعمارية المعادية للإسلام، وتحويل المنطقة إلى ساحة صراعات إقليمية لإضعافها وللسيطرة على مقدراتها الاقتصادية؛ مما يفسر لنا وجود القواعد العسكرية البحرية لبعض الدول الكبرى هناك.

(٢) كان فاسكو دجاما يقول: إنه يسعى لإنجاز مشروعين قبل موته الأول: تحويل مياه نهر النيل إلى البحر الأحمر، ليحرم مصر من ري أراضيها ولتدمير شبكة الري فيها، لأنها مقر الخلافة وأهم الدول الإسلامية آنذاك، حيث تمتلك رقعة واسعة من الأراضي الزراعية الممتازة في الوادي وفي الدلتا، ويتبعها الشام والحجاز.

الثاني: هدم المدينة النبوية، ونش قبر النبي ﷺ، واستخراج كنوزه - كان يتصور أن ضريح النبي ﷺ مليء باللآلئ والمجوهرات، كما عندهم في الفاتيكان - وأخذ رفات النبي ﷺ، وجعلها رهينة عند النصارى، حتى يسلم المسلمون لهم بيت المقدس. محمود شاكر «الكشوف الجغرافية» (ص: ٢٨).

(٣) محمود شاكر «التاريخ الإسلامي» (٣٠٦/٢٠).



الحملة الصليبية الأسبانية على عذراء ماليزيا:

يُقصد بعذراء ماليزيا - أو جزر الملوك - ذلك الأرخبيل الذي يضم مجموعة من الجزر، تقدر بحوالي مئة وسبعة آلاف جزيرة، وهي ما يسمى اليوم بجزر الفلبين، وتنقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسية:

١. لوزون في الشمال، وبها العاصمة مانيلا، والتي كانت تسمى بمملكة أمان الله، وحررها الصليبيون لصعوبة نطقها إلى مانيلا.

٢. بيسايس، ويتبعها عدة جزر، وتقع في وسط الأرخبيل، ومن أشهر جزرها سيبو.

٣. مانداناو، ويتبعها أيضاً عدة جزر في جنوب الفلبين، ويعيش فيها غالب المسلمين في الفلبين اليوم، وهي من أغنى مناطق الفلبين وأفضلها مناخاً.

وقد وصل الإسلام إليها مبكراً، بين القرنين السابع والثامن الهجريين، واستطاع المسلمون أن يؤسسوا بها مملكات وإمارات في مختلف الجزر، وعاشوا فيها حياة هادئة وهائلة إلى أن داهمهم الخطر الصليبي.

فقد وصل فريدناندو ماجلان^(١) بحملة صليبية عسكرية دينية إلى تلك الجزر، وقام بغزوها، واستطاع الاستيلاء على مجموعة منها، معظم سكانها من الوثنيين، في سنة (٩٢٧هـ / ١٥٢١م)، وأجبرهم على اعتناق النصرانية، وكان ماجلان يأمر بوضع الصليب على رؤوس الجبال التي في تلك الجزر، ثم تقدم نحو جزر مَكتان^(٢) بسيبو، والتي يحكمها السلطان المسلم لا بو لا بو، والذي قام بتنظيم قواته لمواجهة ذلك الخطر الصليبي.

وكان ماجلان يستعرض عضلاته الصليبية، وسلاحه المتفوق، حتى إنه منع أتباعه من النصرارى الجدد أن يساعدوه في حربه على السلطان لا بو لا بو، قائلاً لهم: أنتم فقط تشاهدون كيف يستطيع الرجل الأبيض رسول الرب إليكم كيف يقاتل^(٣).

(١) بحار برتغالي صليبي حاقد ولد سنة (٨٨٦هـ / ١٤٨٠م)، سافر إلى ملك أسبانيا وأقنعه بإعداد حملة صليبية بحرية للطواف حول العالم في سنة (٩٢٥هـ / ١٥١٩م)، وقد استعان بهذه الرحلة بما حصل عليه من كتابات المسلمين وخرائطهم، فمر بمضيق النار أسفل الأرجنتين - أمريكا الجنوبية - وقد تحول اسمه إلى مضيق ماجلان، ثم توجه إلى جزر الملوك الفلبين حيث لقي حتفه هناك على يد السلطان المسلم لا بو لا بو سنة (٩٢٧هـ / ١٥٢١م).

(٢) جزيرة صغيرة بجوار جزيرة سيبو.

(٣) د. محمد زيتون / المسلمون في الفلبين / مطبوعات جامعة الأزهر.



أرسل ماجلان رسولاً إلى السلطان لآبو لآبو يطلب منه التسليم، غير أن لآبو لآبو رفض هذا الأمر رفضاً باتاً، وأعد العدة لمواجهة ماجلان المتغطرس، ومن معه من جنود.

وبدأت الحرب بأن قام الصليبيون بضرب جزيرة مَكتان بالمدافع الحديثة، فأحرق الكثير من العشش والأكواخ، في الوقت الذي كان رجال لآبو لآبو يختبئون للأسبان على الأشجار، فلما هدأت النيران، ونزل الأسبان من المراكب، وعلى رأسهم ماجلان، تقدموا داخل الجزيرة، فإذا بهم يواجهون جيشاً، يسقط فوق رؤوسهم بقيادة لآبو لآبو، الذي تقدم نحو ماجلان، واستطاع أن يقتله بعد معركة سريعة، وفر من الأسبان من فر ذعراً، وعادوا خائبين، يجرون ذيل الهزيمة والخزي والعار.

وقد حاول الأسبان بعد ذلك الحصول على جثمان ماجلان، ولم يتمكنوا من ذلك رغم إغرائهم للسلطان لآبو لآبو بالأموال، إلا أنه رفض ذلك، فقاموا بعمل قبر وهمي، مازال قائماً في جزيرة سيبو في الفلبين، حفاظاً على سمعتهم بين النصاري الجدد هناك.

وقد خلدت دولة الفلبين هذا الموقف للسلطان لآبو لآبو، إذ إنها تحتفل بيوم وطني بذكرى انتصار لآبو لآبو على غزو ماجلان، كما أُطلق اسمه على أشهر أنواع الأسماك وأفضلها لدى السكان، تخليداً لذكرى لآبو لآبو، وقاموا بعمل نصب تذكاري له في مانيلا، وآخر في جزيرة سيبو، كما رسموا له رسماً، تضعه الشرطة الفلبينية ومكتب الدفاع المدني على شعارها^(١)، كما أطلقوا اسم مدينة لآبو لآبو على مدينة أوبون في سيبو، وكانوا يضعون صورة له على النقود من سنة (١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م) إلى سنة (١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م)، ومن العجيب أن اسمه أُطلق على شارع من شوارع مدينة سان فرانسيسكو بالولايات المتحدة الأمريكية^(٢).

(١) ناصر أبو العلا «مسلمو الفلبين واقع ومشكلات»، (ص: ٥).

(٢) الموسوعة الحرة.

• حملات صليبية جديدة:

عادت القوة المتبقية من الأسبان إلى أسبانيا بعد مقتل ماجلان، لتخبر فليب ملك أسبانيا بما جرى، مما دعاه إلى تشكيل حملات عسكرية بحرية صليبية كبيرة، للسيطرة على جزر عذراء ماليزيا، بلغت خمس حملات، قامت بأعمال شرسة، يندى لها الجبين بمجرد وصولهم إلى الجزر، وذلك في سنة (٩٧١هـ / ١٥٦٥م)، احتلوا على أثرها معظم الجزر، واستخدموا نفس الأساليب الوحشية التي استخدموها ضد المسلمين في الأندلس مع السكان المسلمين في الجزر، لتحويلهم إلى نصارى، تمهيداً للقضاء على الإسلام في هذه المناطق، وقد أطلقوا على المسلمين هناك اسم المورو^(١).

استطاع الأسبان بقدر الله ثم بقوتهم العسكرية وأسلحتهم المتفوقة أن يحتلوا معظم جزر عذراء ماليزيا وأطلقوا عليها اسم ملكهم فليب، فسموها بالفلبين وذلك بعد حروب صليبية حاقدة استغلوا بعدها خيرات البلاد وثرواتها المتنوعة، ولعل أدل دليل على ذلك ما كتبه الملك فليب الثاني للحاكم الأسباني في الفلبين قائلاً: لقد سمحنا لك بأن تستعبد المسلمين، وأن تستولي على ممتلكاتهم وتصادرهم، كما يمكنك أن تجعلهم عبيداً لكم خاصة، إذا أرادوا أن يبشروا بدينهم المحمدي، أو يحاربوك أو يحاربوا الهنود^(٢) رعايانا.

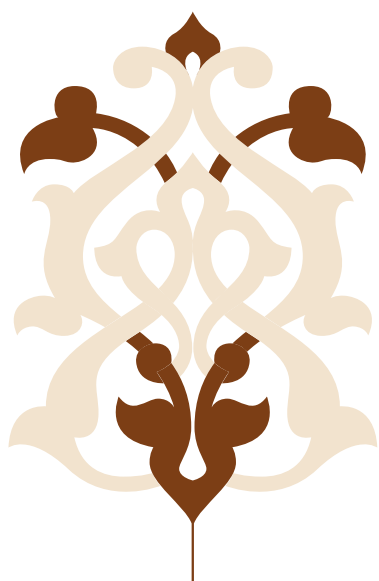
(١) أطلق الأسبان منذ قدومهم إلى جزر عذراء ماليزيا هذه اللفظة على المسلمين إذ أنهم كانوا يشبهون تماماً مسلمي الأندلس الذين قدموا من بلاد مورو - المغرب العربي - في شعائهم ومساجدهم وأذانهم وثيابهم، لذا قالوا عنهم المورو، وبقي هذا المسمى قائماً على المسلمين إلى يومنا هذا، حيث تشكلت أكبر قوة للمسلمين هناك باسم جبهة مورو الإسلامية، بقيادة الأستاذ سلامات هاشم رحمه الله. ناصر أبو العلا «مسلمو الفلبين واقع ومشكلات»، (ص: ٦).

(٢) أطلق الأسبان لفظه الهندي على كل سكان المشرق، وأطلقوها في الفلبين على من دخل في دين النصرانية هناك.



الفصل الثالث

الحمالات الصليبية البرتغالية
على البحرين والخليج العربي



أهم الأحداث
وأبرز الوقائع في عهد
الخلافة العباسية في مصر
((٣))

أصبح مضيق هرمز - بعد سيطرة البرتغال على مملكة هرمز - في يد البرتغاليين، الذين استطاعوا التحكم في السفن التجارية التي تمر منه وإليه، كما عملوا من قبل على إغلاق مضيق باب المندب عند فم البحر الأحمر الجنوبي، لإغلاق البحر الأحمر أمام السفن التجارية القادمة من المشرق، والتي كانت تنقل البضائع من مصر إلى أوروبا، عن طريق الوسطاء البحريين، والتجار البنادقة من إيطاليا من جهة، ومن جهة أخرى لمحاولة الوصول لتدمير مكة والمدينة.

وقد عبّر عن ذلك صراحة ملك البرتغال عمانويل، في الرسالة التي أرسلها إلى بابا النصاري يوليوس الثاني سنة (٩١١هـ / ١٥٠٥م) قائلاً له: إنه ليس عازماً على المضي في قتل التجارة المملوكية والقضاء عليها فقط، بل إنه سيعمل ويجاهد في سبيل المسيحية، حتى يجعل من مكة هدفاً لمدافعه وجنوده^(١).

وقد استغل البرتغاليون تراجع قوة دولة المماليك المسؤولة عن حماية المسلمين في المشرق والمغرب، حيث مركز الخلافة العباسية في القاهرة، وأرادت البرتغال أن تؤسس لنفسها إمبراطورية استعمارية واسعة في المشرق، فقاموا بتعيين الفونسو ألبوكيرك^(٢) على قيادة الأسطول العسكري المتوجه إلى المشرق، لتأسيس الإمبراطورية البرتغالية هناك.

في بداية الأمر توجه ألبوكيرك سنة (٩١٢هـ / ١٥٠٦م)، وهاجم مع البرتغاليين جزيرة سوقطره، لتكون للبرتغاليين مركزاً لإغلاق البحر الأحمر، وقد لقي مقاومة شديدة من حاميتها، وانتهى الأمر باستيلائه على قلعة الجزيرة، وأمر بقتل حاميتها، وعين فرانسيسكو حاكماً عليها.

ثم توجهت قوة البرتغاليين إلى شن الغارات على سواحل الخليج، خاصة عمان التي كانت تعد أكبر قوة عربية في الخليج آنذاك، وقام ألبوكيرك بإعطاء الأوامر بتدمير جميع السفن العمانية الراسية في الموانئ، كعادة الصليبيين في حقدهم فإنهم يحرقون الأخضر

(١) محمد محمود السروجي / «الوثيقة»، دورية تاريخية، (١٧/٥٨).

(٢) ألفونسو دي ألبوكيرك قائد عسكري برتغالي صليبي حاقداً، يعد أسوأ قائد عسكري احتل الخليج، منحه ملك البرتغال عمانويل الأول لقب دوق كأول من يحمل ذلك اللقب من غير الأسرة المالكة، ساهم في الحملة الأوروبية ضد العثمانيين التي كان هدفها فتح روما، وعمل في الخدمة العسكرية بمدينة أزلال بالمغرب لبعض الوقت، ثم عاد إليها مرة أخرى، وعمل على تثبيت حكم البرتغاليين في أفريقيا وآسيا. الموسوعة الحرة.



واليابس كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

وقام بالاستيلاء على جزر كوريا موريا، في جنوب شرقي ظفار على سواحل بحر العرب، وتوجه إلى جزيرة مصيرة، ومنها إلى صور، حيث لقي مقاومة من أهلها، ثم هاجم البرتغاليون قلعات وقلعتها في سنة (٩١٣هـ / ١٥٠٧م)، وهاجم قريات، فقاومه أهلها، غير أنه دمر ما كان راسياً هناك من السفن، والتي تبلغ نحو ثلاث وثمانين سفينة، وفعل بأهلها الأفاعيل، وكذلك فعل بمسقط، وخر فكان، وحوّلها إلى خراب بعد الازدهار.

كما احتل صحار، وقام بعقد معاهدة مع أهلها على عدم المقاومة، غير أنه نقض المعاهدة، وارتكب فيها من الفظائع والوحشية ما يشيب له الولدان، حيث قتل عدداً كبيراً من السكان بوحشية متناهية، مما يدل على بربريتهم، وحقدهم الدفين على الإسلام وأهله، فهم يدمرون، ويحرقون المساجد، ويمثلون بجثث الناس، ويشوهونها، وكان ألفونسو دي ألبوكريك يشرف بنفسه على هذه الأعمال الهمجية الصليبية.

وعمل الغزو البرتغالي على قطع تجارة العمانيين، وتدمير جميع الموانئ بها، وأقام هناك قلاعاً عسكرية، وأخضعها تحت سيطرته.



ثم هاجم القائد البرتغالي تريستاو بأمر ألبوكريك جزيرة هرمز، وهي التي تمثل موقعاً استراتيجياً عند مدخل الخليج، ومحطة تجارية هامة، وأخضعها لسيطرته، ولم تُغنِ محاولات حاكمها العربي سيف الدين في الدفاع عنها في سيطرة البرتغاليين عليها، فاضطر إلى التفاوض مع ألبوكريك، وقبول شروطه بدفع جزية سنوية له، كما يسمح لمرور السفن البرتغالية والبضائع دون أي رسوم.



ولم تخلُ مدينة من المدن التي هاجمها البوكيرك مع البرتغاليين من مأساة، جُراء ما فعل فيها الصليبيون، فلم يتركوا الشيوخ والأطفال والنساء، خاصة الذين ينتسبون للمقاومين العرب المسلمين، كما فرضت الضرائب الباهظة على بقية السكان.

وانتهى الأمر بالبوكيرك أن عُين مندوباً ونائباً عن ملك البرتغال في حكم الهند، في سنة (٩١٥هـ / ١٥٠٠م)، مكافأة له على المجازر الوحشية التي ارتكبها في حق المسلمين، وبقي في منصبه هذا إلى هلاكه بالموت، عليه من الله ما يستحقه.

لم تقف أطماع البرتغاليين إلى هذا الحد، بل إنهم تقدموا في سنة (٩٣١هـ / ١٥١٥م) إلى سواحل الخليج العربي، ومنها سواحل البحرين، واستطاعوا أن يضموها إليهم، مع معظم موانئ الخليج العربي، وبقوا هناك، حتى أرسل خليفة المسلمين السلطان العثماني سليمان القانوني جيشاً بحرياً بقيادة سليمان باشا، استطاع أن يسترد عدن، وأن يحصن بلاد اليمن، وأن يدخلها كاملة في حوزة الخلافة الإسلامية، كما استطاع مع جيشه المؤلف من عشرين ألف جندي السيطرة أيضاً على مسقط، وجزيرة هرمز، غير أنه عندما تقدم إلى الهند لم يتمكن من طرد البرتغاليين هناك.

واستطاع العثمانيون في حملة سليمان باشا أن يتوجهوا إلى البحرين، وأن يطهروها من البرتغاليين، سواء في الأحساء، أو في جزيرة البحرين، وقُضي على بقائهم بعد احتلال لهذه المنطقة نحو مئة سنة.

قال النبهاني^(١): وقد جاء في «التحفة الحليمية»، لصاحبها عبد الحليم الفارسي أن العثمانيين هم الذين أخرجوا البرتغال من الخليج جميعه. ا.هـ.

وتعتبر فترتهم من أحلك الفترات في التاريخ للوطن العربي، فلقد أظهر ذلك الشعب أنه كان ممتلئاً حتى الثمالة بغضاً للمسلمين وحقداً، وتعطشاً لسفك دمائهم، ونهب ديارهم^(٢).

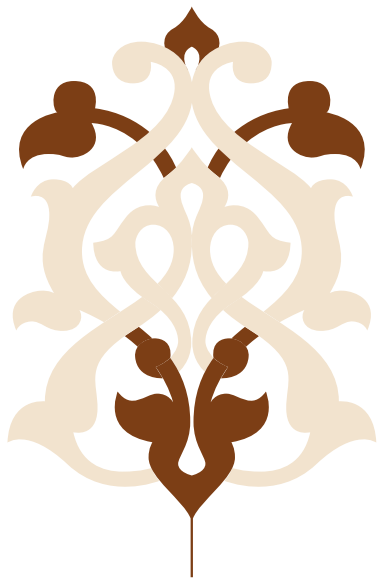
(١) «التحفة النبهانية»، (ص: ٧٣).

(٢) أحمد العناني «البرتغاليون في البحرين وحولها خلال القرنين» ١٦ و ١٧ / «الوثيقة»، (١ / ٧٥-٧٦).



الفصل الرابع

ظهور الدولة الصفوية في إيران



أهم الأحداث
وأبرز الوقائع في عهد
الخلافة العباسية في مصر

((٤))

• تمهيد:

عاشت فارس ظلامَ المجوسية لسنوات طويلة، تحكمها الأسرة الساسانية، إلى أن أشرقت بنور الإسلام، وفتحت في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ودخل معظم شعبها طوعاً في الإسلام، سوى سدنة المعابد، وخُدام نارِ المجوسية، الذين أبطنوا الكفر، وأظهروا الإسلام تقية من السيف، فكان لهم دور خطير في مسيرة الإسلام لتلك البلاد وغيرها إلى زماننا هذا، وقد اتخذوا من محبة آل بيت النبي ﷺ زوراً مطية، يركبونها من أجل إفساد عقائد المسلمين، وفتيت الدولة الإسلامية، كلما أتحت لهم الفرصة.

وعندما قدم المغول من المشرق، كانوا خير معين لهم، للعلو على المسلمين، وقتلهم وإحراق بلادهم، فهذا وزير هولاءكو النصير الطوسي الباطني الإسماعيلي^(١)، وذاك الوزير محمد بن العلقمي الرافضي الاثني عشري^(٢)، والذي ييؤء بإثم ما جرى في بغداد، وهكذا كان دورهم الدائم في إثارة القلاقل والفتن، في بلاد المسلمين، ويدعون لكل أعداء الإسلام في بلاد المسلمين، فلقد التقت أهواؤهم بأهواء المغول، واجتمعوا في بغض الإسلام والمسلمين، ولذلك تقدم المغول إلى الغرب من العالم الإسلامي، يعينهم في ذلك هؤلاء القوم من الباطنية والمتلونين الفرس.

(١) النصير الطوسي الباطني الإسماعيلي: محمد بن محمد بن الحسن أبو جعفر نصير الدين الطوسي، فيلسوف باطني، كان رأساً في العلوم العقلية، ولد بطوس قريب من نيسابور سنة (٥٩٧هـ)، عمل بالتنجيم واتخذ من أجل ذلك قبة ومرصداً عظيماً في مراغا، وجعل به منجمين لرصد الكواكب، وأجرى عليهم معاشات، وجعل لهم أوقافاً لذلك، قربه هولاءكو لمعرفته ببغضه للإسلام وأهله، فهو إسماعيلي باطني، وكان هولاءكو يطيعه فيما يشير به عليه، اتخذ خزنة مألهاً من الكتب التي نهبت من بغداد والجزيرة والشام، اجتمع فيها نحو أربعمئة ألف مجلد.

سماء ابن قيم الجوزية في «إغاثة اللهفان»: نصير الشرك والكفر والإلحاد، وزير الملاحدة، النصير الطوسي وزير هولاءكو. كان سبباً في ذبح المسلمين في بغداد ورأساً في فتنة ضياع الدولة، وسبباً في قتل الخليفة المستعصم آخر الخلفاء العباسيين في بغداد، وسبباً في قتل القضاة والفقهاء والمحدثين، ونقل المدارس والمساجد والربط إلى الفلاسفة والمنجمين والسحرة، وجعلهم خاصته وأولياءه، ونصر في كتبه الضالة قَدَمَ العالم وبطلانَ المعاد، وإنكار صفات الرب جل جلاله من العلم والقدرة والحياة والسمع والبصر، وأنه ليس فوق العرش إله يعبد البتة «تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً».

اتخذ للملاحدة مدارس، وجعل كتب ابن سينا إمام الملحدتين مكان القرآن، وقال عن بشارات ابن سينا: هي قرآن الخواص، وعن كتاب الله جل وعلا: قرآن العوام، وأراد تغيير الصلاة إلى صلاتين، فلم يتم له الأمر، والحمد لله، عمل بالسحر في آخر أيامه، فكان ساحراً يعبد الأصنام. هلك في ذي الحجة ببغداد سنة (٦٧٢هـ). ابن العماد «شذرات الذهب»، (٧/ ٥٩٢) - الزركلي «الأعلام»، (٧/ ٣٠).

(٢) محمد بن العلقمي الرافضي: محمد بن أحمد بن علي البغدادي المعروف بمؤيد الدين ابن العلقمي، وزير الخليفة المستعصم العباسي، رافضي اثني عشري، صاحب الجريمة النكراء والبلية الشنعاء في غزو بغداد.

ولي الوزارة أربعة عشر عاماً، وللمستعصم لمدة قصيرة، ونال ثقة المستعصم، فألقى إليه زمام أمور الدولة، أراد نصرة دين الرافضة على دين محمد ﷺ، إلا أن الله جل وعلا أهانه على يد التتار الذين عاونهم على جريمتهم في حق الإسلام، فسروه معهم في صورة بعض الغلمان، حتى إنه كان يقول وهو في حالة الهوان: وجري القضاء بعكس ما أمثله، ومات كمدأ وغماً في نفس العام، لا رحمه الله.

ابن العماد «شذرات الذهب»، (٧/ ٤٧٠) - الزركلي «الأعلام»، (٥/ ٣٢١).



أسس هولاكو في إيران الدولة الإلخانية^(١)، على حساب الإمارات الإسلامية السنية هناك، وقد أصيب بالصرع في نهاية أمره، ولقد كان شديد الكراهية للمسلمين، خاصة بعد زواجه من امرأة نصرانية، من بنات الأمراء الصليبيين، والتي عملت على تشجيعه على إبادة المسلمين، غير أن الله تعالى أراد أمراً آخر، إذ إنه قد عهد في أواخر أيامه بتربية ابنه الثاني تكودار لمربٍ مسلم، يُنشأه على الفضيلة وحسن الخلق.

وهلك بعدها هولاكو سنة (٦٦٣هـ)، وقد ترك خلفه ولده آباق خان الذي قاد الدولة الإلخانية بعد أبيه، وخاض حروباً عدة، انهزم في معظمها، بعد أن ورث عن أبيه كراهية المسلمين، وورثه لابنه من بعده أرجون، وقد استن سنة أبيه بأن تزوج نصرانية، هي ابنة إمبراطور القسطنطينية، بتخطيط صليبي، لتقوية مركزه ضد المسلمين، وظل كذلك في كراهيته للإسلام والمسلمين إلى أن هلك سنة (٦٨٠هـ).

تولى من بعد آباق خان أخوه تكودار بن هولاكو، الذي رُبي على يد مربٍ مسلم، فكان أول من أسلم من أسرة هولاكو، وأطلق على نفسه اسم أحمد، وحاول إقامة علاقات طيبة مع دولة المماليك المسلمة، والمتمثلة في السلطان قلاوون سنة (٦٨١هـ)، غير أن أرجون بن آباق خان -بدعم صليبي- تمرد على عمه أحمد تكودار، وقام بقتله، وتولى الحكم مكانه، وتحالف مع الصليبيين والأرمن ضد المماليك، وما لبث أن هلك سنة (٦٩١هـ).

وتسلم مكانه أخوه كيغاتو لمدة سنتين حتى قُتل سنة (٦٩٣هـ)، ثم تولى بعده ابن عمه بيدو، والذي قُتل سنة (٦٩٥هـ)، وتولى من بعده قازان، والذي كان يعتنق الديانة البوذية، ثم نبذها، وأعلن إسلامه سنة (٦٩٤هـ)، وتسمى باسم محمود، فتولى الحكم، وهو على الإسلام سنة (٦٩٥هـ)، مما كان دافعاً لأسرة تولوي بن جنكيز خان للدخول إلى الإسلام، ومعهم سبعون ألفاً من التتار، وأعلنت الدولة الإلخانية الإسلام.

لم يستقر الإسلام بحقيقته في قلوب هؤلاء القوم، حيث إن تعلقهم بالحكم والسلطنة غلب عليهم، مما حدا بهم إلى الصراع في حروب متعاقبة مع دولة المماليك المسلمة، وقد مُني هؤلاء بهزائم عدة، كان من أشهرها معركة شقحب سنة (٧٠٢هـ)، والتي أسلفنا الذكر عنها.

(١) الإلخانية: هو اسم للدولة التي أسسها تيمور لنك.

توفي محمود قازان سنة (٧٠٣هـ)، وتولى أخوه ألقايتو الحكم من بعده، وكان ألقايتو قد نشأ على النصرانية، ثم اعتنق الإسلام، وتسمى باسم محمد خدابنده، واعتنق بعد ذلك ديانة الرافضة الاثني عشرية سنة (٧٠٩هـ)، وأخذ يحمل رعيته على اعتناقها بالقوة، وخاض حروباً مع دولة المماليك السنية، ومُني بهزائم متعددة، ورغم ذلك أراد أن يهاجم مكة دعماً لرجل يقال له حميضة بن أبي نما من الرافضة؛ وشاء الله تعالى أن يهلك خدابنده، فلم تحدث الحرب.

وقد تولى من بعده ولده أبو سعيد، والذي في عهده ظهرت شوكة أهل السنة مرة أخرى، بعد أن تدهورت الأوضاع في الدولة الإلخانية، وظهرت فيها الانقسامات والإمارات المختلفة، فعمت الفوضى البلاد، وانتهت الدولة الإلخانية بعد أبي سعيد.

ثم كان دور تيمورلنك الراضي الاثني عشري سنة ٧٨٤هـ، عندما اجتاحت البلاد، وسيطر عليها، وظلت في قبضته إلى أن هلك، فتجزأت مملكته من بعده، وتوزعت بين أبنائه وأحفاده، الذين قاموا بنشر دين الرافضة، في عدة مناطق من أملاك الدولة التيمورية المجزأة، مما أضعفها بعد ذلك، وأتاح الفرصة لظهور الصفويين في الدولة الإلخانية.



• قيام الدولة الصفوية:

ظهر الصفويون على مسرح الحياة السياسية في إيران مع مطلع القرن العاشر الهجري، الموافق للقرن السادس عشر الميلادي، ويرجع نسبهم إلى واحدة من الأسر التركية التي كانت تعيش في أردبيل، بإقليم آذربيجان، ويرجع نسب الصفويين إلى جدهم الأكبر



صفي الدين الأردبيلي (٦٥٠هـ - ٧٣٥هـ) الذي كان سنياً شافعي المذهب، ثم شيئاً فشيئاً اعتنق عقيدة التصوف ربيبة الرفض، حتى التف حوله جماعة من الدراويش، وأصبح مرشداً لهذه الجماعة من المتصوفة والدراويش، وأسس تكية، يجتمع بها مع أتباعه من الدراويش والعامية، وقد نالت هذه التكية الصفوية شهرة واسعة في أردبيل وفي البلاد حولها، حتى إن تيمورلنك عندما قدم إلى المنطقة زار هذه التكية، وتبرع لها^(١).

ثم خلفه من بعده أبنائه على زعامة الطريقة، إلى أن كان دور حفيده الجنيد والذي تسرب إليه شيئاً فشيئاً ديانة الرافضة الاثني عشرية، وقد أدهش من حوله باعتناقه دين الرافضة، فبدأ يتطلع إلى قيام إمارة شيعية بين إمارات إيران السنية، فخرج إلى الأناضول، وقام بجمع عشرات الألوف من الجهلة التركمان، الذين التفوا حوله طمعاً بما أغراهم به من المكانة والمال.

وفي صفقة سياسية نفعية تزوج الجنيد بخديجة أخت حاكم ديار بكر السلطان أوزون حسن زعيم أسرة آق قوينلو^(٢)، والتي كانت سنية المعتقد حنفية المذهب، والتي أنجبت له ولداً أسماه حيدر، وأراد أوزون حسن بهذا الزواج أن يجمع حوله أتباع الجنيد من القزلباش، ليستفيد من قوتهم في صراعه مع حاكم قره قوينلو^(٣)، ولم يدرك لحظة أن هذا الأمر سيكون وبالاً عليه بعد ذلك.

وقع بين الجنيد وبين حاكم إمارة شروان^(٤) السلطان خليل التركماني السني في سنة

(١) يلماز أوزتونا «تاريخ الدولة العثمانية»، (١/ ٢٠١).

(٢) آق قوينلو: معناها الخراف البيض، وهي قبائل تركمانية حكمت في مناطق مختلفة منها شرق الأناضول وتبريز، بلغت الدولة أوجها وأفضل فترتها أثناء حكم أوزون حسن، ثم ابنه يعقوب، وبرغم أن أوزون حسن كان خال حيدر والد إسماعيل الصفوي والذي تزوج من ابنة خاله أوزون حسن، وأنجبت له إسماعيل، واسمها حليلة، لم يشفع ذلك لهم في الصراع مع الصفويين الذين أخرجوهم من تبريز، حتى استقر آخر حكمهم في مدين. واستطاعت أسرة آق قوينلو في صراعها مع دولة القره قوينلو أن تقضي عليها نهائياً، وتسيطر على مناطق نفوذها في آذربيجان وأرمينيا وإيران والعراق وهرات، واتخذت من تبريز عاصمة لها سنة (٨٧٦هـ).

ولقد اشتهرت هذه الدولة بمكانتها السياسية في عهد السلطان أوزون حسن بن علي بن عثمان، غير أنها انتهت بعد ذلك، عند صراعها مع الصفويين كما أسلفنا. محمد وليد الجلال «الموسوعة العربية»، (٣/ ٣).

(٣) قره قوينلو: تعني الخراف السوداء، قبيلة من قبائل التركمان حكمت في شرق الأناضول وآذربيجان وبعض الأجزاء من إيران والعراق، وهم من الأتراك الغز (الأويغور)، وكانوا يتسموا باسم حيواناتهم المقدسة قبل الإسلام، واتخذوا من الخروف الأسود شعاراً لهم، مقابل خصومهم آق قوينلو الذين اتخذوا من الخروف الأبيض شعاراً لهم، وكانوا في صراع دائم معهم على مناطق النفوذ والسيطرة.

(٤) شروان: واحدة من الدول الإسلامية التي ابتلعها الروس وضموها إليهم سنة (١٨١٦م)، وتقع شرق القوقاز في آذربيجان اليوم على ساحل بحر قزوين (الخرز)، وبين باكو العاصمة الشهيرة بالبترول جنوباً، وداربند (باب الأبواب) شمالاً، وتضم عدة مدن منها باكو العاصمة، وشاخبي، وشبران، وقلستان. وقد فتحت تلك البلاد في زمان الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ؓ، على يد حذيفة بن اليمان ؓ.

راجع: ياقوت الحموي «معجم البلدان»، (١/ ١٥٥).

(٨٦٤هـ) معركة، انتهت بقتل الجنيد، وفرار القزلباش الذين التفوا حول ولده حيدر بن الجنيد، والذي وجد تأييداً من خاله السلطان أوزون حسن، فبدأ ينظم أتباعه، وينمي قدراتهم، واتخذ لهم شعاراً مميزاً هو القلنسوة الحمراء^(١)، ذات الزوايا الدالة على الأئمة الاثني عشر، فسماهم العثمانيون بالقزلباش، أي الرؤوس الحمراء، وانتهى الأمر بحيدر أن قتل سنة (٨٩٣هـ)، في إحدى المعارك في طبرستان، وعمره ثمانية وعشرون عاماً، ثم ساعدت الظروف التي حلت بإيران، على يد التيموريين، في التفاف الدراويش حول دعاة الصفويين، وازدياد نفوذهم يوماً بعد يوم.

وقد غالى الصوفية كعادتهم في الشيخ صفي الدين الأردبيلي -نسبة لأرض أردبيل بأذربيجان-، فلقد بلغوا بنسبه إلى الحسين بن علي من جهة الأب، ومن جهة الأم إلى شهربانو ابنة كسرى، كما زعم أحمد بن بويه، والذي كان يعيش في تلك المناطق من قبل، كما سبق ذكره.

وهذا زعم خاطئ، لا أصل له، إذ إن قصة شهربانو هذه من تلفيقات مجوس فارس، الذين يكثرون الكذب في الروايات، ويصدقونها دون مستند أو دليل، سوى النذب والعيويل والبكاء عندما يواجهون بالحقائق.

وملخص هذه القصة^(٢) التي هي أقرب إلى قصص «ألف ليلة وليلة» التي قدمت على العرب من فارس، أنه عندما فتح المسلمون المدائن عاصمة الفرس، بقيادة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وقعت ابنة كسرى فارس وأختها في الأسر لدى المسلمين، وأرسلوهم إلى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والذي هم ببيعهم في الأسواق، لولا أن علياً رضي الله عنه أدركه، وقال له: يا أمير المؤمنين! إن بنات الملوك لا يبعن، وإنما يزوجن، فلما دخلت شهربانو على عمر المسجد، أشرق المسجد بضوئها لما دخلته، فقال له علي: خيرها رجلاً من المسلمين، فخيرها، فجاءت، حتى وضعت يدها على رأس الحسين، فلما دخل بها الحسين، قال لها: من أين عرفتني؟ قالت: أنت زوجي، فقال: ومن زوجك إياي؟ قالت: جدك رضي الله عنه، فقال لها: وكيف ذلك؟ قالت: لقد زار أبي في الرؤيا، وقال له: إن الله أمرني نحن -أفضل بيت

(١) لفظة القزلباش تعني العمام الحمراء والمقصود الدراويش أصحاب القبعات الحمراء. سهيل صابان/ المعجم الموسوعي للألفاظ العثمانية (ص: ١٨٠).

(٢) الكليني «أصول الكافي»، (باب: ٧٣/ ح: ١/ ٥٣٩).



في العرب - أن أزوج ابني هذا - يقصد الحسين - من أفضل بيت في العجم، وهو بيت كسرى، فوافق أبي وزوجني إياك، فقال لها: وكيف أسلمت؟ فقالت: هذه رؤيا أخرى، جاءتني أمك الزهراء^(١) في الرؤيا، وقالت لي: أنت زوجة ابني، وإنك ستكونين أسيرة عند المسلمين، وستكونين سالمة، حيث سيحملونك إليه، ونطقت بين يديها الشهادتين، وعلمتني الصلاة؛ فعاش معها الحسين حياة هائلة، وحملت بعلي زين العابدين، فاجتمع في رحمها الدم النبوي العربي، والدم الملكي الفارسي. ١. هـ.

ولذلك نجد أن الرافضة الاثني عشرية يجعلون الأئمة بعد الحسين في علي زين العابدين وولده.

- وهذه القصة المزعومة باطلة من وجوه:

أن كسرى فارس الأخير يزدجرد عندما تولى الملك في سنة (١٥ هـ) كان في التاسعة عشرة. وكان عمر الحسين بن علي عند فتح المدائن سنة (١٦ هـ) اثنا عشر، إذ إنه ولد في شعبان من السنة الرابعة للهجرة، فمتى كان ليزدجرد ابنة عمرها يصلح للنكاح آنذاك، والطامة الكبرى هو أن علي زين العابدين^(٢)، ولد في سنة (٣٨ هـ)، وقد ماتت أمه بعد أن وضعته في نفاسها.

فالذي اختلق القصة فاته مراعاة ذلك، والذي يراجع كتب الاثني عشرية وقصة شهر بانو منها يجدها مفصلة بروايات مختلفة في كتبهم، مما يثير العجب في عدم الروية عند نقل الروايات.

(١) الزهراء يعتبره البعض كنية ولقباً لفاطمة^{عليها السلام} بنت النبي^{صلى الله عليه وآله}، ولا نعرف لذلك أصلاً ولا مستنداً عنها أو عن أبنائها أو عن أحد من الصحابة، وإنما اشتهر هذا اللقب بعد هذا الجيل المفضل على يد المتلونين الذين زعموا أنها أمهم، وهي بريئة منهم ومن أمثالهم، وعند المحدثين المتقدمين لم يذكرها أحد منهم بهذه الكنية قبل الإمام محمد بن حبان المتوفى سنة (٣٥٤ هـ) كما في صحيحه بقوله: ذكر فاطمة الزهراء ابنة المصطفى^{صلى الله عليه وآله}. قال العلامة بكر أبو زيد في كتاب «معجم المناهي اللفظية»: الزهراء المرأة المشركة الوجه، ومنه جاء الحديث عن سورتى البقرة وآل عمران: الزهراوان، أي المنيرتان، ولم أقف على تاريخ لهذا اللقب لدى أهل السنة، والله أعلم. (ص: ٤١٣).

وقد ذكرها بعض الأئمة من أهل العلم بهذه الكنية لشهرتها عند الناس فقط، ولم يسندوا اللقب بسند صحيح إليها، أو لأحد من الصحابة، ومن هؤلاء الحافظ ابن حجر، والإمام الأجرى، والإمام القرطبي.

(٢) علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الملقب بزين العابدين، أمه جارية اسمها غزالة؛ وقيل غير ذلك، أحد أئمة آل بيت النبي^{صلى الله عليه وآله}، يُضرب به المثل في الحلم والورع، ويقال له علي الأصغر، للتمييز بينه وبين أخيه علي الأكبر (الذي قُتل مع أبيه في كربلاء، وكان أول من قُتل من آل بيت الحسين). ولد علي الأصغر زين العابدين بالمدينة، ومات بها، وليس للحسين بن علي رضي الله عنهما نسل إلا من جهته رحمه الله رحمة واسعة. الزركلي «الأعلام» (٢٧٧/٤).

وقد سقطت هذه القصة لأن القزلباش الذين أوصلوا نسب الصفويين إلى الحسين بن علي قد اتخذوا من هذه الروايات دليلاً على ذلك... زعموا!!!

وكأن الهدف من هذه الروايات هو تأكيد حقّ الفرس في بعث القومية الفارسية، وإكساب الأسرة الصفوية أحقيتها في حكم العالم الإسلامي، فيما يسمى بنظرية الحق الإلهي، التي كانت تزعم بها الأسرة الساسانية، وكأن النظرية تسربت إليهم من اليهود، خاصة من شوشندخت اليهودية زوجة كسرى يزدرج الأول، فاليهود هم الذين يرون بنظرية الحق الإلهي في حكم الأميين، وهم كل الأمم دون اليهود، وهذا ما يجعل لنا اليوم التقارب الفارسي الصفوي مع اليهودي الصهيوني، من أجل تحقيق نظرية الحق الإلهي في حكم الأمم، وهو ما يسعى إليه حكام طهران سعيًا حثيثاً اليوم في عالمنا الإسلامي، غير أنهم نسوا أن النبي ﷺ قال: «هلك كسرى، ثم لا يكون كسرى بعده»^(١).

• الشاه إسماعيل الصفوي^(٢):

ولد إسماعيل بن حيدر بن جنيد بن صفى الدين الأردبيلي في العشرين من رجب سنة (٨٩٢هـ) الموافق للثامن عشر من يونيو (١٤٨٧م)، ولد قبل قتل أبيه بسنة واحدة، ثم توفي أخوه الأكبر سلطان علي، فاحتضنه في غربي إيران حاكم لاهيجان^(٣)، واسمه كركايا ميرزا، والذي كان فارسي الأصل، ورباه على التصوف والتشيع المنحرف، وعلى فنون العسكرية، وبغض الصحابة وأهل السنة والجماعة، وجمع له القزلباش أتباع جدّه وأبيه من التركمان.

وكان حيدر والد إسماعيل قد تزوج من حليلة علم ابنة خاله أوزون حسن، والتي أنجبت له إسماعيل.

قام إسماعيل بتكوين جيش من القزلباش في سنة (٩٠٢هـ)، وهو ما يزال صغيراً، وكان هدفه من هذا الجيش هو أن ينتقم من حاكم إمارة شروان السلطان خليل، وقد استعد

(١) رواه البخاري (٦/١٩٠ ح: ٣٠٢٧)، ومسلم (١٨/٣٤ ح: ٢٩١٨).

(٢) يلماز أوزتونا «تاريخ الدولة العثمانية»، (١/٢٠١-٢٠٢).

(٣) مدينة تقع اليوم في شمال إيران.



استعداداً كبيراً لذلك، وتوجه بجيشه إلى شماخي عاصمة إمارة شروان في سنة (٩٠٦ هـ) على رأس جيش من سبعة آلاف مقاتل، كلهم من القزلباش، فاستطاع أن يباغت حاكم شروان الذي لم يكن مستعداً للحرب، فوقع أسيراً، وأمر إسماعيل الصفوي بقتله بطريقة بشعة، حيث أمر جنده أن يذبحوه أمامه، وأن يسلخوه، ويقطعوه، ويطبخوه، ويأكلوه؛ ففعلوا ذلك^(١).

بعد أن تحقق النصر لإسماعيل الصفوي في شروان، أراد أن يسيطر على أملاك أكبر الأشرار الحاكمة من أهل السنة في إيران، وهي أسرة الآق قوينلو، فتوجه إلى تبريز عاصمة الآق قوينلو، وفعل بأهلها الأفاعيل، وكان معظم أهلها من السنة، فتصرف تجاههم بطريقة بشعة، حيث أمر بقطع أوصال الكثير من العلماء والرجال والنساء والأطفال، وهم أحياء، حتى ماتوا، وهم ينزفون دماً، وأرغم من بقي في المدينة على رفع راية القزلباش وعلامته، وقد قُتل آلاف مؤلفة من المسلمين من السنة على يديه، ولم يكتفِ بذلك، بل نالت القبور الكثير من شره، حيث نبشها، وأخرج الجثث المتبقية بها، وأحرقها في مشهد تقشعر لهولة الأبدان. ولقد بلغ به الأمر أنه أمر بقتل والدته حليلة، التي أصرت على تمسكها بمذهب أهل السنة والجماعة^(٢)، وحول إيران السنية بالنار وإراقة الدماء إلى اثني عشرية.

ثم اتخذ من تبريز عاصمة له، وأعلن نفسه ملكاً على إيران، وتلقب بلقب المظفر شاه إسماعيل الهادي الوالي، وأصدر العملة باسمه، وأعلن أن الديانة الاثني عشرية هي الديانة الرسمية للدولة^(٣)، وفرض ذلك بحد السيف، ومن لم يستسلم لذلك، يلقي حتفه.

وبذلك استطاع إسماعيل الصفوي أن يفرض نفسه على الإلخانيات المتبقية والمتهاكة في إيران، وأسس دولة متسعة تقوم على ديانة الرفضية.

ولم تقف أحلام إسماعيل الصفوي عند إيران، بل ذهب إلى المشرق، ليوافقه دولة الأوزبك السنية، والذين دعوه للعودة إلى أصله السني، فرفض ذلك، وأبى إلا قتالهم، وتحقيق له

(١) هذه الطريقة القاسية التي تنبى عن قلوب سوداء يستخدمها دائماً اليهود والباطنية في كل زمان ومكان مع خصومهم، وما يجري على أيدي أتباع هؤلاء في بلدان المسلمين اليوم مثلاً حياً على ذلك كما في العراق وسوريا واليمن. - المرجع.

(٢) ابن العباد/ شذرات الذهب في أخبار من ذهب (١٠/ ١٩٩)، يلماز أوزتونا - تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٢٠٢).

(٣) وهذا يذكرنا بما فعله المهالك الخميني عندما دخل طهران وأقام فيها الدولة الصفوية الثانية، ووضع لها دستوراً يعلن فيه الديانة الاثني عشرية ويمح في أي حق لأهل السنة والجماعة.

النصر في بادئ الأمر، ثم ما لبث الأوزبك أن انتصروا عليه، واستردوا منه كل ما فقدوه. كما أقام إسماعيل الصفوي في بادئ الأمر علاقات ودودة مع ظهير الدين محمد بابر حاكم الهند السني، ثم ما لبثت هذه العلاقة أن توترت، بسبب تعصبه للاثني عشرية. وهكذا تحولت إيران على يد ذلك الرجل ذي الأصول التركية السنية إلى مستعمرة للاثني عشرية المنحرفة.

يقول المؤرخ التركي يلماز أوزتونا^(١): وهكذا قسم الشاه إسماعيل العالم الإسلامي السني والتركي إلى فريقين، وألقى بمستقبل التاريخ التركي إلى متاهات مظلمة، وكان دخوله إيران، واستيطانه فيها، باقتدار وقوة أقوى بكثير من مجيء الفاطميين من المغرب واستيطانهم في مصر، وبينما استؤصل المذهب الشيعي من مصر بضربة واحدة من صلاح الدين الأيوبي، ما تزال إيران حالياً شيعية، سواء كانت لغتها الأم تركية أم فارسية. ١. هـ.



• أوهام القوة:

عندما استتب الأمر لإسماعيل في إيران، بدأ يتطلع لفرض سيطرته على العالم الإسلامي شيئاً فشيئاً، مستغلاً ضعف الدولة المملوكية، وفقدانها لقوتها وحيويتها، وكانت العقبة

(١) يلماز أوزتونا «تاريخ العثمانيين»، (١/ ٢٠٣).



أمامه هي السلطنة العثمانية، التي تشترك معه في الأصول التركية، فهي سلطنة فتية قوية، تستطيع أن تواجهه، وأن تمنعه.

أرسل إسماعيل سفراء إلى البندقية، ليخبر أوروبا بأنه عازم على القضاء على العثمانيين، العدو المشترك بينهما، وكانت البندقية آنذاك مركزاً للدبلوماسية الأوروبية، غير أن طلبه مساعدة أوروبا له قوبل بعدم الاستجابة، بسبب أن البندقية كانت من فورها قد خرجت من حرب كبيرة مع العثمانيين، جلبت لها الهزيمة العسكرية والانحيار الاقتصادي.

توجه عندئذ إسماعيل إلى جهة أخرى، وأرسل إلى المماليك في القاهرة للتحالف معهم ضد العثمانيين، وكانت دولة المماليك تدرك جيداً أن أحلام إسماعيل الصفوي لن تنتهي عند العثمانيين، وأنه لو قُدر للشاه أن ينقُصَ عليهم في مصر، لفعل، فتوقفت في ذلك دون إبداء رأي.

تقدم الشاه إسماعيل الصفوي للزواج من إحدى بنات ذولقادر أوغلو علاء الدولة، أمير ولاية ذي لقادر التركية، في الأناضول، فرفض طلبه لكونه أعلن التشيع.

فاتخذ إسماعيل من هذا الرفض ذريعة استباح بها أراضي ذولقادر أوغلو في الأناضول، وخرب مرعش والبستان، وكعاداته القاسية لم تسلم منه القبور، حيث قام بإحراق قبور سلالة ذولقادر أوغلو، وتمكن من القبض على بعض أبنائهم، وقتلهم شر قتلة.

وكان ذولقادر أوغلو والد زوجة بايزيد الثاني سلطان العثمانيين، مما فتح المجال لزيادة التوتر بين العثمانيين وبين الشاه إسماعيل الصفوي؛ وقد أدرك إسماعيل ذلك، مما دفعه أن يرسل إلى السلطان بايزيد الثاني رسالة اعتذار، لاضطراره إلى المرور بالأراضي العثمانية.

كما وقعت معارك مختلفة بين الشاه إسماعيل الصفوي، والأمير سليم بن بايزيد، انتهت بانتصار سليم، الذي أدرك منذ هذه اللحظة خطر المد الشيعي الصفوي وامتداده، مما كان له أكبر الأثر بعد ذلك في صراع العثمانيين مع الصفويين، وفي تولي سليم السلطنة العثمانية، بل لقد كان تطلُّع الشاه إسماعيل الصفوي لقيادة العالم الإسلامي سبباً رئيسياً



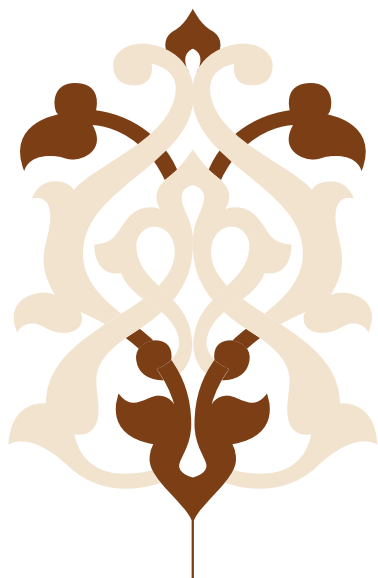
في قيادة الدولة العثمانية بعد ذلك للعالم الإسلامي، وتولي سليم الخلافة لأول مرة؛
والجزء من جنس العمل.

وهذا ما وقع تماماً في التاريخ المعاصر عندما أراد الخميني وأتباع الصفوي المعاصرين
إعادة الكرة بزعة أمن العالم الإسلامي، والسيطرة بعد ذلك عليه، فكان الجزء من
جنس العمل إذ إن الأمة الإسلامية قد استيقظت من غفوتها بسبب ذلك، واستطاعت
في كل أنحائها أن تكشف، وتفضح ألعيب الصفوية المعاصرة، وهامهم كما نراهم اليوم،
يسقطون، حتى في إيران التي يعتبرونها معقلهم الأول والأخير، ومصيرهم إن شاء الله
إلى زوال، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر: ١٠].



الفصل الخامس

البجّرين في عهد الخلافة العبّاسيّة في مصر ٦٥٩ هـ - ٩٢٣ هـ



مصادر ومراجع هذه التراجم: ابن كثير: «البداية والنهاية» - مرعي الكرمي الحنبلي: «نزهة الناظرين في تاريخ من ولي مصر من الخلفاء والسلاطين» - الذهبي: «سير أعلام النبلاء»، (ج: ٢٣-٢٤) - ابن العماد: «شذرات الذهب في أخبار من ذهب»، (ج: ٧-١٠) - جلال الدين السيوطي: «تاريخ الخلفاء»، - محمود شاكر: «تاريخ الخلفاء» - د. ناصر الأنصاري: «موسوعة حكام مصر من الفراعنة إلى اليوم».

تراجمُ الخلفاء
العبّاسيّين في مصر

ال خليفة الأول: المستنصر بالله (٦٥٩هـ - ٦٦٠هـ):

أحمد أبو القاسم ابن الخليفة العباسي الظاهر محمد، والذي تولى الخلافة في بغداد بين سنتي (٦٢٢هـ - ٦٢٣هـ). أخو الخليفة المستنصر، وعمّ الخليفة المستعصم، آخر الخلفاء العباسيين في بغداد؛ لقب بلقب أخيه، وكان مسجوناً ببغداد، وعندما سقطت في أيدي المغول، فتح السجنون أبواب السجن، فأطلق سراحه، وتوجه إلى جماعة من عرب العراق، فاختمهم عندهم لفترة، ولما تمكن المماليك من الانتصار على المغول في عين جالوت، توجه أحمد أبو القاسم إلى القاهرة، ودخل من باب النصر، واستقبله السلطان بيبرس والمسلمون، وكان يوماً مشهوداً، وقرأ نسبه بحضرة القضاة، فبايعه القاضي تاج الدين بن بنت الأعز، وبايعه السلطان بيبرس بالخلافة، والشيخ عز الدين بن عبد السلام، ثم الكبار على مراتبهم، وذلك في (١٣ رجب سنة ٦٥٩هـ)، ونُقش اسمه على السكة، وخطب له في البلاد.

كان شديد القوة، عنده شجاعة وإقدام، قُتل رحمه الله في معركة بينه وبين المغول عند مدينة هيت بالعراق، في الثالث من شهر محرم سنة (٦٦٠هـ)، حاول خلالها استعادة بغداد والثأر من المغول، فلم يتمكن، وكانت خلافته خمسة أشهر وعشرين يوماً.

ال خليفة الثاني: الحاكم بأمر الله (٦٦١هـ - ٧٠١هـ):

أحمد أبو العباس بن أبي علي حسن بن أبي بكر بن الحسن بن علي الضبّي بن الخليفة المسترشد بالله الفضل، اختفى في بغداد عند دخول المغول، ثم خرج منها خفية مع جمع من أعوانه جهة الشام، فأقام عند عرب بني خفاجة لفترة، ثم توجه إلى دمشق، واستقر بالشام لفترة من الزمن، ودعاه السلطان الظاهر بيبرس إلى القاهرة لبايعه بالخلافة غير أن المستنصر قد سبقه إلى هناك، فذهب هو إلى حلب، وبويع بالخلافة هناك، واستعد لقتال المغول، وسار إلى مدينة الحديثة حيث التقى هناك بالخليفة المستنصر المبايع له في القاهرة، وقد شعر بالخرج الشرعي لوجود خليفين، فتنازل للخليفة المستنصر، وبايعه لكونه أصغر منه سناً، ودخل في طاعته، وقاتل تحت رايته في معركة هيت، ولما قُتل الخليفة



المستنصر في المعركة، رجع أحمد أبو العباس مع عدد من أعوانه إلى الشام؛ وأرسل إليه السلطان بيبرس - سلطان المماليك في مصر - فسار إليه، ومعه أبنائه وأتباعه، وبويع له بالخلافة في مصر في المحرم سنة (٦٦١هـ)، وكانت مدة خلافته أربعين سنة.

قال ابن الأهدل: كانت خلافتهم بمصر تحكماً لا حكماً، وترشماً لا رسماً^(١).

توفي الخليفة الحاكم بأمر الله ليلة الجمعة ثامن عشر جمادى الآخرة سنة (٧٠١هـ)، ودفن إلى جوار السيدة نفيسة بالقاهرة، وهو أول من دفن من الخلفاء العباسيين هناك، واستمر ذلك المكان مدفناً لهم بعد ذلك.

الخليفة الثالث: المستكفي بالله (٧٠١هـ - ٧٣٦هـ):

أبو الربيع سليمان بن أحمد الحاكم بأمر الله، ولد في نصف المحرم سنة (٦٨٤هـ)، بويع له بالخلافة بعهد من أبيه، في جمادى الأولى سنة (٧٠١هـ)، ونودي به خليفة في اليوم الثاني من وفاة أبيه، وخطب له على المنابر بالبلاد المصرية والشامية، وسارت البشارة بذلك إلى جميع الأقطار والممالك الإسلامية.

وقعت في عهده معركة شقحب (مرج الصفر)، وكان على رأس جيش المسلمين مع الجيوش الخليفة المستكفي، والسلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون.

قال الحافظ ابن حجر عنه: كان فاضلاً جواداً حسن الخط جداً شجاعاً.

عزله السلطان الناصر محمد بن قلاوون عن الخلافة، ونفاه إلى بلدة قوص في صعيد مصر^(٢)، وكان قد تصدر منصب الخلافة لخمس وثلاثين سنة، وبقي في منفاه مع أهله، حتى توفي رحمه الله سنة ٧٤٠هـ.

(١) ابن العباد «شذرات الذهب»، (٧/٨).

(٢) قوص: مدينة ومركز بمحافظة قنا جنوب مصر، وتقع على الساحل الشرقي من النيل جنوب القاهرة بمسافة ستمئة وخمس وأربعين كيلو متر، ويكثر بمحافظة قنا الأشراف المنتسبون لآل البيت.

الخليفة الرابع: الواصل بالله إبراهيم (٧٣٦هـ - ٧٤٢هـ):

إبراهيم بن محمد المستمسك بأمر الله بن أحمد الحاكم بأمر الله، كان هذا الخليفة ابن أخي المستكفي بالله، وهو سبب الوقعة بين عمه الخليفة المستكفي وبين الناصر محمد بن قلاوون، مما أدى إلى عزل المستكفي، ومبايعة السلطان الناصر محمد بن قلاوون لإبراهيم خليفة مكان عمه، ولقب بالواصل بالله.

لما حضرت الوفاة السلطان الناصر محمد بن قلاوون، تذكر ما كان بينه وبين الخليفة المستكفي رحمه الله من أخوة، وندم على عزله، خاصة بعد أن عاين خلافة الواصل بالله، الذي لم يكن أهلاً لها، فأوصى بعزله ومبايعة أحمد بن الخليفة المستكفي بالله بدلاً من إبراهيم الواصل.

الخليفة الخامس: الحاكم بأمر الله (٧٤٢هـ - ٧٥٣هـ):

أحمد أبو العباس بن الخليفة المستكفي بالله، لقب بلقب جده، وكُنِيَ بكُنيتة الحاكم بأمر الله أبي العباس، تولى الخلافة بعهد من السلطان الناصر محمد بن قلاوون.

توالى على أمر السلطنة في عهده ثمانية من أبناء السلطان الناصر محمد بن قلاوون في فترة لا تزيد على عشر سنوات، وكثرت في زمانه فتن الأمراء وعزل السلاطين وقتلهم، وانتقام بعضهم من بعض.

قال ابن فضل الله في «المسالك»: هو إمام عصرنا، وغمام مصرنا، قام على غيظ العدى، وغرق بفيض الندى، صارت له الأمور إلى مصائرهما، وسيقت إليه مصائرهما، فأحيا رسوم الخلافة، ورسم بما لم يُستطع خلافه، وسلك مناهج آبائه، وجمع شمل بني أبيه، وقد طال بهم الشتات.

وذكر الشيخ زين الدين العراقي عنه: أنه سمع الحديث على بعض المتأخرين، وأنه حدث^(١).

توفي الخليفة الحاكم بمرض الطاعون في سنة (٧٥٣هـ).

(١) ابن العباد «شذرات الذهب»، (١٠/٢٩٦-٢٩٧).



ال خليفة السادس: المعتضد بالله (٧٥٣هـ - ٧٦٣هـ):

أبو بكر بن الخليفة سليمان المستكفي بالله، بويع له بالخلافة بعد وفاة أخيه الخليفة الحاكم بأمر الله.

كان خيراً متواضعاً محباً للعلم وللعلماء، توفي في يوم الخميس الثاني عشر من جمادى الأولى بمصر سنة (٧٦٣هـ) بعد أن بقي في الخلافة عشر سنوات.

ال خليفة السابع: المتوكل على الله الأول (٧٦٣هـ - ٧٧٨هـ) - (٧٩١هـ - ٨٠٨هـ):

محمد بن أبي بكر المعتضد بالله، يكنى بأبي عبد الله، ولد سنة (٧٤٦هـ)، تولى الخلافة بعد موت أبيه، وخُلع من الخلافة مرتين، تولى خلاهما اثنان من أبناء عمومته، المستعصم بالله بن الواثق بالله إبراهيم، وأخوه الواثق بالله محمد بن إبراهيم، ثم تولى بعدهما المتوكل الخلافة مرة أخرى، ثم عُزل في سنة (٧٨٥هـ)، بعد أن سجنه السلطان برقوق في قلعة الجبل، وخلعه من الخلافة.

وفي نفس هذه السنة (٧٨٥هـ)، أحدثت فيها بدعة لم تكن من قبل، وهي الصلاة والسلام على النبي ﷺ عقب كل أذان، وبصوت جهري؛ وقد أحدث ذلك المؤذنون بأمر نجم الدين الطنبذي المحتسب^(١).

(١) قال محمود الأرنؤوط محقق «شذرات الذهب» لابن العماد، تعليقا على موقف المؤذنين: الصلاة على النبي ﷺ من القربات إلى الله تعالى، ومما حُضَّ عليه التنزيل العزيز في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]. وحضت عليه السنة المطهرة في أحاديث كثيرة، إلا أن ذلك لا يعني التساهل في الجهر بالصلاة على النبي ﷺ في الأذان الذي علمه الملك للصحابي الجليل عبد الله بن زيد الأنصاري، ونقله إلى رسول الله ﷺ كما علمه إياه، فبدأ بالتكبير «الله أكبر» وانتهى بالتهليل «لا إله إلا الله»، وما زاد على ذلك رسول الله ﷺ شيئا، وما زاد عليه الخلفاء الأربعة رضوان الله عليهم، ولا التابعون، ولا أتباع التابعين ومن بعدهم، حتى كانت هذه السنة (٧٨٥هـ) التي أحدثت فيها هذه الصلاة بأمر نجم الدين الطنبذي هذا، ثم أخذ بها المقلدون من المشايخ والعوام وزادوا فيها الكثير الكثير إلى أن بلغت في بعض المساجد بالشام أطول ألفاظاً من الأذان أو قريبة منه، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ونسأله تعالى أن يوفقنا إلى النهج السليم والعمل الصالح واتباع النصوص، وإن خالفت هوى المخالفين وأسخطتهم. ابن العماد «شذرات الذهب»، (٨/ ٤٩٣) بتصرف.

قلت: وهذه البدعة لم تقف عند حدود الشام ومصر، بل انتشرت في أمصار كثيرة للمسلمين، ولقد كانت منتشرة في مصر حتى نهاية الثمانينيات من القرن الميلادي السابق، وكان يسبق الأذان في صلاة الصبح ما يُسمى بالتسابيح والابتهالات، ولقد أزالها الله جل وعلا من غالب مساجد مصر على أيدي المخلصين الموحدين من طلبة العلم والعلماء والجمعيات الدعوية، التي أحيت السنن، وقمعت البدع، كجمعية أنصار السنة المحمدية، وغيرها، والحمد لله رب العالمين.

غير أن أهل الضلال والبدع يحاولون اليوم إحياء هذه البدع الضالة، ويزيدون عليها الدفوف داخل المساجد للغناء والرقص باسم الوجد والعشق الإلهي، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، اللهم انصر دينك وأولياءك وسنة نبيك ﷺ.

حدث في زمانه خروج الطاغية تيمورلنك^(١)، وهلاكه، وفي زمانه ابتدأت قراءة صحيح البخاري في رمضان بالقلعة بحضرة السلطان؛ وكان الحافظ زين الدين العراقي والشهاب العرياني يتبادلان القراءة يوماً بيوم.

كما حدثت صراعات في خلافته الثالثة، انتهت بإنهاء حكم الأسرة القلاوونية، وحكم المماليك البحرية، وكانت بداية عهد المماليك الشراكسة.

توفي رحمه الله في شعبان سنة (٨٠٨هـ).

ال خليفة الثامن: المستعصم بالله (٧٧٨هـ - ٧٧٨هـ) - (٧٨٨هـ - ٧٩١هـ):

أبو يحيى زكريا بن الواثق بالله الأول إبراهيم، تولى الخلافة لفترة أقل من شهر في سنة (٧٧٨هـ)، ثم عزل، وأعيد المتوكل، ثم عزل المتوكل، وتولى الواثق بالله الثاني - محمد أخو المستعصم - وبعد وفاته أعيد المستعصم خليفة، وبقي في الخلافة حتى سنة (٧٩١هـ) إلى أن خلعه السلطان برقوق، بعد أن ندم على ما فعله مع المتوكل، وأعاد المتوكل للمرة الثالثة للخلافة، وبقي فيها حتى توفي سنة ٨٠٨هـ.

بعد أن خلع المستعصم من الخلافة، لزم بيته، حتى توفي رحمه الله.

ال خليفة التاسع: الواثق بالله محمد (٧٨٥هـ - ٧٨٨هـ):

محمد بن الخليفة الواثق بالله إبراهيم، بويع بالخلافة بعد المتوكل للمرة الثانية، بايعه السلطان برقوق، ولقبه بلقب أبيه الواثق بالله، وبقي في الخلافة لثلاث سنوات، حيث توفي سنة (٧٨٨هـ).

(١) تيمورلنك: أو تيمور الأعرج، وتألّف لفظة تيمورلنك من كلمتين، تيمور وتعني بالأوزبكية الحديد، ولنك تعني الأعرج، وذلك بسبب إصابة في رجله، وتيمورلنك قائد تتر، ولد في قرية من قرى مدينة كش، في أوزبكستان في شعبان سنة (٧٣٦هـ)، وكانت أمه من سلالة جنكيز خان، اعتنق الرفض مذهباً وديناً منذ الصغر.

هو سلطان التتار الذي كان نقمة على العالم الإسلامي، وقام بمجازر وحشية يندى لها الجبين، خرج إلى العالم الإسلامي بدعوى التشيع وأنزل، بالمسلمين فظائع تشعّر منها الأبدان، فلقد قام بدفن الأسرى أحياء، وكان يقيم جبلاً من الجماجم، وكان يأمر ببقر بطون الناس، واستطاع السيطرة على مناطق وسط آسيا والعراق والشام بعد أن ارتكب فيهم الفظائع، ووصل إلى الأناضول، وقاتل العثمانيين أيام السلطنة هناك، وانتصر على السلطان بايزيد وأسرّه، وقد مات بايزيد رحمه الله في أسره كمداً وحزناً على ما جرى له، ثم رجع إلى سمرقند ليستعد لحرب الصين، غير أن الله تعالى لم يمهلّه، وأخذّه أخذ عزيز مقتدر. ولقد حكم بعض أهل العلم بكفره: كالإمام البزازي صاحب الفتاوى، والذي عاصر تيمورلنك، وتبعه تلميذه ابن عرب شاه، ولقد التقاه العلامة ابن خلدون في سنة (٨٠٣هـ) قبل وفاته بخمس سنوات وأقام عنده خمسة وثلاثين يوماً، وقال عنه: هذا الملك تيمور من زعماء الملوك وفراعنتهم، والناس ينسبونه إلى العلم، وآخرون إلى اعتقاد الرفض، وآخرون إلى انحلال السحر. ابن العماد «شذرات الذهب»، (٩٦/٩).



ال خليفة العاشر: المستعين بالله (٨٠٨هـ - ٨١٥هـ):

أبو الفضل العباس بن المتوكل على الله، بويع له بالخلافة بعهد من أبيه، وتولى في شهر رجب سنة (٨٠٨ هـ) بعد وفاة أبيه، وهو أول من أضيفت إليه السلطنة إلى جانب الخلافة، بعد قتل السلطان الناصر فرج بن الظاهر برقوق.

فوض الخليفة شيخ بن عبد الله بشؤون المملكة، ولقبه بنظام الملك، ثم انقلب شيخ على الخليفة المستعين، وأخذ السلطنة بالقوة، وخلع الخليفة المستعين بالله، وبايع لأخيه داود بن المتوكل على الله، ولقب نفسه بالسلطان المؤيد.

نقل الخليفة إلى الإسكندرية، وبقي في السجن هناك حتى سنة (٨٢٤هـ) حيث أفرج عنه في عهد السلطان الظاهر ططر، وبقي الخليفة في الإسكندرية مقيماً بها حتى توفي رحمه الله بالطاعون سنة (٨٣٣هـ).

ومما يذكر أن الحافظ ابن حجر رحمه الله كتب في المستعين قصيدة مشهورة يمدحه فيها ويشني عليه، ذكرها الحافظ السيوطي رحمه الله في «تاريخ الخلفاء».

ال خليفة الحادي عشر: المعتضد بالله (٨١٥هـ - ٨٤٥هـ):

أبو الفتح داود بن محمد المتوكل على الله، تولى الخلافة بعد خلع أخيه المستعين سنة (٨١٥هـ)، ذكر عنه أنه كان نبيلاً ذكياً فطناً، يجالس العلماء والفضلاء، ويستفيد منهم، جواداً سمحاً للغاية.

حدث في زمانه أن رجلاً ظهر بمصر يدعي أنه يعرج إلى السماء، ويشاهد الباري تعالى، ويكلمه، (تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً)، وقد تعلق به واعتقد فيه جمع من عوام الناس؛ فأمر الخليفة بعقد مجلس له ليتوب، فلم يتب، فحكم عليه بالقتل، غير أن جماعة من الأطباء شهدوا أنه مختل العقل، فوضعوه في البيمارستان.

وبقي في الخلافة نحو تسع وعشرين سنة وشهرين، وتوفي يوم الأحد الرابع عشر من ربيع الأول سنة (٨٤٥هـ)، وقد قارب التسعين من عمره رحمه الله.

ال خليفة الثاني عشر: المستكفي بالله (٨٤٥هـ - ٨٥٤هـ):

أبو الربيع سليمان بن المتوكل على الله، ولي الخلافة بعهد من شقيقه، وكان خليفة من صالح الخلفاء كثير التعبد والصلاة والتلاوة.

كان أبو بكر السيوطي والد الحافظ جلال الدين السيوطي إماماً للخليفة وقد نشأ الحافظ في بيت ذلك الخليفة، وكتب عنه قائلاً: ما أظن أنه وجد على ظهر الأرض آل خليفة بعد آل عمر بن عبد العزيز أعبد من آل بيت هذا الخليفة، توفي في زمانه الحافظ المحدث أحمد ابن حجر العسقلاني صاحب الشرح الممتع فتح الباري لصحيح البخاري.

توفي الخليفة المستكفي في يوم الجمعة نهاية ذي الحجة في سنة ٨٥٤هـ وله ثلاث وستون سنة بعد أن أقام في الملك عشر سنين، وبلغ من العز فوق ما بلغ أخوه وقد حمل السلطان المملوكي بنفسه نعشه، رحمه الله رحمة واسعة.

ال خليفة الثالث عشر: القائم بأمر الله (٨٥٤هـ - ٨٥٩هـ):

أبو البقاء حمزة بن المتوكل على الله، بويع له بالخلافة بعد وفاة أخيه المستكفي، وقع بينه وبين السلطان الأشرف خلافاً انتهى لتسلط السلطان على الخليفة واعتقله وسجنه بالإسكندرية حتى مات بها سنة ٨٦٣هـ، ودفن إلى جوار شقيقه المستعين.

يقول السيوطي في تاريخ الخلفاء: والعجب أن هذين الأخوين الشقيقين خلعا من الخلافة، واعتقل كل منهما بالإسكندرية، ودفنا معاً.

ال خليفة الرابع عشر: المستنجد بالله (٨٥٩هـ - ٨٨٤هـ):

أبو المحاسن يوسف بن المتوكل على الله، تسلطن في زمانه جمع من السلاطين منهم السلطان الأشرف إينان، والسلطان المؤيد أحمد، والسلطان الظاهر خوش قدم، والسلطان الظاهر يلباي، والسلطان الظاهر ترمبغا الرومي، والسلطان الأشرف قايتباي، وقد استطاع قايتباي أن يحسم الصراع على السلطنة بقوة.

توفي الخليفة في شهر المحرم سنة ٨٨٤هـ، وكان قد أصيب بالفالج وقد تجاوز السادسة والثمانين من عمره رحمه الله.



ال خليفة الخامس عشر: المتوكل على الله الثاني (٨٨٤هـ - ٨٩٣هـ):

أبو العز عبد العزيز بن يعقوب بن المتوكل على الله، اتصف بصفات من التواضع وحسن السميت والبشاشة وحسن الأدب وغيرها من الخصال الحميدة، مما جعله محبوباً للخاصة والعامّة.

تولى الخلافة بعهد من عمّه الخليفة المستكفي، وبقي فيها لتسع سنوات، حتى توفي في المحرم سنة ٨٩٣هـ.

ال خليفة السادس عشر: المستمسك بالله (٨٩٣ - ٩١٤هـ):

يعقوب بن عبد العزيز المتوكل على الله الثاني بن يعقوب بن محمد المتوكل على الله، بويح له بالخلافة له بعهد من أبيه المتوكل الثاني، وبقي في الخلافة حتى نزل به المرض سنة (٩١٤هـ)، فتنازل لابنه محمد عن الخلافة، وبقي على قيد الحياة حتى قدم العثمانيون إلى مصر، وقد انتقل معهم ابنه الخليفة المتوكل الثالث محمد آخر الخلفاء العباسيين في الدنيا، وبقي هو في مصر حتى توفي سنة (٩٢٧هـ).

ال خليفة السابع عشر: المتوكل على الله الثالث (٩١٤هـ - ٩٢٣هـ):

محمد بن يعقوب المستمسك بالله، تولى الخلافة بعد أن تنازل له عنها أبوه الخليفة المستمسك.

قدم العثمانيون في زمانه إلى مصر، واستقرت في حوزتهم هي والشام، وانتقل الخليفة مع السلطان سليم إلى إسطنبول، غير أنه لم يرق له البقاء هناك، فتنازل للسلطان سليم عن الخلافة، وبايعه خليفة على المسلمين في مشهد مهيب بمسجد آيا صوفيا، ورجع هو إلى مصر، وبقي بها حتى توفي سنة (٩٥٠هـ).

وبتنازله عن الخلافة للسلطان سليم الأول، خرجت الخلافة الإسلامية لأول مرة من القرشيين العرب، إلى الأتراك العجم، لتبدأ مرحلة جديدة في تاريخها، أشرقت معها شمس الخلافة العثمانية، وأفلت معها شمس الخلافة العباسية وسلطنة المماليك، بعد أن بقيت نحو مئتين وأربع وستين سنة في مصر.

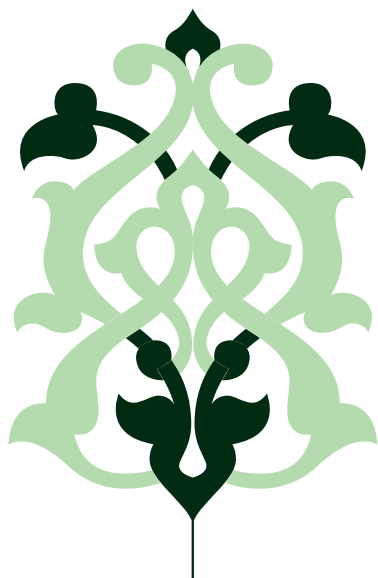


الكتاب السادس

البحرين

في عهد الخلافة العثمانية

١٣٤٢ هـ - ٩٢٣ هـ



قال ابن العماد عن العثمانيين: بَيَّتْ رَفَعَ اللهُ عَلَى قَوَائِدِهِ
فُسْطَاطَ السُّلْطَنَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، مِنْ قَوْمٍ أَتْرَزَ اللهُ تَعَالَى لَهُمْ
مَا ادَّخَرَهُ مِنَ الْأَسْتِيلَاءِ عَلَى الْمَدَائِنِ الْإِيمَانِيَّةِ، فَرَفَعُوا
عِمَادَ مِقْدَارِهِ، وَأَعْلَوْا مَنَارَهُ، وَتَوَاصَوْا بِاتِّبَاعِ السُّنَّةِ
الْمُطَهَّرَةِ، وَعَرَفُوا لِلشَّرْعِ الشَّرِيفِ مِقْدَارَهُ^(١).

(١) «شذرات الذهب»، (١٠/١٩٨).

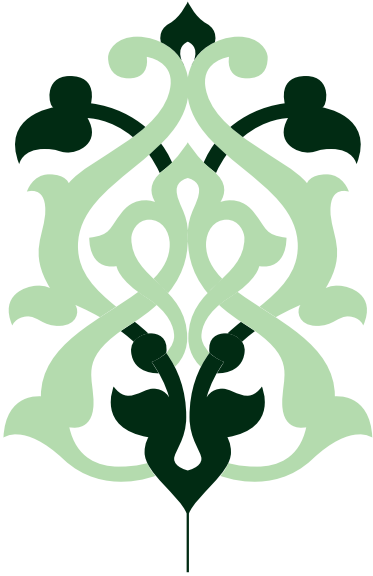


البحرين

في عهد الخلافة العثمانية

١٣٤٢ هـ - ٩٢٣ هـ

الفصل الأول



لم تتعرض دولة في العالم لمثل ما تعرضت له هذه الدولة العثمانية من حملات عنيفة ضارية، استهدفت التشهير بها والنيل منها، وقامت بهذه الحملات المكثفة قوتان عالميتان عاتيتان هما: الاستعمار الأوروبي والصهيونية. واتخذت هذه وتلك من المؤلفات التاريخية والبحوث العلمية والتصريحات الرسمية، ومن مجموعات الوثائق التي نشرتها بعض الحكومات الأوروبية مجالاً رحيباً لإذاعة ما راق لها أن تنشره عن الدولة تحاملاً عليها. وقد ردد بعض المؤرخين والباحثين العرب عن جهالة، أو تجاهل، أو حقد تلك الآراء الخاطئة والظالمة معاً في مؤلفاتهم، واستقرت في أذهان الأجيال المتعاقبة من رجال الفكر العربي والإسلامي صور حالكة الظلام عن الدولة العثمانية.

وغفل أولئك المتحاملون عليها عن الخدمات التي أسدتها الدولة العثمانية لولاياتها العربية بوجه خاص، وهي خدمات يجب أن تذكر لها، وتشكر عليها^(١).

مدخل وتمهيد

(١) د. عبد العزيز محمد الشناوي/ فقرات من مقدمة كتابه: «الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها».



الخلافة العثمانية

تولى قيادة الدولة العثمانية السلطان سليم الأول تاسع السلاطين، بعد تنازل والده السلطان بايزيد الثاني له عن السلطة، في ظروف دولية وأوقات عصيبة صعبة، تحيط بالعالم الإسلامي، فالأندلس قد سقطت بأيدي النصارى، ولم يعد هناك حاجة للضغط على أوروبا من جهة الشرق لتخفيف الضغط على المسلمين في الأندلس، كما أن نصارى أوروبا رغم الخلاف المذهبي والتباين بينهم بدؤوا يتجمعون، ويتحدون تحت راية الصليب، وأصبحوا يمثلون خطراً كبيراً على الأمة الإسلامية، خاصة وأن دولة المماليك المسؤولة عن حماية العالم الإسلامي لم تستطع شيئاً حيال ما جرى في الأندلس، ولم تتمكن بسبب ضعفها من التصدي للغزو الصليبي البرتغالي في البحار الشرقية، والذي بات يهدد باحتلال مكة والمدينة، وأخذ جسد النبي ﷺ من قبره، وعدم تسليمه للمسلمين حتى يسلموا القدس للنصارى.

كما أن الخلافة العباسية القائمة في القاهرة ما هي إلا خلافة صورية، وسلاطين المماليك هم المتصرفون في شؤون الدولة التي بدت عليها عوامل الضعف الشديد.

كما أن سليماً قد استفاد من صراعه مع الشاه إسماعيل الصفوي، وأيقن مدى خطورة التقدم الشيوعي المدعوم صليبياً من أوروبا، لذلك كله كان عليه أن يحسم هذا الأمر لصالح المسلمين، خاصة وأنه قد أدرك أن العثمانيين هم أقوى القوى الإسلامية الموجودة آنذاك، وكان عليهم أن يوقفوا الخطر الصليبي القادم على المشرق، خاصة بعد تحالف المماليك مع الصفويين أثناء الصراع بين العثمانيين والصفويين.

ويمكن بذلك أن نحصر أهم الأسباب للتوسع العثماني في بلاد العرب في النقاط التالية:

١. الغزو والتهديد الصليبي لشمال أفريقيا، وجنوب شبه الجزيرة العربية، ومنطقة الخليج العربي، وسعي البرتغاليين للوصول إلى المقدسات الإسلامية في الحجاز.

٢. التهديد الصفوي للبلاد العربية والإسلامية، بفرض الهيمنة الصفوية عليها بالقوة.



٣. التعاون الصفوي البرتغالي لتشكيل حلف ضد المسلمين، لتضمن بذلك أوروبا انصراف العثمانيين عن الفتوحات في أوروبا وانشغالهم في المشرق، ولقد ظهر ذلك جلياً في اعتداءات الشاه إسماعيل الصفوي على العراق، وعلى أراضي الأناضول، وفي ما فعله بأهل السنة عند قيام دولته الصفوية.

٤. ضعف وعجز دولة المماليك مسؤولية الدفاع عن المسلمين في مواجهة المؤامرات والغزو الصليبي للبلاد الإسلامية والعربية، خاصة بعد هزيمتها في معركة ديو البحرية^(١).

• ضم الشام للدولة العثمانية:

تقدم السلطان سليم نحو الشام، بعد أن حقق النصر على الصفويين في معركة جالديران، كما سيأتي، لمواجهة المماليك، وقد تذرّع بالخلاف بينه وبينهم على إمارة ذي لقادر^(٢) ومدينة البستان الحدودية بين الطرفين، وقد أعانته على حرب المماليك وجهاء الشام، الذين أدركوا خطورة ضعف المماليك، والتقدم البرتغالي الصليبي، وخشيتهم الوصول إلى بلاد الشام، وكانوا قد اجتمعوا بفئاتهم المختلفة كالعلماء والقضاة والأعيان والأشراف من أهل حلب، وكلفوا قضاة المذاهب الأربعة كتابة عريضة^(٣) نيابةً عنهم إلى السلطان سليم، ليأتي إليهم، ويرفع جور حكام المماليك، الذين خالفوا الشريعة الإسلامية في حكمهم، ف وقعت عندئذ المصادمات بين العثمانيين والمماليك.

(١) معركة ديو البحرية: واحدة من المعارك الفاصلة في التاريخ الإسلامي بين القوى الإسلامية المتحالفة من المماليك والعثمانيين ومسلمي الهند، وبين البرتغاليين الصليبيين، بعد أن حقق المسلمون النصر عليهم في المعارك البرية، باغتهم البرتغاليون، وقاموا بضرب أسطول المسلمين هناك، وانتصروا عليهم سنة (٩١٥هـ / ١٥٠٩م) مما كان له أكبر الأثر أن يكون للبرتغاليين السيادة على المياه الإسلامية الجنوبية لفترة من الزمان.

(٢) ذي لقادر: إمارة تركمانية على الحدود بين السلطنة العثمانية وسلطنة المماليك، دار الصراع فيها بين أفراد الأسرة الحاكمة بها مما جعل البعض منهم يستعين بالعثمانيين على خصمه، والبعض الآخر يستعين بالمماليك على خصمه، فأدى ذلك إلى الصراع بين العثمانيين والمماليك على هذه الإمارة.

(٣) يذكر الدكتور محمد حرب في كتابه «العثمانيون في التاريخ والحضارة» أن هذه العريضة محفوظة في متحف الطوبقباي رقم (١١٦٣٤)، ومما جاء في هذه العريضة: ولنعلم مولانا السلطان أن الشريعة الإسلامية لا تأخذ مجراها هنا وهي معطلة.

- معركة مرج دابق:

وقعت معركة مرج دابق في شهر رجب سنة (٩٢٢هـ / ١٥١٦م) في شمال غرب مدينة حلب، وانتهت المعركة بهزيمة المماليك، وقُتل السلطان قنصوه الغوري سلطان المماليك، واستطاع سليم الأول أن يدخل حلب، وحماه، وحمص، ودمشق دون مقاومة تذكر.

ومما يذكر أن قنصوه الغوري عندما دخل إلى حلب لملاقاة العثمانيين فوجئ بأن الأهالي لقنوا أطفالهم صيحة - ينصر ك الله العظيم يا سلطان سليم^(١).



• ضم مصر للدولة العثمانية:

لا شك أن سليم الأول أدرك جيداً مدى خطورة موقع مصر وأهميته، حيث أنها المقابل تماماً للدولة العثمانية من جنوب البحر المتوسط، كما أن الدولة العثمانية تعد المفتاح بين آسيا وأوروبا ومصر تعد المفتاح بين آسيا وأفريقيا، والدولة العثمانية تقع في الشمال الشرقي للبحر المتوسط، ومصر في مقابلها في الجنوب الشرقي في البحر المتوسط، ولا شك أن كلاهما بعد ضم الشام يجعل للدولة العثمانية السيادة الإسلامية على الحوض الشرقي للبحر المتوسط.

(١) محمود شاكر: سلسلة «التاريخ الإسلامي»، الجزء (٢).



كما أن سليماً الأول قد تفاعل مع شكوى علماء مصر، الذين كانوا يلتقون سراً بكل سفير عثماني، يزور مصر، ويشتكون له جور السلطان قنصوه الغوري، ومخالفته لأحكام الشرع الحنيف، ويأملون في عدالة السلطان العثماني بضم مصر إليه^(١).

كما كان هؤلاء العلماء يرسلون السلطان سليماً منذ أن تولى السلطنة، ليقدم إليهم، وليضم مصر إليه، ذلك لإدراكهم خطورة الغزو الصليبي للبحار الشرقية وشمال أفريقيا، وعدم قدرة المماليك على مواجهتهم، إن هم تقدّموا من البحر الأحمر نحو مصر^(٢).

فبعد أن ضم سليم الأول الشام إليه أرسل إلى السلطان طومان باي سلطان المماليك الجديد في مصر رسالة، يطلب منه فيها الدخول في تبعية الدولة العثمانية، دون الحاجة إلى الحرب، على أن يبقى طومان باي حاكماً على مصر باسم العثمانيين، وأن يذكر اسم السلطان العثماني والدعاء له في الخطبة، كما يكتب اسمه على السكة (العملة)، فقبل طلب سليم بالرفض من طومان باي سلطان المماليك بعد قنصوه الغوري، والذي استعد للحرب مع العثمانيين، مما دفع السلطان سليماً العثماني للتوجه نحو مصر ليلتقي المماليك مرة أخرى.

- معركة الريدانية:

دخل سليم الأول مدينة غزة بعد معركة سريعة مع حاميتها، ثم تقدم نحو القاهرة، حيث التقى في آخر يوم من ذي الحجة سنة (٩٢٢هـ / يناير ١٥١٧م) السلطان طومان باي آخر سلاطين المماليك في معركة الريدانية، وقد تحقق له فيها النصر، واستطاع أن يأسر طومان باي، وتمكن بعدها أن يدخل إلى القاهرة في الثامن من محرم سنة (٩٢٣هـ / يناير ١٥١٧م)، وقد قام بإعدام السلطان طومان باي شنقاً، على باب زويلة، في الحادي والعشرين من ربيع الأول سنة (٩٢٣هـ) الموافق للثالث عشر من إبريل سنة (١٧١٥م).

وبعد أن استقر سليم في القاهرة، نظم شؤونها هي والشام، فقام بتعيين حاكم على مصر، وترك معه حامية عثمانية من الإنكشارية، كما استقبل أبا نمي ابن شريف مكة الشريف

(١) عبد الله بن رضوان «تاريخ مصر»، مخطوط - نقلاً عن د. محمد حرب «العثمانيون في التاريخ والحضارة».

(٢) المصدر السابق.



بركات، والذي قدم له الولاء والاعتراف بالسيادة العثمانية على الحجاز، كما قدم له بعض الهدايا، التي أُطلق عليها الأمانات المقدسة أو موروثة الخلافة^(١)، ثم قفل سليم راجعاً إلى الأناضول، عن طريق الشام، بصحبة آخر خلفاء الدولة العباسية محمد المتوكل على الله الثالث، وقد حمل معه أيضاً الأمانات المقدسة.

وكان سليم يهدف من وراء ذلك أن تنتقل الخلافة العباسية من القاهرة إلى إسطنبول؛ لتكون عاصمة الخلافة الإسلامية الجديدة، لم يرق للخليفة العباسي المتوكل الثالث بعد أقل من سنة البقاء في إسطنبول، وطلب من السلطان سليم أن يعود إلى الشام أو القاهرة، فأذن له بذلك، خاصة أن الخليفة قد عرض عليه أن يتنازل له عن الخلافة، ويبيعه في حفل كبير بجامع آيا صوفيا خليفةً على المسلمين في سنة (٩٢٣هـ / ١٥١٧م)، فتم للسلطان ذلك، وبويع بالخلافة التي خرجت لأول مرة من القرشيين العرب إلى الأتراك العجم، وبقيت فيهم إلى أن زالت عن سماء الدنيا في سنة (١٣٤٢هـ / ١٩٢٤م) كما سيأتي تفصيله، وأصبح بذلك سليم الأول هو أول الخلفاء العثمانيين للمسلمين.

(١) يقصد بالأمانات المقدسة أو موروثة الخلافة تلك الأشياء التي جاءت هدية من الشريف بركات أمير مكة المكرمة إلى السلطان سليم الأول، وهو في مصر كإعلان منه لدخول الحجاز ضمن السيادة العثمانية، وقد حوت بردة وسجادات صلاة وراية وقوساً وسهماً وحدوة فرس وسناً من الأسنان وشعرات وحجراً يحمل أثر قدم تنسب إلى النبي ﷺ، ومفاتيح الكعبة ونسختين من القرآن الكريم تنسبان للخليفين عثمان وعلي، كما ضمت هذه المجموعة أسلحة وأدوات وثياباً تنسب للأنبياء عليهم الصلاة والسلام والخلفاء الراشدين وبعض الصحابة، ولم يثبت تاريخياً صحة نسب هذه الموروثة إلى النبي ﷺ، أو لأحد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أو لأحد من أصحابه رضوان الله عليهم، ولقد كُتب حولها بحوث علمية رصينة تثبت ذلك، وهذه الموروثة توجد في متحف الفن الإسلامي، ومتحف الطوبقباي بإسطنبول، وما يذكر أن الدولة العثمانية خصصت قوة عسكرية مكونة من أربعين فرداً لحراسة هذه الأمانات، كما كان يقام في منتصف شهر رمضان من كل عام حفل ديني يطلق عليه (خرقت سعاد)، ويقصد بها بردة النبي ﷺ، يرتل فيه القرآن إلى ما بعد منتصف الليل، ويحضر هذا الحفل السلطان وشيخ الإسلام والصدر الأعظم وكبار رجال الدولة وقادة الجيش. د. عبد العزيز الشناوي «الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها».

قلت: وهذا من الاحتفالات التي ابتدعتها الدولة العثمانية، ولا أصل لها في شريعتنا الغراء.



خلفاء الدولة العثمانية

العدد	الخلفاء العثمانيون	ولاية الخلافة	نهاية الخلافة
١	سليم الأول بن بايزيد الثاني	٩٢٣هـ	٩٢٦هـ
٢	سليمان بن سليم الأول - القانوني	٩٢٦هـ	٩٧٤هـ
٣	سليم الثاني بن سليمان القانوني	٩٧٤هـ	٩٨٢هـ
٤	مراد الثالث بن سليم الثاني	٩٨٢هـ	١٠٠٣هـ
٥	محمد الثالث بن مراد الثالث	١٠٠٣هـ	١٠١٢هـ
٦	أحمد الأول بن محمد الثالث	١٠١٢هـ	١٠٢٦هـ
٧	مصطفى الأول بن محمد الثالث - الفترة الأولى	١٠٢٦هـ	١٠٢٧هـ
٨	عثمان الثاني بن أحمد الأول	١٠٢٧هـ	١٠٣١هـ
	مصطفى الأول بن محمد الثالث - الفترة الثانية	١٠٣١هـ	١٠٣٢هـ
٩	مراد الرابع بن السلطان أحمد الأول	١٠٣٢هـ	١٠٤٩هـ
١٠	إبراهيم الأول بن أحمد الأول	١٠٤٩هـ	١٠٥٨هـ
١١	محمد الرابع بن إبراهيم الأول	١٠٥٨هـ	١٠٩٩هـ
١٢	سليمان الثاني بن إبراهيم الأول	١٠٩٩هـ	١١٠٢هـ
١٣	أحمد الثاني بن إبراهيم الأول	١١٠٢هـ	١١٠٦هـ
١٤	مصطفى الثاني بن محمد الرابع	١١٠٦هـ	١١١٥هـ
١٥	أحمد الثالث بن محمد الرابع	١١١٥هـ	١١٤٣هـ
١٦	محمود الأول بن مصطفى الثاني	١١٤٣هـ	١١٦٨هـ
١٧	عثمان الثالث بن مصطفى الثاني	١١٦٨هـ	١١٧١هـ
١٨	مصطفى الثالث بن أحمد الثالث	١١٧١هـ	١١٨٧هـ



العدد	الخلفاء العثمانيون	ولاية الخلافة	نهاية الخلافة
١٩	عبد الحميد الأول بن أحمد الثالث	١١٨٧هـ	١٢٠٣هـ
٢٠	سليم الثالث بن مصطفى الثالث	١٢٠٣هـ	١٢٢٢هـ
٢١	مصطفى الرابع بن عبد الحميد الأول	١٢٢٢هـ	١٢٢٣هـ
٢٢	محمود الثاني بن عبد الحميد الأول	١٢٢٣هـ	١٢٥٥هـ
٢٣	عبد المجيد الأول بن محمود الثاني	١٢٥٥هـ	١٢٧٧هـ
٢٤	عبد العزيز بن محمود الثاني	١٢٧٧هـ	١٢٩٣هـ
٢٥	مراد الخامس بن عبد المجيد الأول	١٢٩٣هـ	١٢٩٣هـ
٢٦	عبد الحميد الثاني بن عبد المجيد الأول	١٢٩٣هـ	١٣٢٨هـ
٢٧	محمد رشاد بن عبد المجيد الأول	١٣٢٨هـ	١٣٣٧هـ
٢٨	محمد وحيد الدين السادس بن عبد المجيد	١٣٣٧هـ	١٣٤٠هـ
٢٩	عبد المجيد الثاني بن عبد العزيز	١٣٤٠هـ	١٣٤٢هـ

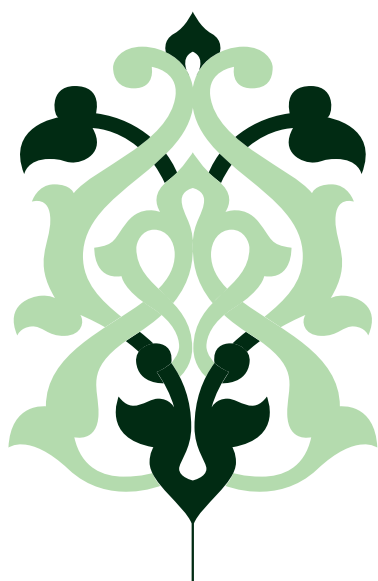


البحرين

في عهد الخلافة العثمانية

١٣٤٢ هـ - ٩٢٣ هـ

الفصل الثاني



أهم المظاهر والأحداث
في عصر الخلافة العثمانية

«١»

تعتبر دولة الخلافة العثمانية أول دولة للخلافة غير عربية، كما أنها كانت آخر الدول التي قامت بأمر الخلافة الإسلامية فيما مضى.

وقد قسّم المؤرخون العصر العثماني إلى قسمين:

العصر الأول: عصر القوة، في العشرة الأولى من السلاطين العثمانيين، وقد ذُيل بآخر اثنين منها التاسع والعاشر، وهما أول و ثاني الخلفاء العثمانيين للدولة الإسلامية سليم الأول وابنه سليمان القانوني.

والعصر الثاني: وهو عصر الضعف وانحدار وانحيار الدولة، والذي بدأ بعد سليمان القانوني شيئاً فشيئاً، بسبب عدة عوامل مختلفة، أدت في النهاية إلى انهيار الدولة وزوال الخلافة الإسلامية.

وقد تميزت الدولة العثمانية بعدة خصائص ومميزات في كلا العصرين منها أنها^(١):

١. دولة إسلامية تقيم الشرائع:

الدولة العثمانية دولة إسلامية، قامت على الشريعة الإسلامية، التي اتسمت بها تشريعاتها ونظمها ومواقفها وتصرفاتها وحفاظها على التقاليد الإسلامية^(٢)، ولعل من أبرز اهتمامهم بذلك تحويل السلطان محمد الفاتح اسم القسطنطينية إلى إسلام بول (مدينة الإسلام).

وهناك وثيقة تثبت أن الدولة العثمانية ما قامت إلا على أحكام الشريعة الإسلامية منذ ابتداء ظهورها، وهي كتبت زمان السلطان عبد المجيد الأول، يعلن فيها صراحة أن

(١) مما لا شك فيه أن تاريخ أي دولة ومنها الدولة العثمانية يتكاثر حوله القيل والقال والطعن والقدح والمدح والثناء، ولا يعني ذلك أنها مبرأة من المآخذ والعيوب والنقيصة، والواجب على الباحث المنصف أن يذكر ما لها، كما يذكر ما عليها، فليس من أخلاق الإسلام إغفال مزايا دولة مثل الدولة العثمانية، وكذلك بيان ما عليها من خلال النقد القائم على الأسس الشرعية، والذي يوقفنا على الحقائق والعبر، وهذا النقد هو البناء الذي يقوم على الإنصاف اتباعاً لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلّٰهِ﴾ [النساء: ١٣٥].

(٢) من مظاهر الحفاظ على هذه التقاليد أن الدولة العثمانية كانت لا تسمح لأحد بانتهاك حرمة شهر رمضان من المسلمين أو غير المسلمين بالأكل والشرب في نهار رمضان علانية، ومن فعل ذلك كان التعزير بالضرب والإجراءات الرادعة له، فكانوا يملقون نصف لحيته ونصف شاربه، ويضعونه على ظهر حمار ووجهه إلى ذيل الحمار، كما أنهم يضعون على رأسه أمعاء الذبيحة، ويضعون على كتفيه جلدها وكرشها، ويطوفون به على هذه الصورة المنكرة في الشوارع والطرقات، يضرب بالنعال، والصبيّة حوله يسخرون منه، وتسمى هذه عقوبة التشهير، ثم يضعونه في السجن لفترة بعينها، وعقوبة التشهير يسمونها أيضاً التجريس، وكان يختص بها المسلم القوي صحيح الجسم، وأما الذمي الكافر فإنه كان يطبق عليه السجن فقط. د. عبد العزيز الشناوي «الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها»، (١/٥٦).



المجد الذي كان عليه الأجداد وحققوه إنما هو بسبب التزامهم بمبادئ وأحكام الشريعة الغراء، وأن ما أصاب الدولة من وهن وضعف إنما هو بسبب الإهمال والبعد عن تطبيق أحكام الشريعة، فكما كانت الدولة في عهدها الأول تتمتع بالقوة والاستقرار والرفاهية وراحة الرعايا وعمران البلاد بسبب إقامة الشرائع، فإنها لما تخلت عن ذلك، حدث العكس، تحولت القوة إلى الضعف، والرفاهية والراحة إلى المتاعب، كما توقفت مشروعات الإصلاحات والتعمير واندثر بعضها.

ونص الوثيقة كالتالي:

لا يخفى أنه منذ ابتداء ظهور دولتنا العلية، كانت الأحكام القرآنية الجليلة، والقوانين الشرعية المنيفة، في غاية المراعاة الكاملة، ولذلك كانت قوة سلطتنا السنيّة، وثبوتها مع راحة جميع الرعايا ورفاهيتهم، وعمارة البلاد في غاية ما يكون من الكمال، ولكن منذ مئة وخمسين سنة لم يعد انقياد ولا امتثال لا للشرع الشريف، ولا للقوانين المنيفة، لسبب ما طرأ عليها من الحوادث الكثيرة، ولهذا تحولت القوة إلى الضعف، والراحة إلى التعب، والعمار إلى الدثار، وأية مملكة لا تقوم بحفظ القوانين الشرعية، تؤول إلى الاضمحلال. ١. هـ^(١).

وكان من أهم المظاهر التي اتسمت بها الدولة إنشاء الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة، وجعلت على رأسها شيخ الإسلام، كما جعلت حوله هيئة من كبار علماء الدين، بتخصصاتهم المختلفة، كما جعلت لشيخ الإسلام مكانة كبرى من الإجلال والتقدير والتكريم عند الحاكم والمحكوم، كما منحته هو والهيئة اختصاصات واسعة، وخصصت لهذه الهيئة موارد مالية ضخمة^(٢).

كما يظهر ذلك في اهتمامها بإنشاء المساجد الكبرى، التي غدت رمزاً مجسداً للفن المعماري العثماني، وما زالت تلك المساجد محط أنظار القادمين إلى تركيا من المسلمين وغيرهم،

(١) د. عبد العزيز الشناوي «الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها»، (١/ ٦٩) نقلاً عن د. عبد الكريم غرايبة «سورية في القرن التاسع عشر ميلادي»، (ص: ٢٦).

(٢) د. عبد العزيز الشناوي «الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها»، (١/ ٥٤).

حيث يشاهدوا هذا التراث العظيم الهائل من المساجد والقصور والمدارس المنتشرة هناك، وهذا يدل على عناية السلاطين والخلفاء بالشرعية الإسلامية ومظاهر الإسلام، بل امتدَّ هذا الأمر خارج تركيا إلى الولايات العربية التي كانت ضمن الدولة العثمانية.



مسجد السلطان أحمد

كما اهتمت الدولة اهتماماً كبيراً بشؤون الحج، واعتبرت أن هذا الأمر من أهم أمور الدولة؛ فكانوا يسIRON القوافل لحج بيت الله الحرام، ويأمنونها؛ ويهتمون بإنشاء الآبار والخانات للاستراحة على الطرق المؤدية إلى الحج، وإقامة نقاط الأمن في نفس الطرق، وكانوا يسIRON أربعة قوافل حج رئيسية من كافة أنحاء الدولة، وفق نظام محدد وفي رفقة قوة عسكرية، يقودها أحد القادة العسكريين، ويطلقون عليه سردار الحج، وكانت هذه القوافل الأربعة هي:

- قافلة الحج الشامي: وتضم حجاج بلاد الشام، والجزيرة الفراتية، وكردستان، وأذربيجان، والقوقاز، والقرم، والأناضول، والبلقان، وإسطنبول.
- قافلة الحج المصري: وتضم الحجاج من مصر وشمال أفريقيا.
- قافلة الحج العراقي: وتضم حجاج العراق وإيران.



• قافلة الحج اليمني: وتضم حجاج اليمن، والهند، وماليزيا، وإندونيسيا، وغيرها من شرق آسيا.

ومن المؤسف أن الدولة العثمانية شجعت على الانحرافات العقدية، وإن لم تعتمد ذلك لغلبة الجهل بالعقيدة الصافية الصحيحة، فلقد أعطت الفرصة لمشايخ الطرق الصوفية لممارسة السلطات الواسعة على المريدين والأتباع، وقد انتشرت هذه الطرق الصوفية انتشاراً واسعاً، حتى قيل: إن الناس قد خضعوا دينياً لمشايخ الطرق الصوفية، أكثر من خضوعهم لقادة الدولة، وهذا ما يفسر دعم الدولة، ومدّ يد العون إلى مشايخ الطرق الصوفية، التي كان لها هذا التأثير على الجماهير، ومنها النقشبندية، والمولوية، والبكتاشية، والرفاعية، والخلوتية، مما كان له أثر واضح في صبغة الظاهر بالشكل الإسلامي، غير أن الكثير يعقد في قلبه على عقيدة منحرفة، لعبت في النهاية دوراً رئيسياً في زوال الخلافة.

ومن أهم المظاهر الدينية التي أداها العثمانيون اهتمامهم العميق بإقليم الحجاز، بعد أن أصبح ولاية عثمانية، حيث إنه أضفى على الدولة مكانة مرموقة في العالم الإسلامي، الذي يعدّ الحجاز محط أنظاره لما يضمه من أماكن مقدسة، وعلى رأسها بيت الله الحرام، قبلة المسلمين التي يتوجهون إليها خمس مرات في كل يوم وليلة، كما أن بالحجاز المسجد النبوي بالمدينة النبوية، التي عاش ومات بها النبي ﷺ، وأول من بدأ ذلك الاهتمام السلطان سليم الأول، وسار على نهجه كل من تصدر للخلافة من بعده.

ومن أهم الامتيازات التي اختص بها الحجاز أنه لا يقدم جزية سنوية للدولة؛ بل كان يتلقى اعتمادات مالية ضخمة، ترصد في ميزانية الحكومة المصرية التابعة للدولة العثمانية، سواء من حصيلة الأراضي الزراعية، أو العقارات والأموال التي أوقفها أهل البذل والعطاء من المسلمين في مصر قرباً إلى الله تعالى، لتنفق على الحرمين الشريفين، وعلى فقراء الحجاز، كما كان يرسل في كل عام كمية هائلة من الحبوب، كالقمح والذرة والأرز إلى هناك، وكان يطلق على هذه المخصصات التي أمر بها السلطان سليم ولاية مصر

مصطلح (الصرة)^(١)، وترسل مع قافلة الحج المصري، وكان إرسالها إلى الحجاز من أهم واجبات الوالي العثماني في مصر، وتحاسبه الدولة حساباً عسيراً إذا قصر في إرسالها^(٢).

وقد اهتم الخلفاء العثمانيون بالتشرف بحمل لقب خادم الحرمين الشريفين، وأول من تلقب به، واتخذ لنفسه منهم السلطان سليم الأول، متابعاً في ذلك السلاطين السابقين له في الدولة المملوكية، وفي هذا تأكيد منهم على أنهم حماة الحرمين الشريفين، وأنهم زعماء وخلفاء العالم الإسلامي، مما أبرز في الدولة الطابع الديني الإسلامي بروزاً قوياً للغاية. وصف ذلك المؤرخ المصري عبد الرحمن الجبرتي، الذي عاصر هذه الدولة مبيناً إعجابه بالسلاطين العثمانيين واهتمامهم فقال:

ولم تزل البلاد منتظمة في سلوكهم، ومنقادة تحت حكمهم، وكانوا في صدر دولتهم من خير مَنْ تقلد أمور الأمة بعد الخلفاء المهديين، وأشدَّ من ذبَّ عن الدين، وأعظم من جاهد المشركين، فلذلك اتسعت ممالكهم بما فتح الله على أيديهم وأيدي نوابهم، وملكوا أحسن المعمور من الأرض، ودانت لهم الممالك في الطول والعرض، هذا مع عدم إغفالهم الأمر، وحفظ النواحي والشعور، وإقامة الشعائر الإسلامية، والسنن المحمدية، وتعظيم العلماء وأهل الدين، وخدمة الحرمين الشريفين، والتمسك في الأحكام والوقائع بالقوانين والشرائع، فتحصنت دولتهم، وهابتهم الملوك، وانقاد لهم المالك والمملوك. هـ^(٣).

ولقد ظلت مظاهر تمسك الدولة بالإسلام حتى أواخر عهدها، إذ إن السلطان عبد الحميد تبنّى ما يسمّى بالدعوة إلى الجامعة الإسلامية، التي كانت تدعو إلى اصطفاف المسلمين مرة أخرى، في صف واحد شعوباً وحكومات في مشارق الأرض ومغاربها، تحت راية الخلافة العثمانية، من أجل النهوض مرة أخرى بالأمة الإسلامية، والوقوف في وجه السيطرة الاستعمارية الصليبية في بعض المناطق التي أدت إلى نهب الثروات واستغلال الشعوب.

(١) الصرة: عبارة عن قدر كبير من المال يُرسل إلى أمير الحجاز ليوزع على فقراء الحرمين الشريفين. ابن العماد «شذرات الذهب»، (٩/ ٢٥٠) محمد فريد بيك «الدولة العلية»، (ص: ٥٢).

(٢) د. عبد العزيز الشناوي «الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها»، (١/ ٦٥).

(٣) عبد الرحمن الجبرتي «عجائب الآثار في التراجم والأخبار»، (١/ ٣٧).



ولقد كانت الدعوة لهذه الجامعة^(١) حاجة ملحة لدى الشعوب الإسلامية، والحكومات جميعاً، للوقوف في وجه أوروبا الصليبية، وهو ما عبّر عنه الباحث الأمريكي لوثرروب ستودارد بقوله: إن العالم المسيحي على اختلاف شعوبه، تسوده روح صليبية وتعصب ديني عميق، ويريد تحطيم الدولة العثمانية، وغيرها من الدول الإسلامية، ويريد أيضاً سحق الإسلام.

ثم أضاف: إن الدول النصرانية - في عدائها وحقدتها على الدول الإسلامية - تلجأ إلى العدوان المسلح، ابتغاء إذلال الدول الإسلامية، وتعمل على القضاء على كل دعوة إصلاحية، يحاولها المسلمون في بلادهم.

ومضى يقول: إن العالم النصراني - على اختلاف أممه وشعوبه عرقاً وجنسيةً - هو عدو مقاوم مناهض للشرق على العموم، وللإسلام على الخصوص، فجميع الدول النصرانية تتحد على دك الممالك الإسلامية، ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً.

ويضيف: والروح الصليبية لم تبرح كامنة في صدور النصارى كمون النار في الرماد، وروح التعصب لم تنفك حيةً معتلجة في قلوبهم حتى اليوم، كما كانت في قلب بطرس الناسك^(٢) من قبل، فالنصرانية لم يزل التعصب مستقراً في عناصرها، متغلغلاً في أحشائها، وتمشياً في كل عرق من عروقها، وهي أبداً ناظرة إلى الإسلام نظرة العدا، والحقد، والتعصب الديني الممقوت، كما أن جميع الشعوب النصرانية متفقة على عداة الإسلام.

ثم يختم بقوله: وجميع هذا يوضح أن العالم الإسلامي يجب عليه أن يتحد اتحاداً دفاعياً عاماً، مستمسك الأطراف وثيق العرى، ليستطيع بذلك الذود عن كيانه ووقاية نفسه من الفناء المقبل^(٣).

(١) مما هو جدير بالذكر أن الدعوة إلى جامعة الشعوب الإسلامية عاصرت الدعوة للجامعة الصقلية التي قامت في أوروبا، تدعو الصقلية على اختلاف حضاراتهم ومذاهبهم للتخلص من الحكم العثماني والنفوذ الألماني، كما عاصرت الدعوة إلى الجامعة الجرمانية التي دعت إلى قيام وحدة سياسية من العناصر الجرمانية للسيطرة على أوروبا ثم على بقية أجزائها للوقوف في وجه فرنسا من جانب وأمام الصقلية من جانب آخر. د. محمد مصطفى صفوت / «الاحتلال الإنجليزي لمصر وموقف الدول الكبرى إزاءه»، (ص: ١٧-١٨).

(٢) بطرس الناسك أحد الدعاة للحروب الصليبية وأول من استجاب لدعوة بابا الكنيسة / تراجع الحروب الصليبية بالكتاب.

(٣) د. عبد العزيز الشناوي «الدولة العثمانية»، (١/ ٧٢).



ومما هو جدير بالذكر أن الاتحاديين - قادة الانقلاب على السلطان عبد الحميد، من أعضاء (جمعية الاتحاد والترقي) من رجال الجيش - قد استغلوا هذه العاطفة الدينية، وحاولوا أن يستثمروها لمصلحتهم، رغم ابتعادهم التام عن جوهر الإسلام وشريعته، وتخططهم بين دعواتهم الجاهلية المختلفة، فتارة ينادون بإنشاء الجامعة العثمانية، والهدف منها هو إطلاق لفظة عثمينة القوميات، واستبدال الجامعة الإسلامية بالجامعة العثمانية.

وتارة ينادون بحركة التتريك، وهي حركة تهدف إلى صبغ جميع ولايات الدولة العثمانية على اختلاف شعوبها وقومياتها بالصبغة التركية، وفرض اللغة التركية لغة رسمية في جميع مؤسسات الدولة، وهي دعوة على أساس السيادة الجنسية والعنصرية، لا تكون الدولة العثمانية فيها إسلامية بل دولة تركية.

وتارة يدعون إلى الحركة الطورانية، التي تدعو إلى الانتساب إلى العرق الأصلي للأتراك، بالعودة إلى الأصول الطورانية، والاتحاد مع جميع الشعوب التي انحدرت من السلالة الطورانية، وهذه دعوة تريد التخلص من الانتماء العقدي الإسلامي، إلى الانتماء للتراث القديم، بدعواته الجاهلية وانحرافاته العقدية.

وكان من ثمار هذه الدعوة ترجمة القرآن إلى اللغة التركية سنة (١٣٣١هـ / ١٩١٣م)، وتأسيس الأكاديمية التركية، وأيضاً الدعوة إلى إنشاء لغة جديدة، وأدب جديد، وإنشاء اتحاد يسمى (يني لسان) أي: اللغة الجديدة، وتبعه اتحاد (يني حياة)، ومعناه: الحياة الجديدة، ثم اندمجا في اتحاد واحد دعى إلى الطورانية التي انتشرت انتشاراً واسعاً في الأوساط الرسمية والشعبية، وصبغت الحياة العامة بهذا الاسم، حتى انتشر كاسم للمحلات العامة والمطاعم والفنادق في الأسواق، كما تغنى الصحفيون والكتاب بهذه الدعوة التي كانت الأساس لإنشاء الدولة التركية التي أنشأها مصطفى كمال بعد أن ألغى الخلافة الإسلامية.

وبرغم هذا التخطط للاتحاديين، إلا أنهم حاولوا أن يستغلوا العاطفة الإسلامية، واستثارها في نفوس الشعوب والحكومات، لدعمهم أثناء الحرب العالمية الأولى، لإبراز



الطابع الديني للدولة أثناء الحرب، والذي دعاهم إلى استصدار الفتاوى من شيخ الإسلام في إسطنبول، بوجوب تأييد ودعم الدولة في مواجهة بريطانيا وفرنسا وروسيا، كما صدرت فتوى عن الخليفة محمد رشاد الخامس بذلك المضمون، ثم فتوى ثالثة وقع عليها شيخ الإسلام وثمانية وعشرون من كبار العلماء، موجهة هذه الفتاوى إلى جميع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، للوقوف إلى جوار الدولة في حربها المقدسة ضد أعداء الإسلام - روسيا وبريطانيا وفرنسا -، مجاهدين بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله إلى جوار دولتهم العثمانية.

ولم يكتفِ الاتحاديون بهذا فقط، بل عملوا على طبع تلك الفتاوى في منشورات باللغات التي يتكلم بها المسلمون في أنحاء العالم، بعضها يدعو المسلمين عن الامتناع عن تقديم المساعدة للخصوم، وبعضها يدعو الجنود من المسلمين للهرب من جيوش تلك الدول، وبعضها يدعو إلى الفتك بقيادة تلك الجيوش.

وكانت هذه الدعوة تدعو إلى الجهاد في سبيل الدفاع عن الإسلام فهو فرض عين على كل مسلم بالغ قادر.

وقام الاتحاديون بإرسال البعثات الدينية من الوعاظ وطلبة العلم إلى العالم الإسلامي، فانتشروا في جميع البلاد، لاستمالة شعوبها إلى تلبية دعوة الجهاد في سبيل الله إلى جوار الدولة.

ولقد تفاعلت الجماهير وبعض الحكومات مع هذه الدعوة سوى شريف مكة الشريف حسين الذي أحجم عن الاستجابة لهذا المطلب كما سيأتي!!!.

كما أن الدولة بدأت باتخاذ وسائل مختلفة لإثارة العاطفة الدينية عند الشعوب للوقوف إلى جوارها، ومن ذلك: إقامة احتفالات ضخمة في المدينة النبوية لنقل ما يسمى بـراية النبي ﷺ إلى دمشق وبيت المقدس، ليتبرك بها الجيش العثماني.

كما اهتمت الدولة بتنظيم استقبال رسمي مهيب للراية عند وصولها إلى محطة قطار دمشق في وسط جموع هائلة من سكان دمشق.

ظل الاتحاديون يستخدمون كل الوسائل من أجل إثارة العاطفة الدينية عند المسلمين، عندما احتاجوا إلى الدين لتحقيق مآربهم ومصالحهم وأهدافهم، وهم الذين قد ثاروا على الإسلام في حقيقة الأمر^(١).

٢. دولة عسكرية قوية:

كانت الدولة العثمانية دولة عسكرية قوية، لعب فيها الجيش دوراً كبيراً في الحفاظ على الدولة ومواجهة أعدائها، فهي دولة تعتمد على الجيش وقت السلم، وتعتمد عليه في زمن الحرب، حيث كان الجيش عمله ثنائي: الحكم والحرب، ولم يستثن من مناصبه سوى الوظائف الدينية والقضاء.

ولقد كان الجيش العثماني في زمان القوة مضرباً للمثل عند الأوروبيين في التنظيم والتدريب والتسلح، وقد عبر عن ذلك بوسبك السفير النمساوي في إسطنبول سنة (٩٦٠هـ/ ١٥٥٤م) في قوله: إن الدولة العثمانية عظيمة قوية، على درجة كبيرة من الثراء، تحشد جيوشاً جرارة، تسودها روح عسكرية عالية، مدربة على الحرب، وأفرادها يتحلون بالصبر والنظام والاتحاد والتيقظ، بينما الدولة الرومانية المقدسة جنودها غارقون في الترف، والميل إلى العناد والمشاكسة والاستخفاف بالنظام، وحب الشهوات من الخلاعة والدعارة والفجور، والإسراف في الأكل.

ثم يضيف: إن العثمانيين قد أعدوا للغزو وتحقيق الانتصارات، وأما جنود الإمبراطورية الرومانية المقدسة فقد أعدوا لتقبل الهزائم^(٢).

- الأسطول البحري العثماني:

أسست الدولة العثمانية أسطولاً بحرياً عسكرياً قوياً، استطاعت به أن تنازل أكبر الأساطيل الأوروبية آنذاك، ولقد كان السلطان هو القائد الأعلى للقوات العسكرية العثمانية بما فيها قيادة الأسطول، وهو المسؤول عن تعيين قائد عام للأسطول، وكان يطلق عليه قبودان باشي، وهي تعني رئيس قادة السفن الحربية، وقد حرفت بعد ذلك

(١) د. عبد العزيز الشناوي «الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها»، (١/ ٧٤-٨٤) / بتصرف.

(٢) د. عبد العزيز الشناوي «الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها»، (١/ ٥١).



إلى كلمة قبطان، وأول من عُيِّن في هذا المنصب هو بالطا أوغلو سليمان، عيّنه السلطان محمد الفاتح تقديراً لجهوده في حصار القسطنطينية.

كما تولى خير الدين بربروس^(١) هذا المنصب في عهد السلطان سليمان القانوني، تقديراً لجهوده في الدفاع عن الإسلام في شمال أفريقيا، ولقد عُيِّن عضواً في ديوان الحكم العثماني لأهمية منصبه، فلقد كان ترتيبه في الدولة يأتي بعد الصدر الأعظم، وشيخ الإسلام.

ولقد أسست الدولة العثمانية ترسانة كبيرة لإنشاء وإصلاح السفن، وقامت بتنظيمات بحرية، وإيجاد وظائف إدارية مختلفة من أجل هذا الغرض.

ولقد تطور الأسطول البحري العثماني منذ نشأته في عهد مراد الأول على مر تاريخ الدولة، حتى بلغت سفن الدولة حجماً، تستطيع معه السفينة الواحدة أن تحمل أربعين وخمسين مدفعاً.

ولقد لعب هذا الأسطول دوراً هاماً في فتوحات الدولة، كفتح القسطنطينية، وفي الدفاع والذب عن سلامة الدولة، التي استطاعت أن تسيطر على ضفاف البسفور والبحر الأسود والبحر المتوسط، بفضل الله، ثم بفضل هذا الأسطول.

(١) خير الدين: خضر بن يعقوب خير الدين بربروس، ولد بجزيرة ليسبوس باليونان، وعمل مع أخيه عروج بالبحر لمواجهة قراصنة البحر الصليبيين فرسان القديس يوحنا، واستطاع أن يواجه الأسبان في البندقية وفرنسا وإيطاليا، وأن يغنم منهم غنائم هائلة، وكاناً مثلاً أعلى للفدائية في المعارك التي خاضوها ضد التكتلات الصليبية، كما كانا على جانب كبير من الصلاح والتقوى في ظاهرهم، وحرصوا على إنشاء مساجد في إسطنبول، كما قاما بنقل الآلاف من مسلمي الأندلس لسواحل شمال أفريقيا وواجهها الأسبان في الجزائر، واستردا مدينة بجاية منهم، وقُتل عروج في إحدى المعارك، فتولى من بعده أخوه خير الدين قيادة الأسطول، واتصل بسليم الأول السلطان العثماني والذي عينه والياً على الجزائر، كما استطاع بعد ذلك أن ينقذ أكثر من سبعين ألفاً من مسلمي الأندلس وينقلهم إلى الجزائر، وبفضل جهوده عينه السلطان سليمان القانوني قائداً للبحرية والأسطول العثماني، فاستطاع أن يفرض سيطرته على عشرين جزيرة في بحر إيجه، وأن يلحقها بالدولة العثمانية، مما أربع السواحل الأوروبية، وقد استطاع تحقيق انتصارات متوالية وأن يواجه شارلكان ملك أسبانيا، وأن يستعيد منه مدينة ميتس بفرنسا، وظل خير الدين يعمل بالليل والنهار لصالح الأمة، وقد أوصى بباله وأسطوله للأوقاف الإسلامية ولائته حسن بربروس، وتوفي رحمه الله في قصره المطل على مضيق البسفور بإسطنبول ودفن بها، ومازال قبره شاهد هناك، توفي عن خمس وستين سنة. قلت: وكنت أتجول في أحد الأسواق لأشتري أحذية في إسطنبول، فلقيني مدير الخانات، وتكلم معي بلغة إنجليزية بسيطة، وعرفني على نفسه بأن اسمه بربروس، فقلت له: هل تعلم من بربروس؟ قال: نعم. هل تعرفه أنت؟ فابتسمت له وقلت له: نعم، شخصية عظيمة في التاريخ الإسلامي قائد البحر في زمان سليمان القانوني، فقال لي: أتعرف أنه جدي الأكبر! وأناي سميت على اسمه. وكان فرحاً كثيراً، وبرغم فرحي بأي لقيت أحد أحفاد خير الدين بربروس إلا أنني كنت حزينا للغاية أني أجده مديراً لأحد حوانيت بيع الأحذية.



ولقد شهدت الدولة نشاطاً واسعاً للأسطول العثماني في عهد السلطان سليمان القانوني، لم تشهد له من قبل مثيلاً، إذ إن السلطان كان يشرف بنفسه على تطور الأسطول، ومن ذلك أمره بإنشاء ترسانة وقاعدة بحرية في ميناء السويس، تكون المرتكز للأسطول العثماني في البحر الأحمر والبحار الشرقية، مما ساهم مساهمة كبرى في طرد البرتغاليين وخروجهم من البحار الشرقية بلا عودة.

ولقد استطاع السلطان سليمان أن ينتزع جزيرة رودس من فرسان القديس يوحنا، بفضل الله، ثم بفضل هذا الأسطول، مما ساهم في زيادة سيطرة الأسطول العثماني على الحوض الشرقي للبحر المتوسط.

كما استطاع هذا الأسطول فتح جزر بحر إيجه، مما ساهم في استقرار اليونان ضمن الدولة العثمانية.

ومما هو جدير بالذكر ما حققه الأسطول العثماني من انتصار ساحق في معركة بيرفيزا، بقيادة خير الدين بربروس أمام التحالف الصليبي المكون من الإمبراطورية الرومانية، وجمهورية البندقية، والباباوية، وكانت المعركة في ميناء بيرفيزا جنوبي كورفو اليونانية، التي تقع بالقرب من سواحل ألبانيا.

كما لعب الأسطول العثماني دوراً هاماً في استقرار الأقاليم الإسلامية العربية في شمال أفريقيا، بعد أن كانت مهددة من الغزو الصليبي البرتغالي والأسباني، واستطاع هذا الأسطول أن يتغلغل في أنحاء الحوض الغربي للبحر المتوسط، وقد حقق انتصارات عظيمة على أسطول الإمبراطور شارل الخامس (شارلكان)، على السواحل الإيطالية والإسبانية، مما أبقى أثراً عظيماً وهو إنقاذ شمال أفريقيا من الغزو الصليبي مرة أخرى.

ولقد بلغ من قوة هذا الأسطول أن دفعت فرنسا للتعاون الدائم مع الأسطول العثماني، في مواجهة خصومها في أوروبا وسواحل البحر المتوسط، حتى إنهم جعلوا من طولون الميناء الفرنسي قاعدةً حربية إسلامية للأسطول العثماني، حماية لها من الهجمات الإسبانية حتى غدت مدينة طولون مدينة إسلامية عثمانية بقيادة خير الدين بربروس، وقد استطاع



هذا الأسطول في خلال عام واحد أن يحقق الاستقرار في هذه المنطقة، وأن يأسر أربعة عشر ألفاً من قوات شارل الخامس ملك إسبانيا وألمانيا، وإمبراطور الإمبراطورية الرومانية، والمستعمرات في أمريكا الجنوبية، مما أثار السخط العام في أوروبا على الملك فرنسوا الأول^(١) ملك فرنسا لتحالفه مع الدولة العثمانية، حتى أطلقوا على هذا الاتحاد (الاتحاد المندس) بين فرنسا والهلل.

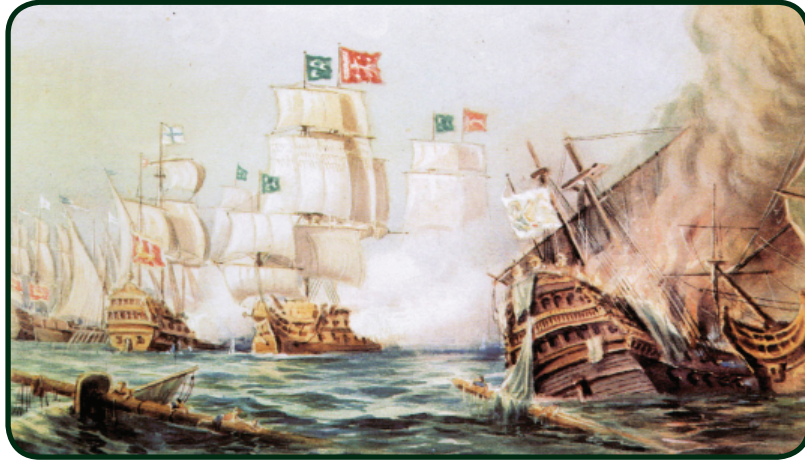
ومما يذكر أن هذا العمل البحري كان آخر أعمال خير الدين بربروس، والذي اعتزل حياة البحر بعدها، واستقر في إسطنبول إلى أن لقي ربه، بعد أن سطر صفحات ناصعة في تاريخ البحرية العثمانية الإسلامية، وردع القوى الصليبية الحاقدة، رحمه الله رحمة واسعة. كما لعب الأسطول العثماني دوراً رئيسياً في فرض سيادة الدولة العثمانية على المضائق البحرية، مثل البسفور والدردنيل وبحر مرمرة، كما استطاعت الدولة فرض سيادتها على البحر الأسود الذي كان يعتبر جزءاً من أملاك الدولة.

ولما كانت الدولة قوية مهابة لم يستطع أحد أن يتدخل في قضية فرض سيادة الدولة على المضائق، ولما ضعفت الدولة، أصبحت هذه المضائق من أبرز مشكلات السياسة الدولية في مواجهة الدولة العثمانية^(٢).

ولقد ظل هذا الأسطول يلعب دوراً رئيسياً في حماية سواحل الدولة، إلى أن ضعفت الدولة شيئاً فشيئاً، فضعفت فيها المؤسسة العسكرية، وتراجع دور الأسطول تراجعاً كبيراً.

(١) فرنسوا الأول: ملك فرنسا من سنة (٩٢٢هـ / ١٥١٥م) إلى سنة (٩٥٥هـ / ١٥٤٧م)، واجه شارل الخامس في عدة معارك كان أشدها في إيطاليا في منطقة بافيا سنة (٩٣٢هـ / ١٥٢٥م)، ووقع الملك فرنسوا أسيراً على أثرها وأرسل إلى العاصمة مدريد مقيداً بالسلاسل، وأرسل أثناء أسره إلى السلطان سليمان القانوني يستغيث به ليفك أسره، وأجبر على التوقيع على تسليم ميلانو ومقاطعة برجونيا إلى الأسبان، ثم أطلق سراحه، ونقض المعاهدة، وقام بالتحالف مع بابا النصرارى لتقع المواجهات من جديد بينه وبين شارل الخامس، وانتهت بتوقيع معاهدة كامبري (١٥٢٩م) تخلت فرنسا بموجبها عن مطالبها بشمال إيطاليا، ثم توفي في قصر رمبويه في فرنسا سنة (١٥٤٧م) عن عمر ناهز الثالثة والخمسين.

(٢) د. عبد العزيز الشناوي «الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها»، (١/ ١٩١).



رسم لأحد الانتصارات البحرية للأسطول العثماني في عهد مصطفى الثاني^(١)

لقد كانت الدولة العثمانية دولة عسكرية قوية، صاحبة سيادة، خاضت حروباً عديدة، ليس رغبة في سفك دماء الغير، وإنما رغبة في تحقيق المصالح العليا للشريعة الإسلامية، ومنها الفتوحات للبلاد الغير الإسلامية، بلاغاً لدعوة الإسلام للناس، وإعلاءً لكلمة الحق، وكذلك لتأمين وحماية الدولة في مرحلة الصراع الأُمِّي الذي كانت تعيشه البشرية، لأنها إن تراجعت عن ذلك، فستصبح فريسة لأعدائها.

فهو صراع للدفاع عن النفس، ورد المعتدي، ومؤازرة للمسلمين، وتلبية لنداءاتهم لرفع الظلم عنهم من المعتدين الصليبيين الحقدة، كما حدث في شمال أفريقيا، وفي سواحل البحار الشرقية في الخليج العربي، وبحر العرب.

أضف إلى ذلك إنقاذ العالم العربي من السيطرة والهيمنة الاستعمارية لنحو أربعة قرون، وجمع شمل المسلمين، وتوحيدهم تحت راية الخلافة الإسلامية.

(٢) من كتاب السلاطين العثمانيون (ص: ١٤٦).



٣. التوسع العثماني في البلاد العربية:

كما أسلفنا استطاع سليم الأول أن يضم إليه الشام ومصر، كما دخل الحجاز بصورة سلمية ضمن الدولة العثمانية، وذلك أثناء إقامة السلطان سليم في مصر، كما سار على هذا النهج أمراء المماليك الذين كانوا يحكمون اليمن، إذ إنهم دخلوا ضمن الدولة العثمانية لتكون هي الإقليم الرابع بعد الشام ومصر والحجاز، حيث أعلن الأمير المملوكي على اليمن إسكندر الشركسي الولاء للسلطان سليم، والذي أبقاه والياً على اليمن، حتى أصبح البحر الأحمر بحيرة عثمانية، مما ساهم في حماية هذه المنطقة من الغزو الصليبي البرتغالي، وأوقف اعتداءهم، وخفف من ضغطهم وتعاونهم مع الأحباش في ذلك.

بل أغلق العثمانيون البحر الأحمر^(١) في وجه السفن النصرانية التجارية، مما دفع هذه السفن إلى إفراغ شحناتها بميناء المخا^(٢) في اليمن، ثم يعاد شحنها على سفن إسلامية لتنقلها إلى السويس شمالاً، وذلك حماية لمقدرات المسلمين التي تطل على ذلك البحر، وظل هذا المبدأ قائماً إلى أن ضعفت الدولة.

ولقد أضفى هذا الاهتمام من الدولة العثمانية بالطريق البحري المؤدي إلى الحجاز مكانة كبيرة في قلوب جماهير المسلمين على هذه الدولة.

وقد استطاع العثمانيون طرد البرتغاليين من عدن في سنة (٩٤٤هـ / ١٥٣٨م) في عهد سليمان القانوني، كما تقدموا إلى مسقط، وطرّدوا البرتغاليين منها أيضاً، كما طاردوا الأسطول البرتغالي في المحيط الهندي.

غير أن الشيعة الزيدية في اليمن قاموا بثورة ضد الحكم العثماني، مما دفع العثمانيين إلى إرسال حملة بحرية كبيرة في سنة (٩٧٦هـ) بقيادة سنان باشا والي مصر، فاستطاع أن يخمد هذه الثورة، فاستقرّ اليمن ضمن الدولة العثمانية.

كما دخل شرق السودان ضمن الدولة في عهد سليمان القانوني، والمقصود بهذا سواحل البحر الأحمر في سواكن ومصوّع.

(١) كان يطلق على البحر الأحمر عند المسلمين والمؤرخين العرب اسم بحر الحجاز، وقد ذكر ذلك أبو شامة في الروضتين، وابن واصل في أخبار بني أيوب، وابن إياس المصري في بدائع الزهور.

(٢) المخا: ميناء يقع على البحر الأحمر جنوب غرب اليمن.



والباحث المنصف المتفحص بدقة قد اتضح له قطعياً وبصورة جازمة أن الدولة العثمانية كانت سبباً في إنقاذ بلاد العرب، وخاصة المغرب وشمال أفريقيا، من تحولهم إلى دول نصرانية كاثولوكية، كما استعملهم الله عز وجل للحفاظ على الإسلام وعروبة تلك المناطق، التي كان يُخشى أن يكون مصيرها مصير الأندلس.

وما قدمته الدولة العثمانية من عون وحماية ودفاع عن الأقطار العربية بصورة عامة، والحجاز واليمن بصورة خاصة، إنما هو من منطلقات أخوة الدين، وحقوق المسلم على المسلم، واعتبرت أن ذلك محتماً عليها كدولة، حازت صفة الخلافة الإسلامية المسؤولة عن كل مسلمي العالم.

ومما هو جدير بالذكر أن هذا الأمر قد كلف الدولة العثمانية الكثير من الأعباء المالية، وأزهق أرواحاً من أبنائها في سبيل الله، ولم تنتظر أية فائدة اقتصادية من الأقطار العربية تعود عليها من ذلك.



• السيادة العثمانية على الجزائر:

ذاع صيت بابا عروج^(١)، وأخيه خير الدين بربروس، على أثر انتصاراتهم على الأسبان في البحر المتوسط، وهما أخوان من أصول يونانية، اعتنقت أسرتهما الإسلام قديماً، كما عملا في الأسطول العثماني في بحر إيجه، وقادا معاً حركة جهاد بحري ضد العمليات البحرية للأسبان في سواحل البحر المتوسط وشمال أفريقيا، وذلك بعد سقوط الأندلس، وقد استطاعا بأسطولهما أن يكبدا الأسبان خسائر كبيرة، مما دفع أهل الجزائر أن يستنجدوا بهما لاسترداد ميناء بجاية من الأسبان، الذي يعد أكبر ميناء في المنطقة الشرقية من المغرب الأوسط؛ وقد نجحوا في طرد الأسبان من ميناء بجاية، ثم انتقلوا إلى ميناء جيجل في شرق الجزائر، وجعلاه قاعدة للعمليات العسكرية.

أعاد مواطنو الجزائر طلب المساعدة من بابا عروج، للوقوف في وجه الأسبان الذين باتوا يهددون سواحل الجزائر مرة أخرى، ويمنعون وصول سفن المسلمين إليهم، فأجابهم بابا عروج، وتوجه إليهم وسار إلى الداخل، واستطاع أن يصد هجوماً إسبانياً، وأن يشكل حكومة عسكرية تحت قيادته، انضم إليها عدد كبير من القبائل وسكان المدن، ثم فرض سيطرته على الأقاليم الداخلية، مثل مالينا وموديا وتناس، وأقام فيها حاميات، مما أزعج القيادات الأهلية القديمة هناك، وقد دفعهم ذلك إلى أن يلجأ آخر حكام بني زيان^(٢) للتعاون مع الأسبان ضد بابا عروج.

وعلى الفور رحبت أسبانيا بهذا التقارب، وأرسلت حملة عسكرية بلغت خمسة عشر ألف مقاتل، واستطاعت أن تتوغل في أرض الجزائر، وحاصرت مدينة تلمسان التي صمد أهلها إلى جوار بابا عروج، غير أنه وقع أسيراً في النهاية بين أيدي الأسبان، الذين قاموا بقتله سنة (٩٢٤هـ / ١٥١٨م)، وكان قد بلغ من العمر أربعة وأربعين عاماً.

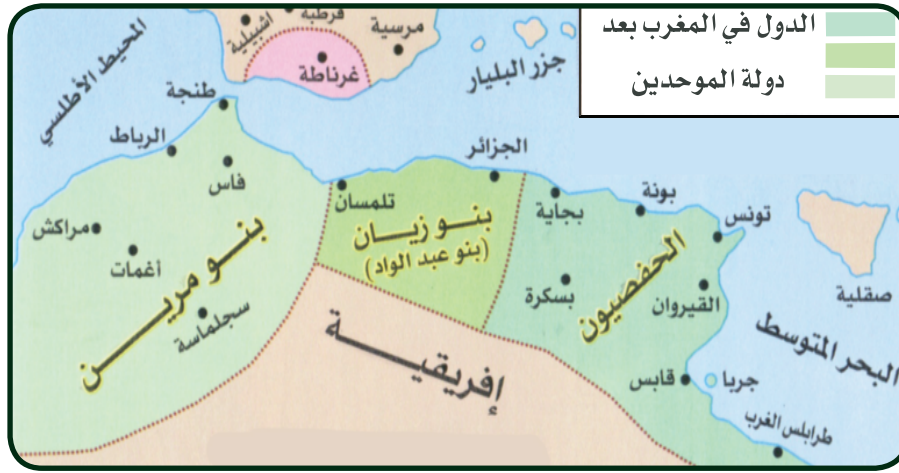
(١) عروج بن أبي يوسف يعقوب، اشتهر أيضاً بعروج بربروس، أو بابا عروج، وعروج معناها الرئيس أو القبطان، قائد بحري اشتهر هو وأخوه خير الدين في جهادهما البحري، ولد في سنة (٨٧٢هـ)، وتوفي قتيلاً على يد الأسبان سنة (٩٢٤هـ)، نحسبه عند الله شهيداً.

(٢) بنو زيان: ينسب بنو زيان إلى بني عبد الواد أحد فروع قبيلة زناتة البربرية، عملوا في خدمة دولة الموحدين، التي اعتمدت عليهم في كثير من حروبها، فقامت دولة الموحدين بتعيين جابر بن يوسف زعيم بني زيان أميراً على تلمسان، فكانت الخطوة الأولى نحو تأسيس الدولة بعد ضعف دولة الموحدين، فلقد قام زعيم الزيانيين ايغمر اسن بن زيان وأعلن الاستقلال عن دولة الموحدين وقيام دولة العبدوادية، وأصبح ينادى بأمير المؤمنين، واتخذ من تلمسان عاصمة له. بقيت هذه الدولة من سنة (٦٣٣هـ) إلى سنة (٨٦٢هـ).

راجع كتاب: «تاريخ بني زيان ملوك تلمسان»، محمد بن عبد الله التنسي، تحقيق محمود أغا بو عياد.

تولى خير الدين قيادة عمليات الجهاد في المغرب بعد أخيه، وقد اشتهر بلقب أخيه بربروس، والذي يعني صاحب اللحية الحمراء.

أدرك خير الدين بربروس حرج موقفه، إذ إن الأعداء يحيطون به من كل جهة في المغرب، فبنو زيان وأنصارهم في تلمسان، وبنو حفص في تونس^(١)، وكذلك الأسبانيون، وكلهم يتربصون به ويعملون على القضاء على قوته، إلى جانب أنه أدرك أنه يواجه نقصاً شديداً في السلاح والعتاد، مما دفعه إلى أن يستنجد بالدولة العثمانية لمساعدته.



خريطة الدولة الحفصية

وقد كتب أهل الجزائر بتوجيه من خير الدين إلى السلطان سليم الأول، يستنجدون به باسم القضاة والخطباء والفقهاء والأئمة والتجار والأعيان، وكافة سكان مدينة الجزائر، وأعلنوا أنهم يدينون بالولاء والتقدير للدولة العثمانية وأنهم يدخلون في تبعيتها.

وأرسلوا هذه الرسالة مع إحدى الشخصيات الدينية التي لها وزنها، وهو الفقيه أبو العباس أحمد بن قاضي على رأس بعثة، أظهرت للسلطان بدقة الموقف في الجزائر،

(١) الحفصيون: تنسب الدولة الحفصية إلى أبي حفص عمر بن يحيى من قبيلة هنتاتة، وكانوا من رجال دولة الموحدين واستخدموهم كوزراء، منهم عمر بن يحيى الذي عينوه والياً على تونس، وعند ضعف دولة الموحدين استغل الحفصيون هذه الخلافات، واستطاعوا أن يأسسوا لأنفسهم دولة في تونس امتدت من سنة (٦٢٥هـ) إلى (٩٤١هـ)، وامتد سلطانهم من طرابلس الغرب في ليبيا إلى قسنطينة، وبجاية، والجزائر، وتلمسان، ومناطق واسعة من المغرب الأوسط.

كان أول أمراء هذه الدولة أبو زكريا الحفصي، مرت الدولة بأطوار متعددة وتلقب حكامها بلقب الخلافة، وعند ضعفهم استعان بعضهم بالإسبان على بعضهم الآخر، حتى كانت مذبحة تونس، والتي راح ضحيتها الآلاف من المسلمين على يد الأسبان النصارى سنة (٩٤١هـ)، مما دفع العثمانيين أن يحسموا أمر تونس، ويعيدوها إلى دولة الخلافة الإسلامية الواحدة. يوسف علي بدوي «عصر الدويلات الإسلامية»، (ص: ٢٠٥-٢٠٧).



وأهمية قيادة خير الدين بربروس للمغرب الأوسط، وأنه يحترم ويحكم فيهم بالشريعة الإسلامية، ويقودهم للجهاد ضد الإسبان لمواجهة أخطار المد الصليبي في شمال أفريقيا. تفاعل السلطان سليم مع الوفد تفاعلاً إيجابياً، بل منح خير الدين رتبة بيكربك - نائب السلطان - وهي تحوله النيابة عن السلطان في إدارة الولاية، كما اعتبر السلطان سليم أن أي اعتداء خارجي على الجزائر يُعدُّ اعتداءً على الدولة العثمانية، وأرسل قوة من سلاح المدفعية العثمانية، وأرسل معهم ألفين من جنود الإنكشارية، مما كان له أكبر الأثر في استقرار شمال أفريقيا في هذه الفترة ضمن الدولة العثمانية.

كما أذن السلطان لمن شاء من المسلمين في دولته بالسفر إلى الجزائر، والانخراط في صفوف المجاهدين، كما دعم ذلك بامتيازات خاصة لمن انضم إلى قوافل المجاهدين، مما شجع الكثير من سكان الأناضول على التطوع في صفوف المجاهدين هناك.

وبذلك يتضح لنا أن الدولة العثمانية ضمت إليها الجزائر بناءً على رغبة سكانها، وليس احتلالاً لها كما صورته البعض، وأن دخول الجزائر في إطار الدولة العثمانية هو أمر طبيعي من باب ضم الأم لأبنائها؛ فهكذا هي الخلافة تضم ولاياتها إليها، وترعاها، وتحميها.

وبذلك دخلت الجزائر رسمياً ضمن الخلافة العثمانية، ودُعي للسلطان سليم خليفة المسلمين على المنابر، وضربت العملة باسمه.

وأصبحت الجزائر أول الأقاليم في شمال أفريقيا يدخل ضمن السيادة العثمانية، وتصبح ركيزة وقاعدة عسكرية للدولة.

• السيادة العثمانية على ليبيا:

كان الإسبان قد نجحوا في سنة (٩١٦هـ / ١٥١٠م) في الاستيلاء على طرابلس الغرب في ليبيا، وحاولوا مد نفوذهم إلى الداخل، فواجهوا مقاومة كبيرة من المسلمين هناك، فتركوا طرابلس لحكام مالطا فرسان القديس يوحنا^(١)، الذين أرسل إليهم السلطان

(١) يطلق فرسان القديس يوحنا على جموع الفلول الصليبية التي تم طردهم من بلاد الشام في عهد المماليك، واستقروا في جزيرة رودس، وعند فتح العثمانيين لها فروا إلى مالطا، واتخذوها قاعدة لمهاجمة السفن والسواحل الإسلامية، وتحالفوا مع الأسبان من أجل ذلك.



سليمان القانوني حملة بحرية بقيادة سنان باشا، استطاعت أن تنتصر عليهم، وأن تسترد منهم طرابلس بعد أن استسلم بعضهم، وفر بعضهم في السفن إلى مالطا، وبذلك دخلت ليبيا ضمن الدولة العثمانية.

• السيادة العثمانية على تونس:

ولقد حذا أهل تونس حذو أهل الجزائر، واستنجدوا بالدولة العثمانية، بعد أن نالتهم غارات وتهديدات الأسبان، فأمرت الدولة العثمانية واليها على الجزائر خير الدين بربروس بنجدهم، واستطاع أن يشن حملة على الأسبان، حقق فيها النصر للمسلمين واسترد تونس، مما دفع الدول الأوروبية وعلى رأسها الإمبراطور شارل الخامس^(١) -إمبراطور أسبانيا- إلى التعاون مع آخر حكام الأسرة الحفصية في تونس لإعداد حملة جائرة، خرجت من برشلونه، تضم خمساً وستين سفينة حربية، عليها سبعة آلاف بحار، إلى جانب مجموعة من ناقلات الجنود، بلغ عددها إحدى وخمسين وأربعمئة سفينة تحمل تسعة وعشرين ألف مقاتل لمواجهة المسلمين في تونس مرة أخرى.

واستطاعت هذه الحملة أن تستولي على تونس، بسبب التفوق العددي وخيانة الحفصيين، وعلى رأسهم الحسن الحفصي، والذي أصبح حاكماً لتونس باسم شارل الخامس وتحت حمايته، كما حدثت حركة تمرد من آلاف الأسرى من الصليبيين الذين كانوا في مدينة تونس، والذين قاموا بتحطيم أبواب السجون، وانتشروا في شوارع المدينة ليمهدوا لقوات الإمبراطورية الدخول إلى العاصمة.

وبسبب هذا النصر أقام بابا روما احتفالات كبرى بسقوط تونس في يد الإمبراطور شارل الخامس، والذي أطلق عليه البابا (عاهل العالم المسيحي).

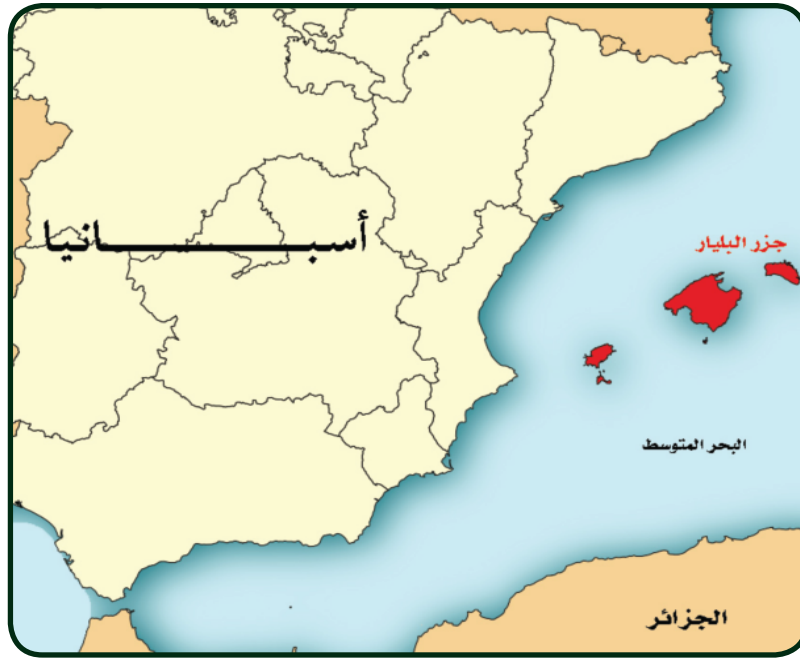
(١) شارل الخامس أو كارل الخامس أو شارلكان، ملك أسبانيا وإمبراطور الإمبراطورية الرومانية وملك ألمانيا وإيطاليا في الفترة من (١٥١٩م) إلى (١٥٥٦م)، أحد أسوأ الشخصيات في تاريخ أوروبا، حكم إمبراطورية مترامية الأطراف، تطلق عليه العرب شارلكان، كان يحكم أجزاء واسعة من العالم، منها أسبانيا بامتلاكها في أميركا الجنوبية والمكسيك، والشرق، وهولندا، وألمانيا، وناپولي، خاض حروباً كثيرة، لقي هزيمة كبرى في الجزائر من توفيق الله تعالى؛ حيث أرسل الله عليه الرياح والمطر التي دمرت جيشه، فرجع خائباً صفر اليدين، فتنازل عن عرشه ووزع ملكه بين ابنه فليب وأخيه فريدناند، ثم اعتكف في أحد الأديرة سنة (١٥٥٧م) ثم هلك في سنة (١٥٥٨م). د. إحسان حقي: تحقيق كتاب: «تاريخ الدولة العلية العثمانية»، لمحمد فريد بك (ص: ٢٠٤) / بتصرف.



• موقف الدولة العثمانية:

أصبحت الدولة العثمانية بصدمة كبرى بسقوط تونس بيد شارل الخامس، والذي أمر بإقامة قاعدة بحرية عسكرية صليبية على الساحل في ميناء حلق الوادي بتونس.

فقام خير الدين بربروس بغارة مفاجئة على جزر البليار بالبحر المتوسط، واستطاع أن يأسر ستة آلاف من جنودها، وأخذهم إلى الجزائر، ووصلت أنباء هذه الغارة إلى روما وسط احتفالات الباباوية بانتزاع تونس، مما عكّر صفوهم وأصابهم بغم شديد.



خريطة جزر البليار

• الموقف في الجزائر (المغرب الأوسط):

أصدر السلطان سليمان قراراً بتعيين خير الدين بربروس قائداً عاماً للأسطول العثماني، كما عين مكانه في الجزائر ابنه حسن باشا الذي اشتهر باسم حسن أغا.

كان الإمبراطور شارل الخامس قد أعد حملة جسارة أخرى لغزو الجزائر، يهدف من ورائها إلى القضاء التام على النفوذ العثماني الإسلامي في شمال أفريقيا، والانتقام من المسلمين لغارتهم على جزر البليار.



تكونت هذه الحملة من أسطول، يعد من أقوى الحملات والتجمعات البحرية المقاتلة التي ظهرت في البحر المتوسط في ذلك الوقت، فقد تكون من ست عشرة وخمسمئة سفينة، كما عُهد إلى كبار القادة البحريين في أسبانيا بقيادة الأسطول، يصحبهم أكثر من ستة وثلاثين ألفاً من الجنود الألمان والطيّان والأسبان، وفرسان القديس يوحنا من مالطا، والقوات الباباوية من الفاتيكان، وجعل نفسه القائد الأعلى للحملة، وذلك في سنة (٩٤٨هـ / ١٥٤١م).

• وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى:

ولقد كان الإمبراطور شارل الخامس يحمل بغضاً وعداءً لا حدّ لهما للإسلام وللمسلمين، وقد تمكن من النزول بحملته إلى البر مجاوراً ميناء الجزائر في أجواء صحوة، وما إن تمت عملية الإنزال كاملة، حتى شاء الله تعالى أن تنقلب الأجواء رأساً على عقب، حيث هبت ريح عاصفة، وأمطرت السماء مطراً شديداً متتابعاً، واستمرت لعدة أيام، واقتلعت خيام جنودهم، وارتطمت السفن بعضها ببعضها الآخر، وبعضها غرق، وبعضها قذفت به الأمواج إلى الشاطئ، وهجم عليها المسلمون، واستولوا على أدواتها وذخائرها، وأفسدت الأمطار والمياه الشديدة مفعول البارود، وباءت كل محاولات الإمبراطور لمهاجمة مدينة الجزائر بالإخفاق، خاصة مع هجوم المسلمين الذين شعروا بأن هذا نصر من الله تعالى لهم، فالتفوا حول قائدهم حسن أغا باشا، إلى جانب النجيدات العسكرية التي أرسلها الخليفة إليهم، فاجتمع ذلك كله على شارل الخامس وجنوده، فنزلت به الهزيمة النكراء، مما اضطر شارل الخامس إلى الانسحاب مع بقية جنوده على ما تبقى من السفن، واتجه بهم إلى إيطاليا بدلاً من أسبانيا، وقد خسر نحو ثمانية عشر ألفاً من جنوده، قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ﴾ [الدثر: ٣١].

ومما يذكر في ذلك أنه ألقى تاج الإمبراطورية وقال: من أراد أن يضع التاج على رأسه، فليتقدم إلى الجزائر، ويأخذها^(١).

(١) محمد بن عثمان المكتاس «الإكسير في فكك الأسير».



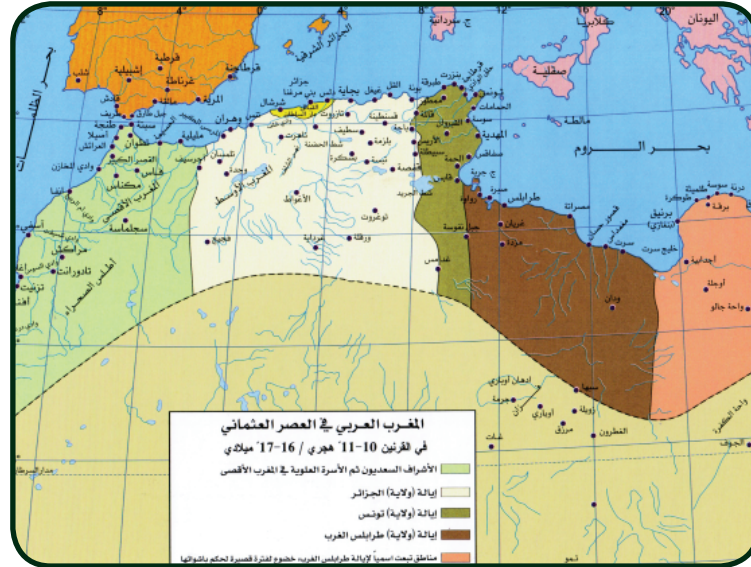
وهذا يذكرنا بهزيمة الأحزاب في غزوة الخندق، عندما أرسل الله عليهم الريح التي خلعت خيامهم، وأطفأت نارهم، كفأت قدورهم، فقفلوا راجعين خائبين، وكفى الله المؤمنين القتال، قال تعالى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْطِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

وقد شبه المسلمون هزيمة شارل الخامس بهزيمة أبرهة الحبشي وجيشه في يوم الفيل، وذلك في رسالة وجهوها إلى الخليفة السلطان سليمان القانوني في شهر شعبان سنة (٩٤٨هـ / نوفمبر ١٥٤١م)، ذكروا فيها أن الله جل وعلا قد أنزل العقاب بشارل الخامس وبجنوده، كعقاب أصحاب الفيل، وجعل كيدهم في تضليل، وأرسل عليهم ريحاً عاصفة، وموجاً قاصفاً، فجعلهم بسواحل البحر ما بين أسير وقتيل، وما نجا منهم من الغرق إلا قليل^(١).

وبعد هذه الهزيمة نقل الأسبان نشاطهم الاستعماري بقوة إلى داخل تونس، للاستيلاء على عدة مدن مثل صفاقص وسوسا ومنستير، مما أبغض السكان وأسخطهم على بني حفص، فقاموا بالخروج عليهم، مما اضطر الحسن الحفصي للسفر لأوروبا، يلتمس مساعدة النصارى، فظلت تونس في أخذ ورد بين العثمانيين والإسبان، ووقعت عدة معارك متتالية، انتهت بأن قامت الدولة العثمانية بتجهيز حملة عسكرية كبيرة بقيادة سنان باشا، والذي استطاع أن يسترد تونس ويقضي نهائياً على حكم أسرة الحفصيين فيها، وعلى التهديد الصليبي الأوروبي في سنة (٩٨٠هـ / ١٥٤٧م).

(١) محمد بن عثمان المكناس «الإكسير في فكاك الأسير».

• السيادة العثمانية على المغرب الأقصى (مراكش):



عندما سقطت الأندلس تعرض المغرب الأقصى لهجمات صليبية متتابة من البرتغاليين والأسبان، والذين استطاعوا السيطرة لفترة على السواحل والموانئ هناك، غير أن ظهور المقاومة الإسلامية التي قادتها أسرة الأشراف السعديين^(١) تصدت لهذه الغارات والهجمات، حتى استطاعت أن تطرد الصليبيين خارج البلاد، فلم يجد العثمانيون ضرورة لضم المغرب الأقصى إليهم، وهذا دليل على أن العثمانيين لم يكونوا محتلين أو مستعمرين كما وصفهم البعض، فلو كان الأمر كذلك لابتلعت الدولة العثمانية منطقة صغيرة كهذه لأهميتها الإستراتيجية، مثلما أراد الاستعمار الحقيقي من الصليبيين الإسبان والبرتغاليين.

ثم دخلت بعد ذلك ضمن الحماية العثمانية بعد معركة وادي السيل أو الملوك الثلاثة سنة (٩٨٦هـ / ١٥٧٨م) في زمان السلطان مراد الثالث^(٢)، والذي كلف رمضان باشا الوالي على تونس أن يواجه الجيوش الصليبية بقيادة ملك البرتغال سبستيان، واستطاع رمضان

(١) الأشراف السعديون: يزعم السعديون أنهم من نسل محمد النفس الزكية، من ولد علي بن أبي طالب عليه السلام، وقيل إنهم من بني سعد بن بكر الذين تنتمي إليهم مرضعة النبي حليمة السعدية، أصولهم من الحجاز، انتقلوا إلى المغرب الأقصى، وأسسوا الدولة المعروفة في التاريخ باسم الدولة السعدية، والتي دامت من سنة (٩١٥هـ: ١٠٦٩هـ).

توالى على الدولة السعدية خمسة من رجالاتها، بدأت بمحمد القائم، وانتهت بأبي مروان عبد الملك المعتصم. استطاعت هذه الدولة أن تصد البرتغاليين عن المغرب لفترة من الزمان، فحققوا عدة انتصارات عليهم، غير أنهم تنازعوا في نهايتهم فيما بينهم على الحكم، واستعانوا بالصليبيين على بعضهم البعض، مما أدى إلى زوال ملكهم في سنة (١٠٦٩هـ). يوسف علي بدوي «عصر الدويلات الإسلامية» (ص: ٢٠٨-٢١٩).

(٢) راجع أهم الأحداث في عصر السلطان مراد الثالث بالكتاب.



باشا أن ينزل هزيمة ساحقة بجيش الصليبيين، وقتل ملك البرتغال، ووضع المغرب الأقصى ضمن حماية الدولة العثمانية، حماية لها من الأطماع الصليبية الأوروبية، وبقي حكم الأشراف السعديين في ظل الحماية العثمانية.

• السيادة العثمانية على العراق:

وأما العراق فلم يستقر ضمن الدولة العثمانية، وظل بين أخذ ورد مع الصفويين، الذين استطاعوا أن يستولوا عليه فترات متقطعة، مما دفع الخليفة السلطان سليمان القانوني أن يعد حملة كبيرة سنة (٩٤٠هـ / ١٥٣٣م) بقيادة الصدر الأعظم إبراهيم باشا، الذي استطاع وهو في طريقه إلى تبريز أن يفتح عدة مدن، ثم في سنة (٩٤١هـ) استطاع أن يفتح تبريز التي فر منها الصفويين وأميرهم طهماسب.

وقد لحق السلطان بنفسه بالحملة على رأس جيش آخر، ثم توجه إلى بغداد، ودخلها في (٢٤) جمادى الآخرة لسنة (٩٤١هـ) / (٣١) ديسمبر (١٥٣٤م)، وبقي بها إلى (٢٨) رمضان (٩٤١هـ) / (٢) أبريل (١٥٣٥م)، وولى عليها سليمان باشا أحد كبار قادته، وترك معه حامية كبيرة لحمايتها، ثم ألحقت البصرة بعدها بالحكم العثماني.

• السيادة العثمانية على شرق الجزيرة العربية وإمارات جزر الخليج العربي:

في أعقاب الفتح العثماني لبغداد والبصرة أصبحت السيادة في الخليج العربي للدولة العثمانية، حيث دخلت المنطقة في حمايتها، وقد أرسل شيوخ القبائل وزعماء شرقي الجزيرة العربية رسائل التهنة للسلطان سليمان القانوني، وأرسل السلطان سليمان القانوني حملة بحرية بقيادة محمد فروخ باشا لمواجهة البرتغاليين هناك، استطاعت طردهم من إقليم الأحساء في سنة (٩٥٥هـ / ١٥٥٢م)، وعُين محمد فروخ باشا حاكماً على الأحساء، وبنى بها مسجداً جامعاً سنة (٩٦٣هـ)، وهو المعروف بمسجد الدبس الآن.

وأصبحت بذلك المنطقة الشرقية للجزيرة العربية تحت السيادة العثمانية، التي ضمت هذه المنطقة مع البصرة في ولاية واحدة، باستثناء المناطق الداخلية في نجد، التي لم تخضع خضوعاً مباشراً للحكم العثماني، وهذا دليل آخر على أن العثمانيين لم يكونوا يمثلون

احتلالاً أو استعماراً للمنطقة، فقد تركوا الحكم لزعماء القبائل وشيوخها في هذه المناطق دون أن يتدخلوا فيها، إذ إنها كانت محاطة بمناطق نفوذ عثمانية^(١).



خريطة عثمانية قديمة لولاية البصرة

وقد تلا القائد محمد فروخ باشا عدد من الحكام العثمانيين إلى سنة (١٠٨١هـ / ١٦٧٠م)، حيث ثار بنو خالد على الحاكم العثماني، وحكموا البلاد إلى سنة (١٢١٠هـ)، وقد أقرهم العثمانيون على ذلك، إلى أن تمكن السعوديون من القضاء على حكم بني خالد، وضم الأحساء إلى دولتهم الأولى، مما أثار الدولة العثمانية على الدولة السعودية الأولى.

أوكلت الدولة العثمانية الأمر إلى والي مصر محمد علي باشا، والذي استطاع ابنه إبراهيم أن يفرض السيطرة العثمانية مرة أخرى على الأحساء، وعلى المنطقة الشرقية برمتها سنة (١٢٣٤هـ / ١٨١٨م).

(١) وفي ذلك دليل على أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب النجدي - رحمه الله - والذي ولد بعد ذلك لم يكن بدعوته وتحالفه مع آل سعود من الخوارج على السلطان أو الخلافة، إذ إن حكم نجد لم يكن تابعاً لهم.



وقد قام والي العراق بإعادة حكم بني خالد إلى الأحساء نيابة عن الدولة العثمانية، وقد تبع ذلك صراع عنيف بين القبائل حتى سنة (١٢٥٤هـ / ١٨٣٨م)، مما دفع الجيش المصري إلى العودة مرة أخرى ليخضع المنطقة مرة ثانية، والذي لم يلبث أن انسحب منها تحت الضغط البريطاني الذي أصبح له صولة وجولة في الخليج العربي منذ ذلك الوقت. وعلى أثر ذلك ضعفت شيئاً فشيئاً أهمية إقليم الخليج العربي لدى الدولة العثمانية، خاصة بعد عزل الوالي العثماني من العراق علي رضا^(١) سنة (١٢٥٧هـ / ١٨٤١م)، والذي كان يصب اهتمامه في بقاء إقليم الخليج العربي تحت سيادة الدولة العثمانية.

فتح هذا الباب لتدخل خصوم الدولة العثمانية في الخليج وخاصة بريطانيا وفارس، وأصبحت الهيمنة لبريطانيا على الخليج العربي شيئاً فشيئاً.

• طبيعة الحكم العثماني للبلاد العربية:

حكم العثمانيون البلدان العربية نحو أربعة قرون كاملة، استطاعوا خلالها المحافظة على نسيج الوحدة بين أقطار المسلمين، في ظل إطار سياسي واحد هو الخلافة الإسلامية، وقد نظرت الشعوب العربية إلى هذا الإطار نظرة إجلال وتقدير، وأنها عليها إطاعته، لأنه يمثل خليفة المسلمين.

وقد احتفظ العرب تحت الحكم العثماني بلغتهم العربية وعاداتهم وتقاليدهم، بل إن الكثير من شؤون وأموال الحكم قد تركها العثمانيون بيد الأمراء المحليين والعصابات والهيئات المحلية، ولذلك يُعدُّ الحكم العثماني للبلاد العربية حكماً غير مباشر، اقتصر على الحماية العسكرية ومتابعة الأمن والأمان وسير المجتمعات وفق السياسة العامة للدولة، وهي إقامة الشريعة الإسلامية، فهي بذلك كانت بعيدة عن المركزية المطلقة في طريقة حكمها للولايات التابعة لها، وقد قامت الخلافة بتطبيق أساليب إدارية مختلفة بحسب المناطق والمجتمعات.

(١) علي رضا باشا اللاظ: تنطق بالظاء وبالزاي، ومعنى اللاظ أي الخيل الشديد، وهم أقوام من العرب العباسيين فروا من أمام التتار إلى المناطق الساحلية على البحر الأسود في منطقة طرابزون، وسميت المنطقة باسمهم اللاظ أو اللازيا، وكان منهم علي رضا باشا الذي جاء من طرابزون والياً على بغداد في عهد السلطان محمود الثاني، واستطاع القضاء على المماليك الذين كانوا يحكمون هناك، وكان له أخوان أحدهما تولى الحلة والآخر تولى البصرة. راجع نسب عشيرة اللاظ بموقع النسابون العرب.

أولاً: التنظيم الإداري:

لقد اتخذت الدولة العثمانية تنظيمات مختلفة لحكم البلدان العربية على النحو التالي:

أولاً: قسمت البلدان العربية إلى عدة ولايات: استقرت على خمس عشرة ولاية، كانت تسميها بالأيالة^(١)، وكان هذا التقسيم يتبدل من حين لآخر بحسب ما تقتضيه المصلحة العامة للدولة.

كما قُسمت كل ولاية إلى مقاطعات (سناجق)، وكل مقاطعة (سنجقية) إلى نواحي وأقضية.

الولايات العربية العثمانية:

- أربع ولايات بالجزيرة العربية: الأحساء، ويدخل ضمنها المنطقة الشرقية وجزر الخليج العربي بما فيها جزيرة أوال (البحرين)، وولاية اليمن، وولاية الحجاز، وولاية الأحباش.
- قُسم العراق عدة ولايات: ولاية البصرة، وولاية الموصل، وولاية بغداد، وولاية شهرزور (کردستان)، ثم أدخلت هذه الولاية ضمن ولاية بغداد في نهاية الأمر.
- كانت مصر ولاية واحدة، وكذلك كل من الجزائر وتونس وطرابلس الغرب تمثل كل منها ولاية واحدة قائمة بذاتها.
- أربع ولايات ببلاد الشام: ولاية حلب، وولاية دمشق، وولاية طرابلس، وولاية صيدا، التي أضيفت في القرن التاسع عشر، كما جعلوا بيروت ولاية في نهايات عهد الدولة العثمانية.

(١) أيالة أو أيالت: هي أكبر وحدات التقسيم الإداري في الدولة، يأتي على رأسها والٍ أو بكليربي (أمير الأمراء)، وتسمى في العربية ولاية. د. صالح سعداوي صالح / مصطلحات التاريخ العثماني (١/ ١٩٩).



ثانياً: النظام التشريعي والقوانين:

كانت الدولة العثمانية في أول أمرها تحكم بالشرعية الإسلامية، منطلقة من تعظيم الكتاب والسنة، وكانت جميع النظم القانونية والقضائية تنطلق من هذا المنطلق، إلى أن صدرت مجلة الأحكام العدلية في أواخر الدولة سنة (١٢٣٦هـ / ١٨٢٢م)^(١)، والتي تضمنت قوانين تتلائم مع ما يسمى بروح العصر، وألزموا العالم الإسلامي الذي في حوزتهم بما اختاروه من قوانين تتلاءم مع المذهب الحنفي فقط، دون النظر إلى الدليل أو النص، أو كون الرأي راجحاً أو مرجوحاً، وشملت أحكام البيوع والدعاوى والقضاء، وأصبح هذا القانون هو الدركة الأولى لحلول القوانين الجاهلية، وتنحية الشريعة الإسلامية من حياة الأمة شيئاً فشيئاً.

ولا شك أن هذا كان واحداً من أسباب التدهور الذي حل بالدولة في نهاياتها.

ثالثاً: التقسيم الإداري للولايات:

وضعت الدولة العثمانية والياً على رأس كل ولاية، ينوب عن خليفة المسلمين السلطان العثماني في تسيير شؤون الولاية، وينوب عنه في تنفيذ أحكام الشريعة الإسلامية، والنظم القانونية المستحدثة في الدولة، وكانت الدولة تختار الولاة من ذوي الكفاءات المشهود لهم بالصلاح والعدل، وكان يعين الوالي في غالب الأحيان لمدة سنة واحدة قابلة للتجديد، كما أعانت الدولة الولاة بموظفين آخرين في الإدارة والحكم.

الديوان: كما جعلت لكل ولاية مجلساً للشورى، يطلق عليه اسم الديوان، يتألف من كبار العلماء ونقيب الأشراف وقادة الجيش من رجال الحامية والمتخصصين، ليستعين بهم الوالي على تسيير شؤون الولاية، وليكون رقيباً على تصرفات الوالي.

ومن الجدير بالذكر أن الخلافة العثمانية أبقت في كثير من ولاياتها زعماءها المحليين، ماداموا على ولائهم للدولة العثمانية، ويبقى فوقهم الوالي متابعاً لأعمالهم ويصدق على قراراتهم.

(١) عبد الرحمن بن سعد الشري / تقنين الأحكام الشرعية تاريخه وأحكامه.



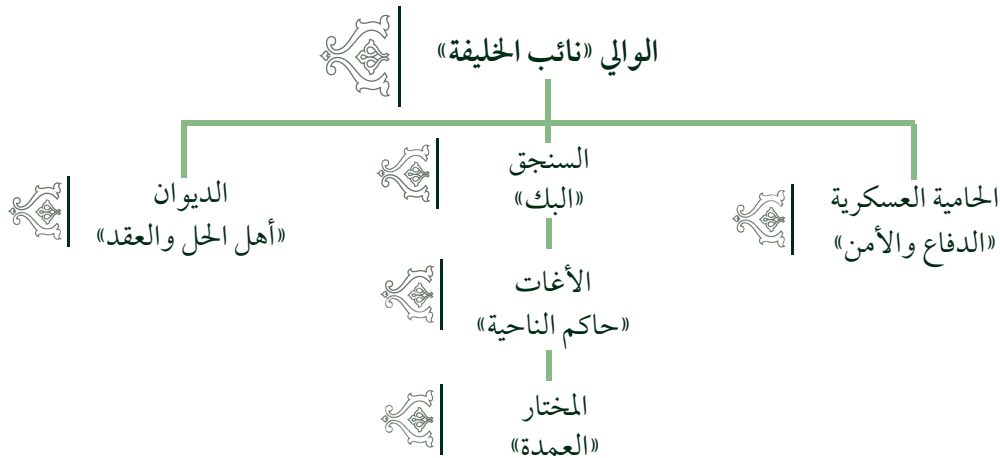
وكان معظم هؤلاء الزعماء المحليين يعينون سناجق، ويلقب كل منهم بالبك، وأيضاً أغاوات وهم حكام النواحي تابعين للبك، وعُين منهم أيضاً المختار، وهو العمدة الذي يحكم الحي ويتبع للأغا.

لقد اشتهر في كتب التاريخ المدرسي بأن الوالي كان يقدم الرشوة إلى الصدر الأعظم، من أجل بقاءه في الولاية، مما أدى إلى ابتزاز وإرهاق الشعوب بالضرائب الباهظة التي يفرضها الوالي على الشعب، ليعوض الرشوة التي دفعها مضاعفة مرات عديدة، مما أدى إلى فساد الرعية.

كما انعكس هذا النظام على الأراضي الزراعية التي وضع لها نظاماً يسمى بنظام الالتزام، وهو أن يلتزم شخص من الوجهاء أو الأمراء أو شيوخ الطوائف بدفع الضريبة السنوية عن الأرض الزراعية إلى الدولة، على أن يقوم هو ومن يعاونه من الموظفين المعيّنين لجمع هذه الأموال من الفلاحين؛ ولعل هذا قد وقع في مناطق وحوادث بعينها في نهايات الدولة، والمنصف ينبغي له أن يدرس هذه الظاهرة دراسة مستوفاة حول نظم الحكم العثمانية في تلك المرحلة، والآثار المترتبة عليها بإنصاف وحيدة.

رابعاً: الحامية العسكرية:

قامت الدولة العثمانية بوضع حامية عسكرية تتألف من أفرع الجيش المختلفة، وتتولى شؤون الدفاع عن الولاية، كما تساهم في نشر الأمن داخل الولاية، وكانت تأتمر بأمر الوالي، مثل الإنكشارية والفرسان وجنود الأسطول البحريين.



التقسيم الإداري للولاية العثمانية



خامساً: الحياة الاجتماعية:

لقد ساهمت الدولة العثمانية في احتفاظ الشعوب العربية بنظمها الداخلية، وعاداتها وتقاليدها، ودعمت بقاء النسيج الواحد للمجتمع المسلم، وحافظت على تماسكه دائماً. كما أن علماء الدين في الولاية كان لهم التقدير والاحترام من الوالي ومن الشعب، وكان عليهم دور الإرشاد والوعظ وحماية الشريعة.

ومما يذكر هنا أن أهل الذمة من اليهود والنصارى عاشوا في إطار الشريعة الإسلامية - خلال الحكم العثماني - يتمتعون بممارسة شعائهم دون المساس بهم، غير أنهم عند ضعف الدولة كان بعضهم يعمل ذراعاً للاستعمار الأوروبي الصليبي داخل الولايات العربية.

سادساً: التعليم في الولايات العربية:

اهتمت الدولة العثمانية بالتعليم الديني خاصة، وبتعليم العلوم الكونية عامة في جميع أنحاء الدولة، وبذلت من أجل ذلك الكثير من الأموال، ووضعت النظم والأحكام التي تحافظ على المؤسسات والهيئات التربوية والتعليمية في الدولة، إيماناً منها بأهمية التعليم وضرورته، وقد منحت الدولة الهيئة الإسلامية العليا فيها حق إنشاء المدارس، والتي كانت تُلحق بالمساجد وقسمتها إلى مراحل ثلاثة:

المرحلة الأولى: المكاتب: ويقصد بها المدارس الابتدائية، ويطلق عليها أماكن القراءة، وكانت تهتم بتعليم القراءة والكتابة للناشئة، واللغة التركية بالأحرف العربية، واللغة العربية، وسور معينة من القرآن الكريم حفظاً وتفسيراً.

المرحلة الثانية: المدارس المتوسطة: ويدرس فيها علوم اللغة العربية كالنحو والصرف والبلاغة وفقه اللغة، كما يدرس المنطق وعلم الفلك والهندسة، وكان خريجو هذه المدارس يُعيّنون معلمين في المدارس الابتدائية، وموظفي الوعظ والإمامة في المساجد.

المرحلة الثالثة: المدارس العالية: وتهتم هذه المدارس بتدريس الشريعة والنظم القانونية المستحدثة وعلوم القرآن، والعلوم الشرعية كالحديث والفقه والعقائد، وكان خريجو هذه المدارس يمنحون لقب مُلازم، ويعينون في وظائف القضاء والإفتاء.

كما لم يكن التعليم إجبارياً، وكان في المرحلة الابتدائية مجانياً، ويُمنح فيه التلاميذ وجبات الطعام، كما كانت بعض المدارس تُعد سكناً خاصاً لبعض الطلاب، وكذلك المدارس المتوسطة، وأما المدارس العالية فكانت تمنحهم الهيئة رواتب شهرية تشجيعاً لهم لإكمال تعليمهم العالي مما دفع المؤرخ الأمريكي لايبير أن يقول:

إن النظام التعليمي في مدارس الهيئة الإسلامية كان يفوق أي نظام تعليمي آخر في دول أوروبا في ذلك الوقت^(١).

كذلك كان النظام في الولايات العربية، حيث عملت الدولة العثمانية على دعم المساجد الكبرى، للقيام بدورها التعليمي والتوجيهي، كالأزهر في مصر، والزيتونة في تونس، والمستنصرية في العراق، والقرويين في المغرب.

كما أن الدولة تركت لكل والٍ وللحكام المحليين متابعة النظم التعليمية التي تتواءم مع كل ولاية بحسبها.

سابعاً: الأوضاع الاقتصادية:

ارتبطت الحياة الاقتصادية في الولايات العربية بالنظام الاقتصادي العام للدولة، وقد تأثرت البلدان العربية وخاصة مصر بتحول طريق التجارة من البحر الأحمر إلى رأس الرجاء الصالح (الدوران حول أفريقيا)، وسيطرة القوى الصليبية على البحار الشرقية وتجارة المشرق.

ولقد نظم الولاة الأمن الذي ساهم في قيام حياة اقتصادية هادئة، انتعشت فيها التجارة الداخلية والخارجية، والتي قامت على الزراعة التي اهتم بها الولاة، وأنشؤوا لها الترع

(١) د. عبد العزيز الشناوي «الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها»، (١/٤٤٧) للاستزادة: «الدولة العثمانية تاريخ وحضارة»، لإحسان الدين أوغلو وآخرين (١/٢٩٠).



ونظام الري والدورة الزراعية، واستصلاح الأراضي وإنشاء القناطر والجسور، والأخذ بالطرق الزراعية الحديثة، كاستخدام أدوات مختلفة مما ساهم في زيادة المحصول الزراعي بشكل كبير، خاصة في الحاصلات النقدية التي تقوم عليها الصناعة، وقد ساهم ذلك في قيام بعض الصناعات كالغزل والنسيج، وعصر الزيوت، وصناعة السفن.

وقد انتعشت هذه الحياة الاقتصادية في بعض الولايات دون غيرها، بحسب الولاية ومتابعتهم لذلك، ولقد نالت مصر نصيباً كبيراً في عهد محمد علي من التطور والتقدم في جميع المجالات.

ولقد أصاب هذه الحياة الاقتصادية شيء من التدهور والتراجع من نواحي الحياة في أواخر الدولة، بسبب ضعف الدولة العثمانية في نهاياتها.

لقد كانت هذه النظم صالحة لفترة من الزمان، غير أن الدولة كان ينبغي عليها أن تطور هذه النظم بما يتواءم مع طبيعة كل عصر.

وحقيقة الأمر أن الدولة العثمانية أوجدت حماية تامة للولايات العربية في ظلها، مما ساهم في احتفاظ هذه الولايات بمقوماتها الأساسية، كالدين الإسلامي، واللغة العربية، والعادات والتقاليد، والانتماآت لدولة واحدة هي دولة الخلافة.

والمَنْصَف الصادق المتبع لهذه الأحداث بتجرد يجد أن الصلات التي كانت تربط الدولة العثمانية والولايات العربية هي صلات دينية، حيث إن الجميع يعتنق عقيدة واحدة، ودائماً ينضوون تحت شعار الخلافة الذي يمثل الأمة الواحدة، والتي كانت ومازالت في قلوب شعوب العالم الإسلامي، بل إن تاريخ هذه الدولة يمثل جزءاً هاماً من تاريخنا، فنحن شركاؤها في السلطة والحكم، وفي السراء والضراء، وفي الفتوحات والهزائم، وفي المغام والمغرم، والذي ينال منها إنما ينال منّا.

لقد عاشت الشعوب العربية في منظومة عثمانية واحدة، لا تعرف حدوداً بين ولاياتها، أو حواجز بين سكانها، فالجميع في الدولة سواء، لهم حرية السفر والتنقل والإقامة في



أي مكان من أرجاء الدولة شأؤوا، كما أن فرص العمل والتجارة والنشاط الاقتصادي كانت مكفولة ومتاحة لهم وفق هذه المنظومة دون الحصول على إذن بالخروج من مسقط رأسه، أو الإقامة في الولاية الأخرى.

وتعتبر هذه المنظومة التي تحققت واحدة من أهم الأمور التي ميزت الدولة العثمانية الواحدة الشاملة لهذه الشعوب عن غيرها من الدول، التي كانت تتربص بها من الصليبيين الأوروبيين، الذين انهارت هذه المنظومة على أيديهم، ووضعوا الحواجز والسدود بين أبناء الإقليم الواحد، وخاصة بريطانيا وفرنسا واللتان أسهمتا بنصيب وافر في اتساع الشقة بين أبناء الأمة الواحدة، بما بثوا من سموم فكرية في أجيال، حمل بعضها البغض والكراهية لبعضها الآخر، بسبب الحواجز النفسية بينها وبين أبناء دينها وجلدتها، وذلك كله حدث مع نهايات الخلافة العثمانية، وبعد زوالها.

ولعل من أبرز الأمثلة - على منظومة الجسد الواحد بين الولايات العربية في ظل الخلافة العثمانية - ما وقع في مصر عند مجيء الغزو الصليبي الفرنسي، فيما يسمى بالحملة الفرنسية، بقيادة نابليون بونابرت، والذي يعد أول غزو صليبي أوروبي للولايات العربية العثمانية، مما دفع السلطان سليم الثالث سنة (١٢٠٣هـ / ١٧٨٩م) أن يعلن الجهاد المقدس ضد الغزو الصليبي في الحجاز والشام وشمال أفريقيا، فهب المسلمون العرب من الحجاز بقيادة محمد الكيلاني نصرًا لإخوانهم، وهب من طرابلس الغرب المسلمون من رجال القبائل من أولاد علي والهنادي بقيادة رجل يقال له المهدي، والذين استطاعوا أن يُفنوا الحامية الفرنسية في دمنهور.

يقول الأستاذ إحسان حقي^(١): إن في تاريخ الدولة العثمانية عبراً لمن يريد الاعتبار، سواء أكان ذلك في مجال الحرب والقتال أو التضحية والفداء، أو في ميادين السلم والمحبة والتسامح والتآخي والكرم والعفو.

كما أن في تاريخها دروساً لمن يريد أن يعرف ما تنطوي عليه نفوس الغربيين من حقد وحسد وبغضاء وعداوة للإسلام والمسلمين، وإن الحروب الصليبية التي شنت علينا

(١) د. إحسان حقي: تحقيق كتاب: «تاريخ الدولة العلية العثمانية»، لمحمد فريد بك (ص: ١٣).



منذ ظهور الإسلام لم تنتهِ بعد، ولن تنتهي مادام الفرق موجوداً بين النور والظلام، فعلينا أن ندرك ما يراد بنا وأن نكون حذرين، وأن نعدّ عدتنا للدفاع عن أنفسنا مما يراد بنا من مسخ وتضليل، وعلينا أن نعلم بأن الخطر لن يأتينا من الخارج فقط، بل أعداؤنا في الداخل هم أشد خطراً علينا من أعدائنا في الخارج، لأن هؤلاء نعرفهم بسيماهم ونعرف أنهم أعداؤنا، وأما أولئك فإنهم يأتوننا متلبسين بجلودنا مظهرين حبهم لنا، يتكلمون بلغتنا، ويتحدثون بمصالحنا وألستهم معنا وقلوبهم مع أعدائنا. ١.هـ.

وقد تحقق للولايات العربية في ظل الخلافة العثمانية مصالح متعددة، منها:

١. وقف المد الصفوي الفارسي إليها، خاصة على الشام ومصر، وكسر الدولة الصفوية المنحرفة عقدياً، وتحجيمها داخل إيران.

٢. الحفاظ على الهوية العربية لغة وعادات وتقاليد، بل إن اللغة العربية كانت - سواءً قبل الفتح العثماني للبلدان العربية أو بعده - هي لغة العلم والأدب في الدولة العثمانية، كتب بها الفقهاء والعلماء، وسُطرت بها الفتاوى الرسمية للدولة، كما أن معظم مصطلحات العلوم العثمانية عربية.

ولقد جعلها العثمانيون لغة أولى إلى جوار العثمانية في جميع المعاهد التعليمية، ودرسوا بها كافة العلوم، واشتقوا منها اصطلاحات علمية كثيرة، وهذا ما دفع العلمانيين المعاصرين من الأتراك أن يطالبوا بالعمل الدؤوب للتخلص من سيطرة اللغة العربية على اللغة التركية، واتهموا الدولة العثمانية أنها أهملت اللغة التركية على حساب اللغة العربية، وأسهمت في إغناء الثقافة العربية، ولقد أنشؤوا من أجل ذلك المجمع اللغوي التركي، وذلك كله استجابة للدعوة العنصرية المقيتة، التي قادها مصطفى كمال ضد الخلافة الإسلامية العثمانية.

٣. الحماية من غزو الاستعمار الصليبي الأوروبي لأربعة قرون كاملة، لا كما يزعم أذئاب الاستعمار من الكتاب المأجورين، الذين تربوا في مدارس النصرانية الحاكمة، بأن الخلافة



العثمانية استعمار، فرض العزلة على العالم العربي لأربعة قرون، فهذه المقولة من العار أن تدرس لأبنائنا في المدارس، وأن توصف دولة الخلافة بأنها استعمار ويوصف الحقبة من صليبي أوروبا بأنهم أتوا إلينا بالتنوير والتقدم، والمفترض أن تكون العبارة الحقيقة هي أن الدولة العثمانية فرضت العزلة على أوروبا الصليبية، لئلا تمتد يدها إلى بلاد العرب لأربعة قرون كاملة.

والحقيقة أن العاطفة الإسلامية للجماهير الأمة كانت، وما زالت، وستظل دائماً مع تاريخها الإسلامي تتفوق على العاطفة الوطنية، ولذلك كان القبول والارتياح والولاء لدولة الخلافة العثمانية من الجماهير ديانة وأمانة، فلقد كانت هذه الدولة تمثل للشعوب الإسلامية الدرع الواقي لها من الغزو الأوروبي، ويضمن لها الحفاظ على قيام الشرائع الإسلامية والأحكام الإسلامية، ومزاولة الشعائر الدينية، والدليل على قبول الجماهير لهذه الدولة أنهم كانوا يطلقون على العسكر العثماني الحامية العثمانية، ولم يطلقوا عليها جيش الاحتلال العثماني، فهذه لفظة ألصقت في التاريخ بالجيوش الأوروبية الصليبية الحاقدة وعلى رأسها جيش الاحتلال الإنجليزي، وجيش الاحتلال الفرنسي.

لقد كانت الشعوب الإسلامية ترتبط مع دولة الخلافة بالروابط الدينية والمصالح العامة، بل ارتبطت مع الشعب العثماني من الأتراك بأواصر المصاهرة في أحيان كثيرة، بل قد لا يخلو شعب عربي من أناس لهم أصول تركية من جهة الأمهات أو الآباء.

إن الدولة العثمانية بكل ما لها وما عليها بحق ظلمت في التاريخ المعاصر ظلماً كبيراً، واتهمت زوراً وكذباً عليها، ليس فقط من أعداء الإسلام، بل من بعض من ينتسبون للإسلام، فهي دولة إسلامية مفترى عليها، لم تنل الدراسة الوافية والكافية بإنصاف وحيادية لكل الأحداث التي وقعت في تاريخها، فهي دولة كان يحكمها بشر، يصيرون ويخطئون، وليسوا بمعصومين من الزلل، بل مرت بها مراحل قوة وعظمة، وأخرى ضعف وذلة وهوان، لها محاسنها ومثالبها، ولا يعني ذلك أن نغض الطرف عن الوقائع



المشرقة في تاريخ هذه الدولة، فهي وقائع وتاريخ يفخر به كل مسلم صادق، كما أننا نتبرأ من الانحرافات العقدية والأخلاقية التي تبنتها الدولة في بعض أحيائها.

إن الطاعنين في تاريخ العثمانيين هم أعداء الإسلام، يتخذون من عدائهم والطعن فيها منفذاً، ينفثون من خلاله حقدهم على الإسلام، ويتخذون من مثالب هذه الدولة وقصورها مطية، يمتطونها، ليتشفوا من الإسلام والمسلمين.

ومن المؤسف أن بعض من ينتسبوا إلينا زوراً كانوا ألسنةً للصليبيين، وأقلاماً سامةً سواء كانوا من العرب أو العجم، ممن ربّوا في ظلمات مدارسهم وجامعاتهم، أو ممن تلبس بزيمهم في دهاليز المحافل الماسونية^(١) والأندية التابعة لها كالروتاري واللايونز، وقد خُدعوا بشعاراتهم المزيفة البراقة وأصبحوا سهاماً طاعنة في صدر أمتهم.

وقد خُدع هؤلاء جميعاً السذج من عوام المسلمين، الذين لا يُحكّمون شريعةً، أو يُعملون عقلاً لفهم الأحداث التاريخية ودلالاتها، بل ينساقون خلف عواطف وانفعالات زائفة لا وجود لها على أرض الواقع، ولم يدركوا المؤامرة الكبرى على أمتهم، فصدقوا هؤلاء الحقدة، وأخذوا موقفاً معادياً من الخلافة العثمانية، ومن تاريخها، ولو أنهم أبصروا، لأدركوا أنهم قد أخذوا موقفاً معادياً من أنفسهم ومن تاريخهم، من حيث لا يدرون.

ويبقى أمر في غاية الأهمية وهو أن هؤلاء الذين صدقوا هذا الزيف التاريخي، ورددوا كالبيغاوات ما يطنطن به الغرب وأذنبه عن الخلافة العثمانية، مصورينها بأسوأ أنواع التخلف والسوء الاجتماعي والجهل العلمي، وبكل الأمراض السياسية والاقتصادية.

نقول لهم: من كان منكم له مسكة عقل، كيف يصدق هذا الزيف عن دولة بمثل هذا التصور الذي صورته الغرب وأذنبه، لا قدرة لها على البقاء كقوة إقليمية إلا لزمّن، ثم تنهار، فما بالكم؟! وقد كانت أقوى دولة في العالم، صنعت أول مدفع هاون في التاريخ،

(١) الماسونية: لغة مشتقة من لفظة فر ماسون بمعنى البناء الحر، ويطلق على منتسبيها البنّاؤون الأحرار، جمعية يهودية تقوم بأعمالها خفية وفي سرية في بعض البلدان وخاصة الإسلامية وفي معظم دول العالم تعمل علانية، لا يعرف تاريخ بعينه لنشأتها، لها أقسام متعددة، ولها تنظيمات، وينتسب إليها أفراد من كل الديانات تحت مسميات براقة كالعدل والمساواة والمحبة، وهم في حقيقة الأمر مخدوعون بغيرهم أو مخادعون لغيرهم، وقد أطلق عليهم مسميات متعددة، ولهم أذرع مختلفة كأندية الروتاري واللايونز، وكلها تصب إلى هدف واحد. د. أحمد نوري النعيمي «الدور السياسي ليهود الدونمة في تركيا».



واتسعت بحيث بلغت في مساحتها أكثر من عشرين مليون كيلو مترٍ مربعٍ، فيما يعادل أكثر من مساحة أوروبا مرتين، واستطاعت أن تبقى لستة قرون كاملة.

كيف لهؤلاء السذج أن يصدقوا هذه الأكذوبة، إن المرضى الحقيقيين هم من صدقوا هذا الزيف، وغفلوا عن أمراضهم النفسية، وعن تخلفهم العلمي، وأصبحوا في تبعية لأعدائهم باسم النهضة العلمية، فلا هم نالوا النهضة، ولا هم بقوا على موروث الدولة العثمانية، حتى تحولت دولهم إلى حاويات كبيرة، تجمع التخلف والجهل والتأخر والانحرافات العقدية والأخلاقية إلى حد لم يُعرف في تاريخ الأمة الإسلامية^(١).

إنني أجد أنه من واجبي أن أهيب بكل مسلم فرداً أو جماعة، عربياً أو عجمياً، أن يعيد النظر في مناهج التلقي والتربية والتعليم، لنبد هذه الحواشي المزيفة الكاذبة التي مُلئت بها الكثير من المقررات الدراسية وغيرها في عالمنا العربي والإسلامي، تصحيحاً وتحقيقاً وبياناً للحق، وتنمية للمشاعر الوجدانية لدى الطلاب، وتعزيزاً لانتماؤاتهم لأمتهم وتاريخهم، وهذه أظنها واحدة من أهم الأمور التي تنبغي على حكومات العالم العربي والإسلامي في المرحلة القادمة.

إن الدولة العثمانية دولة إسلامية أولاً وأخيراً، لها ما لها وعليها ما عليها، غير أننا نرى أن النقد الذي ينبغي أن يوجه لها يكون نقداً بناءً، يقوم على تحقيق أهداف ذلك النقد من أخذ العبرة مما مضى، وعدم الوقوع في أخطاء مَنْ سبق، ومحاولة الوقوف على الأسباب الحقيقية التي أدت لوقوع هذه الأحداث محل النقد، وتفسير أسبابها بحيادية تامة لله أولاً، ثم للأجيال القادمة، فالإنصاف شريعة تعبدنا الله بها، وينبغي أن نلتزمها حتى مع خصومنا، فالأولى بنا مع من هم جزء منا.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ءَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

(١) الأمثلة التاريخية على ذلك كثيرة، ففي أواخر عهد الخلافة أنشأت أول محطة للطاقة الشمسية في العالم سنة (١٣٢٩هـ / ١٩١١م) بالقاهرة في حي المعادي، وبعد سقوط الخلافة بعام واحد حازت على لقب أنظف وأجمل مدن العالم، وقس على ذلك الولايات الكبرى التي كانت تابعة للخلافة العثمانية.



يقول الأستاذ أحمد آق كوندز^(١): إن أكبر مرض في عصرنا - ولا سيما في موضوع التاريخ - هو النقد المستند على الغرور وشعور الشطارة.

ويضيف: إن العديد من الكتب التي ظهرت مؤخراً في الأسواق حول التاريخ العثماني قامت بتشويه ذلك التاريخ.

ويقول: وفي المئة سنة الأخيرة قامت معظم وسائل النشر والإعلام باختراع كلمات مختلفة، تقرن جمال الغرب بسيئاتنا.

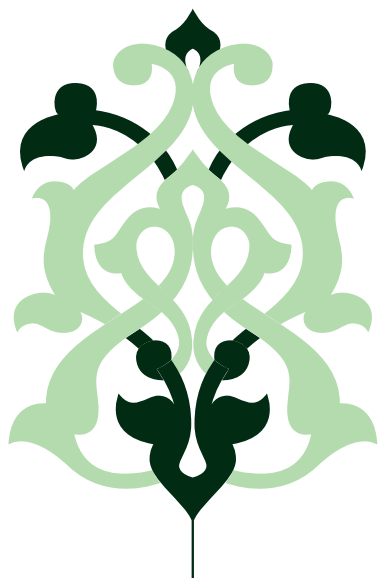
ثم يضيف: لقد نسبوا الحضارة إلى الديانة النصرانية، وربطوا التخلف والتأخر بالإسلام، رغم أنهم أعدى أعدائه، فقلبوا الأمور رأساً على عقب.

(١) الدولة العثمانية المجهولة (ص: ١٣-١٤) / بتصرف.



الفصل الثالث

دَعَوَاتُ الإِصْلَاحِ الدِّينِيِّ



أَهَمُّ الْمَظَاهِيرِ وَالْأَحْدَاثِ
فِي عَصْرِ الْخِلَافَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ

«٢»

قيام دعوة الإمام البركوي الإصلاحية وآثارها

يظن البعض أن الدولة العثمانية دولة منحرفة عقدياً من أولها إلى آخرها: سلاطين وعلماء وجماهير، وأن الصوفية قد أطبقت عليها تماماً، ولم يكن بها من يظهر التوحيد وبيان الحق للناس، وهذا بسبب الجهل بتاريخ هذه الدولة من جانب، ومن جانب آخر تعمّد بعض المؤرخين تشويه هذه المرحلة من تاريخ الأمة، إضافة إلى قلة ما كُتب عن رجال الإصلاح في الدولة العثمانية.

ولعل في دعوة الإمام البركوي بياناً على أن الدولة العثمانية كان بها رجال يقفون في وجه الانحرافات العقدية، وخاصة الصوفية المنحرفة، والتي علا شأنها لأسباب سياسية ومصالح ارتأها السلاطين العثمانيون، واستغلوها بحسب حاجاتهم.

كما يظن الكثير أن أول دعوة إصلاحية ظهرت في حياة الدولة العثمانية هي دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب النجدي رحمه الله، وهذا إجحاف للأمة برمتها، فمن غير المعقول أن تبقى الأمة بلا توحيد، وبلا علماء يوجهونها طيلة هذه السنوات، قبل محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، فلقد ذكر ابن العماد في تراجمه^(١) جمعاً من العلماء وشيوخ الإسلام في الدولة العثمانية، الذين كان لهم دور وأثر في نصره الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة، ونبذ البدع والخرافات التي كانت عليها الطرق الصوفية، والتي شجعت عليها الدولة كما أسلفنا تمشياً مع المصالح التي ارتأتها.

ومن هؤلاء الذين تأثروا بدعوة وكتب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وتلميذه ابن قيم الجوزية الإمام البركوي رحمه الله، والذي كانت دعوته لها أثر عظيم في نشر عقيدة السلف، ومحاربة البدع والخرافات، بل كان لها الأثر أيضاً في الدعوات التي تلتها في الدولة العثمانية، كما سنعرض له.

ونتمنى قريباً أن تصدر دراسات جديدة، واسعة ورصينة، عن حياة هؤلاء، وعن أثرهم في حياة الدولة العثمانية.

(١) كتاب «شذرات الذهب في أخبار من ذهب».



• الإمام البركوي ودعوته^(١):

زين الدين محمد بن بير علي بن إسكندر البركوي أو البركلي الرومي محيي الدين، ولد سنة (٩٢٩هـ / ١٥٢٣م) في مدينة - باليسكر - في الأناضول، في الشمال الغربي من تركيا حالياً، في بيت علم، حيث كان والده من علماء تلك المنطقة، ومدرساً في إحدى مدارسها.

حفظ القرآن الكريم في صغره، والتحق بالمدارس الشرعية، وبعد تخرجه عمل مدرساً بقصبة بُركي، فنسب إليها، وانتقل في عدة وظائف بعد ذلك، منها وظيفة مرشد شرعي بالجيش العثماني في مدينة أدرنة العاصمة العثمانية القديمة، ثم تفرغ للوعظ والتدريس، وانشغل بهذا الأمر، حيث التف حوله طلبة العلم، ووفدوا إليه من كل مكان، ينهلون من علمه، سواء علوم الآلة كاللغة العربية والتي كان متميزاً فيها بما ألفه في النحو والصرف، وكذلك بعلم الفرائض، أو العلوم الشرعية.

فهو أحد المجاهدين للانحرافات العقدية، وللقبورية والمبتدعة في تاريخ هذه الأمة، وإمام مبجل له مقامه عند أهل العلم.

وقف الإمام البركوي رحمه الله موقف الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، مؤتماً بقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

فلقد جاهر بالإنكار على المبتدعة من الصوفية، وانتقد بدعهم، مما جعله في عراك فكري مع هؤلاء القوم، وكان سبباً في أن يترك أدرنة؛ ولعل ذلك كان خيراً له وللدعوة عموماً، حيث تفرغ للتدريس في قصبة بُركي، كما أسلفنا، وبقي بها حتى وافته المنية.

بذل الإمام البركوي جهوداً كبيرة في محاربة انحرافات الصوفية العقدية، وما أتوا به من بدع وشركيات، ودعاهم إلى الاعتصام بالكتاب والسنة، بالقول واعظاً، وبالتأليف

(١) الزركلي / الأعلام (٦/ ٦١)، محمد رحمه الله الندوي / محقق كتاب الطريقة المحمدية (ص: ١٧-٢٥)، محمد داود كُورِي / دعوة جماعة قاضي زاده (ص: ١٤).



مرشداً، ومن أشهر مؤلفاته في هذا الباب كتاب «دامغة المبتدعين وكاشفة بطلان الملحدين» في الرد على محيي الدين بن عربي^(١)، وجلال الدين الرومي^(٢)، وعلى كل من قال بوحدة الوجود، وبأن الإله جزء من الكون والكون جزء منه - تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً -، وحذر في كتابه هذا من دعاة هذا الباطل، وبينَ وجوب تكفيرهم، وفضح معتقداتهم للناس، حتى لا يتأثروا بتلك الدعوات الباطلة.

ولقد تميز الإمام البركوي بإدراكه الواسع لطبيعة المجتمع، وأن الطرق الصوفية كانت سبباً فيما آلت إليه أحوال الأمة من انحرافات عقدية، تجلب غضب الله تعالى على الأمة، ولذلك صنف كتاباً آخر فريداً في بابه، لبيان الحق للناس ولأصحاب الطرق المختلفة مبيناً أنه لا يوجد إلا طريقة واحدة مُوصلة إلى الله تعالى، هي طريقة النبي ﷺ، وأن أي طريقة أخرى غير طريقته ﷺ إنما هي ضلالات مُوصلة إلى غضب الرب جل وعلا وعذابه، وقد سَمَّى هذا الكتاب: «الطريقة المحمدية والسيرة الأحمدية»^(٣)، وقد بينَ بنفسه في مقدمة الكتاب الغاية من تأليفه بقوله في مقدمته المقتضبة: فأردت أن أصنف

(١) محيي الدين بن عربي: أبو بكر محمد بن علي بن محمد أحمد بن عبد الله الحاقمي الطائي المرسى الأندلسي، الشهير بمحيي الدين بن عربي، ولد في مرسية بالأندلس سنة (٥٦٠هـ)، نزل بمكة سنة (٥٩٨هـ) حاجاً، واستقر بها لفترة من الزمان، كتب فيها معظم مؤلفه «الفتوحات المكية» (الضلالات الشيطانية)؛ والذي استغرق تأليفه سبعة وثلاثين عاماً، وأتمه في دمشق الشام، حيث نزل بها، واستقر في سنة (٦٢٩هـ) إلى أن هلك (٦٣٨هـ) بسفح جبل قاسيون، وقبره مبرز هناك بدمشق إلى الآن، ويتخذة الجهال مزاراً ومقصداً يحجون إليه، ويقدمون له القربات الشريكة، ويطلقون عليه الشيخ الأكبر، وهو في الحقيقة: أحد الطواغيت الصوفية المنحرفة، وشيخهم الأكبر، وكبريتهم الأحمر، قال بوحدة الوجود، وأحيا هذه الضلالة بعد أن اندثرت مع هلاك قائليها الخلاج، وزعم أنه الخالق والمخلوق، وصفاته عين صفات كل موجود وكل معدوم، وأنه الحق الكريم، والباطن اللئيم، وهو المؤمن وهو الكافر، وهو الموحد، وهو المشرك، وهو الملاك، وهو الشيطان.

قال عنه الإمام الذهبي: كتب الإنشاء لبعض الأمراء بالمغرب، ثم تزهّد وتفرّد، وتعبّد وتوحد، وسافر وتجرّد، وأتمهم وأنجّد، وعمل الخلوات، وعلّق شيئاً كثيراً من تصوف أهل الوحدة، ومن أردأ تواليفه كتاب «الفصوص»، فإن كان لا كفر فيه، فما في الدنيا كفر، نسأل الله العفو والنجاة، فوا غوثه بالله. ونقل الذهبي عن العز بن عبد السلام قوله في ابن عربي: شيخ سوء مقبوح كذاب، يقول بقدم العالم ولا يجرم فرجاً. توفي في ربيع الآخر سنة (٦٣٨هـ). الذهبي / «سير الأعلام»، (٢٣/ ٤٨-٤٩).

(٢) جلال الدين الرومي: محمد بن أحمد بن الحسين بن أحمد البلخي القنوي الرومي، ولد ببلخ بأفغانستان سنة (٦٠٤هـ)، انتقل مع أبيه إلى بغداد وهو في الرابعة من عمره فترعرع بها، ودرس بالمدرسة المستنصرية، ثم انتقل مع أبيه إلى مدن عدة، ثم استقر في قونية من أرض الروم سنة (٦٢٣هـ)، وبعد وفاة أبيه سنة (٦٢٨هـ) عمل بالتدريس أربع سنوات، ثم تركه وتصوف، وانشغل بسماع الموسيقى والإنشاد ونظم الشعر، ونظّم كتابه «الثنوي» بالفارسية (وطبع أيضاً بالعربية والتركية حديثاً)، وهو عبارة عن نظم فاسد من الشعر الفلسفي الصوفي المنحرف في ٢٥٧٠٠ بيت في ستة أجزاء، كتب مقدمتها بالعربية، وتخللها أبيات بالعربية من نظمه.

أنشأ الطريقة المولوية الصوفية المنسوبة إليه (مولانا جلال الدين)، وتجمع له أتباع ومريدون كثر على طريقته الضالة. يدل شعره على أنه من الغلاة الضالين، أرباب نحلة الاتحاد والحلول من الباطنية، وقد نبه أهل العلم على وجوب نبذه، وفضح عقيدته. توفي بقونيه سنة (٦٧٢هـ)، وأقام له مريدوه ضريحاً معروفاً، اليوم به تكيّة أصبحت متحفاً يضم بعض مخطوطاته، ومخطوطات أحفاده، وكتباً متعددة - عليه من الله ما يستحقه. الزركلي «الأعلام» (٧/ ٣٠).

(٣) طبع الكتاب بتحقيق محمد رحمة الله الندوي في سنة (١٤٢٤هـ) بدار القلم/ دمشق.



الطريقة المحمدية، وأحببت أن أبين السيرة الأحمدية، حتى يعرض عليها عمله كلُّ سالك، فيتميز المصيب من المخطئ، والناجي من الهالك. ١.هـ.

وهو من أجل مؤلفاته، دعا فيه إلى التمسك بالكتاب والسنة، وأن يلزم المسلم طريقة السلف الصالح، وبين فيه الكثير من أخطاء الفرق المنحرفة وغلو الصوفية الباطنية؛ كما بين كيفية العلاج الصحيح لها، مستنداً إلى الأدلة الناصعة النقية من كتاب رب البرية، ومن السنة المحمدية.

ولأهمية الكتاب ومحتواه اعتنى العلماء به، وأثنوا عليه وعلى كاتبه، وقام بشرحه جمع من أهل العلم، وبعضهم من الصوفية لمحاولة تحريف مضمون الكتاب، وإخراجه عن مقصود المصنف رحمه الله^(١)، كما اختصره بعضهم، وقام بعضهم بتخريج الأحاديث الواردة فيه، مما يدل على أهمية الكتاب وحسن المسلك الذي كان عليه المؤلف رحمه الله.

ولقد كان للإمام البركوي رحمه الله باع في علوم وفنون الشريعة، حيث قام بالتأليف في فنون مختلفة، وله مصنفات عديدة، بلغت إلى سبعة وثلاثين مؤلفاً في علوم الشريعة المختلفة، منها ما ذكرنا سابقاً، وأيضاً «الأربعون في الحديث»، و«آداب البركوي»، «إظهار الأسرار» في النحو، «شرح لب الأبواب في علم الإعراب»، «إمعان الأنظار في شرح المقصود» في الصرف، «إيقاظ النائمين وإفهام القاصرين»، «تحفة المسترشدين في بيان مذاهب فرق المسلمين»، تفسير سورة البقرة، «الدرّ اليتيم في علم التجويد»، «رسالة في التغني وحرمة ووجوب استماع الخطبة».

(١) قام بشرح كتاب الطريقة المحمدية جمع من الشيوخ كالتالي:

١. شرح الشيخ محمد بن علي بن محمد البكري المكي المتوفى سنة ١٠٥٧ هـ، وسماه: المواهب الفتحية على الطريقة المحمدية.
٢. شرح المولى رجب بن أحمد، وسماه الوسيلة الأحمدية والذريعة السرمدية في شرح الطريقة المحمدية، سنة ١٠٨٧ هـ.
٣. شرح المولى محمد الزهري القيصري الملقب برمزي المتوفى سنة ١١٣٠ هـ، وسماه كنوز الرموز في ثلاث مجلدات.
٤. شرح الشيخ العالم أحمد بن أبي بكر الكشفي المتوفى سنة ١١٦٠ هـ.
٥. شرح الشيخ أبو سعيد الخادمي القونوي المتوفى سنة ١١٧٦ هـ، وسماه: البريقة المحمدية في شرح الطريقة المحمدية.
٦. شرح عبد النصير بن عبد الله الآقشهري الرومي المعروف بخوجه زاده المتوفى سنة ٩٩٠ هـ، وشروحه عبارة عن تعليقات كتبها على حاشية الكتاب، وأصبحت عمدة للنسّاخ والشرّاح.

مقدمة المحقق محمد رحمت الله الندوي لكتاب الطريقة المحمدية (ص: ١٤).

وللإمام البركوي رسالة باسم «معدّل الصلاة في مسائل تعديل أركان الصلاة»، يظهر فيها تمسكه بالكتاب والسنة، ورفضه التقليد المذهبي الأعمى، وخاصة تقليد المذهب الحنفي، في المسائل التي يظهر منها ما يخالف صريح السنة النبوية؛ وقد جمع في هذه الرسالة نصائح مفيدة نافعة للمسلم، ونماذج راقية للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو مما تميزت به تصانيفه رحمه الله في بيان الحق وإبطال الباطل.

لقد كان الإمام البركوي رحمه الله ممن ينصح ليس فقط العامة، وإنما كان ينصح أيضاً الخاصة من رجال الدولة فلقد نصح الصدر الأعظم صقلو محمد باشا، ووعظه، وبيّن له خطورة ما تقوم به الطرق الصوفية من نشر البدع والخرافات، وطلب منه أن توقف الدولة دعم هذه الطرق التي تنشر البدع؛ لأن في هذا إضعافاً لإيمان المجتمع الإسلامي، ويؤدي إلى تهديد أمنه.

ومما هو جدير بالذكر بيان مكانة علم الشيخ، حتى عند الصوفية في زمانه، الذين قاموا باعتماد كتبه في علوم الآلة: كالنحو، والصرف، وعلوم الحديث، في مناهجهم التعليمية لمدارسهم الدينية، وما زالت تُدرس، وتعاد طباعتها.

ولقد اعتبر محمد رشيد رضا رحمه الله^(١) الإمام البركوي أحد المجتهدين، وذلك لمواقفه المشهودة في نصر السنة وقمع البدعة. كما أثنى عليه ابن عابدين الحنفي^(٢) بقوله: أفضل المتأخرين، الإمام العالم العامل، المحقق المدقق الكامل^(٣).

(١) محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منال علي خليفة القلموني البغدادي الأصل، الحسيني النسب، صاحب مجلة «المنار»، أحد رجال الإصلاح الإسلامي، ولد سنة (١٢٨٢ هـ) بالقلمون من أعمال طرابلس الشام، ونشأ، وتعلم بها، ثم رحل إلى مصر سنة (١٣١٥ هـ)، ولازم الشيخ محمد عبده لفترة طويلة، وأصبح من تلامذته، وإن كان لا يشابهه في كثير من أفكاره وأقواله، أصبح مرجع الفتيا في قضايا النوازل المعاصرة في زمانه، أنشأ مدرسة الدعوة والإرشاد، وأنتخب رئيساً للمؤتمر السوري أيام فيصل بن الحسين، ورحل إلى الهند والحجاز وأوروبا، واستقر في نهاية أمره بمصر، إلى أن توفي فجأة داخل سيارة كان عائداً بها من السويس إلى القاهرة، ودفن بالقاهرة سنة (١٣٥٤ هـ)، رحمه الله وغفر له. من أشهر آثاره مجلة «المنار» التي صدر منها (٣٤) مجلداً، وتفسير القرآن (ط) في اثني عشر مجلداً، ولم يتمه، و«الخلافة» (ط)، و«الوهابيون والحجاز» (ط)، و«شبهات النصارى وحجج الإسلام» (ط)، وغيرها من المؤلفات النافعة.

(٢) ابن عابدين: محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز عابدين الدمشقي، المولود سنة (١١٩٨ هـ) والمتوفى سنة (١٢٥٢ هـ) بدمشق الشام، أحد فقهاء الديار الشامية، وإمام الحنفية في عصره، له مؤلفات عدة منها: «رد المحتار على الدر المختار» والمشهور بحاشية ابن عابدين في الفقه الحنفي، و«رفع الأنظار عما أوردته الحلبي على الدر المختار»، «العقود الدرية في تنقيح الفتاوى الحامدية».

كما له مؤلفات عدة في الأصول والفرائض والتفسير والبلاغة. الزركلي الأعلام (٦/٤٢).

(٣) «منهل الواردين من بحار الفيض» / رسائل ابن عابدين (١/٦٧).



توفي الإمام البركوي رحمه الله سنة (٩٨١هـ) بعد حياة حافلة وعظاً وإرشاداً وتأليفاً ومواجهةً للقبورية والمبتدعة، غفر الله له ذنبه، وعفا عنه، ورفع درجاته في المهديين، وجزاه عن المسلمين خير الجزاء.

معاصرون للبركوي في طريق الحق:

عاصر الإمام البركوي جمعاً من أهل الديانة المخلصين في ظاهر دعوتهم وعملهم، والله يتولى السرائر، انطلقوا من خلال الكتاب والسنة للإنكار على الصوفية ما هم فيه من الغلو والحلول الذي يدعون إليه، ودعا إليه شيخهم الأكبر محيي الدين ابن عربي، ومن هؤلاء:

الشيخ إبراهيم بن محمد الحلبي الحنفي المتوفى سنة (٩٥٦هـ)^(١)، والذي كان يعمل آنذاك إماماً وخطيباً لجامع السلطان الفاتح بحي الفاتح بإسطنبول.

وكان الشيخ رحمه الله إماماً عالماً بالحديث والتفسير وعلوم القراءات واللغة العربية؛ وله يد طولى في الفقه والأصول.

كان مفتياً للديار الرومية، ويعول عليه في مشكلات الفتاوى، وكان ملازماً لبيته، مشغلاً بالعلم، لا يرى إلا في بيته أو المسجد، لا يذكر أحداً بسوء، ولم يلتدّ بشيء من الدنيا إلا بالعلم، والعبادة، والتصنيف، والكتابة.

له عدة مؤلفات، بعضها مطبوع، وبعضها مخطوط، من أهمها: «تسفيه الغبي في تكفير ابن عربي»، و«درة الموحدين وردة الملحددين»، و«نعمت الذريعة في نصرّة الشريعة»؛ وكل هذه الكتب للرد على الملاحدة والمبتدعة من الصوفية.

وكتابه الأخير من أوسع الردود العلمية^(٢) على كتاب «فصوص الحكم» لابن عربي، تعقبه فيه كلمة كلمة، قامت بطباعته دار المسير بالرياض في سنة (١٤١٩هـ).

(١) ابن العماد «شذرات الذهب في أخبار من ذهب»، (١٠/٤٤٤).

(٢) محمد داود كورى كتاب «دعوة جماعة قاضي زاده»، (ص ٢٦).

وهذا الكتاب قد قدم له وقرظه الشيخ سعد الدين عيسى بن أمير خان الحنفي المعروف بسعد جلبي^(١)، الإمام العالم العلامة، أحد موالى الروم المشهورين بالعلم والدين والرئاسة.

أصله من ولاية قسطنطيني، وعاش بالقسطنطينية، ونشأ في طلب العلم، وعين فيها قاضياً، ثم صار مفتياً للدولة لزمان طويل، وكان في إفتائه مقبول الجواب، مهتدياً إلى الصواب، طاهر اللسان، لا يذكر أحداً إلا بخير، صحيح العقيدة، مراعيّاً للشريعة، محافظاً على الأدب، من جملة الذين صرفوا جل أوقاتهم في الاشتغال بالعلم الشريف.

له رسائل وتعليقات، وكتب حواشي مفيدة على «تفسير البيضاوي»، وهي متداولة بين العلماء، وله شرح مختصر مفيد للهداية في الفقه الحنفي، وكان منفقاً في سبيل الله، ومن ذلك أنه بنى داراً للقراء بقرب داره بإسطنبول.

توفي عند صلاة الجمعة ثاني عيد الفطر سنة (٩٤٥ هـ)، رحمه الله رحمة واسعة.

وهذا يدل على أنه كان في الدولة العثمانية في أعلى المناصب الدينية من ينكر على هؤلاء معتقدهم الشنيع وأفعالهم المنحرفة القبيحة.

تولى من بعد الشيخ سعد الدين منصب الإفتاء الشيخ جوي زاده^(٢)، والذي كان على المنهج نفسه في الإنكار على عقيدة وحدة الوجود وعلى الحلولية وعلى صوفية عصره، وقد شارك أيضاً في تقريظ وتقديم كتاب الشيخ إبراهيم الحلبي.

ظل هذا الشيخ يقف في وجه هؤلاء الملاحدة، حتى قام السلطان بعزله من منصبه.

قال عنه ابن العماد: العالم العلامة الشهير بجوي زاده، كان مرضي السيرة، محمود الطريقة، طارحاً للتكلف، متواضعاً، مقبلاً على الاشتغال بالعلم، مواظباً على الطاعات، مثابراً على العبادات، قوالاً بالحق، لا يخاف في الله لومة لائم، حافظاً للقرآن العظيم، سيفاً من سيوف الحق، قاطعاً فاصلاً بين الحق والباطل، حسنة من حسنات الأيام.

مرض رحمه الله بعد صلاة العشاء، فلم يمضِ نصف الليل حتى مات في سنة (٩٥٤ هـ).

(١) ابن العماد «شذرات الذهب في أخبار من ذهب» (١٠/ ٣٧٣-٣٧٤).

(٢) ابن العماد «شذرات الذهب في أخبار من ذهب» (١٠/ ٤٣٥).



• دعوة قاضي زاده وجماعته «الفقهاء»:

كان لدعوة الإمام البركوي عبر مؤلفاته، ومواقفه العلمية في محاربة البدع صدى كبير عند معاصريه، ومن تتلمذ على يديه، وعلى أيدي تلامذته، ومن هؤلاء محمد أفندي الباليكسيري، المعروف بلقب قاضي زاده، والذي تعتبر دعوته هي الإحياء الحقيقي لدعوة البركوي، وثمره من ثمارها في مواجهة البدع والخرافات.

فلقد درس قاضي زاده على يد شيخ من أتباع البركوي ثم درس في إسطنبول على يد ابنه الشيخ فضل الله بن محمد الرومي البركوي، والذي قدم إلى إسطنبول سنة (١٠٢٠هـ)، وأقام بها، واشتهر صيت علمه، وتصدر الوعظ والمناصب العلمية، ومن ذلك الوعظ بجامع السلطان سليم الأول.

ثم انتقل إلى جامع السلطان بايزيد، وكانت دعوته مؤثرة في الناس، فلقد كان عالماً فصيح اللسان، حسن البيان، وكان للناس عليه إقبال تام، توفي في سنة (١٠٣٠هـ)^(١).

وقام بأمر الدعوة من بعده العالم الشهير قاضي زاده في جامع السلطان سليم، وفي عدد من المساجد الأخرى، مثل مسجد جامع بايزيد، ومسجد جامع السليمانية، ومسجد جامع آيا صوفيا، مما كان له الأثر في شهرته ودعوته بين العامة والخاصة، وإقبال الناس عليه من الخطباء والوعاظ وطلاب العلم والعامة؛ حتى أصبح له جماعة كبيرة، ينصرون دعوته، ويؤيدونه، وينشرونها في خطبهم ومواعظهم، أطلق عليهم (جماعة الفقهاء).

أحدث تفاعلاً علمياً بقيام المناظرات العلمية، والمناقشات الجادة، كان من أشهرها مناظرات الشيخ قاضي زادة مع الشيخ عبد المجيد السيواسي^(٢)، أحد كبار الصوفية من الوعاظ والمرشدين، وكان أيضاً يتمتع برعاية السلطان مراد الرابع، وكانت له جماعة مشهورة.

انتشرت دعوة الشيخ قاضي زاده بشكل كبير في عهد السلطان مراد الرابع، والذي عمل على كسب ودّ الشيخ قاضي زاده وجماعته، كما عمل على كسب ودّ الشيخ السيواسي

(١) محمد داود كوري / عبد الحق التركماني / «دعوة جماعة قاضي زاده» / نقلاً عن المحبي الدمشقي (ت: ١١١١هـ) / من كتابه «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر»: (٣/ ٢٨٦).

(٢) عبد المجيد السيواسي: شمس الدين عبد المجيد بن محرم أبي الليث بن محمد السيواسي، نسبة إلى مدينة سيواس، أحد وعاظ الدولة العثمانية من الصوفية، استدعاه السلطان محمد الثالث من سيواس إلى إسطنبول للوعظ والإرشاد، وظل مقيماً بها إلى أن توفي سنة (١٠٤٩هـ)، له مؤلفات بلغت عشرين كتاباً ورسالة، بعضها بالعربية. الزركلي «الأعلام» (٤/ ١٥٠).

وجماسته لمصلحة سياسية بحتة.

وللشيخ قاضي زاده مؤلفات عدة، تدل على تمسكه بالسنن ونبذ البدع، منها: «إرشاد العقول المستقيمة إلى الأصول القويمة بإبطال البدع السقيمة»، لخص فيه ما أورده العلامة ابن قيم الجوزية في «إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان».

وقد اتخذت (جماعة الفقهاء) من هذا الكتاب منطلقاً للرد على المبتدعة، كما اتخذت من مؤلفات البركوي كذلك، وانطلقت من خلال هذه التأصيلات العلمية لبيان الحق الذي تؤمن به، وتنافح عنه، إلى أن توفي الشيخ قاضي زاده في سنة (١٠٤٥هـ)، وتولى قيادة الجماعة من بعده الشيخ الأسطواني، أحد المتأثرين بدعوته.

• الشيخ الأسطواني:

محمد بن أحمد بن محمد الشامي، ولد في دمشق الشام سنة (١٠١٦هـ)، وتلقى العلم على مشايخ الشام، وقلد المذهب الحنبلي ثم الشافعي، ودرس علوم الأصول على يد العلماء في الشام ومصر، ثم انتقل إلى إسطنبول، ودرس المذهب الحنفي، وتأثر به، وقلده، وأصبح من أتباعه.

عمل في إسطنبول بالوعظ والإرشاد والخطابة، في جوامع مختلفة، منها: جامع آيا صوفيا، وجامع السلطان أحمد، وجامع السلطان الفاتح.

ولمكانته العلمية العالية^(١) تولى الصدارة لجماعة الفقهاء، بعد وفاة قاضي زاده، وكان له أسلوب خطابي ودعوي مؤثر في نفس السامع، مما جعله يترقى إلى أن يكون الواعظ الخاص لحرس النخبة في قصر السلطان، ورفع ذلك شأنه في السراي السلطاني، فأصبح واعظ السلطان الشاب محمد الرابع، واشتهر بلقب شيخ العاهل، أو شيخ السلطان.

لعب الأسطواني دوراً خطيراً في جماعة قاضي زاده، حيث اشتد العمل بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى أصبح جمع من عوام الناس يقومون به، مما أدى إلى استخدام بعض الأساليب الصدامية والعنف، لتغيير البدع والمنكرات؛ فدفع ذلك البعض أن

(١) قال جيس محمد كوري صاحب كتاب «علماء قاضي زاده العثمانيون»: يعد الأسطواني شخصية مهمة جداً، وبالإمكان مقارنة مستواه العلمي مع مكانة الشيخ محمد بن عبد الوهاب العلمية.



يجسب تلك الأخطاء على الأسطواني ودعوته.

كما قال عنهم بعض الباحثين^(١): ولما زاد تجبرهم، وعكروا صفو الأمور بقصد تحقيق منافع لهم، وانبروا للتدخل في شؤون الحكومة. ١. هـ.

وكل هذا بسبب تدخل العامة وقيامهم بأمر التعزير والحسبة، وهذا يذكرنا بتصرفات بعض الشباب في عصرنا من المندفعين بعواطفهم وحماسهم لإنكار المنكر بأساليب منكرة، رغم أنه مُحَقَّق في إنكاره، غير أن الوسيلة خاطئة، فكم من مرة تعرقلت الدعوة بسبب أمثال هؤلاء، الذين أمروا بالمعروف بطريقة منكرة، وأنكروا المنكر بطريقة أيضاً منكرة، فحسب هذا كله على الدعوة الحق، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ولقد جمع بعض طلاب الأسطواني مسائله وإرشاداته في كتاب أسموه بالرسالة؛ تضمن بيان الشرك، وصوره، وما يتعلق به، ومنها طلب الشفاعة من الأموات، وتقديم القرابين والندور لهم في قبورهم، وللأحجار والأشجار^(٢).

• خطوات نحو التغيير وآثارها:

- استطاع الأسطواني أن يستصدر قراراً (مرسوماً، أو فرماناً) بهدم واحدة من تكايا تجمع الصوفية المنحرفة، وهي تكية خاصة بالطريقة الخلوتية، وتبع ذلك بفترة حكم قضائي بمنع انتقاد كتابات البركوي رحمه الله، بعد اجتماع مجلس العلماء، برئاسة شيخ الإسلام محمد أفندي الشهير بالبهائي (١٠١٠ هـ: ١٠٦٤ هـ).

- في سنة (١٠٦٦ هـ) وبعد تعيين محمد باشا كوبرلو صدراً أعظم انتهزت (جماعة الفقهاء) الفرصة للتغيير التام، والإصلاح الديني في الدولة العثمانية، والقضاء على البدع وتكايا الصوفية وزواياها.

ولقد نقلت لنا المصادر عن هذه المرحلة كلاماً، لا ندري مدى صحته، إذ أن النُّقال هم خصوم الإصلاح، من الصوفية وجماعاتهم المنتشرة؛ فلا نملك إلا التوقف في الحكم على هذا الأمر، وأمانةً وديانةً ننقله للقارئ ملخصاً كما جاء في تلك المصادر.

(١) د. صالح سعداوي صالح «مصطلحات التاريخ العثماني» (٣/ ١٠٤٧).

(٢) كتاب «دعوة قاضي زاده» (ص: ١٠٦).

وهو أن الجماعة قد تعاملوا بأساليب صدامية عنيفة مع خصومهم من الصوفية، وأنهم قد اجتمعوا قريباً من جامع الفاتح ومعهم عصي وحجارة وأسلحة، مما جعل الدولة تتحرك لوقف هذه الفتنة.

أدت هذه التحركات إلى اجتماع الصدر الأعظم محمد باشا كوبرلو بعلماء الصوفية وغيرهم، ممن لهم تأثير في ذلك الزمان، وخرجوا بفتوى جواز قتل (جماعة الفقهاء)، وعلى رأسهم الشيخ الأسطواني، غير أن الصدر الأعظم اكتفى بنفيهم إلى جزيرة قبرص، ثم بعد فترة من الزمان أصدر قراراً بمسير الأسطواني إلى دمشق الشام^(١).

هكذا نقلوا لنا، وأظن أن النقل فيه تشويه لصورة الدعوة، والذي يرجح هذا أن الشيخ الأسطواني رحمه الله قد انتقل بعد ذلك إلى دمشق، وتصدر للتدريس في الجامع الأموي، وتولى التدريس لفترة كأحد مدرسي المسجد الأموي الكبار، وهي مكانة مرموقة، لا يمكن الوصول إليها إلا بموافقة الدولة العثمانية آنذاك؛ ولو كان الأمر على ما قاله هؤلاء لما سُمح له بالتوجه إلى دمشق، وتبوء هذه المكانة في المسجد الأموي.

ولعل الله سبحانه وتعالى يهيء في الأيام القادمة من يجلي لنا حقائق هذه الفترة، وكيف كانت هذه المؤامرة على هذه الجماعة، هل كانت باندفاع بعض العوام، ممن ينتسب للجماعة واصطدموا مع عوام الصوفية، مما أدى إلى هذه الفتنة.

أو أن الصوفية أنفسهم دبروا هذه المسألة، لإبعاد الجماعة، وإنهاء دورها في الدعوة داخل عاصمة الخلافة.

سواء هذا أو ذاك أو غير ذلك، فلقد أبعدت الجماعة عن ممارسة دعوتها الصحيحة عن عاصمة الخلافة، غير أن دور الدعوة لم ينته بعد كما سيأتي.

ولقد أثنى المحبّي^(٢) على الشيخ الأسطواني وهو في دمشق بقوله: والتف الناس حوله من علماء وعوام، لحسن تقريره، وعذوبة تفهيمه، ولطافة مناسباته، ورغب الناس في حضور

(١) د. صالح سعداوي صالح «مصطلحات التاريخ العثماني» (٣/ ١٠٤٧-١٠٤٨)، محمد داود كوري «جماعة قاضي زاده» (ص: ١٠٩).

(٢) «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر»/ نقلًا عن محمد داود كوري / «جماعة قاضي زاده»: (ص: ١٠٩).



درسه، إن درسه كان يليق أن يُرحل إليه من بلد إلى بلد، وإنه قرر أشياء لم يسمعها من أهالي دمشق أحد.

وأضاف: وكان بدمشق بعض مناكير، فتقيد بإزالتها أو تخفيضها، ومن جملتها: لبس السواد خلف الميت، ورفع الصوت بالولولة.

قلت: فكيف لعالم بهذا القدر والجلال أن يكون بهذا الوصف من الصدامية والعنف الذي وصفه به خصومه؟، ونقله أيضاً المحبي في كتابه، فالله تعالى أعلم بما جرى.

وبرغم أن الأسطواني لم يُرشَّح كرئيس للتدريس في الجامع الأموي، إلا أن ابنه مصطفى الأسطواني نجح في الحصول على هذا المنصب، بعد وفاة والده، وسلك مسلكه، ونهج على طريقته.

إن دعوة الإمام الأسطواني واحدة من الدعوات الإصلاحية، التي مرت في تاريخ هذه الأمة، ولقد سبقت هذه الدعوة ولادة الشيخ محمد بن عبد الوهاب النجدي بنحو نصف قرن؛ فكأنها كانت ممهدة لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب التي أتت بعدها.

نرجو الله تعالى أن يهيئ من يقوم بدراسة حياة هذا الشيخ دراسة مستفيضة، تُوقفنا على معالم شخصية أحد رموز الإصلاح والصالحين في أمتنا الإسلامية.

• دعوة (جماعة الفقهاء) في عصر كوبرلو:

يعتبر عصر أسرة كوبرلو في تاريخ الدولة العثمانية واحداً من أهم عصور الصدور العظام؛ فهو يمثل الحقبة الأخيرة من تاريخ التوسع والازدهار في الدولة العثمانية؛ وقد تزامن ذلك مع دعوة الفقهاء لنبد البدع والخرافات.

وهذا يدلنا على أن التوسع والازدهار لا يتحقق في الأمة إلا إذا كانت مستقيمة على أمر ربها؛ فكلما كانت في طريق الله، كان الله معها هادياً ونصيراً، وهذا كما قال الحق سبحانه:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن نَّصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

إن الدعوة لم تنته برحيل الأسطواني ونفيه، فلقد تركت الدعوة أثراً واضحاً في المجتمع، وعند رجال الدولة، فلقد قام الصدر الأعظم محمد باشا كوبرلو، والذي أصدر قرار نفي قادة (جماعة الفقهاء) بإصدار حكم بإعدام عدد من قادة الصوفية، الذين تسببوا في إشعال الأحداث السابقة، واتخذ أيضاً قراراً بحظر أنشطتهم المنحرفة كالرقص وحلق الدوران؛ وظل ذلك إلى أن توفي رحمه الله، وتولى من بعده ابنه فاضل أحمد بن محمد باشا كوبرلو منصب الصدر الأعظم، والذي حرص على موازنة دعوة (جماعة الفقهاء)، والتي قادها آنذاك محمد أفندي الواني، مما زاد من قوة الدعوة وازدهارها.

• محمد أفندي الواني:

كان محمد أفندي الواني أحد الخطباء المفوهين والمؤثرين في السامعين؛ وكان خطيباً لمسجد السلطان سليم الأول.

وقد ارتبط بعلاقة صداقة وأخوة وطيدة مع فاضل أحمد كوبرولو باشا ابن الصدر الأعظم، الذي تولى بعد وفاة أبيه منصب الصدارة، مما أتاح للواني القرب من السلطان وكسب ودّه وثقته، فتم تعيينه إماماً وواعظاً للسلطان وابنه، وسمي بشيخ السلطان، أو شيخ العاهل، كما كان سلفه الأسطواني.

استطاع الواني بما طرحه من أدلة شرعية يعتقدها أن يُقنع السلطان بمنع طقوس الرقص الصوفية، وزيارة القبور المبتدعة، بل استطاع أن يقنعه بضرورة هدم مزارٍ تابع للطائفة البكتاشية^(١)، مما أثار غضبهم وحنقهم على السلطان.

ولم تقف جهود الصدر الأعظم في نبذ البدع إلى حد العاصمة، بل أقام علاقة مع شيخ آخر من المحدثين، هو محمد بن سليمان الروداني المغربي^(٢)، والذي كان يقيم بمكة وكان

(١) البكتاشية: واحدة من طوائف الصوفية والتي تماثل الاثني عشرية تماماً في عقائدها، ومن المؤسف أنهم كانوا يمثلون معظم جيش الإنكشارية، مما كان له الأثر الكبير في إضعاف الدولة وبقاء العقائد المنحرفة.

(٢) محمد بن سليمان بن طاهر الروداني السوسي المكي، شمس الدين أبو عبد الله، محدث مغربي مالكي رحال، ولد سنة (١٠٣٧هـ)، جال في المغرب الأقصى والأوسط، ودخل مصر والشام والأستانة، استوطن الحجاز وكان له بمكة شأن، انتقل إلى دمشق وتوفي بها سنة (١٠٩٤هـ).

له مؤلفات عدة منها: «جمع الفوائد من جامع الأصول»، و«مجمع الزوائد»، وكتاب «صلة الخلف بموصول السلف»، ومنظومة في علم الميقات وشرعها، وجمع الكتب الخمسة مع الموطأ. الزركلي / الأعلام ٦/ ١٥١.



له ارتباط سابق بالطرق الصوفية، وخرج عنها، وقت ترقيته ليستلم وصايا الأوقاف في مكة والمدينة، وقد أرسل إليه السلطان مرسوماً، يقضي بحظر الممارسات الصوفية البدعية في مكة والمدينة، فقام بتنفيذ الأمر في الوقت الذي كانت تحارب فيه البدع في إسطنبول.

وبعد وفاة الصدر الأعظم فاضل أحمد كوبرولو سنة (١٠٨٧هـ / ١٦٧٦م) كانت الدعوة لمحاربة البدع في الحجاز وفي العاصمة على قدم وساق؛ وتم تعيين الواني واعظاً للجيش، ضمن الحملة العسكرية المتجهة لفتح فينا سنة (١٠٩٤هـ / ١٦٨٣م)، والتي قادها الصدر الأعظم الجديد قره مصطفى باشا صهر محمد باشا كوبرولو؛ والتي أسفرت عن هزيمة فادحة للجيش العثماني، بسبب سوء التخطيط العسكري وقلة الديانة، وقد أصدر السلطان قراراً بإعدام الصدر الأعظم قره مصطفى باشا بسبب الهزيمة، وتم نفي الشيخ الواني إلى مدينته الواقعة بالقرب من بورصة، حيث وافته المنية بها في سنة (١٠٩٦هـ / ١٦٨٥م).

بدأت (جماعة الفقهاء) تتراجع شيئاً فشيئاً، بعد نفي الواني ووفاته، خاصة وقد تم خلع السلطان محمد الرابع على يد الطائفة البكتاشية العلوية الأكثر في الجيش الإنكشاري، في نفس الوقت كان الشيخ المغربي قد ضعفت مكانته في الحجاز، بعد وفاة الصدر الأعظم، وسعى أمير مكة في التخلص منه، فكتب إلى السلطان يطلب إخراج المغربي من مكة، فورده الرمز السلطاني بنفيه إلى دمشق الشام سنة (١٠٩٣هـ / ١٦٨٢م)، فنفي إلى دمشق، ومات هناك بعد سنة من نفيه، وبذلك أفل نجم الدعوة لمحاربة البدع والخرافات الصوفية، في العاصمة وفي الحجاز، غير أنها لم تمت، ولن تموت.

• امتداد الدعوة:

١. الشيخ صنع الله في حلب:

ومما يذكر في هذا الجانب أن صنع الله بن صنع الله الحلبي المكي الحنفي^(١) من مدينة حلب قام بالرد على عبد الغني النابلسي^(٢) أحد أكبر المروجين للقبورية وبدع التصوف في كتاب عنوانه «سيف الله على من كذب على أولياء الله»^(٣)، أبطل فيه الشبهات التي أوردها النابلسي في كتابه «كشف النور عن أصحاب القبور»، والتي أباح فيها النابلسي الزيارات البدعية للقبور، وطلب المدد والغوث من الأولياء الموتى.

قال صنع الله الحلبي في بداية كتابه: هذا وإنه قد ظهر الآن - فيما بين المسلمين - جماعات يدعون أن للأولياء تصرفات في حياتهم، وبعد الممات، ويستغاث بهم في الشدائد والبلبات، وبهممهم تنكشف المهمات، فيأتون قبورهم، وينادونهم في قضاء الحاجات، مستدلين على أن ذلك منهم كرامات، وأقرهم على ذلك من ادعى العلم بمسائل، وأمدهم بفتاوى ورسائل، وأثبتوا للأولياء (بزعمهم) الإخبار عن الغيب بطريق الكشف لهم بلا ريب، أو بطريق الإلهام أو منام، وقالوا: منهم أبدال ونقباء، وأوتاد نجباء، وسبعين وسبعة، وأربعين وأربعة، والقطب هو الغوث للناس، وعليه المدار بلا التباس، وجوزوا لهم الذبائح والندور، وأثبتوا لهم فيهما الأجور.

وهذا كما ترى كلام فيه تفريط وإفراط، وغلو في الدين بترك الاحتياط، بل فيه الهلاك الأبدي، والعذاب السرمدي، لما فيه من روائح الشرك المحقق، ومصادرة الكتاب العزيز المصدق، ومخالفة لعقائد الأئمة، وما اجتمعت عليه هذه الأمة^(٤).

(١) صنع الله: الإمام العلامة صنع الله بن صنع الله الحلبي المكي الحنفي الواعظ الفقيه المحدث الأديب المتوفى سنة (١١٢٠هـ)، له مؤلفات عدة، انظر ترجمته في «هدية العارفين»، «معجم المؤلفين».

(٢) عبد الغني بن إساعيل بن عبد الغني النابلسي، ولد ونشأ في دمشق، ورحل إلى بغداد ومصر والحجاز، واستقر بعد ذلك في دمشق، وتوفي بها، له مصنفات كثيرة، في التصوف وإباحة الدخان، وله دواوين شعرية، خصم لعقيدة أهل السنة والجماعة، ناصر للبدع وأهلها، ولد سنة (١٠٥٠هـ / ١٦٤١م)، توفي (١١٤٣هـ / ١٧٣١م). الزركلي «الأعلام» (٤/ ٣٢).

(٣) دار الكتاب والسنة/ طبعة ٢٠٠٧م/ تحقيق أبي البراء علي رضا بن عبد الله المدني/ قدم له العلامة الشيخ محمد بن صالح بن فوزان الفوزان حفظه الله.

(٤) صنع الله الحلبي «سيف الله على من كذب على أولياء الله» (ص: ٢٢-٢٣)، نقلاً عن «دعوة جماعة قاضي زادة» (ص: ١٢١).



٢. الواعظ الرومي بالقاهرة (١١٢٣هـ / ١٧١١م):

ظهرت بالقاهرة دعوة مضادة للمبتدعة، على يد طالب علم، ملقب بالرمي، تُنكر على الصوفية أفعالهم، مما أدى إلى رد بعض مشايخ الأزهر دعوتَهُ، ولقد نقل عنه الجبرتي في تاريخه: «عجائب الآثار»^(١) ذكراً لإنكار الرومي على أهل مصر بقوله: وفي شهر رمضان جلس واعظ بجوامع المؤيد، فكثرت عليه الجمع، وازدحم المسجد، وأكثرهم أتراك، ثم انتقل من الوعظ، وذكر ما يفعله أهل مصر بضرايح (بأضرحة) الأولياء، وإيقاد الشموع والقناديل على قبور الأولياء، وتقبيّل أعتابهم، وفعل ذلك كفرٌ، يجب على الناس تركه، وعلى ولاية الأمور السعي في إبطال ذلك.

وذكر أيضاً: قول الشعراني في طبقاته: (أن بعض الأولياء اطلّغ على اللوح المحفوظ)، وأنه لا يجوز ذلك، ولا تطلع الأنبياء على ذلك، فضلاً عن الأولياء، وأنه لا يجوز ذلك، وذكر أيضاً: وقوف الفقراء باب زويلة في ليالي رمضان.

فلما سمع حزبه (جماعته) ذلك، خرجوا بعد صلاة التراويح، ووقفوا بالنبابيت (العصا الرفيعة)، والأسلحة، فهرب الذين يقفون بالباب.

ثم ذكر الجبرتي أن بعض الناس استغاث بعلماء الأزهر، وأخبروهم بقول ذلك الواعظ، فرد علماء الأزهر بفتاوى تدل على تصوفهم، حيث قال: وكتبوا فتوى وأجاب عليها الشيخ أحمد النفراوي، والشيخ أحمد الخليلي، بأن كرامات الأولياء لا تنقطع بالموت، وأن إنكاره على اطلاع الأولياء على اللوح المحفوظ لا يجوز، ويجب على الحاكم زجره عن ذلك.

ثم أضاف الجبرتي رحمه الله: وأخذ بعض الناس تلك الفتوى، ودفعها للواعظ، وهو في مجلس وعظه، فلما قرأها، غضب، وقال: يا أيها الناس، إن علماء بلدكم أفتوا بخلاف ما ذكرت لكم، وإني أريد أن أتكلّم معهم وأباحثهم في مجلس قاضي العسكر، فهل منكم من يساعدني على ذلك وينصر الحق؟.

(١) (١/ ٨٣-٨٦).



فقال له الجماعة: نحن معك، لا نفارقك، فنزل عن الكرسي، واجتمع عليه من العامة زيادة عن ألف نفس، ومرّ بهم من وسط القاهرة إلى أن دخل بيت القاضي قريب العصر، فانزعج القاضي، وسألهم عن مرادهم، فقدموا له الفتوى، وطلبوا منه إحضار المفتين والبحث معها.

ثم ذكر الجبرتي أن القاضي قال: اصرفوا هذه الجموع، لنسمع دعواكم، فقالوا له: ما تقول في هذه الفتوى؟ قال: باطلة، وقد ترتب على ذلك فتنة عظيمة، لم تنته إلا بالقبض على بعض أفراد جماعة الواعظ الرومي ونفي بعضهم، ومنهم ذلك الواعظ الذي لم يترجم له الجبرتي اسماً.

وظلت الدعوة من فضل الله تعالى إلى التوحيد باقية، غير أن بعض من قام بها اتخذ وسائل لا تليق بمقام هذه الدعوة، مما سبب النفرة منها في بعض الأماكن والأزمان، إلى أن كانت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، كما سيأتي.



ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب^(١) الإصلاحية

قامت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب على الكتاب والسنة، بفهم سلف الأمة، من القرون المفضلة؛ وكانت طبيعة المجتمعات في الجزيرة العربية يغلب عليها العقائد المنحرفة، والتعصب المذهبي، وتقديم آراء الرجال على نصوص الكتاب والسنة^(٢).

فلقد واجه الشيخ رحمه الله أصحاب الدعوات، التي تجيز الاستغاثة والدعاء والتقرب إلى القبور والأضرحة، وسؤال المخلوق دون الخالق سبحانه.

فجاءت دعوة الشيخ لتدعو الناس إلى الحق، وهذا سبيل المصلحين والمجددين في كل زمان لهذه الأمة المباركة.

ولقد كان لدعوة الشيخ صداها المبارك، في توجيه وإرشاد الناس إلى تصحيح عقائدهم، كما جعل الله تعالى لها القبول في الأرض، والانتشار بين طلبة العلم وأصحاب الفطر السليمة.

(١) محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي النجدي، ولد في سنة (١١١٥ هـ - ١٧٠٣ م) بالعينة بنجد، وتوفي بالدرعية في سنة (١٢٠٦ هـ - ١٧٩١ م)، وهو تميمي من المشارفة من المعاضيد من فخذ آل زاخر من قبيلة آل وهبة من بني حنظلة من تميم، فيقال له المشرفي، ويقال له الوهبي، ويقال له التميمي، نشأ في أسرة علمية، حيث كان أبوه فقيهاً وقاضياً، وكذلك جده وعمه الشيخ إبراهيم. حفظ القرآن قبل بلوغ العاشرة، وطلب العلم منذ الصغر على والده وعمه، ورحل بعد ذلك إلى الحجاز وتهامة والبصرة والزيبر والأحساء، فقرأ على جملة من علمائها، وحصل على إجازات في العلوم الشرعية المختلفة.

تبحر رحمه الله في كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية، وألف عدداً من الكتب والرسائل المفيدة، أشهرها «كتاب التوحيد» الذي هو حق الله على العبيد، و«كشف الشبهات»، و«الأصول الثلاثة»، وغيرها من الكتب النافعة التي جعل لها الله القبول في الأرض، ونفع بها نفعاً عظيماً. توفي رحمه الله ولم يخلف مالا يقسم بين ورثته. أسامة عطايا «تحقيق تيسير العزيز الحميد» (١/ ٢١).

(٢) حذر الأئمة الأربعة المتبوعين من جماهير المسلمين من التعصب لأرائهم واجتهاداتهم وآراء واجتهادات غيرهم، ومشارب المذاهب واختلاف الجماعات. قال أبو حنيفة رحمه الله: إذا صح الحديث فهو مذهبي، وقال: لا يحل لأحد أن يأخذ بقولنا ما لم يعلم من أين أخذناه، وغيره من الأقوال تبرأه لنفسه رحمه الله من الانتصار لرأيه ورد الدليل.

كما ينسب لمالك بن أنس رحمه الله أنه قال: إنما أنا بشر أخطئ وأصيب، فانظروا في رأيي، فكل ما وافق الكتاب والسنة، فخذوه، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة، فاتركوه، وقال: ليس أحد بعد النبي ﷺ إلا ويأخذ من قوله ويترك إلا النبي ﷺ - وقال: كلما جاءنا رجل أجدل من رجل أردنا أن نرد ما جاء به جبريل إلى النبي ﷺ.

وأما الشافعي رحمه الله فالنقول عنه كثيرة، ومن ذلك: إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله ﷺ، فقولوا بسنة رسول الله ﷺ، فاتبعوها، ولا تلتفتوا إلى قول أحد.

وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله الذي كان أكثر الأئمة جمعاً للسنة: لا تقلدني ولا تقلد مالكا ولا الشافعي ولا الأوزاعي ولا الثوري، وخذ من حيث أخذوا، وأضاف: لا تقلد دينك أحداً من هؤلاء، ما جاء عن النبي ﷺ وأصحابه فخذ به.

قال ابن قيم الجوزية رحمه الله في «مفتاح دار السعادة» وأما من يرى أن الحق وقف مؤبد على طائفته وأهل مذهبه، وحجر محجور على من سواهم ممن أقرب إلى الحق، فقد حُرِمَ خيراً كثيراً، وفاته هدى عظيم. راجع مقدمة كتاب الألباني «صفة صلاة النبي ﷺ» (ص: ٤٥).

وقد أثمرت دعوته ثمرات مباركة منها:

- تصحيح عقائد الكثير من العامة، ونشر عقيدة التوحيد الصحيحة بين المسلمين.
- قيام دولة على الكتاب والسنة، تحكم بالشرعية الإسلامية.
- ظهور حركة علمية واسعة في العالم الإسلامي، أخرجت لنا فحولاً من العلماء والجهابذة، الذين أثروا المكتبة الإسلامية بنفائس الكتب والبحوث العلمية، التي كان لها الأثر النافع في إيقاظ المسلمين من غفلتهم، بعد أن عاشوا فترة من الجمود الفكري الذي ألصق البدع والخرافات بعقائد الناس، وهي تُعدُّ من أهم الدعوات الإصلاحية في حياة الخلافة العثمانية، والتي لم تستفد استفادة نافعة منها، بل ناصبتُها العداء، بسبب صدامها مع انحرافات الصوفية، أحد الأركان التي تعتمد عليها الدولة في الحكم، وخشية زوال ملكها، والذي حدث بعد ذلك بسبب انحرافاتهم العقيدية والأخلاقية.
- وباليات الدولة العثمانية استفادات من هذه الدعوة لتصحيح عقائد المجتمعات الإسلامية، مما كان سيساهم في دعم الدولة العثمانية وبقائها.
- وأصبحت دعوة الشيخ رحمه الله مصدراً للدعوات الإصلاحية، التي ظهرت بعد ذلك في العالم الإسلامي، مثل دعوة الإمام الشوكاني رحمه الله في اليمن، وأسرة الألوسي في العراق، ودعوة عبد الحميد بن باديس في الجزائر، كما ساهمت في إغناء المنتديات العلمية والفكرية إلى يومنا هذا.
- قال عباس محمود العقاد^(١): ولم تذهب صيحة ابن عبد الوهاب عبثاً في الجزيرة العربية، ولا في أرجاء العالم الإسلامي من مشرقه إلى مغربه؛ ولقد أدرك المسلمون أن علة الهزائم التي تعاقبت عليهم إنما هي في ترك الدين، لا في الدين نفسه، وأنهم خلقاء أن يستردوا ما فاتهم من القوة والمنعة، باجتنب البدع، والعودة إلى ما كان عليه السلف الصالح في جوهره ولبابه^(٢).

(١) عباس محمود العقاد: أديب وكاتب مصري، ولد في أسوان بجنوب مصر سنة (١٣٠٦هـ / ١٨٨٩م)، وتوفي بها سنة (١٣٨٣هـ / ١٩٦٤م)، اشتهر بين أدباء عصره، وصنف مصنفات كثيرة، بلغت ثلاثة وثلاثين كتاباً، أشهرها العبقريات، وصفه معاصروه بالعملاق لطول قامته. الزركلي / الأعلام (٣/ ٢٦٦).

(٢) عباس محمود العقاد «الإسلام في القرن العشرين»، (ص: ٦٣).



ولقد أخطأ كل مسلم اتهم الدعوة باسم الوهابية، فهذه سمة وسمها بها خصومها، وخاصة من الصوفية المنحرفة.

قال خير الدين الزركلي: سَمَّاهم خصومهم بالوهابيين، وشاعت التسمية عند الأوروبيين، ودخلت معجماتهم الحديثة، وأخطأ بعضهم، فجعلها مذهباً جديداً في الإسلام، تبعاً لما افتراه خصومهم^(١).

ولقد كان الشيخ محمد بن عبد الوهاب في حقيقة معتقده ودعوته من ألد خصوم (الوهابية) التي بينه وبينها أكثر من تسعة قرون من الزمان.

فالوهابية كما أسلفنا فرقة من فرق الخوارج المكفرة بالمعصية للمسلمين، تنسب إلى عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم الخارجي، الفارسي الأصل؛ والذي تولى قيادة الدولة الرستمية، بعد وفاة أبيه في سنة (١٧١هـ).

وقد أسس عبد الوهاب لأتباعه منهجاً شاذاً منحرفاً، يعمل على تعطيل بعض الشرائع، مما حدا بالعلماء في زمانه أن يفتوا بكفره، وبكفر طائفته الوهابية؛ وظلت هذه الفتوى حبيسة الكتب بعد انتهاء دورهم في التاريخ عام (٢٩٦هـ) على يد الفاطميين العبيديين.

ولما ظهرت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، أخرج خصوم التوحيد - من أصحاب العقائد الشركية - هذه الفتاوى، ونشروها في العالم الإسلامي على أنها فتاوى أهل العلم، عن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

وبرغم أن المخالفة واضحة بين كلا الدعوتين - فالوهابية قامت على الهوى والابتداع، ودعوة الشيخ قامت على الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة - فإنه ما زال كثير من خصوم الإسلام ومن تبعهم من أذئابهم في العالم الإسلامي يخلط بين الدعوتين، وهو ظلم عظيم، لا يُبتغى من وراءه إلا إفساد عقائد الأمة، وعودتها إلى الجاهلية وعبادة الآثار والمخلوق، دون عبادة الخالق سبحانه.

(١) الأعلام (٦/ ٢٥٧).



قال طه حسين^(١): إِنَّ مذهب محمد بن عبد الوهَّاب جديدٌ قديمٌ معاً، جديدٌ بالنسبة للمعاصرين، ولكنه قديمٌ في حقيقة الأمر؛ لأنَّه ليس إلَّا الدعوة القويَّة إلى الإسلام الخالص، النقي المطهَّر من كلِّ شوائب الشرك والوثنيَّة، هو الدعوة إلى الإسلام كما جاء به النبيُّ، خالصاً ممَّا أصابه من نتائج الجهل، ومن نتائج الاختلاط بغير العرب.

فقد أنكر محمد بن عبد الوهَّاب على أهل نجد ما كانوا قد عادوا إليه من جاهليَّة في العقيدة والسيرة، كانوا يُعظِّمون القبور، ويتخذون الموتى شفعاء، ويُعظِّمون الأشجار والأحجار، ويرون أنَّ لها من القوة ما ينفع، وما يضرُّ.

ثم قال: ومن الغريب أنَّ ظهور هذا المذهب الجديد في نجد قد أحاطت به ظروفٌ تُذكر بظهور الإسلام في الحجاز؛ فقد دعا صاحبه إليه باللين أول الأمر، فتبعه بعضُ الناس، فلمَّا أظهر دعوتَه، أصابه الاضطرابُ، وتعرَّض للخطر، ثم أخذ يعرض نفسه على الأمراء ورؤساء العشائر كما عرض النبيُّ ﷺ نفسه على القبائل، ثم هاجر إلى الدرعية، وبايعه أهلها على النصر، كما هاجر النبيُّ ﷺ إلى المدينة.

ولكن ابن عبد الوهَّاب لم يُرد أن يشتغل بأمور الدنيا، فترك السياسة لابن سعود، واشتغل هو بالعلم والدين، واتَّخذ السياسة وأصحابها أداةً لدعوته...

ولولا أنَّ الترك والمصريين اجتمعوا على حرب هذا المذهب، وحاربوه في داره بقوة وأسلحة لا عهد لأهل البادية بها، لكان من المرجوَّ جداً أن يوحد هذا المذهب كلمة العرب في القرن الثاني عشر للهجرة، كما وحد ظهور الإسلام كلمتهم في القرن الأول.

ولقد ترك هذا المذهب أثره في الحياة العقلية والأدبية عند العرب، وكان هذا الأثر عظيماً خطيراً في نواحٍ مختلفة؛ فهو قد أيقظ النفس العربية، ووضع أمامها مثلاً أعلى أحبَّته، وجاهدت في سبيله بالسيف والقلم واللِّسان، وهو قد لفت المسلمين جميعاً، وأهل العراق والشام ومصر بنوع خاصٍّ إلى جزيرة العرب.

(١) طه حسين: طه بن حسين بن علي سلامة، دكتور في الأدب العربي، تخرج من فرنسا، ولد في صعيد مصر سنة (١٣٠٧هـ / ١٨٨٩م)، وتوفي في مصر سنة (١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م). الزركلي «الأعلام» (٣/ ٢٣١).



ولقد استدعى الصِّراعُ الفكري بين الوهابيين^(١) وخصومهم الرجوعَ إلى كُتب التراث ونشر الرسائل والكتب التي يُؤيِّد بها كلُّ فريق مذهبَه، فنُشرت كُتب ابن تيمية وابن القيم، واستفاد العالم العربيُّ كله من هذه الحركة العقلية الجديدة^(٢).

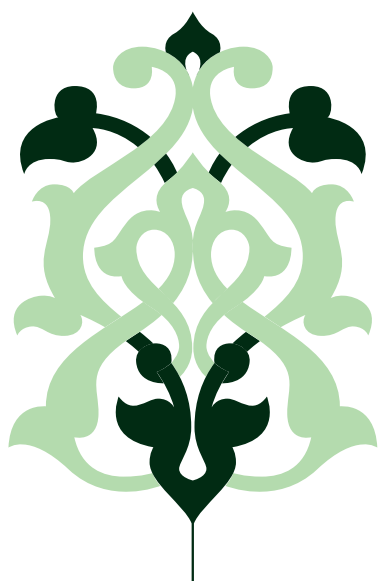
(١) هذا يدل على مدى انتشار هذه اللفظة حتى تأثر بها طه حسين نفسه.

(٢) «الحياة الأدبية في جزيرة العرب»، (ص: ٣٤-٣٦).



الْحَرَكَاتُ الْمُنَاوِئَةُ وَالْأَنْفِصَالِيَّةُ عَنِ الدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ

الفصل الرابع



أَهَمُّ الْمَظَاهِيرِ وَالْأَحْدَاثِ
فِي عَصْرِ الْخِلَافَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ

«٣»



تعتبر الحركات المناوئة والانفصالية عن الخلافة العثمانية واحدةً من عوامل تفتيت قوة الدولة العثمانية، وأحد عوامل ضعفها وانهيارها، وقد قامت معظمها على أفراد، اعتمدوا على دعم أعداء الإسلام لهم في زعزعة أمن الخلافة العثمانية، أو على أفراد، كانوا من أصحاب العقائد المنحرفة، التي كانت تتحين الفرصة لتنقض على الحامية العثمانية، وتنفرد بالمنطقة أو الولاية.

وقد استغلت هذه القوى انشغال الدولة في حروبها التي تخوضها مع خصومها، إلى جانب ضعف بعض الولاة، وأعلنت الاستقلال عن الدولة، وقد باءت هذه المحاولات كلها بالفشل وتمّ القضاء عليها.

ومن الخطأ أيضاً أن توصف حركات التمرد والعصيان على دولة الخلافة العثمانية بأنها انتفاضات شعبية، تعبر عن شعوب المناطق الثائرة، أو حركات انفصالية أو استقلالية، لأن الدارس بعمق لحقيقة هذه الأحداث يجد أن معظم هذه الحركات تزعمها قادة عسكريون، أو أصحاب عصابات محلية، أو أتباع مذاهب منحرفة، أو زعماء، زعموا أنهم علماء دين، قام كل منهم بحسبه لينفرد لنفسه بالحكم، ويستأثر بالثروة والمال في الولاية، ولم تتفاعل معهم الجماهير من المسلمين، وإنما تفاعل معهم طوائفهم والمتنفعين منهم.

يقول د. عبد العزيز الشناوي^(١): من الأمثلة التي تساق في هذا الصدد حركة علي بك الكبير في مصر، والنزاع بين قبائل الأكراد والبشوات العثمانيين في العراق، وكذلك النزاع بين الزيدية والدولة العثمانية في اليمن. ١. هـ.

كما صور خطأً في التاريخ بعض حركات الخروج للغوغاء بأنها ثورة ضدّ الخلافة العثمانية، وهي في الحقيقة لم تكن إلا حركات تهديد للولاة، يتهددونهم فيها برفع أمرهم إلى السلطان في الأستانة.

(١) «الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها».



وقد وقعت هذه المحاولات الانفصالية في مناطق عدة منها الأناضول، كحركة جنبلاط الكردي، وحركة قلندر أوغلي في أنقرة، وحركة يوسف باشا وأباظا باشا، وغيرها من الحركات، التي استطاع الصدر الأعظم مراد باشا في عهد الخليفة السلطان أحمد الأول القضاء عليها، كما قامت في البلدان العربية حركات مناوئة، تأمرت على الدولة مع الدّ خصومها، أشهرها ثلاث حركات، اثنتان منها بالشام وواحدة بمصر؛ ولقد لجأ قادة هذه الحركات للتعاون السافر مع أوروبا النصرانية، وروسيا الأرثوذكسية ضد الدولة العثمانية، وإليك موجز بذلك.

أولاً: حركة فخر الدين المعني الثاني الدرزي بالشام (١٠١١هـ - ١٠٥٦هـ) / (١٥٩٠م - ١٦٣٥م):

فخر الدين بن قرقماس بن فخر الدين الأول، جده فخر الدين الأول، كان ممن انضم وأيد السلطان سليم الأول عند دخوله إلى الشام، وهو أحد قادة العصابات المحلية في جبال لبنان، وورثه ولده قرقماس في زعامة الأسرة المعنية الدرزية التي كانت تعيش هناك؛ وكانت على علاقة مع الدولة العثمانية، التي كانت تتعامل مع هذه الطوائف بسياسة خاصة لضمان ولائهم لها.

ولد فخر الدين المعني بمنطقة الشوف بلبنان، ونشأ بها، وعند وفاة أبيه أصبح أميراً على الأسرة المعنية في سنة (١٠١١هـ) بعد أن منحه الخليفة العثماني حق الإشراف على جبل لبنان وصيدا وبيروت، خاصة وأنه اتصل بالخليفة، وأظهر له الطاعة.

عمل فخر الدين المعني بسياسة خبيثة، تنبئ عن حقيقته الباطنية، الهدف منها إرضاء الدولة في الظاهر، والتخطيط ضدها في الباطن، فلقد قام بمحاولات تجميع المعادين للإسلام وللدولة - من أصحاب العقائد الفاسدة والباطلة، كالدروز والنصيرية والنصارى - ليكونوا قوة له عند انفصاله عن الدولة، بل ذهب إلى أبعد من ذلك، حيث قام بعمل علاقات مع دول أوروبا النصرانية كأسبانيا وإيطاليا والباباوية في الفاتيكان، وأطلق يد المنصرين من الغربيين في مناطقه.

قام فخر الدين في أول الأمر بالاستيلاء على بعلبك سنة (١٠٣١هـ / ١٦١٠م)، وبدأ يهدد دمشق بالتقدم إليها، كما استولى على صيدا وصفد وبيروت، كما أراد أن يضم الساحل الجنوبي للشام في فلسطين.

وعندما انتهت الدولة العثمانية لهذه الحركة، أرسلت إليه قوات عسكرية لا قبلَ له بها، ففرَّ هارباً عن طريق البحر إلى إيطاليا، حيث حلفاؤه في فلورنسا، ونزل هناك، وقد تولى مكانه ابنه علي.

أقام فخر الدين بإيطاليا خمس سنوات، وقد أرسل خلالها استعطافاً، يطلب فيه من الدولة العثمانية العفو عنه، معلناً الولاء والاعتذار، فصدر عنه العفو العثماني، وعاد إلى لبنان، كما سمحت له الدولة أن يرجع أميراً على إمارته، وأنعمت عليه بلقب جده: سلطان البحر.

لقد كان فخر الدين المعني رجلاً متلوناً ككل الباطنية، وكان ينبغي للدولة أن تعي ذلك، إن هي تعاملت معه من منطلق عقدي، فهذا هو أول ما استقر به المقام في لبنان يعود إلى سياسته القديمة، وبدأ يتعاون سراً مع الإيطاليين والفرنسيين؛ كما شجع البعثات التنصيرية، وسمح لها بالإقامة في لبنان.

وعندما شعر بأن الفرصة مواتية لأن يوسع من إمارته، ويستقل عن الدولة، بدأ يمد حدوده إلى حلب في الشمال، وإلى القدس في الجنوب، ولم تكن ولايات حلب ودمشق مؤيدة له، فحاول الاستيلاء عليها بالقوة، كما استولى على بعض سواحل سورية، واتصل بأوروبا من أجل دعمه ومساعدته.

عندئذ عازمت الدولة العثمانية على التخلص منه، ومن كل العصابات حوله، فأرسلت إلى والي دمشق (فرماناً) بتسيير حملة كبرى لمواجهة فخر الدين المعني، كما سيرت الدولة الأسطول العثماني إلى سواحل لبنان، فحوصر فخر الدين المعني حصاراً شديداً وتم القبض عليه، وحُمل إلى إسطنبول مقيداً مع ولدين له، وقد قُتل له ثالث أثناء المواجهات، فسُجن مدة من الزمان، ثم أمر السلطان بقتله هو وولديه، فقتلوا^(١).

(١) د. عبد العزيز الشناوي / الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها.



ثانياً: حركة علي بك الكبير في مصر:

علي بك الكبير لا تُعرف له أصول على وجه الدقة، فهو مملوكي مثل كل المماليك الذين كانوا يُجلبون من وسط آسيا ومن بلاد الروم، وقد ذكر بعض مؤرخي أوروبا^(١) أنه ابن قسيس رومي أرثوذكسي، من أماسيا في الأناضول، ولد في سنة (١١٤٠هـ / ١٧٢٨م)، واختطف وهو صغير، وتمَّ بيعه في القاهرة للأمير إبراهيم كتخدا، والذي يُعدُّ أستاذه وسيده ومعلمه.

ترقى في مراتبه العسكرية في مصر، تولى منصب شيخ البلد في مصر في سنة (١١٧٧هـ / ١٧٦٣م)، وهذا المنصب الذي كان يتولاه أحد زعماء المماليك، ويُعدُّ صاحبه الشخصية التي تلي الوالي العثماني، وكان مقره قلعة الجبل، ويعتبر هو الحاكم الفعلي للولاية.

كان علي بك الكبير رجلاً خصباً ألدَّ، يتصف بالقسوة، كما قال عنه الجبرتي بأنه: أخرج البيوت القديمة، وأحرم القوانين الجسيمة، والعوائد المرتبة، والرواتب التي من سالف الدهر كانت منظمة، وقتل الرجال، واستصفى الأموال، وحارب كبار العربان والبوادي، وعرب الجزيرة والهنادي، وأعاضم الشجعان ومقدام البلدان، وشتَّت شملهم، وفرق جمعهم، واستخلص بلاد الصعيد، وقهر رجالها الصناديد^(٢).

استغل علي بك الكبير انشغال الخلافة العثمانية في حربها مع روسيا، والتي لم تأت نتائجها لصالح الدولة العثمانية، وانشغلت بتضميد جراحها، فتطلع إلى تحقيق أطماعه التوسعية لضمِّ الحجاز، واستطاع ذلك بعد أن استغل الصراع بين رجلين من أشرف الحجاز على السلطة، فتذرع بذلك، وأرسل حملة عسكرية بقيادة محمد بك أبو الذهب^(٣) في صفر (١١٨٤هـ / ١٧٧٠م)، استطاعت عزل أحد المتصارعين وتثبيت الآخر، الذي نادى

(١) استافرو لنسبان أحد المعاصرين لعلي بك والملاصقين له.

(٢) «عجائب الآثار في التراجم والأخبار» (١/ ٤٣٣-٤٣٤).

(٣) محمد بك أبو الذهب: أحد المماليك الذين كان لهم شأن في التاريخ، وكان الذراع اليميني لعلي بك الكبير، ثم ندم على خروجه معه ضد الدولة العثمانية، ورجع عن ذلك، وقام بإقصاء علي بك الكبير، ونصب نفسه شيخاً للبلد في القاهرة بدلاً من علي بك الكبير، وقد أقرته الدولة العثمانية على ذلك، ومنحته لقب باشا، واستطاع أن يواجه ظاهر العمر في فلسطين، وأخضع فلسطين للدولة العثمانية مرة أخرى، غير أنه وافته المنية سريعاً، فحمل إلى مصر، ودفن هناك، وقيل إنه مات مسموماً على يد طبائعه الذي تحالف مع ظاهر العمر.

له مسجد ومدرسة وتكية بالقاهرة، يقال عنها مجمع أبو الذهب بُني سنة (١١٨٧هـ)، ويقع بمقابل الجامع الأزهر ويعد من أجمل الآثار الإسلامية في مصر.



بعلي بك الكبير سلطاناً على مصر والحجاز، وخاقاناً على البحرين، وذكر اسمه ولقبه على منابر المساجد في الحجاز كلها، وفي شرق الجزيرة^(١).

وعندما اتصل به ظاهر العمر، وهو أحد زعماء الحركات الانفصالية عن الدولة في الشام يستنجد به، استغل ذلك لضم الشام إليه، مظهراً لظاهر العمر أن تقدمه إلى الشام من أجل مساعدته، واستطاع جيشه المكون من أربعين ألفاً - بقيادة محمد بك أبو الذهب - الاستيلاء على عدة مدن بالشام، منها غزة ويافا وطرابلس الشرق ودمشق وصيدا، بعد أن واجه الحامية العسكرية العثمانية في تلك المناطق في معارك سريعة، اضطرتهم للتقهقر إلى حلب.

وقد تذرّع في حملته بأنّ الذي دفعه إلى ذلك ما قام به والي دمشق العثماني عثمان العظم بإيواء خصوم علي بك، وأنه يمدّهم بالعون للإغارة على مصر.

وقد كلّفت هذه الحملة ولاية مصر أموالاً كثيرة، فُرضت بسببها ضرائب باهظة، أثقلت كاهل الشعب من أجل تحقيق رغبات الولاة الخارجين على الخلافة، ليحققوا لأنفسهم مجداً زائفاً زائلاً زال عمن هو أعظم منهم.

وكان علي بك قبل ذلك قد قام بالاتصال بروسيا للدّ خصوم الدولة العثمانية؛ وعقد معها معاهدة تعاون وتحالف ضد الدولة العثمانية، مقابل أن تزوده بالأسلحة والعسكريين، وأن تمده بالأسطول الروسي، لحماية السواحل المصرية من الأسطول العثماني، وتم ذلك عن طريق قائد الأسطول الروسي في البحر المتوسط، والذي وعده بأن يعود بمطلبه الأخير إلى الحكومة الروسية والإمبراطورة كاترين.

وفي الوقت الذي تزينت فيه القاهرة بهذه الانتصارات، فُوجئ علي بك الكبير بتوقف محمد بك أبي الذهب عن الزحف، بعد أن صدرت فتوى شيخ الإسلام في الدولة العثمانية، باعتبار علي بك ورجاله وأنصاره وحلفاءه من البغاة الخارجين على الدولة، يجب قتلهم أينما وجدوا، فقد خانوا الدولة في أعز ما تملكه، خانوها في عقيدتها، وقاموا

(١) د. عبد العزيز الشناوي «الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها»، محمد فريد بك «تاريخ الدولة العلية العثمانية».



بالاتصال بروسيا الصليبية التي هي في حالة حرب مع الخلافة العثمانية.

وقد استطاعت الدولة العثمانية أن تستميل محمد بك أبا الذهب إليها، مما دفعه إلى العودة مع جميع أفراد جيشه، ليعلن الحرب على علي بك الكبير، وانتهى الصراع بينهما إلى انتصار محمد بك أبي الذهب، وفرار علي بك الكبير إلى الشام، حيث ظاهر العمر، وقد حمل معه ثروة من المال ضخمة، إلى جانب سبعة آلاف من فرسانه المخلصين له، وقد بدأ بعد ذلك في تنظيم قواته، والاتصال بقائد الأسطول الروسي الذي وعده بالمساعدة، والتي تمخضت عن عدد من البنادق، وثلاثة مدافع، وبعض الضباط لتدريب الجيش.

أراد علي بك أن يثأر لنفسه، فأعدَّ العدة للعودة إلى مصر، ولم يأبه بنصيحة ظاهر العمر له بالتمهل وعدم الاندفاع، وتقدم حتى وصل إلى منطقة الصالحية بالشرقية، ليواجه مصيره مع جيش مصر بقيادة محمد بك أبي الذهب في صفر (١١٨٧هـ) / أبريل (١٧٧٣م)، حيث مُني علي بك بهزيمة فادحة، وأصيب بجراح مؤلمة، ونُقل إلى القاهرة، حيث عامله أبو الذهب معاملة حسنة، ووفر له الرعاية الطبية التي لم تغن عنه من قدر الله شيئاً، فتوفي في (٢٥) صفر (١١٨٧هـ) / (٨) مايو (١٧٧٣م)، أي بعد هذه المعركة بعشرة أيام، لتطوى معه صفحة من صفحات الخروج على الخلافة الإسلامية.

ثالثاً: حركة ظاهر العمر بالشام^(١):

ظاهر بن عمر بن أبي زيدان، ينتسب إلى قبيلة زيدان التي تعود أصولها إلى المدينة النبوية، وكان أبوه حاكماً على صفد وما يليها، في ولاية الأمير بشير الشهابي على لبنان.

ولد في صفد سنة (١١٠٦هـ / ١٦٩٥م)، وتولى التزام طبرية وإدارة عكا، وكانت تربطه بالدولة العثمانية علاقات ودّية، وطمع في أن يمد نفوذه، فاستولى على عكا، واتخذها مقراً له، ثم ضم الناصرة وحيفا، مما دفع والي دمشق يوسف العظم لمواجهته بأمر الدولة العثمانية سنة (١١٥٠هـ)، فتحصّن بطبرية، ولم تستمر قوات العظم بالتقدم بسبب وفاته المفاجئة على أبواب طبرية، وأخفقت الدولة في مواجهته، فازداد نفوذه، وامتدت يده

(١) خير الدين الزركلي / الأعلام (٣/ ٢٣٧).



إلى يافا والقدس والجليل، وتحالف مع علي بك الكبير والي مصر كما أسلفنا، كما تحالف مع روسيا التي كانت سياستها تحريض الثورات الداخلية ضد الخلافة العثمانية؛ وقد استطاع ظاهر العمر بمساعدة الأسطول الروسي الاستيلاء على صيدا.

أرسلت إليه الدولة العثمانية قوة بقيادة عثمان باشا الصادق^(١) والي دمشق الجديد، لكنها هُزمت أمام قوات ظاهر العمر، الذي توسع فضم الرملة ونابلس والبلقاء شرقي الأردن وجبل عامل بلبنان، مما اضطر حكومة الخلافة للاعتراف بولايته مدبرة له لإقصائه، فأرسلت إليه القائد المصري محمد بك أبا الذهب الذي قضى على علي بك الكبير، والذي استطاع أن يحقق انتصاراً على ظاهر العمر، غير أن أبا الذهب توفي فجأة في صيدا سنة (١١٨٨ هـ)، فعاد ظاهر إلى أول عهده، وظن أن الأمر قد خلا له.

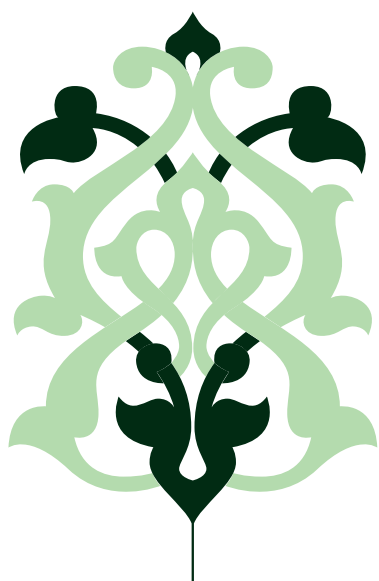
ولكنها مقادير الله سبحانه وتعالى الذي قال: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، فلقد قامت حكومة الخلافة العثمانية بإرسال أسطول بحري، مع حملة عسكرية، حاصرت عكا، واستطاعت القضاء على فتنة ظاهر العمر الذي قضى نحبه قتيلاً في سنة (١١٩٦ هـ/ ١٧٨٢ م).

(١) عثمان باشا الكرجي الملقب بالصادق، تولى ولاية دمشق لإحدى عشرة سنة، كان على قدر كبير من الإخلاص للدولة العثمانية؛ يعمل باسمها، ويقاوم من أجلها.



الفصل الخامس

الغزو الصليبي الفكري (التنصير)



أهمُّ المظاهر والأحداث
في عصر الخلافة العثمانية

((٤))



جاءت البعثات التنصيرية في حملات فكرية متتابعة على الدولة العثمانية، مستغلة الامتيازات الأجنبية الممنوحة لدول أوروبا، والاتفاقات والعلاقات الجيدة بين أوروبا النصرانية وبين الدولة العثمانية، والتي بدأت تظهر عليها عوامل الضعف والتردي.

وفي غفلة منها غدا النشاط التنصيري من أقوى الركائز^(١) التي اعتمد عليها الاستعمار الصليبي الأوروبي لمد نفوذه إلى بلاد الشام؛ ومما يذكر في هذا الجانب الدعم الفرنسي بالأموال الوفيرة للبعثات التنصيرية، وتعاونها مع المارونيين والملكانيين لتحقيق أهدافها الاستعمارية الخبيثة، وإنشاء أجيال من أبناء الأمة تعمل على تحقيق ذلك، وهذا أصبح ماثلاً أمام الأعين في لبنان خاصة.

كما قامت روسيا بدعم البعثات الأرثوذكسية الشرقية بالأموال، من أجل تحقيق نفس الأغراض الاستعمارية، في الوقت الذي ضعفت فيه قوة الخلافة، وتردّت، وفقدت ولايات عديدة في أوروبا وأفريقيا، ولم تكن لها القدرة على إيقاف هذا المد والنشاط التنصيري في بلاد العرب أو غيرها.

وكذلك فإن أمريكا وإنجلترا قامتا بدعم البعثات البروتوستانتية في المنطقة، وقد استغلت الدول النصرانية الاستعمارية هذا الأمر، في أوائل النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، لبسط نفوذها على الطوائف النصرانية التي تعيش في ظل الدولة العثمانية.

فلقد طالبت روسيا بحقوقها في حماية الأرثوذكس في الدولة العثمانية، كما طالبت فرنسا بنفس الحق لفرض حمايتها على الكاثوليك في الدولة العثمانية، مما أوقع الخلاف الواسع بين الدولة العثمانية وروسيا وفرنسا، وكان له عواقبه الوخيمة في إحداث الاضطرابات الطائفية في الشام خاصة.

كانت هذه الحملات متباينة المذاهب والبلدان، فهناك الكاثوليك، والبروتوستانت، والأرثوذكس الشرقيون، واليونانيون، وطوائف شتى، تحمل أسماءً مختلفة كاليسوعيين، والعازاريين، والكبوشيين، والكرملنيين، والبرستيريين، جاؤوا جميعاً من دول أوروبية

(١) لعل من أظهر الدلائل على النشاط التنصيري وأثره في عصرنا، انفصال جنوب السودان عن شماله بسبب هذه الأنشطة التنصيرية حتى غدا الجنوب دولة مستقلة.



مختلفة ومن روسيا والولايات المتحدة الأمريكية، وقاموا بنشاط تنصيري مكثف، مستتر وراء مؤسسات صحية وتعليمية وثقافية، تمثلت في إنشاء مدارس ومعاهد وكليات أجنبية، ومصحات علاجية، وجمعيات أدبية وعلمية ذات صفة نصرانية؛ وامتد خطر هذه المؤسسات إلى معظم البلدان العربية، وكان تركيزهم في أول الأمر على بلاد الشام، حيث توجد طوائف نصرانية مختلفة، لأنَّ الشام كانت مهد دعوة المسيح عليه السلام، وبها كما يزعمون المقدسات.

ولقد بلغت خطورة هذه المؤسسات أنها كانت، وما زالت قائمة، تعمل على إعداد كوادر متخصصة فنية متجردة من العقيدة الإسلامية، بل مشوهة الفهم، وولاؤها للنصرانية، وعداؤها لدينها.

ولقد قاموا بتأسيس هذه المؤسسات التربوية والجمعيات في مناطق مختلفة من الشام على رأسها بيروت والقدس؛ ولقد قام المنصرون البرتوستانت الأمريكيان بإنشاء كليات تحولت بعد ذلك إلى جامعات هناك.

كما قامت هذه البعثات بتحويل إحدى المدارس إلى كلية لإعداد المعلمين، لتخريج الكوادر العربية التي استعانوا بها بعد ذلك في التوسع بإنشاء مدارس جديدة، حتى بلغ عددها في سنة (١٢٧٧هـ / ١٨٦٠م) ثلاثين مدرسة، يتلقى فيها ألف تلميذ المناهج المعدة لذلك.

وقد توجت هذه البعثات نشاطها بإنشاء الكلية البرتوستانتية السورية في بيروت، سنة (١٢٨٣هـ / ١٨٦٦م)، ووضعوا في صدارة إدارتها القس دانييل بليس، الحاصل على الدكتوراه في اللاهوت، وكان من أنشط المنصرين في جمع الأموال والتبرعات لدعم هذه الكلية من أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، ولشدة إخلاصه للتنصير كوفئ عند تقاعده في سنة (١٣٢٠هـ / ١٩٠٢م) بتعيين ولده هوارد بليس رئيساً لهذه الكلية، والتي كانت النواة الأولى للجامعة الأمريكية في بيروت، وقد أطلق عليها ذلك في سنة (١٣٣٨هـ / ١٩١٩م).



ولقد أدى هذا النشاط التنصيري في لبنان خاصة إلى تحويل عدد من الكاثوليك إلى البروتستانتية، مما أدى إلى التنازع والعداوة المذهبية، ودفع اليسوعيين لإنشاء مدارس عديدة لمواجهة نشاط البروتستانت في بيروت وزحلة ودمشق وحلب وغزير، ثم تحولت من غزير إلى بيروت، وسميت بجامعة القديس يوسف.

وبذلك تعتبر المدارس بمراحلها المختلفة، والجامعات والكليات المتخصصة، من أهم الأسس والقواعد التي استندت إليها الغزوات الصليبية الفكرية التنصيرية.

ومن المؤسف أن هذه المدارس أصبحت ظاهرة في عامة بلاد المسلمين، حتى إنه لا يوجد بلد إسلامي إلا دخلته، بل أصبح الالتحاق بها يمثل بعداً اجتماعياً لدى أفراد المجتمع المسلم، رغم التكاليف الباهظة، والتنازلات القيّمة والاجتماعية التي تقدمها الأسر المسلمة لإلحاق أبنائها وبناتها بهذه المدارس.

وهذه الظاهرة هي أثر من آثار الامتيازات الأجنبية، التي منحتها الدولة العثمانية - مع الأسف - للدول النصرانية الكبرى في بلدان المسلمين، واستغلتها تلك الدول - وخاصة فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية - استغلالاً بعيداً، كان له آثاره الخطيرة، وثمرته السيئة التي غرّبت مجتمعات المسلمين، وألبستهم ثوباً من القيم يخالف ما جاءت به الشريعة الغراء، حتى طمست الشخصية الإسلامية في كثير من مجتمعات المسلمين في العالم الإسلامي.

• موقف العلماء:

لقد وقف العلماء الربانيون - من بدايات هذه الظاهرة إلى زماننا الحاضر - موقفاً يحمد لهم في شتى أقطار العالم الإسلامي من تلك المدارس الاستعمارية الصليبية، التي لا علاقة لها بالإسلام عقيدةً ومنهجاً ولغةً وتاريخاً، بل هدفها هو العبث بهذه المقدرات في المجتمعات الإسلامية.



فلقد بين العلماء قولاً وكتابةً ونصحاً وإرشاداً أن هذه المدارس محاضنٌ فاسدة، ومواقع محفوفة بالأخطار على عقيدة الناشئة ودينهم، وأنها معاقل خيانة للمسلمين، باستعمار أبنائهم عقدياً وفكرياً وثقافياً؛ إذ إن هذه المدارس كان من أهم الأعمال المناطة بها صناعة الأجيال التي تقف في وجه الإسلام، من أبناء المسلمين أنفسهم.

فهي - بحق - البيتُ المظلمُ المعتم، والسيوف المصلّية على القلوب، وهي الخنجر المسموم الذي طُعنا به، فأصاب منا مقاتلٌ متعددة، وما زال هذا الخنجر مغروزاً في جسد الأمة، ولقد شخّص الأستاذ محمد إقبال^(١) هذه الأمر بقوله: إن التعليم الغربي هو الحامض الذي يذيب شخصية الكائن الحي، ثم يكون كما شاء، وإن هذا الحمض هو أشد قوة وتأثيراً من أي مادة كيميائية. ١.هـ.

ولقد صدق فيما قال، فها نحن اليوم نعيش بين أجيال تقول بوحدة الأديان وتغريب المرأة وتوهم المدارس، والتربية المزدوجة والمختلطة في ظل العولمة الجديدة، والله المستعان.

ولمعرفة جهود العلماء في بيان ضلال هذه المدارس والتحذير منها، يراجعُ البيانُ الأول للشيخ بكر بن عبدالله أبو زيد في رسالته «المدارس العالمية تاريخها ومخاطرها»، حيث عرض للكتب والرسائل والمقالات والفتاوى التي صدرت مع تاريخ نشرها، وهو بحث نفيس، رغم صغر حجمه، إلا أنه كبير النفع، فجزاه الله عنا خيراً.

ولقد تنوعت هذه المدارس بتنوع القائمين عليها ومذاهبهم المختلفة كما أسلفنا؛ فهناك المدارس الإنجيلية، وهناك البروتوستانتية، وهناك الكاثوليكية، وهناك اليسوعية، وهناك الأرمنية.

ومن المؤسف أن هذه المدارس تتبع الإرساليات المختلفة والبعثات التنصيرية على اختلاف مذاهب النصارى؛ وكان أول نشأة هذه المدارس في عالمنا العربي ببلاد الشام

(١) محمد نور محمد إقبال شاعر وسياسي وكاتب مسلم من باكستان، كانت أغلب قصائده وأشعاره تحض المسلمين على صيانة وحراسة الحرمين الشريفين. ولد بالبنجاب سنة (١٢٩٤هـ / ١٨٧٧م)، حفظ القرآن الكريم وهو صغير، ودرس لغات متعددة منها العربية والفارسية، ويعتبر هو أول من نادى بقيام وطن خاص للمسلمين في شبه جزيرة الهند بعد ما تعرضوا له من مضايقات من المستعمر الإنجليزي ومن الهندوس، ينزع إلى التصوف، له مواقف محمودة ومشكورة، توفي في صفر (١٣٥٧هـ / ١٩٣٨م).



وفي مصر؛ ثم بدأت تنتشر شيئاً فشيئاً في السودان والعراق وموريتانيا والبحرين، حتى عَمَّتْ وطمّت في معظم بلدان المسلمين، ومما يندى له الجبين أن خريجي هذه المدارس يُنظر إليهم بعين الرفة والمقام العالي، على النقيض من ذويهم من خريجي المدارس الحكومية الرسمية في بلداننا الإسلامية.

وأما عن المناهج الدراسية والمنظومة الدينية، فحدّث، ولا حرج، وإلى الله المشتكى.

ويبقى أن نلفت الأنظار إلى أن الكثير ممن ينتسب إلى هذه المدارس يزعم أنها مدارس علمانية، وأن هناك فرقاً بينها وبين مدارس التنصير، ففي الحقيقة هما فرعان لأصل واحد، فعندما رأى المنصّرون أن المدرسة اللاهوتية التنصيرية لا يُروج لها بسهولة، اضطروا لإنشاء المدرسة العلمانية، وهي التي تربي على المبادئ المخالفة للشريعة الإسلامية.

إن هذه المدارس إن لم تستطع تحقيق كل أهدافها المرجوة لتنصير المجتمعات، فإنها استطاعت أن تحقق هدفاً هاماً بالنسبة لها، وهو أنها خرّجت أجيالاً توالي النصرانية، وتعادي من يعاديها، وتحترم هذه المدارس والمؤسسات التنصيرية، وترى في بقائها في مجتمعات المسلمين ضرورةً حتمية لتنوير العقول، وتقديم الشعوب المسلمة.

وإن أقلّ إجابة على هؤلاء الواقع الديني والعلمي الذي تعيشه مجتمعات المسلمين اليوم؛ فهم لم يحكموا شرعتهم بدعوى أنها كانت سبباً في التخلف، ولم يحققوا التقدم العلمي المنشود، لأن تلك المدارس أغرقتهم في بيان الحرية الفاسدة والشهوات والتحرر من الانضباط الديني.

قال تعالى محذراً منهم في أكثر من موضع في القرآن الكريم منها: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَىٰ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٌ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٧١]. وقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٢١].



• نشاط الجمعيات الأدبية والعلمية:

تنوعت الوسائل التي استخدمتها الأنشطة التنصيرية، ومن ذلك تشكيل جمعيات تحت مسمى الجمعيات الأدبية والعلمية، وكان من أشهرها (جمعية الآداب والعلوم)، التي أنشئت في بيروت في سنة (١٢٦٤هـ / ١٨٤٧م)، والتي تألفت من خمسين عضواً، لم يكن بينهم مسلم واحد، وإنما هم خليط من المنصرين الأمريكيين والبريطانيين، ثم اتسعت، وشملت نصارى الشام، وعلى رأسهم نصيف اليازجي^(١) وبطرس البستاني^(٢)، وقام اليسوعيون بإنشاء (الجمعية الشرقية) سنة (١٢٦٧هـ / ١٨٥٠م) على نسق وقرار (جمعية الآداب والعلوم).

(١) نصيف بن عبد الله بن جنبلاط بن سعد اليازجي، ولد في سنة (١٢٠٧هـ / مارس ١٨٠٠م)، وتوفي في سنة (١٢٧٨هـ / ١٨٧١م)، ولد في قرية كفر شيبا بسواحل لبنان، في أسرة اليازجي، وأصله من حمص، قام بترجمة الإنجيل والعهد القديم إلى العربية، كان له اتصال بالرساليات الأمريكية التنصيرية، وعمل معهم مدرساً، كما عمل مع بطرس البستاني بالمدرسة الوطنية التي افتتحها في بيروت، وعمل بالمدرسة البطريركية وفي الكلية الإنجيلية السورية، دعا إلى النعرات القومية، فهو أحد محركي حركة القومية العربية في مواجهة الديانة الإسلامية، أصيب بالشلل في آخر أيامه إلى أن توفي.

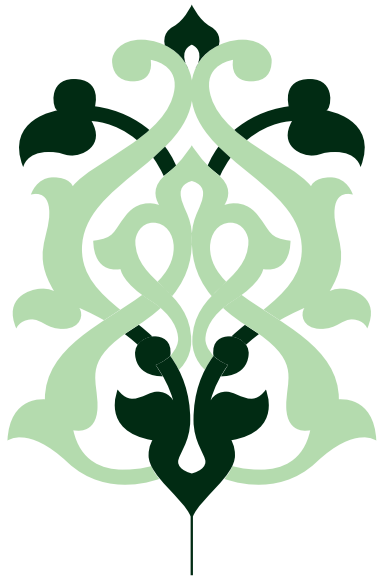
(٢) بطرس بن بولس بن عبد الله البستاني، ولد في قرية الديبة من مناطق الشوف في لبنان سنة (١٢٢٦هـ / ١٨١٩م)، لأسرة مارونية مشهورة بتعصبها للنصرانية، أطلق عليه المعلم بطرس، له موسوعة سميت: «بداية المعارف»، تلقى علومه الكنسية في اللاهوت وشرعة النصارى، واتصل بالبعثات التنصيرية الأمريكية، وعمل معهم مدرساً و مترجماً للكنسالية الأمريكية في بيروت، أنشأ جريدة نفيير سورية التي كانت تبث سموم دعوة العرب للانضواء تحت راية العروبة بدلاً من الخلافة الإسلامية، كما أنشأ صحفاً سياسية أخرى مثل «الجنان» و«الجنة» و«الجنينة».

أسس المدرسة الوطنية التي التحق بها الكثير من أبناء المسلمين، والذين ساهموا بعد ذلك في إنشاء المجتمعات العلمانية في الشام، وله معجم «محيط المحيط»، وهو أول قاموس عصري في اللغة العربية الذي نال عليه وسام من السلطان العثماني، كان يرفع دائماً شعار العلمانيين: الدين لله والوطن للجميع، ساهم في ترجمة الإنجيل المحرف إلى اللغة العربية مع نصيف اليازجي وعلي سميت وكرونولوس فاندايك ويوسف الأزهري، توفي سنة (١٢٩٠هـ / ١٨٨٣م). الزركلي / الأعلام (٥٨/٢) / بتصرف.



الفصل السادس

الحرب العالمية الأولى (١٣٣٢ - ١٣٣٧ هـ / ١٩١٤ - ١٩١٨ م)



أهمُّ المظاهر والأحداث
في عصر الخلافة العثمانية

((٥))



كانت الصراعات الدولية في بدايات القرن الثالث عشر الهجري، ونهايات القرن التاسع عشر الميلادي، بين القوى الكبرى آنذاك على أشدها، خاصة مع ضعف الدولة العثمانية أكبر الدول التي أخذت في الانهيار السريع، ومحاولات الدول الأخرى السيطرة على إرثها، ومن سيكون له النصيب الأكبر من ذلك الإرث.

وقد اعتري هذه الصراعات والخلافات مرحلة من التوافق على أصل وهدف واحد، بين الدول الصليبية، وهو إنهاء دور الدولة العثمانية والخلافة الإسلامية في التاريخ.

لذلك نجد أن هذه الدول قامت سياستها وعلاقتها على المصالح والمنافع، فتارة بريطانيا تقف إلى جوار الدولة العثمانية، في صراعها مع روسيا، خشية أن تنفرد روسيا بإرث العثمانيين وحدها، ولم تكن فرنسا بعيدة أيضاً عن هذا، وتارة يتحالفون جميعاً على الدولة العثمانية، من أجل هدفهم السالف الذكر، وهذا ما اتضح جلياً في اتفاقية سايكس بيكو السرية التي وُقعت بين روسيا القيصرية، وبريطانيا، وفرنسا، والذي تم فيها تقسيم إرث الدولة العثمانية، وأطلقوا عليها اسم رجل أوروبا المريض.

ولا شك أن الصراع دائماً بين الأمم يرتبط بعدة عوامل دينية واقتصادية وقومية، تؤدي في النهاية إلى تضارب المصالح بين تلك القوى المتصارعة، وهذا تماماً ما كان سبباً رئيساً في اندلاع الحرب العالمية الأولى، أو الحرب الكونية، كما أسماها السلطان عبد الحميد رحمه الله في «مذكراته»، والذي كان متوقعاً وقوعها بين عشية وضحاها، بسبب تلك الصراعات والتحالفات المختلفة والمتباينة بين هذه القوى.

ولقد سبق هذه الحرب ظروف وعوامل، هيأت لوقوعها، وهذا ما نستعرضه بشكل موجز فيما يأتي.

• الأوضاع الدولية بين يدي الحرب العالمية الأولى^(١):



– التكتلات والتحالفات الدولية:

تشكلت تحالفات وتكتلات بين بعض الدول الكبرى في أوروبا، بسبب تراجع دور الدولة العثمانية والصراع على ممتلكاتها في أوروبا، واصطدام المصالح بين الدول المتصارعة في تلك المناطق، وظهر ذلك جلياً في التحالف بين ألمانيا والنمسا^(٢) وروسيا القيصرية، فيما سُمي بعصبة الأباطرة في سنة (١٢٨٩هـ / ١٨٧٢م)، والذي لم يدم طويلاً، بسبب خروج روسيا منه بعد خمس سنوات، لتضارب مصالحها وأطماعها مع النمسا في منطقة البلقان، ووقوف ألمانيا إلى جانب النمسا ضد روسيا، والذي تمخض عنه تحالف جديد بين ألمانيا والنمسا وإيطاليا سنة (١٢٩٩هـ / ١٨٨٢م)، وقد تكون هذا الحلف بسبب تطور مفهوم المسألة الشرقية والصراع على ممتلكات الدولة العثمانية في البلقان.

وفي مقابل هذا تَكُون حلف آخر بين فرنسا وروسيا وإنجلترا، للوقوف في وجه ألمانيا، المارد الأوروبي الذي بدأ يبرز دوره بقوة، وذلك في سنة (١٣١٢هـ / ١٨٩٤م).

(١) راجع د. محمد علي حلة «محاضرات في تاريخ أوروبا المعاصر».

(٢) تألفت إمبراطورية النمسا آنذاك من النمسا والمجر سوياً.

وقد ترتب على هذا التحالف عقد اتفاقات ودية بين بريطانيا وفرنسا من جهة، في سنة (١٣٢٢هـ / ١٩٠٤م)، ومعاهدة بين بريطانيا وروسيا من جهة أخرى، بشأن نفوذ الدولتين في إيران وأفغانستان والتبت، في سنة (١٣٢٥هـ / ١٩٠٧م).

– الأسباب التي أدت إلى الحرب العالمية الأولى:

١. الأزمات الدولية:

عملت الدول الأوروبية على توطيد نفوذها في المناطق التي احتلتها، أو التي تنوي احتلالها في العالم الإسلامي، وخاصة فرنسا التي أرادت أن تنفرد بالمغرب الأدنى (مراكش)، وتسيطر عليه سيطرة تامة، فواجهتها ألمانيا، ووقفت عائقاً أمامها، وتصاعدت الأزمة عندما احتلت فرنسا مراكش، على أثر قيام نزاع داخلي، بسبب ثورة أحد الأمراء المغاربة على مولاي عبد الحفيظ سلطان مراكش^(١)، فاستنجد السلطان بفرنسا، التي وجدت فيها فرصة ذهبية لها لاحتلال مراكش، فأرسلت حملة عسكرية، استطاعت بها فرض سيطرتها على مراكش، مما أدى إلى أزمة بين الدولتين، سميت بأزمة أغادير^(٢)، تمكنت ألمانيا على أثرها من الحصول على بعض مستعمرات فرنسا في أفريقيا، من أجل غض الطرف عن احتلال فرنسا لمراكش، ورغم ذلك فإن هذا لم يمهّن التوتر بين الدولتين.

وأتاح هذه الأزمة الفرصة لإيطاليا لتحقيق أمنية الاستيلاء على طرابلس الغرب؛ فأعلنت الحرب على الدولة العثمانية في ليبيا سنة (١٣٢٩هـ / ١٩١١م)، وانتهت بهزيمة العثمانيين، الذين قادهم أنور باشا أحد زعماء حكومة الاتحاد والترقي.

اضطرت الدولة العثمانية بعد هذه الهزيمة أن تتنازل عن طرابلس، بموجب معاهدة

(١) عبد الحفيظ بن الحسن بن محمد الحسن العلوي أبو المواهب، من سلاطين الدولة العلوية في مراكش، كان فقيهاً وأديباً، ولد بفاس، ونشأ في قبيلة بني عامر، وعند وفاة والده السلطان، تولى أخوه عبد العزيز والذي انتدب عبد الحفيظ والياً له بمراكش، فنودي به سلطاناً سنة ١٣٢٥هـ على مراكش.

مات في سنة (١٣٥٦هـ / ١٩٧٣م). الزركلي / الأعلام (٣/ ٢٧٧).

(٢) أزمة أغادير: عندما قامت فرنسا باحتلال مراكش أثار ذلك ألمانيا، فأرسلت طراداً عسكرياً (اسمه بانثير Panther) في يوليو (١٩١١م) لمواجهة فرنسا في ميناء أغادير المغربي، معلنة بذلك احتجاجها على فرنسا التي خالفت قرارات مؤتمر الجزيرة المتعقد سنة (١٣٢٤هـ / ١٩٠٦م)، والتي نصت على سيادة سلطان مراكش واستقلاله ووحدة بلاده، ونصت أيضاً على المساواة في التعاملات والعلاقات التجارية بين مراكش وجميع الدول.

وكادت أن تقع أزمة دولية كبرى بين دول أوروبا بسبب هذا الأمر، لذا اضطرت فرنسا أمام ذلك أن تفاوض ألمانيا، وتتنازل لها عن بعض مستعمراتها في الكونغو والكاميرون وتوجو، مقابل ألا تقف ألمانيا في وجهها عند فرض حمايتها على مراكش.

لوزان الأولى في (١٣٣٠هـ / ١٩١٢م)، وكذلك التنازل عن بعض الجزر في بحر إيجه، وقد اندفعت الدولة العثمانية لإيقاف هذه الحرب، والتوقيع على هذه المعاهدة بسبب تكوين عصابة البلقان (اليونان - البلغار - الصرب)، وإعلانها الحرب على الدولة العثمانية التي ما كانت تستطيع في هذه الظروف أن تقاتل في عدة جبهات.

٢. الصراع القومي في البلقان:

تأزمت الأمور بين روسيا والنمسا بسبب ضم النمسا لإقليمي البوسنة والهرسك^(١)، مما أشعل الصراع بين النمسا وروسيا، ورفع من حدة التوتر بين الدول الصليبية في صراعها على البلقان.

ومن جهة أخرى كانت روسيا تعمل على دعم شعوب البلقان، للثورة على الدولة العثمانية، حتى وقعت حرب البلقان، والتي خسرت فيها الدولة العثمانية معظم أراضيها هناك، وتوسعت شعوب البلقان على حساب العثمانيين بدعم ومساعدة روسيا لها.



دول البلقان

(١) كان إقليمي البوسنة والهرسك تحت السيادة العثمانية إلى مؤتمر برلين المنعقد سنة (١٢٩٥هـ / ١٨٧٨م)، والذي كان من قراراته أن تبقى هذه السيادة العثمانية على الإقليمين سيادة اسمية، وأوكل المؤتمر إدارة الإقليمين لإمبراطورية النمسا.



غير أن فراغ البلقان من العثمانيين أوجد صراعاً على أشده بين شعوب تلك المنطقة، على مساحة كل دولة منهم، مما أدى إلى عقد مؤتمر لندن في (١٣٣٠هـ / ديسمبر ١٩١٢م)، والذي استمر لعشرة شهور، لإقرار الحدود بين دول وشعوب البلقان، وقد خسرت بهذا المؤتمر صربيا ميناءً دورازو الذي انتزع منها، والذي يعطيها منفذاً بحرياً وحيداً، ولم يحقق المؤتمر آمال الصرب في إنشاء صربيا الكبرى.

كما إن المؤتمر جعل البلغار يخرجون أكثر نقمة على المؤتمر والمجتمعين، لأن بلغاريا أصبحت أقل الدول مساحة محددة، فلقد حصلت اليونان وصربيا على حسابها على مساحات شاسعة.

أدى ذلك في النهاية إلى وقوع الحرب بين الدول الثلاث بلغاريا من جهة، واليونان وصربيا من جهة أخرى، وانتهت بهزيمة ساحقة لبلغاريا، والتي زحفت عليها رومانيا حتى هددت صوفيا مستغلة الموقف لتوسيع مساحتها، ولم يكن من مصلحتها تفوق البلغار.

كما استطاعت الدولة العثمانية أن تقوم باسترداد أدرنة عاصمتها القديمة من أيدي البلغار.

وعلى ضوء ذلك عُقد مؤتمر بخارست في أغسطس (١٩١٣م) للفصل بين الدول المتنازعة، وحُرمت فيه بلغاريا من نصف أملاكها تقريباً، وأُغلق في وجهها جميع المنافذ البحرية، وأصبحت بذلك صربيا أقوى دول البلقان، مما أثار إمبراطورية النمسا التي كانت تخشى من نمو صربيا، فكانت هذه الصراعات والمعاهدات واحدةً من أهم الدوافع التي مهدت لقيام الحرب العالمية الأولى.

٣. الصراع في الشرق الأقصى:

كان الصراع في الشرق الأقصى بين اليابان والصين على أشده، وتمكنت اليابان من هزيمة الصين في سنة (١٣١٣هـ / ١٨٩٥م)، واستولت اليابان على بعض المناطق من الصين، مما أدى إلى أزمة بين اليابان وروسيا، التي كانت لها أطماع في المناطق الصينية المحاذية لها، وترتب على ذلك وقوع صراع استعماري على كوريا بين الدولتين، فوقع الحرب الروسية اليابانية (١٣٢٢هـ / ١٩٠٤م)، حيث تمكنت اليابان من هزيمة روسيا والتوغل



في مناطق منشوريا، ثم تم عقد معاهدة بورتسموث بين الدولتين في سنة (١٣٢٣هـ / ١٩٠٥م)، بوساطة الرئيس الأمريكي ثيودور روزفلت، وقد كانت هذه الحرب سبباً لبروز اليابان كقوة عظمى، وبداية النهاية لروسيا القيصرية، حيث ساعدت على اندلاع الثورة الروسية بعد ذلك.

لم تقف أحلام اليابان عند هذا الحد، بل أرادت السيطرة على ما هو أكثر مما تحت يدها، فقامت بضم كوريا إليها سنة (١٣٢٨هـ / ١٩١٠م)، مما أقلق الولايات المتحدة الأمريكية من امتداد نفوذ اليابان إلى الفلبين، المستعمرة التابعة لأمريكا آنذاك، فأحدث ذلك تهديداً أمريكياً لليابان، ترتب عليه أزمة بين الدولتين.



خريطة اليابان وجنوب شرق آسيا

٤. سباق التسلح:

اهتمت القوى العالمية بالتطور العلمي الكوني، وخاصة في جانب التسليح العسكري، معتقدة بأن هذه القوة هي وحدها القادرة على تحقيق النفوذ والمكاسب، فأدى ذلك إلى سباق كل دولة إلى اقتناء أكبر قدر من السلاح البحري والبري، وزيادة عدد جنودها وقواتها، وأصبحت كل قوة من هذه القوى تنتظر متى يمكن لها أن تثبت أنها الأقوى في



العالم، وخاصة أن بعض هذه الدول قد استطاعت تصنيع الطائرات، التي ظهرت لأول مرة في ميادين القتال في الحرب العالمية الأولى.

ومع الأسف حدث ذلك في الوقت الذي كان العلمانيون والاتحاديون يُغرقون الدولة العثمانية في مشكلات وانحرافات، بعدت بها كل البعد عن أن تطور نفسها، وتتأهل لدورها الرائد للعالم الإسلامي، وتحاكي هذه القوى في تطورها وتنافسها في سباق التسليح، مما جعلها صريعة لهذه القوى المتنافسة أثناء دخولها الحرب.

٥. التنافس الاقتصادي:

استطاعت الدول الكبرى في العالم - من أواسط القرن التاسع عشر، إلى بدايات الحرب - تطوير نفسها، والاستفادة من التطور العلمي، وإحداث ثورة صناعية مذهلة، مما أدى إلى تقدم اقتصادي هائل لتلك الدول، والتي قامت بإنتاج كميات ضخمة ووفيرة من المصنوعات والبضائع المتنوعة، تحتاج لإيجاد أسواق لتصريفها.

وكذلك كانت هذه الدول تسعى لتأمين الحصول على المواد الخام الأولية اللازمة لصناعتها، مما ساهم في حركة الاستعمار والتنافس بين تلك الدول، التي كان على رأسها فرنسا وبريطانيا، واللتان حصلتا على النصيب الأكبر مما لم تحصل عليه القوى الأخرى، والتي تأثرت مصالحها الاقتصادية، فرفع ذلك وتيرة حدة التوتر الدولي والأزمات بين الدول الأوروبية.

٦. الدعوات القومية:

استطاعت الدولة العثمانية في زمان قوتها أن تضمّ بين جنبتها قوميات مختلفة وشعوباً متباينة الأفكار والمذاهب، ولم تدرك الدولة العثمانية أن هذا التباين بين الشعوب والعنصرية سيؤدي يوماً ما إلى صراع بينها، وأن أفضل سبيل لانصهار هذه القوميات في بوتقة واحدة هو دعوة هذه الشعوب للدخول إلى الإسلام السمح، الذي لم يفرق بين عربي وعجمي، بل دعا إلى نبذ القوميات والعنصرية والشعبوية، غير أن الدولة العثمانية لم تنح هذا المنحى، في دعوة الشعوب الأوروبية، التي كانت تحت يدها، وكان ذلك أحد



أسباب خروجها من أوروبا، وخروج تلك المناطق من يدها. ومع ضعف الدولة العثمانية بدأت تلك الشعوب، وخاصة في مناطق البلقان، تدعو إلى الاستقلال وقيام الوحدة بين شعوبها المنحدرة من عرق واحد. كما كان ضم ألمانيا لإقليمي الألزاس واللورين الفرنسيين في سنة (١٢٨٧هـ / ١٨٧٠م) مثيراً لعاطفة الفرنسيين لعرقهم، مما أدى إلى التنافر بين الشعبين الفرنسي والألماني، وصعوبة التقارب بين الدولتين. كما طالبت إيطاليا النمسا بإعادة الأراضي التي تحت سيطرتها، وفيها شعوب تتحدث الإيطالية. ومثلها دعت الرابطة الجرمانية الإمبراطورية الألمانية إلى ضم جميع الألمان الذين يعيشون في الخارج إلى ألمانيا. وهكذا تنامي الشعور القومي العرقي لدى تلك الشعوب، خاصة بعد انتهاء حرب البلقان الثانية مع الدولة العثمانية، وحصول بلغاريا وصربيا واليونان وألبانيا على الاستقلال، مما أدى إلى التوتر في العلاقات بين الدول؛ وقد ظهر ذلك جلياً أثناء وقوع الحرب العالمية الأولى. ومما ينبغي ذكره أن الصحافة كان لها دور ومظهر هام في التمهيد للحرب، فلقد عملت على زيادة التقارب بين دول الوفاق من جهة، وتعميق العداء والفرقة بين دول الحلف الثلاثي من جهة أخرى، مما كان له أثره على تعميق الكراهية بين شعوب تلك التحالفات، فضلاً عما بين حكوماتها من البغضاء. ولقد هوّنت الدعاية الصحفية من قدرة المؤتمرات على حل الأزمات والمشكلات، بل إنها زادت اشتعالاً، حتى بدا سؤال على لسان الساسة وصانعي القرار وفي الصحافة وهو: أي الكتلتين الأقوى، الوفاق أو التحالف؟ وأصبح هناك معتقداً أن الإجابة على ذلك لا تكون إلا بالمواجهة العسكرية.

٧. النار تأتي من مستصغر الشرر: السبب المباشر للحرب «حادثة سرايفو»:

بعد أن ضمت النمسا إقليمي البوسنة والهرسك، تشكلت جماعات وحركات صربية ثورية مضادة للنمسا، واعتبرت هذه الجماعات أن النمسا احتلت جزءاً هاماً من صربيا الكبرى، التي يحلمون بها، وأن عليهم الكفاح والقتال بكل الوسائل من أجل استرداد الإقليمين، وأثناء قيام ولي عهد النمسا فرانز فريدناند وزوجته صوفي بزيارة لسرايفو (عاصمة البوسنة)، وعند سيرهما في سيارة مكشوفة، قام شاب صربي ينتسب إلى إحدى هذه الجماعات - يدعى جيفرلو برنسيب^(١) - بإطلاق الرصاص على ولي عهد النمسا وزوجته، فأرداهما قتيلين في سنة (١٣٣٢هـ / ١٩١٤م).

وقد ترتب على هذا الحادث أزمة دولية كبرى، بدأت بإعلان النمسا الحرب على صربيا، وأرسلت إنذاراً لصربيا في (٢٣) يوليو (١٩١٤م)؛ وقد قبل الصرب، وخضعت حكومتهم لمعظم مطالب النمسا، والتي تكاد تنتزع منهم الاستقلال، غير أن النمسا أصرت على الموافقة على جميع مطالبها في الإنذار، واعتبرت أن ذلك رفضاً من صربيا، فأطلقت عليها شرارة الحرب في (١٣٣٢هـ) / (٢٨) يوليو (١٩١٤م)، وأيدتها ألمانيا ودعمتها في هذه الحرب.

وفي المقابل قامت روسيا بالوقوف إلى جوار صربيا بتأييد من فرنسا وبريطانيا؛ فتكون حلف ثلاثي بين بريطانيا وفرنسا وروسيا، سمي بدول الوفاق الثلاثي أو دول الحلفاء، الذين أعلنوا الحرب على كل من ألمانيا والنمسا اللتين سُمّيتا بدول الوسط، ثم تطورت هذه الحرب، بين النمسا وصربيا، إلى حرب بين دول أوروبا، التي اتسعت العمليات العسكرية فيما بينها في حرب دامت أربع سنوات؛ وتحولت من حرب أوروبية إلى حرب عالمية.

(١) جيفرلو برنسيب: شاب قومي صربي من صرب البوسنة والهرسك، يهودي الديانة، وقيل نصراني، ولد في (١٣١٢هـ / ١٨٩٤م)، كان عضو في مجموعة معروفة باسم الاتحاد أو الموت وهي منبثقة من مجموعة بوسنة الشابة، ثم حاول الالتحاق بمجموعة عرفت باسم اليد السوداء، غير أنه رُفضت عضويته، ثم تقدم لمجموعة أخرى أيضاً، رفضت ضمه إليها، مما كان أحد الدوافع لقيامه بعملية اغتيال ولي عهد النمسا فرانز فريدناند وزوجته صوفي، ليثبت أنه قادر على القيام بعمل شجاع، وتم القبض عليه وعلى زملائه، وقد مات في السجن في سنة (١٣٣٤هـ / ١٩١٨م)، دون أن يعلم أن فعله هذا جر على العالم أجمع وبال حرب، كانت سبباً في قتل وتشريد الملايين من البشر، وإهدار موارد الثروة الهائلة، وتغيير خارطة العالم. «الموسوعة الحرة» / الشبكة العنكبوتية.



فكانت هذه الطلقات التي انطلقت من سلاح ذلك الشاب الصربي جيفرلو برنسيب هي الشرارة التي أشعلت نار الحرب العالمية الأولى بكل آثارها^(١).

• الدولة العثمانية وقرار دخول الحرب:

بدأت الحرب في ظاهرها بين الدول الأوروبية، وكان مسرحها داخل أوروبا، وفي قرار خاطئ ومنذفع انضمت الدولة العثمانية إلى جانب دول الوسط، بحجة معاهدات تحالف وميثاق عسكري بينها وبين ألمانيا من جانب، ومن جانب آخر تنفيذاً للتعاون الألماني العثماني في جميع المجالات، ولمنع مرور الإمدادات الحربية والدعم العسكري للجيوش الروسية، عبر مضيق البسفور والدرديل إلى البحر الأسود، وكذلك لوقف الأطماع الروسية في أراضي الدولة العثمانية، ولثأر الدولة العثمانية من روسيا خصمها اللدود.

لقد كان قرار حكومة الاتحاد والترقي بدخول الحرب كارثة وطامة، جردت الدولة العثمانية مما تحت يدها في الشرق، وخاصة البلاد العربية التي جُرّت إلى حرب، لا علاقة لها بها، وترتب على ذلك عواقب وخيمة، ومصائب فادحة، للعثمانيين وللعرب.

يقول الأستاذ يلماز أوزتونا: ومن الحقائق التي لا يمكن إنكارها، تجهيز أنور باشا للجيش العثماني بصورة فائقة خلال مدة قصيرة، وبجهود جبارة، وتمكن من تأسيس قوة برية ذات طاقة حربية عالية جداً، يخشى جانبها، وأزال آثار هزيمة حرب البلقان.

لكن ما الفائدة؟ فهذا الجيش العظيم بدلاً من أن يكون حارساً ومحافظاً على المصالح العثمانية، أُتلف في معركتي جنا قلعة، وصاري قامش، بعد مرور سنة واحدة.

(١) لما سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه عمرو بن معد يكرب عن الحرب، قال: مرة المذاق، إذا أقلصت عن ساق؛ من صبر فيها عرف، ومن ضعف عنها تلف، وهي كما قال الشاعر:

الحرب أول ما تكون فتية	تسعى بزيبتها لكل جهول
حتى إذا استعرت وشب ظلامها	عادت عجوزاً غير ذات خليل
شمطاءً جزت رأسها وتنكرت	مكروهة للشم والتقبيل



ثم يضيف: لو كانت الدولة العثمانية قد تمكنت من تفويت سِنِّي الحرب، وهي محافظة على حيادها، لما أمكن للدول الأوروبية أن تعترض على أي عمل تجريه الدولة العثمانية من هذا القبيل، وما أمكن الطرف المنتصر أن ينتقم من العثمانية.

لقد ارتكب رجال الاتحاد والترقي عملاً جنونياً بقرار دخول الحرب إلى جانب ألمانيا، وكان رائد هذه الكارثة أنور باشا، وطلعت بك، وجمال باشا بوجه خاص.

فأقحموا الدولة في أكبر حرب سجلها التاريخ إلى زمانهم، وانضموا للطرف المحتمل خسارته، دون علم السلطان، والصدر الأعظم، والحكومة، والبرلمان؛ ولو لم تدخل الحرب، لكان لها عند نهايتها جيش عثماني، يقف على قدميه، لا تجسر أي دولة على أن تمسه بسوء، ولما تعرضت لضياح الثروات والبشر بالقدر الذي فاق الخيال، ولما تهدمت، واحترقت الأناضول، ولما هلك في معركة جنا قلعة ومعركة صاري قامش، وصحراء سيناء، وفي صقاريا، شباب محبون لأوطانهم، نشؤوا نشأة خارقة للعادة، ولما ضاعت الأقطار العربية من يد الدولة، وتركت تحت وطأة الاستعمار الإنجليزي والفرنسي^(١).

• اتساع نطاق الحرب:

بدأت الحرب تتسع شيئاً فشيئاً، وخرجت عن إطار الساحة الأوروبية، لتأخذ طابع العالمية بانضمام اليابان إلى جانب الحلفاء «دول الوفاق الثلاثي»، ودخول الحرب ضد ألمانيا، فقامت بالاستيلاء على مناطق النفوذ الألماني في جزر المحيط الهادي وفي الصين.

كما انضمت بلغاريا إلى دول الوسط في سنة (١٣٣٣هـ / ١٩١٥م)، وكذلك إيطاليا واليونان، ثم رومانيا في سنة (١٣٣٤هـ / ١٩١٦م)، وفي سنة (١٣٣٥هـ / ١٩١٧م) انضمت الولايات المتحدة الأمريكية إلى جانب دول الحلفاء «الوفاق الثلاثي»، للوقوف في وجه ألمانيا، وكبح جماح نفوذها وسيطرتها، وأيضاً من أجل المصالح المالية للمصارف الأمريكية، حيث إنها كانت قد أقرضت بريطانيا وفرنسا مبالغ كبيرة فاتخذت القرار

(١) «تاريخ الدولة العثمانية»، (٢/ ٢٢٨) بتصرف. يقصد الكاتب أن الحياد كان سيضمن للدولة العثمانية التطور والتقدم والحفاظ على قوتها، وأما الأمم الأخرى المتحاربة، فتكون قد بذلت كل ما في جعبتها في القتال والحرب وتخرج مفلسة، لا قدرة لها على مواجهة الدولة العثمانية أو غيرها.



لتمكن من أن تستوفي ديونها، وبضغط صهيوني، خاصة أن هذه المصارف معظمها يملكها اليهود في أمريكا، وكذلك ليضمن اليهود انتصار الحلفاء، وعلى رأسهم بريطانيا التي وعدتهم بإنشاء وطن قومي لهم في فلسطين.

• الولايات العربية والحرب العالمية الأولى:

اختلفت أحوال الولايات العربية وموقفها من الحرب كل بحسبها؛ ففريق منها بقي تحت السيادة العثمانية إلى وقت دخول الحرب، وفريق آخر كان تحت الاحتلال الصليبي الأوروبي، ولقد كان لكل منهم مواقف مختلفة على النحو التالي:

أولاً: موقف الولايات العربية التي تحت السيادة العثمانية:

يقصد بالولايات العربية التي تحت السيادة العثمانية العراق والشام والحجاز وأجزاء من شبه الجزيرة العربية واليمن.

١. العراق: ظلت العراق في تبعية الدولة العثمانية إلى دخول الحرب العالمية الأولى، وقد استغلت بريطانيا قرار الدولة العثمانية دخول الحرب، فأسرعت، وقامت بعملية إنزال لقواتها جنوب العراق في البصرة ذات الموقع الاستراتيجي الهام على رأس الخليج العربي، ومفتاحه إلى المستعمرات البريطانية في الشرق، كما إن هذا الميناء الهام يقع إلى جوار مناطق التنقيب عن البترول.

عندما تغيرت مسيرة الحرب، وبدأت تتضح رجحان كفة الحلفاء وخاصة الإنجليز في هذه المناطق، قامت بريطانيا باحتلال العراق في سنة (١٣٣٥هـ / ١٩١٧م)، وأسرعت بإنشاء قاعدة عسكرية لها، كما ربطت العراق بحكومتها في الهند.

٢. الشام: تعد الشام بولاياتها من أهم ولايات الدولة العثمانية العربية، فهي المتاخمة والمتداخلة مع حدود الأناضول، وأقرب الولايات العربية إلى الدولة العثمانية، وهي مسرح العمليات العسكرية العثمانية، والخط الدفاعي الهام عن الأناضول.

أصبحت الشام منطلقاً هاماً للقوات العثمانية، تحركت منه للهجوم على القوات البريطانية في قناة السويس، ولكن مع الأسف مُنيت القوات العثمانية بهزيمة، أدت إلى انسحابها إلى

فلسطين، وقامت القوات البريطانية بالتقدم نحو القدس، بقيادة اللورد ألنبي^(١)، الذي التقى فيصل بن الحسين^(٢) بقواته القادمة من الحجاز حسب اتفاق مسبق مع بريطانيا، لمواجهة الدولة العثمانية وإخراجها من الولايات العربية، ولقد قاتل الضباط العثمانيون قتالاً مستميتاً دفاعاً عن بيت المقدس، وأزهقت منهم أرواح فداءً لذلك، غير أنهم هزموا في النهاية، ودخل الإنجليز إلى بيت المقدس، وقال اللورد ألنبي آنذاك كلمته الشهيرة: اليوم انتهت الحروب الصليبية.

٣. الحجاز: موقف شريف مكة الحسين بن علي^(٣): عملت بريطانيا على كسب ودِّ

(١) اللورد ألنبي: إدموند هنري هاينان ألنبي، ضابط وإداري بريطاني، اشتهر بعدائه للإسلام وخاصة في الحرب العالمية الأولى، والتي قاتل فيها المسلمين في بيت المقدس، ودخله قاتلاً: اليوم انتهت الحروب الصليبية.

عمل كمندوب لبريطانيا في مصر، وبعد تقاعده سنة (١٣٤٣هـ / ١٩٢٥م) عاد إلى بريطانيا، فعمل كرئيس لجامعة أدنبره، ثم هلك في سنة (١٣٥٥هـ / ١٩٣٦م)، عن عمر ناهز (٧٥) سنة، ودفن في كنيسة وستمنستر. الموسوعة الحرة على الشبكة العنكبوتية.

(٢) فيصل بن الحسين بن علي أبو غازي ملك العراق، ولد بالطائف سنة (١٣٠٠هـ)، وترعرع في خيام بني عتيبة في بادية الحجاز، رحل مع أبيه حين أبعد إلى إسطنبول سنة (١٣٠٩هـ / ١٨٩١م)، ورجع معه سنة (١٣٢٦هـ).

أُختبر نائباً عن مدينة جدة في مجلس النواب العثماني سنة (١٣٣١هـ / ١٩١٣م)، فأخذ يتنقل بين الحجاز وإسطنبول، زار دمشق سنة (١٣٣٤هـ / ١٩١٦م)، وأقسم يمين الإخلاص لجمعية العربية الفتاة السرية.

عند ثورة أبيه ضد الدولة العثمانية، وتحالفه مع الإنجليز تولى قيادة الجيش الشمالي، ثم سُمي قائداً عاماً للجيش العربي المحارب إلى جانب القوات البريطانية، كما سافر نائباً عن أبيه إلى مؤتمر الصلح في باريس بعد الحرب العالمية الأولى، ولما لم ينل مراده رجع إلى سورية ونودي به ملكاً على البلاد سنة (١٣٣٨هـ).

وعند بداية تنفيذ اتفاقية سايكس بيكو احتلت القوات الفرنسية سورية بعد موقعة ميسلون في سنة (١٣٣٨هـ / ١٩٢٠م)، فاضطر أن يرحل إلى أوروبا، فأقام في إيطاليا مدة، ثم غادرها إلى بريطانيا، ثم دعت الحكومة البريطانية لحضور مؤتمر القاهرة سنة (١٣٣٩هـ / ١٩٢١م)، برياسة ونستون تشرشل، ورُشح ملكاً للعراق، فقام بوضع دستور للبلاد، وأنشأ مجلس الأمة، وأقام العلاقات الودية بينه وبين بريطانيا.

قصد سويسرا للاستجمام بها في سنة (١٣٥٢هـ / ١٩٣٣م) فتوفي بالسكتة القلبية في عاصمتها برن بفندق بلفو، ونقل جثمانه إلى بغداد، فدفن فيها. الزركلي / الأعلام (١٦٥-١٦٦).

(٣) الشريف حسين بن علي: الملك حسين بن علي بن محمد بن عبد المعين بن عون، من أحفاد أبي نمي بن بركات الحسني الهاشمي، آخر من حكم مكة من الأشراف الهاشميين، ولد في إسطنبول، وكان أبوه منفياً بها، ثم انتقل معه إلى مكة وعمره ثلاث سنوات، أحبه عمه الشريف عبد الله باشا أمير مكة، فاستعمله في مهام متعددة، دخل نجداً، وأحكم صلته بالقبائل، وعند وفاة أبيه وعمه آلت إمارة مكة إلى عمه الثاني عون الرقيق الذي لم يتحمل تدخلات حسين بن علي في شؤون الإمارة، فطلب من الخلافة العثمانية إبعاده عن الحجاز، فنفي إلى إسطنبول سنة (١٣٠٩هـ)، وعُيِّن فيها عضواً في مجلس شورى الدولة، وبعد وفاة عمه عون الرقيق، ثم عمه الآخر عبد الإله عينته الدولة أميراً لمكة سنة ١٣٢٦هـ، فعاد إليها.

وعند نشوب الحرب العالمية الأولى (١٣٣٢هـ / ١٩١٤هـ) اتصل البريطانيون بحسين بن علي، وكاتبوه من أجل التعاون معه للوقوف إلى جوارهم في الحرب، مقابل أن يقيموا له دولة، يكون فيها ملكاً على العرب.

حاول أن يكون خليفة على المسلمين عندما ألغيت الخلافة سنة (١٣٤٣هـ / ١٩٢٤م)، ولذلك زار عمان، فبايعته بعض القبائل القليلة بالخلافة، ورجع إلى مكة ملقباً بأمير المؤمنين.

وقع بينه وبين عبد العزيز آل سعود خلاف، بسبب منعه حجاج نجد دخول الحجاز لأداء فريضة الحج، مما دفع عبد العزيز آل سعود أن يتقدم إلى الطائف، واستطاعت قواته أن تمزق جيش الحسين بن علي المراتب فيها، ولما بلغت أخبار ذلك إلى مكة، هرع الحسين بن علي إلى القنصل البريطاني في جدة، والذي أخبره أن حكومة بريطانيا قررت الحياد، فاضطر أن يجتمع في جدة مع ذوي الرأي من أهلها وأهل مكة، فانفقوا على نصيح الحسين بن علي بالتخلي عن الإمارة لكبير أبنائه علي، ففعل، وانتقل من مكة إلى جدة، ثم ركب البحر إلى العقبة، وأقام بضعة أشهر هناك، ثم اضطر تحت ضغط البريطانيين أن يرحل عنها على ظهر مدرعة بحرية بريطانية، ركبها وهو ساخط إلى جزيرة قبرص سنة (١٣٤٤هـ / ١٩٢٥م)، فأقام بها ست سنوات، حتى نزل به المرض الشديد، فأذن له الإنجليز بالرحيل إلى عمان ليقيم عند ولده عبد الله، فوصل إليها، ولم يبق بها إلا ستة أشهر وأيام، ووافته المنية، فحُمِلَ إلى بيت المقدس، ودفن في مقابر المسجد الأقصى سنة (١٣٥٠هـ / ١٩٣١م). الزركلي / «الأعلام» (٢٤٩-٢٥٠).



العرب، وعلى رأسهم شريف مكة، للوقوف إلى جوارها أثناء الحرب، لمكانته الدينية كأمر لأطهر بقعة على وجه الأرض، حيث بيت الله الحرام محطُّ أفئدة وأنظار المسلمين، في كل مكان في العالم.

فقامت بالاتصال بالشريف حسين بن علي أمير مكة سنة (١٣٣٢هـ / ١٩١٤م)، الذي وكّل إلى ابنه عبد الله بن الحسين التفاوض مع الإنجليز، وقد أبدى عبد الله بن الحسين على لسان والده الرغبة بالتفاهم مع بريطانيا، لقيام دولة عربية مستقلة عن الدولة العثمانية، وكان رد بريطانيا أنها ستعمل على منح العرب استقلالهم، وأنها ستعترف بالشريف حسين خليفة على المسلمين، في حال وقوفه إلى جوارها في الحرب.

ولقد أرسل شريف مكة ابنه الآخر فيصلاً إلى الشام، ليتفاوض مع زعماء العرب هناك من كل الأطياف؛ فسارعوا خاصة الدروز منهم والنصيرية بالتضامن معه، ووضعوا ميثاقاً، اشتهر في التاريخ باسم ميثاق دمشق، والذي تضمن مطالب العرب من بريطانيا، وأنهم على استعداد للوقوف إلى جوارها ضد الدولة العثمانية، عند تحقيق تلك المطالب، وملخصها الاعتراف البريطاني باستقلال دولة للعرب عن الدولة العثمانية، وعقد اتفاقية دفاع مشترك بين الدولة المقترحة وبين بريطانيا، كما إن لبريطانيا الامتياز والتفضيل على غيرها من الدول، في المشروعات الاقتصادية بالدولة المقترحة.

أرسل الشريف حسين إلى السير هنري مكماهون المندوب البريطاني في القاهرة في سنة (١٣٣٣هـ / ١٩١٥م) ميثاق دمشق، وما استقر عليه رأي العرب، وجاءه الرد بعد شهر بالمرأغة البريطانية المعهودة والمتوقعة، التي لا تتضمن قبولاً ولا رفضاً في الإجابة، وقد بين له في ردّه أن التباحث حول حدود دولة عربية مستقلة سابق لأوانه، إذ إن الحرب ما زالت دائرة.



خريطة الدولة العربية المقترحة

ظلت الرسائل بين شريف مكة وهنري مكماهون، وقد أكد الشريف حسين أن الدولة العربية بحدودها التي أرسلوها له من قبل أمر أساس لاستمرار دعم العرب لبريطانيا. وقد جاء رد مكماهون بأن بريطانيا لا مانع عندها من استقلال العرب في الدولة التي بالخريطة، باستثناء عدة مناطق هامة، كولاية أضنه، وولاية إسكندرون، وأجزاء من بلاد الشام.

كان رد شريف مكة رفضه لهذه الاستثناءات، فجاء ردُّ مكماهون بأن بريطانيا مصرة على ذلك لوجود مصالح فرنسية فيها^(١).

جاء رد شريف مكة في رابع رسالة له إلى مكماهون بأنه لا يريد أن يعكر صفو العلاقات الفرنسية البريطانية، وبأنه يمكن تأجيل النظر في هذه الخريطة إلى ما بعد انتهاء الحرب، وأنه يدلل بذلك على حسن نواياه وصدقه مع بريطانيا.

رد عليه مكماهون بالثناء والاحترام والاتفاق بينهما على ذلك، لتبدأ مرحلة التمرد على الدولة العثمانية من جانب شريف مكة فيما سمي بالثورة العربية الكبرى تحقيقاً لأحلام كاذبة، ووعودٍ من بريطانية زائفة.

(١) كانت بريطانيا وفرنسا وروسيا أثناء مراسلات شريف مكة ومكماهون قد قاموا بعقد اتفاقات سرية لتقسيم ميراث الدولة العثمانية في أوروبا والبلاد العربية، والذي تمخض عنها اتفاقية سايكس بيكو ١٣٣٤هـ / ١٩١٦م.



- تمرد شريف مكة على الدولة العثمانية «الثورة العربية»: بعد أن تمت الاتفاقات بين شريف مكة ومندوب بريطانيا في القاهرة مكماهون، وفي رجب (١٣٣٤هـ/ يونيو ١٩١٦م) أعلن التمرد والثورة على الدولة العثمانية، وأطلق جماعات من البدو، فقاموا بالسيطرة على مكة وجدة وعلى سواحل الحجاز والطائف، واستطاع الاستيلاء على ميناء الوجه وينبع ورابع، وذلك كله بمساعدة الأسطول البريطاني في البحر الأحمر.

كما قامت قوات البدو التابعة له بحصار المدينة النبوية حصاراً شديداً إلى نهاية الحرب، والتي هُزمت فيها الدولة العثمانية، فاضطر فخري باشا قائد الحامية العثمانية بالمدينة أن يستسلم مع قواته بعد هذا الحصار الطويل.

لم يكتفِ شريف مكة بذلك، بل انطلقت قوات البدو لخلع قضبان سكك حديد الحجاز، لقطع الطريق المؤدي إلى الشام والأناضول، خشية نقل قوات المجاهدين من بلاد العرب إلى الدولة العثمانية، ومنع وصول الإمدادات لتلك المناطق، وقاموا بنسف أجزاء كبيرة منه، بمساعدة الضباط الإنجليز، وعلى رأسهم لورنس الشهير بلورنس العرب، والذي كان يعمل خبيراً للمتفجرات ضمن ضباط الاستخبارات الإنجليزية.

وتقدمت قوات البدو إلى العقبة، على رأس الخليج، بقيادة فيصل بن الحسين، والذي استطاع أن يستميل قبائل بني عطية والحويطات والرولة وغيرهم من قبائل العرب، وضمهم إلى صفوفهم.

وبدعم من القوات البريطانية تقدمت قوات البدو بقيادة فيصل، واستطاعت السيطرة على معان ثم عمان، في الوقت الذي كانت الجيوش الإنجليزية تتقدم للاستيلاء على غزة والخليل، ويافا وبيت لحم، والقدس التي سقطت بعد معارك بطولية، واستبسال من الضباط الأتراك في شهر صفر (١٣٣٦هـ/ ديسمبر ١٩١٧م)، ودخلت القوات الإنجليزية إلى بيت المقدس.

ثم تلا ذلك تقدُّم القوات البريطانية للسيطرة على مدن الساحل: صور، وصيدا، وبيروت، وطرابلس.



وتقدمت قوات البدو بدعم قوي من الإنجليز، وخيانة بعض الضباط الاتحاديين في الجيش العثماني الذين انسحبوا، مما أعطى الفرصة لدخول قوات البدو إلى دمشق، والتي استغل فيصل بن الحسين سيطرته عليها، فشكل على الفور حكومة مؤقتة، فتمت السيطرة لبريطانيا على سورية كاملة في ذي الحجة (١٣٣٦هـ) / أكتوبر (١٩١٨م).

وقد توقف القتال في اليوم الثاني من السيطرة البريطانية على الشام، بطلب الدولة العثمانية الصلح والانسحاب من الحرب، فأعلن توقف القتال، وتم عقد الهدنة بين العثمانيين والحلفاء، وتوقيع معاهدة ميديوس.

استطاع بذلك فيصل بن الحسين مع قوات البدو وبدعم الإنجليز الخروج عن سيطرة العثمانيين، والوقوف إلى جوار الحلفاء، الذين كانوا قد دبروا أمراً في الخفاء، وهو طعن العرب بخنجر الخيانة الذي طعنوا به الدولة العثمانية، والجزء من جنس العمل، وذلك باتفاقية سايكس بيكو السرية في سنة (١٣٣٤هـ / ١٩١٦م).

- اتفاقية سايكس بيكو:

في الوقت الذي كانت فيه بريطانيا تحادع العرب، باتفاقات ووعود مزعومة في مؤتمر الكويت، والاتصال بشريف مكة، كانت الحكومة الإنجليزية تعمل على الاتفاق مع فرنسا وروسيا القيصرية على تقسيم تركة الدولة العثمانية متمثلة في مندوبها لشؤون الشرق الأدنى مارك سايكس، والذي اجتمع بنظيره الفرنسي جورج بيكو مندوب فرنسا في شؤون الشرق الأدنى، وكذلك بإشراف مندوب روسي، وقاموا بالاجتماع أولاً في القاهرة، وتم الاتفاق بينهم على اتفاقية القاهرة السرية والتي تلتها اجتماعات مدينة بطرس بوج الروسية، وانتهت بتوقيع اتفاقية بين الدول الثلاث على النحو التالي:

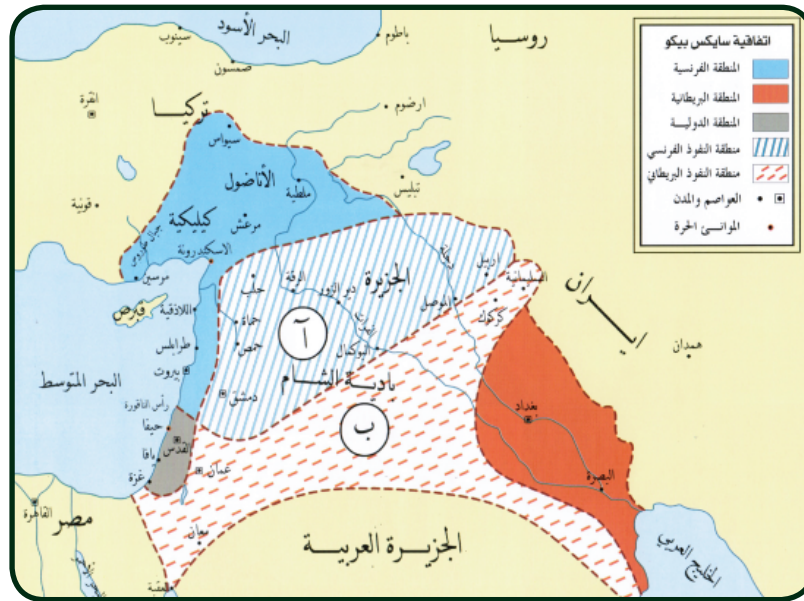
١. تستولي بريطانيا على وسط وجنوب العراق بما يشمل بغداد، وتسيطر أيضاً على ميناءي حيفا وعكا، على الساحل البحر الأبيض المتوسط في فلسطين.

٢. تستولي فرنسا على غرب سورية بما يشمل مناطق السواحل، ويدخل في ذلك لبنان، كما يدخل في ذلك أضنه وإسكندرون.

٣. تستولي روسيا على الولايات الأرمنية في شرق الأناضول وشمال كردستان، كما يحق لروسيا الدفاع عن مصالح الأرثوذكس النصارى بفلسطين.

٤. منح العرب مناطق نفوذ جنوب مناطق بريطانيا وفرنسا، وتبقى بقية فلسطين تحت إشراف دولي.

ومما هو جدير بالذكر أنه تمّ فضح هذه الاتفاقية بعد قيام الثورة الشيوعية في روسيا، والتي فضحت هذا الاتفاق، مما أغضب العرب، وذلك في ذي الحجة (١٣٣٥هـ) / أكتوبر (١٩١٧م).



- وعد بلفور (المحرم ١٣٣٦هـ / نوفمبر ١٩١٧م):

لم تكتفِ بريطانيا والحلفاء بخيانة العرب، وطعنهم في مقتل، باتفاق سايكس بيكو، فلقد قامت بريطانيا بلطمهم على الوجه بإعلان وعد لليهود، على لسان وزير خارجيتها بلفور، بمنحهم وطناً قومياً لهم في فلسطين، مما أصاب العرب بخيبة أمل من بريطانيا والحلفاء.

وهذا يدل على أن اليهود والنصارى سيظلون دائماً يعملون في خفاء وعلانية ضد أمة الإسلام، وكان على العرب أن يدركوا ذلك جيداً من كتاب ربهم، ومن سنة نبيهم ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَلَنْ رَضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنَّ أُتْبِعَتْ أَهْوَاءُهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

والم تأمل في سيرة النبي ﷺ يدرك جيداً أن اليهود قوم غدر، فلقد غزاهم النبي ﷺ بسبب غدرهم وخيانتهم^(١).

إن الذين يتشدقون في الإعلام بصداقة بريطانيا وأوروبا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية للعرب، وأنهم أهل سلام، لم يدركوا جيداً أحد أمرين، إما أنهم مخدوعون، وإما أنهم ماكرون بأمتهم، وسواء هذا أو ذاك فإنهم طعنوا الأمة الإسلامية بخنجر مسموم، وإن المتأمل في تاريخ تلك المرحلة يدرك مدى تعاون كل القوى المعادية للإسلام بعضها مع البعض الآخر، ولعل ما قاله ونستون تشرشل^(٢) أحد بناءة وطن اليهود القومي لأدل دليل على هذا التطابق، فلقد قال: إذا أُتيح لنا في حياتنا - وهو ما سيقع حتماً - أن نشهد مولد دولة يهودية لا في فلسطين وحدها، بل على ضفتي الأردن معاً، تقوم تحت حماية التاج البريطاني، وتضم نحو ثلاثة أو أربعة ملايين من اليهود، فإننا سنشهد وقوع حادث، يتفق تمام الاتفاق مع المصالح الحقيقية للإمبراطورية البريطانية.

ولقد أوقع هذا التصريحُ العربَ - وخاصة شريف مكة - في حرج شديد، لذا أرسل إلى بريطانيا يستفسر عن حقيقة هذا الأمر، فجاءه الرد أن الاستيطان اليهودي في فلسطين لن يُسمح به إلا بقدر ما يتفق مع حرية السكان العرب من الناحيتين الاقتصادية والسياسية. ويا ليت شريف مكة استوعب الدرس، لكنه اعتبر أن هذا صدق، بل حثَّ رجاله أن يستمروا بالقتال إلى جوار بريطانيا إلى النهاية.

٤. موقف جنوب الجزيرة العربية «اليمن»:

تقدم الإنجليز نحو جنوب الجزيرة العربية، وسيطروا سيطرة قوية على عدن، وربطوها إدارياً بمستعمراتها في الهند، غير أنهم لم يتمكنوا من التقدم نحو الشمال، حيث كانت

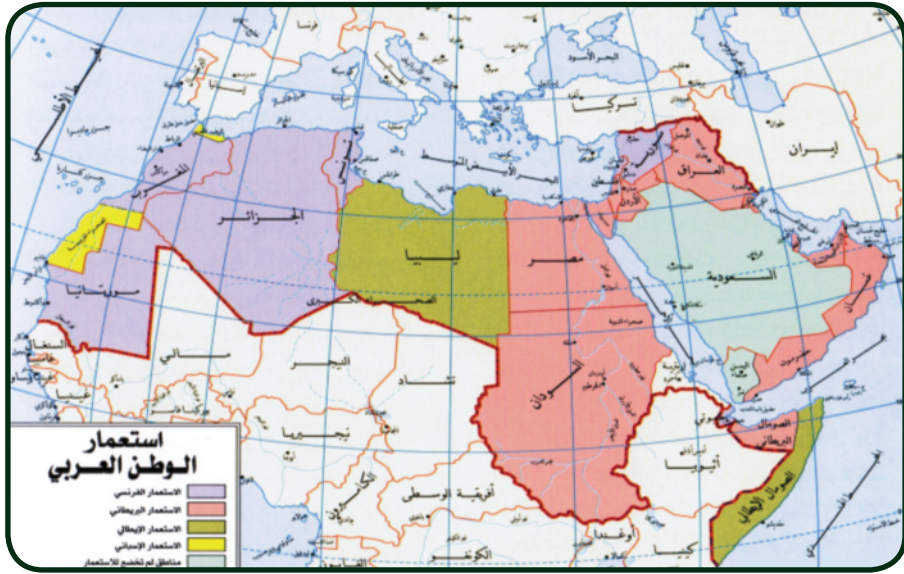
(١) يراجع الفصل الأول بالكتاب.

(٢) ونستون تشرشل: ونستون ليونارد سبينسر تشرشل، ولد في (٣٠) نوفمبر (١٨٧٤م) في لندن، وتوفي في (٢٤) يناير (١٩٦٥م)، يعد أحد أبرز القادة السياسيين والعسكريين الإنجليز خلال الحربين العالمية الأولى والثانية، عمل في عدة مناصب هامة، بدأها ضابطاً في الجيش البريطاني ومؤرخاً وكتاباً وفناناً، حصل على جائزة نوبل في الأدب، عمل كزعيم لحزب المعارضة في مجلس اللوردات، ورئيس لوزراء بريطانيا، كما عمل كزعيم لحزب المحافظين البريطاني، ووزير الدفاع لبريطانيا.

مرض في آخر أيامه، حتى ضعف عن الحركة إلا على كرسي متحرك، وتراجعت قدراته الذهنية والعضلية، وقيل إنه أصيب بالزهايمر، وفي (١٥) يناير (١٩٦٥م) أصيب بسكتة دماغية شديدة جعلته في الفراش لتسعة أيام، توفي بعدها في (٢٤) يناير (١٩٦٥م) عن عمر ناهز التسعين، ودفن في الكنيسة الموسوعة الحرة بالشبكة العنكبوتية.

القوات العثمانية المربطة في اليمن مع قوات الإمام يحيى حميد الدين، والتي استطاعت أن تهاجم القوات البريطانية في الجنوب، وتقوم بحماية الشمال، غير أن ذلك لم يزعج الإنجليز عن الجنوب، ولم يغير من واقع الأمور شيئاً.

ثانياً: موقف الولايات العربية التي تحت الاحتلال الصليبي الأوروبي:



مع ضعف الدولة العثمانية وقع الكثير من ولاياتها العربية تحت الاحتلال الصليبي الأوروبي:

١. الولايات تحت الاحتلال البريطاني الصليبي:

مصر، والسودان، والصومال «الصومال الإنجليزي»، ومنطقة الخليج العربي، وشرق شبه الجزيرة العربية:

قامت بريطانيا بإعلان الحماية البريطانية على مصر في سنة (١٣٣٢هـ / ١٩١٤م) مع بدايات الحرب، وقامت بعزل خديوي مصر عباس حلمي الثاني^(١) لولائه للدولة

(١) عباس حلمي بن توفيق بن إسماعيل حفيد محمد علي، خديوي مصر، ولد بالقاهرة (١٢٩١هـ / ١٨٧٤م)، وتولى حكم مصر بعد وفاة أبيه الخديوي توفيق سنة (١٣٠٩هـ / ١٨٩٠م)، بفرمان سلطاني من الخليفة في إسطنبول، ظهر في أيامه المد الإسلامي وارتباط مصر بالخلافة العثمانية، ففي أيامه نبغ مصطفى كامل وأحمد شوقي وكثير من الكتاب والأدباء الذين نادوا بأن مصر ولاية عثمانية .
سافر إلى إسطنبول سنة (١٣٣٢هـ / ١٩١٤م) مصطفاً ونشبت أثناء سفره الحرب العالمية الأولى، فتأخرت عودته، فاتخذت بريطانيا ذلك ذريعة لخلعه وتعيين عمه حسين كامل في مكانه، وفرضت حمايتها على مصر .



العثمانية، وعينت بدلاً منه عمه الأمير حسين كامل^(١)، وأعلنت سلطانه على مصر، ليتسنى لها فعل ما أرادت داخل مصر، فقامت بفرض الضرائب الباهظة على الشعب، كما سخرت موارد الدولة في خدمتها للاستفادة منها أثناء الحرب، وقامت بما هو أسوأ من ذلك، حيث سخرت عشرات الآلاف من فلاحى الأرض والعمال للعمل في معسكراتها فيما سمي بجيش السخرة أو فيالق السخرة، وقد قضى الكثير منهم نحبهم في هذه السخرة وفي مواقع القتال.

وكذلك فعلت بريطانيا بالسودان، حيث استغلت شعبها أبشع استغلال في السخرة، ولقد ظهرت معالم الحقد الصليبي من بريطانيا ضد المقاومة السودانية عند مواجهتها للسلطان علي دينار سلطان دارفور، الذي استجاب لنداء الدولة العثمانية ودعواتها للجهاد ضد الحلفاء وخاصة بريطانيا، فقامت بقمع المقاومين لها من جيش دارفور، حتى استطاعت قتل السلطان علي دينار.

وهذا ما فعلته أيضاً مع الشيخ محمد عبد الله حسن في الصومال، والذي قاد المواجهة مع الإنجليز استجابة لنداء الدولة العثمانية بالجهاد ضد الحلفاء، فظل في مقاومته الشديدة حتى أن بريطانيا لم تتمكن من القضاء على هذه المقاومة إلا بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى.

٢. موقف مشيخات الخليج العربي:

فقدت الدولة العثمانية سيطرتها على الخليج العربي وسواحله شيئاً فشيئاً، بسبب عدة عوامل مشتركة إلى جانب ضعف الدولة وعدم قدرتها على مواجهة الإنجليز الذين حلوا بسواحل الخليج، واشتدت قبضتهم على هذه المنطقة، واستطاعت أن تفرض سيطرتها

= بقي عباس حلمي في لوزان بسويسرا وقضى بقية حياته مغترباً وتوفي بها سنة ١٣٦٣هـ / ١٩٤٤م، ونقل جثمانه ودفن بالقاهرة. الزركلي / الأعلام (٣/ ٢٦٠-٢٦١).

(١) حسين كامل بن إسماعيل، أول من نودي به سلطاناً من أسرة محمد علي، ولد بالقاهرة سنة ١٢٧٠هـ، وتعلم بها وأتم دراسته في باريس، تولى قبل السلطنة وزارة الأشغال العمومية، فأنشأ سكك الحديد بين القاهرة وحلوان، ثم تولى وزارة المالية، وتولى رئاسة مجلس شورى القوانين، اهتم بشؤون الزراعة والمزارعين في مصر.

نودي به سلطاناً على مصر سنة ١٣٣٣هـ / ١٩١٤م، فهو أول من تحولت به الخديوية المصرية إلى سلطنة، عاجلته الوفاة فلم يقدّر بعمل كبير في مدة سلطنته، فتوفي في سنة ١٣٣٦هـ / ١٩١٧م. الزركلي / الأعلام (٢/ ٢٥٢).

له مسجد باسمه بحي مصر الجديدة بالقاهرة.



على الكثير من هذه المشيخات، وألزمت أمراءها باتفاق موحد معها على تبعيتهم لها، كما عملت على أن تقف هذه المنطقة في وجه الدعوة للجهاد التي أطلقتها حكومة الاتحاديين في الدولة العثمانية ضد دول الحلفاء^(١)، فقامت بعقد مؤتمر لمشايخ الخليج بمشيخة الكويت في سنة (١٣٣٤هـ / ١٩١٦م).

- مؤتمر الكويت (١٣٣٤هـ / ١٩١٦م)^(٢):

دعت بريطانيا معظم شيوخ هذه المنطقة لحضور هذا المؤتمر، وعلى رأسهم الشيخ جابر بن مبارك شيخ الكويت، وعبد العزيز آل سعود سلطان نجد، وخزعل الكعبي أمير الأهواز، ونحو مئة شيخ من شيوخ العشائر من القبائل العربية المختلفة.

ترأس هذا المؤتمر برسي كوكس كبير ضباط بريطانيا في المنطقة، وقد بين لهم أهداف المؤتمر من أولها مظهراً صداقة بريطانيا وحسن نيتها تجاه الحرب، وأنها تود منهم التأييد والوقوف إلى جوارها بدافع التخلص من التبعية للدولة العثمانية، وتوحيد كلمتهم وإعادة الخلافة إلى العرب مرة أخرى.

غير أنه كان من أهم أهداف المؤتمر دعم وتأييد شريف مكة الحسين بن علي، الذي وقف إلى جوار بريطانيا في الحرب، وتمرد على الدولة العثمانية التابع لها، فأرادت بريطانيا أن تكسب تأييد المجتمعين بالمؤتمر لتمرّد الشريف حسين المسمى بالثورة العربية^(٣).

ولقد أبدى المجتمعون في المؤتمر التعاون مع بريطانيا، لأنهم لا حول لهم ولا قوة في مواجهتها، وقد ظهر ذلك جلياً في كلمة الشيخ جابر بن مبارك بأنه واحد من المسلمين، ولن يخالف ما يتفقون عليه: نحن مسلمون فإذا ما أجمع المسلمون على شخص، فنحن له طائعون.

(١) عندما احتاج الاتحاديون إلى مؤازرة الشعوب العربية لهم في الحرب لجؤوا إلى الدين الذي حاربوه، وعملوا على إزالته من سماء الدولة، وهذا الذي حققوه بعد ذلك على يد تلميذهم مصطفى كمال، الذي انتهز الفرصة وقام بإلغاء الخلافة، وهذه طبيعة العلمانيين والليبراليين التلون والنفعية، ولكن ذلك لن يفيدهم، ولم يفيدهم في صراعاتهم.

(٢) كانت فكرة عقد هذا المؤتمر في الكويت قبل ذلك بعام، عندما أرسل الوزير البريطاني السير شميرلن إلى نائب الملك البريطاني في الهند يلفت نظره لكسب ولاء شيوخ العرب، ومما جاء في خطابه: إن العرب مترددون، وقد يقفون مع الأتراك إذا نحن لم نبذل الوسائط الفعالة في الإغراء. خزعل / تاريخ الكويت السياسي (٣/ ٣٣) / بتصرف.

(٣) كان سبب ذلك أن شريف مكة حسين بن علي لم يؤيد موقفه إلى جوار بريطانيا أحد في العالم الإسلامي أو العربي، بل اعتبروا أن هذا خيانة منه للإسلام والمسلمين.



وأيضاً لما رأوه من حكومة الاتحاد والترقي ورجالها الذين قاموا بعزل خليفة المسلمين السلطان عبد الحميد، فإذا هم استطاعوا فعل ذلك مع الخليفة، فكيف بموقف من هو أضعف من الخليفة؟!

وكذلك بسبب الضعف والوهن الذي أصاب الدولة العثمانية وعدم قدرتها على حماية هذه المشيخات، ولذلك أثر العرب السلامة، وقبلوا التعاون مع بريطانيا، ولقد كان موقفهم من قبل يختلف تماماً قبل عزل السلطان عبد الحميد.

وخلاصة القول أن المؤتمرين أعلنوا دعمهم التام لبريطانيا والحلفاء ضد الدولة العثمانية، كما قام برسي كوكس بتقليد الشيخ جابر بن مبارك، وعبد العزيز آل سعود وسام فارس الهند البريطاني للخدمات الجليلة، والذي يعد أعلى وسام يقدم لحلفاء بريطانيا.

وبذلك ضمنت بريطانيا وقوف مشيخات الخليج إلى جوارها في تحقيق أهدافها.

كما قامت بريطانيا بالضغط على الشيخ عبد الله بن قاسم آل ثاني لتوقيع اتفاقية معها في نفس العام، لتنظيم العلاقة بين الطرفين، والوقوف إلى جوارها ضد الدولة العثمانية، والتي كانت قطر إلى هذه اللحظة تؤيدها وتقف إلى جوارها.

٣. الولايات العربية تحت الاحتلال الفرنسي الصليبي:

المغرب، وتونس، والجزائر وموريتانيا، وجزر القمر:

لم يكن الحال لدى الولايات العربية تحت الاحتلال الفرنسي أحسن من الحال تحت الاحتلال البريطاني، فكلهم صليبيون حاقدون، فلقد استغلت فرنسا المناطق التي احتلتها أشد استغلال للاستفادة منها أثناء الحرب، ولضمان عدم مقاومتها للحلفاء، إلى جانب فرض الضرائب الباهظة على الشعوب، كما قامت بتجنيد عشرات الآلاف من أبناء تلك البلاد في جيشها، وأرسلتهم إلى جبهات القتال، كما أخذت جميع المحاولات الثائرة ضدها في تلك المناطق، كما وضعت قواعد عسكرية في الجزر البحرية كجزر القمر، لمنع وصول الإمدادات من شرق أفريقيا إلى ألمانيا.



• الدولة العثمانية في مهب الريح:

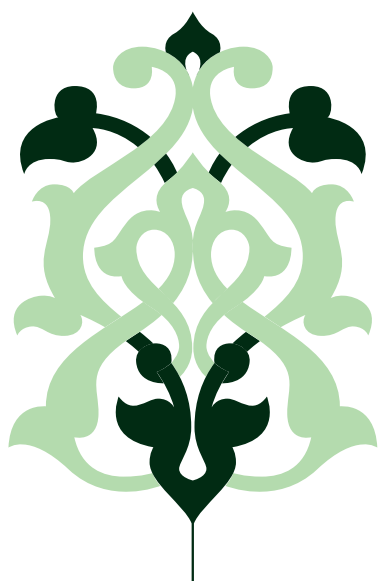
لقد كان قرار الاتحاديين بدخول الحرب أخطر قرار، مرَّ بتاريخ الدولة العثمانية للمرة الثانية، ففي الأولى أصرَّ جيلهم الأول على خوض الحرب ضد روسيا (حرب ٩٣)، وأصرُّوا على ذلك، وكانت نتائجها وعواقبها وخيمة على الدولة، ثم كان هذا القرار الذي عجل بحياة الدولة، وأسلمها إلى طريق النهاية، وياليتهم استقبلوا ذلك بشجاعة، غير أنهم عندما انتهى دورهم المناط بهم، فروا، وتركوا الدولة تنال الهزيمة الساحقة، والذي ترتب عليه ضياع السلطنة في سنة (١٣٤٠هـ / ١٩٢٢م)، ثم إلغاء الخلافة بعدها بسنتين، وتفرقت الدولة الواحدة شذر مذر، وقُسمت إلى دول ودويلات، وقد تداعت عليها الأمم من كل حدب وصوب؛ كلُّهم يتصارعون أيهم ينال القدر الأكبر من الضحية، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ولقد انتهت الحرب العالمية الأولى بهزيمة قاسية، بعد أن استسلمت ألمانيا وحلفائها، فلقد أُعلن في الحادي عشر من نوفمبر سنة (١٩١٨م) رسمياً انتهاء الحرب العالمية الأولى، بعد توقيع استسلام ألمانيا.



الفصل السابع

الخلفاء سليم الأول - سليمان القانوني - سليم الثاني

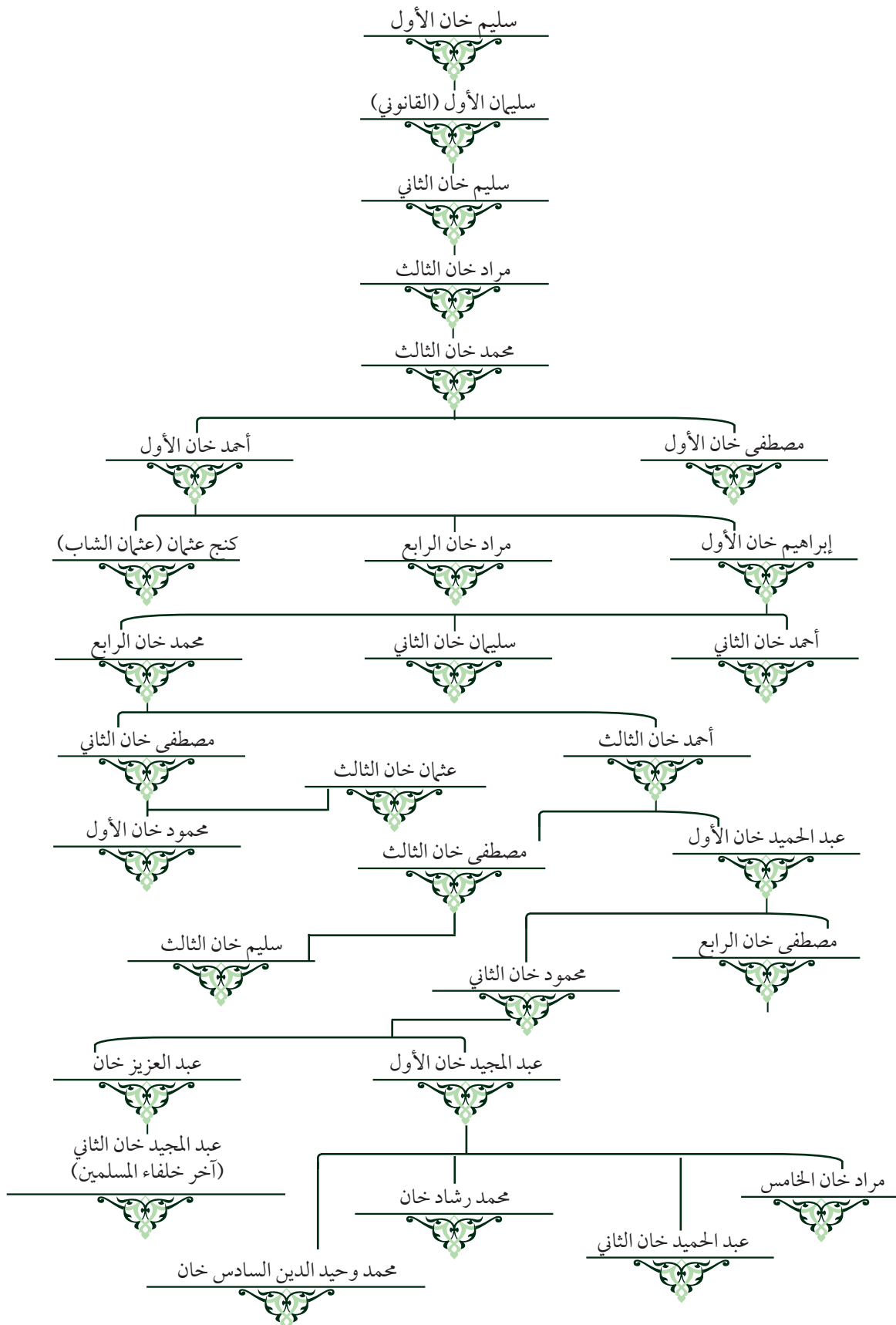


تراجيم الخلفاء العثمانيين

(١)



الخلفاء العثمانيون





الخليفة الأول: سليم الأول بن بايزيد الثاني العثماني (٩٢٣هـ - ٩٢٦هـ) / (١٥١٧م - ١٥٢٠م):

سليم ابن السلطان بايزيد الثاني ابن السلطان محمد الثاني الفاتح ابن السلطان مراد العثماني، ولد بأماسيا في سنة (٨٧٢ هـ)، وتلقى العلوم المختلفة منذ نعومة أظفاره، وظل يرتقي فيها حتى أصبح مُمَيَّزاً بين أقرانه في علوم القرآن والتفسير والحديث والفقه، إلى جانب أنه كان يجيد اللغة العربية، ويتكلم بها بطلاقة، كما كان يجيد الفارسية إلى جانب اللغة الأم التركية، وكان يحب مطالعة التاريخ وأخبار الملوك، وكتابة الخط العربي المميز، ففي الكشك الذي بُني له بروضة مقياس النيل بالمنيل في مصر وجد له شعر كتبه بخطه المتميز:

الملك لله من يظفر بنيل غني يردده قسراً ويضمن عنده الدركا
لو كان لي أو لغيري قدر أنملة فوق التراب لكان الأمر مشتركاً

تلقى أيضاً فنون القتال والفنون العسكرية، فنشأ شجاعاً مقداماً، حتى لُقّب بلقب ياوز^(١)، وقد أعانه ذلك على خوض حروب، لا هوادة فيها، ضد الصفويين ونصارى أوروبا، واستطاع أن يُكوّن دولة مهيبة الأركان قوية البنيان.

جلس على تخت السلطنة، وعمره ست وأربعون سنة بعد أن خلع والدّه نفسه عن السلطنة، وسلمها إليه^(٢).

• معركة جالديران:

في زمان سليم الأول علا شأن إسماعيل الصفوي، واستطاع أن يفرض نفسه على إيران السنية بالقوة، بعد أن قهر الملوك، وقتل العساكر، وقتل ما يزيد على ألف ألف من مسلمي السنة في إيران عامة، وفي تبريز خاصة، وكان عسكره يسجدون له، ويأتمرون بأمره، وقتل العلماء، وأحرق كتبهم ومصاحفهم، ونش قبر المشايخ من أهل السنة، وأخرج عظامهم، وأحرقها، وأباح نساء الأمراء وأمواهم، وأمر بأن يُنادى بأذان الشيعة بدلاً من أذان الحق^(٣).

(١) ياوز: كلمة تركية تعني: القاطع. محمد فريد بك «تاريخ الدولة العلية العثمانية»، (ص: ١٨٨).

(٢) ابن العباد «شذرات الذهب في أخبار من ذهب»، (١٠/ ١٩٨-١٩٩).

(٣) ابن العباد «شذرات الذهب في أخبار من ذهب»، (١٠/ ١٩٨-١٩٩).

وكان السلطان سليم - عندما كان أميراً في عهد أبيه - قد صارع هؤلاء الصفويين في عدة معارك، وانتصر عليهم، وكان مدركاً إدراكاً تاماً لخطورة أحلامهم التوسعية، ولذلك حذر أباه السلطان بايزيد الذي لم يُلقَ لذلك بالاً، فكان أحد الأسباب لإنزال سليم لأبيه بايزيد عن العرش، وكان أيضاً سبباً في صراعه مع إخوته بعد ذلك، والذين تعاونوا مع إسماعيل الصفوي.

فلما بلغ السلطان سليماً ما فعل الصفوي في مسلمي أهل السنة، وتقدمه نحو الأناضول، تحركت همته لقتال الصفويين، فأرسل إلى العلماء للفتوى في قتال هؤلاء القوم جميعاً، فأرسلوا إليه - وعلى رأسهم العلامة ابن كمال - فتوى بوجوب دفع هذا البلاء وهذه الفتنة، فعندئذ عدَّ سليم ذلك من أفضل الجهاد^(١)، وعزم على تأديب إسماعيل الصفوي، وخاصة أن أطماعه لا تنتهي عند حد^(٢)، فقد كان مشحوناً بالغرور والحقد الدفين على أهل السنة، وقد تجلّى ذلك في تبريز بأبشع صورة.

خرج السلطان سليم الأول على رأس جيشه الجرار في المحرم سنة (٩٢٠هـ) قاصداً تبريز عاصمة إسماعيل الصفوي، والذي فعل بها الأفاعيل، وكان من قبل قد تبادل معه رسائل كال له فيه السباب والوعيد، وكان سليم قد أمر بتطهير الطريق إلى تبريز من أصحاب هذه العقائد الفاسدة، وأمر بقتلهم جميعاً، حتى يسير آمناً إلى ذلك الدعي^(٣).

تقهقر الفرس - في خدعة منهم - أمام الجيوش العثمانية، لينهكوا جيش العثمانيين، حتى أصبحوا على مقربة من تبريز العاصمة، في مكان يقال له وادي جالديران، وفي الثاني من رجب سنة (٩٢٠هـ) دارت رحى معركة قوية، استطاع فيها سليم الأول أن ينتصر انتصاراً مبيناً على الشاه وجيشه، وقد فرَّ من أمامه الشاه إسماعيل الصفوي بما بقي معه من الجيش الذي قُتل منه الكثير، وأُسر من قاداته الكثير.

ودخل سليم إلى العاصمة تبريز، واستولى على العرش الصفوي، ووقعت إحدى زوجتي الشاه أسيرة في يد الجيش العثماني، فأرسل الشاه يفتديها من الأسر بالكثير من الجوهر والمال،

(٢) ابن العباد «شذرات الذهب في أخبار من ذهب»، (١٠/١٩٩) نقلاً عن الشيخ مرعي الحنبلي في كتابه «نزهة الناظرين».

(٢) تأمل حال الصفوية الجديدة في إيران وأحلامهم التوسعية في العالم العربي والإسلامي وتهديد أمن الخليج العربي.

(٣) أحمد آق كوندز «الدولة العثمانية المجهولة»، (ص: ٢١٣-٢١٦)



غير أن سليماً اعتبر أن الأمر ليس مجرد أسيرة تفتدى، وإنما الأمر ردُّ اعتبار للأعراض التي استباحها الشاه من نساء أمراء أهل السنة، الذين فعل بهم الأفاعيل، لذلك رفض سليم الأمر، وزيادة في إهانة الشاه أمر بمنح هذه الزوجة أحد كتّابه قائلاً: إن زوجة أعظم رجل في الدولة الصفوية موقعها مع أقل رجل في قصر السلطنة العثمانية.

لم يكتفِ سليم بذلك، بل حاول أن يتعقب الشاه ليقضي عليه وعلى دولته إلى أبد الآبدين، غير أن الله تعالى ذا الحكمة العظيمة قدّر غير ذلك، ليظل الصراع قائماً بيننا وبين هؤلاء إلى ما شاء الله.

فلقد تجمعت عدة عوامل، تمنع سليماً عن التقدم إلى الشاه، منها قلة المؤن، وانقطاع الميرة القادمة له، وشدة البرد في ذلك الوقت، والإرهاق الذي أصاب الجيش بعد أن سار مسافات طويلة خاض بعدها غمار معركة عظيمة، وكان يحتاج إلى الراحة، وكذلك امتناع الإنكشارية عن الاستمرار في السير، وطلبُ العودة إلى العاصمة إسطنبول.

وعلى الرغم من هزيمة الصفويين فقد استطاعوا أن يعودوا، ويجمعوا صفوفهم حول إسماعيل الصفوي، ولم يتمكن العثمانيون من القضاء عليهم في حينه، فبقيت دولتهم قرناً من الزمان إلى أن انهارت.

ويحلم البعض اليوم أن يعيد الكرّة، ويقيم دولة الصفويين مرة أخرى، مستغلاً الظروف الدولية المحيطة بالمسلمين اليوم؛ غير أن الله من ورائهم محيط، ومكرهم إلى زوال إن شاء الله تعالى.

كانت معركة جالديران أحد العوامل الهامة التي هيأت، ووطأت لانتقال الخلافة من العرب القرشيين إلى العجم الأتراك.

وعند عودة سليم إلى إسطنبول بدأ يتحقق من أسباب انقطاع قوافل الميرة عنه، فعلم يقيناً أن سلطان المماليك - في مصر والشام - قنصوه الغوري قد تعاون مع الصفويين ضد العثمانيين، خشيةً ظهور قوتهم والسيطرة على بلدانه، فلذلك قام بتعطيل هذه القوافل عن سليم الأول.



ولقد وقعت بعض الرسائل المتبادلة بين سلطان المماليك والصفوي في أيدي العثمانيين، وكانت تدل على التعاون بينهما ضد السلطنة العثمانية^(١).

يعتبر سليمان الأول تاسع السلاطين وأول الخلفاء العثمانيين، وأول من لقب من العثمانيين بخادم الحرمين الشريفين، وذلك بعد أن تنازل له المتوكل الثالث - آخر الخلفاء العباسيين - عن الخلافة^(٢)، وتم ذلك في حفل مهيب، بمسجد آيا صوفيا، تم فيه تقليدُه الخلافة وبيعته خليفةً على المسلمين، وسلمه المتوكل الأمانات المقدسة، ومنها السيف الذي يزعمون أنه سيف النبي ﷺ وهو تقليدٌ لبيعة الخلفاء^(٣)، وبذلك خرجت الخلافة - لأول مرة في تاريخها - من القرشيين العرب إلى العثمانيين العجم منذ وفاة النبي ﷺ.

استطاع سليم أن يقوم بأمر الخلافة وخدمة الحرمين الشريفين، وأن يحمي حوزة الدين، ويدفع عن الدولة أخطار الصليبيين، رغم قصر مدته في الخلافة، إلى أن توفي أثناء رحلته من إسطنبول إلى أدرنة في التاسع من شوال سنة (٩٢٦هـ) الموافق للثاني والعشرين من سبتمبر (١٥٢٠م)، وكان يتجهز لغزو أوروبا ثم العودة إلى الصفويين في المشرق، غير أن الله عز وجل أراد له أمراً آخر، رحمه الله وغفر له، وقد توفي عن إحدى وخمسين سنة، قضى منها تسع سنوات رأساً للدولة، منها ما يزيد عن خمس سنوات سلطاناً، وما يزيد عن ثلاث سنوات خليفة للمسلمين، وصلي عليه ودفن في مقبرة بساحة جامع السلطان سليم في إسطنبول.

قال ابن العماد^(٤): وفيها (سنة ٩٢٦هـ) توفي السلطان سليم بن أبي يزيد (بايزيد) بن محمد، السلطان المفخم، والخاصان المعظم، سليم خان بن عثمان تاسع ملوك بني عثمان. وذلك بسبب (جمرة) ظهرت في ظهره، منعت الراحة، وحرمت الاستراحة، وعجز في علاجه حذاق الأطباء، وتحيرت في أمره عقول الألباء، ولا زالت به حتى حالت بينه

(١) «شذرات الذهب»، (١٠/١٩٨-٢٠٣).

(٢) ذكر محمد فريد بك أن المتوكل الثالث تنازل عن الخلافة في يوم فتح وادي النيل بمصر. محمد فريد «الدولة العلية»، (ص: ١٩٤). قلت: ولعل المتوكل الثالث قد أعلن ذلك في مصر، ثم ذهب مع سليم إلى الأستانة ليبايعه بين قومه من الترك خليفة على المسلمين.

(٣) يلماز أوزتونا «تاريخ الدولة العثمانية»، (١/٢٢٣-٢٢٥)، أحمد آق كوندز «الدولة العثمانية المجهولة»، (ص: ٢٢٥).

(٤) «شذرات الذهب»، (١٠/١٩٨-٢٠٣).



وبين الأمانة، وخَلَّتْ بينه وبين المنية، فتوفي رحمه الله في رمضان، أو شوال بعد علة نحو أربعين يوماً.

بلغت مساحة الدولة في زمانه ٦,٥٥٧,٠٠٠ كيلو متر مربع، بعد أن كانت في زمان أبيه ٢,٣٧٣,٠٠٠ كيلو متر مربع، أي بزيادة أكثر من أربعة ملايين كيلو متر مربع^(١).

(١) «ألبوم السلاطين العثمانيين»، دار كاكنوس (ص: ٩)، راشد كندو غدو «السلاطين العثمانيون»، (ص: ٦٧).

الخليفة الثاني: سليمان بن سليم الأول العثماني الملقب بالقانوني (٩٢٦هـ - ٩٧٤هـ) / (١٥٢٠م - ١٥٦٦م):

ولد سليمان بن سليم في غرة شعبان سنة (٩٠٠هـ / ٢٧ أبريل ١٤٩٥م)، وقد اهتم والده سليم بتنشئته تنشئةً صالحة، فقد أرسله إلى جده السلطان بايزيد الثاني إلى إسطنبول، ليتلقى العلوم الدينية والعسكرية على يد كبار المتخصصين آنذاك، فنشأ نشأة ساعدته بعد ذلك على تحمل أعباء الخلافة.

وبرغم أنه كان شاعراً يكتب الشعر باسم مستعار هو - محبّي - إلا أنه كان عسكرياً صارماً، قاد بنفسه ثلاث عشرة حملة كبرى على خصوم الإسلام، استطاع بها أن يثبت أركان الدولة، وأن يوسع مساحتها.

بدأ سليمان والياً على مدينتي بولو وكفا، ثم تولى السلطنة والخلافة بعد وفاة أبيه في (١٦ شوال ٩٢٦هـ / ٢٩ سبتمبر ١٥٢٠م)، وكان عمره آنذاك ستاً وعشرين سنة، وبقي سلطاناً وخليفةً لست وأربعين سنة.

• أهم الأحداث في عصره:

استفتح باكورة أعماله أن أرسل إلى كافة الولاة وأشراف مكة والمدينة بخطابات ورسائل، يخبرهم فيها ببيعته خليفة على المسلمين، مبيناً لهم ضمن رسائله أهمية العدل في الأحكام، وشرّ عاقبة الظلم، مستدلاً من الكتاب والسنة على ذلك، وقد تمرد الغزالي حاكم دمشق على بيعة سليمان، وانتهى الأمر بمقتله واستقرار الشام ضمن الدولة.

اشتهر السلطان سليمان بلقب القانوني^(١)، لما وضعه من النظم والقوانين الداخلية، ومحاولة تقنين الأحكام الفقهية من المذهب الحنفي، في صورة مدونات قانونية، في كافة فروع الدولة.

(١) يقول يلماز أورتونا أن لقب القانوني لم يطلقه الشعب على السلطان لوضع القوانين بل لتطبيقه هذه القوانين بعدالة. (١/ ٣٥٥). كما اشتهر عند المؤرخين والعامّة أنه سمي بالقانوني لكونه أصدر ٢٠٠ قانون تقريباً.



قام بتشكيل لجنة من العلماء والفقهاء، ومنهم أبو السعود أفندي^(١)، كبير العلماء آنذاك في الدولة العثمانية، وشيخ الإسلام بها، حيث قامت هذه اللجنة بتحرير القوانين، ووضعها وتدوينها، مستندة في ذلك إلى فتاوى كبار فقهاء الدولة، وإلى ما ورد في مدونات الفقه الحنفي، الذي كان الأساس بالنسبة لهذه اللجنة وإن خالف الدليل.

وقدمت اللجنة اجتهاداً منها بعض الآراء الضعيفة، والأقوال المرجوحة على النصوص الصريحة، ولا تفسير لذلك كله إلا التعصب المذهبي، وهذا أمر يطول شرحه، ويحتاج إلى بحث آخر.

ولكن من لطيف القول أن سليمان القانوني أوصى عند وفاته أن تدفن معه فتاوى شيخ الإسلام في زمانه أبي السعود أفندي، وكأنه أراد بذلك أن يستند إلى ما يسوغ موقفه بين يدي الله، إن نوقش الحساب، والله المستعان على ما عملته الصوفية والتعصب المذهبي في توجيه عقول الناس إلى انحرافات ومخالفات لا تنبغي.

وكان مجموع هذه القوانين مئتي قانون، تشكل عشرة في المئة من مجموع القوانين التي وضعت كهيكل للنظام القانوني في الدولة العثمانية.

يعتبر السلطان سليمان القانوني من أفخم وأفخر سلاطين الدولة، ولقد بلغت الدولة في زمانه أعلى درجات قوتها، وبلغت اتساعاً هائلاً، فلقد خاض حروباً متعددة ضد خصوم الإسلام والمسلمين، واستطاع أن يقود بنفسه حملات عسكرية في معظم أوروبا وفي جزر البحر المتوسط وآسيا، بلغت ثلاث عشرة حملة عسكرية منظمة، وتتابع فتوحاته وانتصاراته، وكان أشهرها انتصاره على إمبراطورية المجر، في معركة ميدان موهاتش، ولُقب بفتح المجر، واستطاع أن يصل إلى أسوار مدينة فيينا بالنمسا، وضرب الحصار عليها، غير أنه اضطر أن يرفع الحصار بسبب دخول فصل الشتاء.

(١) محمد أبو السعود أفندي بن محيي الدين محمد بن مصلح الدين بن مصطفى عماد الدين العمادي الحنفي، فقيه وقاض عثماني، ولد في أسكليب العثمانية، ودرس العلوم الشرعية، كما برع في الفقه على المذهب الحنفي، عمل في أول حياته بالتدريس، حتى أصبح قاضياً، ثم ترقى، حتى أصبح قاضي العسكر، وعضو الديوان العثماني، ثم أصبح شيخ الإسلام ومفتي الدولة.

ساهم مساهمة كبيرة في جملة القوانين التي سنّها السلطان سليمان القانوني - قانوناً -، كما كان له تفسير للقرآن الكريم يسمى «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم»، وله فتاوى يلقي بها الله عز وجل، منها ما أفتاه لسليمان القانوني بقتل ابنه الأمير مصطفى، وكذلك فتواه لسليم الثاني بقتل أخيه بايزيد. توفي وهو على رأس عمله في الخامس من جمادى الأولى سنة (٩٨٢هـ)، وقد حضر جنازته جمع غفير من العلماء وطلبة العلم والوزراء، ودفن إلى جوار قبر أبي أيوب الأنصاري، وصُلي عليه الغائب في الحرم المكي. الشوكاني «البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن التاسع»، - أبو السعود أفندي / تحقيق عبد الرحمن أحمد عطا على تفسير أبي السعود.



كما استطاعت جيوشه وأساطيله البحرية بقيادة خير الدين بربروس تحقيق انتصارات متعددة على أساطيل وجيوش الصليبيين، في معارك متعددة بالبحر المتوسط، وكان أشهرها معركة بروزا، والتي صار بعدها البحر المتوسط بحيرة إسلامية عثمانية، كما أن أساطيله خاضت البحار الشرقية حتى وصلت إلى الهند، واستطاعت أن تردّ شرّ الحملات الصليبية البرتغالية عن الخليج العربي.

كما واجه السلطان الصفويين في تبريز، واستطاع أن يخضعها مرة ثانية للدولة العثمانية، وأن يضم بغداد إلى حوزة الدولة.

ومن المؤسف أنه وقع في آخر سنوات حكمه صراعات أسرية، بسبب روكسلانا^(١) زوجة السلطان التي كانت طرفاً أساسياً فيه هي وزوج ابنتها رستم باشا الصدر الأعظم، بسبب أنها كانت تسعى لتولية ولدها سليم للخلافة، على حساب إخوانه الآخرين، فكان ذلك سبباً في انقلاب السلطان سليمان على بعض أبنائه، بل وبلغ الأمر أن قام بقتل ولده الأكبر مصطفى غير الشقيق لسليم خنقاً، نتيجة لدسائس زوجة أبيه، وعدم تثبت السلطان مما نُسب إلى ولده من الدسائس، وكان أول هذه الدسائس ما أشاعه المغرضون أن الأمير مصطفى يتصل سرّاً بشاه إيران الصفوي، وقد اتفق معه على الزواج من ابنته، وطلب منه المساعدة للقيام بانقلاب ضد والده السلطان.

(١) روكسلانا: اشتهرت في التاريخ باسم خرم وروكسلين، وكريمة، وهيام، قيل أنها يهودية الأصل من يهود الخزر، ووقعت أسيرة وقُدمت هدية للسلطان سليمان القانوني، وأعتقها، وتزوجها بعد أن هام بها غراماً، وقيل إنها اختطفت من تيار القرم، وبيعت في سوق النخاسة وأُهديت لاحقاً إلى القصر العثماني، وقيل إنها ولدت في أوكرانيا، وكان أبوها راهباً أوكرانياً نصرانياً يعمل بالكنيسة، وقيل إن أصلها من روسيا وإنها يهودية الديانة. اعتنقت الإسلام بعد زواجها السلطان سليمان الذي كان يهيم بها، ويحقق لها جميع طلباتها، أنجبت للسلطان ثلاثة ذكور: محمد جهنكير وبايزيد وسليم، وابنة واحدة: مهرما، تزوجت رستم الصدر الأعظم وزير الدولة.

كانت روكسلانا سبباً رئيسياً في إشعال نار الفتن في القصر العثماني وبين أبناء الأسرة الواحدة. مرضت روكسلانا بمرض الملاريا مما أضعفها، وحاول السلطان علاجها لكن انتهى الأمر بها إلى الوفاة بعد أن استردت صحتها قليلاً، وقيل إن جارية قامت بوضع السم لها في الطعام لتغلغل صفحة هذه المرأة من تاريخ القصر العثماني. محمود شاكر «تاريخ الخلفاء» - أحمد آق كوندز «الدولة العثمانية المجهولة» - محمد فريد بك «الدولة العلية العثمانية».

ولقد كتب أحد الصحفيين - أو أحد الكتاب - في المواقع على الشبكة يبين أن روكسلانا أفتري عليها، وأنها كانت امرأة صالحة، تقوم بأعمال الخير، وهذا كله مجرد كتابات لم يُقَمَّ عليها دليلاً واضحاً كما أقام الذين أثبتوا الوقائع السابقة من المؤرخين.

قلت: قد يكون لها من أعمال الخير الكثير، ولا يلغي ذلك ما للنساء من أدوار وأطوار متبينة، خاصة اللاتي يكن في هذه المكانة، وقد تكون فعلت ذلك لتخفي حقيقتها، أو لتكفر عن سيئاتها.



يقول الأستاذ محمود شاکر تحت عنوان تنبيه واعتبار^(١): بلغت الدولة العثمانية أوج اتساعها وغاية قوتها وأعلى مجدها في عهد الخليفة الثاني سليمان القانوني، وأخذ الضعف يدب في الدولة مباشرة من بعده لأسباب عدة، ومنها هذه الحادثة البشعة والتي يجب أن نأخذ منها الدرس مما جرى في تاريخنا ومما يجري في أيامنا. ١. هـ.

وملخص القصة^(٢): جرى قتال بين تاتار شبه جزيرة القرم من المسلمين التابعين للخلافة العثمانية، وبين يهود الخزر في جنوبي روسيا، واستطاع المسلمون الانتصار عليهم والحصول على كثير من الغنائم والأسرى والسبايا، وكان من ضمن السبايا فتاة فائقة الجمال تدعى روكسلانا، والتي اصطفاها الخليفة لنفسه جاريةً، وكانت في العشرين من عمرها يهودية الديانة، تعلق الخليفة بالفتاة تعلقاً كبيراً مما دفعه أن يعتقها ويتزوجها، وسميت: بخورم خاسكي، وأنجبت له عدة أبناء، كان أصغرهم سليم، والذي كان محظياً عند أمه، وعملت على توليته الخلافة بعد أبيه على حساب إخوانه الأشقاء وغير الأشقاء، فكان عليها أن تخطط للتخلص من إخوته الآخرين والذين يسبقونه إلى منصب الخلافة.

سعت هذه المرأة - لدى السلطان المولع بها - لتولية رستم باشا منصبَ الصدر الأعظم، فحقق لها ذلك، ثم سعت إلى زواج ابنتها - مهرماه سلطان - إلى رستم باشا، وتحقيق لها أيضاً ذلك، مما أعانها على تمهيد الطريق لتولي ابنها سليم الخلافة بعد أبيه.

الخديعة: انتهز رستم باشا نشوبَ الحرب بين الدولة العثمانية والصفويين سنة (٩٦٠ هـ) ووجودَ الأمير مصطفى بن سليمان وليّ العهد والمرشح لمنصب الخلافة بعد أبيه ضمن قواد الجيش، فكتب رستم إلى السلطان أن الأمير مصطفى يجرّس الإنكشارية على عزل السلطان وتنصيب نفسه في مكانه، كما فعل السلطان سليم مع والده السلطان بايزيد الثاني، وأنه قد جمع جيشاً كبيراً يقارب ثلاثين ألفاً للحرب الثالثة مع إيران، فلما وصل

(١) محمود شاکر «تاريخ الخلفاء»، (ص: ١٣٨-١٤٤).

(٢) ملخص القصة كما أوردها المؤرخون: محمد فريد بك «تاريخ الدولة العلية العثمانية» - يلماز أوزتونا «تاريخ الدولة العثمانية» - محمود شاکر «تاريخ الخلفاء» - أحمد آق كوندز «الدولة العثمانية المجهولة».



الخبر إلى السلطان لم يمهل للتثبت من صحة الخبر، وذلك لأن الذي أرسله إليه هو الصدر الأعظم في دولته من جانب، وزوجته روكسلانا فوق رأسه من جانب آخر، كما أن العدد الذي جمعه الأمير مصطفى من الجنود الإنكشارية جعل السلطان يشعر أن انقلاباً قد أعد له، مما دفع السلطان أن يحصل على فتوى من شيخ الإسلام أبو السعود أفندي بطريق غير مباشر^(١)، باعتبار أن الأمير أعلن الخروج والعصيان للخليفة، فقام السلطان بالتوجه خلف جيشه إلى بلاد العجم متظاهراً بأنه يريد أن يتولى قيادة الجيش بنفسه، وكان قد دبر مؤامرة التخلص من ولده مصطفى مع بعض خاصته.

لما وصل السلطان إلى معسكر جيشه قرب قونية، استدعى ولده مصطفى إلى سراحه، وعلى الفور جاء الابن المسكين ليلقى حتفه بمجرد دخوله إلى سراح والده، حيث قام الحجاب والحرس بخنقه بطريقة بشعة، فقتل نتيجة لدسائس زوجة أبيه وزوج ابنتها الصدر الأعظم، ولعدم تثبت أبيه مما نسب إليه^(٢).

أحدث هذا الأمر أزمة كبيرة داخل الدولة، حتى إن الأمير جهنكير بن روكسلانا والأخ غير الشقيق للأمير مصطفى قد مات كمداً وحنناً على أخيه الذي قضى نحبه نتيجة للمؤامرات والدسائس، وكانت هذه الجريمة واحدة من أبشع الأحداث التي جرت في عهد السلطان سليمان القانوني، خاصة أن الأمير مصطفى كان محبوباً من الجيش ومن الشعب، وكانوا يرون فيه نموذجاً مطابقاً لجده سليم الأول^(٣).

يقول محمد فريد بك^(٤): كانت هذه الفعلة الشنعاء نقطة سوداء، في تاريخ السلطان سليمان الذي اتسعت دائرة السلطنة في أيامه، ولولا دسياسة هذه المرأة الأجنبية التي ربما كانت مؤجرة لهذه الغاية، ل بقي اسمه، لا تشوبه شائبة، ولم تكتفِ هذه المرأة البربرية الطباع بقتل الأمير مصطفى، بل أرسلت إلى مدينة بورصة من قتل ابن مصطفى الرضيع. ١. هـ.

(١) يقال إن سليمان أرسل رسالة إلى المفتي يقول فيها: إن تاجر أثرياً سافر من العاصمة وعهد إلى أحد عبيده بالقيام بأعماله، وما إن غاب التاجر حتى قام العبد بضم أموال سيده لنفسه وتدمير تجارته، وتآمر على حياة زوجته وأبنائه، فما هي العقوبة التي يستحقها هذا العبد؟ فأجابه أبو السعود أفندي بأنه يستحق الإعدام. د. أحمد آق كوندز «الدولة العثمانية المجهولة».

(٢) كان الأمير مصطفى عمره آنذاك ثمانية وثلاثون سنة، قضى منها نحو ثلاثاً وثلاثين سنة ولياً للعهد. يلماز أوزتونا «تاريخ الدولة العثمانية»، (١/ ٣٥٠).

(٣) يلماز أوزتونا «تاريخ الدولة العثمانية» (١/ ٣٥٠).

(٤) «تاريخ الدولة العلية العثمانية»، (ص: ٢٤٦).



تطور الأحداث: ثار الإنكشارية على السلطان بعد مقتل مصطفى، وطلبوا منه قتل الوزير رستم باشا المدبر لهذه المكيدة، فلم يجد السلطان بداً من عزل رستم باشا، وتولية أحمد باشا وزيراً في مكانه تهدئةً لثورة الإنكشارية.

وشاء الله تعالى أن تهلك روكسلانا بعد هذه الحادثة بقليل، وتطوى صفحة، كان لها من الآثار السيئة على الأمة ما الله به عليم، وذلك بسبب كيد النساء.

وكان قد وقع بين بايزيد وبين جيش أبيه قتال، هُزم على أثره بايزيد، والتجأ هو وأولاده إلى الشاه طهماسب الصفوي مستجيراً به، فقابله وأظهر له الإخلاص والحماية - تقية - لكنه كاتب السلطان سليمان وابنه سليماً سراً على تسليم بايزيد وأبنائه لهما^(١)، ولم يرعَ ذمتهم، بل خانهم، وسلمهم، فقتلهم جميعاً في مدينة قروين ببلاد العجم، كما قاموا بخنق ابن بايزيد الصغير، والذي كان في مدينة بورصة ليقتضوا على نسله كاملاً، وذلك أيضاً بفتوى من شيخ الإسلام أبي السعود أفندي الذي عدَّهم بغاة^(٢).

• وفاة السلطان سليمان: توفي السلطان سليمان في العشرين من صفر سنة (٩٧٤هـ) الموافق للخامس من سبتمبر سنة (١٥٦٦م)، وقد ناهز أربعاً وسبعين سنة، وذلك أثناء قتاله لجيوش النمسا، خلفاً خلفه دولة مترامية الأطراف، حيث بلغ اتساعها (١٥) مليون كيلومتر مربع، بعد أن كانت ستة ملايين ونصف كيلومتر مربع في زمان والده، ولذلك لقبته الدول الأوروبية والعجم **بسليمان المهيب**.

ولم تصل الدولة في عهده إلى أقصى اتساع وصلت إليه فقط، وإنما تمَّ في عهده إدارة أعظم

(١) وهذا جزء من يستجير بالنار من الرمضاء، فليس لرافضي عهد ولا ذمة، فهاهم قد ملأوا تاريخهم بالخianات، وواقعهم المؤسف في تاريخنا المعاصر، فهذه إيران وحزب اللات، وأذرعهم في العراق واليمن، لم يرعوا عهداً ولا ذمة للإسلام وأهله، وفي ذلك عبرة لمن كان له قلب.

كان الأمير سليم يخشى من أخيه بايزيد أن يزاحمه بالخلافة بعد موت أبيهما، فدبر مكيدة مع مربي بايزيد المدعو لالا مصطفى على إيغار صدر السلطان على بايزيد لينفرد سليم وحده بولاية العهد، فظل لالا مصطفى يفكر حتى هداه شيطان عقله إلى أن يكتب إلى بايزيد رسالة يقول له فيها: إن أخاه سليماً غارق في الشهوات والملذات ولا يليق لمثله أن يتصدر الدولة بعد والده الذي يصمم على استخلافه على المسلمين مع عدم أهليته للملك، فرد عليه بايزيد ووقعت بينهما المكاتبات في ذلك، وكتب بايزيد إلى أخيه سليم بخطاب تناول فيه من والدهما السلطان سليمان، فأرسل سليم ذلك الخطاب لأبيه، مما أغضب سليمان غضباً شديداً وكتب لولده بايزيد يوبخه ويأمره بالانتقال من ولاية قونية إلى مدينة أماسيا، فعندئذ شعر بايزيد بالغدر وخشي على نفسه مصير أخيه مصطفى، فجمع جيشاً من عشرين ألفاً تمرد به على أبيه الذي أرسل إليه جيشاً بقيادة محمد باشا الصقلي والذي استطاع أن يهزم جيش بايزيد والذي تقهقر إلى أماسيا وفر منها إلى بلاد العجم حيث التجأ هو وأولاده إلى الشاه طهماسب الصفوي. أحمد آق كوندز - الدولة العثمانية المجهولة.

(٢) أحمد آق كوندز / الدولة العثمانية المجهولة (ص: ٢٤٧).



دولة بأرقى شكل إداري، حتى قال عنه المؤرخ لطيفي، الذي عاش في عهده: إنه عظيم الشأن، تتلى خطبته في كل حطة، وله جنود في آلاف القلاع^(١).

ويُعدُّ سليمان القانوني آخر السلاطين العثمانيين الأقوياء، فقد بدأت الدولة من بعده في الأفول شيئاً فشيئاً، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾^(٢) ليس:

[٦٨].

(١) يلماز أوزتونا «تاريخ الدولة العثمانية»، (١/ ٣٥٧).



الخليفة الثالث: سليم الثاني بن سليمان القانوني (٩٧٤هـ - ٩٨٢هـ) / (١٥٦٦م - ١٥٧٤م):

سليم خان بن سليمان بن سليم الأول بن بايزيد العثماني، ولد في إسطنبول وهو أول من ولد بها من السلاطين، وكان مولده في السادس من رجب سنة (٩٣٠هـ) الموافق للعاشر من مايو سنة (١٥٣٣م)، أمه روكسلانا السابق ذكرها؛ عاش صباه كسائر الأمراء، ثم إن أمه لعبت دوراً في ترفه وعملت على أن يكون في حياته شيء من اللهو والطرب.

تولى الخلافة بعد وفاة أبيه، ولم يكن متصفاً بالصفات التي كان عليها أبوه، وكان غير مؤهل للحفاظ على الفتوحات التي تحققت في زمن أسلافه، ويذكر المؤرخون^(١) أنه لولا الله، ثم وجود وزير الدولة الصدر الأعظم محمد باشا الصقلي^(٢) للتحقق بالدولة الفشل والهزيمة، ولكن حسن سياسة هذا الوزير وعظم اسم الدولة ومهابتها في قلوب أعدائها حفظها من السقوط مرة واحدة.

ولا يعني ذلك أنه لم تكن في زمان السلطان سليم أيام مشرقة، وفتوحات خالدة كفتح موسكو، وغيرها من الأعمال التي تذكر له.

كما أنه كان يولي العلماء احتراماً كبيراً، كما اهتم بالإعمار والبناء في الدولة، ومن آثاره مسجد سليمان في أدرنة، وكذلك مثله في نيقوسيا.

وهو أقل السلاطين كفاءة عمن سبقه، وانقطعت به سلالة الدهاة، وفي عهده أصبح يرى بعض بريق اللمعان من حين لآخر.

(١) محمد فريد بك «الدولة العلية العثمانية»، (ص: ٢٥٣).

(٢) يعد محمد باشا الصقلي أو كما يسمونه الأتراك صقلي محمد باشا أشهر صدر أعظم في تاريخ الدولة العثمانية، تولى هذا المنصب لمدة أربع عشرة سنة وكان أول عهده به في زمن السلطان سليمان القانوني، ثم في عهد السلطان سليم الثاني ثم في عهد السلطان مراد الثالث، ولد في سنة (٩١٢هـ) في سرايفو، وكان أحد أفضل الإنكشارية في الجيش العثماني، نحسبه أنه أخلص لله ثم للدولة، وقد استطاعت الدولة في عهده أن تظهر هيبتها لأعدائها، وأن تحسم الصراع بين الوزراء والإنكشارية، وكذلك سلطة الحریم.

أقام مشاريع كبرى، أفادت الدولة، قُتل رحمه الله بطعنة في قلبه نتيجة مؤامرة ضده في عهد السلطان مراد الثالث سنة (٩٨٧هـ)، وبدأ من بعده ما يسمى بعهد الركود في الدولة العثمانية. أحمد آق كوندز «الدولة العثمانية المجهولة»، (ص: ٢٦٠، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧١).

• أهم الأحداث في عصره:

استطاعت الدولة العثمانية في زمان السلطان سليم أن تقمع ثورة قامت باليمن، بقيادة المطهر بن شرف الدين يحيى الشيعي الزيدي سنة (٩٧٦هـ)، مما اضطر المطهر أن يعترف بسيادة الخلافة العثمانية على بلاده، واستطاعت الأساطيل العثمانية في زمانه أن تصل إلى إقليم أتشاي في إندونيسيا سنة (٩٧٦هـ)، كما فُتحت جزيرة قبرص التي كانت تابعة للبندقية - جنوا - الإيطالية سنة (٩٧٩هـ).

• معركة موسكو:

وفي سنة (٩٧٩هـ / ١٥٧١م) قام الروس في موسكو بمضايقة الحجاج والتجار المسلمين، ومهاجمة قوافل المسلمين التجارية، وأرادوا التوسع في بلاد المسلمين، فقام حاكم منطقة القرم المسلم دولت كراي^(١) بإعداد جيش، استطاع به تأديب الروس ودخول عاصمتهم موسكو، وذلك بجيش تعداده مئة وعشرون ألفاً، واستطاعوا أن ينزلوا الهزيمة المريعة بالروس.

وقد أيد الله تعالى المسلمين بريح عاصفة، ساعدت في نشر النيران في معظم أنحاء موسكو، مما دفع سكان المدينة للهرب بشكل عشوائي، وأدى إلى وفاة الكثير منهم دهساً، وبعضهم لجأ إلى الكنائس التي انهارت فوق رؤوسهم، والبعض الآخر غرق في نهر موسكو، كما قضى البعض من الجنود في مشهد مفرع عندما انفجر مستودع الذخيرة في سراي الكرملن.

وقام قيصر روسيا إيفان الرابع الملقب بالرهيب بالهرب من وجه الجيش الإسلامي، مخلفاً خلفه ثلاثين ألف فارس وستة آلاف من مشاة، لا قوا جميعاً حتفهم بالقتل أو الحرق، كما قُتل أخوا زوجة القيصر، وقد احترق بناء الكرملن كاملاً، وأعيد بناؤه بعد ذلك، كما دُمر قصر القيصر.

(١) كانت منطقة القرم تسمى بآق مسجد، وقد سكنها التتار منذ زمان بعيد، ثم ضمها العثمانيون إليهم في عهد محمد الفاتح، ومنذ ذلك الوقت كان حاكمها يُعين من أهلها، ومنهم دولت كراي، الذي استطاع أن ينتصر على الروس في سنة (٩٧٩هـ / ١٥١٧م).



واستطاع المسلمون أن يأسروا مئة وخمسين ألف أسير، كما أنهم غنموا خزانة القيصر الهارب، مما دفع السلطان سليم الثاني أن يرسل سيفاً مرصعاً بالجوهر وخلعةً وكتاباً سلطانياً لحاكم القرم دولت كراي، الذي حقق هذه الانتصارات.

أرادت الدولة أن تعيد الكرة على موسكو بعد عام، مما دفع القيصر الذي دخلها بعد هزيمته ذليلاً أن يطلب من الدولة العثمانية الصلح وأداء الجزية، ومقدارها ستون ألف ليرة ذهبية، وسبحان الله الذي له مقاليد السماوات والأرض، فماذا يصير الأمر لو أنهم أعادوا الكرة، وقضوا على الوجود الروسي، كيف تكون خارطة العالم اليوم؟!.

• معارك أخرى:

وفي زمانه كانت واقعة ليبانت البحرية التي خاضتها الدولة العثمانية ضد التحالف الإسباني مع البندقية برعاية بابا النصرانية، وقيادة دون جوان بن شارلكان^(١)، ومن المؤسف أن المعركة انتهت بهزيمة العثمانيين الذين خسروا خسائر فادحة في المعركة، كان أهمها أنهم فقدوا ثلاثين ألفاً، وقعوا أسرى في أيدي الصليبيين.

كان انتصار ليبانت ابتهاجاً كبيراً في قلوب النصاري، وخاصة بابا روما الذي خطب في كنيسة القديس بطرس، وقدم الشكر لدون جوان على صنيعه ذلك.

ولما بلغ الخبر إلى الأستانة، تأثر المسلمون به، وهموا بالقضاء على النصاري في إسطنبول، ولكن الوزير محمد باشا الصقلي منعهم من ذلك، وقام بإعداد أسطول بحري جديد للثأر مما وقع، مكون من مئتين وخمسين سفينة، مما أربع النصاري في البندقية وخافوا من انتقام المسلمين، فعرضوا الصلح على الدولة العثمانية باعترافهم لها بجزيرة قبرص، ودفع غرامة وجزية حربية مقدارها ثلاثمئة ألف دوكة ذهبياً، فتم لهم ذلك في ذي القعدة سنة (٩٨٠هـ الموافق لمارس ١٥٧٣م)، وقد قال الوزير محمد باشا الصقلي كلمته الشهيرة

(١) دون جوان بن شارلكان ابن زنا من إحدى خليلات شارلكان، وبعد موت أبيه أراد الملك فليب الثاني أن يلحقه بالكنيسة راهباً، فلم يقبل بالرهبة، فعينه قائداً للجيش، وكانت مهمته إذلال من بقي من المسلمين بغرناطة والأقاليم التابعة لها، فأذاقهم أنواع الذل والعذاب مما اضطرهم إلى الهجرة إلى شمال أفريقيا. د. إحسان حقي: تحقيق كتاب «الدولة العلية»، لمحمد فريد بك (ص: ٢٥٧).

قلت: دون جوان هذا هو الذي يضرب به المثل في بعض البلدان العربية - مع الأسف - عند تشييعهم أحداً من الناس بمثال الرجولة.

لمندوب أهل البندقية: لقد بترنا ذراعكم في قبرص، وأنتم قمتم بقص لحيتنا في لبيانت (إينا بختي)، والذراع المبتورة لا تعوض، وأما اللحية المقصوفة فننمو من جديد أكثر وأكثف.

وأما من جهة إسبانيا، فأراد دون جوان أن يشتت جهود الدولة العثمانية بأساطيلها البحرية في البحر المتوسط، فقام بالإغارة على تونس، واحتلها بسهولة لقلة العسكر بها، ووضع عليها السلطان الحفصي مولاي حسن، الذي لجأ إليهم عند فتح العثمانيين لبلاده؛ ولكن سرعان ما استطاعت الدولة العثمانية أن تسترد تونس في خلال ثمانية أشهر، بقيادة سنان باشا سنة (٩٨٣هـ)، ولقد كان هذا الفتح من الفتوحات الهامة الحاسمة في تاريخ الدولة العثمانية.

كما استطاعت الدولة أن تقضي على ثورة البغدان^(١)، وأن تحسم الأمر في معركة هائلة، أريق فيها دماء الخصوم كالسيول المنهمرة في سنة (٩٨٢هـ)، وقد قامت الدولة بصلب الأمير أيوونيا أمير البغدان، الذي تمرد على الدولة، وأراد الاستقلال، فكان صلبه جزاء لعصيانه وعبرة لغيره.

ورغم ذلك يعدُّ عهد سليم الثاني عهد إبرام المعاهدات والصلح أكثر من عهد فتوحات. ومن الأمور العظيمة المشينة التي وقعت في زمانه أنه رفع الحظر عن استيراد الخمر^(٢) لغير المسلمين، والذي كان معمولاً به من قبل، وفرضه والده السلطان سليمان بسبب أن الخمرات التي كانت عند غير المسلمين ارتادها بعض شباب المسلمين، ومع الأسف الشديد أن وقع ذلك، مما فتح الباب شيئاً فشيئاً أمام تولي أصحاب الشهوات الذين انحرفوا بعد ذلك بالدولة انحرفاً شديداً، حتى غابت الخلافة من سماء الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾

[النساء: ٢٧].

(١) البغدان: إقليم عثماني يشمل جزءاً من مولدا فيا الحالية، وهو من أهم أجزاء رومانيا.

(٢) أحمد آق كوندز «الدولة العثمانية المجهولة»، (ص: ٢٥٧).



والخمر أم الخبائث والكبائر، ومتعاطيها لا يتورع عن ارتكاب كل الفواحش والآثام، ولذلك بدأت تظهر بوادر الفساد في الدولة خطوة فخطوة، كالاستبداد والرشوة والسفاهة والجهل، وقد تصدى لذلك محمد باشا الصقلي مع الفقهاء، غير أنهم لم يستطيعوا القضاء على جذور الفساد الذي بقي كالسوس ينخر عظام الدولة منذ ذلك الزمان، وفي ذلك عبرة لكل أمير أو ذي سلطان، لا يتورع عن تنفيذ أمر الله بمنع الخمر في المجتمعات وبين الناس.

توفي الخليفة سليم الثاني في السابع والعشرين من شعبان سنة (٩٨٢هـ) الموافق للثاني عشر من ديسمبر سنة (١٥٧٤م) عن عمر ناهز الاثنتين والخمسين سنة، قضى منها آخر ثماني سنوات سلطاناً للعثمانيين وخليفة للمسلمين، خلفاً بعده ستة أبناء، هم مراد، ومحمد، وسليمان، ومصطفى، وجهنكير، وعبد الله، وثلاث بنات. وكما أن السلطان سليم الثاني أول سلطان يولد في إسطنبول، فهو كذلك أول سلطان يموت فيها، ودفن في فناء جامع آيا صوفيا^(١).

(١) يلماز أوزتونا «تاريخ الدولة العثمانية»، (١/ ٣٨٢).

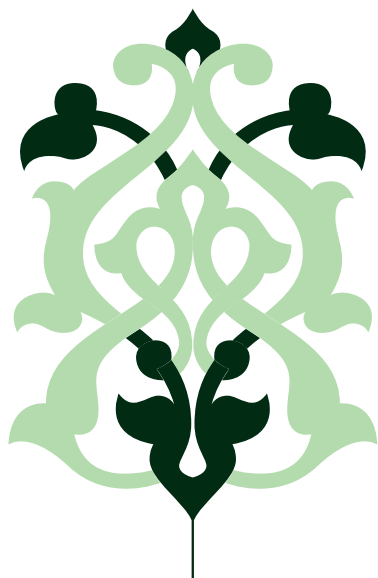


الخلفاء

مراد الثالث - محمد الثالث - أحمد الأول -

مصطفى الأول - عثمان الثاني

الفصل الثامن



تراجم الخلفاء العثمانيين

(٢)

الخليفة الرابع: مراد خان الثالث بن سليم بن سليمان القانوني العثماني (٩٨٢هـ - ١٠٠٣هـ) / (١٥٧٤م - ١٥٩٥م):

مراد الثالث بن سليم الثاني، ولد في إسطنبول في الخامس من جمادى الأولى سنة (٩٥٣هـ) / الرابع من يوليو (١٥٤٦م)، أمه نوربانو سلطان، كانت جارية إيطالية الأصل.

تلقى العلم على يد مشاهير علماء عصره وكان يجيد إلى جانب التركية اللغة العربية واللغة الفارسية، وكان محباً للأدب وللخير، وكان أميراً على قرمان وآلاشهير - فلادلفيا - ومنيسا.

تولى الخلافة بعد موت أبيه، وكانت أول الأعمال التي تصدر بها خلافته أن أصدر أمراً بمنع شرب الخمر واستيرادها، والذي شاع في عهد والده السلطان سليم الثاني، وأفرط فيه الجنود خاصة الإنكشارية، الذين ثاروا على القرار، واضطروه إلى إباحته بمقدار محدد.

• أهم الأحداث في عصره:

وقعت في زمانه أحداث عظام، أثبتت قدرة الصدر الأعظم محمد باشا الصقلي ومن تبعه بعد وفاته، وحفظوا للدولة هيبتها بقدر ما استطاعوا.

ومن أهم هذه الأحداث:

١. دخول بولونيا في حماية الدولة العثمانية: حدث النزاع على عرش بولونيا، فاستغل العثمانيون ذلك، وجعلوا أمير رومانيا التابع للدولة العثمانية ملكاً، وألحقوا بولونيا بإدارته، وبذلك أصبحت رومانيا برمتها تحت الحماية العثمانية، فدخلت بذلك بولونيا تحت الحماية العثمانية سنة (٩٨٣هـ / ١٥٧٥م)، وقد أغار التتار بعد عام على بولونيا، فاستنجدت بالخليفة الذي آزرها، وأعلن حمايتها بمعاهدة رسمية.

٢. الامتيازات للدول الأوروبية: وفي عهده كثر سفراء أوروبا عند الباب العالي، وكان سفير فرنسا في مقدمة سفراء الدول الأجنبية، وقد وُسّع لهم في الامتيازات، حيث كانت سفن الدول الأوروبية تدخل إلى الموانئ العثمانية تحت ظل العلم الفرنسي باستثناء البندقية، ثم إنجلترا بعد ذلك، مما زاد من قوة العلاقة بين السلطان مراد وفرنسا وجمهورية البندقية.



٣. انتصار وادي السيل - معركة القصر الكبير (٩٨٦هـ / ١٥٧٨م): وقعت فتنة داخل بلاد المغرب سنة (٩٨٥هـ)، فاستنجد المستحقون للعرش بالخليفة العثماني، فيما استنجد منافسوه بملك البرتغال سبستيانو^(١)، والذي سار بجيشه إلى المغرب، ودخلها مع ثمانين ألف جندي في حملة، ساعدته فيها أسبانيا مساعدة كبيرة، على أن يقتسموا غنائم المغرب بينهما ثلثين للبرتغال وثلث لأسبانيا.

أمر الصدر الأعظم محمد باشا الصقلي والي طرابلس والجزائر رمضان باشا بمد يد العون للسلطان الشرعي في البلاد، كما سَير حملة كبيرة، قادها رمضان باشا بنفسه، ونازل البرتغاليين سنة (٩٨٦هـ)، وبفضل من الله استطاع رمضان باشا أن ينزل بالبرتغاليين هزيمة كبيرة، في مكان يقال له القصر الكبير جنوب مدينة طنجة، وقُتل سبستيانو، ملك البرتغال، وخسر فيها العدو عشرين ألف قتيل، ونحو أربعين ألف أسير، ونجا منهم عشرون ألفاً، وغنم فيها المسلمون غنائم كثيرة، وكان يوماً مشهوداً، سجله التاريخ، قُتل فيه أيضاً الأمير الذي استنجد بالبرتغاليين، وعاد السلطان الشرعي يتولى البلاد، ودخلت المغرب منذ ذلك العهد في حماية الدولة العثمانية، وأصبحت شمال أفريقيا بأجمعها تابعاً للدولة العثمانية.

٤. الصراع مع الصفويين الأعاجم: توفي شاه إيران طهماسب^(٢) سنة (٩٨٤هـ)، وحدث النزاع بين أفراد أسرته على العرش، والذي قُتل فيه ابنه حيدر بعد ساعات قليلة من بيعته، وقبل دفن أبيه، لذلك دفنا معاً، فبيع لأخيه إسماعيل الثاني ملكاً على إيران، والذي كان يميل إلى منهج أهل السنة والجماعة في الاعتقاد والمذهب الشافعي في الفروع، ولذلك سرعان ما تأمروا عليه، ودرسوا له السم، ومات مسموماً سنة (٩٨٥هـ)، فبيع من بعده لأخيه محمد خدا بنده^(٣)، والذي كان أعمى، لا يبصر، مما جعل السلطة الحقيقية في البلاد بيد أبنائه: ميرزا وحمزة وعباس، وذلك أزم الوضع داخل إيران.

(١) سبستيانو الأول ملك البرتغال، ولد في عشرين يناير (١٥٥٤م) بلشبونه عاصمة البرتغال، وتوفي في (٤) أغسطس (١٥٧٨م) في القصر الكبير بالمغرب، حكم البرتغال من يونيو (١٥٥٧م) وهو طفل صغير إلى أن مات. الموسوعة الحرة.

(٢) كان الشاه طهماسب عند جلوس مراد الثالث قد أرسل وفداً مكوناً من مئتين وخمسين شخصاً بقيادة دقاق محمد خان، والذي حمل معه - على خمسةة حمل - الهدايا من الشاه للسلطان مراد الثالث، حوت جرار مليئة بالأماس والزمرد والياقوت واللؤلؤ والهدايا الأخرى، محاولاً بذلك طي صفحة الصراع مع العثمانيين إلا أنه توفي بعد ذلك بقليل.

(٣) تتكون خدا بنده من كلمتين، خدا بمعنى الإله، وبنده بمعنى العبد، وعند جمعها في الفارسية تعني عبد الله، ولا ينبغي تسمية الله تعالى إلا بما سمى به نفسه، من الأسماء الحسنى التي اختارها لنفسه، ولا يسمى بخدا ولا خدائي ولا غيره.



استغلت الدولة العثمانية هذا الوضع المتأزم داخل إيران، وأرادت أن تصفي شيئاً مما لها عند الصفويين، فأعدت جيشاً بقيادة لالا مصطفى باشا، الذي سار إلى بلاد الكرج (جورجيا)^(١)، فاستطاع أن يفتح عاصمتها تفليس سنة (٩٨٥هـ)، وحقق نصراً حاسماً على جيش شاه إيران، الذي كان يقوده دقماق محمد خان.

ثم رجع الجيش العثماني إلى مدينة طرابزون^(٢) لقضاء فصل الشتاء بها، ثم سار الجيش بقيادة عثمان باشا حاكم إقليم شروان، الذي عينه مصطفى باشا لالا قائداً عاماً، ورجع هو إلى أرض روم، حيث تمكن عثمان باشا من محاربة الصفويين في شروان، وانتصر عليهم في معركة لاهبة سنة (٩٩١هـ / ١٥٨٣م)، حيث وقعت موقعة عظيمة انتصر فيها على جيش الشاه والأعاجم نصراً مبيناً.

بعد ذلك توجه عثمان باشا بجيشه إلى بلاد القرم، لتأديب خان القرم محمد كراي، الذي رفض أن يمد العثمانيين بالعتاد أثناء الحرب، واستطاع أن ينتصر عليه، وأن يدخل مدينة كافا عاصمة القرم سنة (٩٩٢هـ / ١٥٨٤م).

رجع عثمان باشا إلى الأستانة بعد ذلك، وقوبل بكل تعظيم وإكرام من الدولة، وبعد أيام عين صدرًا أعظم للدولة سنة (٩٩٢هـ / ١٥٨٤م)^(٣).

أعد عثمان باشا الصدر الأعظم حملة عسكرية ضخمة، مؤلفة من مئتين وستين ألف مقاتل، وتوجه بها إلى بلاد آذربيجان واخترقها دون كبير معاناة، إلى أن دخل إلى تبريز عاصمة العجم، وهو الفتح العثماني الرابع للمدينة، وبعد أن واجه عثمان باشا جيش الفرس، انتصر على حمزة ميرزا قائدهم، وترك بتبريز حامية عسكرية قوية بعد حرب

(١) الكرج أو كرجستان إقليم يقع جنوب جبال القوقاز، ويحده شرقاً طاجكستان وغرباً البحر الأسود وجنوباً أرمينيا، تتبع عليها الفاتحون، ففتحها المسلمون في خلافة مروان الثاني، وأغار عليها جنكيز خان، وتيمور الأعرج، وفتحها العثمانيون، وبقيت لديهم، ثم استولى عليها الروس وبقيت ضمن الاتحاد السوفيتي، حتى تفكك في سنة (١٤٢٠هـ / ١٩٩٠م)، فاستقلت عن روسيا باسم دولة جورجيا، وبقيت عاصمتها تفليس.

(٢) مدينة تركية كبيرة تقع في الشمال الشرقي على شاطئ البحر الأسود بالقرب من الحدود الروسية.

(٣) كان الصدر الأعظم محمد باشا الصقلي أثناء الصراع مع الصفويين قد قُتل في مؤامرة خسيصة، من حاشية السلطان الذين غدروا به تبعاً لدسائس الأجانب، الذين لا يروق في أعينهم وجود هذا الطراز من الرجال لإدارة أعمال الدولة، فجاء موته ضربة موجعة ومؤلمة ومحنة عظيمة للدولة العثمانية سنة (٩٨٧هـ / ١٥٧٩م)، لا سيما أن الدولة اضطربت بعده في تعيين صدر أعظم، حيث تتابع على المنصب عدة رجال، أولهم أحمد باشا والذي لم يبق في الصدارة إلا نحو عام واحد، ثم عُزل، وعين بعده سنان باشا أحد قادة الجيش الفاتحين لبلاد الكرج، غير أنه عزل من منصبه بعد قليل، ونفي إلى خارج البلاد، ثم تولى مكانه سيافوس باشا المجري الأصل، ثم تولى من بعده عثمان باشا سنة (٩٩٢هـ / ١٥٨٤م).



استمرت نحو ست سنوات، توفي في نهايتها الصدر الأعظم عثمان باشا، وتم بعدها الصلح بين الطرفين، حيث تنازل الصفويون للعثمانيين عن تبريز وبلاد الكرج وإقليم شروان وداغستان سنة (٩٩٣هـ / ١٥٨٥م)، والتي لم تبقى بعد ذلك في يد العثمانيين لفترة طويلة، حيث ضمتها إيران إليها، وذلك بسبب عوامل متعددة ومختلفة ليس المجال لذكرها هنا.

٥. ثورة الإنكشارية: من أهم الأحداث التي وقعت في عهد مراد الثالث ثورة جيش الإنكشارية، الذين رفضوا الصلح مع العجم، لأن معنى إيقاف الحرب هو وقف الغنائم التي كانوا يجنونها من الحروب، فثاروا في الأستانة عاصمة الدولة، وقاموا بقتل ناظر المالية الدفتردار، ومحمد باشا بكربك بعد أن حاصروهما في منزلهما، وقتلوهما شر قتلة، ولم يقوَ السلطان على منعهم، كما ثاروا في مدينة تبريز، وفي مدينة بود عاصمة المجر، وقتلوا وإليها، كما ثاروا في القاهرة عاصمة مصر، وصدرت منهم أعمال في كل هذه المناطق مما يطول عرضه وشرحه.

وفي هذه الأثناء تولى الوزارة مرة أخرى سنان باشا^(١) في سنة (٩٩٧هـ)، ورأى أن يشغل الإنكشارية في الحرب في أوروبا، خاصة على النمساويين الذين اعتدوا على الحدود العثمانية، مما فتح الباب إلى حروب عثمانية جديدة مع الصليبيين.

٦. الحروب العثمانية النمساوية سنة (١٠٠١هـ - ١٥٩٢م): بدأت الحروب العثمانية النمساوية في سنة (١٠٠١هـ) واستمرت لثلاث عشرة سنة، وكان سببها هو اعتداء النمساويين على حدود الدولة العثمانية، وخاصة على المجر التابعة للعثمانيين، قاد جيش العثمانيين في هذه الحرب حسن باشا والي البشناق - البوسنة -، والذي استطاع أن يدخل إلى أراضي النمسا، ولم يتمكن من تحقيق النصر، بل قُتل أثناء الحرب، كما انهزم والي بود

(١) سنان باشا بن علي بن عبد الرحمن، ولد سنة (٩١٢هـ)، ونشأ نشأة علمية وعسكرية، وعندما شب التحق بالبلاط العثماني وأصبح من المقربين للسلطان العثماني سليم الثاني الذي عينه صدراً أعظم، ويعد سنان باشا من أعظم القادة العثمانيين المجاهدين الفاتحين في القرن العاشر الهجري خاصة في شمال أفريقيا، حيث استطاع أن يكسر الأسبان في تونس، وأن يهزمهم هزيمة منكرة، مما أدى إلى فرارهم مع الملك الحفصي العميل لهم محمد بن الحسن إلى قلعة البستيون، فحاصروهم سنان باشا وباشر نقل الحجارة والتراب على ظهره مثل أي جندي، واستطاع أن يفتح القلعة والحصن، حتى ألجأ الحفصيين والإسبان إلى صقلية.

كما أن سنان باشا استطاع أن يخمّد الثورة في اليمن، وأن يدخلها في طاعة الدولة، ولقد تقلد ولاية مصر مرتين، وولاية دمشق مرة، ومنصب الصدر الأعظم ثلاث أو أربع مرات.

ولسنان باشا آثار معمارية شهيرة بالقاهرة وبدمشق من المساجد والجوامع الكبيرة، أو سبل المياه، توفي رحمه الله بعد حياة مليئة بالكفاح والجهاد والعمارة في سنة (١٠٠٤هـ / ١٥٩٦م). محمد فريد بك «الدولة العلية العثمانية».

أمام جيوش النمسا، التي استولت على قلاع كثيرة في المجر.

ثم كانت المؤامرة الكبرى من أمراء أردل والأفلاق «مولودافيا» والبغدان «ترنسيلفانيا»، وكلاهما يمثل الجزء الأعظم من دولة رومانيا الحالية، حيث أعلنوا العصيان على الدولة العثمانية بتحريض من بابا النصارى في روما، وانضموا إلى النمسا معتبرين ذلك حرباً مقدسة للصليب ضد العثمانيين المسلمين.

وفي هذه الأثناء قام سنان باشا بإعداد جيش، تولى قيادته بنفسه، وسار به داخل أوروبا، واستطاع أن يسترد القلاع العثمانية التي استولت عليها جيوش النمسا.

يقول محمد فريد بك^(١): وفي هذا الموقف يجب علينا وعلى كل عثماني التأسف والتحسر على عدم خروج السلطان بنفسه إلى الحرب، وتحجبه عن أعين جيوشه، وعدم قيادتهم بذاته الشريفة إلى ساحات النصر، فلولا ذلك لكانت الغلبة دائماً لهم بإذنه تعالى، فقد عودهم عز وجل النصر على الأعداء في زمن أجداده سليمان وسليم الأول ومن قبلهم، لأن وجود الخليفة الأعظم في رأس جيوشه يثبت فيهم روحاً جديدة، فيتحدون معه قلباً وقالباً، ويسيطرون معه إلى النصر المبين والفوز العظيم، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله. ا.هـ.

ثم توجه سنان باشا بجنوده إلى مدينة بوخارست عاصمة الأفلاق، وفتحها عنوة، إلا أن ميخائيل أمير الأفلاق استطاع أن يلتف على جيش العثمانيين، وأن ينتصر عليه مما أدى بالعثمانيين إلى الانسحاب خلف نهر الدانوب وخسروا عدة مدن.

• وفاة السلطان مراد الثالث:

أُصيب السلطان بالشلل العضال، بعد سنة واحدة من بدأ الحرب مع النمسا، وأنهكه المرض، حتى توفي مساء الثامن من جمادى الأولى سنة (١٠٠٣ هـ)، وهو نفس الشهر الذي ولد فيه سنة (٩٥٣ هـ) الموافق للتاسع عشر من يناير سنة (١٥٩٥ م)، عن عمر ناهز الخمسين سنة، قضى منها إحدى وعشرين سنة تقريباً خليفة على المسلمين.

(١) محمد فريد بك «تاريخ الدولة العلية العثمانية»، (ص: ٢٦٥).



لقد كان السلطان يميل لاقتناء الجواري الحسان، عاملاً بمشورتهن وخاصة جارية بندقية الأصل اسمها بافو، وأطلق عليها اسم صفية، واصطفهاها السلطان لنفسه، وتزوجها، فلعبت دوراً هاماً في شؤون الدولة وخاصة السياسة الخارجية للدولة لمساعدة بلادها الأصلية، كما لعبت أم السلطان السلطانة نوربانو الإيطالية الأصل دوراً هاماً في توجيه سياسة الدولة الخارجية والداخلية، وقد أعطى تدخل النساء في حياة الدولة بعد ذلك أمثلة سيئة وأليمة في التاريخ العثماني، وكما كانت روكسلانا اليهودية الأصل أمماً للسلطان سليم الثاني، كانت صفية النصرانية الأصل أمماً للسلطان محمد الثالث، الذي تولى بعد أبيه.

ومن أشهر الجواري اللاتي كن يتدخلن في أمور الدولة في عهد مراد الثالث، الجارية جانفودا، والتي لعبت دوراً رئيسياً في توجيه بعض أمور الدولة الهامة، مستغلة صراع حريم القصر: أم السلطان، وزوجته صفية، واستطاعت أن تقنع السلطان بتعيين أخيها إبراهيم غير المؤهل والياً على ولاية ديار بكر.

كان عهد مراد الثالث مؤزناً بتدخل نساء القصر في إدارة الدولة، حتى أطلق عليه من بعض المؤرخين عهد السلطانات، وبسبب ذلك جاء الركود والانكسار للدولة مصداقاً لقول النبي ﷺ: «لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَوْ أَمَرَهُمْ امْرَأَةٌ»^(١).

وبرغم ذلك فقد اتسعت الدولة العثمانية في عهد مراد الثالث بفضل الله، ثم بفضل الصدر الأعظم محمد باشا الصقلي، حتى بلغت عشرين مليون كيلو متر مربع.

صُلي على السلطان مراد الثالث، ثم دفن في المقبرة التابعة لجامع آيا صوفيا، ذهب السلطان ليلقى ربه تبارك وتعالى، وفي رقبتة قتل خمسة من إخوته، يُسأل عنهم، ودولة مساحتها عشرون مليون كيلومتر مربع، يُسأل عن إدارتها بين يدي ربه^(٢).

(١) رواه البخاري (١٣/٦٧/ح: ٧٠٩٩).

(٢) «ألبوم السلاطين العثمانيين»، دار كاكنوس (ص: ١٢).

الخليفة الخامس: محمد الثالث بن مراد الثالث بن سليم الثاني العثماني (١٠٠٣هـ - ١٠١٢هـ) / (١٥٩٥م - ١٦٠٣م):

السلطان محمد خان الثالث بن السلطان مراد الثالث، ولد بإسطنبول في السابع من ذي القعدة سنة (٩٧٤هـ) / للسادس عشر من مايو سنة (١٥٦٦م)، أمه صفية - صافية سلطان -، رُبي بالقصر السلطاني كأسلافه من السلاطين، كان له نصيب وافر من التحصيل العلمي، ونشأ شاعراً متصوفاً، له دواوين شعر، كتبها تحت اسم مستعار هو عدلي. وهو آخر الأمراء الذين انتقلوا من ولاية سنجق (والي) إلى ولي عهد ثم ارتقاء العرش.

• أهم الأحداث في عهده:

تولى الحكم، والجيش العثماني مستمر في حروبه مع إمبراطورية النمسا، والأموال الداخلية في أيدي الوزراء، ومنهم: سنان باشا، وجيغالا زاده، وحسن باشا، مما ساعد على نشر الفساد والرشوة وبيع المناصب العسكرية والمدنية، والذي ساهم في انتصار الصليبيين على الجيوش العثمانية، الذين بدؤوا يفقدون شيئاً فشيئاً إقليم البغدان وجزءاً كبيراً من إقليم ترنسلفانيا، وذلك كله بسبب فساد الوزراء وعدم اختيارهم قادة أكفاء لصد الصليبيين.

- السلطان يقود الجيش بنفسه:

اضطر السلطان محمد الثالث - أمام هذه الهزائم، وبإلحاح من مربيه وشيخه سعد الدين أفندي^(١) - أن يقوم بإعداد حملة عسكرية، قادها بنفسه في شوال (١٠٠٤هـ / يونيو ١٥٩٦م)، وسار إلى بلغراد، مما أشعل حماس الجنود، وأحيا فيهم الحمية الدينية، وبدأ يحقق الانتصار تلو الانتصار، ففتح قلعة أورلو الحصينة، واستطاع أن يدمر جيوش المجر والنمسا تدميراً كبيراً، في سهل كرزت، بالقرب من قلعة أورلو - أكرى - في المحرم سنة (١٠٠٥هـ)

(١) سعد الدين أفندي شيخ الإسلام في عهد محمد الثالث: كان رجل دولة كبيراً في عصره، وسياسياً ومؤرخاً، قال عنه المؤرخ هامر: هو من أكبر الدهاة الذين شرفوا الأدب العثماني.

ويعد سعد الدين أفندي جد العائلة العلمية الشهيرة التي تسمى بخوجا زاده لر، وقد شغل اثنان من أبنائه منصب شيخ الإسلام. يلماز أوزتونا «تاريخ الدولة العثمانية»، (١/ ٤٣٣-٤٣٤).



الموافق لأكتوبر (١٥٩٦م)، مما أعاد للدولة هيبتها في أوروبا، وبث روح النصر في قلوب الجنود العثمانيين، ويعدُّ فتح هذه القلعة فتحاً وتوفيقاً من الله تعالى، حيث أنها قد حوصرت من قبل - في عهد سليمان القانوني - تسعاً وثلاثين مرة، وتم فتحها في خلال ثمانية عشر يوماً، وقتل فيها أحد عشر ألف جندي ألماني ونمساوي، كما أُقيمت بها صلاة الجمعة، وخطب الناس سعد الدين أفندي شيخ الإسلام، وكان هذا النصر من أكبر انتصارات العثمانيين، ويعدُّ خروج السلطان بالحملة أول خروج للخليفة منذ وفاة السلطان سليمان القانوني من قبل ثلاثين سنة، وبسبب هذا الفتح اشتهر السلطان بفتح قلعة أكرى.

وكان الشعب قد استقبل السلطان في بلغراد بحفاوة منقطعة النظير، وقد جرت مراسم استعراض قوات الجيش وفصائله المختلفة.

ورجع السلطان إلى الأستانة، وقام بتعيين جيغالا زاده صدرًا أعظم، ولم يكن هذا التعيين مفيداً للدولة، مما أحدث الفتن، فاضطر السلطان إلى عزله، وإعادة إبراهيم باشا إلى منصب الصدر الأعظم سنة (١٠٠٨هـ / ١٥٩٩م).

ظلت الحرب العثمانية النمساوية مشتعلة، وقد حققت جيوش العثمانيين بقيادة حسن باشا ومراد باشا انتصارات هامة في أوروبا.

في هذا الوقت قام الشاه الصفوي باستغلال انشغال الدولة في حروبها مع النمسا، فنقض المعاهدة بينه وبين الدولة العثمانية، وأعلن الحرب عليها، مستغلاً ومؤيداً لحركات التمرد على الدولة العثمانية في الأناضول.

- ثورات وفتن:

كما وقعت بالأناضول فتن عظيمة، وثورات داخلية، منها ثورة اشتهرت باسم (تمردات جلالي)^(١)، ومنها ثورة داخلية، بقيادة رجل يقال له قره يازجي

(١) جلالي نسبة إلى قزلباش الشيخ جلال الذي قاد عصياناً سنة (٩٢٥هـ / ١٥١٩م) على عهد السلطان سليم الأول، فسميت جميع الحركات التي تقوم بالعصيان في هذه المنطقة من الأناضول باسم جلالي، وكانت المرحلة الأولى منها هي حركة عصيان التركمان الشيعة الاثني عشرية ضد الدولة العثمانية، بتحريض من الدولة الصفوية التي كانت تعمل دائماً على إثارة القلاقل في الدولة العثمانية. وبرغم أن السلطان سليم الأول استطاع القضاء على عصيان القزلباش جلال إلا أن هذه الحركة تحولت إلى شوكة في ظهر الدولة تدفعها دائماً إيران الصفوية، كما حدث في عهد السلطان سليمان القانوني بعد أن أعدم ولده الأمير مصطفى، حيث التف الجلاليون حول رجل لُقّب بدوزجحة مصطفى - يعني مصطفى المزيف - وأعلنوا العصيان ضد الدولة.



عبد الحليم^(١) قام معلناً الثورة والتمرد على العثمانيين، وتبعه على ذلك جمع كبير من الجنود المنفيين بأمر السلطان إلى تلك المناطق، تأديباً لهم، بسبب فرارهم من معركة كرزت.

استطاع قرة يازجي أن يدخل إلى مدينة عنتاب، فتقدمت إليه الجيوش العثمانية، وحاصرتة حصاراً شديداً، فأعلن الاستسلام على أن يُعطى ولاية أماسيا، فوافق العثمانيون على ذلك، فلما ارتحلوا عنه أظهر العصيان مرة ثانية، وأعانه أخوه دلي حسن^(٢) والي بغداد.

فعاد الجيش العثماني مرة أخرى بقيادة صقلي حسن باشا، واستطاع أن يتصر على قرة يازجي الذي توفي متأثراً بجراحه، غير أن أخاه دلي حسن قاد جيشاً، انتصر به على صقلي حسن باشا، وقتله في سنة (١٠١٠هـ)، واستطاع بعد ذلك أن يهزم ولاية ديار بكر وحلب ودمشق، وحاصر مدينة كوتاهية في غرب الأناضول، واشتد خطره، مما اضطر الدولة العثمانية أن تأخذه بالدين والمهادنة، وأن تستفيد منه في مواجهات عسكرية أكبر، فأجزلت له العطايا والهبات، ثم نصبته والياً على البوشناق - البوسنة -، فأعلن إخلاصه للدولة العثمانية، وظل يقاتل في أوروبا مع جيشه إلى أن فني هو وجنوده عن آخرهم في مواجهاته مع المجر والنمسا، مما أراح الدولة العثمانية من شره وأطماعه.

كما قامت ثورة أخرى - بعد حركة قرة يازجي ودلي حسن بالأستانة - من جنود الخيالة، الذين فقدوا ريع الإقطاعات المعطاة لهم في بلاد آسيا بسبب ثورة قرة يازجي سنة (١٠١٢هـ / ١٦٠٣م)، ولم تكن الدولة لديها القدرة على تلبية طلبهم، لأنها كانت تمر بنقص مالي، فثار هؤلاء، وأرادوا نهب ما في المساجد من التحف، والإفساد في أرجاء العاصمة، فقامت الدولة بمواجهتهم بالجيوش الإنكشارية؛ وأدخلتهم في طاعتها بعد أن أريق دماء زكية في هذه الفتنة.

= كما قامت حركات سلون، وبابا ذو النون، وطموز أوغلان، تحت الشعار العلوي ضد الدولة العثمانية.

وأصبح الجلاليون يلتفون حول كل عصيان وثورة تدعمها الدولة الصفوية في الأناضول. أحمد آق كوندز «الدولة العثمانية المجهولة»، (ص: ٢٧٤-٢٧٨).
(١) قرة يازجي عبد الحليم: كان رئيساً لفرقة عسكرية، لم تثبت في واقعة كرزت المتقدمة، وولت الأدبار، فنفاهم السلطان إلى ولايات آسيا، وأطلق عليهم اسم فراري تحقيراً لهم وعبرة لغيرهم، وادعى قرة يازجي أن النبي ﷺ جاءه في الرؤيا، ووعدته بالنصر على آل عثمان وفتح ولايات آسيا، فتأثر به من حوله كطبيعة الصفوية في كل زمان ومكان الذين يزعمون أن دينهم يقوم ويبني على الرؤى، وأنهم يأخذونه حي عن حي، وتعدّ حركته أول حركة عصيان كبرى في عهد السلطان محمد الثالث. أحمد آق كوندز «الدولة العثمانية المجهولة»، (ص: ٢٧٧).

(٢) دلي تعني المجنون.



كما كانت هناك حركات عصيان أخرى، مثل حركة عصيان أحمد الطويل، وحركة عصيان علي باشا جمبلاط، والذي يضيق المقام بذكرهما.

• وفاة السلطان محمد الثالث:

لم يتحمل السلطان أخبار الهزيمة التي تعرض لها جيشه أمام الصفويين، كما أن تمردات جلالي أحدثت في نفسه الحزن الشديد، مما أدى إلى وفاته في هذه السنة (١٠١٢هـ) في الثاني عشر من رجب الموافق للسادس عشر من ديسمبر (١٦٠٣م)، وعمره سبع وثلاثون سنة، بقي منها تسع سنوات خليفة للمسلمين، وسلطاناً للعثمانيين، ودفن في مقبرة آيا صوفيا بإسطنبول^(١).

ويعدُّ محمد الثالث من أضعف السلاطين العثمانيين، وهو الذي فتح الباب لسطوة النساء في الدولة وإظهار كافة مساوئها، وخاصة ضعفه الشديد أمام والدته التي كان لها تأثير كبير في تسيير أمور القصر.

(١) «ألبوم السلاطين العثمانيين»، دار كاكنوس (ص: ١٣).

الخليفة السادس: أحمد الأول بن محمد الثالث العثماني (١٠١٣هـ - ١٠٢٦هـ) / (١٦٠٣م - ١٦١٧م):

السلطان أحمد أفندي الأول بن السلطان محمد خان الثالث، ولد في الثاني عشر من جمادى الآخرة سنة (٩٩٨هـ / ١٨ أبريل ١٥٩٥م)، وتلقى تعليماً جيداً في صغره، وأجاد إلى جانب اللغة التركية اللغتين: العربية والفارسية، واهتم بالشعر والأدب، وله ديوان شعري، كتبه باسم مستعار هو -بختي-، وتلقى في الصغر التدريبات الرياضية والعسكرية مما أكسبه مهارات عالية في ركوب الخيل والرمي.

• أهم الأحداث في عصره:

تولى الخلافة والسلطنة، وعمره أربع عشرة سنة، في الثامن عشر من رجب (١٠١٢هـ) خلفاً لوالده السلطان محمد الثالث، تولى الخلافة، والبلاد تموج بالفتن في الداخل، إلى جانب الحروب المستمرة مع النمسا ومع الصفويين في إيران.

كان يستشير دائماً أهل العلم والخبرة في كل ما يعرض له، كما رفض أن يقتل أخاه مصطفى كعادة ما كان يجري من قبل، وأصدر قانون الأكرية، الذي بمقتضاه يتم تنصيب أكبر أفراد العائلة ولياً للعهد، وكان السلطان أحمد على صغر سنّه ورعاً زاهداً يرتدي ملابس في غاية البساطة، وقام بإنشاء المسجد الجامع الشهير باسمه - جامع السلطان أحمد - في إسطنبول، والذي لا يزال مشرقاً، يصدح منه نداء الحق الخالد: أشهد أن لا إله إلا الله. أشهد أن محمداً رسول الله. حي على الصلاة. حي على الفلاح، وقد استمر في بنائه مدة سبع سنوات وخمسة أشهر وستة أيام، وهو المسجد الوحيد ذو المآذن الست^(١).

وقام السلطان أحمد في عهده بسنة حسنة، وهي إرسال كسوة الكعبة الشريفة من مركز الخلافة الأستانة، وكانت تُرسل قبل من مصر فقط، وقد ظلت أيضاً تُرسل من مصر، فأصبح للكعبة كسوتان: واحدة من الأستانة، والأخرى من مصر، وكلاهما بأمر الخليفة.

(١) يلهاز أوزتونا «تاريخ الدولة العثمانية»، (١/ ٤٥٢-٤٥٣).



وكان هذا السلطان يشعر بمسؤوليته نحو كل مسلم، في أي مكان على وجه الأرض، فلقد أرسل في سنة (١٠١٩هـ / ١٦١٠م) الحاج إبراهيم أغا سفيراً فوق العادة إلى لندن، وكان الهدف من ذلك هو جمع الأندلسيين الفارين إلى أوروبا الغربية، الذين لم يتمكنوا من الذهاب إلى شمال أفريقيا، والذين كانوا يعاملون معاملة العبيد، فقام الحاج إبراهيم أغا بهذه المهمة، وهي جمع العائلات التي يعثر عليها وإرسالها إلى الدولة العثمانية معززة مكرمة^(١).

وَقَّعَ الله تعالى هذا السلطان للقضاء على فتن الولايات الشرقية، خاصة حركة جان بولاد الكردي، وحركة والي أنقرة قلندر أوغلي، وحركة فخر الدين المعني الدرزي في الشام^(٢).

كما قيّد الله للسلطان أحمد وزيراً مخلصاً، كان خير معين له على إدارة الدولة، هو مراد باشا، الملقب بقويوجو، والذي أصبح صدرًا أعظم، وقد تجاوز الثمانين من العمر، وبرغم ذلك تولى قيادة الجيوش بنفسه، وحارب الثائرين، فانتصر على فخر الدين المعني وجان بولاد، واستمال قلندر أوغلي، وعيّنه والياً على أنقرة، واستطاع أن يقتل أحمد بك بالقرب من قونية، والذي قاد عصياناً ضد الدولة، كما استطاع القضاء على حركات العصيان في شرقي الأناضول قرب بحيرة وان، وقتل آخر زعمائهم يوسف باشا، الذي استقل ببعض الأقاليم هناك، وبذلك عادت إلى الدولة هيبتها في تلك المناطق، وعادت السكينة، وساد الأمن بفضل الله تعالى، ثم بحكمة مراد باشا الصدر الأعظم وشجاعته، والذي لقب بسيف الدولة عن استحقاق.

- الحرب مع الصفويين:

استغل الصفويون الاضطرابات في الأناضول وانشغال العثمانيين بإخمادها، فقاموا بقيادة الشاه عباس الكبير بالهجوم على القلاع العثمانية، واستطاع احتلال تبريز وأريافان عاصمة أرمينيا وشروان وقارص، مما اضطر الدولة العثمانية بعد عدة سنوات من الحرب أن تبرم

(١) يلماز أوزتونا «تاريخ الدولة العثمانية»، (١/ ٤٥٢-٤٥٣).

(٢) انظر الحركات المناوئة للخلافة العثمانية بالكتاب.

صلحاً مع الصفويين فقدت فيه كل الأراضي التي ضمها السلطان سليمان القانوني، بما في ذلك بغداد، وذلك في سنة (١٠٢١هـ / ١٦١٢م)، ومن المؤسف أن هذه كانت بداية التراجع في القوة والمساحة بالنسبة للدولة العثمانية.

يقول محمد فريد بك^(١): وهذه أول معاهدة، تركت فيها الدولة بعض فتوحاتها، ويمكننا القول بكل أسف وحزن: إنها كانت فاتحة الانحطاط، وأول المعاهدات المشؤومة.

– الحرب على الجبهة الأوروبية ومعاهدة ستواتوروك:

كانت المجر تابعة للدولة العثمانية، وهي محط الصراع بين العثمانيين وبين الإمبراطورية النمساوية، فاستغل النمساويون انشغال العثمانيين في الولايات الشرقية بحروبهم مع الصفويين، وسيطروا على بلاد المجر، وعاملوا أشرافها وأمرائها معاملة سيئة لإخلاصهم للدولة العثمانية، إلا أن المجرين لم يرتضوا بذلك، وانتخبوا الأمير بوسكاي ملكاً عليهم سنة (١٠١٤هـ / ١٦٠٥م)، وطلبوا من الدولة العثمانية أن يبقوا في حمايتها، فسُرت الدولة بذلك، وأمدت الملك بوسكاي بالجيوش.

واستطاع العثمانيون فتح الحصون التي سيطر عليها النمساويون واستردادها، مما أربع النمسا، وجعلها تخشى من امتداد الفتوحات العثمانية، فالتفت على المجرين بطريقة خبيثة، واعترفت ببوسكاي ملكاً للمجر ولجميع الأقاليم المجرية سوى الألماي منها، وذلك بهدف تعكير صفو العلاقة بين المجر والدولة العثمانية، وعوناً للمجر للتمرد على العثمانيين، مما اضطر الدولة العثمانية أن تدخل في معاهدة صلح مع إمبراطور النمسا سنة (١٠١٥هـ / ١٦٠٦م)، وأن تسقط عن النمسا الجزية السنوية التي كان مقدارها ثلاثين ألف دوكا، مقابل أن تدفع النمسا مئتي ألف دوكا مرة واحدة، وأن تحتفظ الدولة العثمانية بالحصون التي تحت يدها، وبقيت المجر تابعة للدولة العثمانية، بعضها تبعية فعلية، والآخر تبعية حماية، كما بقي إقليم ترنسلفانيا محايداً بين الدولتين بعد أن رفض الدخول في الإمبراطورية النمساوية، وفضل البقاء تحت الحماية العثمانية، التي لم تتعرض لسكان الإقليم في دينهم ولا عوائدهم مكتفية بالجزية السنوية، وسميت هذه المعاهدة بمعاهدة ستواتوروك.

(١) «تاريخ الدولة العلية العثمانية»، (ص: ٢٧٢).



- الحروب البحرية:

وقعت حروب بحرية بين سفن الأسطول العثماني وبين سفن الولايات الإيطالية وسفن رهبان القديس يوحنا في مالطا وأسبانيا، خسر فيها العثمانيون سفناً كثيرة، مما اضطر الصدر الأعظم نصوح باشا إلى سحب سفن الأسطول العثماني من البحر الأسود، وتوجيهها إلى البحر المتوسط، لمواجهة السفن الصليبية المجتمعة، ولحفظ الطريق البحري بين الأستانة والولايات الغربية على ساحل البحر المتوسط التابعة لها، مما أطمع أمراء القوزاق على البحر الأسود، فأغاروا على ميناء سينوب^(١)، ونهبوه، وعندئذ وقع الخلاف بين السلطان وبين الصدر الأعظم، بسبب أنه أدخل البحر الأسود العثماني من الحماية العسكرية، مما فتح الباب على مصراعيه للطاعنين في الصدر الأعظم وتصرفه، فأوغر ذلك صدر السلطان الذي أمر بقتل الصدر الأعظم على أثر ذلك.

- الامتيازات الأوروبية:

جددت الدولة العثمانية امتيازات فرنسا وإنجلترا، ومنحت بلاد الفلمنك^(٢) الامتيازات نفسها، كما جددت معاهدتها مع مملكة بولونيا.

وبسبب الفلمنك الهولنديين انتشر تعاطي التبغ بين الجنود العثمانيين، مما جعل الدولة تستصدر فتوى في حكم تعاطيه، فأصدر المفتي فتوى بأن تعاطيه حرام، فأثار ذلك ثائرة الجند وموظفي السرايا السلطانية، مما اضطر العلماء إلى السكوت عنهم.

وفي سنة (١٠٢٥هـ / ١٦١٦م) أمر السلطان أحمد بتشيد جامع بميدان الخيل الكائن بإسطنبول، بالحلي الشهير باسمه: حي السلطان أحمد، وقد اشتهر السلطان رحمه الله بإقباله على الله وكثرة الطاعات وبرجاجة العقل، وكانت معظم قراراته صائبة، ومن أميز ما ميز عهده الحد من نفوذ نساء القصر في شؤون الحكم.

(١) سينوب: مدينة وميناء ساحلي تقع في أقصى شمال تركيا، وتطل على البحر الأسود، يقع بها ميناء آق ليمان التاريخي القديم، وهي اليوم إحدى ولايات الجمهورية التركية. ترك برس.

(٢) بلاد الفلمنك يقصد بها: هولندا حالياً، وكانت مكونة من عدة ولايات وتابعة لمملكة النمسا، ثم استقلت سبع من الولايات الشمالية في أواخر القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي، وشكلت دولة بهيئة جمهورية، سميت: بالولايات المتحدة. د. إحسان حقي: تحقيق كتاب: «تاريخ الدولة العلية العثمانية»، لمحمد فريد بك (ص: ٢٧٤-٢٧٥).



و شاء الله سبحانه وتعالى في الثالث والعشرين من ذي القعدة سنة (١٠٢٦ هـ) الموافق
لثاني والعشرين من نوفمبر (١٦١٧ م) أن توفي السلطان أحمد، وعمره في الثامنة والعشرين،
قضى منها أربع عشرة سنة خليفة للمسلمين وسلطاناً للعثمانيين، وصُلِّيَ عليه، ودفن في
المقبرة التي خصصت له التابعة لمسجد السلطان أحمد.



الخليفة السابع: مصطفى الأول بن محمد الثالث بن مراد الثالث العثماني (١٠٢٦هـ - ١٠٢٧هـ) / (١٦١٧م - ١٦١٨م) ثم (١٠٣١هـ - ١٠٣٢هـ) / (١٦٢٢م - ١٦٢٣م):

السلطان مصطفى الأول بن السلطان محمد الثالث، ولد في سنة (١٠٠١هـ)، لم يحظَ بالتعليم اللائق به، ففضى حياته داخل القصر، ولم توكل إليه أية مهمة رسمية تصقله، وتكسبه خبرة القيادة، وشاء الله سبحانه وتعالى ألا يقتله أخوه السلطان أحمد، وتركه بين الخدم والجواري، فعاش حبساً في القصر، قليل الحيلة، خفيف العقل، ولم يكن أهلاً للقيادة.

عندما توفي السلطان أحمد كان ابنه عثمان صغيراً، لا يصلح للخلافة، لذا عهد لأخيه مصطفى الأول بالخلافة من بعده، فتولى الخلافة والسلطنة التي لم يكن راغباً فيها لثلاثة أشهر، ثم قام ذوو الرأي^(١) بإقصائه، وبايعوا للسلطان عثمان الثاني في أول سنة (١٠٢٧هـ / ١٦١٨م).

وعند خلع السلطان عثمان الثاني، وقتل أتي بالسلطان مصطفى المخلوع ليتولى السلطنة التي لم يكن يريد لها، فبويع له للمرة الثانية سنة (١٠٣١هـ / ١٦٢٢م).

كان مقتل السلطان عثمان الثاني سبباً في ظهور الفتن والانقسامات الداخلية، فحاول السلطان مصطفى إخماد هذه الفتن، فعزل قرة داود باشا الصدر الأعظم، وعين في مكانه حسين باشا.

ولم تفلح هذه المحاولات في إخماد الفتن وحركات التمرد والعصيان، واستمرت الاضطرابات الداخلية وإفساد جيش الإنكشارية في البلاد بالنهب والسلب، حتى تمّ تعيين كمانكش قرة علي باشا صدراً أعظم، فجمع رؤوس القوم وأعيان الدولة، واستشارهم في عزل السلطان مصطفى مرة ثانية، بسبب ضعف عزيمته وقلة حيلته وخفة عقله، فوافقوه على ذلك، وتمّ عزله في الخامس عشر من ذي القعدة سنة (١٠٣٢هـ) / الحادي عشر من سبتمبر (١٦٢٣م)، وولّوا مكانه السلطان مراد الرابع.

وبقي السلطان مصطفى بعد عزله على قيد الحياة إلى سنة (١٠٤٩هـ / ١٦٣٩م) حيث توفي رحمه الله، وصلي عليه، ودفن في مقبرة جامع آيا صوفيا في إسطنبول.

(١) بايع رجال العلم وقادة الدولة مصطفى الأول عن غير قناعة ورضا نفس، بسبب خفة عقله وعدم أهليته لقيادة الدولة، وقد اضطروا إلى ذلك حفاظاً على الدولة، وقاموا هم بأمورها؛ وكان أشهرهم شيخ الإسلام أسعد أفندي، ومصطفى أغا الملقب: بأغا دار السعادة، والقائم مقام صوفي محمد باشا، ولما وجدوه أنه لا يصلح، عزلوه بعد ثلاثة أشهر لعدم أهليته. أحمد آق كوندز «الدولة العثمانية المجهولة»، (ص: ٢٨٥).

الخليفة الثامن: عثمان الثاني بن أحمد الأول بن محمد الثالث العثماني (١٠٢٧هـ - ١٠٣١هـ) / (١٦١٨م - ١٦٢٢م):

السلطان عثمان الثاني بن السلطان أحمد الأول بن السلطان محمد الثالث، ولد السلطان عثمان في سنة (١٠١٣هـ)، وتلقى تعليماً يليق به في طفولته من العلوم الدينية والكونية، وكان يجيد إلى جانب اللغة التركية، اللغة العربية والفارسية والإيطالية واليونانية واللاتينية، وكان مولعاً بالشعر ومحباً له وكان يكتبه باسم مستعار هو فارسي، ومما كتبه:

كانت نيتي الخدمة لحكومي ودولتي وللعجب أن الحسود يعمل لنكبتني^(١)
اشتهر السلطان عثمان بذكاء حاد، وبضخامة الجثة والبنية الرياضية، والتي أكسبته هيئة مؤثرة في نفوس الناظر له، وكان يُلقب بكنج عثمان، وتعني عثمان الشاب.
تولى السلطنة وهو في السنة الرابعة عشرة، كما كان أبوه الذي تولى أيضاً السلطنة في السنة الرابعة عشرة.

• أهم الأعمال في عصره:

استقبل أعمال السلطنة بتوقيع معاهدة مع الصفويين في إيران، لإيقاف الحرب، وأعلن الحرب على بولونيا لتدخلها في شؤون إمارة البغدان، التابعة للدولة العثمانية، وانتهت بتوقيع الصلح بين الطرفين بناءً على رغبة بولونيا وضغط جيش الإنكشارية على السلطان من أجل قبول الصلح وإيقاف الحرب، مما أدى إلى استياء السلطان من الإنكشارية، ودفعه لأن يفكر في استبدالهم بجيش آخر لإصلاح الدولة، فأرسل إلى ولاية حلب والشام ومصر، وطلب منهم القيام بتهيئة جيش جديد، يحل محل الإنكشارية، ويكون ولاؤه لله، ثم للدولة العثمانية.

همَّ السلطان بالذهاب لأداء فريضة الحج، غير أن قادة الجيش ووالد زوجته شيخ الإسلام أسعد أفندي عارضوا ذلك بشدة، خشية أن يستغل المنافقون وخصوم السلطان ذهابه الذي يستمر نحو ثلاثة أشهر، فيحققوا مآربهم في غيابه، وكان من أشد خصوم السلطان

(١) عبد القادر ده ده أوغلو «ألبوم العثمانيين»، الدار العثمانية للنشر / إسطنبول (ص: ٦١).



داود باشا الصدر الأعظم، والملقب بقارا (الأسود)، كما كانت والدته السلطان مصطفى (خوندان سلطان) واحدة من ألد خصوم السلطان، وكانت تعمل للقضاء على السلطان الشاب انتقاماً لولدها الذي أُقيل.

وكان داود باشا يعمل إلى جانب الإنكشارية، من أجل بقائهم جيشاً وقوةً للعثمانيين، والذين بلغهم خبر إعداد السلطان جيشاً بديلاً، مما دفعهم إلى إثارة الفتن والتدمر، واتفقوا على القيام بعزل السلطان، فتم لهم ذلك في مأساة كبرى، سميت بالمأساة العثمانية، حيث هاجموا القصر من باب السلطان، ودخلوا إلى الحرم ملك، وهو المكان المخصص للنساء، حيث كان السلطان مع زوجاته وجواريه، وقادوه بالقوة في شكل مأساوي، وهم يهينونه، ويسبونونه وينالون منه، في واقعة لم يسبق لها مثيل في تاريخ الدولة العثمانية، وقاموا بنقل السلطان إلى قلعة يدي قلة - السبع قلال - حيث كان داود باشا وعمر باشا الكخيا وقلندر أوغلي وغيرهم من الخصوم، وقاموا بإعدام السلطان خنقاً غير مبالين بعواقب هذا الجرم العظيم الذي سفكوا فيه دم الخليفة بغير حق.

يقول محمد فريد بك^(١): وهنا يقف القلم، ويكف المداد عن وصف هذه الفعلة الشنعاء، والكبيرة الشعواء تاركاً وصفها للقارئ اللبيب والمطلع الأديب. ١. هـ.

قُتل السلطان عثمان الثاني رحمه الله في التاسع من رجب (١٠٣١ هـ) الموافق للعشرين من مايو (١٦٢٢ م)، ولم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره، قضى منها نحو أربع سنوات ونصفاً خليفة للمسلمين وسلطاناً للعثمانيين، ودفن إلى جوار والده السلطان أحمد في إسطنبول.

وترتب على قتل الخليفة إعادة السلطان مصطفى إلى سدة الحكم، فانتشرت الفوضى في البلاد، وتمرد كل طاعن وطامع، وصارت الحكومة ألعوبة في أيدي الإنكشارية، ينصبون من شاؤوا، ويعزلون من شاؤوا، فقد قاموا بعزل داود باشا قاتل السلطان، كما كانوا يمنحون المناصب لمن يجزل لهم العطايا، فبيعت الوظائف جهاراً، وانتشرت

(١) «تاريخ الدولة العلية العثمانية»، (ص: ٢٧٨).

الفوضى في عاصمة الدولة، مما أطمع بعض الولاة في التمرد.

فأعلن والي طرابلس الشام الاستقلال عن الدولة، وقام بطرد الإنكشارية، كما أعلن والي أرض روم أباطا باشا الاستقلال، وضم إليه سيواس وأنقرة، وقام بقتل كل من وقع في يديه من الإنكشارية مدعياً الانتقام للسلطان عثمان، وتوجه إلى بورصة، فحاصرها، ودخلها بعد ثلاثة أشهر.

استمرت حالة الفوضى والاضطرابات تعم العاصمة والولايات لثمانية أشهر، حتى تم تعيين كمانكش علي باشا^(١) صدراً أعظم، والذي قام بعزل السلطان مصطفى مرة ثانية^(٢) في الخامس عشر من ذي القعدة سنة (١٠٣٢هـ) / للحادي عشر من سبتمبر (١٦٢٣م)، وولوا مكانه السلطان مراداً الرابع، لتطوى صفحة هذه المرحلة العصيبة في تاريخ الأمة الإسلامية.

(١) كمانكش علي باشا: علي جلبي الملقب بكمانكش قره علي باشا، وهو اللقب الذي حمله اثنان من الصدور العظام في حياة السلطان مراد الرابع، أولاهما: علي باشا، والثاني: كمانكش قره مصطفى باشا، وتعني كمانكش: الماهر برمي القوس، وهي رياضة شهيرة في ذلك الزمان.

ولد قريب من أسبارطا من أصل تركي، وبعد دراسته داخل القصر العثماني تنقل في مناصب مختلفة، أكسبته الخبرة وهيأته لتولي منصب الصدر الأعظم في عهد السلطان مصطفى الأول، وعهد السلطان مراد الرابع.

توفي في عهد السلطان مراد الرابع سنة (١٠٣٣هـ / ١٦٢٤م)، ودفن في مقبرة جامع عتيك علي باشا. د. إحسان حقي محقق كتاب: «تاريخ الدولة العلية العثمانية» لمحمد فريد بك (ص: ٢٧٩).

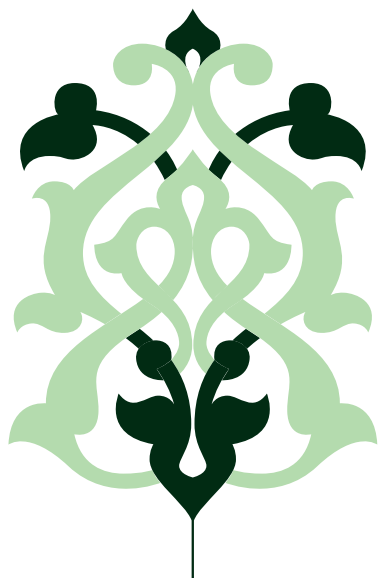
(٢) سبق ذكر ذلك في الحديث عن السلطان مصطفى الأول.



الخلفاء

مُرَادُ الرَّابِعِ - إِبْرَاهِيمُ الْأَوَّلُ - مُحَمَّدُ الرَّابِعِ -
سُلَيْمَانُ الثَّانِي. أَحْمَدُ الثَّانِي

الفصل التاسع



تَرَاجِمُ الْخُلَفَاءِ الْعُثْمَانِيِّينَ
(٣)

الخليفة التاسع: مراد الرابع بن أحمد الأول بن محمد الثالث العثماني (١٠٣٢هـ - ١٠٤٩هـ) / (١٦٢٣م - ١٦٤٠م):

السلطان مراد الرابع بن السلطان أحمد الأول، ولد في الثامن والعشرين من جمادى الأولى سنة (١٠١٨هـ) / الموافق للتاسع والعشرين من أغسطس (١٦٠٩م)^(١)، تربى في القصر السلطاني، وتلقى التعليم اللائق بالأمرء من العلوم الشرعية والكونية، أتقن اللغة العربية وعدة لغات أوروبية، نشأ محباً للعلماء وشديد الاحترام لهم، وكان رامياً ماهراً، طويل القامة ضخم الجثة مهيب الطلعة.

• أهم الأحداث في عصره:

تولى الخلافة وعمره أربع عشرة سنة، وانقسم عهده إلى مرحلتين:

المرحلة الأولى: والتي كان السلطان فيها سلطاناً بالاسم فقط، وكان المسير للأمور أمه ماهيكر المعروفة بكوسم سلطان، وهي التي تدير الدولة مستشيرة ومستعينة بشيخ الإسلام، والوزراء والمخلصين للدولة، واستمرت هذه المرحلة إلى سنة (١٠٤١هـ / ١٦٣٢م).

وتعدُّ هذه المرحلة مرحلة تفلَّت للدولة، حيث تجاوز الإنكشارية حدودهم، وتدخلوا في ما لا يعينهم من أمور الدولة، وانتشرت الرشوة، وسوء استغلال المناصب، كما أريق دماء بريئة على أيديهم.

كما أن الصراع بين الصدر الأعظم وشيخ الإسلام أدى إلى زيادة الفساد في الدولة؛ واستغل الصفويون الأمر، حيث استطاعوا أن يحتلوا بغداد، وأخفى الصدر الأعظم كمنكش علي باشا سقوط بغداد عن السلطان، مما كان سبباً في إصدار قرار سلطاني بإعدامه، وتعيين شركس محمد باشا صدراً أعظم، والذي توفي أثناء توجهه إلى شرقي الأناضول لإخماد ثورة أباظا باشا، فعُين من بعده حافظ أحمد باشا صهر السلطان صدراً أعظم، والذي استطاع أن يفاوض أباظا باشا، وأدخله في الطاعة، وعينه والياً على البوسنة (١٠٣٧هـ).

(١) نشرت بعض المصادر التركية الحديثة أن السلطان مراد الرابع ولد في سنة (١٠٢١هـ / ١٦١٢م)، وعلى ذلك يكون قد ارتقى الحكم وعمره إحدى عشرة سنة، ونستبعد ذلك لصغر سنه هذا عند توليه الخلافة، وذكر محمد فريد بك بأنه ولد في سنة (١٠١٨هـ / ١٦٠٩م)، وهذا هو الأليق، فقد سبقه من تولى وعمره أربع عشرة سنة، وهو سن البلوغ والتكليف.



وكانت هذه المرحلة مرحلة صعبة في حياة الدولة، استمرت لأكثر من ثمان سنوات، حاول فيها بعض فرق الجيش إقصاء السلطان وتولية ولي العهد الأمير بايزيد سلطاناً، وسميت هذه الحركة بثورة عشرين شعبان وفشلت فشلاً ذريعاً في سنة (١٠٤١هـ/ ١٦٣٢م)، حيث قام السلطان بإعدام رجب باشا رأس الفتنة، مما مهد لبداية المرحلة الثانية في حياة السلطان مراد الرابع.

المرحلة الثانية: وهي المرحلة التي تُعدُّ مرحلة الحكم الحقيقي للسلطان مراد الرابع، وتبدأ من مقتل رجب باشا والقضاء على رؤوس الفتنة والعصاة، وتنتهي هذه الفترة بوفاة السلطان (١٠٤٩هـ/ ١٦٤٠م)، وهي السنوات الثماني الأخيرة من عمره، ظهر فيها السلطان متأثراً بالحركة الإصلاحية لقاضي زاده أفندي، والذي كانت آرائه ضد الطرق الصوفية والتصوف، وتدعو إلى العودة للعمل بالكتاب والسنة، بفهم سلف الأمة^(١).

أهم أحداث المرحلة الثانية:

أولاً: القضاء على الثورات الداخلية والمتمردين، الذين كانوا سبباً في مقتل أخيه الكبير السلطان عثمان الثاني، وسبباً في نشر الاضطرابات والفساد في الدولة، وقام بإعدام رؤوس هذه الفتنة.

كما استطاع القضاء على فخر الدين المعني الدرزي^(٢) وابنه مسعود، حيث قام بإعدامهما بالأستانة (١٠٤٥هـ/ ١٦٣٥م).

ثانياً: تطهير الدولة من الموبقات وأنواع الفساد المنتشرة، حيث استغل السلطان الحريق الكبير الذي التهم خمس مدينة إسطنبول في سنة (١٠٤٣هـ/ ١٦٣٣م)، وقد كان الحريق بسبب تعاطي الدخان، فاستصدر فتوى من شيخ الإسلام آخي زاده حسين أفندي بتحريم زراعة التبغ وتدخينه، ولم يكتف بذلك، بل عدّ من يخالف هذا التحريم عاصياً للدولة، جزأوه القتل.

(١) راجع أهم الأحداث في عهد الدولة العثمانية بالكتاب.

(٢) كان السلطان عثمان الثاني قد عفا عنه، وأطلقه، غير أنه استغل الأحداث والاضطرابات، وعاد إلى الثورة مرة أخرى في جبل لبنان.

وقام السلطان بإغلاق جميع المقاهي التي انتشرت في الدولة، والتي يتجمع فيها الأشقياء وأرباب الفساد، كما فرض عقوبات شديدة على من يضبط شارباً للخمر، مما أربع الأشقياء والعيارين والشطار المجرمين.

وذكر بعض المؤرخين أن السلطان قام بقتل ما يقارب العشرين ألفاً من هؤلاء الأشقياء في جميع أنحاء الدولة^(١).

ثالثاً: قام السلطان بنفسه بقيادة حملتين على الدولة الصفوية، الأولى سنة (١٠٤٥هـ/ ١٦٣٥م)، وسميت بحملة رَوَان، واستطاع أن يستولي على رَوَان -أريوان-، وقام بالهجوم على أطراف تبريز، واستمرت هذه الحملة عشرة أشهر أعاد فيها للدولة هيبتها العسكرية. ثم قام الصفويون بعد ذلك بالاستيلاء على رَوَان، مما اضطر السلطان أن يُعدّ الحملة الثانية ويقودها بنفسه، ولكن هذه المرة توجه إلى بغداد لاستردادها ولضرب الصفويين في مقتل، فحاصر بغداد سنة (١٠٤٨هـ) لمدة سبعة وثلاثين يوماً، واستطاع أن يدخلها محققاً نصراً عظيماً، استقرت بعده بغداد في يد العثمانيين.

وطلبت الدولة الصفوية مفاوضات الصلح، فوافق السلطان، وانتهت هذه المفاوضات إلى معاهدة قصر شيرين في الحادي والعشرين من جمادى الأولى سنة (١٠٤٩هـ) الموافق للتاسع عشر من سبتمبر (١٦٣٨م)، حيث تم رسم الحدود بين الدولة العثمانية وإيران والتي استمرت إلى يومنا هذا تقريباً، وتنازلت الدولة العثمانية للصفويين عن روان وأذربيجان على أن تبقى بغداد وما حواليتها في يد الدولة العثمانية، ولُقب السلطان مراد بعد هذه الحملة بفاتح بغداد.

لقد كان الشعب العثماني في الأستانة متعطشاً ليوم مثل هذا، يرى فيه السلطان عائداً من فتح أو نصر منذ أيام سليمان القانوني الذي فتح بغداد من قبل، فخرج الشعب يستقبل السلطان استقبالاً حافلاً، وأقيمت الاحتفالات لهذا اليوم.

ويعدُّ السلطان مراد الرابع من طراز السلاطين العظام، فلقد تولى الدولة في أحوال

(١) أحمد آق كوندز «الدولة العثمانية المجهولة» (ص: ٢٩٥).



مضطربة من ناحية الأمن، وكانت أوضاعها المالية مزرية، وخزانة الدولة خاوية، وفي خلال الشّاني سنوات الأخيرة من عمره استطاع أن يفرض الأمن على الدولة، وأن يسترد بغداد، وأن يترك من خلفه جيشاً هو أكبر قوة عسكرية ضاربة في العالم في زمانه، كما استطاع أن يؤسس شبكة للاستخبارات في كل أنحاء الدولة، كما أصلح الأوضاع المالية أيما إصلاح، حيث ترك خلفه في خزانة الدولة (١٥) مليون قطعة ذهبية ومثلها من المعادن الأخرى^(١).

- تشجيع العلوم الكونية وحركة العمران:

قام السلطان مراد الرابع بإنشاء عدة مساجد، كما قام بتعمير وإعادة بناء الكعبة عندما خربتها السيول، وكلف محمد أفندي الأنقروي بهذه المهمة، وكان قد سبق له إنشاء العديد من الأبنية السلطانية والطرق والجسور، فأعاد بناءها وترميمها.

ومن طرائف تاريخ السلطان مراد الرابع وتشجيعه للعلم الكوني: أنه شجع أحمد جلبي - الملقب: بهازرفن - الذي قام بتجربة للطيران في سنة (١٠٤٥هـ / ١٦٣٦م) من فوق برج غلطة^(٢) إلى منطقة أسكدار، وقد تجمع الأهالي على الساحل في زحام شديد - لم تشهده المدينة من قبل - ليشاهدوا هذا المشهد، والذي جلس له السلطان مع الصدر الأعظم ووزرائه في القصر يراقبون وينظرون هذا الحدث، وبالفعل قفز أحمد جلبي من فوق البرج بعد أن تلفظ بالبسملة، وطار بمساعدة الأجنحة التي ركبها حول جسده مستفيداً من الرياح التي كانت تهب عليه، واستطاع اجتياز سبعة كيلومترات، ونزل في منطقة أسكدار مما أدخل السرور على السلطان بسبب هذا النجاح والإنجاز الكبير.

وقد كافأ السلطان أحمد جلبي على عمله بكيس من الذهب الخالص، ويعدُّ أحمد جلبي رائداً للطيران الشراعي إذ أنه كان يأخذ في حسبان هبوب الرياح واتجاهاتها، وقد أطلق الناس عليه: -هازرفن- أي: صاحب ألف فن، وقد استن به رجل يقال له: إسماعيل جوهرى في مدينة فاراب بتركستان، ونجح أيضاً في تجربته.

(١) أحمد آق كوندز «الدولة العثمانية المجهولة»، (ص: ٢٩٥).

(٢) برج غلطة يقع في القسم الأوروبي من إسطنبول، أسسه البيزنطيون في سنة (١٣٤٨م)، بارتفاع نحو (٦٣) متراً، وأما منطقة أسكدار، فتقع في القسم الآسيوي من إسطنبول، ويفصل بينها مضيق البسفور، وتقدر المسافة بين البرج وبين المنطقة بنحو سبعة كيلو مترات. أحمد آق كوندز «الدولة العثمانية المجهولة»، (ص: ٣٠٤).

كما حدث في زمان السلطان مراد الرابع أن رجلاً يقال له: حسن جلبي الملقب: بلاغاري استقل صاروخاً أثناء الاحتفالات بمناسبة عقيقة الأميرة قايا بنت السلطان مراد الرابع، حيث قام بمهارة رائعة خلال طيرانه على ظهر صاروخ بطريقة علمية دقيقة، وقد كافأه السلطان، وأغدق عليه بكيس من الذهب، وسجله في الجيش الإنكشاري براتب سبعين أقبجه، ولقد ذكرت المصادر الأوروبية بأن أول صاروخ فضائي في العالم قد اخترعه الأتراك على يد حسن جلبي^(١).

كان السلطان مصاباً بمرض النقرس، وقد اشتد عليه بعد عودته من حربه مع إيران مما اضطره لملازمة الفراش في اليوم الثاني من عيد الفطر ولمدة أربعة عشر يوماً، حيث توفي رحمه الله في السادس عشر من شوال سنة (١٠٤٩هـ / الثامن من فبراير ١٦٤٠م) عن عمر بلغ إحدى وثلاثين سنة، قضى منها نحو سبع عشرة سنة خليفة على المسلمين وسلطاناً للعثمانيين، وليس له من الأولاد من يخلفه في الحكم، فنودي بأخيه إبراهيم من بعده خليفة على المسلمين، ودفن السلطان مراد رحمه الله إلى جوار أبيه وأخيه بمقبرة السلطان أحمد في إسطنبول.

ولقد رحبت الدول الصليبية في أوروبا بخبر وفاة السلطان مراد الرابع، الذي جعله الله سبباً في إنعاش الدولة التي كانت مهددة بالانهيار، برغم أنه لم يخض معها حرباً إلا أن إنعاش الدولة يهددها أيما تهديد، حتى قال المؤرخ همر: لقد كان هذا السلطان سبباً في إطالة عمر الدولة العثمانية وعظمتها مدة نصف قرن، ولقد كانت الدولة قد بدأت في الانهيار قبله بنصف قرن^(٢).

(١) أحمد آق كوندز «الدولة العثمانية المجهولة»، نقلاً عن أوليا جلبي «سياحة ناما» (١/ ٦٧٠) - آرسو يلو خليل «أوائل الرجال الطائرون من الأتراك».

(٢) أحمد آق كوندز «الدولة العثمانية المجهولة»، (ص: ٢٩٩).



ال خليفة العاشر: إبراهيم خان الأول بن أحمد الأول بن محمد الثالث العثماني (١٠٤٩هـ - ١٠٥٨هـ) / (١٦٤٠م - ١٦٤٨م):

السلطان إبراهيم خان الأول بن السلطان أحمد الأول، ولد السلطان في الثاني عشر من شوال سنة (١٠٢٤هـ) الموافق للربيع من نوفمبر (١٦١٥م)، ونشأ نشأة عادية منذ صغره، فقضى أيامه في ولاية العهد شبه معزول في القصر، وكان هاجس الموت ملازماً له طوال حياته مما أفقده اتزانه النفسي.

بويع له بالخلافة بعد موت أخيه الكبير السلطان مراد الرابع سنة (١٠٤٩هـ / ١٦٤٠م)، وكان في الخامسة والعشرين من عمره، وكان هو الوريث الوحيد للحكم من آل عثمان، وكان مصاباً بأمراض عدة منها الشقيقة - صداع الرأس - وبعض الأمراض العصبية الشديدة، مما جعله متردداً ووجلاً من تولي أعباء الخلافة، وعندما جلس على العرش دعا قائلاً: اللهم لك الحمد، يارب لقد رأيت شخصاً ضعيفاً مثلي أهلاً للسلطنة، فاجعل أيام سلطنتي وحكمي أياماً سعيدة لأمتي، وأدم المحبة والود بيني وبين أمتي^(١).

تولى السلطان إبراهيم الحكم، ونساء القصر يصارعن على التدخل في شؤون الدولة، ولكن الله تعالى قدر وجود الصدر الأعظم كمانكش قره مصطفى باشا، الذي استطاع أن يدير أمور الدولة في أول عهد السلطان إبراهيم بشكل جيد، وقد ساعد أيضاً وجود شيخ الإسلام يحيى أفندي^(٢) أن يقوم السلطان إبراهيم بإدارة الدولة بشكل متوازن، وحافظ على هيبتها وجديتها، إلا أنه انساق مع رجال الدولة العديمي الكفاءة، ولضغط أمه السلطانة ماهبيكر كوسم قام بإعدام كمانكش قره مصطفى باشا الصدر الأعظم، والذي كان معيقاً لها في التدخل في شؤون الحكم، وذلك في ذي الحجة سنة (١٠٥٣هـ / ١٦٤٤م).

(١) أحمد آق كوندز «الدولة العثمانية المجهولة»، (ص: ٣٠٦).

(٢) يحيى أفندي: يحيى بن زكريا بن بيرام، شيخ الإسلام، ومفتي الديار في عصره، ولد سنة (٩٩٩هـ)، ونشأ بإسطنبول، وولي قضاء الشام، ثم قضاء مصر، ثم قضاء بورصة، ثم قضاء أدرنة، ثم قضاء إسطنبول، وظل في شأن رفيع لدى السلطان والأمراء، ومدحه كثير من الشعراء، وجمعت فتاويه في كتاب سمي: «بفتاوى يحيى»، توفي في سنة (١٠٥٣هـ) عن عمر ناهز الواحد والتسعين. الزركلي «الأعلام»، (٨ / ١٤٥).



وشاء الله تعالى أن يتوفى شيخ الإسلام يحيى أفندي بعد شهر من إعدام كمانكش قرة مصطفى باشا، مما فتح الطريق أمام الوالدة السلطنة لتسيطر على مقاليد الأمور في الدولة بقرارات سلبية، مما دفع السلطان إلى إبعادها من القصر السلطاني، إلا أنه لم يتخلص من تدخلاتها الدائمة.

• أهم الأحداث في عصره:

استطاعت الدولة أن ترد قبائل القوزاق شمال البحر الأسود بعد أن احتلوا مدينة آزوف، فاستردها الجيش العثماني سنة (١٠٥٢هـ / ١٦٤٢م).

كما تم في عهده غزو جزيرة كريت، وتم فتحها في سنة (١٠٥٥هـ / ١٦٤٥م).

كما حدثت ثورة للإنكشارية عندما تصدى السلطان لهم، ووقف في وجوههم عند محاولاتهم الدائمة سرقة الدولة وأكل مالها سنة (١٠٥٨هـ / ١٦٤٨م)، وتم قتل الصدر الأعظم أحمد باشا الملقب بهزار باره على يد الإنكشارية، وعُين قوجا محمد باشا الصوفي أحد رجال الثورة في منصب الصدر الأعظم، وذلك بمباركة والدة السلطان.

قام الصدر الأعظم قوجا محمد باشا الصوفي بالاستعانة بشيخ الإسلام عبد الرحمن أفندي، واستصدر منه فتوى بخلع السلطان إبراهيم الأول في الثامن عشر من رجب سنة (١٠٥٨هـ) / الموافق للثامن من أغسطس (١٦٤٨م)، حيث تم سجنه في إحدى الغرف بالقصر، وتمت البيعة لولده محمد الرابع الذي لم يتم السابعة من عمره.

وبعد عشرة أيام أظهر الفرسان - السباه - من الإنكشارية عدم ارتياحهم من هذا الأمر، وطلبوا إعادة السلطان إبراهيم إلى عرش الخلافة، مما أدى إلى إسراع العصاة التي قامت بعزله باستصدار فتوى شيخ الإسلام بأنه لا يجوز وجود خليفين في آن واحد، وبوجوب قتل أحدهما منعاً للفتنة، فتقدمت هذ العصاة إلى السراي حيث الغرفة التي بها السلطان المخلوع، وقتلوه خنقاً كما فعلوا بالسلطان عثمان باشا الثاني.



والسلطان إبراهيم يعدُّ الأب الثاني لسلالة العثمانيين، حيث انحدر من نسله بقية الخلفاء إلى أن زالت الخلافة، وقد جلس من بعده على عرش السلطنة ثلاثة من أبنائه هم: محمد الرابع، وسليمان الثاني، وأحمد الثاني، وكان مجموع سنوات سلطنتهم تجاوز ستاً وأربعين سنة.

قُتل رحمه الله بعد إحد عشر يوماً من عزله، وهو في الرابعة والثلاثين، قضى منها نحو تسع سنين إلا قليلاً خليفة للمسلمين وسلطاناً على العثمانيين، وصُلي عليه ودُفن في مقبرة جامع آيا صوفيا بإسطنبول.

لقد ذهب السلطان إبراهيم ضحية للمؤامرات والصراعات على الحكم، وقد كانت أمه السلطنة سبباً في ذلك، وفي هذا بيان أن شهوة الحكم تعمي الأعين، وتقسي القلوب والاندفاع خلفها يؤدي بصاحبها إلى الهلاك.

لقد كانت هذه التصرفات على مدى تاريخ الأمم سبباً في تأخرها وإراقة دماء أبنائها الزكية، ومخالفة للشرائع الإلهية، وكل ذلك بسبب قلة الدين، وضعف الإيمان في قلوب هؤلاء الذين اتبعوا الشهوات، فمالوا عن الحق، وذهبوا ليلقوا جزاء ما فعلوا عند الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧].

ال خليفة الحادي عشر: محمد الرابع بن إبراهيم الأول بن أحمد الأول العثماني (١٠٥٨هـ - ١٠٩٩هـ) / (١٦٤٨م - ١٦٨٧م):

السلطان محمد الرابع بن السلطان إبراهيم خان الأول، ولد في التاسع والعشرين من رمضان سنة (١٠٥١هـ / ١٦٤١م)، وتولى الخلافة وهو صبي لم يميز بعد - وكان في السابعة من عمره - بعد أن خلع والده السلطان إبراهيم باشا، وكان محمد الرابع لا يزال تلميذاً يتلقى دروس العلم والتربية.

كان تولي السلطان محمد الرابع الشهير بالصياد^(١) فرصة لعودة تدخل كوسم سلطان في شؤون الدولة إلى سنة (١٠٦١هـ / ١٦٥١م)، وأصبحت هي الحاكمة الفعلية باعتبارها نائبة السلطان، وهذه المرحلة تعدُّ من أكثر المراحل مرارة في عمر الدولة العثمانية، حيث أُطلق عليها اسم دور الأغوات - أي: دور رؤساء الجيش الإنكشاري - لأن نائبة السلطان كانت تدير الدولة بهؤلاء الأغوات الذين كان هدفهم التكرُّ من المال والعيش في حياة لاهية دون النظر إلى مصالح الدولة.

مما أدى إلى صراع بين والده السلطان تورخان خديجة سلطان وبين جدته نائبة السلطان، فزادت حدة الاضطرابات، وعملت نائبة السلطان على التخلص من السلطان محمد الرابع وتولي أخيه سليمان محله، وشاء الله أن ينكشف مخططها في إحدى ليالي شهر رمضان سنة (١٠٦١هـ / ١٦٥١م) مما أدى إلى قتلها، فكما يقال: «من حفر حفرة لأخيه وقع فيها»، فلقد حفرت هذه المرأة قبرها بيدها.

ثم تولت والده السلطان تورخان خديجة سلطان منصب نائبة عن السلطان، ولمدة أربعة سنوات من رمضان سنة (١٠٦١هـ) الموافق لستمبر (١٦٥١م)، حتى شوال سنة (١٠٦٥هـ) الموافق لستمبر (١٦٥٥م)، وهي آخر والده حكمت في الدولة، وبذلك انتهت سلطة الأغوات الذين نهبوا خزينة الدولة، وأكثروا فيها الفساد، وتم إلقاء القبض على تسعة وثلاثين منهم، وتم إعدامهم بعد أن أفلست الخزينة تماماً، وحاول

(١) لُقّب السلطان محمد الرابع بالصياد لشغفه بالصيد، ومعنى الصياد بالعثمانية آوجي. أحمد آق كوندز «الدولة العثمانية المجهولة»، (ص: ٣١٣).



الصدر الأعظم طارخونجو أحمد باشا إصلاح هذا الأمر إلا أنه لم يستطع ذلك، فتم تغييره بتسعة من الصدور العظام حتى سنة (١٠٦٦هـ / ١٦٥٦م).

وفي هذه الفترة التي حكمت فيها النساء وقعت فيها عدة أمور منها:

- قامت ثورة في الأناضول ضد الدولة، حيث استطاع زعيم الثورة قاطورجي أوغلي^(١) أن يتوجه نحو إسطنبول، بعد أن انتصر على أحمد باشا والي الأناضول بمعاونة كورجي يني أحد زعماء الثورة، غير أن الله سبحانه وتعالى سلّم عندما وقع الخلاف بين قاطورجي أوغلي وكورجي يني، فتصدت للثورة جيوش العاصمة، وسلمت العاصمة من الثوار قبل دخولهم إليها، وذلك في سنة (١٠٥٩هـ / ١٦٤٩م)، وقد طلب قاطورجي العفو من السلطان، فعفا عنه، وولاه على القرمات.
- كما قامت عدة ثورات في العاصمة من الإنكشارية والسباه -الفرسان- والأهالي، الذين استبد بهم الخوف من كثرة عزل وتنصيب الوزراء -الصدور العظام- بصورة سريعة لم تسبق في الدولة، فصار عدم النظام هو السائد في الدولة.
- وزاد الأمر سوءاً عندما استطاعت مراكب البندقية أن تتغلب على الأسطول العثماني عند مدخل الدردنيل، وتحكمت فيه، ومنعت وصول الإمدادات والمواد الغذائية إلى العاصمة، مما أدى إلى ارتفاع غير مسبوق في أسعار المواد الغذائية.
- وشاء الله تبارك وتعالى أن تنقضي هذه المرحلة بحلها ومرها عندما صارت إدارة الدولة إلى أسرة أصيلة هي: أسرة كوبرلو، لتتنفس الدولة الصعداء من جديد.
- أسرة كوبرلو:

تمتد مرحلة أسرة كوبرلو من ذي القعدة (١٠٦٦هـ) الموافق لستمبر (١٦٥٦م) إلى رجب (١٠٨٧هـ الموافق أكتوبر ١٦٧٦م) والتي تولى فيها اثنان من هذه العائلة منصب الصدر الأعظم.

(١) قاطورجي تعني: ابن سائق البغال. إحسان حقي في تحقيقه لكتاب: «الدولة العلية»، (ص: ٢٨٩).



الأول محمد باشا كوبرلو (١٠٦٦هـ: ١٠٧١هـ) / (١٦٥٦م: ١٦٦١م)، والثاني هو ابنه فاضل أحمد باشا كوبرلو، والذي تولى من (١٠٧٢هـ: ١٠٨٧هـ) (١٦٦١م: ١٦٧٦م)، فلقد استطاعت الدولة بقيادة هذه الأسرة أن تعيش عهداً مشابهاً لعهد السلطان سليمان القانوني، فلقد قام الصدر الأعظم محمد بالقضاء على رؤوس الفتنة من الإنكشارية حتى خضعوا للدولة، كما قام بإعدام بطريك الروم الذي وقف من خلف الستار ليشعل نار الفتنة، واستطاع القضاء على الثورات الداخلية، وخاصة في الأناضول، حيث أُعدم أحدٌ وثلاثون من البشوات قادة الثورات، وكما تمكن من هزيمة روسيا في سنة ١٠٧٠هـ.

وتوفي الصدر الأعظم محمد باشا - بعد خمس سنوات من توليه منصب الصدر الأعظم - في ربيع الثاني سنة (١٠٧١هـ) الموافق لنوفمبر (١٦٦١م) في مدينة أدرنة بعد أن استقرت الدولة، وأمن الناس، وتولى من بعده ولده فاضل أحمد باشا الذي كان في السادسة والعشرين من عمره.

استمر فاضل أحمد باشا في عطاء هذه الأسرة وإخلاصها للدولة، حيث تمكن من الانتصار على النمسا في سنة (١٠٧٤هـ / ١٦٦٤م)، وانتهت الحرب بتوقيع اتفاقية واسوار بينه وبين النمسا.

واستطاع إنهاء الحرب في كريت بعد حصار دام ثلاث سنوات، حيث حسمها بفتحها سنة (١٠٨١هـ / ١٦٧٠م)، وتبعته الحرب البولونية بسبب المسألة الأوكرانية^(١)، وقد شارك السلطان محمد فيها بنفسه، واستطاع الجيش العثماني فتح قلعة كمنيتشا الحصينة سنة (١٠٨٣هـ / ١٦٧٢م) مما أوقع الذعر في قلوب البولونيين في وارسو، ودفعهم لطلب الصلح، فتم الأمر بتوقيع اتفاقية سلام بين الدولتين، سميت: بمعاهدة يوزاكس، ترتب عليها أن تقوم بولونيا بدفع مئتين وعشرين ألف بندقي ذهباً، وأن تبقى أوكرانيا للقوزاق في حماية الدولة العثمانية، ويبقى إقليم بودوليا غرب أوكرانيا للعثمانيين.

(١) يقصد بالمسألة الأوكرانية: الأحداث التي وقعت في أوكرانيا والمناطق التي تقع في الشرق منها، من قبائل القوزاق، الذين أعلنوا التبعية للدولة العثمانية، مما أثار غضب بولونيا، فأغارت على أوكرانيا التي طلبت النجدة من العثمانيين، ف وقعت الحرب التي قادها السلطان بنفسه. أحمد آق كوندز «الدولة العثمانية المجهولة»، (ص: ٣١٥).



لقد استطاعت هذه الأسرة أن تثبت أركان الدولة، وأن تنعش اقتصادها، إلى أن توفي الصدر الأعظم فاضل أحمد باشا كوبرلو في سنة (١٠٨٧هـ / ١٦٧٦م).



دولة أوكرانيا



خريطة عثمانية لجزيرة كريت

وتولى من بعده قارة مصطفى باشا - الملقب: بمرزيفونولو - منصب الصدر الأعظم، وهو من الرجال الأقوياء الذين تولوا هذا المنصب، وكان أول أعماله هو الحرب مع روسيا في الحملة الروسية الأولى سنة (١٠٨٩هـ / ١٦٧٨م)، والتي انتهت بانتصار العثمانيين، وقد شارك في هذه الحملة السلطان محمد الرابع بنفسه، ثم كانت الحملة الثانية سنة (١٠٩٢ / ١٦٨١م) التي انتهت بمعاهدة أدرنه بين البلدين.

أدت هذه الانتصارات إلى خشية إمبراطورية النمسا وألمانيا من قوة العثمانيين مرة أخرى، فقامت ببعض الاعتداءات على أطراف الدولة، مما أدى إلى إعلان الحرب على النمسا في سنة (١٠٩٤هـ / ١٦٨٣م)، وقد شارك السلطان محمد الرابع بنفسه في هذه الحملة.

وتقدمت جيوش العثمانيين فحاصرت فيينا، ولكن مع الأسف بسبب خيانة مراد كراي بك حاكم القرم، واغترار الجيش بقوته وعدهته، ومخالفته لأحكام الشريعة في مواطن متعددة أثناء المعركة، وقعت الهزيمة في الجيش العثماني في الحادي والعشرين من رمضان سنة (١٠٩٤هـ) الموافق لستمبر (١٦٨٣م)^(١)، وقدم الجيش العثماني آلافاً من

(١) أحمد آق كوندز «الدولة العثمانية المجهولة»، (ص: ٣٢٢-٣٢٣).



القتلى الذين نحسبهم عند الله شهداء، كما فقدوا خزائن وغنائم ثمينة مما اضطروهم إلى الانسحاب إلى الخلف، وكانت هذه أكبر هزيمة في تاريخ الدولة العثمانية، وهي البداية الرسمية لمرحلة الركود التي انطوت معها صفحات انتصارات العثمانيين، وبدأت معها انتصارات الصليبيين الأوروبيين، الذين بدؤوا بمهاجمة الدولة العثمانية من أربع جهات، ولم تستطع الدولة مواجهتهم.

وفي سنة (١٠٩٧هـ / ١٦٨٦م) سقطت مدينة بودين في أيدي الجيوش الصليبية، التي انتقلت لهزيمتها التي لحقت بها قبل مئة وستين سنة في معركة مهاج، وكانت النمسا قد دخلت قبلها مدينة بست، واتصل بنيان المدينتين واسماهما بعد ذلك مكوناً مدينة -بودابست-.

وبعد سقوط مدينة بودين وقلعتها أصيب السلطان بالمرض وبالحزن الشديد، وتم عزله عن السلطة في الثاني من المحرم (سنة ١٠٩٩هـ) الموافق للثامن من نوفمبر (١٦٨٧م)، بعد أن حكم أربعين سنة وخمسة أشهر، وبقي في العزلة إلى أن توفي في الثامن من ربيع الآخر سنة (١١٠٤هـ) الموافق للسابع عشر من ديسمبر (١٦٩٢م)، وقد بلغ من العمر ثلاثاً وخمسين سنة، ودفن إلى جوار والدته تورخان خديجة سلطان في يني جامع -الجامع الجديد- في إسطنبول.

وقد قضى السلطان محمد الرابع معظم سنوات حكمه في أدرنة، التي عاشت في عهده ألمع وأعظم فترات تاريخها، وأصبحت واحدة من أهم مدن العالم، وتعدّ فترة حكمه رابع أطول فترة حكم منذ كانت سلطنة العثمانيين، بعد أرطغرل وسليمان القانوني وعثمان الأول.



ال خليفة الثاني عشر: سليمان الثاني بن إبراهيم الأول العثماني (١٠٩٩هـ - ١١٠٢هـ) /
(١٦٨٧م - ١٦٩١م):

السلطان سليمان الثاني بن السلطان إبراهيم خان الأول، ولد في الخامس عشر من المحرم سنة (١٠٥٢هـ) / الخامس عشر من أبريل (١٦٤٢م)، وكانت والدته صاحبة ديل سلطان امرأة متدينة، اهتمت بتنشئته تنشئة صاحبة على يد مشاهير العلماء، لكنه مع الأسف قضى أربعين سنة من عمره حبس القصر، مما أكسبه قلة الخبرة الاجتماعية.

• أهم الأحداث في عصره:

تولى الخلافة بعد عزل أخيه السلطان محمد الرابع في ظروف صعبة للغاية، تحيط بالدولة من الداخل والخارج، حيث انتشرت الفوضى على أيدي قوات المشاة من الإنكشارية وقوات الفرسان من السباهية، والذي قُتل بسببها الصدر الأعظم سياووس باشا، وعُين زعيم العصيان المسمى بالحاج علي رئيساً للإنكشارية، كما عُين بعض قادة العصاة من الإنكشاريين في المناصب التي أرادوها.

انتهز الصليبيون هذه الفرصة، وقاموا بتكوين حلف ضم النمسا وروسيا وبولونيا والبندقية والباباوية في روما، ورهبان القديس يوحنا في مالطا، وأسموه: بالحلف المقدس، لمهاجمة الدولة العثمانية من عدة جهات، ومحاولة طردها من أوروبا.

ففي المجر سالت دماء الجيوش العثمانية دفاعاً عنها لكونها تابعة للدولة، واستطاع النمساويون والألمان دخول مدينة أكري في شهر صفر سنة (١٠٩٩هـ) / ديسمبر (١٦٨٧م)، وقاموا بتحويلها إلى مدينة نصرانية، بعد أن هدموا مئات المساجد فيها وتحويل بعضها إلى كنائس.

كما استطاعوا الاستيلاء على مدينة بلغراد، وحولوا مايزيد على مئة مسجد إلى كنائس، كما تقدم البنادقة نحو السواحل الشرقية للبحر الأدرياتيكي، وسيطروا عليها، كما سيطروا على بعض المواقع في بلاد اليونان، مما دفع الخليفة أمام هذه الهزائم أن يعزل



الصدر الأعظم، وأن يعين في مكانه فاضل مصطفى باشا بن محمد كوبرلو في محرم سنة (١١٠١هـ) / أكتوبر (١٦٨٩م)، فاستطاع الصدر الأعظم أن يسير على نهج أبيه وأخيه أحمد، حيث قام بحماية الشعب والأهالي من تصرفات الجند، كما رفع بعض الضرائب غير العادلة التي أثقلت كاهل الناس، فاستقبلت هذه الخطوات بفرح وسرور من الشعب.

ومن جهة أخرى نظم أمور نصارى العاصمة، حيث أباح لهم بناء وترميم كنائسهم في إطار الشريعة الإسلامية، وشدد العقوبة على من تعرض لهم لإقامة شعائرهم الدينية، مما جعلهم يستقبلون ذلك بارتياح شديد، وأثر ذلك الموقف المتسامح في أهالي المورة باليونان من الأروام، فقاموا بالثورة على البنادقة، وطردوهم من ديارهم، وبقوا في حماية الدولة العثمانية طائعين مختارين.

كما استطاع فاضل مصطفى باشا إبعاد رؤساء الإنكشارية عن القصر السلطاني، وإبعاد كل من له تأثير على السلطان من الحاشية المحيطة به، ولاسيما أنه كان عازماً على التوجه إلى ميدان القتال لمواجهة النمسا.

توجه فاضل مصطفى باشا على رأس جيش إلى النمسا، واستطاع استعادة بعض المدن من أيدي النمساويين، وأن ينزل بهم الهزائم المتتالية، وكان من أهم المدن التي استردها مدينة بلغراد في شهر ذي الحجة سنة (١١٠١هـ) الموافق لـسبتمبر سنة (١٦٩٠م).

كما استطاع أمير القرم سليم كراي أن يخضع الثوار الصرب، وأن يساعد الجيش العثماني في حربه مع روسيا، واستطاع الانتصار عليها.

كما قام تكيي المجري التابع للدولة العثمانية باستعادة إقليم ترنسلفانيا وإرجاعه إلى الدولة العثمانية.

لقد أشاعت أخبار انتصارات الصدر الأعظم على النمساويين الفرحة العارمة في الناس، وعندما عاد إلى إسطنبول مع بعض فرق جيشه استقبله السلطان بنفسه مع جماهير



الشعب، وما استطاع أن يملك نفسه من البكاء من شدة الفرح بهذا القائد الذي فاق أباه وأخاه في أدائه، وخلع السلطان برده، وألبسها الصدر الأعظم، ودعا له وهو يبكي^(١).

أراد السلطان سليمان أن يجهز حملة ثانية ضد إمبراطورية النمسا، غير أنه مرض، وتدهورت صحته، في الوقت الذي انزعجت فيه أوساط الحاسدين في القصر السلطاني من انتصارات الصدر الأعظم ونجاحه، فقامت تطالب بإصرار بإجراء تغيير في السلطنة في الوقت الذي هم السلطان بالخروج على رأس جيشه للحرب، غير أنه ثقل عليه المرض وهو في مدينة أدرنة، وتوفي رحمه الله في السادس والعشرين من رمضان سنة (١١٠٢ هـ) الموافق الثاني والعشرين من يونيو (١٦٩١ م)، وقد بلغ الخمسين سنة من عمره، قضى منها ثلاث سنوات وثمانية أشهر خليفة للمسلمين وسلطاناً للعثمانيين، وكان سلطاناً مستقيماً، ولم يتخلف عن صلاة واحدة طوال حياته، ولم يؤثر عنه أي فعل يخالف الشرع، ولم يكن له خصوم إلا أعداء الإسلام، ولم يكن له عقب من الذكور^(٢).

وعند وفاته كانت الدولة قد بدأت في استعادة هيبتها ومكانتها، وصُلي عليه، ودفن إلى جوار السلطان سليمان الأول القانوني في إسطنبول.

(١) يلماز أوزتونا «تاريخ الدولة العثمانية»، (١/ ٥٦٣).

(٢) أحمد آق كوندز «الدولة العثمانية المجهولة»، (ص: ٣٢٥).



الخليفة الثالث عشر: أحمد الثاني بن إبراهيم الأول بن أحمد الأول العثماني (١١٠٢هـ - ١١٠٦هـ) / (١٦٩١م - ١٦٩٥):

السلطان أحمد الثاني بن السلطان إبراهيم خان الأول، ولد في السادس من ذي الحجة سنة (١٠٥٢هـ) / الخامس والعشرين من فبراير (١٦٤٣م)، تولى الحكم في سنة (١١٠٢هـ) بعد وفاة أخيه.

وكان الجيش العثماني الذي قاده الخليفة السابق بنفسه - وتوفي وهو في طريقه للحرب مع النمسا - متوجهاً بقيادة الصدر الأعظم فاضل مصطفى باشا كوبرلو، والذي تقدم وواجه الصليبيين في صالان كمان، غير أنه قُتل - نحسبه عند الله شهيد -، مما كان له الأثر على الجيش الذي مُني بالهزيمة في ذي القعدة سنة (١١٠٢هـ) / أغسطس (١٦٩١م).

توفي فاضل مصطفى باشا كوبرلو بطلاً في ساحات القتال، مضيفاً صفحة مشرقة إلى تاريخ أسرة كوبرلو - رحمهم الله جميعاً - الذين أستمعوا في إنقاذ الدولة العثمانية لمرات متوالية من الهزيمة والانهيار، فجزاهم الله خيراً عن الإسلام والمسلمين.

تولى علي باشا الملقب بعربيجي منصب الصدر الأعظم، والذي لم يكن أهلاً لمنصبه كسابقه، مما أطمع البنادقة بمساعدة الباباوية وفلورنسا بالهجوم على كريت، وحاصروا مدينة هانيا، لكنهم اضطروا في شهر ذي الحجة سنة (١١٠٣هـ) / أغسطس (١٦٩٢م) إلى الانسحاب بعد أن أُصيبوا بخسائر فادحة أمام الجيش العثماني.

ثم استطاع الجيش العثماني بقيادة جعفر باشا هزيمة النمساويين في عدة معارك ومناوشات.

ثم عاود البنادقة الكرة على الجزر البحرية، واستطاعوا السيطرة في سنة (١١٠٦هـ) / (١٦٩٤م) على جزيرة ساقز، مما أزعج السلطان أشدَّ إزعاج، فكتب إلى قائده الصدر الأعظم الذي عُين بعد عربيجي باشا، وهو صرما علي باشا - والذي كان متوجهاً بجيشه



إلى غزو المجر قائلاً: لن تقر لي عين - ولو فتحت كل بلاد المجر - مادامت جزيرة ساقز في أيدي الأعداء.

وكان السلطان قد أُصيب بهمّ وغمّ شديدين، بسبب سقوط هذه الجزيرة في أيدي البنادقة، مما أمرضه مرضاً شديداً، حتى إنه قال: ساقز أحرقت قلبي، لو رأيت استعادتها ومِتُّ لما اكرثت لشيء بعدها^(١).

وتوفي رحمه الله في أدرنة قبل أن يصله خبر النصر على البنادقة في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة (١١٠٦ هـ الموافق لـ ١٦٩٥ م) عن عمر ناهز الرابعة والخمسين سنة، قضى منها أربع سنوات وثمانية أشهر خليفة للمسلمين وسلطاناً للعثمانيين، وصُلي عليه، ودُفن عند جامع السليمانية بجوار السلطان سليمان القانوني بإسطنبول.

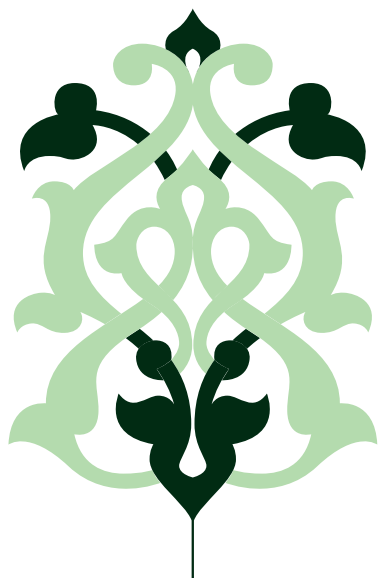
(١) يلماز أوزتونا «تاريخ الدولة العثمانية»، (١/٥٦٨).



الخلفاء

مُصْطَفَى الثَّانِي - أَحْمَدُ الثَّالِثُ - مُحَمَّدُ الْأَوَّلُ -
عُثْمَانُ الثَّالِثُ - مُصْطَفَى الثَّالِثُ - عَبْدُ الْحَمِيدِ الْأَوَّلُ

الفصل العاشر



تَراجِمُ الخُلفاءِ العُثمانيِّينَ
(٤)



الخليفة الرابع عشر: مصطفى خان الثاني بن محمد الرابع بن إبراهيم الأول العثماني (١١٠٦ هـ - ١١١٥ هـ) / (١٦٩٥ م - ١٧٠٣ م):

السلطان مصطفى خان الثاني بن السلطان محمد الرابع، ولد في الثامن من ذي القعدة سنة (١٠٧٤ هـ) / الثاني من يونيو سنة (١٦٦٤ م)، تلقى العلم على يد علماء عصره حتى ترقى فيه، وأصبح من علماء الشريعة، وكان شاعراً خطاطاً، ويعُدُّ السلطان مصطفى الثاني هو أكفأ السلاطين منذ عهد السلطان مراد الرابع وأكثرهم علماً وثقافة، وهذا من ثمرات الانضباط العقدي الذي كان عليه والده وجدته.

• أهم الأحداث في عصره:

تولى الخلافة وعمره اثنتان وثلاثون سنة، ولشجاعته استفتح خلافته بعد ثلاثة أيام من توليها بقيادته للجيش على بولونيا، وحقق النصر في عدة معارك بمساعدة قبائل القوزاق، كما استطاع أن ينتصر على الروس الذين حاصروا مدينة آزاق ببلاد القرم بقيادة بطرس الأكبر، فاستطاع السلطان هزيمتهم، ورفَعَ الحصار عن المدينة، ثم توجه السلطان إلى بلاد المجر، واستطاع فتح حصن لوبا، وانتصر على أعدائه في موقعة لوجوس في الجنوب الغربي من رومانيا، واستطاع قتل ستة آلاف من جنود الأعداء، وأخذ قائدهم - فتراني - أسيراً، وقتله في الثاني عشر من صفر سنة (١١٠٧ هـ) الموافق للثاني والعشرين من سبتمبر (١٦٩٦ م).

- استعادة جزيرة ساقز:

وأما جزيرة ساقز التي توفي السلطان أحمد الثاني دون أن يرى استعادتها، فقد تحقق النصر للعثمانيين على البنادقة الذين هُزموا هزيمة منكرة، واستطاعت الدولة استعادة الجزيرة الاستراتيجية مرة أخرى.

وفي رمضان سنة (١١٠٧ هـ) / أبريل (١٦٩٦ م) توجه السلطان على رأس جيشه إلى النمسا، واستطاع الانتصار على ملك النمسا الكتور في معركة أولاش، وقد هرب الملك النمساوي، ورجع السلطان إلى إسطنبول.



وفي الخامس والعشرين من صفر سنة (١١٠٩هـ) / الثاني عشر من سبتمبر (١٦٩٧م) وقعت الهزيمة لأول مرة في تاريخ العثمانيين لجيشهم - الذي على رأسه السلطان كقائد عام - على ضفاف نهر تيس أمام الجيوش النمساوية، وذلك عند عبور الجنود العثمانية لهذا النهر عند قرية زيتتا القريبة من الحدود الرومانية، حيث باغتهم القائد النمساوي الأمير سافوي، فقتل من العثمانيين عدداً عظيماً كان من ضمنهم الصدر الأعظم، وغرق منهم أعدادٌ أخرى في النهر، وبلغ عدد من فقداه العثمانيون في هذه المعركة خمسة عشر ألف قتيل - نحسبهم عند الله شهداء - ولولا الله ثم وجود السلطان على الضفة الأخرى، لسقط السلطان نفسه أسيراً أو قتيلاً على أيدي الصليبيين؛ وقد ترتب على هذه المعركة أن توجهت جيوش النمسا إلى البوسنة واستطاعت الاستيلاء عليها.

لقد أحدثت هذه الهزيمة مأتماً عظيماً في العالم الإسلامي، ولما بلغت أخبارها إلى بطرس الأكبر الروسي، توجه بجيشه إلى مدينة آزاق على البحر الأسود، واستولى عليها؛ وذلك لأهميتها الاستراتيجية، وقد أوقعت هذه الأحداث الدولة العثمانية في خطر شديد من جهة روسيا ومن جهة النمسا.

وفي وسط هذه الأحداث تم تعيين حسين باشا كوبرلو - الملقب بعمجه زاده - صدراً أعظم؛ وقد استطاع أن يوقف مد النمساويين، وأن يسترد منهم بلاد البوسنة.

ثم تدخل ملك فرنسا لويس الرابع عشر للصلح بين الدولة العثمانية وإمبراطورية النمسا، وأن يُدخل العثمانيين في معاهدة ريسوويك التي وقعت في ربيع الأول سنة (١١٠٩هـ) الموافق لسبتمبر (١٦٩٧م) بين فرنسا من جهة وإمبراطورية النمسا وألمانيا وأسبانيا وإنجلترا وهولندا من جهة أخرى، والتي تم بمقتضاها اعتراف هذه الدول بامتلاك فرنسا لمدينة استراسبورج وبلاد الألزاس.

لم تقبل الدولة العثمانية الدخول في هذه المعاهدة لعلمها أن ملة الكفر واحدة، وأنهم جميعاً يد واحدة على الإسلام، ومهما ظهر من التودد من إحدى هذه الدول، فذلك تودُّد مبطن بطوية خبيثة، وما كان في التاريخ وما هو كائن خير دليل وشاهد.

• اتفاقية كارلوفيتس:

غير أن ذلك لم يُلغِ مساعي هذه الدول في عقد معاهدة لإيقاف القتال بين الدولة العثمانية وبين خصومها، ففي الرابع والعشرين من رجب سنة (١١١٠هـ) / السادس والعشرين من يناير (١٦٩٨م) تم التوقيع على اتفاقية كارلوفيتس (كارلوفجة)، وقام بالتوقيع عليها من جهة الدولة العثمانية الصدر الأعظم حسين باشا ورئيس الكتّاب -وزير الخارجية- رامي محمد أفندي، والذي كان مفوضاً صعباً بالنسبة لأوروبا برغم ما قدمته الدولة العثمانية من تنازلات في هذه المعاهدة.

يقول الكونت مارسجلي عضو الوفد النمساوي الألماني في معاهدة كارلوفيتس^(١): لا يمكن تصوّرُ عملٍ أصعبَ من عقد صلح مع الأتراك، وهذه المعاهدة هي أكثر المعاهدات إضراراً بالأتراك من بين المعاهدات التي وقعوا عليها حتى الآن.

إن الحرب بالنسبة للأتراك عمل أسهل وأخف من عقد صلح معهم، فعند الحديث معهم عن كلمة حدود، أو تسليم مدينة، أو قلعة، يطيلون المفاوضات، ويوقعون الطرف الآخر في الضجر والملل، وكأنهم يبحثون عن ذريعة لرفض الصلح والعودة للقتال مجدداً، ولذلك فإن المفاوضين النصارى أصبحوا بين الحين والآخر في حالة يرثى لها أمامهم. ١.هـ.

ويبدو أن الكونت يشرح لنا نسبياً وضعه الشخصي أمام المفاوض العثماني رامي أفندي وزير الخارجية في كارلوفيتس.

وفي هذه الاتفاقية تنازلت الدولة العثمانية عن بلاد المجر كاملة، وإقليم ترنسلفانيا لدولة النمسا، كما تنازلت عن مدينة كامينك في جنوب أوكرانيا، وإقليمي بودوليا وواكوروين لمملكة بولونيا، كما تنازلت عن بلاد المورة للبنادقة، ثم تنازلت عن مدينة آزاق الاستراتيجية ومينائها لروسيا التي أصبح لها بذلك منفذاً على البحر الأسود؛ والذي كان من قبل هذه الاتفاقية بحيرة عثمانية لا يوجد حوله قيد أنملة خارج قبضة العثمانيين، فأصبحت بذلك روسيا تمثل خطراً عظيماً على الدولة، يساوي أضعاف

(١) تقع كارلوفيتس أو كارلوفيتش أو كارلوفجة على نهر الدانوب إلى الجنوب الغربي من مدينة زغرب غرب بلغراد. يلمّاز أوزتونا «تاريخ الدولة العثمانية»، (١/٥٨٣).



ما كانت عليه من قبل، وذلك في اتفاقية إسطنبول سنة (١١١٢هـ / ١٧٠٠م) وهي الاتفاقية الملحقة باتفاقية كارلوفيتس، كما وافق الباب العالي على اعتبار روسيا - ولأول مرة - دولة مستقلة، وإلغاء الضريبة التي كانت تدفعها لخان القرم التابع للدولة العثمانية. ومن طريف القول أن المادة الرابعة عشرة من اتفاقية إسطنبول تنص على أن سفراء روسيا القادمين إلى الباب العالي عليهم أن يستخدموا الطريق البري في ذهابهم وإيابهم، ولا يكون مرورهم عبر البحر الأسود الذي هو بحيرة عثمانية.

وبهذه المعاهدة ومعاهدة إسطنبول الملحقة بها فقدت الدولة جزءاً عظيماً من أملاكها في أوروبا، وكان هذا هو بداية المرحلة الجديدة فيما سمي في التاريخ باسم المسألة الشرقية لتقسيم الدولة العثمانية بعد ذلك بين دول أوروبا، إذ أن هذه الاتفاقيات كانت بداية عهد التقهقر والتراجع والضعف.

وقد أنهت هذه الاتفاقيات الحروب التي دامت مع النمسا والبندقية وبولونيا لخمس عشرة سنة، ومع روسيا لتسع سنوات.

ومما يذكر في هذا الجانب أن السلطان العثماني بعد هذه الاتفاقيات لم يستطع مخاطبة زعماء أوروبا في خطابه بلفظة أنت، بل أصبح يخاطبهم بصيغة التعظيم أنتم^(١).

- ظهور العتوب العرب على ساحة الأحداث لأول مرة:

ومن الأحداث التي وقعت في سنة (١١١٣هـ / ١٧٠١م) تقدّم شيوخ عشائر العتوب إلى الوالي العثماني في البصرة بطلب الإذن لهم بالنزول في الكويت، للإقامة بها في حماية الدولة العثمانية، كما سيأتي تفصيل ذلك في موضعه.

قام حسين باشا كوبرلو بالاهتمام بالإصلاحات داخل الدولة، فقام بضبط الأمن الداخلي والشؤون المالية وإعادة ترتيب الجيش، ثم إنه بعد أن بلغ هذه المرحلة استقال من منصبه في الثاني عشر من ربيع الآخر (١١١٤هـ) الموافق للخامس من سبتمبر (١٧٠٢م)، وذلك بسبب زيادة نفوذ شيخ الإسلام فيض الله أفندي داخل الدولة، حيث قام بعرقلة

(١) أحمد آق كوندز «الدولة العثمانية المجهولة»، (ص: ٣٢٩).

الكثير من أوامر الصدر الأعظم ونظام الدولة، بما لم يحدث قبل قط ولا بعده من شيخ الإسلام في الدولة، كما تدخل في اختصاصات الصدر الأعظم.

زد على ذلك ما قام به من تقديم أقربائه وتعيينهم في مناصب الدولة المختلفة مستغلاً إقامة السلطان في أدرنة، فحول الديوان السلطاني في إسطنبول إلى ديوان تابع لأوامره، مما أدى إلى إثارة الشعب والإنكشارية ضد السلطان.

في هذا الوقت تولى منصب الصدر الأعظم بعد حسين باشا كوبرلو أحد القادة العسكريين هو طابان مصطفى باشا، والذي لم يبق في منصبه إلا فترة قصيرة، لم تزد عن خمسة أشهر، وكان جندياً يميل للحرب، فلم يستمر على خطة سلفه في إصلاح الشؤون الداخلية وتنظيم البلاد، وهمم بخرق معاهدة كارلوفيتس وإثارة الحرب مع النمسا، مما أثار بعض الأهالي والجنود، فطلبوا من السلطان عزله، فأقاله السلطان في السادس من رمضان سنة (١١١٤هـ) / الرابع والعشرين من نوفمبر (١٧٠٢م).

ثم تولى منصب الصدر الأعظم رامي محمد باشا، والذي سار على آثار حسين باشا المستقيل في الإصلاحات، مما أثار عليه الإنكشارية ليلهم إلى الفوضى والفساد والنهب، فطلبوا من السلطان عزله، فامتنع عن ذلك، وكان السلطان قد اتخذ من مدينة أدرنة مقراً له، حتى بعد توليه الخلافة، مما ساهم في تفاقم المشكلات في إسطنبول مركز الدولة، ف وقعت الثورة من الإنكشارية عندما رفض السلطان إبعاد الصدر الأعظم، وتوجه الإنكشارية إلى أدرنة، وأصروا على طلبهم، فرفض الخليفة ذلك، فعزلوا الخليفة، وبايعوا مكانه أخوه أحمد - برغم وجود بعض المعارضين منهم لهذا الأمر - في أول ربيع الثاني سنة (١١١٥هـ) الموافق للثالث عشر من أغسطس (١٧٠٣م).

أصيب السلطان المعزول مصطفى الثاني بغم شديد، وتوفي بعد أربعة أشهر من عزله حزناً وغماً، وعمره أربعون سنة، قضى منها ثماني سنوات وثمانية أشهر خليفة للمسلمين وسلطاناً للعثمانيين، وصلي عليه، ودفن في مقبرة بني جامع - الجامع الجديد - في إسطنبول.



وأما شيخ الإسلام فيض الله أفندي الذي كان من أهم عوامل عزل السلطان، فقد أُهين إهانات بالغة من الإنكشارية الذين قاموا بقتله بعد ذلك، ورموا جثته في نهر تونجا في جمادى الأولى سنة (١١١٥هـ) / سبتمبر (١٧٠٣م).

• الدولة العثمانية وترتيبها بين دول العالم بعد اتفاقية كارلوفيتس:

يقول الأستاذ أحمد آق كوندز^(١): وعلى الرغم من كل هذه السلبيات فإن الدولة العثمانية من ناحية القوة والقدرة بقيت في المرتبة الأولى بين الدول، وكانت دولة التيموريين في الهند تأتي بعدها في القوة.

تصدرت الدولة العثمانية دول العالم بالرغم من تقلص مساحتها بعد هذه الاتفاقية، حتى بلغت نحو (١٦) مليون كيلو متر مربع (١,٥٩٢٤,٦٠٦ كم^٢) وكان عدد سكانها (٧٨,٢٨٥,٠٠٠) نسمة.

يلي الدولة العثمانية في المساحة والقوة الدولة التيمورية الإسلامية في الهند، ثم الدولة الصفوية في إيران، ثم إمبراطورية الصين، ثم فرنسا، ثم بريطانيا، ثم هولندا، ثم الإمبراطورية النمساوية الألمانية، ثم الإمبراطورية الأسبانية، ثم مملكة السويد، ثم جمهورية البندقية، ثم إمبراطورية روسيا، ثم مملكة بولونيا، ثم مملكة فاس بالمغرب، ثم الخانات التركية بتركستان وسط آسيا، ثم إمبراطورية اليابان، ثم مملكة البرتغال، ثم مملكة الدنمارك، ثم جمهورية سويسرا، ثم الباباوية، ثم دوقية توسكانا الكبرى في وسط إيطاليا الحالية^(٢).

(١) أحمد آق كوندز «الدولة العثمانية المجهولة»، (ص: ٣٣٠).

(٢) يلماز أوزتونا «تاريخ الدولة العثمانية»، (١/ ٥٩٢).

الخليفة الخامس عشر: أحمد الثالث بن محمد الرابع بن إبراهيم الأول العثماني (١١١٥ هـ - ١١٤٣ هـ) / (١٧٠٣ م - ١٧٣٠ م):

السلطان أحمد الثالث الابن الثاني للسلطان محمد الرابع، ولد في الثالث من رمضان سنة (١٠٨٣ هـ / ١٦٧٤ م)، تربى وتعلم على يد علماء عصره آنذاك، وكان خطاطاً وشاعراً، وله ديوان من الشعر، لقب نفسه فيه: بالنجيب.

وفي زمانه نشأت أول مطبعة عثمانية هي مطبعة (إبراهيم) في سنة (١١٤٠ هـ / ١٧٢٧ م). بقي لتسع سنوات ولياً للعهد لأخيه الأكبر مصطفى الثاني، وتولى الخلافة بعد الأحداث المؤسفة التي حدثت في أدرنة مع أخيه السلطان مصطفى الثاني، وعزله عن السلطنة بإصرار من شيخ الإسلام فيض الله أفندي.

• أهم الأحداث في عصره:

كان السلطان أحمد الثالث عند توليه العرش في جمادى الأولى (١١١٥ هـ / ١٧٠٣ م) قد بلغ الثانية والثلاثين من عمره، وقد تولى الخلافة مع هذه الأحداث المؤسفة، فحاول في أول الأمر استمالة الإنكشارية لتهديتهم، وغض الطرف عن قتل شيخ الإسلام فيض الله أفندي الذي اختلف معهم، فلما هدأت الأمور بالنسبة له، اقتصر منهم جميعاً.

أما على الجبهة: فلقد كان قيصر روسيا بطرس الأكبر يخطط لإعلان الحرب على الدولة العثمانية وكان الروس مغترين بعد انتصارهم على ملك السويد شارل الثاني عشر^(١)، والذي سعى بكل ما أوتي لإقناع الدولة العثمانية بحرب روسيا، والوقوف إلى جواره في ربيع الأول سنة (١١٢١ هـ / أبريل ١٧٠٩ م)، وكانت حجة ملك السويد هي أن القوات الروسية دخلت إلى بعض الأراضي العثمانية أثناء مطاردتها له.

(١) شارل الثاني عشر ابن ملك السويد شارل الحادي عشر ولد سنة (١٦٨٢ م)، ونودي به ملكاً بعد أبيه سنة (١٦٩٧ م)، وعمره سبعة عشر، مما أغرى ملوك الدنمارك وبولونيا وقيصر روسيا بحربه، فاستطاع الانتصار على الدنمارك، ثم استطاع النصر على روسيا، ثم انتصر على بولونيا، وقام بعزل ملكها، وأقام مكانه أحد حلفائه، وفي سنة (١٧٠٩ م) توجه إلى موسكو، فحاصرها واستطاع الجيش الروسي أن ينتصر عليه في واقعة بليتوا، فاحتل بمدينة بندر من بلاد الترك، مما دفع إلى عودة ملك بولونيا إلى بلاده والاستيلاء عليها، كما استولى الروس على عدة أملاك من ولاياته، وأخيراً قُتل بعد مقاومة شديدة عند حصاره إحدى بلاد النرويج سنة (١٧١٨ م). إحصان حقي / تحقيق «الدولة العلية العثمانية»، (٣١٢/٣١٣).



غير أن الصدر الأعظم نعمان كوبرلو رفض ذلك جهلاً منه، وعدم إدراك للأمور والمناورات السياسية، والذي كان أولى به أن يقوم بمساعدة ملك السويد والوقوف إلى جواره ضد روسيا، ليشكل مع بولونيا حاجزاً ضد أطماع الروس الذين حققوا نصراً على ملك السويد في معركة بليتوا سنة (١٧٠٩م).

فلما فطن السلطان لهذا الأمر، قام بعزل الصدر الأعظم، وتولية بلطه جي محمد باشا، والذي وافق على أن يقود حرباً ضد روسيا، وهدفه من ذلك استعادة الأراضي التي حصلت عليها روسيا في معاهدة كارلوفيتس، وخاصة ميناء آزاق على البحر الأسود.

توجه الصدر الأعظم على رأس الجيش الذي بلغ تعدادهُ مئتي ألف جندي، وتمكن من حصار الروس الذين أدركوا أن مصيرهم إلى الهزيمة لا محالة^(١)، لذا أرسل قيصر روسيا بمجوهرات ثمينة جداً - مع رئيس وزرائه البارون شافي روف - طالباً من الصدر الأعظم بلطه جي باشا وقف الحرب، ورفع الحصار، وعقد اتفاقية سلام بين الطرفين، بعد أن تحقق الانتصار للعثمانيين في معركة بروت سنة (١١٢٢هـ / ١٧١٠م).

وكان من رأي ملك السويد وحاكم القرم دولت كراي التابع للدولة العثمانية رفض الصلح، وكانت وجهة نظرهم في محلها، خاصة أن الجيش الروسي كان في مأزق، في الوقت الذي كانت روسيا قد تفشت فيها الفوضى والجوع، مما دفع بطرس قيصر روسيا أن يقود الجيش عن بعد، وليس كما هو مشهور في بعض كتب التاريخ أنه وخليلته كاترينا كانا يقودان المعركة؛ فهذا خطأ، لأنه كما يذكر المؤرخون المحققون لهذه الحوادث قادها عن بعد، وقد أشيع عند المؤرخين بأن الصدر الأعظم بلطه جي التقى عشيقته القيصر كاترينا، ومنحته مجوهرات وأموالاً، جعلته يتراجع عن القتال، ويقبل الصلح، وهذا مما لا يقوم عليه دليل، بل إنه كان منتصراً، ويعلم أن المجوهرات وكاترينا وما تبقى من حطام روسيا بعد الحرب سيكون غنيمة للعثمانيين، فكيف يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير.

(١) يقول محمد فريد بك: ولو استمر عليهم الحصار قليلاً لأخذ قيصر روسيا وخليلته كاترينا أسرى، ولا نمحت دولة روسيا كلياً من العالم السياسي، أو على الأقل بقيت في التوحش والهمجية عدة أجيال.

وكاترينا الأولى أصلها من عائلة فقيرة بإحدى ولايات ليفونيا بالسويد، تزوجت أولاً بعسكري سويدي ثم أخذت أسيرة سنة (١٧٠٢م) عند دخول الروس مدينة مريم برج، ولما كانت تتمتع به من جمال رائع اتخذها البرنس منشيوكوف الروسي خليلته له، وفي سنة (١٧١١م) أعجب بها بطرس الأكبر، فاصطفاها لنفسه، وكانت ترافقه في معظم حروبه، ولما أنجب منها أعلنها زوجة له، وتوجّها إمبراطورة على روسيا في سنة (١٧٢٤م)، ولما توفي في سنة ١٧٢٥م ورثت عرش الإمبراطورية؛ وتوفيت سنة (١٧٢٧م). «تاريخ الدولة العلية العثمانية»، (ص: ٣١٣) بتصرف.

يقول الأستاذ يلماز أوزتونا^(١): إن الحكاية التي رويت عن مقابلة بلطه جي محمد باشا لعشيقه القيصر واستغفاله له وخيانتته للدولة ليس لها أي أساس من الصحة؛ فهو لم يقابل لا القيصر ولا كاترينا أبداً.

ويذكر الأستاذ أحمد آق كوندز^(٢) أن المصدر التاريخي المشهور للمؤرخ راشد - والذي خصص أربع مجلدات لعهد السلطان أحمد الثالث فقط لم يذكر فيه ولا في غيره من المصادر المؤرخة لهذه المرحلة أن القيصر وزوجته كانا في موقع هذه المعركة، أو أن كاترينا قامت بعلاقة غير شرعية، وقامت برشوة الصدر الأعظم بما معها من الجواهر الثمينة، فقام بخيانة الدولة؛ فهذا كله من الإشاعات التي ذكرت في التاريخ بصورة مغرضة.

ويقول الدكتور إحسان حقي^(٣): إن قصة المجوهرات هذه لا تقوم على ساق، وما أظن أن الوزير العثماني كان يجهل أن كاترينا ستكون له سبيّة، وأن كل جواهرها وجواهر بلادها ستكون ملك دولته، إذا غلب بلادها، فلو كان يطمع بجسم المرأة، فهي له بعد النصر، وإن كان يطمع بالجواهر، فهي له أيضاً، ولذا فإني أرى أن هذه القصة ملفقة، وأعتقد أن محمد باشا لم يمضِ هذه المعاهدة إلا لأنه أدرك أن هناك أمراً قد يخسره، حتى فتوحاته، لو استمر الحصار؛ أو أنه اجتهد فأخطأ، فرضي بأخف الضررين، ثم هل كان الجند يسلمون للباشا، ويوافقونه على هواه بهذه السهولة، إذا عرفوا أن في الأمر خيانة، وهم الذين يعزلون ويقتلون السلاطين والوزراء لأتفه الأسباب؟ ١.هـ.

أخذ الصدر الأعظم بلطه جي محمد باشا برأي مستشاريه بقبول الصلح، مما أدى إلى ضياع فرصة كبيرة للقضاء على خصم من خصوم الدولة العثمانية، غير أنه تحقق للدولة مزايا جيدة بهذه المعاهدة، كان على رأسها تنازل روسيا عن مدينة آزاق التي هي فتحة نهر الدون إلى الدولة العثمانية، وجميع الأراضي التي حازتها روسيا في اتفاقية كارلوفيتس، ومنها الأراضي حول البحر الأسود، وتعهّد روسيا بعدم التدخل في شؤون القوزاق

(١) «تاريخ الدولة العثمانية»، (١/ ٥٩٦).

(٢) «الدولة العثمانية المجهولة»، (ص: ٣١٤) بتصرف.

(٣) هذه الفقرة من تعليقات الدكتور إحسان حقي على كتاب «الدولة العلية العثمانية»، محمد فريد بك، (ص: ٣١٤).



مطلقاً، وقد سميت هذه الاتفاقية باتفاقية بروت، أو معاهدة فيلكزن، ووقعت في التاسع من جمادى الآخرة سنة (١٢٣هـ) / الخامس والعشرين من يوليو (١٧١١م).

دفع هذا الاتفاق ملك السويد ودولت كراي حاكم القرم إلى الإيقاع بين السلطان والصدر الأعظم، كما أن شيخ الإسلام الذي كان يحلّه السلطان ويحبه كثيراً إلى جانب كبار رجال الدولة كل أولئك قد وقفوا في وجه الصدر الأعظم، وأقنعوا السلطان بأنه بهذه الاتفاقية قد أضاع فرصة ذهبية على الدولة العثمانية، وهي أسر قيصر روسيا حياً والسيطرة على بلاده.

حاول السلطان أن يقنع مَنْ حوله بصواب ما فعله الصدر الأعظم، وأن عزله ليس في محله، غير أنه في النهاية أخذ برأيهم، وتم عزل الصدر الأعظم بلطه جي محمد باشا في ذي القعدة سنة (١٢٣هـ) / أكتوبر (١٧١١م)، وأجبره السلطان على الإقامة في جزيرة مدلي^(١)، وتم تعيين أغا يوسف باشا في منصب الصدر الأعظم.

حاول بطرس الأكبر قيصر روسيا نقض المعاهدة، مما دفع السلطان أن يخرج بنفسه إلى أدرنة، حيث ينطلق منها لحرب روسيا، فسارع قيصر روسيا بإدخال إنجلترا وهولندا لمنع الحرب، فتدخلتا لدى السلطان، وتم التوقيع على إتفاية أدرنة في الرابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة (١٢٥هـ) الموافق للثامن عشر من يونيو (١٧١٣م) والتي استعادت بها الدولة العثمانية جميع الأراضي التي كانت قد فقدتها بموجب اتفاقية كارلوفيتس.

دفع ذلك العثمانيين أن يستعيدوا من الدول الأوروبية الصليبية الأخرى ما فقدوه في اتفاقية كارلوفيتس، خصوصاً بعد أن اشتكى أهل المورا للدولة من ظلم البنادقة، مما دفع الدولة إلى الدخول في حروب جديدة في أوروبا، استطاعت فيها الانتصار على البنادقة في أول الأمر، واستعادة الأراضي التي حصلوا عليها باتفاقية كارلوفيتس، ومنها جزيرة كريت وبلاد مورة جنوب اليونان، مما دفع البنادقة للاستعانة بالنمسا

(١) يقول المؤرخ راشد في الجزء الخاص بالسلطان أحمد الثالث من تاريخه: قام أفراد الحاشية المحيطة بالسلطان بشكل سري بكتابة اتهامات، لا أساس لها من الصحة، فأثاروا غضب السلطان، وبينما كان الوزير الأعظم بلطه جي محمد باشا ينتظر المكافأة على الخدمات الكبيرة التي قام بها، ويتنظر الثناء والمديح إذا به يواجه باتهامات خيانية، لا أصل لها، وبسبب حيل حساده أصبح منبوذاً - أحمد آق كوندز «الدولة العثمانية المجهولة»، (ص: ٣٣٦).

التي أعلنت الحرب على الدولة العثمانية؛ وخاضت جيوش العثمانيين معركة كبرى في بتروارادين في سنة (١١٢٨هـ / ١٧١٦م)، وقُتل فيها الصدر الأعظم، وانكسر الجيش العثماني وهُزم، والذي فقدَ بعد ذلك بلغراد - بعد سنة واحدة من هذه الحرب - في سنة (١١٢٩هـ / ١٧١٧م)، مما اضطر الدولة للدخول في مفاوضات مع النمسا، انتهت باتفاقية باساروفجة سنة (١١٣٠هـ / ١٧١٨م)، فأعلن انتهاء الحرب بين البلدين.

• عصر الزنبق أو دور لاله^(١):

استمر هذا العصر نحو ثلاث عشرة سنة من سنة (١١٣٠هـ - ١١٤٣هـ) (١٧١٨م - ١٧٣٠م)، واتصف بالسلم وازدهار العلوم إلى جانب الثقافات المنحرفة كالموسيقى واللهو المحرم، والذي كان أحد الأسباب في انهيار الدولة في نهايتها، كما أُسست فيه أول مطبعة عثمانية كبرى رسمية للكتب وغيرها في سنة (١١٤٠هـ / ١٧٢٧م) مما ساهم في نشر العلوم المختلفة^(٢)، وانتشرت حدائق الزنبق والقصور والبيوت الفارهة في أنحاء إسطنبول؛ ولذا سمي هذا العصر بعصر الزنبق.

ومما يذكر أن السلطان كان يقضي مع الأسف معظم وقته في المآدب والحفلات والسمر واللهو، مما أغرى العامة وخاصة النساء بالانحراف من اللهو المشروع إلى اللهو غير المشروع، فلقد انتشر تعاطي الأفيون والمخدرات - كما انتشرت أزياء النساء المثيرة والمغرية - مما دفع شيخ الإسلام أن يصدر الفتوى بتحريم ذلك، بل قد تصل عقوبة من يتاجر بهذه المواد المخدرة إلى الإعدام.

كما صدر فرمان السلطاني في سنة (١١٤٤هـ / ١٧٣١م) في عهد السلطان محمود بمنع أيّ زي نسائي غير شرعي، مما كان عليه الوضع في عهد السلطان أحمد الثالث، واتخاذ جميع التدابير اللازمة لمنع وقوع هذه الأفعال اللاأخلاقية.

(١) لاله تعني الزنبق باللغة التركية الذي بلغت أنواعه في هذا العهد أربعة وثلاثين ومثني نوع كانوا يزرعونها في العاصمة، بل إن السلطان أصدر فرماناً سلطانياً يخص أمر الزنبق.

(٢) لم تكن هذه هي أول مطبعة أنشأت في تاريخ الدولة الإسلامية، بل سبقها مطابع كثيرة، غير أنها كانت أول أكبر مطبعة رسمية في الدولة العثمانية، ومن نافلة القول أن الطباعة لم يكتشفها كوتبرغ الألماني، كما هو مشهور عند الناس، فإن الطباعة قد ظهرت مع حضارة الفراعين والصينيين، كما أنها ظهرت مبكراً في عهد الدولة الإسلامية قبل العثمانيين، وقد نشأت مطابع في عهد الدولة العثمانية، قامت بطباعة تسعة عشر كتاباً في عهد السلطان بايزيد الثاني، وثلاث وثلاثين كتاباً في عهد السلطان سليم الأول، ومن أراد الاستزادة فعليه البحث في تاريخ الطباعة ونشأتها.



ومما ينبغي أن نلفت الأنظار إليه أنَّ هذه الأمور وقعت بسبب فتاوى مذهبية، لفقهاء أصّلوا وقعدوا أصولاً وقواعد تخالف الأصول الشرعية، وانتصروا وتعصبوا للمذاهب، ولم ينتصروا للأدلة الشرعية.

وقد تولى في هذا العهد الوزير نوشهيري داماد إبراهيم باشا منصب الصدر الأعظم، والذي دفعه اجتياح الروس أراضي إيران عندما انتشرت فيها الفوضى وضعفت إلى تجهيش الجيوش لخوض الحرب التي استمرت لسبع سنوات مع إيران سنة (١١٣٦هـ / ١٧٢٣م)، وقد استطاع فيها أحد القادة من عائلة كوبرلو - وهو عبد الله باشا - أن يفتح تبريز وخمس ولايات أخرى، ويلحقها بالدولة العثمانية، فأقر أشرف شاه الأفغاني - والذي كان سنياً يحكم إيران - بقبول ذلك في اتفاقية همدان بين الدولتين، واستطاع العثمانيون أن يفصلوا غرب وشمال غرب إيران وقفقاسيا الجنوبية، ويضموها إلى الدولة العثمانية، وبذلك استطاع العثمانيون أن يصلوا في الحدود الشرقية إلى حدود الدولة في عهد مراد الرابع.

ثم مع ظهور نادر خان التركماني الأصل^(١) في إيران وزيراً للصفويين، قام بتولية آخر الشاهات الصفويين طهماسب الثاني، والذي كان طفلاً، وأعلن رفضه لاتفاقية همدان، واستطاع استرجاع بعض المناطق من العثمانيين مما أشعل فتيل الحرب مرة ثانية، ودفع ذلك السلطان إلى تأجيل الحملة الإيرانية، مما أثار عليه الإنكشارية بالاستنكار والاعتراض.

• ثورة باترونا سنة (١١٤٣هـ - ١٧٣٠م):

انتشر عصيان الإنكشارية انتشاراً كبيراً - والذي يعد من أسوأ الثورات والعصيان في تاريخ الدولة العثمانية - والذي كان على رأسه رجل يقال له: خليل من أهالي باترونا، وهو جندي من البحرية^(٢)، حيث قام الثوار بمهاجمة المساكن ونهبها، ومهاجمة السجون وإطلاق سراح المسجونين، وتزويدهم بالسلاح ليكونوا إلى جوار العصاة.

(١) سبق ذكره / راجع الدولة الصفوية بالكتاب.

(٢) كان خليل جندياً في البحرية العثمانية يطمح للوصول إلى منصب الصدر الأعظم، ولكنه عين بعد ثورته رئيساً للعسكر في روان، واستطاعت الدولة أن تتخلص منه بمساعدة حاكم القرم الذي دعاه إلى قصر صوفا، وهناك قتله هو ورفيقه موصولو باشا أحد الزعماء، ثم استطاع قتل ثمانية عشر من رؤوس هذه الفتنة، وألقيت جثثهم قرب سبيل السلطان أحمد الثالث.

وقد عدَّ هؤلاء الثوار موقفَ السلطان من هجوم نادر خان على تبريز واحتلالها، وقيامه بالتمثيل بالشعب السنّي بقطع أنوفهم وسمل عيونهم، عدُّوه موقفاً سلبياً، واتخذوه ذريعة للثورة كما سيأتي.

وكان يمكن أن ينتهي هذا العصيان بشكل سريع، خاصة أنه كان عددهم في أول الأمر يسير، ولا يوجد على رأسهم أي رجل دولة أو حتى قائد من الجيش، فأدى هذا التراخي إلى ازدياد عدد العصاة وانضمام النفعيين إلى الثوار، والجزء من جنس العمل، فإن الدولة لم تعاقبهم في أول الأمر، فعليها أن تتحمل العواقب، فالهمل الرعاع لا يداويهم إلا العصا الغليظة؛ وأما التراخي، فيضيع مقدرات الدول، كما قيل: مَنْ أَمِنَ العقوبةَ أساءَ الأدبَ.

ترتب على هذه الفوضى أن تقدّم هؤلاء العصاة بطلب إعدام الصدر الأعظم وستة وثلاثين من كبار رجال الدولة، ومن المؤسف أن الضغط على السلطان كان أعظم حجماً من مواجهته، فأصدر الأمر بإعدامهم.

تجراً هؤلاء بعد ذلك على طلب تخلي السلطان عن العرش، فلم يجد بداً من أن يستدعي محمود ابن أخيه السلطان مصطفى الثاني، وتنازل له عن العرش، وذلك في التاسع عشر من ربيع الأول سنة (١١٤٣هـ) / أكتوبر (١٧٣٠م).

أقام السلطان المعزول أحمد الثالث مع عائلته في قصر الطوبقابي، حيث توفي هناك - بعد أكثر من ست سنوات من عزله - في ربيع الأول سنة (١١٤٩هـ) / يوليو سنة (١٧٣٦م)، وقد بلغ نحو ست وستين سنة، وصلي عليه، ودفن في مقبرة بني جامع - الجامع الجديد - في إسطنبول، وكانت مدة خلافته نحو ثمانٍ وعشرين سنة.

وهكذا دفع السلطان جزاء ما قدّم من انحرافات وثقافات، لا تمتُّ للإسلام بصلة، دفع عرشه ثمناً لذلك، ودفعت معه الأمة الإسلامية جرّاء ما فعل من انتشار الفساد في الدولة الإسلامية واعتباره ضرباً من الفن، وهو الذي يعتقد مع الأسف من ليس له بصيرة من الكثير المعاصرين، الذين ارتضوا نشر هذا الفساد الرخيص باسم الفن، تقود فيه الأمة الساقطات من الراقصات والمطربات والمخنثين من المطربين، باسم الثقافة، وباسم نشر



الأداب، وهو في حقيقته دمار للمجتمعات، وجرها إلى عصور الظلام والانحرافات.

ومن المؤسف أن هؤلاء عندما تعترضهم الكبوات والأزمات، يحللونها على أنها ملفات، لها أبعادها سياسية أو اقتصادية أو استراتيجية؛ وهذا كله من عمى البصيرة التي لا تفرق بين الحق والباطل، كما قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

إن المتدبر لكتاب الله تعالى بما حواه من أحداث تاريخية وقصص للأمم هلكت، يوقن أن سبب الهلاك الرئيس هو الانحراف العقدي والأخلاقي باسم الثقافة والفنون والآداب، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٤١) ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ (٤٢) ﴿فَاقْرَأْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلُ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ، مِنْ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ (٤٣) ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُمْ يَمْهَدُونَ﴾ (٤٤) ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ ۗ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ (٤٥) [الروم: ٤١-٤٥].

يقول الأستاذ أحمد آق كوندز عن حركة العصيان على السلطان: من الواضح أن هذه الحركة كانت عقاباً للأحوال المنافية للإسلام، والتي جرت خلال عهد لاله، ومن الواضح أن باترونا خليل وأصدقاءه لم يقوموا بهذه الحركة إلا في سبيل منافعهم الشخصية، وفي سبيل إرواء حقدهم، وهي حادثة مهمة إن تم أخذ العبرة منها^(١).

(١) أحمد آق كوندز «الدولة العثمانية المجهولة»، (ص: ٣٤٧).

ال خليفة السادس عشر: محمود الأول بن مصطفى الثاني بن إبراهيم خان العثماني (١١٤٣هـ - ١١٦٨هـ) / (١٧٣٠م - ١٧٥٤م):

السلطان محمود الأول بن السلطان مصطفى الثاني، ولد السلطان محمود في الرابع من محرم سنة (١١٠٨هـ / ١٦٩٦م)، وكعادة بعض من سبقه من السلاطين فقد نشأ حبساً في القصر، وتلقى التعليم في هذه المرحلة في العلوم الدينية والتاريخ والأدب وكتب الشعر، وكان له أشعار يوقعها بلقب مستعار هو: سبكاتي.

ومن المؤسف أن أهل الفتوى من المتعصبين المذهبيين قد أفتوا بجواز الموسيقى والغناء، فدفعت ذلك السلطان السابق أحمد الثالث إلى الاهتمام بالموسيقى، وكذلك السلطان محمود الأول.

• أهم الأحداث في عصره:

تولى الخلافة بعد عزل عمّه أحمد الثالث سنة (١١٤٣هـ)، وكان عمره آنذاك خمساً وثلاثين سنة، وبعد توليه الخلافة استطاع أن يقضي على جميع رؤوس حركة العصيان، وبدأ في نشر الأمن والطمأنينة داخل البلاد، وأخذاً بوصية من قبله، فلم يعين أحداً في منصب الصدر الأعظم ومنصب شيخ الإسلام لفترة طويلة؛ ثم عين ابني شيخ الإسلام الأسبق فيض الله أفندي في منصب شيخ الإسلام، وعين وزراء للدولة، كان من أعظمهم الصدر الأعظم حكيم أوغلو علي باشا.

- الصراع مع إيران ونادر خان:

وكان من أهم الأعمال التي قام بها السلطان - بعد استتباب الأمن داخل البلاد - الحرب مع إيران، حيث وجه الجيوش التي قامت بفتح أروميا، وكرمان شاه، واسترداد تبريز، مما دفع شاه إيران في مناورة سياسية إلى طلب الصلح، فتم التوقيع على معاهدة أحمد باشا مع إيران في شهر شعبان سنة (١١٤٥هـ) / ديسمبر (١٧٣٢م).

ثم قام نادر خان والي شاه إيران على خراسان برفض ونقض معاهدة الصلح، وتوجه إلى أصفهان، وقام بعزل الشاه طهماسب، وولى مكانه ابنه عباساً الذي لم يزل طفلاً، وقام بنقض الاتفاق، وشن هجوماً مباغتاً على بغداد - بعد أن استولى على أربيل - في سنة



(١١٤٦هـ / ١٧٣٣م)، ولكن الدولة العثمانية استطاعت التصدي له وهزيمته هزيمة فادحة على يد القائد العثماني طوبال عثمان باشا في المحرم سنة (١١٤٦هـ / ١٧٣٣م).

قام نادر خان بعد المناورة السياسية بإنهاء حكم الصفويين في إيران، وأتى بعائلة الأفشار^(١)، وتصدّر الدولة، ثم قام بمعاودة الحرب على الدولة العثمانية، واستولى على كركوك وروان وكنجة وتفليس في معركة أرباشاي؛ ثم طلب عقد اتفاق للصالح في شهر رجب سنة (١١٤٩هـ) / أكتوبر (١٧٣٦م)، وتم ذلك في اتفاقية سميت باتفاقية إسطنبول، بين إيران وبين الدولة العثمانية سنة (١١٤٩هـ / ١٧٣٦م).

وبعد مرور سبع سنوات قام بنقض الاتفاقية، وعاود الهجوم على الدولة العثمانية من جهة العراق في سنة (١١٥٦هـ / ١٧٤٣م)، فوقفت في وجهه مدينة الموصل، والتي دافعت دفاعاً مستميتاً، واضطرت نادر خان إلى التراجع بعد أن مُني بخسائر فادحة، وعندما حاول بعدها بعام معاودة الحرب على مدينة قارص ووجه أيضاً بدفاع مستميت، ترتب عليه طلب الصلح من نادر خان مع الدولة العثمانية، فتم وقف هذه الحرب بمعاهدة إسطنبول الثانية سنة (١١٥٩هـ / ١٧٤٦م).

ومن أهم الأحداث التي وقعت في هذا الوقت أن نادر خان - والذي كان أصله سنياً على المذهب الحنفي - أراد أن يختار للدولة مذهباً يوفق بين السنة والشيعة، ليخفف حدة التوتر بينه وبين الدولة العثمانية، فاختار المذهب الحنفي بصورة رسمية، لكنه أثناء هذه الصراعات خشي من ظهور الاضطرابات والمؤامرات الداخلية^(٢)، فخفض من حدة العداء الاثني عشري المفرط عند الصفويين، وأعلن مذهب الدولة الفقهي المذهب الجعفري، وأصبح هو المذهب الرسمي منذ ذلك التاريخ.

وقد حاول نادر خان الحصول على الاعتراف الرسمي بالمذهب الجعفري مذهباً خامساً في الإسلام من خلال دولة الخلافة، فأرسل إلى الخليفة العثماني في ذلك، فأحال الخليفة

(١) الأفشار: قبيلة تركمانية سكنت بالأناضول وتزعمهم نادر خان، حكموا من سنة (١١٤٨هـ إلى ١٢١٠هـ) بلاد فارس وأفغانستان، وكانت عاصمتهم مدينة مشهد.

(٢) قلت: ليته بقي على المذهب الحنفي، ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة.

الأمر إلى هيئة من العلماء، برئاسة شيخ الإسلام، فرفضوا بالإجماع الاعتراف بهذا المذهب مذهباً خامساً عند المسلمين^(١).

- الصليبيون يستثمرون الصراع العثماني الإيراني:

استغلت النمسا وروسيا الحرب الدائرة في الشرق بين العثمانيين وإيران، وقامت بمهاجمة أراضي الدولة العثمانية، واستطاعت روسيا الاستيلاء على قلعة آزاق، ثم دخلت إلى القرم، وأوقعت بها المفاسد، فصمد لهم حاكم القرم فتح كراي، وقام بطردهم منها، كما قام الجيش العثماني بدحر الروس، واستطاع التغلب عليهم سنة (١١٤٩ هـ / ١٧٣٦ م).

كما قامت النمسا حليفة روسيا بإعلان الحرب على الدولة العثمانية، وهاجمت الدولة، واستطاعت الاستيلاء على عدة مدن منها: الأفلاق والصرب والبوسنة، فتصدت الدولة لهؤلاء وهؤلاء، واستطاعت الانتصار على النمسا في بانيا لوكا بقيادة القائد العثماني علي باشا الملقب بالشهيد، وتوجهت الجيوش العثمانية بعد ذلك نحو بلغراد، مما دفع النمسا وروسيا إلى طلب عقد الصلح بينها وبين الدولة العثمانية، وانتهت باتفاق معاهدة بلغراد سنة (١١٥٢ هـ / ١٧٣٩ م)، والتي ترتب عليها الأمن لنحو ثمان وعشرين سنة بينهم.

وبهذا نرى أن الدولة العثمانية كانت تقود حرباً في كل الجبهات في آن واحد، ولولا توفيق الله ﷻ لهم لانهارت الدولة، فلقد استطاعت الدولة النصر، وتوقيع الاتفاق على مائدة المفاوضات من مصدر القوة، وهي المنتصرة.

(١) أحمد آق كوندز «الدولة العثمانية المجهولة»، (ص: ٣٤٨).

قلت: ونزداد عجباً في زماننا عندما نرى أن الأزهر يعترف بالمذهب الجعفري مذهباً خامساً للمسلمين ويُجَوِّزُ التعبد عليه، وكذلك الجماعات المتميزة النفعية، التي لا يهملها إلا تجميع الناس في صفوفها وحولها كجماعة الإخوان المسلمين، والتي نشأت على يد صوفي هو أول من نادى بالتقريب بين السنة والشيعة، وجماعته هي أول من استقبل نواب صفوي الإيراني الشيعي صاحب جماعة فدائيان إسلام في مصر، والذي قال: من أراد أن يكون جعفرياً حقيقياً، فليتنضم إلى صفوف الإخوان المسلمين.

وكذلك الجماعات الصوفية التي لا فرقَ بينها وبين هؤلاء في الانحرافات العقدية سوى أنهم يغالون في الصحابة، وأولئك القوم يسبون ويلعنون الصحابة. وقد رأينا ذلك جلياً واضحاً في زماننا حيث الجسور الثلاثة التي تعبر عليها الصوفية المعاصرة أولها الأزهر بفتواه، والإخوان المسلمين، والجماعات الصوفية، ولعل أدل دليل على ذلك مؤتمر الشيشان الذي انعقد مؤخراً في جروزني، وحضره شيخ الأزهر وطوائف الصوفية المختلفة باسم أهل السنة والجماعة في (٢٥ أغسطس ٢٠١٦ م)، وكان أهم مقررات هذا المؤتمر إخراج السلفية من أهل السنة والجماعة، ثم تبرأ شيخ الأزهر بعد ذلك من هذه القرارات معلناً أن السلفية من أهل السنة والجماعة.



توجه السلطان محمود بعد ذلك للاهتمام بشؤون الدولة الداخلية، وانشغل بتنمية العلوم والثقافة والعمارة، حيث أمر ببناء الكثير من المساجد الجامعة والمدارس، كما اهتم بمؤسسة خمبرة (القنبلة) التي أنشأت سنة (١١٤٣هـ / ١٧٣٤م)، وكانت هذه المؤسسة تقوم على صناعة الخمبرة، وهي كرة فارغة من معدن الحديد أو النحاس، وتملأ بالمواد المتفجرة وتقذف على الأعداء بالمدفع أو باليد، وهي أشبه بالقنبلة اليدوية اليوم.

كما قام بإعادة تنظيم الجيش وإصلاحه، ووضع نظاماً جديدة له، وذلك لحاجة الدولة الدائمة للجيش، وأعاد للدولة هيبتها من جديد.

كما اهتم بوضع قانون توزيع الأراضي بين الناس رداً على من سموا أنفسهم بالأعيان أو الإقطاعيين، فكان قانون عدالة ناما في سنة (١١٥٣هـ / ١٧٤٠م).

- ظهور الدعوة الإصلاحية في جزيرة العرب:

وفي عهد السلطان محمود الأول ظهرت بدايات دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في جزيرة العرب، تُجَدِّد للناس أمر دينها، وتصلح عقائدهم التي فسدت بسبب انحرافات شيوخ الصوفية الذين سيطروا وأطبقوا على معظم الحياة الدينية في الدولة العثمانية، فطلب السلطان معرفة حقيقة هذه الدعوة، والتي هي أشبه بالدعوة الإصلاحية المسماة حركة قاضي زاده زمان السلطان مراد الرابع كما أسلفنا، غير أنه لم تدركه الحياة للوقوف على حقيقة الدعوة، إذ إنه كان يشكو في أيامه الأخيرة من نزيف في المعدة، وقد اشتد عليه المرض، وتوفي وهو عائد من صلاة الجمعة على صهوة جواده عند دخوله القصر في السابع والعشرين من صفر سنة (١١٦٨هـ) / الثالث عشر من ديسمبر (١٧٥٤م)، وصلي عليه، ودفن في مقبرة بني جامع (الجامع الجديد) في إسطنبول، وقد توفي عن عمر يزيد على الستين سنة، قضى منها خمساً وعشرين سنة خليفة للمسلمين وسلطاناً للعثمانيين.

الخليفة السابع عشر: عثمان الثالث بن مصطفى الثاني بن إبراهيم الأول (١١٦٨هـ - ١١٧١هـ) / (١٧٥٤م - ١٧٥٧م):

السلطان عثمان الثالث بن السلطان مصطفى الثاني، شقيق السلطان محمود الأول، ولد في سنة (١١١٠هـ / ١٦٩٦م)، تلقى تعليمه داخل القصر، وكان من أبرز معلميه ومربييه فيض الله زاده إبراهيم أفندي، وعاش معظم حياته قبل الخلافة بالقصر، مما كان له تأثير سلبي على حالته الصحية والعلمية والاجتماعية، وبرغم ذلك فإنه اتصف بالصلاح والعدل والرحمة.

• أهم الأحداث في عصره:

كان صالحاً في نفسه، وكان لا يحب حياة اللهو ولا الموسيقى، وقام بطرد الموسيقيين من القصر السلطاني وإخراج آلات الطرب، وذلك بعد توليه الخلافة في السابع والعشرين من صفر (١١٦٨هـ) الموافق الثالث عشر من ديسمبر (١٧٥٤م)، وبرغم قصر مدته قام بتعيين عدة وزراء في منصب الصدر الأعظم، بلغوا خمسة وزراء، لما اشتهر عن السلطان بأنه كان من صفاته العصبية والعناد والتردد، ولم يتعايش بذلك مع أي صدر أعظم.

كان السلطان يخرج متكرراً ليقف بنفسه على أحوال الناس ومظالمهم ومعاشهم، وكان يسير في الطرقات والأسواق، ويتعرف شكاوى الناس، ويقف على أحوال الرعية، مما دفعه إلى تحديد خروج النساء وسيرهن في الأزقة، ومنعهن الخروج متزينات، كما قام بمحاربة الرشوة والفساد.

وقع في زمانه حريق كبير سمي: بحريق خواجه باشا، كذلك وقع حريق جبالي اللذان التهما قسماً كبيراً من مدينة إسطنبول، بل وامتد إلى القصر الرسمي للبنية الرسمية للصدر الأعظم، وقضى عليها سنة (١١٧٠هـ / ١٧٥٦م)، وقد قام السلطان بإعادة بناء الأجزاء التي التهما الحريق، كما أنشأ في عهده جامع نوري عثمانية الشهير، كما انتشرت بعض الأوبئة والأمراض التي تسببت في موت عدد كبير من الناس، كما شاء الله عز وجل أن ينزل الشتاء القارس على العاصمة التي جمدت فيها مياه البحار.



أصيب السلطان بمرض يقال له: كف الأسد أو الجمرة، وهو مرض نادر، توفي به السلطان في السادس عشر من صفر سنة (١١٧١هـ) / الثلاثين من أكتوبر (١٧٥٧م) عن عمر بلغ الستين سنة، قضى منها ما يزيد عن ثلاث سنوات هجرية خليفة للمسلمين وسلطاناً للعثمانيين، وصُلي عليه، ودفن بجوار أخيه السلطان محمود الأول في مقبرة يني جامع (الجامع الجديد) في إسطنبول.

ال خليفة الثامن عشر: مصطفى الثالث بن أحمد الثالث بن محمد الرابع (١١٧١هـ - ١١٨٧هـ) / (١٧٥٧م - ١٧٧٤م):

السلطان مصطفى الثالث بن السلطان أحمد الثالث، ولد سنة (١١٢٩هـ)، وتلقى تعليمه بالقصر، وكان يهتم بالشعر والأدب وفن الخط وعلم الفلك، وله قصائد شعرية يوقعها باسم مستعار هو: جهنكير، واشتهر بأنه كان رجلاً عاقلاً فطناً ذكياً وأديباً، بل قيل: إنه عالم من العلماء.

• أهم الأحداث في عصره:

تولى الخلافة بعد ابن عمه السلطان عثمان الثالث، وكان عمره آنذاك اثنتين وأربعين سنة، وشاء الله تعالى أن يتولى الخلافة رغم أنه لم يكن - هو - وليّ العهد المعد لذلك، وإنما كان أخوه محمد بن السلطان أحمد الثالث هو ولي العهد، غير أنه توفي قبل السلطان عثمان الثالث بتسعة وثلاثين يوماً فقط، عن عمر ناهز الأربعين سنة، وكان قد أعد إعداداً جيداً لمهمة الخلافة والسلطنة، فكانت وفاته سبباً في تأثر رجالات الحكم العثماني، ودفن إلى جوار أبيه في مقبرة يني جامع، وكان الذي يلي عهد محمد هو أخوه مصطفى الثالث، الذي تولى الخلافة بعد عثمان الثالث.

كان السلطان قد تولى الخلافة، ومنصبُ الصدر الأعظم يشغله محمد راغب باشا، أحد كبار وزراء التاريخ العثماني^(١)، والذي كانت له أيادٍ بيضاء وإصلاحات ظاهرة في الدولة إلى أن توفي رحمه الله في الوقت الذي انتهت فيه حرب السنوات السبع بين دول أوروبا، وتبدلت فيها موازين القوى، وظهرت فيها ملكية بروسيا الصغيرة^(٢) كقوة عسكرية في أوروبا، لا يستهان بها، وانحدرت إنجلترا وفرنسا إلى الدرجة الثانية، في الوقت الذي كانت تعيش فيه الدولة العثمانية عهداً رفاهية، وأوروبا تأكلها نيران الحرب، ووقفت

(١) محمد راغب باشا: أحد فحول الرجال الذين تقلبوا في المناصب في الدولة العثمانية، مما يدل على ثقة الدولة به واعتمادها على أمانته، وعُيّن بوظيفة كاتب يد بالصدارة العظمى، وكان أحد رجال الدولة في المفاوضات التي ترتب عليها معاهدات مع نادر خان ومع الروس والنمساويين، كما عُيّن بوظيفة رئيس أفندي والتي تعادل وزير الخارجية الآن، وعُيّن والياً على مصر ثم ولاية آيدن ثم ولاية حلب، ثم صدر أعظم سنة (١١٧٠هـ)، واستمر في منصبه إلى وفاته في الرابع والعشرين من رمضان سنة (١١٧٦هـ)، له مؤلفات هامة في السياسة وله ديوان مشهور في الشعر، وأسس بالأسنانة مدرسة عالية، زودها بمكتبة جمعت الكتب النفيسة والمؤلفات النادرة. محمد فريد بك «تاريخ الدولة العلية العثمانية»، بتصرف، (ص: ٣٢٧).

(٢) جزء من روسيا وبولندا وألمانيا.



روسيا ترقب الأوضاع، وتستثمر قوتها، وتعد للحظة التي تنقض فيها على بولونيا - التابعة للدولة العثمانية - مما أدى لوقوع الحرب العثمانية الروسية بعد ذلك.

كان السلطان يهتم بأمور الدولة ومعالجة مشكلاتها أولاً بأول، وخاصة الأمور المالية، وكان مجدداً ومشجعاً للحركة العمرانية في البلاد، كما أعاد التفكير الجدي في حفر قناة السويس التي تربط البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر، والتي كان قد بدأ بالتفكير في حفرها محمد الصقلي باشا الصدر الأعظم زمان السلطان سليمان القانوني، لما لها من الأهمية الاستراتيجية والعسكرية منذ القدم، ولكنه لم يتمكن من ذلك^(١).

اهتم السلطان أيضاً بإصلاحات واسعة في المؤسسة العسكرية وتشكيلات الجيش المسماة: بقابوقلو، كما قام بتأسيس مدرسة الهندسة البرية السلطانية المسماة: بمهندس خانة بري همايون، ومدرسة الهندسة البحرية السلطانية المسماة: بمهندس خانة بحري همايون، واللذان تحولتا إلى جامعة إسطنبول التكنولوجية الحالية، والكلية الحربية البحرية، وقد تخرج من كلاهما ضباط المدفعية والبحرية وضباط الخيالة والمشاة الذين يشكلون نواة الجيش.

كما وقع في عهده زلزال كبير في إسطنبول سنة (١١٧٩ هـ / ١٧٦٦ م)، أدى إلى هدم بعض المباني الهامة مثل: مسجد السلطان أيوب، ومسجد الفاتح، فأعاد السلطان مصطفى الثالث بناءهما على أحسن ما يكون.

حاولت روسيا في زمانه أن تضم بولندا، كما أسلفنا، وذلك خلافاً للاتفاقات المبرمة مع الدولة العثمانية، ف وقعت الحرب بينهما على أوسع نطاق، ومُنيت كلتا الدولتين بخسائر فادحة، ثم إن روسيا استطاعت أن تقوم بشق القرم إلى نصفين، حيث أغرت سكان القرم، ووعدتهم بالاستقلال، إن هم انفصلوا عن الدولة العثمانية في سنة (١١٨٤ هـ / ١٧٧١ م)، كما استطاعت روسيا أن تستولي على الأفلاق، وتقدمت بعدها نحو بلغاريا، وقد قام الروس بمجازر شنيعة ضد المسلمين هناك، مما أضعف الدولة العثمانية إضعافاً

(١) وهذا فيه رد على من قال بأن حفر قناة السويس فكرة فرنسية، فخلط بين فكرة الإنشاء وبداية إنشائها.



شديداً، بعد أن كانت القوة الكبرى البشرية في العالم، وبدأ نجمها بالأفول بين الأمم، مما أصاب السلطان بغم شديد وهمٍ عظيم، ومرض بسبب ذلك، وأصيب بالفالج (الشلل)، وتوفي به في الثامن من ذي القعدة سنة (١١٨٧ هـ) الموافق للحادي والعشرين من يناير (١٧٧٤ م).

وصلي عليه، ودُفن في مقبرة جامع لاله لي، الذي أنشأه قبل وفاته، وكان عمره يوم وفاته ثمانياً وخمسين سنة، وبلغت مدة حكمه ست عشرة سنة وثمانية أشهر.



ال خليفة التاسع عشر: عبد الحميد الأول بن أحمد الثالث بن محمد الرابع العثماني (١١٨٧هـ - ١٢٠٣هـ) / (١٧٧٤م - ١٧٨٩م):

السلطان عبد الحميد الأول بن السلطان أحمد الثالث، ولد في سنة ١١٣٧هـ/ ١٧٢٥م)، تلقى تعليماً راقياً تحت إشراف وتشجيع والدته رابعة شرقي سلطان، نشأ متديناً شفوفاً رحيماً، حتى إن الصوفية والناس كانوا يطلقون عليه لقب: الولي، وكان يجيد الخط، وأدام الله تعالى نسل آل عثمان منه، تولى الخلافة والسلطنة في شهر ذي القعدة سنة ١١٨٧هـ/ يناير ١٧٧٤م).

• أهم الأحداث في عصره:

عندما تولى السلطان عبد الحميد الأول الخلافة كانت الدولة تواجه روسيا على جبهات القتال، وشاء الله تعالى أن تضطرب الأمور داخل روسيا، مما هيأ الفرصة لمفاوضات الصلح بين الدولتين في سنة (١١٨٨هـ / ١٧٧٤م) قرب نهر الدانوب، وتم توقيع معاهدة قاينارجة، والتي لم تفقد فيها الدولة العثمانية سوى أراضٍ قليلة جداً بالإضافة إلى القرم، إلا أنها تعتبر أسوأ وأتعس المعاهدات التي وقعت عليها الدولة على مدى تاريخها.

فلقد رفعت هذه المعاهدة روسيا مرة واحدة إلى الدرجة الثالثة بعد إنجلترا وفرنسا، وقد كانت من قبل لا تساوي شيئاً، وفي نفس الوقت من المؤسف لأول مرة أن تهوي الدولة العثمانية وتحط بها عسكرياً إلى الدرجة الرابعة بعد الدول الثلاث.

وقد أنهت هذه المعاهدة تحكُّم الدولة العثمانية بالبحر الأسود، فلقد حازت روسيا ساحلاً في البحر الأسود لأول مرة في تاريخها، ومعنى ذلك أن البحر الأسود سيكون مشتركاً بين الدولتين، تبحر فيه السفن الروسية بحرية تامة، وتمر منه من خلال المضائق إلى البحر الأبيض المتوسط وبالعكس.

كما أنه لأول مرة - بموجب هذه الاتفاقية - تدفع الدولة العثمانية غرامة حرب، مقدارها سبع مئة وخمسون مليون آقجة لروسيا خلال ثلاث سنوات، وهذه سابقة لم يسبق لها مثيل في تاريخ الدولة العثمانية.



ومن المؤسف أن يُترك مستقبل القرم وهو القطر الإسلامي العثماني - والذي يسكنه منذ خمسة عشر قرناً مليون ونصف مليون تركي - إلى نوايا روسيا الطيبة، وإن شئت فقل: الخبيثة، كما بقيت بولونيا التابعة للدولة العثمانية منهوبة بين روسيا والدول الأوروبية، كما لم تنسَ النمسا أن تأخذ حظها، فقامت باحتلال بعض المناطق التابعة للدولة العثمانية في شمال البغدان، وفي الاتفاقية التي وُقعت بينها وبين الدولة العثمانية سنة (١١٨٩هـ / ١٧٧٥م) تم الاعتراف لها بسيطرتها على هذه المناطق، فكانت هزيمة جديدة للعثمانيين. لقد كانت هذه السقطة التاريخية في حياة الخلافة العثمانية نذيراً بما هو قادم على الدولة، إن لم تبدأ بالبحث عن وسائل الإصلاح بعد الهزيمة.

وكان على الدولة أن تبدأ بالإصلاح الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والعسكري وفق الشريعة الإلهية، لا القوانين الجاهلية، فهو السبيل الوحيد للنجاة والوصول بالدولة إلى ما تصبو إليه.

لقد حاول السلطان عبد الحميد الأول بإصلاح أمور الدولة من مفهومه، وذلك عن طريق تعيين الأكفاء في المناصب الكبرى في الدولة، وعلى رأسهم الصدر الأعظم.

استغل الإيرانيون وضع الدولة العثمانية، فقاموا بمحاصرة البصرة، ثم الاستيلاء عليها في سنة (١١٨٩هـ / ١٧٧٥م)، فأعلنت الدولة العثمانية الحرب على إيران في سنة (١١٨٩هـ / ١٧٧٦م)، واستطاعت أن تتصر على إيران، وتسترد البصرة بعد ثلاث سنوات من الحرب.

فتح أوال (البحرين):

وفي صفر سنة (١١٩٧هـ / ١٧٨٣م) استطاع الشيخ أحمد بن محمد آل خليفة حاكمُ الزبارة في قطر أن يفتح جزيرة أوال (البحرين)، وأن ينهي فيها حكم عائلة آل مذكور، ولُقب من يومها بالفاتح، وكونَ بالجزيرة أول كيان سياسي لأسرة آل خليفة في البحرين، حيث بقيت بعد ذلك في حكم آل خليفة منذ ذلك الزمان إلى عهدنا، ثم إلى ما شاء الله تعالى، كما سيأتي ذكره في الفصل السابع.



• القرم ومشكلات لا تنتهي:

كما واجهت الدولة مشكلات القرم، وعلى رأسها خيانة شاهين كراي^(١) أمير القرم المتحالف مع الروس، الذين لم يسحبوا جيوشهم من القرم بناءً على المعاهدة، وحدثت فوضى عظيمة في القرم، مما دفع الدولة العثمانية أن تقرر محاربة روسيا، فتدخلت فرنسا وسيطاً بين الدولتين، وتم التوقيع على اتفاقية آينالك أواكاتا مع روسيا في صفر (١١٩٣هـ) الموافق لمارس (١٧٧٩م) والتي لم تستفد منها الدولة العثمانية بشيء.

وبعد ثلاث سنوات من هذه الاتفاقية ثار شعب القرم، وعُزل شاهين كراي، فتدخلت روسيا في شعبان سنة (١١٩٧هـ) / يوليو (١٧٨٣م)^(٢)، وأعلنت روسيا ضمَّ القرم إليها، وجعلها ولايةً من ولاياتها، فدخل المسلمون في القرم بسبب شاهين كراي وأمثاله ضمن دولة روسيا، وكأني بمأساة الأندلس تعود في القرم، فقد قامت روسيا بقتل الآلاف من المسلمين هناك، وبلغ تعداد القتلى نحو ثلاثين ألفاً من المسلمين في أقل من شهرين، كما بدأ سيل المهاجرين الروس ليستوطنوا مكان مئات الألوف من الأتراك الذين بدؤوا في البحث عن السبل التي توصلهم إلى الأراضي العثمانية، واضطرت الدولة العثمانية لقبول هذا الوضع بعد توقيعها معاهدة القرم في الخامس عشر من صفر سنة (١١٩٨هـ) الموافق للثامن من يناير (١٧٨٤م).

وقد انتهزت روسيا هذه الفرصة لتمدّد العون إلى الولاة الخارجين على الدولة العثمانية، مثل: علي بك والي مصر، وظاهر العمر والي عكا، وهما اللذان قضى على فتنتهما، كما ذكرنا ذلك في محله.

(١) كان شاهين كراي يتقاضى راتباً من قيصرية روسيا، كما كان يرتدي ملابس الجنرالات الروس المتميزين، ويعلق على صدره الأوسمة التي تسلمها من الإمبراطورة، ويسير بين الشعب راكباً عربته التي صنعت في بطرس برج، كما يقيم الولائم التي تقدّم بها المشروبات، ويجعل المسلمين يرفعون أقداحهم شاربين نخب الشرف، كما ألغى الأوقاف، ووضع يده على إيراداتها، واتهم الدولة العثمانية بالرجعية، وعمل على تأسيس أسطول بحري ليُلغى سيطرة العثمانيين على البحر الأسود، وعندما خلعه الشعب، فر إلى بطرس برج، ولجأ إلى الإمبراطورة، فأرجعته مع جيش روسي، وأجلسته على العرش سبعة أشهر، ثم بدأت روسيا بعد أن ضمت القرم بإذلال شاهين كراي، ومنعت عنه راتبه بعد أن عينت والياً روسياً في مكانه، والجزء من جنس العمل، ففر إلى الدولة العثمانية، وتم اعتقاله هناك، ونُفي إلى جزيرة رودس حيث تم قطع رأسه هناك نتيجة لخيانته لدينه ولأمنه، وهذا يذكرنا ببعض حكام المناطق الإسلامية التي تحت الاحتلال الروسي في زماننا وإذلال رئيس روسيا بوتين والقادة الروس لهم عند استقبالهم دائماً.

(٢) محمد فريد بك «الدولة العلية العثمانية» - يلهاز أوزتونا «تاريخ العثمانيين» - أحمد آق كوندز «الدولة العثمانية المجهولة».



لم تكتفِ كاترين قيصرية روسيا بذلك، فبعد ثلاث سنوات في سنة (١٢٠١هـ / ١٧٨٧م) دخلت قيصرية روسيا إلى القرم على رأس جيش، تعداده ستون ألفاً للاحتفال بالنصر، مما أدى إلى استفزاز العثمانيين الذين لم يتحملوا ذلك، فأعلنوا الحرب على الروس لإنقاذ مسلمي القرم في جمادى الأولى سنة (١٢٠٢هـ / ١٧٨٨م)، في الوقت الذي أعلنت فيه إمبراطورية النمسا أيضاً الحرب على الدولة العثمانية، فملة الكفر واحدة، فأصبحت الدولة العثمانية تخوض الحرب على جبهتين، وقد استطاع الجيش العثماني بفضل الله تعالى بقيادة الصدر الأعظم فوجه يوسف باشا الانتصار على النمساويين، وإلحاق الهزيمة بهم بقيادة ملكهم جوزيف الثاني، في معركة سَبَش في شهر ذي الحجة سنة (١٢٠٢هـ) الموافق لسبتمبر (١٧٨٨م)، ولُقب بعدها السلطان بالسلطان الغازي.

وأما على الجبهة الروسية، فلقد انتهز الروس فرصة الحرب بين العثمانيين والنمسا، فقاموا بالاستيلاء على مدينتي أوزي وهوتين، وارتكبوا مجزرة بشرية بحق المسلمين فيها، والذين قضى أكثر من خمسة وعشرين ألف مسلم نحبه فيها، مما أصاب السلطان بنزيف في المخ وذلك من شدة حزنه على ما جرى للمسلمين، وذلك عند قراءته لهذا الخبر المفجع في مجلسه، فتوفي على أثره بعد عشرة أيام في الثاني عشر من رجب سنة (١٢٠٣هـ) / السابع من إبريل (١٧٨٩م) عن عمر يناهز الثالثة والستين، وكانت مدة خلافته خمس عشرة سنة وثمانية أشهر، وصلي عليه، ودفن في مقبرة باهجة قبو في منطقة أمينونو في إسطنبول^(١).

وكان السلطان قد كتب بخط يده عن هذه المذابح قائلاً: الله يعلم كم حزنت من التقرير حول سقوط أوزي، إن وقوع كل هذه الأعداد من المسلمين رجالاً ونساءً وأطفالاً في أيدي الكفار قد ملأ قلبي كدراً وغماً، يارب! أنت مالك الملك، كل أمني ودعائي هو أن تريني قبل وفاتي رجوع هذه البلدان إلى أيدي المسلمين.

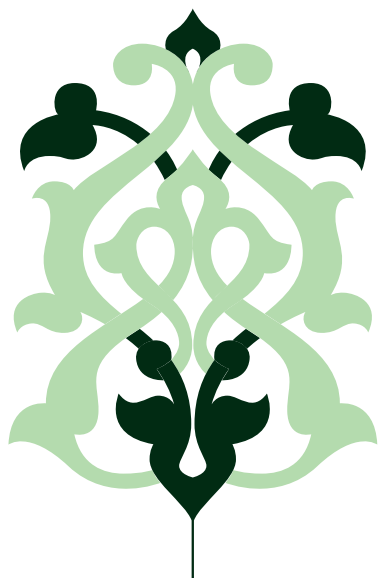
(١) مجموعة من المؤلفين «ألبوم سلاطين العثمانيين»، دار كاكينوس / إسطنبول، راشد كوندو غدو «السلاطين العثمانيون»، (ص: ١٨١).



الخلفاء

سليمان الثالث - مصطفى الرابع - محمود الثاني -
عبد المجيد الأول - عبد العزيز - مراد الخامس

الفصل الحادي عشر



تراجم الخلفاء العثمانيين
(٥)

الخليفة العشرون: سليم الثالث بن مصطفى الثالث (١٢٠٣هـ - ١٢٢٢هـ) / (١٧٨٩م - ١٨٠٧م):

السلطان سليم الثالث بن السلطان مصطفى الثالث، ولد سنة (١١٧٥هـ / ١٧٦١م)، وتلقى تعليمه بالقصر السلطاني، كمن سبقه من السلاطين، فكان مثلهم شاعراً خطاطاً، كتب الشعر، وكان يوقعه بلقب مستعار هو إلهامي، وأجاد إلى جانب اللغة التركية اللغتين العربية والفارسية.

ومن المؤسف أنه كان مولعاً بالموسيقى والطرب^(١)، وكان يعزف على بعض الآلات الموسيقية، مثل: الناي والطنبور، بل كان يغني، ويحبُّ مجالس الطرب والغناء، مما كان له أكبر الأثر في ضعف الدولة وفسادها في عهده.

• أهم الأحداث في عصره:

- الحرب الروسية النمساوية ضد الدولة العثمانية:

تولى السلطنة في شهر رجب (١٢٠٣هـ) / أبريل (١٧٨٩م) بعد وفاة عمه السلطان عبد الحميد الأول، وكانت الدولة في حالة حرب مع روسيا والنمسا، والأوضاع داخل الجبهات في غاية الصعوبة، وقد تعرض الجيش العثماني في معركة فوشاني على حدود البغدان في شرق رومانيا إلى هجوم موحد من الروس والنمساويين، فهزم هزيمة موجهة في ذي القعدة سنة (١٢٠٣هـ) / أغسطس (١٧٨٩م)، ثم أعقبتها هزيمة أخرى غير متوقعة على يد الجيش الروسي في معركة بوزا (بوزاووف) في ذي الحجة من نفس السنة. وتحركت القوات الروسية بعد ذلك مستغلة هذه الأوضاع، فاحتلت مدينة ياش عاصمة البغدان، في الوقت الذي تقدمت فيه القوات النمساوية لتتال حظهها، فقامت باحتلال بوخارست وبلغراد في صفر سنة (١٢٠٤هـ) / أكتوبر (١٧٨٩م).

(١) يقول الكاتب والمؤرخ الموسيقي التركي جينو تشان تاكري قورور: كان السلطان سليم الثالث شاعراً وعازف ناي وطنبور، وأشهر الملحنين في العائلة العثمانية المالكة، وكانت بيئته الغنية مسرحاً للتجديد الأخير الذي عاشته الموسيقى العثمانية. «الدولة العثمانية تاريخ وحضارة»، ٧٨٦ / ٢ مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية.



- الثورة الفرنسية وأثرها على الأحداث:

شاء الله تبارك وتعالى أن يتزامن مع تولي السلطان سليم الثالث الخلافة والسلطنة أن تقع ثورة فرنسا الكبرى^(١)، وأن تصبح جمهورية، وكان من أبرز قادتها نابليون بونابرت^(٢)، الضابط بالسلك العسكري، والذي لعب دوراً خطيراً في مسيرة فرنسا وأوروبا بعد ذلك، فخشيت النمسا من امتداد الثورة إليها، وعملت على مصالحة الدولة العثمانية، فأعادت لها بلاد الصرب وبخارست وبلغراد، ووقعت مع الدولة العثمانية اتفاقية زيشتو في شهر ذي الحجة سنة (١٢٠٥هـ) الموافق لأغسطس (١٧٩١م)، والتي انتهت بموجبها الحرب العثمانية النمساوية في التاريخ.

كما أن روسيا استمرت في الحرب، وفعلت الأفعال كعادتها مع المسلمين في المدن التي سقطت في يدها، حتى تم توقيع معاهدة ياشي في شهر جمادى الأولى سنة (١٢٠٦هـ)/ ديسمبر (١٧٩٢م) بين العثمانيين وروسيا، وحصلت بموجبها روسيا على بلاد القرم

(١) تعتبر ثورة فرنسا واحدة من الأحداث الهامة في التاريخ بالنسبة لأوروبا والعالم الغربي، لما أوقعت من آثار مباشرة على أفكار الشعوب النصرانية، حيث تخلصوا من السيطرة الكنسية والملكية عليهم كما زعموا، فلقد انطلقت بشعارات براقة خدعوا بها الشعوب، ليتحللوا بها من كل قيم فطرية تحت شعار الحرية والمساواة والإخاء والعدل، وامتدت هذه الأفكار حتى شملت أصقاعاً كثيرة في العالم ومنها العالم الإسلامي والعربي، وحلت في جنباتها رياح الحروب الطويلة، والانقلابات العسكرية والسياسية، وإراقة دماء الشعوب، والتغيرات الاجتماعية التي أحاطت أخطارها وما زالت تبني البشر تحقيقاً لأهداف الماسونية العالمية: الذراع الخفي الذي يستعمله اليهود في إدارة حكومات كثيرة في العالم. قامت هذه الثورة بسبب سوء نظام الحكم، وفساد الطبقة الحاكمة، والظلم الاجتماعي الذي انتشر في فرنسا، إلى جانب سوء الأوضاع الاقتصادية لعامة الشعب الذي تحمل الضرائب الباهظة وحده، وأعفيت منها طبقة أصحاب الأملاك، مما أدى إلى الأزمة المالية التي أوشكت فيها خزنة الدولة على الإفلاس. كما ساهم في انطلاق هذه الثورة أفكار الفلاسفة الفرنسيين أمثال فولتير، وروسو، ومنتسكيو، والتي انتشرت بين الجماهير، وتأثرت بها عن الحرية وعن المساواة، كما لعب قيام الثورة الأمريكية ومبادئها دوراً هاماً في إشعال الثورة الفرنسية، ولقد ترتب على هذه الثورة إلغاء الملكية الفرنسية، وإقامة الجمهورية.

(٢) نابليون بونابرت: قائد عسكري فرنسي، ولد في أغسطس (١٧٦٩م)، وتوفي في مايو (١٨٢١م)، ولد بجزيرة كورسيكا التي ضمتها فرنسا إليها قبل ولادته بخمسة عشر شهراً لأسرة اختلف في أصلها يهودية أو نصرانية، كان أحد قادة الثورة الفرنسية الكبار، وقاد الجيش الفرنسي في حربه مع البندقية حتى قضى عليها، توجه إلى مصر وعمره تسعة وعشرون سنة، وعند عودته إلى فرنسا أعلن نفسه مستشاراً على فرنسا لعشر سنوات، ثم لقب نفسه بالإمبراطور، وخاض حروباً متوالية مع بريطانيا والنمسا وروسيا وبروسيا، كما استطاع في سنة (١٨١٢م) أن ينزل الهزيمة الكبرى بروسيا، ودخل إلى موسكو التي قام أهلها بتدميرها قبل دخوله، مما سبب له المصيبة الكبرى، حيث إن جيشه كان في حاجة إلى الغذاء خاصة أن الشتاء قد حل في موسكو، وانتشر بين جنوده مرض حمى التيفؤد، وقد فتك بالآف من جنوده مما ساهم في هزيمة الجيش الفرنسي بعد ثلاث سنوات في سنة (١٨١٥م)، وقامت بعد ذلك أوروبا كلها ضد بونابرت، وقهرته وانتصرت عليه في معركة واترلو في الثامن عشر من يونيو سنة (١٨١٥م)، وسبق أسيراً للنفي إلى جزيرة سانت هيلانة الإفريقية في المحيط الأطلسي، حيث قضى هناك ما تبقى من عمره، وتوفي بسرطان المعدة في الخامس من مايو (١٨٢١م)، ودفن هناك، ثم نقلت رفاته بعد ذلك إلى باريس، ودفنت بسراري الأنفاليد في قبر من الرخام الأحمر. د. إحسان حقي: تحقيق كتاب «تاريخ الدولة العلية العثمانية» لمحمد فريد بك، (ص: ٣٧٢).

قلت: وما يذكر أن بونابرت هو أول من رسم خارطة لفلسطين بقلم في يده، ووضعها على شكلها الحالي، يقطعها من أرض الشام وقال: لا بد من فصل هذه - أي بلاد الشام - عن هذه - يقصد مصر - وكان الهدف من ذلك هو توطين اليهود فيها لإنشاء وطن قومي لهم، خاصة وأنه كان ماسونياً، يأتمر بإمرة حكومة العالم الخفية.



نهائياً وبسباريا وجزء كبير من بلاد الجركس (الشركس)، كما تنازلت الدولة العثمانية عن مدينة أوزي الأوكرانية لروسيا، والتي ارتكبت بها المجزرة الكبرى، التي راح ضحيتها آلاف من المسلمين، وكانت سبباً في مرض الخليفة عبد الحميد الأول ووفاته.

• بدأ العمل بالنظام الجديد في الدولة العثمانية وبدايات العلمنة:

واجه السلطان سليم الثالث مشكلات داخلية كثيرة، كما واجه غيره من السلاطين من قبل، بسبب الإنكشارية التي كانت تمثل خطراً عظيماً على الدولة، وأصبحت كأنها مرض مزمن، لا يفارق جسد الدولة، وخاصة في العاصمة وفي المناطق الأوروبية العثمانية، ووقعت منهم حوادث مشينة، منها هتك الأعراض، وأصبحوا صيداً سهلاً لخصوم الدولة، يمكن من خلالها تقسيمها بالمؤامرات التي تحاك في الخارج، لذلك اتخذ السلطان قراراً بإعادة تجديد الدولة، في جميع نظمها، والقيام بإصلاحات عسكرية وسياسية واقتصادية ومدنية، تطال إدارة الدولة، وذلك في سنة (١٢٠٨هـ / ١٧٩٣م) مستغلاً فترة الهدوء بينه وبين النمسا وروسيا وقيام الثورة الفرنسية في أوروبا.

قام السلطان بتشكيل لجنة من أحدٍ وعشرين فرداً متخصصاً لدراسة أحوال الدولة، وكتابة تقرير عن أسباب تدهورها ووسائل إصلاحها، فقامت هذه اللجنة بالدراسة وقدمت تقريراً إلى السلطان:

وكانت وجهة نظر المحافظين في هذه اللجنة بأن تعود الدولة إلى إحياء المؤسسات القديمة التي قامت عليها الدولة وتلاشت شيئاً فشيئاً، والعودة إلى نظام عهد السلطان سليمان القانوني، وتفعيل دور الديوان الهمايوني (السلطاني) بما يشمله مجلس الشورى.

ورأت مجموعة أخرى بأن التفوق الأوروبي على الدولة العثمانية يدعو إلى الأخذ من علوم أوروبا والتكنولوجيا التي وصلت إليها، خاصة وأن الفارق الزمني بيننا وبينها لا يتعدى ثلاثين سنة؛ فيمكن اللحاق بها وسبقها دون المساس بثوابت الدولة ونظمها.

وقدمت مجموعة ثالثة في تقريرها أن النظام ينبغي أن يتغير بالكلية من ناحية النظم، والشرائع، والقوانين التي تحكم الدولة؛ وأن تنفتح الدولة على أوروبا انفتاحاً تاماً.



وبرغم التباين بين آراء المجموعات الثلاثة السابقة إلا أنهم أجمعوا جميعاً على أمرين أساسيين:

الأول: أن الدولة تتقهقر، وتراجع، وتنهار، ولا بد من إنقاذها.

الثاني: لا بدّ من إيجاد تغيير لكثير من نظم الدولة وإعادة هيكلتها وترتيبها، وخاصة الإنكشارية والجيش الذي يمثل قوة الدولة.

غير أن هذه المجموعات اختلفت في طرح الوسائل ووجهات النظر في البدء بالأولويات. ومع الأسف فإن السلطان قد أخذ بالرأي الثالث، وهو الأقرب إلى علمنة الدولة والانفتاح على أوروبا انفتاحاً تاماً، لأن السلطان كان متأثراً تأثراً شديداً بالتقاليد الأوروبية، وكان ينظر إلى أصحاب الرأي الثالث أنهم أفضل من غيرهم، ولديهم القدرة على تحديث الدولة.

ومع الأسف فإن هؤلاء كانوا يعتقدون - كما يعتقد العلمانيون والليبراليون في عالمنا الإسلامي والعربي اليوم - أن كل شيء يمتّ للإسلام بصلة، أو يقوم على أساس شرعي فهو فاسد، ولا يصلح لقيام الدولة.

والمنصف يرى أن الانحراف العقدي المتمثل في العقائد الصوفية الفاسدة التي سادت الدولة، وأطبقت على حياة المجتمع العثماني كانت سبباً في دعم كل مظاهر التخلف والتدهور في الدولة، فظن هؤلاء أن الإسلام يدعو إلى الخمول والدعة بمفاهيم مغلوطة غير مستقيمة مع الفطرة البشرية؛ مما دفع الكثير منهم، عند قيامهم بتطبيق النظام الجديد، أن يتنكروا إلى الشريعة، ولو فيما بينهم، دون أن يعلنوا، فكان ذلك أول مظهر من مظاهر علمنة الدولة وانحرافها عن الشريعة.

وكان الأولى بالسلطان أن يراجع الأسس والعوامل التي قامت عليها الدولة الإسلامية على مرّ تاريخها، ومنها الدولة العثمانية، فإن هذه العوامل تكمن في الاستجابة لأمر الله تعالى ولرسوله ﷺ والأخذ بشريعته الغراء، والتي كانت سبباً في رفعة الدولة على مرّ تاريخها.



ومما لا شك فيه أن النظام الجديد لعب دوراً هاماً في تغيير كثير من مظاهر الدولة، ولكنه تغيير في الهيئة الخارجية، وأما من الداخل، فأصبحت الدولة شيئاً فشيئاً في خواء، مما عجل في انهيار ذلك البناء.

وضع السلطان خزينة خاصة للنفقة على هذا النظام الجديد بكونه وزارة مالية ثانية، وبدأ في إعداد جيش جديد، يفصل بين قوات المشاة والبحرية والمدفعية وبين الإنكشارية، وأنشأ من أجل ذلك معسكرات كبيرة وضخمة لتحديث الجيش، واختار للجيش زياً جديداً على الطراز الأوروبي.

اهتم النظام الجديد بالبحرية، إذ أمر السلطان بإنشاء سفن كبيرة، ووضع على رأس البحرية أخاه من الرضاة حسين باشا قبطاناً للبحر، والذي يُعدُّ المؤسس للبحرية التركية الحديثة.

في ذلك الوقت أصبحت إيالات (ولايات) الجزائر وتونس وطرابلس في شبه استقلال ذاتي، كما كانت إيالة (ولاية) مصر - التي تُعدُّ الأولى في البروتوكول العثماني - في قلاقل دائمة بين المماليك والولاة العثمانيين.

كما أصبحت بعض الولايات إرثاً لأُسَرِ الولاة كما في سورية، حيث أصبحت الولاية في آل العظم، وفي العراق ممالك الأيوبيين، كما بقيت اليمن تحت إدارة الأئمة الزيديين، وكل هؤلاء يتبعون الدولة العثمانية اسمياً، لأنها دولة الخلافة.

اختلفت آراء علماء الدولة العثمانية نحو النظام الجديد بين مؤيد ومعارض^(١)، ولكن سوء تصرف بعض نظام الرجال الجديد، وإخفاقهم في تحقيق المصالح العامة، وانصرافهم لتحقيق مصالحهم الخاصة، وإرهاق الشعب بالضرائب، وانصرافهم إلى حياة اللهو والعبث كل ذلك دفع العلماء إلى معارضة ذلك النظام، وكان على رأسهم شيخ الإسلام زاده محمد عبد الله أفندي، والذي وقف في وجه هذا النظام، وحرص العلماء على العصيان والوقوف في وجه السلطان، مما دفع السلطان أن يتنازل عن أمور

(١) والعجيب أن الكثير من الناس قد نبهه هذا النظام الجديد، ووصف به السلطان وصفاً رفيع القدر، وهو لا يستحق ذلك، ومن هؤلاء مع الأسف الأستاذ يلماز أوزتونا المؤرخ التركي، إذ إنه علق على ذلك بقوله: سليم الثالث هو أول مصلح، ورائد حقيقي في التاريخ العثماني كله في جميع العالم الإسلامي في كامل آسيا، يستلهم من أوروبا بقصد أخذ تكنولوجيتها العليا، وكل الذين جاؤوا بعده قلده. يلماز أوزتونا «تاريخ الدولة العثمانية»، (١/٦٤٦).



كثيرة، وشجع ذلك الإنكشارية في أن يرفضوا الثياب الجديدة للجيش؛ وبتشجيع من العلماء، وهؤلاء كعادتهم يتصيدون في الماء العكر، ولو أن السلطان كان منضبطاً بالشرع لأدرك أن علاج هذه الأمور كلها بالقرب من الله والاستعانة به على تأليف قلوب العباد، لا بتقديم التنازلات، والتي وصلت إلى حد إلغاء السلطان للنظام الجديد الذي أنفق عليه الجهد والمال والوقت، وذلك في العشرين من ربيع الأول سنة (١٢٢٢هـ) الموافق السابع والعشرين من مايو (١٨٠٧م)، إرضاءً للمعارضين.

والحقيقة أن الدولة ما كانت تستطيع أن تنفق على جيش طفيلي - كالإنكشارية التي كانت سبباً رئيساً في تدهور الدولة وتراجعها - إلى جانب النفقة على جيش نظامي.

ووصلت هذه الأمور إلى إثارة المواطنين الذين تساءل بعضهم باكياً على الإنكشارية: بأي جيش ذهبنا إلى فينا؟ ولم يسألوا أنفسهم: ما أسباب انتصارات الدولة العثمانية على أعدائها؟

• ثورة الصرب:

قام الصربيون بثورة ضد الدولة بقيادة جورج بتروفيتش^(١)، وذلك بسبب ما أحدثته الإنكشارية من فوضى وفساد واعتداءات على السكان، فقام الصربيون بمهاجمة الإنكشارية، حتى اضطروهم إلى الخروج من القرى والأراضي الزراعية، مما دفع الدولة العثمانية إلى إرسال والي البوسنة لیساعد الصرب في طرد الإنكشارية من بلغراد وصربيا.

وكانت قد تسربت إلى الصرب الدعوات القومية والتحررية والدعوة إلى الاستقلال بسبب الثورة الفرنسية، مما دفع سكانها إلى طلب الاستقلال، بتأييد ودعم من النمسا وروسيا، حتى استطاعوا بقيادة قره يوركي صنيعة فيينا الذي خان ساداته من العثمانيين، وتقرب إلى روسيا من حيث المذهب والقومية، والتي دعمته وأيدته في استيلائه على بلغراد، فقاموا بقيادته بعمل مجزرة ذبحوا فيها كافة المسلمين بالمدينة.

(١) جورج بتروفيتش، ولد في بلغراد، وكان يلقب بجورج الأسود لشدة حقه على الدولة العثمانية، وينسب إليه أنه أول من جمع الصربيين على مقاومة الدولة، وطلب الاستقلال عنها، وفي سنة (١٨٠٦م) نال بعض الامتيازات، واسترجعتها منه الدولة فيما بعد، وطرده سنة (١٨١٣م)، فهاجر إلى روسيا التي أكرمتها، وعيّنته قائداً في جيوشها، وفي سنة (١٨١٧م) حاول الرجوع إلى صربيا لإثارة الفتن، فقبض عليه، وقُتل، وأرسل رأسه للأستانة من جهة والي الصرب ميلوش أورسوفيتش، وينسب إلى جورج أنه قتل أباه وأخاه بمجرد أنها أظهرتا ولاءهما للدولة العثمانية. د. إحسان حقي / تحقيق كتاب «تاريخ الدولة العلية العثمانية» لمحمد فريد بك (ص: ٣٨٣-٣٨٤).



ثم أعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية تأييداً لصربيا، وخشية من انتقام العثمانيين منهم على هذه المذبحة، ودعماً لاستمرار الثورة على العثمانيين.

واجهت الدولة العثمانية الروس، واستطاعت هزيمتهم مرتين، إلا أن الروس كانوا قد سبقوا واحتلوا بعض المناطق العثمانية، واستطاعوا تحقيق نصر سريع في إحدى المعارك، لتبدأ صفحة جديدة من الحروب العثمانية الروسية، ولتستمر إلى ما بعد سليم الثالث، ولتنهي معاهدة ياشي التي ظلت خمس عشرة سنة.

ثم انضمت إنجلترا إلى جانب روسيا، وأعلنت الحرب على الدولة العثمانية في شهر ذي الحجة سنة (١٢٢١هـ) / فبراير (١٨٠٧م)، وقامت إنجلترا باحتلال مصر، ولكن سرعان ما تم طردها وإيقافها.

في ذلك الوقت وقف جنود النظام القديم والإنكشارية في وجه إرسال جيش النظام الجديد إلى جبهات القتال مع روسيا، وهذا من أسوأ ما جرى، إذ الأعداء يتربصون بأوطان المسلمين، وجيش المسلمين في صراع داخلي، وكأن الجيش أصبح ذراعاً لأعداء الدولة، مما كان له أسوأ الأثر بعد ذلك في ثورة الإنكشارية وعزل السلطان عن منصبه.

وفي عهد سليم الثالث استطاعت اليونان أن تحصل على استقلالها بقيام جمهورية بها، تحت الحماية العثمانية.

• الحملة الفرنسية على مصر والشام (صفر ١٢١٣هـ / يوليو ١٧٩٨م):

برغم ما كان في الماضي بين الدولة العثمانية وفرنسا من مصالح مشتركة، أقامت الودّ بينهما لفترات متقطعة في التاريخ، وخاصة في عهد سليمان القانوني، كما أسلفنا، إلا أن ملة الكفر واحدة، فكما نرى في تاريخنا المعاصر أحفاد هذه الدول النصرانية دينهم المصلحة، وسياستهم المكيافلية التي تقوم على مبدأ الغاية تبرر الوسيلة، أو مجموعة الوسائل القدرة، فإن هذا سلوك ورثوه عن أجدادهم الذين تغلغت فيهم هذه المبادئ الخبيثة، فكما رأينا فرنسا من قبل تظهر المودة للدولة العثمانية لأربع مئة سنة، وتطلب منها الحماية، وكذلك بريطانيا، فإن المصالح والعداء العقدي للإسلام يبقى في صدرها الخبيث، تنفته سماً عندما

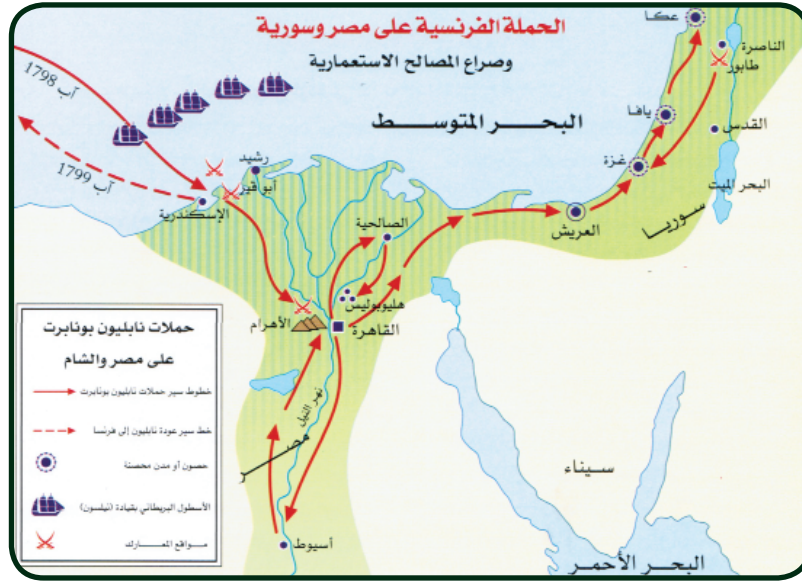


تحين لها الفرصة، ولقد تحينت هذه الفرصة بعد الثورة الفرنسية، فلذلك توجه بونابرت عن طريق البحر إلى مصر، دون أن يعلن الحرب على الدولة العثمانية، وحتى لا يتعرض للتصدي له، وخشية أن يعرقله الأسطول العثماني والإنجليزي في البحر المتوسط.

وقد ذهب بونابرت محاولاً تكوين إمبراطورية في الشرق، للإضرار بالدولة العثمانية في أكبر ولاياتها، وللإضرار بمصالح بريطانيا في الهند، ولإنشاء الدولة العالمية لفرنسا، ولإنهاك قوة بريطانيا العسكرية بتوزيع أسطولها بين البحار، مما ييسر على فرنسا غزو الجزر البريطانية في المستقبل، وما كان أحد يتوقع أن هدفه هو مصر وإعلان الحرب على الدولة العثمانية.

تكون الأسطول الفرنسي من أربع مئة وخمسين سفينة بحرية، عليها خمسة وعشرون ألفاً من جنود البحرية، وخمسة وثلاثون ألفاً من جنود المشاة وأفرع الجيش، وكان على رأس هؤلاء جميعاً نابليون بونابرت وقادة العسكر كليبر ومينو؛ واستطاع الأسطول الفرنسي الوصول إلى الإسكندرية والاستيلاء عليها بعد أن حاول أهلها بزعامة السيد محمد كُريّم الدفاع عنها، غير أن بونابرت أذاع منشوراً باللغة العربية بين الأهالي خادعهم وأعلن فيه بأنه جاء بأمر الخليفة لمعاقبة أمراء المماليك الذين خرجوا على طاعته، وأنه يحترم الدين الإسلامي وأعرافه وعاداته، مما سهل عليه اقتحام الإسكندرية سريعاً وإيقاف المقاومة الأهلية.

تقدم بونابرت بعد ذلك إلى القاهرة، واستطاع الانتصار على قوات المماليك بقيادة مراد بك الذي أراد أن يقطع على بونابرت الطريق إلى القاهرة، وقد انتصر بونابرت بعد ذلك على المصريين في معركة الأهرام -إمبابة- وكان بونابرت قد أتى معه بالكثير من العلماء والمتخصصين، الذين أخذوا يدرسون تاريخ وجغرافيا البلاد، ووضعوا ذلك في كتاب شهير سُمي: بوصف مصر.



استعد الخليفة الذي فوجئ بالاعتداء على مصر لمواجهة الفرنسيين، وإعلان الحرب عليهم، في الوقت الذي تقدمت فيه بريطانيا بعرض المساعدة العسكرية والتحالف مع العثمانيين في حربهم مع فرنسا، وذلك خشية على مصالحها في المشرق، فقبلت الدولة العثمانية ذلك، ووجدتها فرصة تدعم بها قوتها.

أراد نابليون بونابرت الإسراع بضرب العثمانيين في مقتل، قبل وصولهم إليه، فتقدم إلى الشام في رمضان (١٢١٣هـ) / فبراير (١٧٩٩م)، واحتل غزة ثم يافا، وقام فيها بمجزرة كبيرة حيث قام بذبح ما يقرب من عشرة آلاف جندي ومدني من المسلمين، وذلك لإرهاب السكان ومحاولة الاستيلاء على الشام دون مقاومة؛ كما قام بذبح جميع المصابين والجرحى في جيشه حتى لا يعيقوه في سيره إلى هدفه، وذلك في حدث لم يسبق له في التاريخ^(١).

وكان قد أمّن حامية يافا، ثم نقض عهده معهم، وارتكب هذه المجزرة، ثم تقدم إلى عكا التي استطاعت أن تقاوم مقاومة شديدة بفضل الله ثم بالجيش النظامي العثماني الجديد^(٢)، الذي أرسله الخليفة دعماً لعكا ولتجربته في الحروب، فهُزم جيش بونابرت شرّاً هزيمة هناك، بعد أن صمد أهل عكا بقيادة أحمد باشا الجزار الذي كانت تأتيه المعونات العثمانية من جهة البحر، مما دفع نابليون بونابرت للانسحاب، وقال بونابرت يومها: لولا عكا،

(١) محمد فريد بك «تاريخ الدولة العلية العثمانية»، (ص: ٣٧٥).

(٢) لقد أثبتت العساكر النظامية قدرتها على القتال، واستطاعوا تحقيق النصر على قوة لا يستهان بها في أول تجربة لهم، وقد كرمهم السلطان عند عودتهم إلى العاصمة، وأمر بزيادة أعدادهم تحقيقاً للفائدة.



لاستوليت على الشرق برمته^(١).

ثم عاد بونابرت إلى مصر، وتوجه سراً إلى فرنسا، وترك الحملة لخليفته الجنرال كليبر في سنة (١٢١٥هـ / ١٨٠٠م)، في الوقت الذي وصل فيه العثمانيون بأسطولهم، يرافقهم الأسطول الإنجليزي إلى مصر، وقاموا بإحراق سفن الحملة الفرنسية كاملة في أبوقير، فواجهت الحملة الفرنسية مأزقاً خطيراً، دفعها إلى توقيع اتفاقية العريش سنة (١٢١٦هـ / ١٨٠٠م) والذي على أثره رفضت بريطانيا خروج الحملة من مصر إلا كأسرى حرب، مما دفع كليبر للتوقف عن تنفيذ اتفاق العريش، وسارع بالهجوم على القوات العثمانية القادمة إلى القاهرة لتنفيذ اتفاق العريش، وباغتهم بهجومه عليهم في موقعة المطرية بعين شمس، مما أثار الشعب المصري الذي وقف إلى جوار الحامية العثمانية في القاهرة، وأباد الحامية الفرنسية في القاهرة انتقاماً من خيانة كليبر لاتفاق العريش وتحركه نحو الجيش العثماني.

دفع ذلك كليبر أن يحاصر القاهرة بعد فراغه من مواجهة الحملة العثمانية، وقام بقصف حي بولاق بالمدفعية، ونكل بالشعب، واستمرت المقاومة الشعبية في حرب شوارع عشرة أيام، ساد بعدها الأمن في القاهرة.

دفع كليبر حياته ثمناً جراً ما فعل بمسلمي القاهرة، حيث ترصد له أحد طلاب الأزهر، واسمه: سليمان الحلبي^(٢)، حيث تمكن من كليبر وهو يمشي في بستان سراي الألفي بالأزبكية، (فندق شبرد القديم) والذي قُتل على الفور، والجزء من جنس العمل.

تولى القائد مينو قيادة الحملة الفرنسية في مصر بعد سلفه كليبر، وقد أشيع أن مينو أسلم،

(١) يلماز أوزتونا «تاريخ الدولة العثمانية»، (١/ ٦٥١).

(٢) سليمان بن محمد أمين الحلبي: ولد سنة (١١٩١هـ / ١٧٧٧م)، أصله من بلاد الشام، ولد ونشأ بحلب، وأقام ثلاث سنوات بالقاهرة يدرس بالأزهر، وعاد إلى حلب، وحج مرتين وزار القدس وغزة، والتقى بعض قادة الجيش العثماني، وعاهدهم على قتل كليبر خليفة بونابرت في مصر، ظل يتعقب كليبر نحو شهر كامل، حتى تمكن منه، فطعنه بخنجر عدة طعنات قُتل على أثرها كليبر، وقبض على سليمان، وحُكم عليه أمام محكمة عسكرية فرنسية والتي قضت بإعدامه صلباً على الخازوق بعد حرق يده اليمنى، ثم يترك جيفة يأكلها العقاب، وتم تنفيذ ذلك الحكم في تل العقارب بحي السيدة زينب بضواحي القاهرة سنة (١٢١٥هـ / ١٨٠٠م)، كما أعدم إلى جواره ثلاثة من علماء الأزهر هم: الشيخ عبد الله الغزي، والشيخ محمد الغزي، والشيخ أحمد الوالي، وهم الذين أخبرهم بعزمه على قتل كليبر، ولم يفشوا سره.

احتفظ الفرنسيون بالهيكل العظمي لسليمان، ووضعوه في متحف حديقة الحيوان والنباتات في باريس، كما وضعوا جثمانه في غرفة التشريح بمدرسة الطب بباريس، كما احتفظوا بالخنجر الذي طعن به كليبر في مدينة كاراكسون بفرنسا. الزركلي «الأعلام»، (٣/ ١٣٣).



وتسمّى بعبد الله مينو، وتزوج من امرأة مسلمة من الرشيد، اسمها: فاطمة.

رأى مينو بعد استشارته للقيادة في فرنسا أن مواجهته للعثمانيين والإنجليز بعد هزيمة الفرنسيين في موقعة أبو قير لا فائدة منها، فقرر الانسحاب بمن تبقى من جيش فرنسا بعد الاتفاق بينه وبين العثمانيين، فغادرت الحملة بعد أن خسرت خسائر فادحة على سفن إنجليزية في الثاني والعشرين من ربيع الآخر سنة (١٢١٦هـ) / الأول من سبتمبر (١٨٠١م).

حاولت فرنسا إصلاح علاقتها مع الدولة العثمانية للإبقاء على الامتيازات السابقة لها، واستطاعت ذلك، كما تم التفاهم بينها وبين العثمانيين على منحها حق الملاحة في البحر الأسود أسوة بروسيا، كما أعادت لها الدولة العثمانية بعض أملاكها التي صادرتها منها في اتفاقية باريس في صفر سنة (١٢١٧هـ) / مايو (١٨٠٢م).

• ثورة الإنكشارية أو حركة عصيان قباقي مصطفى:

ثار الإنكشارية بسبب النظام الجديد، والذي شعروا معه بأنه سيفقد لهم كل امتيازاتهم، وأنه سيقبل من الصلاحيات الممنوحة لهم، وبدلاً من أن يرّجّحوا المصلحة العامة للدولة، نظروا إلى مصالحهم الشخصية، فقاموا بالثورة عند فتحة المضيق بإسطنبول على البحر الأسود، يدفعهم الشيوخ والعلماء الساخطون على النظام الجديد وقادته، وقام هؤلاء الثوار بتولية جندي اسمه: قباقي مصطفى رئيساً عليهم، وقاموا بتمزيق لباس النظام الجديد، ولم يكتفوا مع الأسف بذلك، بل قاموا بقتل وتمزيق ناظر المضيق محمود رآف أفندي، والذي كانوا يطلقون عليه لقب: الإنجليزي، لأنه تخرج من إنجلترا، وكانت هيئته أقرب إلى الأوروبيين.

قامت هذه الحركة باسم إنقاذ الشريعة، والشريعة براءً من تصرف هؤلاء وهؤلاء، وقد استطاعت هذه الحركة خطوة بخطوة أن تعطل حركة النظام الجديد لعقدين من الزمان، وبدلاً من أن يعالجوا الأمر وفق الضوابط الشرعية التي حثت على الأخذ بالعلم الكوني وأسبابه، أوقعوا الأمة في التخلف لتسبقها أوروبا إلى العلم طيلة هذه الفترة



التي ظلت محفورة في جبين التاريخ إلى يومنا هذا وكانت سبباً في تأخر الدولة وتراجعها أمام أعدائها، فمن الخطأ أن يقال: إن التغيير في الوسائل والتطور العلمي الكوني للدولة حركةٌ تغريبٌ.

وانتهى الأمر بهذه الحركة أن قامت بعزل السلطان بعد يوم واحد من إلغائه للنظام الجديد، بعد أن أنفق المال والجهد والوقت، فانهار هذا النظام نتيجة أخطاء من قام بوضعه وتطبيقه، ألغي فجأة مع الأسف بأمر من السلطان الذي دامت سلطنته نحو تسع عشرة سنة، وبايعوا مكانه ابن عمه مصطفى الرابع، في الحادي والعشرين من ربيع الثاني سنة (١٢٢٢هـ) / الثامن والعشرين من مايو (١٨٠٧م)، وانتهى الأمر بسليم أن قُتل بعد سنة من عزله على يد السلطان مصطفى الرابع، كما سيأتي، ودفن في مقبرة جامع لاله لي بجوار والده، وكان آنذاك في الثامنة والأربعين.

ال خليفة الحادي والعشرون: مصطفى الرابع بن عبد الحميد الأول (١٢٢٢هـ - ١٢٢٣هـ) / (١٨٠٧م - ١٨٠٨م):

السلطان مصطفى الابن الأكبر للسلطان عبد الحميد الأول، ولد سنة (١١٩٣هـ/ ١٧٨١م)، وتلقى التعليم الذي تلقاه أمراء العثمانيين في القصور، بتشجيع من والدته ومن ابن عمه السلطان سليم الثالث، وبقي ولياً لعهد السلطان سليم مدة سلطنة سليم كاملة.

ببيع له بالخلافة بعد عزل السلطان سليم الثالث، في الوقت الذي تزعمت فيه حركة الإنكشارية وحاولت أن تمسك بزمام الأمور، غير أنه انقلب عليهم مخططهم، حيث أحاطوا بمطالبهم الدائمة بالسلطان الجديد، الذي استطاع أن يتخلص من هؤلاء وزعيمهم قباچجي مصطفى بمساعدة حاكم روسجق^(١) علم دار مصطفى باشا، والذي كان أحد مؤيدي النظام الجديد، وقد فرّ إليه جمع من رجال النظام الجديد، واستعان به السلطان في التخلص من هؤلاء الخصوم، دون أن يدري أن علم دار مصطفى باشا قد أضمر في نفسه عزل السلطان، وإعادة السلطان سليم الثالث، إذا حانت له الفرصة.

ثم قام السلطان بعزل شيخ الإسلام، ونفى العلماء الذين ثاروا على السلطان سليم أيضاً بمساعدة علم دار مصطفى باشا.

شكر السلطان علم دار مصطفى باشا على خدماته الجليلة، وأمره بالعودة إلى روسجق، فتأخر الباشا، وقد دبر مؤامرة لعزل السلطان، حيث استعان برجال النظام الجديد واجتمع مع خمسة عشر ألفاً من الجنود، واقتحموا الباب العالي (مركز الحكومة)، وقرروا عزل السلطان، وذلك في الخامس من جمادى الآخرة سنة (١٢٢٣هـ) الموافق للثامن والعشرين من يوليو سنة (١٨٠٨م).

عرض علم دار باشا على شيخ الإسلام فكرة عزل السلطان وتنازله عن العرش، دون اعتقاله أو اغتياله، غير أن السلطان لم يستمع إلى أحد، ولا إلى نصيحة شيخ الإسلام،

(١) روسجق أو روسا مدينة ببلاغاريا على الضفة اليمنى من نهر الدانوب، كانت تابعة للدولة العثمانية، وكان يحكمها من قبلهم علم دار مصطفى باشا.



الذي نهاه عن اتخاذ أي إجراء دموي نحو السلطان سليم الثالث، أو ولي العهد الأمير محمود، وقرر أن يتخلص منهما، وأن يلقي بجثتيهما إلى الجنود خارج القصر، ليأس الثوار من إعادة سليم الثالث، وإبعاد السلطان عن الحكم.

أمر السلطان رجالاً من خاصته بقتل السلطان المعزول سليم الثالث، فاقترحوا عليه، وهم خمسة وعشرون رجلاً، وقتلوه بالسواطير الحادة، ثم توجهوا إلى مقام ولي العهد الأمير محمود، والذي استطاع المقاومة، والنجاة وأفلت منهم، فشاء الله له الحياة ليتولى السلطنة بعد ذلك.

ظن السلطان أنه بهذه الإجراءات سيقضي على حركة علم دار مصطفى باشا، غير أنه كما قال الشاعر: تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، حيث انقلب الأمر عليه، وتم عزله في سنة (١٢٢٣هـ / ١٨٠٨م) ووضع في نفس الدار التي كان يسكنها السلطان سليم الثالث، والتي قُتل بها، بعد أن دامت سلطنته لأكثر من سنة، وهي أقصر مدة سلطنة في التاريخ العثماني فيما سبقه من السلاطين، وأقصر مدة على مر التاريخ العثماني بعد مراد الخامس، كما سيأتي.

وبعد نحو أربعة أشهر تمّ قتل مصطفى الرابع خنقاً، وشُيع في جنازة قليلة العدد، وصُلي عليه، ودفن بجوار والده عبد الحميد الأول، في مقبرة باعجة منطقة أمينونو في إسطنبول، وكان عمره لم يتجاوز الثلاثين سنة.

الخليفة الثاني والعشرون: محمود الثاني بن عبد الحميد الأول (١٢٢٣هـ - ١٢٥٥هـ) /
(١٨٠٨م - ١٨٣٩م):

«الدولة على مفترق الطرق»

السلطان محمود الثاني بن السلطان عبد الحميد الأول، ولد في الثالث عشر من رمضان سنة (١١٩٩هـ)، وتلقى تعليمه في القصر السلطاني تحت إشراف ابن عمه السلطان سليم الثالث، والذي اهتم بتعليمه أساليب إدارة الدولة، والآداب والشعر والموسيقى^(١)، وله قصائد وقعها باسم مستعار هو: عدلي.

بويع له بالخلافة بعد عزل أخيه مصطفى الرابع في الخامس والعشرين من جمادى الأولى سنة (١٢٢٣هـ) / الثامن عشر من يوليو (١٨٠٨م)، وعمره أربع وعشرون سنة.

• أهم الأحداث في عصره:

قام السلطان محمود بتعيين علم دار مصطفى باشا في منصب الصدر الأعظم، كما بدأ مباشرة في الاهتمام بإنشاء وحدات عسكرية جديدة، أسماها: سقبان، وكلف الصدر الأعظم من أجل ذلك بالاجتماع بالإنكشارية وإخبارهم بذلك، فاجتمع بهم الصدر الأعظم، وقام فيهم خطيباً، وبين لهم أهمية التزامهم بالنظم الجديدة، واستعمالهم لأساليب الحرب الحديثة والأسلحة النارية الجديدة، والاهتمام بالتدريبات العسكرية، والالتزام بما جاء في القانون العسكري زمان السلطان سليمان القانوني.

وياليتهم وافقوا على ذلك مع إدخال الإصلاحات التي يرونها ولو وافقوا لما صارت الأمور لما سارت إليه بعد ذلك، فلقد أظهر قادة الإنكشارية طاعة الأوامر للصدر الأعظم، وأبطنوا أمراً آخر، وهو الثورة عليه وعلى أوامره، وهذا الذي حدث، حيث أنهم قاموا بالثورة على الصدر الأعظم علم دار مصطفى باشا، وحاصروا قصره، واستطاعوا قتله في

(١) يقول الكاتب والمؤرخ الموسيقي التركي جينو تشان تاكري قورور: وتمثل المرحلة التي انقضت من عهد السلطان محمود الثاني حتى الخليفة عبد المجيد أفندي وتبلغ (١١٤) سنة حقبة تاريخية، أنجبت آخر كبار الملحنين في الموسيقى العثمانية، بل أنجبت في الوقت نفسه موسيقيين عظماء، هيؤوا الموسيقى التركية لاستشراف المستقبل، ففي تلك المرحلة، وفي أجواء معركة التجديد التي بدأها السلطان سليم الثالث، وأكملها السلطان محمود الثاني، ظهر آخر الكلاسيكيين. إكمال الدين أوغلو: «الدولة العثمانية تاريخ وحضارة»، (٢/ ٧٨٦).

بدون تعليق! وإنا لله وإنا إليه راجعون.



مأساة تاريخية جديدة.

ثم توجه الثائرون بعد ذلك، فحاصروا قصر السلطان، مما اضطره أن يرضخ لأوامر الإنكشارية بإلغاء هذه النظم الجديدة، أو ما يسمى: بجيش السقبان، مبدياً لهم جانب الدين خشية شرهم، فهم كانوا دائماً وراء كل بلاء وشر في الدولة، وظل السلطان يعمل على التخلص من الإنكشارية ويتحين الفرصة لذلك.

- الحرب مع روسيا ومعاهدة بوخارست:

استغلت روسيا هذه الأحداث الداخلية، وأرادت الاستفادة منها، فأعلنت الحرب على الدولة العثمانية في سنة (١٢٢٤هـ / ١٨٠٩م)، وقامت باحتلال البغدان والأفلاق، ونالت الدولة العثمانية الهزيمة أمام الجيش الروسي في عدة معارك متعددة، استولت فيها روسيا على بعض أراضي الدولة، حتى تولى أحمد باشا منصب الصدر الأعظم، والذي استطاع أن ينتصر على الروس، وأن يزيحهم عن مدينة روسجق، في الثالث عشر من جمادى الثانية سنة (١٢٢٦هـ) / الخامس من يوليو (١٨١١م).

في هذه الأثناء اضطربت العلاقات بين روسيا وفرنسا، وكادت الحرب أن تقع بينهما، لذا سعت روسيا لمصالحة الدولة العثمانية، وأمضت معها معاهدة بوخارست في السادس عشر من جمادى الأولى سنة (١٢٢٧هـ) / الثامن والعشرين من مايو (١٨١٢م)، والتي استردت الدولة العثمانية بموجبها الأفلاق والبغدان، وعادت صربيا إلى حوزة الدولة، وهدأت الأمور بينهما لفترة من الزمن.

- ثورة الصرب:

اعتبر الصرب أن هذه المعاهدة سلبتهم الاستقلال الذي كانوا يسعون إليه، وخيانة من روسيا لهم لعدم الوقوف معهم ضد الدولة العثمانية من أجل استقلالهم، فقام الصرب بثورة على الدولة العثمانية التي سیرت إليهم الجيوش، واستطاعت أن تخضعهم لسلطانها، وأن تعيد موظفيها إلى مراكزهم التي كانوا عليها قبل الثورة، كما فرّز عماء الثورة الصرب إلى النمسا والمجر، يتحينون الفرصة لعودة الكرة مرة أخرى طلباً للاستقلال.



أظهر ميلوش أبروينو فيتش أحد كبار رجال الثورة الباقيين في صربيا الولاء للدولة العثمانية، فقامت بتعيينه شيخ بلد، في إحدى القرى الكبرى، مما أتاح له فرصة الاتصال بالأهالي، وبث روح الثورة فيهم سرّاً، وإعدادهم لساعة الصفر، وهذا مثال واحد لسوء إدارة الدولة العثمانية لهذه المناطق الصليبية النصرانية.

وفي سنة (١٢٣٠هـ) / (١٨١٥م) أعلنت صربيا العصيان، بقيادة ميلوش أبروينو فيتش، واستمر لسنتين، غير أن الدولة العثمانية استطاعت في النهاية أن تكسر هؤلاء، مما دفع الصرب إلى الرجوع إلى سلطان الدولة، على أن ينالوا الاستقلال في شؤونهم الداخلية، وأن يدير البلاد مجلس من اثني عشر عضواً، ينتخبهم الأهالي من أعيان الصرب، ويتخبوا رئيساً لهم حاكماً عليهم، ويبقوا في حماية وظل الدولة العثمانية كما تبقى الحصون والقلاع بيد الدولة العثمانية، فقبلت الدولة بذلك، وأصبح ميلوش أبروينو فيتش أول حاكم في ظل هذا الاتفاق، ولم ينافسه على ذلك إلا قره جورج، الذي كان قد لجأ إلى روسيا من قبل، فخشي منه ميلوش عند عودته متخفياً، فاستطاع أن ينال منه، وقتله، وأرسل رأسه إلى الأستانة، كدليل على ولائه للدولة العثمانية.

- السلطان محمود يعلن الحرب على دعوة التوحيد:

إن من أعظم الأمور التي قصمت ظهر الدولة العثمانية إعلانها الحرب على الدولة السعودية الأولى، بحجة أنها تمثل خطراً على المسلمين، وعلى دولة الخلافة، ومع الأسف الشديد أسندت هذه المهمة إلى واليها على مصر محمد علي باشا^(١)، كما سيأتي في موضعه.

ولقد كان يمكن للسلطان محمود أن يستفيد فائدة عظيمة من دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، والتي قامت على الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة، وهو المنهج

(١) محمد علي باشا والي مصر: ولد في مدينة قولة من بلاد مقدونيا اليونانية في سنة (١١٨٢هـ / ١٧٦٩م)، توفي والده وهو صغير، فكان ضمن سبعة عشر ولداً، هم إخوته لأبيه إبراهيم آغا، فرباه عمه ثم زوجته ابنته، واشتغل بتجارة الدخان، وبيع منها أموالاً طائلة، فمعظم ماله ملوث، كان متلبساً بكبر وعُجب بنفسه، ويرى في نفسه أنه أفضل من غيره مما أدى به إلى جنون العظمة، وقد أصيب بالجنون في نهاية حياته، وأبعد عن الحكم، اتهم محمد علي بالماسونية، فقد تأسست في عهده عدة محافل ماسونية في القاهرة والإسكندرية كما اتهم بأخلاقه السيئة.

توفي محمد علي في الثالث عشر من رمضان سنة (١٢٦٥هـ) الموافق للثاني من أغسطس (١٨٤٩م)، ودفن في الجامع الذي بناه بقلعة صلاح الدين بالجبل بالقاهرة، وقد استوحاه من مسجد السلطان أحمد في إسطنبول، وهو من روائع العمارة في القاهرة.



والطريق الصحيح إلى الله، الذي يحقق الرفاهية للدولة والأمن الداخلي والخارجي، كما قال الله تعالى على لسان إبراهيم: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٨١]، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

فلو أنه كان عنده اليقين في الله تعالى، وأن أحكامه الشرعية واجبة التطبيق، وأن فيها صلاح الدنيا والآخرة، وأن الأمة والبشرية لم تنعم في تاريخها إلا بقيام هذه الشرائع المباركة، وأن فيها صلاح الفرد والمجتمع، لو كان عنده ذلك لما وقف السلطان محمود الثاني موقفاً معادياً لدعوة التوحيد، وذلك بسبب معتقداته المتحررة المنحرفة، والتي هي موروث العلمانية والتصوف الذي كان أحد أسباب تردي الدولة، فبدلاً من أن يقوم السلطان بتشكيل لجنة لدراسة عملية الإصلاح العقدي في الدولة، والتي كانت قد بلغت إلى أرهاها، حيث الاستغاثة بالقبور والموتى، وتعظيم المخلوق، وطلب الشفاعة منه، فكان الأولى به أن يستفيد من هذه الدعوة المباركة، ومن الدولة السعودية الأولى في دعم أركان الدولة.

لكننا نراه وقد اتخذ موقفاً معادياً، مهتدياً بنصائح لا تريد الخير للأمة^(١)، وخاصة من الصوفية أصحاب العقائد المنحرفة، وأعداء الإسلام من الإنجليز والفرنسيين، الذين رأوا في هذه الدعوة مارداً وعملاقاً جديداً يوقظ الأمة، ويعيدها إلى ما كانت عليه من العز والقوة؛ كما رأوا في آن واحد أن محمد علي باشا - والي مصر - رغم انحرافه رأوا في تطويره للدولة المصرية وقوته العسكرية الناشئة قوةً كونية ناشئة، لا شك أنها ستكون منافسة لهم، بل وقد تنتصر عليهم، وتعطلهم، إن أهملت، ولم تُحجَّم.

(١) من المؤسف أن نجد بعض المؤرخين والكتاب يرددون ما يتغنى به البعض عن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، والطعن فيها دون تحقق وروية، ولقد اطلعت على ما كتبه د. أحمد آق كوندز في كتابه «الدولة العثمانية المجهولة»، فوجدته عند حديثه عن الشيخ قد أبعد النجعة، ولم يستند لدليل على ما أورده سوى، ما يريده أصحاب العقائد المنحرفة وأعداء التوحيد الخالص من الشرك، ومن ذلك زعمه أقوالاً نسبها للشيخ منها: الناس منذ ستمئة سنة كانوا في ضلالة وكثير من المسلمين أشركوا، وبذلك تكون دماؤهم وأموالهم هدرًا.

ثم أضاف: يمكن أن نلخص عقائد الوهابيين (كما أسماهم) العبادة إلى الله تعالى مباشرة فرض، فلذلك اتخاذ الوسيلة لا يجوز (أساس التوحيد)، فعلى ذلك من يطلب المعونة من أحد الأنبياء أو الأولياء أو يحترم القبور بالنذر والتصدق فهو مشرك!!.

قلت: سبحانه الله فماذا نسمة؟ موحداً؟ قال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ سَبْعًا﴾ [النساء: ٢٦].

ومع الأسف يطعن الدكتور في شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية، متعدياً بفهمه الخاطئ على الثوابت التي دعا إليها الإسلام، والتي لا تتغير إلا بالكفر أو الشرك، ولا أقول أنه تعمد ذلك، وإنما لجهل بعقيدة التوحيد، وعدم اطلاعه على الأصول الشرعية ومراعاة جناب التوحيد، والإنسان عدو ما يجهل، وهو ولا شك ابن شرعي لبيئته، وليس المجال هنا للرد على مثل هذه الأمور، وإلا لأفردنا له ولغيره من فضل الله تعالى الردود بالحجج الدامغة لهذه الأباطيل، نسأل الله لنا وله الهداية.



ولعل السلطان كان يرى في كلا القوتين - أي: دعوة الإصلاح الديني في نجد، وقوة محمد علي العسكرية في مصر - أنهما تمثلان خطراً على الدولة، فضرب هذه بتلك، ليضعفهما، وليقضي عليهما، فأمر محمد علي بإعلان الحرب على الدولة السعودية الأولى.

ومن المؤسف أن الدولة العثمانية استطاعت من خلال محمد علي باشا تحقيق ما تريد، بعد حصار الدرعية والقبض على زعمائها، وعلى رأسهم عبد الله بن سعود، والذي اقتيد هو وجمع من آل سعود إلى مصر، ثم أرسلوه إلى الأستانة بعد أن أمنتهم، ووعدوه، بعدم هدم الدرعية.

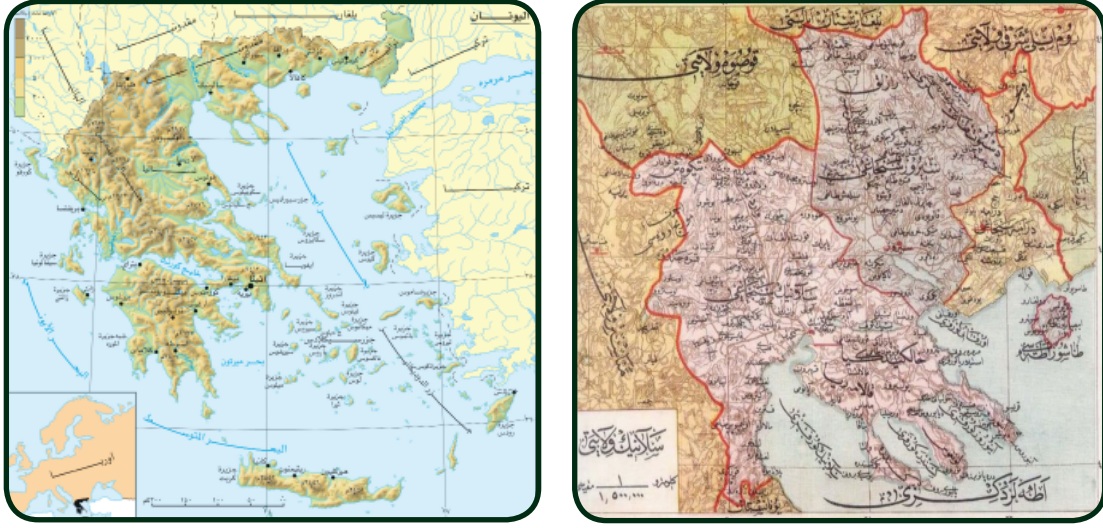
ولكنهم خالفوا ذلك وقاموا بإعدام جمع من أعلام الدعوة في نجد، ثم أعدموه ومن معه بطريقة بشعة، فقد طافوا به ثلاثة أيام بشوارع إسطنبول، ثم قتلوه شر قتلة، حيث قطعوا رأسه ووضعوه في فوهة مدفع، كما مثلوا بجسده على عمود في مشهد أمام الناس في ساحة مسجد آيا صوفيا، وذلك في سنة (١٢٣٤هـ / ١٨١٨م)، كما قاموا بإعدام من كانوا معه في مناطق متفرقة من مدينة إسطنبول.

وشاء الله تعالى أن تمر الأيام، وتزول الدولة العثمانية على يد هؤلاء السلاطين، الذين اهتموا ببقاء الملك في أيديهم أكثر من بقاء الدين في الأمة؛ فزالت دولتهم، وزالت دولة محمد علي، وبقي الإسلام بفضل من الله تعالى، وانتشرت دعوة التوحيد، وبقيت دولة آل سعود بعد قيامها للمرة الثالثة على يد مؤسسها عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود رحمه الله، واستمرت إلى زماننا هذا، أبقاها الله شامخة بالإسلام، وكفاها شر خصوم الأمة، وجعل الشريعة دائماً تستظل بها الدولة في كل ربوعها.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الزُّبْدُ فَغَابَ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَبَلَغْتُ فِي الْأَرْضِ كَدَّاكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].



- ثورة اليونان:



خريطة عثمانية لليونان قديماً، وأخرى لليونان حديثاً

أثارت ثورة الصرب في محاولتهم نيل الاستقلال عن الدولة العثمانية، مشاعر اليونانيين وكان اليونانيون قد أسسوا جمعيات سرية لهم في النمسا وروسيا، عملت بدعم من روسيا على إعلان العصيان على الدولة العثمانية.

تسببت هذه الثورة في ارتكاب مجازر كبيرة للمسلمين في اليونان صغاراً وكباراً، مما أغضب السلطان والدولة العثمانية، التي كانت حامية لليونانيين عصوراً طويلة، وحفظت لهم تجارتهم، بل إن السلطان كان هو الحامي الرسمي للمذهب الأرثوذكسي في اليونان المخالف لمذهب الأوروبيين الكاثوليك، وقد ساهم البطريرك الكبير للكنيسة الأرثوذكسية جرجوريوس بإشعال هذه الثورات، مما دفع الباب العالي لإعدامه، وكذلك بعض الأساقفة وبعض رؤوس الثورة، واستطاع الجيش العثماني أن يسيطر على الموقف، بعد أن ظنّ اليونانيون أنهم قادرون على إحياء الإمبراطورية البيزنطية الأرثوذكسية مرة ثانية.

هدأت الأمور لفترة، وترك اليونانيون فكرة إحياء الإمبراطورية البيزنطية، غير أنهم عملوا على تأسيس دولة يونانية فقط، وقد دعمت روسيا الأرثوذكسية اليونانيين في ذلك، فأعلن الثوار تأسيس دولة اليونان التي تضم مورا والجزر المحيطة حولها، وانتخبوا رئيساً للدولة،



واحتلوا أكثر جزر بحر إيجه، وفعلوا الأفاعيل بالمسلمين هناك، خاصة أهالي ساقز، الذين فر بعضهم ولجأ إلى القلعة التي دافع عنها الوزير وحيد باشا، وقد ساعد نصوح زاده علي باشا قبطان البحر (مشير البحر) المسلمين هناك.

وبرغم هذه المجازر التي فعلها اليونانيون في مسلمين لم يتحرك أحد من أوروبا للوقوف إلى جوار المسلمين، لكن تحركوا عندما استطاعت الدولة العثمانية السيطرة على هؤلاء المجرمين.

لقد أثار إعادة الأمن والسيطرة على الموقف من يُسمَّون بالمتقفين الأوروبيين، فبكى شعراؤهم أمثال الشاعر الإنجليزي لورد بايرون، والشاعر الفرنسي فيكتور هوجو، والموسيقيون كيتهوفن، والرسامون والصحفيون، وكتبوا، وغنوا بمؤلفات وتواشيح محزنة حول ساقز، وألفوا القصص الكاذبة الخرافية حول وحشية المسلمين، مما أهاج الشعوب الأوروبية التي انهالت بالتبرعات بالمال والسلاح على الثوار اليونانيين، كما دعمتهم بالمتطوعين الذين أتوا من كل مكان من الدول النصرانية، حتى إنه شارك معهم واشنطن نجل جورج واشنطن أول رئيس للولايات المتحدة الأمريكية.

ومن المؤسف أن المثقفين (العرب) - معذرةً - أقصد ذيول أوروبا مازالوا إلى اليوم يعدُّون هؤلاء رموزاً للثقافة والتقدم والفن والحرية، وياليت قومي يعلمون إلى أي حد نحن في الغباء المستحكم، الذي سيطر على عقولنا بأيديهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٤].

أصبحت الثورة اليونانية محطة أخيرة لإنهاء جيش الإنكشارية، الذي لم يتمكن من إخماد هذه الثورة، وقد استعانت الدولة بإبراهيم باشا بن محمد علي والي مصر^(١)، والذي قدم في ثلاثين ألفاً من الجيش النظامي المدرب، واستطاع أن يدخل إلى كريت، ثم إلى شبه جزيرة المورة، واستطاع أن يحرز النصر، وأن يدخل إلى مدينة نافرين (نوارين)

(١) إبراهيم باشا بن محمد علي باشا، وقيل ربيه، وقيل متبنيه، أرسله محمد علي إلى الحجاز ونجد، وبعدها عينه قائداً للحملة المصرية على اليونان في حروب المورة سنة (١٢٣٩هـ)، كما سيره بجيشه إلى الشام في سنة (١٢٤٧هـ)، واستطاع إبراهيم باشا التوسع في الأناضول والانتصار على جيش العثمانيين. تولى حكم مصر بعد تنازل محمد علي له، قام بزيارة الأستانة، وعند عودته إلى مصر توفي بها سنة (١٢٦٤هـ / ١٨٤٨م). الزركلي «الأعلام»، (١/ ٧٠) بتصرف.



سنة (١٢٤٠هـ / ١٨٢٥م)، ثم دخل العثمانيون إلى مدينة أثينا (١٢٤١هـ / ١٨٢٦م) رغم دفاع القائد الإنجليزي البحري اللورد كوشران دفاعاً مستميتاً، لكن تحقق النصر للمسلمين، واستطاع أن يقضي على هذه الثورة، التي انتهت من الناحية العسكرية، وبقيت آمال الأرثوذكس هناك تروادهم للكرة مرة أخرى، إن هم تمكنوا من ذلك.

لقد كان انتصار إبراهيم باشا بجيشه المدرب تدريباً نظامياً أحد الدوافع الهامة التي جعلت السلطان يعينه والياً على كريت، ودفعت السلطان إلى ألا يؤجل مرة أخرى قضية تأسيس الجيش الحديث وإنهاء جيش الإنكشارية.

– الواقعة الخيرية: إلغاء الإنكشارية:

لقد رأينا في تسلسل الأحداث كيف أن الإنكشارية تحولت من جيش يعمل لصالح الدولة، ويذب عنها، ويخفف عنها أعباءها، إلى جيش يعمل لمصلحته الخاصة، وأصبح مصدراً لكل بلاء في الدولة، وعبئاً ثقيلاً على الخلافة، وأحد الأسباب الرئيسة في هزائم الدولة وتقهقرها، وذلك لعدة عوامل كثيرة، أدت إلى أن يتخذ السلطان قراراً بإغلاق ثكنات الإنكشارية وتأسيس تشكيلات عسكرية جديدة، سُميت بالعساكر المحمدية المنصورة، في ذي القعدة سنة (١٢٤١هـ / يونيو ١٨٢٦م)، وقد أثار ذلك الإنكشارية الذين تجمعوا في ساحة ميدان أكسراي (آت ميداني) في نحو ستين ألفاً، ليقوموا بإلغاء هذه القرارات، ومحاولة إقصاء السلطان عن منصبه، غير أن السلطان هذه المرة قد أصرَّ على موقفه، وأمر بتثبيت راية النبي ﷺ (سنجق شريف)^(١) في ميدان السلطان أحمد، وأمر كل مواطن يحب دينه ووطنه أن يتجمع تحت هذه الراية، مما أحدث نفرة عجيبة بين سكان العاصمة، الذين كانوا ناقلين على الإنكشارية.

وقد أحاطت مدفعية السلطان بالميدان ونُصبت على المرتفعات التي وُجِّهت للإنكشارية، واستطاعت أن تقذف عليهم الحمم عند ثورتهم، وضعضعت أسوار الثكنات، وفتحت فيها الثغرات، ودُفن معها كذلك جمع من الإنكشارية، وقد دفع ذلك الموقف الكثير

(١) راية النبي ﷺ أحد موروثات الخلافة كما يزعمون، وهي محفوظة لدى السلاطين، يحاربون تحتها عند قيادتهم للجيش، ولا يثبت تاريخياً أن هذه راية للنبي ﷺ كبقية موروثات الخلافة.



من الإنكشارية إلى الفرار من وإلى الثكنات هرباً من الهلاك بشكل عشوائي؛ غير أنه قد فات الأوان، فقد كان الناس قبل جنود السلطان ينتظرون هذه اللحظة، ليروا ثكنات الإنكشارية وهي تهدم فوق رؤوسهم، وقُبض على عشرين ألف إنكشاري، ومات منهم ستة آلاف، وتمكنت الدولة لأول مرة من القضاء على جيش الإنكشارية بيدها وبيد الشعب، مما دفع السلطان صبيحة اليوم التالي العاشر من ذي القعدة سنة (١٢٤١هـ) إلى أن يصدر فرماناً بإلغاء الإنكشارية وزيّهم، ويمحو اسمهم من جميع أرجاء الدولة، كما أصدر فرماناً آخر بإعدام من بقي من رؤوسهم هارباً إلى الولايات، أو نفيه خارج الدولة، وبدأت الدولة في عهد جيش جديد هو عهد الواقعة الخيرية.

ولقد دُفن مع هؤلاء الإنكشارية دورّ من أدوار التاريخ العثماني والأمة الإسلامية، والذي استمر لأكثر من أربعة قرون ونصف، مما أحدث صدًى كبيراً في جميع أنحاء العالم، حتى إن الصحف الأوروبية خصصت عناوينها الرئيسة لذكر هذا الحدث.

وياليت السلطان محموداً - الذي استطاع أن يملك مقاليد الأمور في البلاد كاملة - ترسم خطى النبي ﷺ ثم سلف الأمة - من الصحابة الكرام والتابعين وتابعي التابعين - بالأخذ بأسباب القوة المعنوية والمادية، لإنشاء الجيش الجديد؛ لقد استبدل بجيش الإنكشارية جيشاً استمد هيأته وأفكاره من الغرب الأوروبي الصليبي الحاقد، فأصبح زيّ الجيش زياً أوروبياً، وأصدر فرماناً بأن يكون هو الزي الرسمي لجميع موظفي الدولة عسكريين أو مدنيين، فكانت هذه واحدة من القواصم التي قصمت ظهر الدولة العثمانية، لأنها فتحت الباب للعامة أن يتخذوا اليهود والنصارى أولياء، وتركت لهم حرية التشبه بهم.

- الموقف على الجبهة الأوروبية:

استغلت روسيا الواقعة الخيرية والقضاء على الإنكشارية، وأرادت ألا تفوت هذه الفرصة للاستفادة من هذا الحدث، وكانت الدولة العثمانية مدركة تماماً لهذا الأمر، فبادرت بتوقيع معاهدة آق كرمان في الثامن والعشرين من صفر سنة (١٢٤٢هـ) الموافق للأول من أكتوبر (١٨٢٦م)، وذلك لأن الدولة العثمانية لم تكن قادرة على خوض حرب جديدة في هذا الوقت، وبموجب هذه المعاهدة تم زيادة الاستقلال الداخلي لإمارات



رومانيا وصربيا التابعة للدولة العثمانية، وألا يبقى من المسلمين في قلاع صربيا سوى جنود الجيش العثماني فقط.

كما يحق لروسيا الملاحة في البحر الأسود، ومرور سفنها بالمضايق البحرية العثمانية دون تفتيش، وهكذا اضطرت الدولة العثمانية أن تخرج من تنازل إلى تنازل جديد، وأن تستمر الدول الصليبية الحاقدة خاصة روسيا في استغلال هذا الضعف.

لقد أفرع قضاء العثمانيين على ثورة اليونان ووجود إبراهيم باشا مع الجيش المصري هناك كل أوروبا، وخاصة إنجلترا وروسيا التي غضبت نصرةً لمذهب اليونان الأرثوذكسي الموافق لها، كما دعمت إنجلترا روسيا، ووقفت إلى جوارها، فأعلنت روسيا الحرب، مما أدى إلى اضطراب الأوضاع بين الدولة العثمانية وروسيا، وتم الاجتماع بين إنجلترا وفرنسا وروسيا في لندن، وقاموا بتوقيع معاهدة سميت: بروتوكول لندن، والتي بموجبها يجبرون الدولة العثمانية على منح اليونان الاستقلال الذاتي، وأن تكون فقط في حماية الدولة العثمانية، وأن تدفع ضريبة للدولة العثمانية كما هو الحال مع صربيا والأفلاق والبغدان.

كانت إنجلترا تخشى - إن حصلت اليونان على استقلال تام - أن يؤدي ذلك إلى ضعف الدولة العثمانية أكثر مما هي فيه، مما يتيح الفرصة لروسيا الأرثوذكسية أن تتوسع لقيام إمبراطورية أرثوذكسية جديدة، ولذلك طلبت إنجلترا من الدولة العثمانية في رجب (١٢٤٢هـ) الموافق لفرابر (١٨٢٧م) أن تلعب الدول الأوروبية دور الوسيط بينها وبين ولاياتها في أوروبا؛ فأزعج ذلك الدولة العثمانية التي اعتبرته تدخلاً صريحاً في شؤونها الداخلية.

- معركة نوارين (١٢٤٣هـ / ١٨٢٨م):

وفي واقعة غير مسبقة - لكنها متوقعة - قامت الأساطيل البحرية لكل من إنجلترا وفرنسا وروسيا بقيادة اللورد كودرنجيتون قائد الأساطيل الإنجليزية والقائد العام للأساطيل الصليبية، وتوجهت إلى ميناء نوارين، على السواحل اليونانية، حيث ترسو أساطيل الجيش العثماني والمصري، وباغتت هذه الأساطيل الأسطول العثماني بالقصف الشديد، مما أدى إلى تدمير الأسطول العثماني وأكثر الأسطول المصري، وقتل ما يزيد على ثمانية آلاف



جندي عثماني، ونحو ثلاثين ألف جندي مصري في معركة شهيرة، سُميت: بمعركة نوارين - نافرين - وذلك في ربيع الأول سنة (١٢٤٣ هـ) الموافق للتاسع عشر من أكتوبر (١٨٧٢ م).

لقد كانت هذه الغارة غارة غدرٍ وخيانة وتحالفٍ واضح من الدول الصليبية على المسلمين، حيث إن الدولة العثمانية كانت في حالة صلح مع هذه الدول، وهناك اتفاقات مبرمة على تهدئة الأوضاع بينها، مما أدى إلى استياء بعض الصحف الأوروبية، التي وصفت هذا الاعتداء بأنه لطخة عار على وجه لندن وباريس وبطرس بورج، مما دفع الدول الثلاثة لتقديم اعتذار رسمي للدولة العثمانية، التي رفضت ذلك، وطالبت سفراء الدول الثلاث بأن تدفع دولهم تعويضاً عن الخسائر التي مُنيت بها الدولة العثمانية في أسطولها، وعدم التدخل في شؤون الدولة العثمانية مرة أخرى، غير أن هذه الدول سحبت سفراءها، ولم تُلقِ بالاً لمطالب العثمانيين.

دفع ذلك السلطان الذي تذكر أخيراً أن الحرب حرب صليبية - وإن اختلفت مذاهبهم - أن يصدر منشوراً عاماً، يبين فيه حقيقة هذه الدول وأهدافهم السيئة نحو الدولة العلية حامية الإسلام والمسلمين، وأنَّ قصد روسيا خاصة هو القضاء على الدولة، وأن الحرب حرب دينية لا سياسية، وخُتم البيان ببحث المسلمين وحضهم على التطوع والجهاد دفاعاً عن الدين والوطن.

دفع ذلك روسيا إلى إعلان الحرب على الدولة العثمانية، في الحادي عشر من شوال (١٢٤٣ هـ) الموافق للسادس والعشرين من أبريل (١٨٢٨ م)، كما عدَّت الدولة العثمانية نفسها في حالة حرب مع روسيا، وطلبت من واليها محمد علي على مصر تقديم المساعدة والدعم العسكري، حيث إن الدولة ما زال جيشها الجديد تحت الإنشاء، وستدخل الحرب بجيش، أكثره من المتطوعين، غير أن محمد علي تلکاً في إجابة السلطان في الوقت الذي قامت فيه روسيا بالهجوم على العثمانيين، وتمكنت من احتلال القفقاس، وواصلت زحفها في الشرق إلى أرض روم في الأناضول، ووصلت من جهة الغرب إلى مدينة أدرنة العاصمة القديمة، مما أدى إلى تحرك إنجلترا وفرنسا ومملكة بروسيا^(١) للتدخل خشية أن تنفرد

(١) مقاطعة ألمانية كبرى.



روسيا بالاستيلاء على الدولة العثمانية، وهو الذي يهدد مصالح الدولتين؛ فتم عقد معاهدة أدرنة التي بموجبها وقفت الحرب مع روسيا، على أن تتنازل الدولة العثمانية عن دلتا نهر الدانوب وجميع قفقاسيا لروسيا، كما تقوم بتعويض روسيا مالياً عن خسائرها في الحرب، وذلك في الخامس عشر من ربيع الأول سنة (١٢٤٥هـ) الموافق للرابع عشر من سبتمبر (١٨٢٩م).

- التوسع الفرنسي:

كانت فرنسا تسعى منذ زمان بعيد لإيجاد مركز عسكري لها في شمال أفريقيا، حتى لا تترك لإنجلترا منافسها الدائم الفرصة للسيطرة بمفردها على البحر المتوسط، خاصة بعد ضعف الدولة العثمانية، كما أنها أرادت أن تعوّض فقدان مستعمراتها التي فقدتها خلال حروبها مع بريطانيا، كما سعى شارل العاشر ملك فرنسا إلى القيام بعمل عسكري كبير، يكسب به تأييد الفرنسيين، ويلغي المطالبة بالحكم الديمقراطي، كما أن سعي الكنيسة الدائم في تنصير المسلمين كان أحد أهم الأسباب وراء هذه الحملة، كما أعلن ذلك ملك فرنسا نفسه: الملك شارل في خطابه قائلاً: إن هذه الحملة حملة نصرانية على بلاد البرابرة المسلمين، وإنما تصبُّ في صالح كلِّ العالم المسيحي على اختلاف مذاهبه.

ولا شك أن العامل الاقتصادي كان أحد العوامل التي دفعت فرنسا لذلك، للاستفادة من الأيدي العاملة الرخيصة، وفتح أسواق جديدة للصناعات الفرنسية، فتذرعت فرنسا بالمشادة التي وقعت بين القنصل الفرنسي والوالي العثماني في الجزائر.

وملخص هذه الواقعة أن مشادة كلامية حدثت بين الداي (الوالي العثماني) حسين باشا على الجزائر، وبين القنصل الفرنسي هناك، حيث طلب حسين باشا من قنصل فرنسا سداد الديون التي على فرنسا للجزائر منذ سنة (١٢١٢هـ / ١٧٩٧م)، ثمناً لما استوردته من حبوبٍ ومواد غذائية من الجزائر، فردَّ القنصل بكلام، أثار حفيظة الوالي الذي قام بضرب القنصل على وجهه بمروحة (مهفة) في يده^(١).

(١) محمد فريد بك «الدولة العلية العثمانية»، (ص: ٤٤٧) - يلماز أوزتونا «تاريخ الدولة العثمانية»، (٢/ ١٤) - أحمد آق كوندز «الدولة العثمانية المجهولة»، (ص: ٣٨٢).



ولقد علّق الزعيم النمساوي مترنيخ على هذا بقوله: ليس من المعقول أن تتحرك فرنسا بهذا الجيش الجرار، وأن تنفق من أموالها وخزائنها هذه المبالغ الضخمة، التي بلغت مئة وخمسين مليون فرنك، من أجل ضربة بمروحة، كما يزعمون.

استغلت فرنسا هذا الموقف، وهددت بإرسال جيش ضخم لمحاربة إبراهيم باشا وإخراجه من - اليونان مع من تبقى من جيشه - رداً على إهانة قنصلها في الجزائر، كما زعمت، فقام إبراهيم باشا مع الأسف، وبناءً على طلب أبيه محمد علي والي مصر بالخروج من اليونان، وإخلاء بلاد المورة، والعودة إلى مصر - مع من تبقى من جيشه - على السفن الباقية من الأسطول المصري، وذلك في السادس والعشرين من صفر سنة (١٢٤٤هـ) الموافق للسابع من سبتمبر (١٨٢٨م) تاركاً خلفه ألف ومئتي جندي فقط للمحافظة على الأمن، حين قدوم العسكر العثماني لاستلام هذه المهمة؛ وقد حلّ الفرنسيون تحت قيادة الجنرال ميزون ببلاد اليونان في مؤامرة صليبية واضحة المعالم.

وانتهت بذلك مهمة إبراهيم باشا، بعد أن استطاع أن يقضي على ثورة اليونان، وأن تهدأ الأمور لفترة قصيرة، لولا تأمر وتدخل الدول الصليبية المتحالفة.

طلبت فرنسا من الوالي حسين باشا أن يقدم اعتذاراً رسمياً لفرنسا، إلى جانب ضمانات بعدم التعرض لمصالح فرنسا في الجزائر، وأن تحصل فرنسا على امتيازات الأمة الأكثر رعاية في الجزائر، وأن يعلن الوالي أن الحكومة الفرنسية قد قامت بتسديد الديون التي عليها للجزائر.

ما كانت هذه المطالب الفرنسية إلا مسرحية لإهانة كرامة المسلمين في الجزائر، كما كانت على يقين أن هذه المطالب ستلقى الرفض من الوالي ومن مسلمي الجزائر؛ ولذلك كانت قد أعدت العدة، وقامت بإرسال أساطيلها المحملة بالجنود إلى الجزائر في ذي الحجة سنة (١٢٤٥هـ) / يونيو (١٨٣٠م)، واستطاعت هذه القوات الاستيلاء على مدينة الجزائر في محرم (١٢٤٦هـ) / يوليو (١٨٣٠م)، بعد قتال عنيف مع سكانها بقيادة عبد القادر الجزائري^(١)،

(١) عبد القادر بن محيي الدين بن مصطفى بن محمد بن المختار، ينتسب للأداسة الذين انتسبوا لآل البيت، ولد بقرية القيطنة بولاية معسكر سنة (١٢٢٣هـ) / ١٨٠٨م، حفظ القرآن في سن مبكرة، ونال الإجازة، حج بيت الله الحرام سنة (١٢٤١هـ)، وزار تونس وليبيا ومصر والحجاز وبلاد الشام وبغداد، =



ولم تستطع الدولة العثمانية حيال هذا الأمر أن تقوم بالدفاع عن الجزائر، أو إرسال أسطول لها، فلقد فقدت أسطولها في معركة نوارين ومعظم جيشها في حربها مع روسيا، فأصبحت الجزائر منذ ذلك التاريخ مستعمرة من جيش فرنسا الصليبي الحاقد، الذي قام بذبح الملايين، لنحو أكثر من مئة وثلاثين سنة، بقيها في الجزائر.

- موقف محمد علي باشا والي مصر:

كان محمد علي قد رفض مساعدة الدولة العثمانية في حروبها مع روسيا، بسبب أنها لم تف بوعدها منحه ولاية الشام، كما زعم، ولذلك وجدها فرصة عندما استغلت فرنسا المشكلة بين الداي الجزائري وقنصلها، بل واستغل ضعف الدولة العثمانية، واستطاع أن يسيطر على أجزاء كبيرة منها، بعد أن تغلب على الجيش العثماني في عدة معارك، وانتهت بتوقيع معاهدة كوتاهية التي استمرت لست سنوات، بعد أن استعانت الدولة العثمانية مع الأسف بخصمها اللدود روسيا، ووقعت معها معاهدة رصيف هنكار، والتي بموجبها تقوم روسيا بالدفاع عن الدولة العثمانية ضد محمد علي أو أي اعتداء آخر عليها، مما فتح الباب لتدخل روسيا في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية.

• وفاة السلطان:

ثم عادت الحرب بين الدولة العثمانية وبين محمد علي، والذي استطاع أن ينتصر على الجيش العثماني في معركة نزيب في ربيع الثاني (١٢٥٥هـ) / يونيو (١٨٣٩م)، مما أصاب السلطان بالهجم والغم الشديدتين، ونزل به مرض السل من شدة الحزن، وتوفي بعد ذلك بسبعة أيام من مرضه، في التاسع عشر من ربيع الآخر سنة (١٢٥٥هـ) / الأول من يوليو (١٨٣٩م)، ودفن في مقبرة ديوان يلو (تربة) في إسطنبول، بعد أن ترك خلفه الدولة على حافة الهاوية، وفتح الباب على مصراعيه لنيل خصومها منها، وتراجعت الشريعة من حياتها؛ ذهب إلى ربه بتركة محملة بالأعمال والأثقال، على رأسها محاربته لدعوة التوحيد في الجزيرة العربية، فاللهم! لطفك، ومغفرتك، ورحمتك.

= قاوم الاستعمار الفرنسي الصليبي بعد أن بايعه كثير من رجال القبائل، وظل يقاومهم، واستطاع أن ينظم الجزائريين في دولة، خاض عدة معارك مع الفرنسيين، ووقع معهم عدة اتفاقات، نقضتها فرنسا، وانتهى الأمر به أن استسلم في آخر معاركه حقناً لدماء الأهالي، ثم أقتيد إلى السجن في فرنسا، ثم أفرج عنه بشرط عدم العودة إلى الجزائر، فسافر إلى تركيا، ومنها إلى دمشق، حيث استقر بها، وتوفي هناك سنة (١٢٩٨هـ / ١٨٨٣م). الزركلي «الأعلام»، (٤/ ٤٥-٤٦).

صرع محمد علي والي مصر مع الخلافة العثمانية

جاء محمد علي إلى مصر ضابطاً مع فرقة الألبان، ضمن الجيش العثماني، للتصدي للحملة الفرنسية، وعمل مساعداً لابن عمه خليل آغا قائد الفرقة، ثم ترأسها محمد علي بعد خليل آغا، وقد استخدم أساليب مختلفة للوصول إلى مبتغاه، وهو أن يكون والياً على مصر، فاستخدم المكر والدهاء، والخداع والطرق الملتوية، حتى استطاع كسب العلماء في مصر، وضمهم إلى صفه ليتصدر ولاية مصر، وكذلك فعل مع السلطان، الذي أرسل إليه الكثير من الرسائل فيها من عبارات التذلل والخضوع للدولة، ما جعل السلطان يرتاب في أمره ويتخوف من أسلوبه، فأمر بنقله بفرقة من مصر، فتدخل علماء مصر، ونصبوه والياً عليها، مما اضطر السلطان أن يصدر فرماناً بقبول ولاية محمد علي لمصر في الرابع والعشرين من شعبان (١٢٢١هـ) الموافق للسادس من نوفمبر (١٨٠٦م)، فبدأت ولايته في مصر؛ وبدأ شيئاً فشيئاً يكشف عن وجهه الحقيقي، حتى استطاع أن ينفرد بالسلطة بعد أن تخلص من العلماء والأعيان، والخصوم من المماليك الذين قضى عليهم في مذبحه القلعة الشهيرة، وانفرد بالسلطة وحده.

وصفه عبد الرحمن الجبرتي رحمه الله بقوله^(١): محمد علي مخادعٌ وكذابٌ، يحلف الأيمان الكاذبة، ظالمٌ، لا عهد له، ولا ذمة، يضمّر السوء، ويستخدم العسف والجور في الوقت الذي يعد فيه بالعدل^(٢)، وقال: من طبعه الحسد والشره والطمع والتطلع لما في أيدي الناس وأرزاقهم^(٣).

كان محمد علي يحتقر العرب والمسلمين، وقد عبّر عن ذلك للفرنسيين أثناء مفاوضاتهم على موضوع الجزائر بقوله: ثقوا أن قراري في هذه المسألة لا ينطلق، ولا ينبع من عاطفة

(١) عبد الرحمن بن حسن برهان الدين الجبرتي، ولد بالقاهرة سنة (١١٧٠هـ / ١٧٥٦م)، مؤرخ مصري، صاحب مؤلفات عديدة، أشهرها: «عجائب الآثار في التراجم والأخبار» المسمى: بتاريخ الجبرتي، وقد أرخ للمرحلة التي عاشها بشكل دقيق، فهو شاهد على نهايات عهد المماليك في ظل الدولة العثمانية والحملة الفرنسية وحكم محمد علي لمصر، وتوفي بالقاهرة سنة (١٢٤٠هـ / ١٨٢٥م)، حزناً على ولده خليل الذي قتله جنود محمد علي باشا انتقاماً منه على ما كتبه ضده، كما أن محمد علي أمر بإحراق بيت الجبرتي، بما يحويه من مكتبة ومخطوطات، خشية أن يكون بها كتابات تنال من محمد علي باشا، وقد قيل: إن الجبرتي قُتل مخنوقاً على يد جنود محمد علي بعد خروجه من قصر محمد علي في شوبرا.

(٢) د. سليمان الغنان: «قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا التوسعية في الجزيرة العربية والسودان واليونان وسورية»، كتاب العربي السعودي (ص: ٥).

(٣) «عجائب الآثار»، (٤/ ٢٧٢).



دينية، فأنتم تعرفونني، وتعلمون أني متحرر من هذه الاعتبارات التي يتقيد بها قومي من المسلمين، قد تقولون: إن مواطني حمير وثيران، وهذه حقيقة أعلمها^(١).

وعندما تُرجم لمحمد علي كتاب «الأمير» لليهودي: نيقولا ميكافلي، والذي وضع فيه الأسس التي يحكم بها الأمراء، ومنها الغاية تبرر الوسيلة، أو مجموعة الوسائل القذرة، لما تليت على محمد علي الصفحات العشر الأولى من الكتاب، اكتفى بذلك منه معلقاً بأنه يملك من الحيل والدهاء ما لا يخطر لميكافلي نفسه على بال^(٢).

أحاط محمد علي نفسه في حكم مصر بمجموعة من النصاري واليهود الذين كان يفضلهم على المسلمين؛ وجعلهم مستشارين ومساعدين وكتبته له، مما فتح الباب لهم - وخاصة النصاري - فرأوا أنهم أصحاب الحق في مصر إلى زماننا هذا.

قال الجبرتي رحمه الله معلقاً على ذلك: فتح بابيه للنصارى من الأروام والأرمن، فترأسوا بذلك، وعَلَّتْ أسافلهم، كما أنه كان يجب السيطرة والتسلط، ولا يأنس لمن يعارضه^(٣).

وبرغم ما قاله الجبرتي إلا أنه كان منصفاً في نقده لمحمد علي في كثير من المواقف، ومن ذلك قوله عن محمد علي: له مندوحة، لم تكن لغيره من ملوك هذه الأزمان، فلو وفقه الله شيء من العدالة على ما فيه العزم والرياسة والشهامة والتدبير والمطاولة، لكان أعجوبة زمانه وفريد أوانه.

كما أن للجبرتي انتقادات متعددة لمواقف الرجل؛ منها ما قام به بالتصدي لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ومحاربة الدولة السعودية الأولى^(٤).

وبرغم ما قام به محمد علي من تحديثات في ولاية مصر، والتي جعلت البعض يطلق عليه: مؤسس مصر الحديثة، إلا أنه كان ذلك على حساب ديانة المصريين، وقيمهم الاجتماعية.

(١) د. زكريا سليمان بيومي «قراءة جديدة في التاريخ العثماني».

(٢) د. محمد فؤاد شكري «مصر في مطلع القرن التاسع عشر».

(٣) عبد الرحمن الجبرتي «عجائب الآثار في التراجم والأخبار»، (٣/ ٥٢٨).

(٤) للمزيد يراجع تاريخ الجبرتي «عجائب الآثار في التراجم والأخبار»، وعن استهتار محمد علي باشا بالشرعية والمجاهرة بالمعاصي والاستخفاف بالديانة وإشاعة الفاحشة في نهار رمضان ولياليه يراجع حوادث سنة (١٢٢٧هـ و ١٢٢٩هـ).

يقول الجبرتي رحمه الله: اجتمع على الناس عشرة أشياء من الرذائل، وهي: السخرة، والعونة، وأجرة الفعلة، والذلة، والمهانة، وتقطيع الثياب، ودفع الدراهم، وشماتة الأعداء، وتعطيل معاشهم، وأجرة الحمام.

فهذا وصفٌ دقيق من الجبرتي الذي عايش وعاصر هذه المرحلة الخطيرة، التي حوّل فيها محمد علي مصر إلى مزرعة، تعتمد عليها أوروبا في حاجتها من المنتجات الزراعية والخامات الصناعية^(١).

وبذلك قام محمد علي بالدور الذي أراده نابليون بونابرت في مصر، ولكن في زي والٍ عثماني، مما دفع أرنولد توينبي المؤرخ الإنجليزي أن يقول: كان محمد علي دكتاتوراً، أمكنه تحويل الآراء النابليونية إلى حقائق فعالة في مصر^(٢).

وقال: إن محمد علي طبّق عملية تغريبٍ منظمةٍ على سكان مصر مدةً خمس وثلاثين سنة^(٣).

وما قاله توينبي نتيجةً لما وصلت إليه ولاية مصر من انحرافات فكرية، بعد أن ألغيت مناهج التعليم الدينية، وفتح الباب للمدارس المدنية، كما فتح الباب على مصراعيه للغزو العقدي والفكري الصليبي الأوروبي في مصر، فجاءت الأفكار القومية والوطنية، والتي كان الهدف منها هو انسلاخ الشعب المصري من الإسلام إلى الانتماآت المحدودة^(٤).

(١) عبد الرحمن الجبرتي «عجائب الآثار في التراجم والأخبار».

(٢) د. زكريا بيومي «قراءة جديدة في التاريخ العثماني»، (ص: ١٦١).

(٣) أرنولد توينبي «الإسلام والغرب والمستقبل»، تعريب نبيل صبحي (ص: ٤٤).

(٤) القومية والوطنية دعوى جاهلية، تعتز بالعرق والجنس والوراثة واللغة، وجعلها محمد علي محور العلاقة والارتباط بدلاً من الدين، لتجمع بين المسلم وغيره كالنصراني واليهودي واللاديني برابطة القومية، وهي فكرة قديمة، تموت وتحيا لمواجهة دعوة التوحيد، وقد برزت بروزاً واضحاً في القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر الميلادي في المجتمعات الغربية في أوروبا؛ وقد ظهر على أثر هذه الدعوات القومية الألمانية التي تعلن الاعتزاز بالجنس الآري، والذي يرى نفسه فوق بقية البشر، كما ظهرت الدعوة إلى القومية الإيطالية وكذلك اليونانية، وغيرها من الدعوات التي تشكل على أساسها أوروبا الحديثة. وقد دعا نصارى العرب إلى فكرة القومية العربية ونشرها - وخاصة في بلاد الشام - من خلال الجمعيات الأدبية التي أنشأت هناك برعاية أمريكية، وكان على رأس الدعاة إلى ذلك من نصارى الشام: ناصيف اليازجي وبطرس البستاني، وقد وقفت الجمعيات الماسونية ويهود الدونمة في الدولة العثمانية وراء هذه الصيحات، تدعمها أيضاً الدول الصليبية، وعلى رأسها بريطانيا، فلقد ظهرت فكرة القومية الطورانية التركية والتي دعت إليها جميع الجمعيات المناوئة للخلافة العثمانية، وعلى رأسها «الاتحاد والترقي»، وكان الهدف من ذلك هو تفتيت الدولة العثمانية وتخزأتها كما عبر عن ذلك لورنس بقوله: لقد كنت مؤمناً بالحركة العربية إيماناً عميقاً، وكنت متأكداً من قبل أن آتي إلى الحجاز أن هذه الفكرة ستحزن تركيا - الدولة العثمانية - وتقضي على إمبراطوريتها شذراً ومذراً، ولذلك عشت مع هؤلاء العرب، وكنت مضطراً لتدريجهم وتوجيههم في الاتجاه الذي ينسجم مع سياسة بريطانيا المحاربة. ويعتبر القوميون أن الدين عائقاً للمد القومي، ولا بد من إزالته من طريق القومية، وقد عبر فقيه القومية العربية ساطع الحصري عن ذلك بقوله: وأما من عارض الوحدة العربية باسم الوحدة الإسلامية، أو بحجة الوحدة الإسلامية، فيكون قد خالف أبسط مقتضيات العقل والمنطق مخالفة صريحة. =



ومن المؤسف أنه أعانه على ذلك فتاوى هتّافة التهريج وعلماء السوء، كالشيخ حسن العطار، الذي كان متهماً بالماسونية، والشيخ رفاعة رافع الطهطاوي، الذي أرسله محمد علي إماماً لأول بعثة تعليمية لأوروبا، وبقي في فرنسا لخمس سنوات، رجع بعدها متأثراً بكل هذه الانحرافات العقدية، داعياً إلى التغيير الاجتماعي على النسق الأوروبي، منبهاً بما رآه في باريس، فكتب كتابه: «تخليص الإبريز في تلخيص باريز».

وبرغم كل ذلك عندما رأت أوروبا نمواً سريعاً في محمد علي وفي قوته العسكرية، خشيت على نفسها من ازدياد قوته، مما قد يمثل خطراً عليها، وتستفيد الدولة العثمانية من هذه القوة، فلذلك سارعت بالإشارة على السلطان محمود في رمي محمد علي بأتون الصراع في جزيرة العرب، مع القوة الناشئة الجديدة دولة آل سعود الأولى، ظناً منهم أن ذلك يُضعفه، غير أنه ازداد تجبراً وقوة، بعد أن اتسعت رقعة دولته، واستطاع أن يفرض حمايته على الحجاز التي هي محط أنظار المسلمين، وقام بضم السودان، وحقق جيشه انتصارات بقيادة ولده إبراهيم باشا في اليونان، ثم ضمّ الشام وانتصر جيشه بقيادة إبراهيم باشا على العثمانيين في دمشق، وتقدمه إلى الأناضول واستيلائه على أرضه، وانتصاره على العثمانيين في موقعة قونية سنة (١٢٤٧هـ / ١٨٣٢م)، ثم تقدم الجيش إلى كوتاهية، وأصبح الطريق مفتوحاً أمامه إلى الأستانة، حيث السلطان العثماني.

كُل ذلك أزعج الدول الأوروبية وروسيا، خشية أن يجلس محمد علي مكان السلطان، ويقضي على أحلام هذه الدول بتقسيم أملاك الدولة العثمانية فيما بينها، فتدخلت فرنسا وإنجلترا لدى السلطان ولدى محمد علي بوقف الحرب وتوقيع معاهدة كوتاهية في سنة (١٢٤٨هـ / ١٨٣٣م)، والتي بموجبها مُنح محمد علي ولاية الشام في حياته، وابنه إبراهيم إقليم أرضه، مع تثبيت محمد علي على ولاية مصر وجزيرة كريت والحجاز، مقابل

= وهذا تماماً ما عبّر به د. أحمد زكي المصري مؤسس (مجلة العربي) الكويتية بقوله: والوحدة العربية يجب أن تنزل من قلوب العرب أينما كانوا منزلة وحدة الله من قلوب المؤمنين.

لقد لعب هذا الفكر المنحرف دوراً رئيسياً في جر العرب بعيداً عن جسد الأمة الخلافة الإسلامية، وأدى بهم في النهاية إلى غرقهم إلى دول ودويلات ضعيفة، زرع الاستعمار بينهم صنيعته إسرائيل، وأراد العرب أن يواجهوها بقوميتهم، فانهزموا أمامها شر هزيمة في سنة (١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م). ولقد أثبتت الحقائق اليوم للقاصي وللداني أن القومية العربية هي قومية أبي جهل ورده إلى الجاهلية وغزو فكري لعالمنا الإسلامي، وهي تماماً كما قال الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله: دعوة جاهلية إلحادية، تهدف إلى محاربة الإسلام والتخلص من أحكامه وتعاليمه، واعتنقها كثير من العرب من أعداء الإسلام، واغتر بها كثير من الأغيار، ومن قلدهم من الجهال، وفرح بذلك أرباب الإلحاد وخصوم الإسلام في كل مكان.



إجلاء الجيش المصري عن باقي مناطق الأناضول، وأن يقوم محمد علي بدفع الضريبة السنوية إلى السلطان، وإعلان التبعية التامة له، فكانت هذه الاتفاقية هي أول الطريق لأوروبا في تحجيم محمد علي والتأكد من ضعف الدولة العثمانية الحقيقي.

لم يطل دوام هذه الاتفاقية لأكثر من ست سنوات، حيث وقعت الحرب مرة أخرى بين الدولة العثمانية وبين محمد علي في سنة (١٢٥٤هـ / ١٨٣٩م) في نصيبين شمالي شرقي حلب، حيث دارت رحى معركة نزيب، والتي انتهت بهزيمة الجيش العثماني وفرار قائد الأسطول العثماني بأسطوله، وانضمامه لمحمد علي؛ ففقدت الدولة العثمانية معظم الجيش والأسطول.

بلغت الأخبار الدول الأوروبية، مما أدى إلى إسراعها إلى بحث مسألة محمد علي، واتفقت جميعاً على منع قيام دولة قوية إسلامية مرة أخرى تهدد مصالحها، ولو كانت علمانية، فتم عقد معاهدة في لندن سنة (١٢٥٥هـ / ١٨٤٠م) بين الدولة العثمانية وبين بريطانيا وروسيا والنمسا وبروسيا، والتي تعهدت فيها الدول الأوروبية - باستثناء فرنسا - بدعم السلطان العثماني في موقفه ضد محمد علي كما سيأتي.

ولم ينفع محمد علي المحافل الماسونية التي أسسها في القاهرة والإسكندرية ودعمها له، ولم تشفع له عند الدول الصليبية الأوروبية، كما لم تنفعه فرنسا من قبل، والجزء من جنس العمل.

ظل محمد علي يعمل على تطوير ما تحت يديه في مصر، إلى أن أقصي عن الحكم، بعد أن أُصيب بالجنون، وصدر فرمان سلطاني بتعيين إبراهيم باشا والياً على مصر في الثاني من شوال سنة (١٢٦٤هـ) / الأول من سبتمبر (١٨٤٨م)، فطويت صفحة من تاريخ الصراعات العثمانية، والتي كانت واحدة من المسامير التي دقت في نعش الخلافة.

وتوفي بالإسكندرية في الثالث عشر من رمضان سنة (١٢٦٥هـ) / الثاني من أغسطس (١٨٤٩م)، ودُفن بمسجده بالقلعة.



وتلاه في حكم مصر أبناؤه الذين عرفوا في تاريخ مصر باسم أسرة محمد علي وهم على التوالي:

١. الوالي إبراهيم باشا.
٢. الوالي عباس حلمي الأول بن أحمد طوسون بن محمد علي.
٣. الوالي محمد سعيد باشا بن محمد علي.
٤. الخديوي إسماعيل باشا بن إبراهيم باشا بن محمد علي، وهو أول من تلقب بلقب الخديوي.
٥. الخديوي محمد توفيق بن إسماعيل باشا بن إبراهيم باشا بن محمد علي.
٦. الخديوي عباس حلمي الثاني بن محمد توفيق بن إسماعيل باشا بن إبراهيم باشا بن محمد علي.
٧. السلطان حسين كامل بن إسماعيل باشا بن إبراهيم باشا بن محمد علي.
٨. الملك فؤاد الأول بن إسماعيل باشا بن إبراهيم باشا بن محمد علي.
٩. الملك فاروق الأول بن فؤاد الأول بن إسماعيل باشا بن إبراهيم باشا بن محمد علي.
١٠. الملك أحمد فؤاد الثاني بن فاروق الأول بن فؤاد الأول بن إسماعيل باشا بن إبراهيم باشا بن محمد علي.

ال خليفة الثالث والعشرون: عبد المجيد الأول بن محمود الثاني (١٢٥٥هـ : ١٢٧٧هـ) /
(١٨٣٩م : ١٨٦١م):

ولد السلطان عبد المجيد الأول بن محمود الثاني في (١٤ من شعبان سنة ١٢٣٧هـ) /
(١٨٢٢م)، ونشأ نشأةً أوروبية في أخلاقه وتصرفاته وتطلعاته، وهو أول حاكم جمع بين
الآثار الشرقية والغربية، وأول من تكلم الفرنسية بطلاقة من بني عثمان؛ كما أجاد العربية
والفارسية، وكان يجيد الخط إلى جانب ولعه بالموسيقى وعزفه على البيانو، كما كان مغرمًا
بالموسيقى الغربية^(١)، هكذا نشأ عبد المجيد أكبر أبناء السلطان محمود، والذي مات بعد
أن فتح باب الحداثة الغربية والعلمنة على الدولة برياحها المسمومة والنافعة.

تولى الحكم بعد وفاة أبيه في التاسع عشر من ربيع الآخر سنة (١٢٥٥هـ) / يوليو
(١٨٣٩م)، وكان عمره أقرب إلى الثامنة عشرة هجرية، وعُرف عند العامة باسم السلطان
مجيد.

• أهم الأحداث في عصره:

تولى السلطان عبد المجيد الدولة، وهي تواجه عدة تحديات داخلية وخارجية، نتيجةً
لهزيمة الدولة في عدة معارك أمام محمد علي والي مصر خاصة.

كما أن المؤتمرات الصليبية لروسيا وفرنسا وإنجلترا كانت على أشدها، كما كان منها
خروج قائد البحرية العثماني أحمد فوزي باشا بالأسطول من طاعة الدولة وانضمامه
بأسطوله إلى والي مصر محمد علي باشا؛ لأنه رأى فيه أنه القوة التي يمكن أن تدافع عن
الإسلام في مواجهة أوروبا الصليبية.

وهذا كالمستجير من الرمضاء بالنار، وقد برر القبطان أحمد باشا موقفه ذلك بأنه نقل
الأسطول البحري من ميناءٍ عثماني إلى ميناءٍ عثماني آخر، بما فيه مصلحة للأمة.
وقد ساعد ذلك محمد علي أن يمتلك أقوى أسطولٍ بحريٍ في العالم بعد الأسطول
الإنجليزي.

(١) يذكر المؤرخ التركي يلماز أوزتونا في «تاريخ الدولة العثمانية» أن السلطان عبد المجيد هو أول خليفة ذهب لصالة الرقص على عادة الأوروبيين، ولم يذكر
أين كانت هذه الصالة، والواضح أن هذه الصالة كانت في أوروبا، إذ إن إسطنبول لم يُعهد بها آنذاك الصالات والحانات. (٦٢ / ٢).



- إعلان التنظيمات الحديثة (رمضان ١٢٥٥هـ / نوفمبر ١٨٣٩م):

اتخذ السلطان عبد المجيد من المغازلة للدول الأوروبية أسلوباً لإرضائها، فأصدر فرمان السلطاني (خط همايون) للإصلاحات الجذرية في بنية الدولة على النسق الأوروبي، فيما سمي بالتنظيمات.

كان مصطفى رشيد باشا^(١) وزير الخارجية - والذي تربى في رعاية السلطان محمود - في لندن عند وفاة السلطان، وعند عودته أخبر السلطان عبد المجيد برغبة أبيه بالإصلاحات على النسق الأوروبي؛ غير أن خسرو باشا الصدر الأعظم حاول إقناع السلطان بالقضاء على رشيد باشا، وعلى تنظيماته وأفكاره، غير أنه لم يستطع ذلك، إذ إن السلطان أصر على دعم رشيد باشا، وجمع له رجالات الدولة والأجانب وقيادات الشعب في سراي الطوبقباي، ليتلو عليهم فرمان السلطان المتعلق بالتغييرات الجذرية معلناً عهداً جديداً للدستور في البلاد، سمي: بعهد التنظيمات.

كانت هذه التنظيمات تمثل تنازلاً كبيراً من السلطان عبد المجيد عن موروثات أجداده الدينية والدينية.

وبرغم أن هذه التنظيمات عدّها بعضهم أحد أسباب ضياع الدولة، إلا أنها وافقت بعض ما جاء في الشريعة الإسلامية^(٢)، وكثير مما جاء في القوانين الأوروبية، وأصبح فيها

(١) مصطفى رشيد باشا: ولد مصطفى رشيد باشا في إسطنبول في السابع عشر من شوال سنة (١٢١٤هـ) / الثالث عشر من مارس سنة (١٨٠٠م)، تعلم من صغره العربية والفارسية والفرنسية، وعمل كاتباً بالجيش أثناء الحرب العثمانية الروسية، ومثل الدولة العثمانية مع خليل رفعت باشا في مؤتمر كوتاهية، مما لفت إليه نظر السلطان محمود الثاني، فعين سفيراً في باريس (١٢٥٠ / ١٨٣٤م)، وبعدها بستين عُيِّن سفيراً في لندن، وتعرف خلال إقامته بأوروبا على رجالات الدولة، وتأثر تأثراً كبيراً بالإنجليز، وكان يؤيد بقوة سياسة الصداقة مع إنجلترا، زار ألمانيا وإيطاليا، والتقى ببابا النصرى، فشاعت عنه تعليقات تقول: تنصّر العثماني، فرد أنصاره: بل أسلم البابا.

يعدُّ مصطفى رشيد باشا رجل دبلوماسي عالٍ، وهو الذي وضع حجر الأساس للخارجية التركية المعاصرة، وقد عين وزيراً للخارجية سنة (١٢٥٣هـ) / ١٨٣٧م، وضع التنظيمات الجديدة التي كانت حجر زاوية في تغيير الدولة واتجاهها نحو العلمنة، وقرأ بنفسه التنظيمات على المواطنين سنة (١٢٥٥هـ) / ١٨٣٩م، وقاد بنفسه الفريق الذي كان يدعو إلى التنظيمات، وعلى رأسهم علي باشا وفؤاد باشا اللذان تتلمذا على يديه.

تولى منصب الصدر الأعظم ست مرات، اختلف في الحكم على هذا الرجل اختلافاً واسعاً بين مؤيد وبين ناقد وناقم، والذي لا خلاف عليه أنه كان مؤسس الانطلاقة لحركة التنظيمات الجديدة في الدولة، وكان أكبر مناصر لسياسة التقارب مع بريطانيا، وقد اتهم بانضمامه إلى الماسونية، وقد أفضى إلى ما قدم من عمل في شهر جمادى الآخرة سنة (١٢٧٤هـ) / نوفمبر (١٨٥٨م). يلماز أوزتونا «تاريخ الدولة العثمانية»، (٢/ ٥٨-٥٩) - أحمد آق كوندز «الدولة العثمانية المجهولة»، (ص: ٤٠٧-٤٠٨).

(٢) ظن السلطان بإعلانه للتنظيمات الحديثة أنه يعود لتطبيق الإسلام الحق مرة أخرى، والذي غاب عن حياة الناس من وجهة نظره طيلة مئة وخمسين سنة سبقت. راجع: خصائص الدولة العثمانية بالكتاب.



السلطان محدود السلطات، ودوره دور المصدّق على قرارات الحكومة، ليظهر بعد ذلك تيارٌ جديد في الدولة، عمل بمعول الهدم شيئاً فشيئاً، لإزالة ما تبقى من مظاهر الإسلام، حتى أُتي على الخلافة برمتها، على يد صنّعة خصوم الإسلام: مصطفى كمال.

وافق السلطان بمحض إرادته، وبدون ضغط من أحد، على هذه التنظيمات، التي وافقت طبيعة الحكم الحديث في أوروبا، مراعيّاً بذلك رضا الأوروبيين، ظناً منه أنه بذلك يقوم بحماية الدولة وتطويرها، وما يدري أنه كان كأبيه أحدَ معاول الهدم للخلافة الإسلامية التي أصبح هؤلاء لا يعرفون عن حقيقتها شيئاً.

ترتب على هذه التنظيمات تقلُّص دور العلماء، كما ظهرت أجيال، لا رغبة لها في الانتساب إلى المدارس الدينية كما كانت من قبل، واتسعت رقعة الحداثة والعصرنة بين هؤلاء شيئاً فشيئاً.

كان المحرك الحقيقي لإدارة الدولة في هذه المرحلة هو رشيد باشا وزير الخارجية؛ فلقد استطاع إزاحة الصدر الأعظم خسرو باشا من منصبه، وتولية رؤوف باشا في منصب الصدارة، والذي كان مؤمناً بأفكار التجديد والتنظيمات الجديدة، فترك له رشيد باشا إدارة الشؤون الداخلية للدولة، وانشغل هو بالشؤون الخارجية.

- السلطان عبد المجيد والقضية المصرية:

بعد وفاة السلطان محمودٍ تجدد أمل محمد علي في رغبته في منصب الصدارة العظمى بالدولة، وخاصة بعد أن حقق انتصارات متتالية على الدولة في عهد السلطان محمود، حقق بها مكاسب، أثبتت قدرته على منازلة الدولة العثمانية.

كان رشيد باشا وزيراً للخارجية صاحبُ التنظيمات السالف الذكر على اتصال بلندن وباريس، لترتيب القضاء على محمد علي بالطرق الدبلوماسية؛ لأنه أيقن بأن قوة محمد علي العسكرية لا تستطيع أن تتصدى لها الدولة، ولذلك بدلاً من أن يستفيد من هذه القوة سعى إلى خصوم الدولة وأعدائها، ليستعين بهم على هذه القوة.



وكانت فرنسا تسعى إلى دعم محمد علي أملاً منها بالحصول على نفوذ في مصر، ولذلك وجد رشيد باشا أن بريطانيا أكثر تعاوناً مع العثمانيين رغبةً في كبح التوسع الروسي على حساب العثمانيين، فثبت الاتفاقات مع بريطانيا التي أظهرت تحالفها مع الدولة العثمانية؛ فلما ضمن الموقف البريطاني إلى جوار العثمانيين، تعامل مع فرنسا النفعية بطريقة دبلوماسية ودية لكسب موقفها إلى جوار الدولة العثمانية.

ولأن رشيد باشا وسلطانة عبد المجيد على انحراف عقدي لم يلتفتوا إلى أن هذه الدول جميعها أعداء وخصوم للإسلام، وأن ما يقومون به هي سياسات مصالح لإضعاف الدولة من أجل أن تحين ساعة الصفر للانقضاض عليها وتقسيمها فيما بينهم كما سيأتي.

اختلفت الدول الأوروبية فيما بينها اختلاف مصالح، وقررت تقديم لائحة مشتركة، تقدمت بها روسيا وبروسيا والنمسا وفرنسا وإنجلترا، تطالب فيها السلطان عبد المجيد بعدم التدخل في شأن ولاية مصر دون الرجوع إليهم، كما أظهروا للخليفة الاستعداد للتوسط بينه وبين محمد علي والي مصر، فقبل الخليفة هذه اللائحة.

وبرغم أنهم قدموا لائحة اتفقوا عليها، إلا أنهم ظلوا في صراع على تركة الدولة العثمانية الضعيفة، فبريطانيا وفرنسا لا ترغبان في بقاء اتفاقية الدفاع المعقودة بين الدولة العثمانية وروسيا في عهد السلطان محمود (معاهدة رصيف هنكار)، حتى لا تنفرد روسيا وحدها بالسيطرة على الدولة العثمانية.

في نفس الوقت فإن فرنسا، كما أسلفنا، تعمل على تعزيز مركزها في مصر، من خلال تعاونها مع محمد علي باشا؛ وبريطانيا كانت تخشى ذلك، والنمسا وبروسيا وروسيا وبريطانيا وفرنسا أيضاً ترى في قوة محمد علي خطراً جديداً على الدول الصليبية، لذلك قررت عقد مؤتمر يجمعها لتنظر فيه موقفها، وتقرر فيه مصير محمد علي والي مصر.

– معاهدة لندن (جمادى الأولى ١٢٥٦هـ / يوليو ١٨٤٠م):

عُقدت معاهدة لندن بين الدول الأوروبية – إنجلترا وبروسيا والنمسا وروسيا – ورفضت فرنسا حضورها، مفضلة الاتفاق المباشر مع الدولة العثمانية ومحمد علي، كما حضرته الدولة



العثمانية متمثلة في رشيد باشا وزير الخارجية والخصم اللدود لمحمد علي، وتم الاتفاق على تقليص قوة محمد علي، والحد من قدراته العسكرية، وملخص ما جاء فيها:

- أنه على محمد علي إعادة جميع أراضي الدولة العثمانية، دون الجزء الجنوبي من الشام وعكا، فتبقى له.

- يحق لإنجلترا - بالاتفاق مع النمسا وروسيا - اتخاذ جميع التدابير اللازمة من أجل تنفيذ هذه الاتفاقية والدخول إلى إسطنبول لحمايتها، عند تعرضها للهجوم من قبل محمد علي.

- كما يحق لهم مساعدة من أراد من سكان سواحل بلاد الشام الانضمام إلى الدولة العثمانية، والخروج على طاعة محمد علي.

فاستطاعوا بذلك الوصول إلى تلك الأقليات المنحرفة كالموارنة والنصيرية والدروز، وذلك عن طريق الأساطيل البحرية.

- كما قررت الاتفاقية أن تكون ولاية مصر والسودان لمحمد علي ولأبنائه من بعده؛ وأما جنوب بلاد الشام، فتبقى له في حياته فقط، وعلى محمد علي إعادة الأسطول العثماني مرة أخرى للدولة العثمانية.

أمهلت هذه الاتفاقية محمد علي عشرة أيام بعد إعلامه بها لتنفيذها، وأنه عند رفضه ستنفذ بالقوة بتعاون الدول الأوروبية فيما بينها، ولو أدى ذلك إلى حرب كبرى.

عدت الدولة العثمانية أن هذه الاتفاقية حققت نصراً لها، بعد توقيع رشيد باشا عليها، وفرحت فرحاً كبيراً بدرجة لا تصدق.

رفض محمد علي هذه الاتفاقية، ولم تعد فرنسا قادرة على تنفيذ وعدها معه بالوقوف إلى جواره.

وعاش رشيد باشا يوماً من أسعد أيامه عندما بلغه رفض محمد علي للاتفاقية، وطلب من إنجلترا أن تقوم بتنفيذ معاهدة لندن، فاستجابت بريطانيا مباشرة، وانضمت إليها



فرنسا الماكرة، والتي وعدت محمد علي بالوقوف إلى جواره، وهذا جزاء من جنس العمل لمحمد علي إذ إنه قَبِلَ عهودَهم، وأبى أن يأخذ بتحذير القرآن لنا من مكرهم وخداعهم، قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنَّ آتِیَّتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وصلت الأساطيل الإنجليزية والأوروبية، واستطاعوا أن ينزلوا الهزيمة بالأسطول المصري أمام سواحل بيروت، كما ثار الدروز والنصيرية والموارنة الذين دعمتهم بريطانيا وأوروبا ضد محمد علي، ودخل الجيش العثماني إلى حلب والشام وعكا وطرابلس؛ وعاد إبراهيم باشا مع بقايا جيشه إلى مصر، حيثُ محمد علي الذي اضطر مجبراً إلى قبول الاتفاق.

ثم صدر فرمان العثماني، الذي قلص قوة محمد علي في ولاية مصر والسودان، وجرده من سواحل السودان المشرفة على البحر الأحمر مع أريتريا، لتكون تحت الإدارة العثمانية، كما تعطى له فقط نصف شبه جزيرة سيناء، ويبقى النصف الآخر للدولة العثمانية، والذي نصَّ على أن يرسل محمد علي ضريبة سنوية إلى الباب العالي، مقدارها أربعة ملايين آقجة، ويمكن زيادتها، ولا يجوز إنقاصها، وكذلك إنقاص عدد الجيش إلى ثمانية عشر ألفاً من الجنود فقط، ويُسَرَّح الجنود الزائدون على هذا العدد، ويكون هذا الجيش عوناً للدولة العثمانية في حالة الحرب في الجهة التي يقررها السلطان، كما تباع السفن الحربية، ويلغى الأسطول البحري المصري، كما يرتدي جنود الجيش في مصر الزي العسكري العثماني، ويرفع العلم العثماني في مصر، ولا يستعمل غيره، كما تصك النقود باسم السلطان، كما أن ولاية مصر تخضع لجميع التنظيمات والقوانين التي أعلنتها، وستعلنها الدولة العثمانية.

وبعد ذلك قام محمد علي في التاسع عشر من يوليو (١٨٤٦ م) بزيارة الباب العالي؛ وقبَّل قدم السلطان عبد المجيد الذي يصغره بأربع وخمسين سنة، وكان سنه آنذاك سبعاً وسبعين سنة^(١)، وسبحان من بيده ملكوت السموات والأرض، يرفع أقواماً، ويضع آخرين، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨].

(١) يلماز أوزتونا «تاريخ الدولة العثمانية»، (٢/ ٣٩-٤٠).



فعل ذلك محمد علي من أجل الوصول إلى منصب الصدر الأعظم، رغم طعنه في السن، ليتنقم من كل خصم له، وعلى رأسهم رشيد باشا، لكنه لم يتمكن من ذلك.

كانت هذه الزيارة لمحمد علي هي الأولى والأخيرة لإسطنبول طوال حياته؛ وزار محمد علي بعد إسطنبول مدينة قولة، التي غادرها قبل سبع وأربعين سنة، ثم رجع إلى مصر، وقد أصبح والياً عليها، كالطير الذي كُسرت أجنحته لا يستطيع الطيران.

وبذلك انتهى أخطر وأطول عصيان وقع في تاريخ الدولة العثمانية قبل رشيد باشا، الذي ظن أنه حقق ما لم يحققه سليمان القانوني في أوروبا، وياليتيه ما فعل، وياليتيه عمل على الاستفادة من هذه القوة لمحاربة أعداء الدين والدولة الحقيقيين، وإنما ذهب ليستعدي الصليبيين وخصوصاً الدولة عليها، وفتح هذا الباب لأصحاب الحداثة المنحرفة، حتى زالت الدولة عن بكرة أبيها، فعل ذلك من غير بصر ولا بصيرة، سوى تحقيق أهداف محدودة، أكثرها عداءات شخصية: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِنَّ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

- معاهدة المضائق البحرية (٢٣ جمادى الأولى ١٢٥٧ / ١٣ يوليو ١٨٤١م):

عملت بريطانيا وفرنسا على إنهاء معاهدة الدفاع المشترك بين الدولة العثمانية وروسيا بكل قوة، وهي المعاهدة المعروفة باسم رصيف هنكار، والتي تسمح بحرية مرور السفن الروسية من المضائق البحرية العثمانية، وتمنع مرور أي سفن لأي دولة أخرى، كما أنها تمنع بقاء أي سفينة حربية غير عثمانية أو روسية في البحر الأسود، وقد لعب رشيد باشا دوراً كبيراً في تحريك هذه المسألة لإلغاء هذه الاتفاقية، ومنع روسيا من استخدام مضيق البسفور والدردنيل.

تحركت بريطانيا وفرنسا من أجل هذا الأمر، وتم توقيع معاهدة بين كل من الدولة العثمانية وبريطانيا وفرنسا وروسيا والنمسا وبروسيا، تم على أثرها إلغاء معاهدة الدفاع المشترك بين الدولة العثمانية وروسيا؛ وأصبحت روسيا بموجب هذه المعاهدة مثلها مثل باقي الدول، تغلق أمامها المضائق.



- المسألة الشرقية:

يطلق مصطلح المسألة الشرقية على قضية التعامل والعلاقة بين الدول الأوروبية الصليبية، وبين الدولة العثمانية، أو سياسة أوروبا الصليبية تجاه الدولة العثمانية.

واختلفت باختلاف الأحوال والأزمان، وقد مرت هذه المسألة بمرحلتين:

المرحلة الأولى: في عهد القوة للدولة العثمانية والفتوحات الكبرى في أوروبا، حيث كانت المسألة الشرقية تعني كيفية وقف المدّ العثماني في أوروبا، ومواجهة الفتوحات والانتصارات العثمانية، واستمرت لأكثر من قرنين من الزمان، ثم بدأ يتغير هذا المفهوم بضعف الدولة العثمانية شيئاً فشيئاً، لتبدأ مرحلة أخرى من المسألة الشرقية.

المرحلة الثانية: والتي استمرت في آخر قرنين من حياة الدولة العثمانية، عندما بدأت مظاهر الضعف تظهر جلية على الدولة، مما دفع الدول الأوروبية للتنافس على ممتلكات الدولة العثمانية وإخراجها من أوروبا، وخاصة من جانب روسيا والنمسا.

وقد بدأت هذه المرحلة الثانية تظهر شيئاً فشيئاً أثناء الصراعات الأوروبية مع الدولة العثمانية، وذلك بسبب انحرافات السلاطين، وخاصة محمود الثاني وابنه عبد المجيد الذي وقع في زمانه محاولات من روسيا لاقتسام ما سماه قيصرها نيقولا ي: (إرث الرجل المريض)، فتقدم إلى بريطانيا باقتراح التقسيم، غير أن بريطانيا - التي كانت تطمح أن تنفرد بأكبر جزء من التركة - رفضت ذلك، بل وأبلغت به الدولة العثمانية سراً، مظهرةً وجه الصداقة والمودة للدولة العثمانية، ومخفيةً وجهها الحقيقي المليء بالحقد والحرص على إنهاء دورها في التاريخ.

ومن جانب آخر كانت بريطانيا تتخوف دائماً هي وفرنسا من انفراد روسيا بتركة الدولة العثمانية، كما أنه عرض على فرنسا نفس الأمر، فلم تقبل منه ذلك، فعندئذ توجه لأمر آخر.



- الحرب مع روسيا:

حاولت روسيا افتعال مشكلة بينها وبين الدولة العثمانية، خاصة بعد اتفاقية المضايق، وعدم التوصل مع الدول الصليبية الأخرى لقرار في مسألة تقسيم تركية الرجل المريض، محاولة أن تهيمن بمذهبها الأرثوذكسي على الكنائس الشرقية المقدسة عند النصارى في فلسطين، فتقدمت للدولة العثمانية بطلب تصفية الكاثوليك، والذين تتولى فرنسا أمرهم، بما لها من امتيازات في الدولة العثمانية، فحاولت روسيا إلغاء هيمنة فرنسا على تلك الكنائس، في جمادى الأولى (١٢٦٩هـ) / فبراير (١٨٥٣م)، فرفضت الدولة العثمانية هذا الأمر، مما ترتب عليه قطع العلاقات بين البلدين، وتحركت روسيا نحو الكيد للدولة العثمانية.

وكانت هذه الكنائس في الأصل تشرف عليها فرنسا، بحق امتيازٍ منحتها لها الدولة العثمانية، ثم توقفت فرنسا عن ذلك في فترة انشغالها بحروب نابليون مع خصوم الدولة، وتحول الإشراف على هذه الكنائس إلى روسيا، فلما انتهت فرنسا من حروبها، عادت إلى ما كانت عليه من الإشراف على الكنائس.

عندما رفضت الدولة العثمانية طلب روسيا هددت روسيا الدولة العثمانية باحتلال الأفلاق والبغدان التابعتين للدولة العثمانية، وتقدمت روسيا بقواتها إلى الأفلاق والبغدان، واحتلتها، فأعلنت الدولة العثمانية الحرب على روسيا، والتي استمرت لفترة طويلة، تخللتها انتصارات وهزائم بين الجانبين، وتدخلت خلالها فرنسا بمذكرة إلى روسيا من أجل الصلح بين الدولتين، فكان الرد الروسي عنيفاً للغاية، مما أدى إلى وقوف بريطانيا وفرنسا إلى جانب الدولة العثمانية، وتم ذلك في معاهدة وقعت في إسطنبول بين الدولة العثمانية وإنجلترا وفرنسا في جمادى الآخرة (١٢٧٠هـ / ١٨٥٤م) ترتب عليها خوض الدول الثلاث الحرب على روسيا وحلفائها كاليونان الأرثوذكسية التي وقفت إلى جانب روسيا، فقامت فرنسا بإنزال قواتها العسكرية فيها، واحتلت أثينا العاصمة.

واستطاعت القوات العثمانية أن توقع هزيمة كبيرة بالجيش الروسي في سلسره في رمضان سنة (١٢٧٠هـ) / يونيو (١٨٥٤م)، كما استطاع الجيش العثماني دخول بوخارست



-بوكارش - في ذي القعدة/ أغسطس من نفس السنة، وسط هتافات الجماهير التي كانت تفضل بقاءها ضمن الدولة العثمانية.

وفي ذي الحجة / سبتمبر من نفس السنة دخلت قوات الجيش العثماني - مع القوات المتحالفة من بريطانيا وفرنسا - إلى شبه جزيرة القرم، وحقت انتصاراً ساحقاً على الروس، مما أصاب قيصر روسيا بالهم والغم الشديد، ونزل به المرض، فهلك في شعبان سنة (١٢٧١هـ)/ مايو (١٨٥٥م)، واستطاع الروس بعد ذلك دخول مدينة قارص في صفر (١٢٧٢هـ)/ أكتوبر (١٨٥٥م)، ثم انتهت الحرب بعقد مؤتمر الصلح في باريس بين الدول المتحاربة.

- تنازلات عثمانية جديدة:

حاولت الدولة العثمانية التقرب أكثر إلى الأوروبيين - قبيل انعقاد مؤتمر باريس - وإظهار الامتنان بوقوف هذه الدول إلى جانبها في الحرب مع روسيا؛ فأصدر السلطان عبد المجيد فرماناً بتنظيمات جديدة في جمادى الآخرة سنة (١٢٧٢هـ)/ فبراير (١٨٥٦م) من صناعة محمد أمين عالي باشا^(١) وزير الخارجية وتلميذ رشيد باشا صاحب فرمان التنظيمات الذي صدر قبل ذلك بسبع عشرة سنة؛ وقد اشتهر هذا فرمان الجديد في التاريخ بفرمان أو الخط المهايوني (١٢٧٢هـ)، والذي تضمن إصلاحات ومواد، لم تنل رضا من المسلمين في الدولة ولا غيرهم، ولكن فقط إرضاءً لبريطانيا وفرنسا، وكسباً للرأي العام الأوروبي.

- مؤتمر باريس (١٢ رجب ١٢٧٢هـ / مارس ١٨٥٦م):

عُقد المؤتمر في باريس عاصمة فرنسا بين الدولة العثمانية، وفرنسا وبريطانيا والنمسا وروسيا وبروسيا وسردانيا، والذي تمَّ على أثره التوقيع على معاهدة صلح، غيّرت

(١) محمد أمين عالي باشا ولد في إسطنبول سنة (١٢٣٠هـ / ١٨١٥م) من أسرة فقيرة، كان أبوه بائعاً، وتعلم تعليماً جيداً، وكان يجيد اللغة الفرنسية مما أهله للالتحاق بالسلك الدبلوماسي العثماني، عمل بالسفارة العثمانية في فيينا، ثم ترقى إلى منصب وزير الخارجية، ثم أصبح سفيراً للدولة العثمانية في لندن، ثم عاد وزيراً للخارجية في حكومة مصطفى رشيد باشا أستاذ الذي علمه أصول اللعبة الدبلوماسية. عين محمد أمين عالي باشا في منصب الصدر الأعظم خمس مرات، عمل على تحويل الدولة العثمانية إلى دولة علمانية، وسعى إلى ذلك سعيًا حثيثاً، وشهد توقيع اتفاقيات بين الدولة العثمانية وغيرها من الدول، كان آخرها معاهدة باريس التي أنهت حرب القرم، توفي في إسطنبول سنة (١٢٨٨هـ / ١٨٧١م) بعد فترة مرضية في عهد السلطان عبد العزيز. يلماز أوزتونا «تاريخ الدولة العثمانية»، (٧٨/٢).

الوجه السياسي للقرن الثالث عشر الهجري/ القرن التاسع عشر الميلادي في أوروبا بما حواه من بنود، ترتب عليها إطلاق حرية الملاحة في البحر الأسود لجميع الدول، وعدم إنشاء أي قواعد بحرية عسكرية من الدولة العثمانية أو روسيا؛ وبقاء الأفلاق والبغدان (رومانيا) تحت حماية الدولة العثمانية، كما تبقى الصرب مستقلة ذاتياً في حماية الدولة العثمانية، كما استقرت شبه جزيرة القرم لروسيا، وأُعيدت قارص إلى الدولة العثمانية.

- صراعات صليبية:

عملت الدول النصرانية - وخاصة فرنسا وروسيا - على دعم النصارى في الدولة العثمانية، من: الكاثوليك والأرثوذكس والموارنة، وخاصة أن فرنسا عدت نفسها الحامية للعالم النصراني ومقدساته منذ الحروب الصليبية على المشرق، كما أنها خرجت صفر اليديين من مصر، فكانت تفكر ملياً لإعادة حكم الصليبيين لسواحل بلاد الشام، والتي عدت فرنسا نفسها الوارثة لها.

كما لعبت فرنسا دوراً كبيراً في توحيد بلاد الأفلاق والبغدان، ودعت إلى توقيع معاهدة جديدة في باريس، تمخض عنها إعلان دولة رومانيا بعد توحيد الأفلاق والبغدان، وبقاؤها في حماية الدولة العثمانية.

وقع الصراع بين فرنسا وبريطانيا في سواحل وجمال لبنان، ففرنسا تدعم المارونيين، وتحرضهم على عصيان الدولة، وبريطانيا تدعم الدروز، وتدفعهم إلى عصيان الدولة، فوقعت مشكلات كبرى، اتسعت رقعتها بين الدروز والموارنة، وشملت طرابلس وصيدا وزحله ودير القمر واللاذقية ودمشق، وأرسلت الدولة العثمانية محمد فؤاد باشا^(١)، الذي استطاع بقواته أن يقضي على تلك الفتنة، وأن يعاقب المسؤولين عنها، فاحتجت الدول الأوروبية لدى الخليفة، وهددت بالتدخل في لبنان.

(١) محمد فؤاد باشا: ولد سنة ١٢٢٩هـ / ١٨١٤م)، كان يجيد اللغة الفرنسية، وعمل بدائرة الخارجية إلى جانب مصطفى رشيد باشا الذي كان أستاذاً له في الدبلوماسية، وتولى منصب الصدر الأعظم لعدة مرات، وعمل كزميله عالي باشا على عصرنة الدولة على الطريقة الأوروبية. توفي في سنة ١٢٨٥هـ / ١٨٦٩م) في نيس بفرنسا، ونقل جثمانه إلى إسطنبول، حيث دفن في قبره الكائن قرب مسجد السلطان أحمد. يلماز أوزتونا «تاريخ الدولة العثمانية»، (٧٦/٢) بتصرف.



وأرسلت فرنسا ستة آلاف جندي - بحجة مساعدة الدولة العثمانية - للقضاء على هذه الفتنة، وكان هدف هذه القوات الحقيقي هو دعم النصارى المارونيين، وإشعارهم بأن لهم ظهراً يستندون إليه، وظلت فرنسا تعمل حتى استطاعت أن تحصل للنصارى على حكومة مستقلة، يرأسها في جبل لبنان نصراني لمدة ثلاث سنوات، تحت سيادة الدولة العثمانية، تختاره الدولة العثمانية، وتوافق عليه أوروبا، ولا يحق عزله إلا برأي الدول الأوروبية.

فتم اختيار أول رئيس لهذا السنجق أو اللواء، وكان الرئيس المختار هو داود الأرمني، وكان مركزه في دير القمر، ثم انسحبت فرنسا بعد عشرة أشهر من دخولها إلى لبنان.

ودفعت الأمة الإسلامية جرّاء تلك الأهواء والشهوات ثمناً باهظاً، مقابل ما يسمى بالحدّثة والعصرنة التي ظلت بعيدة المنال عنها.

• وفاة السلطان عبد المجيد الأول:

ومع هذه الأحداث وأثنائها توفي السلطان عبد المجيد الأول، في السابع عشر من ذي الحجة سنة (١٢٧٧هـ) / الخامس والعشرين من يونيو (١٨٦١م) بمرض السل، الذي أصيب به من قبل والده السلطان محمود الثاني، توفي بعد أن وضع الدولة على مرحلة خطيرة نحو الهويّ إلى العلمنة، كما فعل أبوه، وقد مات عن عمر لم يتجاوز الأربعين، ودُفن إلى جوار السلطان سليم الأول، بعد أن بقي في الحكم نحو ثلاث وعشرين سنة إلا قليلاً.

الخليفة الرابع والعشرون: عبد العزيز بن محمود الثاني (١٢٧٧هـ - ١٢٩٣هـ) / (١٨٦١م - ١٨٧٦م):

السلطان عبد العزيز بن السلطان محمود الثاني، ولد في الرابع عشر من شعبان سنة (١٢٤٥هـ)، نال قسطاً من التعليم الكوني الجيد، ولم ينل شيئاً من التعليم الديني الذي يجعل لديه الوازع عن الشهوات، وفهم الشريعة، بل على عكس ذلك، فلقد تعلم الموسيقى منذ الصغر، حتى أصبح ملحنًا، كما كان خطاطاً ورساماً وشاعراً، بجانب كونه رياضياً، يجيد المصارعة، كما أجاد اللغات العربية والفارسية والفرنسية بطلاقة.

تولى السلطان عبد العزيز الحكم - بعد وفاة أخيه عبد المجيد الأول - في السابع عشر من ذي الحجة سنة (١٢٧٧هـ)، وكان عمره اثنتين وثلثين سنة، واشتهر باسم: السلطان عزيز.

• أهم الأحداث في عصره:

عندما تولى السلطان عبد العزيز السلطنة شعرَ بأهمية الاستقامة في حياة الخليفة، واتضح ذلك جلياً بإلغائه الموسيقى الأوروبية من القصر، وإقصائها تماماً عن سراي الحكم.

وتبدو مشكلة السلطان عبد العزيز في بطانته، التي هي امتداد طبيعي لمن سبق من العلمانيين وأصحاب الحداثة، وعلى رأسهم السلاطين الثلاثة السابقون له، ووزراؤهم الذين يأتي على رأسهم مصطفى رشيد باشا صاحب التنظيمات، وتلميذه علي باشا وفؤاد باشا، كما أنه ظهر فريق آخر جديد، خرج من عباءة هذا الفريق بقيادة مدحت باشا ورفاقه بعد ذلك، وأطلق عليهم مسمى (العثمانيون الجدد)، ولذلك فإن السلطان عبد العزيز لم يجد حوله من يعينه على ضبط الدولة وقيمها.

كانت خزينة الدولة العثمانية تعاني القلة أشد المعاناة بسبب حرب روسيا، حيث أنفقت إنفاقات مالية عالية عليها، أرهقت كاهل الدولة، إلى جانب الإسراف والتبذير الذي قام به الفريق المذكور آنفاً، سواء على أنفسهم أو على القصور السلطانية، مما اضطرها - ولأول مرة في تاريخها - أن تستدين من بريطانيا.



لذلك قام السلطان عبد العزيز بضبط المصاريف، ومنَعَ الإسراف والتبذير داخل قصر السلطنة، مما أعان على التقاط الخزينة أنفاسها ولو قليلاً، غير أن هذا الفريق لم يعجبه ذلك، وظل يعمل على إقصاء السلطان، حتى استطاع ذلك في نهاية الأمر، كما سيأتي.

- ثورة الصرب:

قام في الصرب ثورة بالجلب الأسود في ذي الحجة سنة (١٢٧٧هـ) / يونيو (١٨٦١م)، وذلك بمعاونة روسيا والدول الأوروبية، فدفع ذلك الدولة العثمانية إلى التصدي لهذه الثورة، واستطاعت قمعها بقيادة عمر باشا، مما دفع أوروبا أن تحتج، وتثير شعوبها ضد الدولة العثمانية، التي اضطرت للتفاهم معهم بتوقيع اتفاق سمي: بتفاهم إسطنبول، في ربيع الأول سنة (١٢٧٨هـ) / سبتمبر (١٨٦١م)، والذي بموجبه حصلت الصرب على حرية أوسع للحكم الذاتي، غير أن الأمر لم ينته إلى هذا الحد، حيث اندلعت الثورة مرة أخرى في بلاد الصرب بمعاونة أوروبا، مما دفع الدولة العثمانية أن تخلي النقاط العسكرية في بلغراد، وانسحبت إلى داخل قلعة بلغراد، وهاجر آخر المسلمين من الأراضي الصربية، وتركت الدولة العثمانية لأمير الصرب أن يحكم بعد طيلة هذه السنوات الطويلة، التي بلغت أربعين وثلاثمئة سنة كانت في حوزة الدولة، والتي لم تعمل يوماً على تنظيم الدعوة إلى الإسلام بين هذه الشعوب الأوروبية التابعة لها واستنقاذهم من النار، وكأن الدولة العثمانية كانت فقط تريد أن تخضع المناطق والشعوب لحوزتها، دون دعوتهم إلى الإسلام، ولذلك كانت هذه إحدى الآفات التي أتت على الدولة في نهايتها وكانت معول هدم في بنية الدولة وتقليص مساحتها، وذلك في سنة (١٢٨٣هـ / ١٨٦٧م).

- ثورة اليونان:

كان من آثار عصيان الصرب وثورتهم على الدولة العثمانية - والذي انتهى باتفاقية إسطنبول - أن شجعت اليونانيين للثورة والعصيان على الدولة العثمانية، فثاروا في جزيرة كريت بتشجيع من بريطانيا وروسيا، إذ إن روسيا خاصة قامت بتحريض ملك اليونان يورجي - المتزوج بأميرة روسية - على العصيان، وأرادت الدولة العثمانية إنهاء



هذا العصيان بحضور الصدر الأعظم عالي باشا إلى جزيرة كريت، في الوقت الذي كان عمر باشا أن يفني العصاة، ويقضي عليهم، تدخلت كل من فرنسا وروسيا وإيطاليا وبروسيا بمذكرة، ترجو فيها الباب العالي وقف جميع الأعمال العسكرية، مما اضطر الدولة العثمانية إلى إعلان فرمان كريت في رمضان (١٢٨٤هـ) / نوفمبر (١٨٦٨م)، والذي جعل جزيرة كريت ولاية مشتركة بين الدولة العثمانية واليونان.

– زيارة خليفة المسلمين السلطان عبد العزيز لمصر:

قام السلطان عبد العزيز بزيارة لمصر، لأول مرة لسلطان عثماني بعد السلطان سليم الأول^(١)، وذلك عن طريق البحر، حيث سافر بالباخرة (فيض الجهاد السلطانية)، يرافقه جمع من الأمراء، منهم ثلاثة من ورثة السلطنة: ولي العهد الأمير مراد، والأمير عبد الحميد، والأمير محمد رشاد أفندي، وكلهم أبناء أخيه عبد المجيد، وتولوا بالترتيب من بعده، إلى جانب عدد من كبار رجالات الدولة.

استقبل الخليفة والوفد المرافق له في مصر استقبالا رسمياً وشعبياً حافلاً منقطع النظير، إذ إن الشعب المصري خرج من عنده آخر خليفة قرشي عباسي هو المتوكل الثالث، والذي تنازل عن الخلافة لسليم الأول في إسطنبول عاصمة الخلافة بعد ذلك، كما أسلفنا، فكان الشعب المصري في شوق لرؤية الخليفة، وقد مهد لذلك والي مصر إسماعيل باشا بن إبراهيم بن محمد علي، وذلك جزء من مسعاه في جعل ولاية مصر في أبنائه دون سائر أسرة محمد علي، وإلغاء ما جاء في فرمان العثماني الذي يقضي بتوريث أكبر أبناء العائلة.

ولقد تم ذلك لإسماعيل بعد زيارة السلطان لمصر، ومنح الولاية المصريون لقب الخديوي، أي: نائب السلطان، أو الوزير الأعظم، فكان إسماعيل أول من لُقّب بذلك، وقد خسر أخوه مصطفى فاضل باشا تولي ولاية مصر، بفرمان أصدره الخليفة في ذي الحجة سنة (١٢٨٣هـ) / مايو (١٨٦٦م).

(١) كان السلاطين العثمانيون يجذرون من الابتعاد عن عاصمة الخلافة، سوى الحملات السلطانية العسكرية، وذلك خشية اضطراب الدولة، حتى إنه لم يصل إلينا في وثيقة تاريخية واحدة أن أحد الخلفاء العثمانيين قام بحج بيت الله، وذلك من مثالب هؤلاء السلاطين.



وقام السلطان فيما بعد بتعيين مصطفى فاضل باشا وزيراً للمالية للدولة العثمانية، فوجد مصطفى فاضل فرصته للانتقام من فرمان السلطان القاضي بإقصائه عن ولاية مصر، فقام بتأييد الحركات السرية التي قامت ضد الدولة بقيادة مدحت باشا، وأطلق عليها لقب جمعية (العثمانيين الجدد) أو تركيا الفتاة^(١)، وقام بدعمهم مالياً خارج الدولة العثمانية، فظهروا في أوروبا باسم جونتركلر كما سيأتي.

(١) تأسست هذه الجمعية في إسطنبول في شهر محرم سنة (١٢٨٢هـ / يونيو ١٨٦٥م) تحت مسمى جمعية (العثمانيين الجدد) أو الشباب، وهي جمعية غير رسمية، اشتهرت في العالم العربي باسم: جمعية تركيا الفتاة، نقلاً عن التسمية الغربية Jon Tourk، أسست هذه الجمعية على يد مجموعة من الشباب، عملت على الانحراف بالدولة عقدياً وأخلاقياً تحت مسمى تحديث الدولة، بعد أن قضى معظم هؤلاء الشباب فترة دراستهم في الدول الأوروبية. كان على رأس هؤلاء محمد بك وكمال بك ورفيق بك ورشاد بك ونوري بك وآية الله بك، جمعتهم خطوط مشتركة وسات متوافقة فكرياً واجتماعياً، فكلهم أبناء بشوات وأثرياء، ينتمون إلى طبقة اجتماعية راقية، يكتبون من الحديث عن الحرية والإصلاحات بالمفهوم الأوروبي الصليبي. والعجيب أن هؤلاء لم يرضوا عن التنظيمات التي أسسها مصطفى رشيد باشا وعلي باشا وفؤاد باشا، واعتبروا أن ذلك لا شيء، لذلك سعوا بكل وسيلة لإيصال نامق كمال* إلى تولي وزارة الخارجية، وضياء باشا منصب الصدارة العظمى. كانت هذه الجمعية مشبوهة، واتهمت بأنها يحركها يهود الدونمة والماسونية، واستدل متهموها بوقائع حقيقية ثابتة في التاريخ. انضمت إلى هذه الجمعية شخصيات عسكرية وسياسية لها دورها في الدولة، وقد قويت شوكتها كحركة معارضة لسياسة الدولة بعد انتهاء سليمان باشا قائد المدرسة الحربية إليهم والذي دبر خلع السلطان عبد العزيز مع حسين عوني باشا، كما أن انتهاء مصطفى فاضل باشا إليهم ودعمهم زاد من مكانتهم وأهميتهم؛ وكان مصطفى فاضل باشا ناقماً على الدولة العثمانية لتفويتها الفرصة عليه لحكم مصر. ما كانت هذه الجمعية تطالب بأهداف شعبية، ولا تنال أي تأييد من عموم الشعب، وحاول رجالها اقتحام الباب العالي - قصر السلطنة - ولكن علي باشا استطاع فضح مخططاتهم قبل وقوعه، ففر الكثير منهم إلى أوروبا، وقام مصطفى فاضل باشا بدعمهم مالياً. اتضح من تصرفات هؤلاء القوم أن هدفهم هو إقصاء الدين وإبعاده تماماً عن الحياة في المجتمع العثماني، لذلك تتبعته الدولة، فهرب زعمائها الكبار، وهم: نامق كمال، وضياء باشا، وعلي سعاوي وغيرهم إلى باريس، فخرجت الجمعية بذلك من طور الشرقة إلى العلن، وأصبح مصطفى فاضل باشا رئيسها الفعلي، فأرسل رسالة إلى السلطان بالفرنسية، يطلب منه تنفيذ أمرين: الحرية والمشرورية (النظام الحر الليبرالي)، وقد أيدت أوروبا بقوة هذه الحركة تأييداً مطلقاً، وأصدروا جريدة المخبر في لندن سنة (١٢٩٣هـ / ١٨٧٦م) كما أصدروا جريدة الحرية، ينشرون خلالها الأفكار المحدودة المنحرفة عن الأمة العثمانية التركية، متجاوزين المفهوم الشرعي للأمة الإسلامية. انقسم هؤلاء على أنفسهم بعد ذلك إلى فريقين: الأول يظهر نوعاً من الاعتدال، يمثل ضياء باشا، والآخر متطرف، يتجاوز مفهوم الإصلاحات إلى إلغاء الخلافة وقيام الجمهورية، وكان يقوده محمد بك. وبإيالت هؤلاء قاموا من ذاتهم ضد الدولة: وانتقدوها انتقاداً بناءً، إنها قاموا بدعم من خصوم الإسلام وأعدائه وبمعارضة هدامة، لا تريد الخير للدولة ولا للأمة.

بدأت هذه المعارضة تتمزق شيئاً فشيئاً، بعد التقارب بين مصطفى فاضل باشا وبين السلطان عبد العزيز الذي أصدر عفواً عنه، فعاد إلى إسطنبول، ثم استقالة رفعت بك وعلي سعاوي من الجمعية، وعودة أعضاء الجمعية شيئاً فشيئاً إلى إسطنبول، بعد وفاة علي باشا، لكنهم لم ينتهوا إلى هذا الحد، فقد دارت الأيام، وتولى محمود نديم باشا منصب الصدارة العظمى، وهو الذي كانوا يرشحونه بقوة، وكذلك تولى مدحت باشا وزارة العدل، وحسين عوني باشا سر عسكر الدولة مما أتاح الفرصة هؤلاء أن يتكلموا بصوت عالٍ عن مبادئهم وأهدافهم التي يسعون إليها. لقد نالت هذه الجمعية كل أنواع المساندة والدعم من الدول الصليبية، والمحافل الماسونية، والسفراء الأجانب، ويهود الدونمة في إسطنبول وخارجها، واستطاعوا إقحام العسكر في السياسة، حتى استطاعوا في نهاية الأمر تأسيس حزب الاتحاد والترقي، والذي أتى بالعسكر، وقوّض الخلافة في نهاية الأمر. * نامق كمال: شاعر وصحفي سياسي، ولد سنة (١٨٤٠م)، وتوفي في سنة (١٨٨٩م)، انتمى إلى الجمعيات السرية المعارضة، وهرب إلى باريس، وأصدر هناك جريدتي: «المخبر» و«الحرية»، لمعارضة الخلافة العثمانية، رجع إلى إسطنبول، وبعد عودته نُفي إلى قبرص لثمانية وثلاثين شهراً، ثم رجع إلى إسطنبول بعد خلع السلطان عبد العزيز، وعُيِّن عضواً في شورى الدولة في عهد السلطان عبد الحميد، شارك في إعداد القانون الأساسي، وحُكم عليه بستة أشهر سجن بسبب معارضته للسلطان، فاضطر للإقامة بعدها في جزيرة مدلي، وبعد سنتين ونصف عينته الدولة متصرفاً - محافظاً - وهناك مات. اشتهر بشاعر الوطن، وهذا مبالغ فيه، تأثر بالإنجليز في الفنون والعلوم والثقافة، كما تأثر بالفرنسيين في أصول الحكم والسياسة، وهو عصبي ومتقلب المزاج، فلا يستقيم على أمر، يحب التصدر والشهرة والتلون، والأرشييف العثماني وافر بالرسائل التي كتبها إلى السلطان عبد الحميد، يتملحه بالتوقير والتبجيل على خلاف ما اشتهر عنه. أحمد آق كوندز «الدولة العثمانية المجهولة»، (ص: ٤٤٥).



غير أن مصطفى فاضل باشا أدرك أن هؤلاء لا فائدة منهم، فقرر التقرب إلى السلطان، وذهب وقبّل قدمه^(١) معترداً، ثم قام بمنع الدعم عن (العثمانيين الجدد).

كما أكد الفرمان منح الخديوي إسماعيل إدارة قضاء سواكن - التي كانت تمثل ميناء السودان - ومصوع، كما منح الخديوي حق رفع عدد جيشه من ثمانية عشر ألفاً إلى ثلاثين ألف جندي.

- رحلة السلطان لأوروبا:

قام السلطان عبد العزيز بزيارة لأوروبا، لأول مرة في تاريخ الدولة العثمانية، كأول وآخر سلطان يقوم بهذه الزيارة الرسمية، تلبيةً لدعوة نابليون الثالث ملك فرنسا، والملكة فيكتوريا ملكة بريطانيا، وقد حظيت هذه الزيارة باهتمامات عظيمة واستقبالات حافلة، على المستويين: الرسمي والشعبي.

بدأت الزيارة بباريس، واجتمع بنابليون الثالث ملك فرنسا، ثم تلاها بلندن، واجتمع مع الملكة فيكتوريا، واستقبل بحفاوة بالغة، ثم قام بزيارة بروكسل، والتقى الملك ليوبولد الثاني، كما قدم إليه ملك بروسيا وملكتها من مسافة أربعمئة وستين كيلو متر من برلين، ليلتقيا السلطان في كوبلنز، لتعذر حضور السلطان إلى برلين.

وقد أظهرت هذه الزيارة فخامة النفوذ العثماني في أوروبا ومكانة السلطنة، كما قام إمبراطور النمسا وملك المجر عند عودة السلطان باستقباله استقبالاً حافلاً في محطة قطار فيينا^(٢)، وقد أقام السلطان في فيينا ثلاثة أيام، ثم قام السلطان بعد ذلك بالمرور ببودابست.

دامت هذه الزيارة ستة وأربعين يوماً، من التاسع عشر من صفر (١٢٨٤هـ) إلى السابع من ربيع الثاني من نفس السنة، الموافق للحادي والعشرين من يونيو (١٨٦٧م) إلى السابع من أغسطس من نفس السنة.

(١) كان تقبيل قدم السلطان - من بعض الولاة، وكبار رجال الدولة - عادة سيئة، ارتضاها بعض السلاطين، وهذا فيه سجود وخضوع وإذلال بين يدي المخلوق، ولا ينبغي ذلك إلا لله تعالى، ولا نعرف أن أحداً من الصحابة رضوان الله عليهم فعل ذلك مع النبي ﷺ، وهو أولى وأشراف من كل السلاطين ومن الناس أجمعين، وكان ينبغي لشيوخ الإسلام في الدولة العثمانية أن يمنعوا ذلك بفتوى منهم.

(٢) كانت الإمبراطورية النمساوية قد تحولت قبل هذا اللقاء بعدة أشهر إلى مملكة ثنائية، تتكون من دولتين الاتحاديتين، هما: إمبراطورية النمسا وملكة المجر.



- إنشاء مجالس وقوانين جديدة:

قام فؤاد باشا - وهو أحد زعماء حركة الحداثة وعلمنة الدولة - بإصدار قانون إصلاح الولايات (تشكيل ولايت)، في سنة (١٢٨١هـ / ١٨٦٤م)، على أن ينتخب ممثلين للشعب في كل ولاية لهذه المجالس.

كما أعلن عالي باشا في (١٢٨٥هـ / ١٨٦٨م) قانون شورى الدولة، الذي تأسس على أثره مجلس شورى الدولة، الذي يُعنى بأمور الدولة الإدارية العليا.

كما أسس ديوان الأحكام العدلية، الذي يعنى بالأمور القضائية العليا، ومنح رئيس ذلك الديوان المكانة الرابعة في تسلسل بروتوكول الدولة - بعد الصدر الأعظم، وشيخ الإسلام، وسر العسكر (قائد العسكر) - ويأتي من بعده في المرتبة الخامسة رئيس شورى الدولة.

عمل كلا المجلسين على صياغة وتشريع القوانين التي تقرّها الدولة، وخاصة مجلس الشورى، الذي كان يعد المجلس التشريعي، الذي تشكله مجموعة العلمانيين وعلى رأسهم عالي باشا، كما أضيفت إلى مجلس الشورى ميزانية الدولة، وكان هذا المجلس يقوم في كثير من الأحيان بواجبات الديوان العالي، كما مُنح صلاحية محاكمة الوزراء^(١).

وكان عالي باشا يريد تغريب الدولة ووضعها على النسق الأوروبي في أحكامها وقوانينها، وهمّ باقتباس قانون فرنسا المدني، المسمى بقانون نابليون^(٢)، وتطبيقه بدلاً من الشريعة في جميع أركان الدولة، غير أن صديقه جودت باشا - المؤرخ والحقوقي العثماني - نصحه بعدم الإقدام على ذلك جملة واحدة، ولذلك قام بإنشاء هذه المجالس، ثم تبعها تدوين أحكام الحقوق المدنية باسم مجلة الأحكام العدلية^(٣).

(١) يلماز أوزتونا «تاريخ الدولة العثمانية»، (٧٥ / ٢).

(٢) وضع نابليون هذا القانون بعد قدومه إلى مصر وأطلع علماء الحملة الفرنسية الذين معه على كتب الفقه الإسلامي والنظم التي فيه، فأخذوا منه الكثير، واستفادوا منه الكثير، وشوهوا منه الكثير، وأفسدوه بما أضافوا عليه من تصورات عقلية، ثم أخذناه نحن منهم بدلاً من أن نرجع إلى الأصل الذي أخذوا منه، وهو شريعتنا الغراء، وبدلاً من أن نتحاكم إلى قوانينهم الجاهلية. عمر سليمان الأشقر «الشريعة الإلهية لا القوانين الجاهلية»، (ص: ٦٧).

(٣) يلماز أوزتونا/ تاريخ الدولة العثمانية (٧٥ / ٢).

يقول الشيخ محمد رشيد رضا عن حركة العلمنة - أو ما يسمى: بالإصلاحات في الدولة العثمانية - وعن هؤلاء القوم: وأما رجال السياسة والإدارة، فكانوا مفتونين بتقليد الإفرنج في معيشتهم وحريتهم وظواهر نظمهم، وإنما كانوا يقلدونهم فيما يسهل فيه التقليد، كتقليد الطفل لمن يعظم في عينه من الرجال، وتقليد الأصاغر لمن فوقهم من الأكابر، كالأزياء والعادات وشكل المدارس والدواوين، وقد ترجموا أكثر القوانين، فلم يقيموا منها شيئاً، وأما العلوم والفنون والصناعات وطرق الثروة والنظم المالية، فلم يتقنوا منها شيئاً^(١).

- مجلة الأحكام العدلية:

تعدُّ (المجلة العدلية) آخر ما استقرَّ عليه النظام القانوني - في الدولة العثمانية - المقتبس من الفقه الحنفي وبعض القوانين الفرنسية الجاهلية؛ فهو خلط بين ما جاء في الفقه الحنفي عينه وبين قانون نابليون.

وتطبق أحكام هذه (المجلة العدلية) في بعض الأقطار العربية إلى يومنا هذا، في الوقت الذي ألغي العمل بها في تركيا في سنة (١٣٤٤هـ / ١٩٢٦م)، واستبدل بها القانون المدني السويسري.

كان من أهم ما جاء في تعديلات هذا القانون - فيما يخص الأسرة المسلمة - أن الزواج بأكثر من امرأة واحدة لا يمكن من الناحية العملية، فكان هذا تمهيداً لإلغاء تعدد الزوجات، ورغم أن السلاطين آنذاك كانت لهم أكثر من زوجة، كما نرى اليوم بعض الأمراء والملوك والسلاطين في بلادنا العربية: يعددون الزوجات، في الوقت الذي يباركون فيه القوانين وإنشاء الهيئات النسائية والقانونية التي تمنع شريعة الله في التعدد، وتساهم في تشويه صورة التعدد، من خلال الإعلام الليبرالي والعلماني المعادي للإسلام.

(١) محمد رشيد رضا «تاريخ الأستاذ الإمام».



يذكر الدكتور عمر سليمان الأشقر رحمه الله^(١) أن أول تقنينٍ حدث في تاريخ هذه الأمة صدر في سنة (١٢٥٦هـ / ١٨٤٠م) مستمداً أحكامه من مصادر أجنبية، وهو قانون العقوبات العثماني، الذي نُقل عن القانون الفرنسي الصادر في سنة (١٨١٠م)، وأهم ما استحدثه هذا القانون هو الأخذ بمبدأ عدم العقوبة إلا بنصٍّ، فخرج بذلك ما جرى عليه الشرع الإسلامي باسم التعزير، ثم إنه ألغى نهائياً عقوبة الرجم في جريمة الزنا، وعقوبة قطع اليد في السرقة.

صدر بعد هذا القانون قانون جنائي آخر في سنة (١٢٦٧هـ / ١٨٥١م)، ثم قانون جنائي ثالث سنة (١٢٧٤هـ / ١٨٥٨م)، وقد أُقتبس كاملاً عن القانون الفرنسي، ثم أُدخلت عليه تعديلات كثيرة، أهمها تعديل سنة (١٣٢٩هـ / ١٩١١م)، وهذه التعديلات مأخوذة جميعها من قوانين دولٍ كافرة، أهمها القانون الإيطالي.

ويضيف: في سنة (١٢٦٦هـ / ١٨٥٠م) صدر قانون التجارة، نقلاً عن القانون الفرنسي الصادر سنة (١٨٠٧م).

وفي سنة (١٢٧٤هـ / ١٨٥٨م) أصدرت الدولة العثمانية قانون الأراضي الأميرية، والأراضي المتروكة، وأراضي الموات؛ كما صدر في سنة (١٣٣٢هـ / ١٩١٣م) قانون الانتقال في الأراضي الأميرية مقتبسةً نصوُصَه عن القانون الألماني والقانون السويسري، والذي خالف في أحكامه أحكام الشريعة الإسلامية في الموارث، فلقد ساوى في انتقال الأراضي الأميرية بين الزوج والزوجة، وبين الذكور والإناث في الميراث. ا.هـ.

- أحداث متفرقة:

- توفي الركن الثالث من أركان التنظيمات الجديدة والتحديث محمد فؤاد باشا؛ وهو في استراحته في نيس بفرنسا سنة (١٢٨٥هـ / ١٨٦٩م)، ونُقل جثمانه إلى إسطنبول، بواسطة سفينة حرب فرنسية، وأُعلن الحداد العام في الدولة، وأُغلقت المتاجر في ذلك اليوم الذي أصبح فيه عالي باشا وحده، بعد أن فقدَ أكبر مساعديه ومعينيه على تنفيذ عصرنة الدولة.

(١) عمر سليمان الأشقر «الشريعة الإلهية لا القوانين الجاهلية»، (ص: ٦٤-٦٥).



- **إفتتاح قناة السويس** في مصر في سنة (١٢٨٥هـ / ١٨٦٩م) بعد أن استمر حفرها نحو إحدى عشرة سنة هجرية، وعمل في حفرها أكثر من ستين ألف فلاح، وبلغ طول ما حُفر ١٦٢,٥ كم، ممتداً بين مينائي السويس على البحر الأحمر، وبور سعيد على البحر الأبيض المتوسط، وقد اختصرت المسافة بين المحيط الهندي والأطلسي، وساهمت على نقل التجارة بين الشرق والغرب، وقضت على احتكار طريق رأس الرجاء الصالح، فأعادت بذلك الحيوية والنشاط إلى البحر الأبيض المتوسط، بعد أن خمد ذلك الدور لنحو أربعة قرون، مما أثار أطماع فرنسا وإنجلترا في مصر.

- **أُعلن في زمان السلطان عبد العزيز قيامُ إمبراطورية ألمانيا** وعُدَّت ثاني أقوى دولة في العالم بعد إنجلترا، ففقدت فرنسا مكانتها، وحلت محل الدولة العثمانية في المرتبة الثالثة، كما تقهقرت الدولة العثمانية إلى أسفل من ذلك، حيث وقعت بعد روسيا، كما تصدرت ألمانيا العالم من حيث عدد الجيوش البرية في العالم.

وقد تشكل الاتحاد الألماني الجديد من نحو ثلاثين دوقية وإمارة، انتخبت ملك بروسيا أكبر وأقوى هذه الإمارات إمبراطوراً على ألمانيا.

- **توفي عالي باشا رأس التنظيمات الحديثة** لعصرنة الدولة، والتلميذُ الوفي الذي فاق أستاذه مصطفى رشيد باشا في سنة (١٢٨٨هـ / ١٨٧٢م)، بعد أن شغل منصب الصدر الأعظم لعدة مرات، وتولى منصب وزير الخارجية، ومنصب سفير الدولة العثمانية في لندن، وتولى وزيراً في وزارات أخرى، وقد وصفته صحافة أوروبا - التي كان مولعاً بها - بأنه أعظم سياسي في أوروبا.

وبوفاة عالي باشا تحقق لجماعة (العثمانيين الجدد) ما كانوا يتمنونونه من تولي محمود نديم باشا أحد أهم رجالات هذه الجمعية، والتي أرادت فصل الدين تماماً عن الدولة ومماثلتها



لتنظم الأوروبية في كل صور الحياة.

كانت شخصية محمود نديم باشا شخصية سيئة للغاية، وصفه يلماز أوزتونا بقوله: لص، عديم الأخلاق، كذاب، مذبذب، عديم الكفاءة.^(١)

ولم يتمكن محمود نديم باشا من البقاء في السلطة لأكثر من سنة بعد أن فعل الأفاعيل، وكان من أسوأ ما فعله أنه أصدر فرمان الذي يجيز للخديوي إسماعيل الاقتراض من أوروبا في سنة (١٢٨٨هـ / ١٨٧٢م)، ففتح باب شر على الدولة، وجعل أعظم ولاياتها - مصر - متعلقة رقبته بمشقة الديون، التي كانت سبباً في التدخل الأوروبي والاحتلال العسكري لها بعد ذلك.

كان الخديوي إسماعيل قد بذل أموالاً كثيرة - في حقيقتها رشوة - لرجال الدولة والسراي بين مئة إلى مئتي ألف قطعة ذهبية لكل منهم، في سبيل صدور هذا فرمان، وكان أولى به أن يستفيد من هذه الأموال فيما يريد صنعه في مصر، بدلاً من أن يفتح على نفسه وعلى الأمة أبواب الشرور التي فُتحت، ورمى بمصر في أحضان الصليبية الغربية تحت مسمى التطوير والتحديث.

يقول يلماز أوزتونا^(٢): تمكن إسماعيل باشا من استصدار فرمان، يجمع جميع الامتيازات المعطاة لولاية مصر تحت متن واحد، في العاشر من يونيو (١٨٧٣م)، وبينما كان يعتقد أنه سينال الحكم الاستقلالي إذ به ينزل الضربة على سياسة الخلافة للسلطان عبد العزيز، ويحطم الوحدة الإسلامية، ويرمي بمصر - قرة عين العالم الإسلامي - في أحضان الإمبريالية الغربية.

تولى من بعد محمود نديم باشا جمع من الرجال، الذين أصبحت غايتهم الحصول على المنصب، وتسخير الدولة في جمع الثروة، والمصلحة الشخصية، فجاء بعده مترجم محمد رشدي باشا للمرة الثالثة، ولقد سبق له تولي الصدارة لمرتين من قبل، ولم يبق إلا لفترة أربعة أشهر، ثم أحمد سعد باشا ولم يبق لأكثر من شهرين، ثم من بعده شرواني زاده محمد

(١) «تاريخ الدولة العثمانية»، (٧٩ / ٢).

(٢) «تاريخ الدولة العثمانية»، (٧٩ / ٢).

رشدي باشا، ولم يبقَ في الحكم لأكثر من عشرة أشهر، ثم حسين عوني باشا، والذي بقي في الحكم سنة وشهرين، ثم تولى من بعده أحمد أسعد باشا للمرة الثانية، ولم يبقَ لأكثر من أربعة أشهر، ثم عودة محمود نديم باشا للمرة الثانية، ولمدة ثمانية أشهر ونصف، ثم تولى من بعده مترجم محمد رشدي باشا للمرة الرابعة.

وفي خضم هذه الفوضى وعدم استقرار منصب الصدر الأعظم ظهرت شخصية مدحت باشا^(١)، الذي كان عوناً لكل من يعمل على إبعاد الدولة عن مظاهر الإسلام، لذلك وقفت من خلفه جمعية (العثمانيين الجدد) من أجل أن يتولى الصدارة، غير أن السلطان عيّن محمود نديم باشا بدلاً منه، وزادت أزمات الدولة، وتعذر إخماد عصيان وثورة الهرسك، التي أعانتها أوروبا على الثورة، كما أن خزانة الدولة أوشكت على الإفلاس، وخاصة بعد الإنفاقات العالية على الأسطول الحديث الذي أسسه السلطان عبد العزيز، وعلى خطوط السكك الحديدية الممتدة في أنحاء الدولة، وكذلك الأبنية والسرديات والقصور الفاخرة.

(١) مدحت باشا أو أحمد مدحت باشا بن حاجي حافظ أشرف أفندي، يلقب بأبي الأحرار، ولد بإسطنبول في سنة (١٢٣٨هـ / ١٨٢٢م)، وكان أبوه قاضياً، وتعلم العربية والفارسية، وكان يحسن الشعر العربي، وغلب عليه اسم مدحت باشا، وأتم حفظ القرآن - وعمره عشرة سنوات - وتعلم على يد أبيه في العلوم الأساسية.

عين في قلم ديوان المهاييون (الديوان السامي)، مما أتاح له حضور اجتماعات كثيرة برئاسة البشوات عالي ورشدي المترجم وصادق رفعت في زمن السلطان عبد المجيد، وتأثر بهم، ونزع نزعتهم في العصرية، بل كان أشد منهم في هذا الجانب، زار أوروبا سنة (١٢٧٥هـ / ١٨٥٨م)، وتعلم الفرنسية وأتقنها، وامتدت علاقاته هناك بمشاهير رجالات الدول الأوروبية.

أصبح والياً على منطقة الدانوب بولاية الطونة، (جزء من بلغاريا)، ثم انتقل إلى الأستانة، وعين رئيساً لمجلس شورى الدولة لسنة واحدة، كما عين بعدها والياً على بغداد من سنة (١٢٨٦هـ إلى ١٢٨٨هـ) حتى وقع الخلاف بينه وبين محمود نديم باشا الصدر الأعظم، وعزل عن ولاية بغداد، وعين والياً على أدنة، ثم عين صدراً أعظم في عهد السلطان عبد العزيز لفترة قصيرة، لم تتعد الشهرين، وشارك في المؤامرة على السلطان عبد العزيز مع رجال الدولة، مما أدى في نهاية الأمر إلى محاكمته وانتهاء أمره.

كان مدحت باشا على علاقة برجال الماسونية ويهود الدونمة، حتى إن بعض المؤرخين اتهمه بأنه من يهود الدونمة، لكن علاقته الأقوى كانت ببريطانيا التي كانت تسعى لأن يتولى منصب الصدر الأعظم، وقد تحقق لها ذلك في عهد السلطان عبد الحميد، حيث عين صدراً أعظم بتأييد من جمعية (العثمانيين الجدد).

توج مدحت باشا جهده وسعيه - في انحراف الدولة - بإصدار الدستور العثماني، أو قانون الأساس في أواخر سنة (١٢٩٣هـ / ١٨٧٦م)، وقال قولته المشهورة: ليكن آل مدحت بدلاً عن آل عثمان، ولذلك لقب بأبي الدستور، ولم يتفق مع السلطان عبد الحميد في سياسة الدولة، وضيق عليه السلطان عبد الحميد، فسافر إلى لندن، واستقر بها إلى أن صدر أمراً بتعيينه والياً على الشام، فعمل بكل قوة لإنشاء الجمعيات التنصيرية والعلمانية تحت مسمى الجمعيات العلمية والأدبية - يراجع حركة التنصير بالكتاب.

نُقل مدحت باشا بعد ذلك إلى أزمير، وكان هدفه هو السعي في تحريض الشعوب وأصحاب الديانات المنحرفة على الاستقلال عن الدولة العثمانية، لتفتتها إلى دويلات صغيرة، وهو ما تحقق بعد ذلك على يد مصطفى كمال أتاتورك.

قدم مدحت باشا إلى المحاكمة في قتل السلطان عبد العزيز، وحكم عليه بالإعدام لتورطه في ذلك، واكتفى السلطان عبد الحميد بنفيه إلى قلعة الطائف بالحجاز، وبعد أن بقي بها بضع سنوات وجد مقتولاً داخل القلعة. الزركلي «الأعلام»، (٧/ ١٩٥) - د. أحمد آق كوندز «الدولة العثمانية المجهولة»، (ص: ٤١٥-٤١٦).



• بداية النهاية للسلطان عبد العزيز:

في خضم هذا التطور كانت إنجلترا تسعى سعيًا حثيثاً لتولي الأمير مراد أفندي عرش الخلافة، ومدحت باشا منصبَ الصدارة، فكلاهما يرتبط بها ارتباطاً وثيقاً، فلقد كان مراد صديقاً شخصياً لولي عهد إنجلترا إدوارد السابع، وأما مدحت باشا، فكانت إنجلترا تُعدهُ رجلها في الدولة العثمانية، فهو متهم بأنه من يهود الدونمة^(١)، وماسوني له تاريخ سيء في حياة الدولة.

كما أن بريطانيا كانت تسعى لتعيين حسين عوني باشا^(٢) - ذي العلاقات الوثيقة معها - على رأس الجيش العثماني.

كل ذلك في الوقت الذي نشطت فيه أدوار مختلفة لتنظيمات، أهدافها واحدة، هو تقويض الدولة العثمانية، وإنهاء دور الخلافة، وكان على رأس هذه الأدوار دور الماسونية العالمية بدسائسها الشيطانية المظلمة، وحيلها الخفية، والتي استطاعت من قبل ومازالت السيطرة على رجالات كثير من دول العالم، وتوجيه دفة الحكم لمصلحة اليهود.

(١) يهود الدونمة: فرقة من اليهود حديثة، أظهرت الإسلام، وأبطنت اليهودية للكيد للمسلمين، سكنوا غرب الأناضول بعد أن طرد اليهود وفرارهم من الأندلس، فاستقبلتهم الدولة العثمانية، وبدلاً من أن يذكروا ذلك، ويشكروه للدولة العثمانية عملوا على إزالتها ودعم كل جماعة أو وسيلة تؤدي لذلك، حتى استطاعوا في النهاية أن يكونوا إحدى الأيدي في إلغاء الخلافة الإسلامية من سماء الدنيا.

أسسها يهودي يُدعى سيباتاي زيفي، وأصله يهودي إسباني، ولد سنة (١٠٣٥هـ / ١٦٢٦م) بالأناضول، ونشأ بها، وادعى في سنة (١٠٥٨هـ / ١٦٤٨م) أنه مسيح اليهود المنتظر، ومخلصهم الموعود.

اسمه الحقيقي مردخاي زيفي، وعُرف بين الأتراك باسم قراميتشته، وعندما استفحل خطره، وذاع أمره، اعتقلته السلطات العثمانية، وقدمته للمحاكمة، وحكم عليه بالإعدام لادعاءاته الباطلة، غير أنه اتخذ حيلة لينقذ نفسه بها وهي أنه أعلن الإسلام في ظاهره، وأبطن اليهودية والحقد على الخليفة وعلى الدولة، وارتدى زي المسلمين، وتسمى بمحمد أفندي، وطلب من جماعته أن يعلنوا الإسلام ويقبوا على يهوديتهم في الباطل، وكانوا يعتقدون بأن شيتاي هو المسيح المخلص لليهود، ويقولون إنَّ الجسم القديم لشيتاي صعد إلى السماء، ثم عاد في شكل ملاك يلبس الجلباب والعمامة ليكمل رسالته، وهم لا يصلون، ولا يصومون ولا يغتسلون من الجنابة، ويظهرون بعض الشعائر الإسلامية خداعاً منهم للمجتمع الإسلامي، ويجرمون نكاح المسلمين، ولهم أعياد متعددة منها: الاحتفال بإطفاء الأنوار وارتكاب الفواحش والعباد بالله، معتقدين أن مواليدهم تلك الليلة مباركون، ويكتسبون نوعاً من القدسية بين أفراد الطائفة.

يتزويون بزي خاص، فالنساء يتعلنن الأحذية الصفراء، والرجال يضعون قبعات صفية بيضاء مع لفها بعمامة خضراء، ومن سياتهم أنهم يحرمون المبادرة لغيرهم، ويهاجمون حجاب المرأة، ويدعون إلى التعليم المختلط، وهو كغيرهم من اليهود في صفاتهم الخبيثة وتظاهرتهم بالمسكنة، وعندما يتمكنون يفترون خصمهم.

ومن المؤسف أن لهم سلطاناً اقتصادياً وإعلامياً في تركيا برغم قتلهم، فمعظم الصحف انتشاراً في تركيا يملكونها، ويديرونها، مثل صحيفة حريت، ومجلة التاريخ، وصحيفة جمهوريت، وتواجههم الأكبر في تركيا.

سموا بالدونمة، قيل معنى الدونمة: ذو الوجهين، لأنه يأتي بوجه ويذهب بآخر، فدو معناها الإثنين، ونمة الوجه، وقيل: إن الدونمة مشتقة من المصدر التركي (دونمك)، بمعنى العودة والرجوع. للاستزادة راجع: «الدور السياسي لليهود الدونمة في تركيا»، د. أحمد نوري النعيمي، وكتاب: «العلاقات التركية اليهودية»، د. هدى درويش.

(٢) حسين عوني باشا: ولد في ولاية قونية سنة (١٢٣٦هـ)، تخرج ملازماً من المكتب الحربي (١٢٥٨هـ)، ترقى في الرتب العسكرية إلى أن وصل إلى رتبة فريق، سنة (١٢٧٨هـ)، ثم عُيِّنَ سر عسكر، عموم الجيش - رئيس الأركان - العثماني، وفي سنة ١٢٩٠هـ عُيِّنَ صدراً أعظم، ثم عاد بعد سنتين إلى منصب سر عسكر، إلى أن قُتِل وهو بهذه الوظيفة. د. إحسان حقي: تحقيق كتاب «تاريخ الدولة العلية العثمانية»، لمحمد فريد بك، (ص: ٥٨٣).



كما استدانَت الدولة ديوناً خارجية كثيرة وبلغت حداً لا يطاق، وواجهت الميزانية عجزاً يقدر بخمسة ملايين قطعة ذهبية^(١).

استغل البلغار هذه الأوضاع، فقاموا بعصيان وثورة كبيرة بدعم من روسيا، وقتلوا في مجزرة وحشية ألفَ مسلم من أهالي الطونة، وقامت الصحافة الأوروبية بنقل الخبر بشكل معاكس، حيث صورت أن المسلمين هم الذين قتلوا عشرات الآلاف من نصارى بلغاريا، وهدموا مئات القرى، وذلك في موجة دعائية جديدة معادية للمسلمين في أوروبا، مما رفع حالة التوتر في أوروبا بشكل كبير، وذلك كله بتدبير روسيا واليونان وقنصلي ألمانيا وفرنسا في سلانيك.

ومن المؤسف أنه في هذه الظروف وقف حسين عوني باشا متفرجاً على ما يجري، يدعمه مدحت باشا.

ثم عيّن السلطان عبد العزيز مترجم رشدي باشا صدرًا أعظم، بدلاً من محمود نديم باشا، وقد تقدم مترجم باشا وطلب من السلطان موافقة على وزارته التي شكلها، وقام فيها بتعيين الصدر الأعظم السابق المشير حسين عوني باشا رئيساً لأركان الجيش (سر عسكر)، وبذلك منح السلطان عبد العزيز أحدَ رجالِ بريطانيا وواحدًا من ألد خصومه رقبته.

لقد كان منصب سر العسكر يشتمل على صلاحيات وزير الدفاع في الحكومات الحالية، غير أنه خارج سلطته الأسطول والمعامل العسكرية، وكان ناظر البحرية قائد الأسطول قيصري أحمد باشا أحدَ المطيعين لحسين عوني باشا.

وصف المؤرخون الأتراك حسين عوني باشا وصفاً يدل على سوء طويته، فلقد ذكره المؤرخ يلماز أوزتونا بقوله: كان حسين عوني باشا ذكياً مثقفاً، يجيد لغةً أجنبية، ناجحاً عسكرياً منظماً ذا سيطرة؛ لكنه من عائلة سيئة، معقد، مسلط على أعراض الناس، مقامر، لص، لا يرحم، ظالم، حقود إلى درجة ليس لها نظير، تمكن من دس السم لمنافسيه شرواني

(١) بلغت الديون الخارجية على الدولة العثمانية في سنة (١٨٧٦م) مئتي مليون قطعة ذهبية. يلماز أوزتونا «تاريخ الدولة العثمانية»، (٢/ ٨١).



زاده ورشدي باشا، ومشير أسعد باشا وهم من الصدور العظام السابقين، كان عدواً لدوداً للبادِ شاه (السلطان)، وكان قد ذهب إلى لندن، وأسس بها علاقات. اهـ^(١).

كانت بريطانيا تخشى من سياسة السلطان البحرية، وتريد أن تنفرد - وحدها - بلقب صاحبة أكبر أسطول بحري في العالم، ولما وجدت أن السلطان استطاع أن يُنشئ أسطولاً ضخماً بهذا الحجم، وأن ينهض بالدولة، عملت على تجنيد رجال لها في صدارة الدولة، حتى تستطيع أن تنفذ أغراضها من خلاهم، لذلك أصابها ارتياح شديد عند تعيين حسين عوني باشا سر عسكر، كما أنها كانت تنتظر الخطوة التالية، وهي تعيين مدحت باشا صدرًا أعظم.

إن بريطانيا لم يكن حلمها فقط هو عرقلة حركة التقدم العلمي الكوني، ونهضة الدولة العثمانية، بل كان حلمها الأكبر هو القضاء على الخلافة، التي تمثل رمزاً لوحدة المسلمين، وإزالة الدولة العثمانية بالكلية.

وهذا ما عبر عنه وزير خارجيتها اللورد كارلندون في سنة (١٢٨١هـ / ١٨٦٥م) بقوله: إن الطريقة الوحيدة لإصلاح أحوال العثمانيين هي إزالتهم من سطح الأرض بالكلية^(٢).

ولقد شعر السلطان بمدى تأمر أوروبا الصليبية على الدولة، وخاصة بريطانيا، فاتخذ سياسة التعاون مع روسيا، وأكثر من الاجتماع مع سفيرها بالأستانة الجنرال أغناتيف، وبلغ ذلك مسامع أوروبا، وأن الدولة العثمانية وروسيا يسعيان لعقد معاهدة هجوم ودفاع مشتركين، مما دفع بريطانيا إلى سرعة التحرك لإبعاد السلطان عن سدة الحكم، وتعيين مراد أفندي الذي كان موالياً لها في مكانه.

• خلع السلطان (السابع من جمادى الأولى سنة ١٢٩٣هـ / الثلاثين من مايو ١٨٧٦م):

تحركت بريطانيا من خلال رجالها في الأستانة بنشر الأكاذيب بين الناس، من أن السلطان أصبح مسرفاً للغاية، وليس لديه الأهلية للتصدر للحكم، وكان السلطان قد تدخل في شؤون الحكم بشكل أوسع من سلطاته، مخالفاً بذلك تعليمات التنظيمات، وسبب تدخله

(١) يلماز أوزتونا «تاريخ الدولة العثمانية»، (٢/ ٨٣) / بتصرف.

(٢) إسماعيل ياغي «الدولة العثمانية» بتصرف.



هو عدم كفاءة الصدور العظام بعد عالي باشا، فكان ذلك إيذاناً بالتآمر عليه لعزله، فاجتمع مترجم محمد رشدي باشا الصدر الأعظم مع حسين عوني باشا ناظر الحربية، وأحمد باشا قيصر لي ناظر البحرية، ومدحت باشا، وشيخ الإسلام حسن خير الله أفندي، وقرروا جميعاً عزل السلطان.

فدبرت المؤامرة التي كان أولها فتوى شيخ الإسلام بعدم صلاحية سلطان المسلمين عبد العزيز وبوجوب خلعه؛ ثم كانت الخطوة الثانية، وهي توكيل حسين عوني باشا بإنهاء هذه المهمة، فدبر المؤامرة عن طريق سليمان باشا قائد المدرسة الحربية، والذي خدع الطلاب وكتيبتين من الجنود الذين أتوا من سورية قبل أيام، ولا يجيدون التحدث بالتركية، وتقدم هؤلاء الذين ظنوا أنهم قدموا لحماية السلطان من مؤامرة لاغتياله، كما تقدمت قوات من البحرية بأمر أحمد باشا قيصر لي لتحصن السراي السلطاني من جهة البحر، فعندئذ تعجب السلطان من هذه القوات في البحر وفي البر، دون سابق علمه، فأخبروه بأن ذلك من أجل حمايته من محاولة اغتيال مدبرة ضده، ثم تقدم سليمان باشا ليصحب السلطان معه حماية له - كما زعم - في قارب خاص، وتوجه به إلى سراي الطوبقابي، وهناك تبين للسلطان حقيقة الأمر عندما خلع^(١).

كان عوني باشا خبيثاً ماكراً، خطط مع مدحت باشا ورشدي باشا أنه في حالة فشل الانقلاب سيلقي بالذنب على سليمان باشا، وأنه هو المخطط لعزل السلطان، ويقوم بالقبض عليه فوراً، ويعدمه رمياً بالرصاص، وبذلك يُخفون المؤامرة، ويخرج عوني باشا أمام السلطان بالبطل الذي أنقذ عرش السلطان؛ فيبقى قائداً للجيش ما بقيت حياته.

• نهب السراي السلطاني «القصر السلطاني» ضولمه بهجة:

بعد خروج السلطان من قصر ضولمه بهجة مع سليمان باشا، جاء جمعٌ من الضباط والجنرالات مع الجنود، وقاموا بجمع التحف والجواهر الثمينة في القصر، وتم توزيعها بين كبار الضباط الذين اشتركوا في خلع السلطان، كما أرسلت مجموعة من الجواهر - التي يقدر ثمنها آنذاك بمليون قطعة ذهبية - إلى صراف السلطان المسمى: بمراد الرومي

(١) يلماز أوزتونا «تاريخ الدولة العثمانية»، (٢/ ٨٤).



خريستاكي ليقوم ببيعها للمتفرفين في باريس، والجزء من جنس العمل، إذ إن هذا الصراف ذهب إلى باريس ورجع، ولم يعطهم قرشاً واحداً.

كما أخذت النقود الذهبية المخصصة للسلطان، ووزعوها على الجنود في الجيش الأول، الذين شعروا بأنهم خُدعوا، وغُشوا، كما مُنح كلُّ ضابط من ضباط الجيش الأول في اليوم الثاني رتبةً أعلى من رتبته، وبذلك تمت المؤامرة على السلطان بيد رجال بريطانيا، الذين استطاعوا إدارة عملية الخلع بخبث ودهاء، وعلى رأسهم حسين عوني باشا قائد الجيش، والذي صرح مفتخراً لصحف أوروبا بأن المؤامرة على خلع السلطان لم يعلمها إلا ثمانٍ وستون شخصاً فقط، وأن الآخرين سُوقوا سوقاً إلى تدبير العملية بالخدعة، دون أن يعلموا حقيقة عملهم^(١).

لما علم حسين عوني باشا بنجاح الخطة، توجه مباشرة في عربة إلى مقر الأمير مراد أفندي، وأخذه معه إلى ديوان السر عسكرية، حيث كان بانتظارهما شيخ الإسلام والشريف عبد المطلب^(٢) وجميع أعيان الدولة من عسكريين ومدنيين، وقد أحاط الجنود بالمبنى، وتمت مبايعة السلطان مراد خان الخامس من جميع الحاضرين، وتحقق له ما كان يسعى إليه هو ووالدته وبريطانيا من تولي الحكم.

• مقتل السلطان عبد العزيز:

بعد خمسة أيام من خلع السلطان عبد العزيز دبر حسين عوني باشا مؤامرةً خبيثةً أخرى لقتل السلطان واتهامه بالانتحار، واتفق مع فخري بك خادم السلطان على أن يصرح بأن السلطان عبد العزيز قام بطرد والدته وجواريه من حوله، وأغلق باب الغرفة بعد أن حصل من خادمه على مقص لتهديب لحيته، وقد فُوجئ بعد ذلك بأنه قطع بهذا المقص شرايين يديه الاثنتين، وتعذر إنقاذ حياته بعد الدخول إلى الغرفة.

(١) يلماز أوزتونا «تاريخ الدولة العثمانية»، (٢/ ٨٥).

(٢) الشريف عبد المطلب: عبد المطلب بن غالب بن مساعد الحسني، من أمراء مكة، مولده ووفاته فيها، ولد سنة (١٢٠٩هـ)، وتلى إمارة مكة سنة (١٢٤٣هـ)، عُزل عنها بعد خمسة أشهر، وتوجه إلى إسطنبول، فأقام بها إلى (١٢٦٧هـ)، ثم أعادته الدولة العثمانية أميراً على مكة، واستمر إلى سنة (١٢٧٢هـ)، ثم وقعت فتنة بمكة، كان سببها منع بيع الرقيق، فعزلته الحكومة العثمانية، فغادر إلى إسطنبول، ومكث إلى سنة (١٢٩٧هـ)، فأعادته الحكومة إلى الإمارة، واستمر بها سنة (١٢٩٩هـ)، ثم فصل عنها بعد أن وليها ثلاث مرات. توفي بمكة سنة (١٣٠٣هـ). الزركلي «الأعلام»، (٤/ ١٥٤).

نحن لا نستطيع الوقوف على الصورة الحقيقية التي تمّ بها قتل السلطان، غير أننا ننكر تماماً أنه مات منتحراً، كما أعلنت الدولة ذلك في بيان رسمي، لم يصدقه الشعب، ولم يصدقه العسكر.

نحن نؤكد أن قصة انتحاره قصة مكذوبة، لأن السلطان لم تكن لديه الدوافع للانتحار، خاصة وأنه أقصي عن الحكم بمؤامرة، ولعلها تُخفي بعد أيام على يد الشرفاء، ويعاد مرة أخرى إلى السلطنة.

كما أن السلطان عبد العزيز عندما يقوم بقطع ويريد يده اليسرى بالمقص، كيف سيقوم بقطع شرايين يده اليمنى بعد ذلك؟! هذا أمر غير قابل للتصديق، كما ذكر أحمد جودت باشا المؤرخ.

كما أن رفض حسين عوني باشا إجراء تحقيق جنائي في هذه الحادثة، أو طلب تقرير طبي، يشير إلى أن السلطان قد قُتل.

ولم يذكر في التاريخ أن والده السلطان وجواريه قد سُئلوا عما قاله خادمه الخائن، بل الذي ذكر أنهم تعرضن إلى التعسف والضغط الذي بلغ لقلّة المروءة أن مدّ أحد الضباط يده إلى أم السلطان ليتنزّع قرطاً من أذنها^(١).

قُتل السلطان رحمه الله في صباح الثاني عشر من جمادى الأولى سنة (١٢٩٣هـ) / الرابع من يونيو (١٨٧٦م)، ولم يتجاوز عمره الثامنة والأربعين سنة هجرية، ودفن في مقبرة ديوان يلو (تربة) إلى جوار والده السلطان محمود الثاني.

• الجزء من جنس العمل^(٢):

لم يستمتع حسين عوني باشا بفعلته لأكثر من أيام معدودات، لم تدم أكثر من ستة عشر يوماً، حيث كان في اجتماع الحكومة ليلة الثالث والعشرين من جمادى الأولى سنة (١٢٩٣هـ) / الخامس عشر من يونيو (١٨٧٦م)، حيث اقترح البكباشي^(٣) جيركس

(١) أحمد آق كوندز «الدولة العثمانية المجهولة»، (ص: ٤١٤).

(٢) للاستزادة راجع: «تاريخ الدولة العلية العثمانية»، لمحمد فريد بك، حيث ذكر تفاصيل واسعة صفحة (٥٨٢-٥٨٤).

(٣) رتبة عسكرية توافق رتبة المقدم أو الرئيس الأول في زماننا.



حسن بك أخو زوجة السلطان عبد العزيز مكان الاجتماع، وأطلق من مسدسه النار مباشرة على حسين عوني باشا، وعلى ناظر الخارجية رشيد باشا^(١)، وأفراد آخرين، حيث أرداهم قتلى انتقاماً لخلع ومقتل السلطان عبد العزيز، وقد أفلت من هذه المقتلة مدحت باشا بقدر الله تعالى.

وسبحان من بيده ملكوت السموات والأرض، لتعيش الدولة بعد ذلك في دوامة هؤلاء القوم إلى أجل معلوم، قدّره الله تعالى.

(١) رشيد باشا بن حسن حيدر باشا، من الأعيان، كان والده مستخدماً للحكومة المصرية، ثم سافر إلى الأستانة أيام عباس باشا الأول، وقد أرسله والده إلى أوروبا مع الخديوي إسماعيل باشا، ولما عاد منها عُيِّن مترجماً؛ ثم ترقى في الوظائف الحكومية إلى أن بلغ رتبة الوزارة، وأحسن عليه بالنيشان العثماني الأول، قُتل وهو يشغل منصب وزير الخارجية. د. إحسان حقي: تحقيق كتاب «تاريخ الدولة العلية العثمانية»، لمحمد فريد بك (ص: ٥٨٣).

الخليفة الخامس والعشرون: مراد الخامس بن عبد المجيد الأول (١٢٩٣هـ - ١٢٩٣هـ) / (١٨٧٦م - ١٨٧٦م):

ولد السلطان مراد الخامس بن عبد المجيد في الخامس والعشرين من رجب سنة (١٢٥٦هـ / ١٨٤٠م)، وتلقى تعليماً جيداً كسائر من سبقه من السلاطين، وكان يجيد اللغات: العربية والفارسية والفرنسية، كما كان لديه إحاطة واسعة بالعلوم الكونية، وكان من المبهورين بالحضارة الأوروبية.

لم يشتهر عنه الاستقامة في حياته، بخلاف ما كان عليه الكثير من سلاطين آل عثمان، وقد لفت ذلك أنظار الأوروبيين أثناء زيارته أوروبا - مع السلطان عبد العزيز -، وقامت بينه وبين إدوارد ولي عهد بريطانيا علاقة صداقة حميمة، كما أسلفنا، تلقفته يد الماسونية، فانتسب إليها سنة (١٢٩٣هـ / ١٨٧٦م) متأثراً بشعاراتهم البراقة، وبشهواتهم المنحرفة، وأوعز بتأسيس محفل مراد بإسطنبول العاصمة.

فأصبح السلطان مراد الخامس رجلاً أوروبياً، ينتسب لثقافة أوروبا أكثر من أبيه، وكانت شخصيته على النقيض من شخصية عمه السلطان عبد العزيز، والذي ما إن تولى الخلافة حتى اتجه نحو الإسلام والعادات الشرقية العثمانية، ومما اشتهر عن السلطان مراد الخامس أنه كان يشغل أكثر وقته بالموسيقى الغربية، بل يجاهر بفعل المعاصي، حيث كان يسير بين الناس، وهو في حالات السكر.

تولى الخلافة والسلطنة في نفس اليوم الذي عُزل فيه السلطان عبد العزيز، وأصبح خاضعاً لجمعية (العثمانيين الجدد) الذين لم يبلغوا كل أمانيتهم، حيث قُتل حسين عوني باشا، ونجا مدحت باشا من القتل بأعجوبة، كما فقدوا تأييد الشعب لهم، وعندما علم السلطان مراد بمقتل السلطان عبد العزيز حدث له خلل في عقله، وكان من قبل قد أُصيب بشيء من ذلك يوم أن خلع السلطان، حيث ظن أن الجندي الذي قدم إليه يدعوه للجلوس على العرش إنما أرسل من قبل عمه عبد العزيز لاعتقاله بعد كشف المؤامرة^(١)، وازداد الأمر بشكل واضح بعد مقتل السلطان عبد العزيز، حيث إنه لم يأمر بذلك.

(١) كان السلطان مراد أحد المتآمرين على السلطان عبد العزيز، وقد اتفق مع البشوات على موعد بعينه لخلع السلطان عبد العزيز، ولهدف تكتيكي قَدَّمَ هذا الموعد ليوم واحد، ولم يُخبر مراد بذلك، وهذا يدل على أنه كان ألغوبة في يد جماعة (العثمانيين الجدد).



وهذا الأمر اضطر الوزراء إلى الاجتماع مع شيخ الإسلام، وتشاوروا في الأمر، ورأوا أن يعرض الأمر على عبد الحميد أفندي - ولي العهد وأخ السلطان - بأن تنقل إليه مقاليد الحكم، بعد أن حكم الأطباء بعدم لياقة السلطان مراد لمهام الدولة، وذلك في الحادي عشر من شعبان سنة (١٢٩٣هـ) / الحادي والثلاثين من أغسطس (١٨٧٦م)، وقرروا إقصاء السلطان مراد الخامس وخلعه، والبيعة للسلطان عبد الحميد خان الثاني رحمه الله، كما أخبروا والده السلطان مراد بذلك، وقد أجابت باستحسان فعل ما قرروه، وفي صباح الخميس الحادي عشر من شعبان استدعى مجلس الوزراء شيخ الإسلام خير الله أفندي، والعلماء والأمراء والأعيان، واستصعدوا فتوى شيخ الإسلام، والذي أفتاهم بذلك، وكان نص الفتوى سؤال من رجالات الدولة لشيخ الإسلام: إذا جُنَّ إمام المسلمين جنوناً مطبقاً، وفات المقصود من الإمامة، فهل يصح حل الإمامة من عهده؟

الجواب: يصحُّ، والله أعلم.

كتبه الفقير حسن خير الله، عفا عنه.

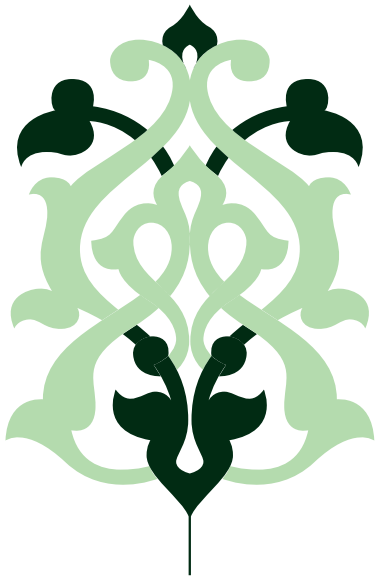
وبعد خلع السلطان مراد، قام أخوه لأبيه السلطان عبد الحميد بالإشراف على علاجه، حتى شفي تماماً، واستعاد قواه العقلية، وكان عبد الحميد يرعاه، ويقوم بشؤونه الخاصة، ويتدبر أمره، وتوفي السلطان مراد الخامس بعد ذلك بثمان وعشرين سنة من إنزاله عن الحكم، وذلك بسبب مرض السكر في سنة (١٣٢٢هـ) / أغسطس (١٩٠٤م)، ودفن في مقبرة بني جامع (الجامع الجديد)، وكانت فترة حكمه ثلاثة أشهر، وهي أقصر فترة تولى فيها خليفة أو سلطان للمسلمين عثماني الحكم، وهذا من لطف الله بهذه الأمة، ومن لطف الله به، إذ إنه اجتمع عليه أمران: الانحراف العقدي، والانحراف الخُلقي؛ فلو أنه ظل حاكماً فماذا يمكن أن يفعله بهذه الأمة؟! وكم من الأوزار والخطايا سيحملها في رقبته يوم القيامة؟! والله أعلم، ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ [الشورى: ١٩].



الفصل الثاني عشر



الخليفة عبد الحميد الثاني



تراجم الخلفاء العثمانيين (٦)

كان للدولة العثمانية درعاً اتخذته شعاراً لها وضعت خلاله رموزاً متنوعة لها دلالات معينة تدل على قوة الدولة.



وقد تطور هذا الشعار وحدثت به تعديلات بمرور الزمان والأحداث واستقر شعار الدولة بالتعديلات الأخيرة له في عهد السلطان عبد الحميد الثاني.

وقد احتوى الشعار على رموز لأسلحة كثيرة تمثل قوة الدولة العثمانية العسكرية، كالرمح، والرمح المزود ببيلتان في الجانب الأيمن للصورة، والسيف، والمدفع، والمرسة إشارة للبحرية العثمانية القوية، والبندقية البحرية.

كما حوى الشعار الراية الحمراء، وهي علم الدولة العثمانية منذ أن اتخذها السلطان عثمان غازي الأول، وهو نفسه علم تركيا.

وعن يساره الراية الخضراء وهي العلم ذو الأهلة الثلاثة والذي يمثل راية الخلافة الإسلامية.

كما أنه اتخذ في وسط الشعار من أعلى الطغراء السلطاني (توقيع السلطان) وهو طغراء السلطان عبد الحميد الثاني، ووضع أسفل منه داخل هلال عبارة باللغة العربية: المستند بتوفيقات الربانية ملك الدولة العثمانية؛ وهذا الهلال بعبارته يشير إلى حماية الدولة العثمانية لكل مسلمي العالم.

كما وضع بالدرع نياشين (ميداليات) مختلفة في أقصى اليمين النيشان المجيدي للسلطان عبد الحميد الأول، والذي كان يهديه للشخصيات الكبرى في الدولة والعسكرية خاصة تقديراً لهم، ويعد الأمير عبد القادر الجزائري أبرز القادة المسلمين الذين حصلوا عليه.

ثم يليه النيشان العثماني والذي ظهر لأول مرة في عهد السلطان عبد العزيز، وكان يمنح للموظفين المتميزين تشجيعاً لهم.

ثم تلاه نيشان الفخر والذي ظهر في عهد السلطان محمود الأول، ثم تلاه نيشان الامتياز العسكري، والذي ظهر في عهد السلطان عبد الحميد، ثم تلاه آخر النياشين جهة اليسار أسفل الدرع نيشان الرحمة، والذي ظهر لأول مرة في عهد السلطان عبد الحميد ليمنح للنساء اللاتي تقمن بأعمال ناجحة في مجال خدمة المجتمع والأعمال الخيرية.

كما وُضع أعلى هذا النيشان من جهة اليسار كتابان هما الأعلى القرآن الكريم، ويسمى الشرع الشريف، والذي كان أساس الشريعة المعتمدة في سن القوانين التي تحكم الدولة، والكتاب الذي أسفل منه يسمى بالقانون المنيف، وهي القوانين التي وضعتها الدولة العثمانية لتنظيم المجتمع بما لا يتعارض مع الشريعة الإسلامية كالقوانين العسكرية، والعقود، والعلاقات الدولية.

كما أنه وُضع في منتصف الشعار بين الرايتين مشهد لعامة السلطان فوق أقاليم الدولة التي تمثل قلب العالم.

الخليفة السادس والعشرون: عبد الحميد الثاني بن عبد المجيد الأول (١٢٩٣هـ - ١٣٢٨هـ) / (١٨٧٦م - ١٩٠٩م):

السلطان عبد الحميد الثاني بن عبد المجيد الأول، ولد بإسطنبول في شعبان سنة (١٢٥٨هـ) / سبتمبر (١٨٤٢م)، أمه شركسية الأصل، توفيت وهو في العاشرة من عمره، فتعهدت بتربيته برستو هانم كبيرة محظيات السلطان، وتقلدت مقام أم السلطان لمدة ثمان وعشرين سنة، اشتهر باسم السلطان حميد، وتلقى منذ الصغر تعليماً بالقصر كعادة السلاطين وأبنائهم، فأجاد علوم الإسلام والتاريخ والأدب والسياسة، كما أجاد التحدث بالعربية والفارسية، وكان خطاطاً، يجيد كتابة الخط العربي.

أتم دراسة «صحيح البخاري» خاصة في علم الحديث، ورغم ذلك كان صوفياً متنقلاً بين الطرق، مبتدئاً بالطريقة الشاذلية، ثم القادرية، ثم انتسب إلى الطريقة النقشبندية في أواخر عمره، ولقد كان ذلك أحد الطامات التي ابتلي بها السلطان عبد الحميد، اشتهر بين الناس، وعند الصوفية بأنه من أولياء الله، لمظاهر الصلاح والتقوى التي بدت عليه. صحب عمه السلطان عبد العزيز في زيارته الخارجية، وتعرف قادة ورجال الحكم في الشرق والغرب، فنشأ وكأنه يُعدّ لأن يكون من علماء الدين والدنيا.

انتسب إلى جمعية (العثمانيين الجدد) في أول تأسيسها، ثم تركها بعد أن كشفت له نواياها المضرة الخبيثة^(١).

ويعدُّ السلطان عبد الحميد من أكثر السلاطين شهرةً ومكانة في العالم الإسلامي والعربي خاصة، وذلك لقرب عهده بنا، ولموقفه من القضية الفلسطينية، ومحاولته تجديد دماء الخلافة، وإعادة مظاهر القوة لها، ولذلك كُتب عنه وعن مرحلة حكمه العديد من الكتب والبحوث التاريخية؛ وفي الحقيقة لا نستطيع هنا أن نتوسع بأكثر مما ينبغي، وسنمر مروراً عابراً على أهم الأحداث التي وقعت في عصره.

(١) أحمد آق كوندز «الدولة العثمانية المجهولة»، (ص: ٤٢١).



تولى السلطنة والخلافة في الحادي عشر من شعبان سنة (١٢٩٣هـ) / الحادي والثلاثين من أغسطس سنة (١٨٧٦م) بعد عزل السلطان مراد الخامس، فواجه تحديات عظيمة في الداخل والخارج، إلى أن عُزل بمؤامرة في السابع من ربيع الثاني سنة (١٣٢٧هـ) / السابع والعشرين من أبريل (١٩٠٩م).

• عهد السلطان عبد الحميد وأهم الأحداث في عصره:

مرَّ عصر السلطان عبد الحميد بمرحلتين أساسيتين:

• المرحلة الأولى: «مرحلة المشروطية الأولى»: (شعبان ١٢٩٣هـ - صفر ١٢٩٥هـ) / (أغسطس ١٨٧٦م - فبراير ١٨٧٨م):

تعدُّ هذه المرحلة مرحلة خطيرة في حياة الدولة، حيث إن مدحت باشا ورفاقه كانوا يتحكمون في أمور الدولة، وكان على السلطان الجديد أن يقوم بمداراتهم، وتحت ضغطهم أعلنت قوانين وتنظيمات جديدة، سميت: بالمشروطية، وهي التي حدَّدها مدحت باشا ومترجم رشدي باشا في ذي القعدة سنة (١٢٩٣هـ) / ديسمبر (١٨٧٦م).

في هذا الوقت كان مدحت باشا ورفاقه يدعمون حركات القوميات داخل الدولة، والجمعيات التي ظهرت تحت مسمى الجمعيات الأدبية والعلمية، والتي كان هدفها هو الانفصال بالولايات عن الدولة العثمانية، وكان معظمها جمعيات صليبية، وقفت وراءها الإرساليات والدول الأوروبية واليهود بمحافلهم الماسونية، وقد انتشرت في بيروت، وفي العاصمة إسطنبول، ونادت هذه الجمعيات في إسطنبول خاصة بالدعوة إلى العنصرية التركية، ودعمها في ذلك يهود الدونمة وأصحاب الأهواء والشهوات والنفعية.

وكان أشهر هذه الجمعيات جمعية تركيا الفتاة، والتي انتشرت أفرعها في برلين ووسلانيك والعاصمة إسطنبول، وكان مركزها في باريس، وقد شكلت هذه الجمعية في النهاية جناحاً عسكرياً سُمِّي باسم الاتحاد والترقي، وكانت لها علاقة مباشرة بالمحافل الماسونية، وانضم إليها الكثير من يهود الدونمة، الذين استطاعوا أن يتصدروا عدداً من المناصب الرئيسة في الدولة، بمساعدة الماسونيين العثمانيين، وعملوا على هدم ما تبقى منها.

كان على السلطان عبد الحميد أن يستوعب هذه الأحداث، وأن يفكر ملياً في كيفية التعامل معها، خاصة أنه لم يكن ذا خبرة كافية بأساليب السياسة، وخلال هذه المرحلة استقال مترجم رشدي باشا من منصب الصدارة بعد خلافه مع مدحت باشا، الذي تولى الصدارة في محله، لتبدأ معه مرحلة جديدة وقصيرة، ازدادت معها حركات العصيان والثورة في بعض إيالات (ولايات) الدولة العثمانية، مثل: الطونة (بلغاريا)، وإيالات البوسنة والهرسك، وكذلك كريت، كما أعلنت إمارتا صربيا وقره داغ العصيان، مما دفع الدولة إلى إرسال الجيش بقيادة الفريق غازي عثمان باشا، والذي استطاع الانتصار بسهولة على الجيش الصربي، الذي كان يقوده أحد قادة الجيش الروسي متنكراً.

دفع هذا الأمر روسيا إلى بتقديم مذكرة إلى الدولة العثمانية، معترضة على التدخل العسكري للدولة العثمانية في صربيا، وعلى أثر ذلك تم عقد مؤتمر ترسانة.

- مؤتمر ترسانة في إسطنبول:

عقد مؤتمر ترسانة في إسطنبول بين كل من الدولة العثمانية وإنجلترا وألمانيا وروسيا وفرنسا والنمسا والمجر وإيطاليا، وحاولت الدول الأوروبية -وبريطانيا خاصة- منع وقوع الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا، غير أن مدحت باشا ناصر إعلان الحرب، ولم يبال بما أعلنه قيصر روسيا الإكسندر الثاني إلى ميله لسياسة السلم^(١)، بل إنه لم يبال بمعارضة السلطان عبد الحميد لقرار الحرب، وازداد في طغيانه بأن ردّ عليه بجرأة، لا تنبغي في هذا المقام، وفي مثل هذه الأجواء - بين الأخذ والرد - أعلنت المشروطة الأولى في الدولة العثمانية.

- الدستور أو نظام الأساس (المشروطة الأولى):

قام مدحت باشا وعصابته بالضغط على السلطان للتوقيع على دستور جديد في البلاد، يقيد صلاحيات السلطان أكثر من أجل إنشاء نظام حكم ديمقراطي متوج^(٢)، وسميت هذه المشروطة بمشروطة (٩٣) نسبة للسنة التي أعلن فيها (١٢٩٣هـ / ١٨٧٦م).

(١) كان في روسيا آنذاك تيار يسمى بالرابطة السلافية، يضغط على الدولة من أجل وقوع الحرب.

(٢) المقصود بالديمقراطية المتوجة: هو الحكم الوزاري من الأغلبية في البرلمان، في ظل نظام ملكي أو سلطاني أو أميري أو رئاسي، تقيد فيه سلطات الملك، وتصبح سلطات البرلمان ورئيس الوزراء أوسع، وأقرب هذه الأنظمة المعاصرة لهذا النظام نظام الحكم في تايلاند وبريطانيا.



ظن مدحت باشا بعمله هذا أنه أَرْضَى سَيِّدَتِهِ بَرِيطَانِيَا وَبَقِيَّةَ الدُّوَلِ الْأُورُوبِيَّةِ، لَتَقِفَ إِلَى جَوَارِهِ فِي إِعْلَانِ الْحَرْبِ، لَكِنْ الْأَنْثَانِيَّةُ وَالْإِسْتِبْدَادُ بِالرَّأْيِ جَعَلَهُ لَا يَدْرِكُ أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يُرْضِهِمْ، وَأَنَّهُ سَيَكُونُ وَبَالًا عَلَيْهِ.

استمرت جلسات مؤتمر ترسانة في إسطنبول برئاسة صفوت باشا ناظر الخارجية -وزير الخارجية- إلى أول السنة الهجرية (١٢٩٤ هـ) والميلادية (١٨٧٧ م).

وبعد انتهاء المؤتمر شكل مدحت باشا مجلساً فوق العادة، يتألف من (٢٤٠) فرداً -ستون منهم من النصارى- بهدف مراجعة مقترحات المؤتمر، وابتدأ هذا المجلس باتهامه الموجه مباشرة إلى الخليفة، وإلى كل من يصوت ضد الحرب قائلاً: إنهم غير محبين لأوطانهم، بل هم خونة، كما هاجم روسيا بألفاظ نابية، لا يصحُّ أن تصدر من رئيس الحكومة في هذا الموطن أو في غيره، كما نالت الدول الأوروبية الأخرى نصيبها من سلاطة لسانه.

رفض هذا المجلس مقترحات مؤتمر ترسانة، وأعدَّ مدحت باشا العدة للضغط على السلطان، للتوقيع على دخول الحرب، فملأ الصحافة العثمانية الجديدة بالعناوين المحرصة على الحرب، كما وزع الأموال على العاطلين وطلاب المدارس الدينية، وساقهم في مظاهرات سارت إلى القصر السلطاني، تنادي بالحرب، كما ضغط بعض الوزراء كمحمود جلال الدين باشا، ومشير رديف باشا على السلطان بقولهم: إن الجيش عماد الدولة يطلب الحرب، وإن المعركة في صالحنا وإن روسيا سوف تنحدر، كما بينوا أن إنجلترا بكل حال ستقف إلى جوار الدولة العثمانية في الحرب من أجل مصلحتها.

وبرغم أن السلطان لم يقتنع بهذا إلا أنه لا يملك عندئذ السلطة والقوة التي توقف نداء الحرب؛ فلقد أدرك جيداً أن هؤلاء يمكن أن يقوموا بانقلاب مضاد، ويخلعوه، ويعيدوا السلطان مراداً مرة أخرى، فتزداد الأمور سوءاً، فاضطر إلى التوقيع بالرفض على مقترحات مؤتمر ترسانة، مما دفع سفراء الدول الأوروبية المشتركة في المؤتمر إلى ترك العاصمة والعودة إلى بلدانهم، بناءً على طلب دولهم بذلك، لتقف الدولة العثمانية وحدها وجهاً لوجه أمام روسيا.

عادت الدول الأوروبية الست التي سحبت سفراءها واجتمعت بلندن، ووقعت على بروتوكول لندن في السادس عشر من ربيع الأول سنة (١٢٩٤هـ) / الحادي والثلاثين من مارس (١٨٧٧م)، وعرضت على الدولة العثمانية شروطاً أخفّ من شروط مؤتمر ترسانة، يؤمّن للدولة حدودها، مقابل أن تقوم بالإصلاحات في مناطق البلقان لصالح رعاياها من النصارى، كما طالب المجتمعون كلاً من الدولة العثمانية وروسيا بالانسحاب بجيشيهما إلى الثكنات، فوافق القيصر على ذلك مقابل أن يتم إعطاء روسيا قضاءً قرّة داغ إرضاءً للرابطة السلافية التي تضغط عليه بدخول الحرب.

وهنا يتضح مدى جهل القائمين على الحكومة العثمانية، والذين لا يفرقون بين المصالح والمفاسد، فقاموا على الفور في السادس والعشرين من ربيع الأول سنة (١٢٩٤هـ) الموافق للعاشر من أبريل (١٨٧٧م) برفض طلب القيصر، دون التفكير فيما يمكن أن يترتب عليه من المفسدة التي وقعت على الدولة بعد ذلك، وما يمكن أن يتحقق من المصلحة بإعطائهم هذا القضاء الذي يعج بالنصارى، متذرعين بأن ذلك يخالف قانون الأساس، وبأنه مغاير له دستورياً، لتدق طبول الحرب التي ما كان ينبغي أن تخوضها الدولة العثمانية كما سيأتي.

كما أن هؤلاء رفضوا طلب رومانيا بالاستقلال، لتظل على الحياد - إذا وقعت الحرب - وذلك لجهلهم، وأدى ذلك إلى دفع رومانيا إلى أن ترمي في أحضان روسيا، وتكون خير معين لها أثناء الحرب، حتى تحقق النصر لروسيا.

- عزل مدحت باشا من منصب الصدارة ونفيه (٢١ محرم ١٢٩٤هـ / ٥ فبراير ١٨٧٧م):
كان مدحت باشا يدبر الدسائس من أجل خلع السلطان عبد الحميد، الذي صعبت سيطرته عليه، بل أصبح خصماً له^(١)، وعمل على إعادة السلطان مراد، الذي أشيع أنه شفي من مرضه، بدعوى أن عزله كان على غير وجه شرعي، كما أنه كان يريد إلغاء الخلافة وبقاء السلطنة العثمانية فقط.

(١) كان مدحت باشا أنانياً إلى درجة بعيدة، ويرتب كل الأمور من أجل مصلحته الشخصية، ولذلك أقام موائد الخمر، وناقش فيها أسرار الدولة المحظورة مع جلسائه، وحاول إخافة السلطان ورجالات الدولة، وكان يهدد دائماً بأن الصحافة البريطانية والصحافة العثمانية الجديدة رهن إشارته، وكان جاهلاً بالسياسة الخارجية، فارتكب أخطاء كبيرة وعديدة، ولذلك حاول مسرعاً عزل السلطان والتخلص منه، قبل أن يتمكن الأخير منه.



بلغ السلطان عبد الحميد ذلك - والذي كانت له عيون ممتدة في كل أنحاء الدولة - فعجّل بمدحت باشا قبل أن ينال من السلطان، وتمت محاكمته، وكانت أهم التهم التي وجهت إليه المشاركة في قتل السلطان عبد العزيز، وقد صدر الحكم بإعدامه، إلا أن السلطان خفف ذلك، وقام بنفيه إلى قلعة الطائف بالحجاز.

وسبحان من بيده ملكوت السماوات والأرض، فإن الجزء من جنس العمل، استند السلطان عبد الحميد في نفي مدحت باشا إلى المادة (١١٣) من القانون الأساس (المشروطة الأولى أو الدستور) التي أشرف على وضعها مدحت باشا بنفسه، وتنص على أن من ثبت عليهم - بتحقيقات إدارة الضابطة الموثوقة - أنهم أخلوا بأمنية الحكومة، يكون إخراجهم من الممالك المحروسة وإبعادهم عنها منحصراً بيد اقتدار الحضرة السلطانية.

وقد طبقت هذه المادة عليه، وتم نفيه، ثم كانت نهايته القتل في منفاه بعد عدة سنوات. ولم تدم صدارة مدحت باشا الثانية هذه أكثر من سبعة وأربعين يوماً، كما كانت صدارته الأولى أيضاً قصيرة، فكان مجموعهما معاً أربعة أشهر وستة أيام.

- نشأة مجلس المبعوثان أو البرلمان العثماني الأول:

بعد عزل مدحت باشا وتولي محمد أدهم باشا منصب الصدارة في مكانه تم إعلان قيام البرلمان العثماني الأول، في الرابع من ربيع الأول سنة (١٢٩٤هـ) / التاسع عشر من مارس (١٨٧٧م)، افتتح في سراي بشكطاش بخطبة لخليفة المسلمين السلطان عبد الحميد، الذي وضح فيها أسباب انحطاط الدولة وتأخرها بعد هذا المجد الذي كانت عليه، فبين الداء والدواء، وما يلزم من الإصلاحات في كل نواحي الدولة، وقيام العدل بين رعاياها^(١).

تشكل البرلمان العثماني الأول من مجلسين: الأول مجلس منتخب من جميع أنحاء الولايات، وأما الثاني، فهو مجلس الأعيان، الذين يتم اختيارهم من قبل الدولة. ومن المؤسف لو وجدنا لوراجعنا صفحات التاريخ لم يدركا حقيقة ما ألقى عليهما

(١) يراجع نص الخطبة من كتاب محمد فريد بك/ تاريخ الدولة العلية العثمانية (ص: ٥٩٤ - ٦٠٠).



من المسؤولية والواجب نحوها، بل لقد تعدى بعض النواب عليه، وأقاموا علاقات مع الدول الأجنبية لدعم أقليتهم في المجلس، وتقاضى هؤلاء الرواتب من تلك الدول، فأصبحوا خصوماً للدولة العثمانية التي هم نواب لها، فهناك نواب طالبوا بالتخلي عن جزيرة كريت ومنحها لليونان، وهناك آخرون طالبوا بإنشاء إمارة أرمنية نصرانية في شرق الأناضول، ثم جاءت الحرب العثمانية الروسية، وأدت في النهاية إلى إلغاء هذا المجلس.

– كارثة (٩٣)، (الحرب الروسية):

رفض الباب العالي (مجلس الوزراء) العثماني بروتوكول لندن، وطلب قيصر روسيا بضم إقليم قرة داغ له، فعندئذ بدأت روسيا تتخذ الإجراءات اللازمة لخوضها الحرب بدعم جميع الدول الأوروبية التي غنت جميعاً على نغمة الدفاع عن حقوق النصارى والأقليات في الدولة العثمانية.

قامت روسيا بتوقيع اتفاق سري مع رومانيا، التي مازالت تحت سيادة الدولة العثمانية، بموجبه يتم التعاون بينهما عند خوض الحرب، وقدمت روسيا بعد ذلك إنذاراً ومذكرة إعلان الحرب إلى الدولة العثمانية، وانطلقت الحرب في جمادى الآخرة (١٢٩٤هـ) / يونيو (١٨٧٧م)، واستمرت لأكثر من تسعة أشهر على جميع الجبهات، وانتهت في محرم سنة (١٢٩٥هـ) / يناير (١٨٧٨م).

لقد سارت الحرب سجلاً بين الفريقين، تحقق فيها النصر عدة مرات للدولة العثمانية، مثل انتصار بلونه الذي حقق فيها العثمانيون - بقيادة عثمان باشا - نصراً رائعاً لمرات متعاقبة على الروس، سميت بانتصارات بلونه^(١)، غير أن الخيانات من بعض اليهود والتحالفات الماكرة الأوروبية، ساهمت في تحقيق انتصارات عدّة للروس، انتهت بكارثة وهزيمة مروعة للدولة العثمانية، وهذا الذي توقعه السلطان عبد الحميد جراً هذه الحرب، التي صنعها في أول أمرها مدحت باشا ورفاقه.

(١) كانت خسارة الروس في بلونه وحدها خمسين ألف قتيل وجريح. يلماز أوزتونا «تاريخ الدولة العثمانية»، (١ / ١١١).



بلغت الكارثة أن وصلت الجيوش الروسية إلى أدرنة، وانطلقت منها نحو إسطنبول، حتى أصبح الروس على مقربة من العاصمة، مما دفع السلطان عبد الحميد للاتصال بملكة إنجلترا - الملكة فيكتوريا - للتوسط لإيقاف الحرب، فسارعت إنجلترا والدول الأوروبية للتدخل قبل سقوط العاصمة في يد الروس، وهيمتهم على التركة وحدهم، فضغطت على روسيا لتوقيع اتفاق بإيقاف الحرب.

- تعطيل مجلس النواب وتجميد المشروطة الأولى:

دعت هزيمة الدولة العثمانية في حربها مع روسيا السلطان عبد الحميد أن يقوم بحلّ البرلمان العثماني -مجلس المبعوثان- في صفر (١٢٩٥هـ) / فبراير (١٨٧٨م) بعد أن ثبت عدم فعالية المجلس في إدارة الأمور، كما أسلفنا، وكان السلطان عبد الحميد يدرك تماماً أنه على رأس دولة لم يحصل عليها عن طريق المصادفة، أو منحه إياها مدحت باشا وعصابته، وإنما هي خلافة، امتدت في التاريخ من زمان أبي بكر رضي الله عنه حتى وصلت إليه، وكان عليه أن يحافظ على ما تبقى منها، وأن يدعمها ويقويها، وأن يزيح العقبات التي تقف في سبيل ذلك، لذلك قام بحلّ هذا المجلس، وأنقذ الدولة لتستمر مرة أخرى في البقاء بفضل الله تعالى أكثر من ثلاثين سنة.

قال الأمير بسمارك رئيس وزراء الإمبراطورية الألمانية (النمسا آنذاك) وأكبر سياسي أوروبا في عصره: إن لم يكن قوام الدولة شعباً واحداً، فإن ضرر مجلسها يكون أكبر من نفعه. ١.هـ^(١).

لقد كانت الدول الأوروبية تعمل بالليل والنهار على تشكيل المجلس على ما تهوى، ليصبح المجلس وسيلة للضغط على الدولة، لقد كان المجلس مكوناً من مئتين وأربعين عضواً، منهم ستون عضواً من النصارى الذين يوالون بقلوبهم هذه الدول الأوروبية.

لقد كان ضرر هذا البرلمان ضرراً عظيماً، وفي استمراره مفسدة كبيرة على بقاء الدولة العثمانية، لذلك اتخذ السلطان عبد الحميد القرار بإلغاء هذا المجلس.

(١) يلهاز أوزتونا «تاريخ الدولة العثمانية»، (١/ ١١٨).



- مؤتمر سان إستفانوس (ربيع الأول ١٢٩٥هـ/ مارس ١٨٧٨م):

عقد هذا المؤتمر في بلدة قريبة من إسطنبول، تسمى إستفانوس، أو سان إستفانوس بين الدولة العثمانية الجريجة وروسيا المستأسدة، واضطرت الدولة أن توقع على اتفاق انتحار بالنسبة لها، إذ إن الاتفاق نصّ على استقلال رومانيا، وإمارة الصرب، وإمارة الجبل الأسود عن الدولة العثمانية، وتحديد الحدود بحسب الخرائط المقدمة من روسيا.

كما تحصل بلغاريا على الاستقلال الإداري عن الدولة العثمانية، على أن تدفع ضريبة سنوية إلى الدولة العثمانية، كما يكون جميع موظفي الدولة من النصارى فقط، ويتم ترسيم الحدود بينها وبين الدولة العثمانية بمعرفة العثمانيين والروس، كما يتأمر على البلغار أمير منهم، ينتخبه السكان، وينسحب الجنود العثمانيون من بلغاريا بشكل نهائي. كما تتعهد الدولة العثمانية بحماية النصارى الأرمن والأقليات من الأكراد والشركس المسلمين^(١).

كما تتعهد الدولة العثمانية بحماية نصارى جزيرة كريت، وتحسين أوضاعهم. وتقوم الدولة العثمانية بدفع غرامة حرب، تقدر بنحو مئتين وخمسة وأربعين مليون ليرة ذهبية^(٢)، وفي حالة عدم قدرة الدولة عن دفع الغرامة يمكن تعويض ذلك بأراضٍ، تمنحها الدولة العثمانية روسيا.

كما تفتح المضائق البحرية (البسفور والدردنيل)^(٣) أمام السفن الروسية التجارية والعسكرية في كل وقت، سلماً كان أو حرباً.

بعد أن تم توقيع الاتفاق بدأ يظهر الدور السياسي الكبير الذي لعبه السلطان عبد الحميد مع الدول الأوروبية، لتجميد العمل باتفاقية إستفانوس، لتبدأ مرحلة جديدة من حياة السلطان عبد الحميد والدولة العثمانية.

(١) والمتأمل في هذا يرى أن روسيا أرادت إحياء النزعات العنصرية بين المسلمين أنفسهم، لتفتت الدولة من الداخل، وكسب تأييد الأكراد والشركس، كما تفعل اليوم الدول المعادية للإسلام.

(٢) كانت الغرامة المقدرة ٢٤٥،٢١٧،٣٩١ ليرة ذهبية. محمد فريد بك «الدولة العلية العثمانية»، (ص: ٦٦٠).

(٣) تُعدّ هذه المضائق العثمانية السبيل الوحيد لوصول السفن الروسية إلى البحر الأبيض المتوسط.



خريطة البحر الأسود والمضايق

- المرحلة الثانية: (مرحلة الانفراد اللازم بالحكم): (صفر ١٢٩٥ هـ - ربيع الثاني ١٣٢٧ هـ)
(فبراير ١٨٧٨ م - أبريل ١٩٠٩ م):

بدأت هذه المرحلة في هذا الوقت العصيب في حياة الدولة العثمانية، يسميها البعض بمرحلة الاستبداد وإلغاء المشروطية، والصحيح أنها هي مرحلة الإبقاء على ما بقي من حطام الدولة والخلافة، إذ إن السلطان عبد الحميد أصبح يستقل بالقرار بنفسه، مخالفاً بذلك التنظيمات والمشروطية التي لم يلغها بصورة رسمية، إذ إن الدستور كان يمنحه صلاحيات محدودة شكلية، غير أن السلطان عبد الحميد رأى في استمرارها مضيعة للدولة، ولقد كان رأيه صواباً، إذ إنه بإعادة المشروطية مرة أخرى كانت قاصمة الظهر، وإنهاء الدولة، والقضاء على الخلافة في سنوات معدودة.

استمر هذا الدور في حياة السلطان لمدة ثلاثين سنة، مرت بالأمة أحداث عاصفة، وابتلاءات عظام.

وكانت بريطانيا يؤرقها ما اتخذ السلطان عبد الحميد من قرارات، عصفت بكل ترتيباتها وتخطيطها ودسائسها، لذلك كان عليها أن تعمل بشكل سريع للقضاء على السلطان عبد الحميد.

- مؤامرة علي سعاوي (صواوي): محاولة اغتيال الخليفة:

سعت بريطانيا كما أسلفنا للقضاء على السلطان عبد الحميد، وإعادة السلطان مراد إلى سدة الدولة، ولذلك استعملت علي سعاوي^(١) أحد رؤوس حركة تركيا الفتاة أو (العثمانيين الجدد) والذي كان متزوجاً من امرأة إنجليزية عميلة للاستخبارات البريطانية، اسمها: ماري، دفعت بريطانيا لعلي سعاوي الأموال عن طريق سفيرها اللورد أليوت، ليحرك بها انقلاباً جديداً ضد السلطان، ولعزله أو القضاء عليه، كما فعل بالسلطان عبد العزيز، واستخدم علي سعاوي المهاجرين القادمين من أوروبا إلى إسطنبول نتيجة للحرب الروسية، ومنحهم أموالاً كثيرة، فأحالوا إسطنبول إلى فوضى عارمة، اقتحموا خلالها السراي السلطاني المسمى: بجارغان، الذي كان يقيم به السلطان مراد الخامس، برغم وجود الجنود في كل مكان، وهذا دليل على خيانتهم للدولة وتآمرهم مع علي سعاوي في ربيع الآخر سنة (١٢٩٥هـ) الموافق لمايو (١٨٧٨م)^(٢).

استطاع حسن باشا أن يتناول عصا أحد الحراس، وأهوى بها على رأس علي سعاوي الذي كان يتأبط ذراع السلطان مراد خارجاً به من السراي، فقضى عليه.

وقفت ماري زوجة سعاوي الإنجليزية خارج السراي في مكان بعينه، تنتظر إشارة متفق عليها من جهة سراي جارغان، فلما لم تأت الإشارة، قامت بإحراق أوراق زوجها السرية، وهربت في سفينة أجنبية، كانت تنتظرها في الميناء، وذهبت بها إلى لندن، حيث تزوجت هناك بشخص أرمني، استقرت معه بعد ذلك في باريس.

ولما بلغ السلطان عبد الحميد هذا الحادث، غضب بشدة للتراخي في القبض على المرأة، وإحراقها الأوراق^(٣).

(١) علي سعاوي بخاري الأصل، أتى إلى الأستانة لطلب العلم، وقد استطاع الحصول على ذلك، وخاصة العلوم العربية التي أصبح على جانب كبير منها، غير أنه كان مفتوناً بأوروبا، فانضم إلى مجموعة (العثمانيين الجدد)، وأصبح أحد رموزها، يميل إلى إثارة الفتن وإلقاء الدسائس ضد الدولة، وفر إلى أوروبا عند تصدي الدولة لمجموعته، ومكث خارج البلاد لتسع سنوات، ثم رجع إلى العاصمة بمساعي مدحت باشا، وعين ناظراً على مكتب التعليم السلطاني الذي يربى فيه أبناء السلطان عبد الحميد، ثم عُزل لعدم كفاءته؛ فبدأ يدبر الفتن إلى جوار زوجته الإنجليزية ماري، إلى أن انتهى الأمر بمقتله وفشل مؤامره على السلطان. أحمد آق كوندز «الدولة العثمانية المجهولة»، يلماز أوزتونا «تاريخ الدولة العثمانية»، محمد فريد بك «الدولة العلية العثمانية».

(٢) راجع قصة المؤامرة كاملة من كتاب: «تاريخ الدولة العثمانية»، يلماز أوزتونا (١٩/٢).

(٣) قام الاتحاديون في سنة (١٩٠٩م) بحرق الأوراق الموجودة في سراي يلدر السلطاني، والتي تعلق بهذا الحادث مع وثائق أخرى هامة، تكشف حقيقتهم وتآمرهم على الدولة.

ولا يزال الأرشيف الإنجليزي يمتنع عن فتح أضياف هذا الأمر للمؤرخين، غير أنه من المؤكد أن ماري زوجة سعاوي كانت تعمل لدى المخابرات الإنجليزية. يلماز أوزتونا «تاريخ الدولة العثمانية»، (١٩/٢).



شاء الله سبحانه وتعالى أن تتم السيطرة على هذه المؤامرة خلال ساعتين، وترتب على ذلك أن قام السلطان عبد الحميد الثاني بإنشاء جهاز الأمن السري التابع له، أو ما يسمى بمنظمة التحريات الخفية، مما جعله يستطيع أن يمسك بزمام الأمور في الدولة.

- موقف الدول الأوروبية من معاهدة إستفانوس:

كانت الدول الأوروبية برغم سرورها بهزيمة الدولة العثمانية تخشى انفراد روسيا وحدها بتركة العثمانيين.

فبريطانيا أقلقها فتح المجال البحري للسفن الروسية الذي وقع في معاهدة إستفانوس، فهي تخشى من وصول الأسطول الروسي إلى البحر المتوسط، وتنطلق إلى المياه الدفينة في المحيط الهندي، لتنافس بريطانيا في مستعمراتها في الشرق.

وأما النمسا، فكانت تسعى سعيًا حثيثًا لضم واحتلال مقاطعتي البوسنة والهرسك، لذلك جاء دور السلطان عبد الحميد السياسي والدبلوماسي في تحريك هذه الدول لتجميد هذه المعاهدة.

واستغل السلطان هذا الموقف الأوروبي - والبريطاني منه خاصة - للمطالبة بإعادة النظر في معاهدة إستفانوس، واختلفت بريطانيا مع روسيا اختلافًا واسعًا في ذلك، بلغ إلى حد أن أوشكت الحرب أن تقع بينهما، وكانت روسيا تدرك تمامًا أن بريطانيا ليست وحدها في ذلك، وإنما تؤيدها الدول الأوروبية الكبرى.

تقدمت بريطانيا في تلك الأثناء بطلب عقد معاهدة دفاعية بينها وبين الدولة العثمانية، كما طلبت من الدولة العثمانية إنزال قوات بريطانية في جزيرة قبرص، وإدارة شؤونها (احتلال)، بحجة حماية النصارى بها، فوافقهم السلطان عبد الحميد على ذلك في مناورة سياسية بارعة، على أثرها تم توقيع معاهدة برلين، وإلغاء معاهدة إستفانوس.



وكان هدف بريطانيا هو السيطرة على المواقع الهامة شرق البحر المتوسط، لتجعله بحيرة إنجليزية، وهو البحر المؤدي إلى الهند، عن طريق قناة السويس، وكانت الهند تمثل لبريطانيا الروح من الجسد؛ ولذلك عملاً على منع دخول الروس إلى البحر الأبيض المتوسط تأميناً لمستعمراتهم في الشرق، وقد أدرك السلطان عبد الحميد هذا الأمر تماماً، لذلك تخلى عن قبرص للإنجليز دفعاً لهذه المفسدة العظيمة، وجلباً للمصلحة العامة للأمة، وإبقاءً على ما تبقى من الدولة، وهذا فقه، لا يدركه العلمانيون والليبراليون الذين كانوا سبباً في حرب روسيا (١٢٩٣هـ).

- معاهدة برلين: (١٣ رجب ١٢٩٥هـ / ١٣ يوليو ١٨٧٨م):

قامت النمسا مؤيدة من بريطانيا بالدعوة إلى مؤتمر برلين، والذي اشتركت فيه الدولة العثمانية وألمانيا وإنجلترا وفرنسا والنمسا والمجر وإيطاليا وروسيا، واجتمع المؤتمر في نحو عشرين جلسة، عقدها المؤتمر لمدة شهر كامل، وخرجوا بمعاهدة، تألفت من أربع وستين مادة، مثلت آخر اتفاقية تم فيها تعديل الحدود الجغرافية السياسية لأوروبا في القرن التاسع عشر الميلادي، بعد اتفاقيات فيينا وباريس وفرساي.

كما كانت هذه الاتفاقية سبباً في امتداد عمر الدولة العثمانية في البلقان لخمس وثلاثين سنة تلتها.

وتعدّ معاهدة برلين - رغم ذلك - أسوأ معاهدة، وقعت عليها الدولة العثمانية في تاريخها، بعد معاهدة إستفانوس، غير أن كلتا المعاهدتين توضحان الفرق بين عقلية مدحت باشا، الذي كان سبباً في كل ما جرى، وبين توفيق السلطان عبد الحميد الثاني في إدارة دفة أمور الدولة.

كان من أبرز ما ترتبت عليه معاهدة برلين أنها لم تُعطِ روسيا إلا شيئاً يسيراً، لا يعوضها عن نفقاتها وتضحياتها الكبرى، مما أغضب روسيا، وجعلها تصاب بالشعور بالخيبة.

كما ألزمت الاتفاقية الدولة العثمانية إجراء إصلاحات في ست ولايات في الأناضول الشرقية لصالح الأرمن، وفي ثلاث ولايات في أوروبا لصالح البلقان، وهذا ما لم يطبقه



السلطان عبد الحميد أبداً في حياته؛ لذلك عملوا جميعاً ضده، لكنهم لم يتمكنوا من توحيد مصالحهم لإجباره على تطبيق المادتين، وذلك بفضل الله، ثم بمهارة عبد الحميد السياسية تجاه هذه القضايا.

كما خفضت الاتفاقية غرامات الحرب التي تسدّها الدولة العثمانية إلى روسيا إلى خمسة وخمسين مليوناً بدلاً من مئتين وخمسة وأربعين مليوناً، وتدفع على أقساط، قدر كل منها ثلاثمائة وخمسون ألف قطعة ذهبية، وقام السلطان عبد الحميد بسدادها كاملة، وبدقة طوال مدة سلطنته!!! رحمه الله.

تعدّ هذه الاتفاقية المرحلة الثانية بعد معاهدة كارلوفيتس (كارلوفجة)^(١) في تصفية الدولة العثمانية من أوروبا، وتحجيمها تحجيماً قوياً، حتى تأتي بعد ذلك التصفية النهائية في معاهدة لندن سنة (١٣٣٢هـ / ١٩١٣م) كما سيأتي، إذ إن اتفاقية برلين منحت رومانيا وصربيا والجبل الاستقلال التام، كما ألحقت ولاية البوسنة والهرسك بالنمسا، وجعلت بلغاريا تحت الحكم الذاتي.

لقد دفعت الدولة العثمانية كل هذه المساحات من الدولة، والنفقات دون الدماء الزكية التي أريقَت لأبنائها، بسبب رفض تسليمها الجبل الأسود (قرة داغ) إلى روسيا، وموافقة قيصر روسيا على طلبه، وهذا يدل على مدى الضلال وعدم التوفيق لأولئك الرجال الذين رأوا في أنفسهم أنهم فوق الشريعة، وأنهم قادرون على توجيه الدولة وتطويرها، فأصبحوا وبالاً عليها، وأهلكوها، وفي هذا بيان لكل علماني وليبرالي ينتسب زوراً إلى أمتنا الإسلامية، ويعمل على تحطيم أركان الحكم في عالمنا الإسلامي، ويظن في نفسه أنه وحده القادر على تسيير الأمور، فعليه أن يأخذ العبرة من هؤلاء، وممن تبعهم في مسلكهم في العالم العربي والإسلامي، أين وصلوا بدولهم؟ وكيف أصبحت خراباً؟ بعد أن كانت تملأ أسماع الدنيا.

كان من أعظم ما ترتب على معاهدة برلين تشتيت مسلمي بلغاريا، حيث فرّ نحو مليون منهم، وتركوا أوطانهم، وسكنوا في مناطق إسطنبول وبروصه والأناضول الغربية، كما ذبح قبل ذلك أثناء الحرب الروسية منهم ما يقارب النصف مليون على يد الروس والبلغار.

(١) راجع الخليفة الرابع عشر: مصطفى خان الثاني.

قال محمد فريد بك: أما ما تحمله المسلمون من أنواع الإيذاء والتعدي - من قبل البلغاريين - بمجرد سماعهم باقتراب الجيوش الروسية، فمما يعجز القلم عن وصفه، ولذا هاجر أغلب المسلمين إلى الأستانة هرباً مما كانوا ينتظرونه، ووقع فيه فريق منهم من النهب والقتل، وتركوا أملاكهم وأمتعتهم قاصدين ملجأ الخلافة الإسلامية^(١).

لقد خسرت الدولة العثمانية مساحات هائلة في أوروبا مجموعها ٢٩٨,٢١٧ كم^٢ إلى جانب ما خسرت في قارة آسيا.

يقول الأستاذ يلماز أوزتونا: كانت كل هذه الخسارة المخيفة نتيجة العمل غير الشريف الذي حققته الزمرة الموتورة في واقعة السلطان عبد العزيز^(٢).

- آثار معاهدة برلين على الدولة العثمانية:

لا شك أن معاهدة برلين كانت معاهدة مجحفة بالدولة العثمانية، إلا أنها كانت أهون بكثير من معاهدة إستفانوس، مما قدره الله سبحانه وتعالى لإطالة عمر الدولة بعد ذلك، حتى تبقى الخلافة إلى سنة (١٣٤٢هـ / ١٩٢٤م).

وكان من أهم آثارها المباشرة أنها دفعت الأرمن للتجرؤ على إنشاء وطن قومي لهم في قلب الدولة العثمانية، واستطاعت الدولة أن تواجه حركات الأرمن، التي قاموا فيها بالذبح والتقتيل للمسلمين، وأن تشل أيديهم عن الأبرياء، وقمع اضطراباتهم بقوات الأفواج الحميدية^(٣)، التي شكلها السلطان بنفسه، مما دفع الأرمن في أوروبا إلى أن يصفوه بالسلطان الأحمر، كما سيأتي، كما وصفه بذلك خصومه من جمعية الاتحاد والترقي، وأنصارهم وهم الذين ذاقوا بعد ذلك ويلات الأرمن، وكانت الدول الكبرى تتسابق لاستغلال قضية الأرمن، وعلى رأسها روسيا وإنجلترا وفشلها في ذلك.

(١) «الدولة العلية»، (ص: ٦٣٩-٦٤٠).

(٢) «تاريخ الدولة العثمانية»، (٢/ ١٢٥).

(٣) الأفواج الحميدية: أنشأها السلطان عبد الحميد بفرمان صدر في سنة (١٣٠٩هـ / ١٨٩١م)، وهي قوات محلية في الشرق، تعمل على حماية الشعب من المؤامرات الأرمنية، وتعيد سيطرة السلطة المركزية للدولة، كما أنها تقوم بجمع المتطوعين من أبناء مناطق الأكراد خاصة، وشرق الأناضول، وقد لعبت دوراً كبيراً في استقرار المنطقة، بل أن الشعوب المسلمة شرق تركيا اليوم من الأكراد وغيرهم يدينون الله سبحانه ثم للسلطان عبد الحميد ببقيائهم في أوطانهم إلى هذه الساعة، إلى أن ألغيت على يد حكومة الاتحاد والترقي بفرمان رسمي سنة (١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م). أحمد آق كوندز «الدولة العثمانية»، المجهولة (ص: ٤٣٩-٤٤٠).



- الاحتلال الصليبي الفرنسي لتونس (١٢٩٧هـ - ١٨٨١م):

أرادت فرنسا ألا تضيعَ عليها فرصة مؤتمر برلين، دون الحصول على شيء من الغنائم، فاستغلت وجودها في المؤتمر بالتفاهم في الخفاء مع بريطانيا على احتلال تونس، خاصة وأن فرنسا محتلة للجزائر المجاورة لتونس، وكانت عينها دائماً على تونس، كما أن إيطاليا كانت تطمح في أخذ نصيبها أيضاً من التركة العثمانية باحتلال تونس، لذلك سبقتها فرنسا بإرسال ثلاثة وعشرين ألف جندي لها من الجزائر، وثمانية آلاف عن طريق البحر، واستطاعت أن تنتصر على الحامية العسكرية قليلة العدد في تونس، وتم توقيع معاهدة قصر سعيد، أو معاهدة Bardo، لتلتهم فرنسا تونس، وتدخلها تحت حمايتها، لتفقد تونس تبعيتها لدولة الخلافة الأم، بعد نحو نصف قرن من فقدان الجزائر.

ولم تعترف الدولة العثمانية بهذا الاحتلال، بل احتجت على ذلك لدى فرنسا، وأرسلت أسطولاً عثمانياً لمساعدة محمود صادق باشا أمير تونس، غير أن الفارق في القوة والعدد بين الأسطولين: العثماني والفرنسي دفع الأسطول العثماني للتقهقر والتراجع إلى جزيرة كريت، وظلت الدولة العثمانية تعدّ تونس جزءاً منها، ولم تقرّ لفرنسا بالاحتلال.

- الاحتلال الصليبي البريطاني لمصر^(١):

بعد عام من الاحتلال الفرنسي لتونس واجهت الدولة العثمانية ضربة قوية ثانية في مسلسل ومخطط تقاسم القوى الصليبية الأوروبية لولايات الدولة العثمانية، فلقد توجهت بريطانيا نحو مصر، وكانت قد استطاعت أن تشتري أسهم مصر في قناة السويس، مقابل سداد جزء من ديون مصر، التي أثقلت كاهلها لبريطانيا^(٢)، واستغلت بريطانيا

(١) كانت مصر آنذاك تشمل كل من مصر حالياً والسودان وأريتريا وشمال أوغندا. راجع الأمير عمر طوسن «تاريخ مديرية خط الاستواء المصرية».

(٢) الديون المصرية واحدة من أسوأ الآثار لمدحت باشا والذي منح مصر فرماناً يميز لها الاقتراض من الخارج، فبدأ الخديوي إسماعيل تحت حجة تحديث الدولة يقترض مبالغ ضخمة من فرنسا وإنجلترا، بلغت مئة مليون جنيه ذهبي خلال عشر سنوات فقط، وهو مجموع ديون الدولة العثمانية برمتها آنذاك، بعد أن استطاع السلطان عبد الحميد أن يخفضها، مما ترتب عليه في النهاية الاحتلال الإنجليزي لمصر لعدم قدرتها على السداد، رغم أن الخديوي إسماعيل باع أسهمه الشخصية في قناة السويس للإنجليز، ولم يجد ذلك شيئاً ولا نفعاً، كما أن تدخل السلطان عبد الحميد بعزل الخديوي إسماعيل، وتعيين ابنه توفيق بن إسماعيل في مكانه لم يجد نفعاً.

وكان الخديوي إسماعيل - الذي درس بالأكاديمية الحربية في باريس - قد طلب من السلطان بعد عزله الإذن للإقامة في إسطنبول وإدارة أملاكه الخاصة هناك، فأذن له السلطان بذلك؛ فانتقل الخديوي إسماعيل إلى قصره الكائن في حي بايزيد في إسطنبول (قصر إمبر جان)، وظل بها إلى أن مات في الثاني من مارس (١٨٩٥م) عن عمر تجاوز الخامسة والستين سنة.

عدم قدرة مصر على سداد ديونها؛ فتذرعت بهذا الأمر، وهاجمت مصر بقوات عسكرية ضخمة، استطاعت احتلالها بعد هزيمة قوات أحمد عرابي باشا^(١) قائد الجيش المصري في معركة التل الكبير في مصر، وذلك في ذي القعدة (١٢٩٩هـ) / سبتمبر (١٨٨٢م)، ف وقعت مصر فريسة للاحتلال الصليبي البريطاني، وتحقق لبريطانيا ما كانت تسعى إليه بسياستها الرامية إلى عدم السماح بوقوع مصر في يد دولة أوروبية أخرى، تحول دون وصولها إلى مستعمراتها في الهند، مستغلة بذلك حالة الضعف، والوهن الذي أصاب الدولة العثمانية، وهكذا بدأ قلب العالم الإسلامي -بلاد العرب- يخرج شيئاً فشيئاً من يد الخلافة العثمانية، والتي لم يحافظ عليها مدعو الحرية والحداثة من (العثمانيين الجدد)، حتى خرجت الخلافة نفسها من عالمنا، إلى أن يشاء الله بإعادتها مرة أخرى، كما بَشَّرَ النبي ﷺ.

- قضية الأرمن: (١٣١٣هـ : ١٣١٤هـ / ١٨٩٥م : ١٨٩٦م):

تعدّ قضية الأرمن واحدةً من أهم المشكلات التي واجهها السلطان عبد الحميد في عهده، وقد أعطاهم التوقيع على اتفاقية برلين الفرصة في أن ينالوا من سلطان الدولة في شرق الأناضول، من أجل الحصول على دولة أرمنية^(٢) مستقلة عن الدولة العثمانية، فتجرؤوا،

(١) أحمد عرابي باشا: أحمد عرابي بن محمد عرابي بن محمد وافي بن محمد غنيم، يتصل نسبه إلى الحسين بن علي رضي الله عنهما، ولد سنة (١٢٥٧هـ / ١٨٤١م) في قرية هرية روزنة بالقازيق بمحافظة الشرقية بمصر، درس بالأزهر، ثم انضم جندياً إلى الجيش المصري سنة (١٢٧١هـ) وتنقل في الرتب العسكرية حتى بلغ رتبة أميرلاي في زمن الخديوي توفيق، اعتقل على أثر خلاف مع الخديوي توفيق، مما دفع الضباط والجنود لإخراجه من سجن ديوان الجهادية (الحربية)، وبعد عدة أحداث في مصر أصبح عرابي وكيلاً لِنظارة الجهادية، وعين برتبة لواء، ثم بعد ذلك عين ناظراً للجهادية (وزير الحربية). ثم وقعت أحداث دامية في مدينة الإسكندرية، قتل على أثرها جمع من القناصل والأجانب، فهددت بريطانيا بالدخول إلى مصر، مما دفع أحمد عرابي أن يقود الجيش للدفاع عن مصر، غير أنه هُزم بجيشه أمام الإنجليز في معركة التل الكبير، وتم نفيه إلى جزيرة سيلان (سرنديب أو سيرلانكا)، (١٣٠٠هـ / ١٨٨٢م)، حيث استقر هناك لمدة تسع عشرة سنة، ثم صدر عفو عنه في زمان الخديوي عباس سنة (١٣١٩هـ)، فعاد إلى مصر، وتوفي بها في سنة (١٣٢٩هـ / ١٩١١م). «الأعلام»، الزركلي.

(٢) أرمينيا أو هاياستان: منطقة جبلية تقع في شرق الأناضول بالقوقاز في أقصى غرب آسيا، وأقصى شرق أوروبا، ظلت تابعة للدولة العثمانية كاملة إلى الحرب العالمية الأولى، وقد قامت الدولة العثمانية بنقل الكثير من الأرمن إلى مناطق بعيدة عن الصراع العسكري أثناء الحرب، كإجراء وقائي، وحماية لهم ولها، أي: حماية للدولة من شرهم، وحماية لهم من آثار الحرب، وقد استطاعت روسيا السيطرة على أغلب مناطقها الشرقية، فدخلت مع جورجيا وأذربيجان في اتحاد سمي: بجمهورية القوقاز الاتحادية الديمقراطية، ثم تم حل هذا الاتحاد، وأصبحت أرمينيا جمهورية مستقلة، إلى أن وقعت الحرب التركية الأرمنية سنة (١٩٢٠م)، واستطاعت الدولة العثمانية استعادة أرمينيا لها، ثم دخلت بعد ذلك معظم الأراضي الشرقية مرة أخرى ضمن الاتحاد السوفيتي الشيوعي جنباً إلى جنب مع جورجيا وأذربيجان، وتم إطلاق اسم جمهورية القوقاز السوفيتية الاشتراكية عليهم جميعاً (١٩٢٢م)، وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي استطاعت الاستقلال في سنة (١٩٩١م)، ومازال الصراع بينها وبين جاراتها على حدود الدولة قائماً، وخاصة النزاع على إقليم ناجورني كراباخ بينها وبين أذربيجان، والذي أدى إلى وقوع الحرب بينها إلى أن تم وقف إطلاق النار بينها (١٩٩٤م)، وتعدّ أرمينيا من الدول الفقيرة، التي مازالت تعمل على إيجاد مكانة لها بهذا الصراع العالمي.



وقاموا بالاعتداء على الأبرياء والجنود العثمانيين في مذابح وقتل لم يسبق له مثيل، ودفع ذلك السلطان عبد الحميد إلى إرسال قوات الأفواج الحميدية التي شكلها ونظمها، فاستطاعت أن تقمع هذه الاضطرابات، واتخاذ الإجراءات والتدابير التي أوقفت شرهم، بعد أن ظنوا أن هيبة الدولة قد سقطت بتوقيعها اتفاق برلين، ولذلك أطلقوا على السلطان عبد الحميد (السلطان الأحمر)، وقد ترنم بهذا اللقب خصوم السلطان من الاتحاد والترقي، وظلوا يطلقونه على السلطان، رغم ما عانوه بعد ذلك من الأرمن.

وكان السلطان عبد الحميد قد التزم بموجب مواد اتفاقية برلين بإجراء إصلاحات في ما يسمى بالولايات الست^(١)، يستفيد منها الأرمن، مع إشراف الدول النصرانية الكبرى على تنفيذ ذلك.

كانت هذه الدول -وعلى رأسها بريطانيا- تعمل على نشر القلاقل داخل الدولة العثمانية، واستغلت كل فرصة يمكن من خلالها النفاذ لتفتيت الدولة، ومن ذلك ما قامت به المخابرات البريطانية منذ سنة (١٢٢١هـ / ١٨٠٦م) من نشر مخبراتها وعملائها من أجل مساعدة الأرمن وكسب الأكراد أيضاً إلى صفهم.

كما لعبت روسيا أيضاً دوراً مماثلاً لعصيان الروم للدولة، وكان لفرنسا وأمريكا وإيران دور يطول ذكره، كما أن الدور الخفي الخبيث الدائم للأفعى اليهودية كان له أثر، وعلى صدى ذلك أسس الأرمن جمعية تسمى: (خنجاق) في سويسرا بدعم من الدول الأوروبية في سنة (١٣٠٣هـ / ١٨٨٦م)، عملت هذه الجمعية على تجييش الأرمن، ومدّهم بالمال والتدريب والسلاح لتصفية المسلمين في شرق الأناضول، وأصبحت هي المسؤولة الأولى عن المذابح التي وقعت من الروم للأبرياء من المدنيين والجنود العثمانيين هناك، قاموا بعمل هذه المذابح وداهموا مئات القرى المسلمة، واستباحوا دماء الصغار والكبار من النساء والأطفال، بدعوى الحصول على الاستقلال عن الدولة العثمانية، وتطهير المنطقة من المسلمين^(٢).

(١) يقصد بالولايات الست: أرض روم، وديار بكر، وسيواس، وخربوط (معمورة العزيز)، ووان، وباتليس، وكلها تقع في الأناضول.

(٢) هذا تماماً دأبهم في كل زمان ومكان، فمهما ادعوا الحرية، وحرية الشعوب في تقرير المصير، فإن الدول الصليبية وعلى رأسها هولندا، بقواتها المشاركة ضمن قوات الأمم المتحدة لحفظ السلام، وقفوا متفرجين، بل وداعمين للمذابح الجماعية التي وقعت للمسلمين في البوسنة والهرسك، وخاصة في سرينيتسا، فيها سمي بالتطهير العرقي لهذه المناطق من المسلمين.

وهذا الذي دفع السلطان عبد الحميد إلى أن يرسل إليهم القوات الحميدية، لتقمع هذا الإرهاب الأرمني، فاستطاع مشير زكي باشا القائد العثماني أن يقوم بمهمته على خير وجه، مما أثار غضب الدول الأوروبية، وخاصة فرنسا^(١)، حتى أطلق الكونت ألبرت وندال عضو الأكاديمية الفرنسية لقب السلطان الأحمر على السلطان عبد الحميد، والذي أخذه منه الاتحاديون، وترنموا به بعد ذلك، وكتبوه في المناهج التعليمية الرسمية بعد إلغاء الخلافة.

والجزء من جنس العمل، فلقد وصفت الدول الأوروبية الاتحاديين بهذا اللقب بعد ذلك، أي: بأنهم دمويون، مدعية أن الاتحاديين قاموا بتهجير الأرمن وبذبحهم في مذابح جماعية (١٣٣٣هـ / ١٩١٥م) فيما أسموه بمذابح الأرمن، والذي نشأت عنه المشكلة الأرمنية، وسبحان الحكم العدل الذي بيده ملكوت السموات والأرض.

– محاولة اغتيال السلطان عبد الحميد الثانية: (١٩ جمادى الأول ١٣٢٣هـ / ٢١ يوليو ١٩٠٥م):

كان الحقد الدفين في صدور الأرمن على السلطان عبد الحميد دافعاً قوياً لمحاولة اغتياله من جهة الأرمن؛ كما أنه كان أملاً لليونان المهزومة أمام الجيش العثماني (١٣١٥هـ / ١٨٩٧م)، وكان حلماً لليهود الذين لم يتمكنوا من الحصول على موافقة السلطان عبد الحميد على مطالبهم التي قدموها له، كما أن الاتحاد والترقي كان يتمنى هذه اللحظة.

قرر الأرمن في مؤتمر جمعية قاشناك في صوفيا - عاصمة بلغاريا - سنة (١٣٢٢هـ / ١٩٠٤م) التخلص من السلطان عبد الحميد باغتياله، والقيام بعمليات إرهابية إثارة للفوضى في العاصمة وفي أزمير.

ومن أجل ذلك قام المؤتمر بتشكيل فريق مكون من رجل يقال له: كريستوفر ميكائيليان، وابنته رويينا فاين، ورجل آخر اسمه: قسطنطين كابوليان، وضموا إليهم رجلاً بلجيكياً من المجرمين الفوضويين، جندوه للقيام بهذا، واسمه: إدوارد جوريس، تم الاتفاق معه

(١) فرنسا هي أكثر الدول تحيزاً للنصارى في صراعهم مع المسلمين، وهي التي بين الحين والحين تثير قضية مذابح الأرمن ضد تركيا في العصر الحديث، وكأنها نسيت ما فعلته بالمسلمين في الحملات الصليبية المنظمة على الشرق، وخاصة المذابح التي ارتكبتها في بيت المقدس؛ «راجع الحملات الصليبية بالكتاب»، كما أنها كانت سبباً في قتل الملايين من المسلمين في الجزائر وتونس والمغرب، وكانت قواتهم تتفاخر بقطع رؤوس المسلمين، وتباهى بذلك، وقد تناست فرنسا دعم الدولة العثمانية لها ومنحتها صلاحيات متميزة بين الدول الأوروبية في الحماية والدعم، وخاصة في زمان سليمان القانوني، الذي فك أسر إمبراطور فرنسا، وأدخلها في حمايته بعد أن كسر عدوها اللدود أسبانيا؛ «راجع سليمان القانوني بالكتاب».



في سويسرا، وهو لا يرتبط بالأرمن من قريب أو بعيد سوى الرابط الصليبي والنفع المادي.

قام هذا الفريق بالذهاب إلى العاصمة إسطنبول على أنهم سياح، وبدأ يرصد حركة السلطان، حتى انتهى بهم القرار إلى اختيار أنسب وقت لتنفيذ العملية، وهو صلاة الجمعة في جامع يلدز، وذلك عن طريق تفجير قنبلة أمدهم الأرمن بها.

قام إدوارد، واندس بين المصلين في يوم الجمعة في مسجد قصر يلدز، ووضع القنبلة في عربة مخصصة لذلك في خفية، أثناء الصلاة، وانتظر خروج السلطان عبد الحميد من صلاة الجمعة، ليفجر هذه القنبلة، غير أن الله جل وعلا أراد أمراً آخر، إذ إن السلطان تأخر عن الخروج دقائق معدودة، توقف خلالها للحديث مع شيخ الإسلام جمال الدين، فانفجرت القنبلة الموقوتة بالعربة، والسلطان على سلم المسجد، لم ينزل بعد، لينجو السلطان بفضل الله تعالى من هذا الحادث المروع.

وقد سقط في هذا الحادث ستة وعشرون قتيلاً، وأصيب ستة وخمسون جريحاً من المصلين والجنود والضباط، وتم القبض على إدوارد، وبعض المتورطين معه، كما فرّ البعض الآخر إلى خارج البلاد.

وتم التحقيق، وحُكم على إدوارد بالإعدام، غير أن السلطان أحسن إليه، وعفا عنه، واستخدمه في خدمة الدولة العثمانية، وقد حصل من خلاله على معلومات هامة، أرسلها إليه من أوروبا^(١).

- حرب اليونان:

دفعت الدول الأوروبية اليونان للعصيان طمعاً في منطقة يانيا وكريت، فأعلنت الحرب على الدولة العثمانية، بعد أن قامت عصابات بالاعتداء على الجنود العثمانيين الموجودين هناك، وعندئذ أعلنت الدولة العثمانية مذكرة إعلان حرب، سلمها السفير العثماني في أثينا إلى وزير الخارجية اليوناني، ووقعت الحرب لمدة شهر، واستطاعت الدولة العثمانية

(١) إسحاقيل ياشا / مقال وكالة الأنباء التركية (ترك برس) - أحمد آق كوندز «الدولة العثمانية المجهولة» - يلماز أوزتونا «تاريخ الدولة العثمانية».

أن تُنزل الهزيمة بالقوات اليونانية، وتقدمت حتى وصلت قريباً من أثينا، مما اضطر اليونان لطلب الصلح عن طريق الدول الأوروبية الأخرى، فتم عقد مؤتمر صلح في إسطنبول، سنة (١٣١٦هـ / ١٨٩٨م)، والذي ترتب عليه توقيع معاهدة إسطنبول، التي تكونت من ست عشرة مادة، ألزمت اليونان بدفع غرامات حربية، مقدارها أربعة ملايين ومئة ألف قطعة ذهبية، كما منحت الاستقلال الذاتي التام لجزيرة كريت^(١)، على أن تبقى في حماية الدولة العثمانية، وتقوم بدفع الضرائب السنوية لها، مما أدى إلى هجرة عشرات الألوف من مسلمي كريت إلى داخل الأناضول، مما أفقد الجزيرة هويتها الإسلامية.

وبرغم انتصار الدولة العثمانية في الحرب اليونانية وإفنائها للجيش اليوناني، إلا أنها أمام الضغط الصليبي الأوروبي الحاقدا اضطرت أن تمنح كريت حكماً ذاتياً، وكان على الدولة العثمانية أن تحافظ - بقدر ما تستطيع - على ما في حوزتها من الأراضي العثمانية، ولا بديل آخر لذلك.

- المشكلة المقدونية (١٣٢٠هـ / ١٩٠٢م):

وقع في مقدونيا^(٢) اضطرابات مختلفة وذلك لعدة أسباب منها:

- اختلاف الشعوب التي كانت تعيش هناك من العثمانيين، والبلغار والرومان والصرب، واليونانيين فيما بينها، وكان كل منهم يرى في نفسه أنه صاحب الأغلبية التي تؤهله لأن تكون له الصدارة والسيطرة على مقدونيا، والحقيقة أن غالبية سكان مقدونيا كانوا من المسلمين، واليونانيين، وليس لغيرهم سوى سلانيك، حيث سكنها طائفة كبيرة العدد من اليهود الفارين من محاكم التفتيش في أسبانيا، بعد سقوط الأندلس، واستقبلتهم الدولة العثمانية رافة بحالهم، وسمحت لهم بالإقامة هناك.
- المؤامرات الاستعمارية الصليبية الكبرى، وأطماعها في السيطرة على أراضي الدولة العثمانية، وكان على رأس هذه الدول روسيا، والنمسا، واليونان؛ فكانت مقدونيا تشكل عائقاً وحاجزاً بين الدولة العثمانية، وبين أطماع الدول الاستعمارية.

(١) كانت جزيرة كريت آهلة بالسكان المسلمين بشكل كبير، وبسبب اعتداءات الروم عليهم بدأ عشرات الآلاف منهم بالهجرة إلى العاصمة إسطنبول وغيرها من الولايات العثمانية، وشيئاً فشيئاً فقدت الجزيرة هويتها الإسلامية.

(٢) كان يطلق على مقدونيا في التاريخ العثماني إيالتي ثلاث - أي: الولايات الثلاث، وهي سلانيك وموناستير وكسوفو.



• موقع مقدونيا الاستراتيجي بالنسبة إلى الدولة العثمانية، لقربها من المضائق البحرية، ومن عاصمة الدولة إسطنبول، ولذلك حافظت الدولة العثمانية على بقاء مقدونيا في حوزتها، خشية أن تقع في أيدي الدول الصليبية الأوروبية مما يهدد كيان الدولة العثمانية.

• كانت مقدونيا أيضاً تمثل أهمية خاصة للدولة العثمانية، حيث إنه كان يعيش بها أكثر من مليون مسلم، وهو عدد كبير من السكان بالنسبة إلى ذلك الزمان، كما أنها كانت مورداً مالياً هاماً من موارد الدولة العثمانية.

كانت هذه العوامل وغيرها مؤذنة بانفجار الوضع في مقدونيا؛ وقد ساعدت أوروبا الصليبية النصارى في مقدونيا للمطالبة بالاستقلال عن الدولة؛ ودعمت المنظمات والجماعات الإرهابية التي شكلها النصارى، وكان أشهرها المنظمة المقدونية الداخلية الثورية - imro - كما كانت هناك المنظمة المقدونية الخارجية الثورية - emro - وقد عملت كلتا المنظميتين على تدريب المقدونيين من النصارى - في الداخل والخارج - على أساليب القتال ومواجهة الدولة العثمانية، كما عملت كلتاهما على المطالبة بالحكم الذاتي، وطرده المسلمين والعثمانيين من مقدونيا، وقد حدّدا مطالبهم في مذكرة أرسلوها إلى الدول الأوروبية الصليبية الداعمة لهم، يطالبون فيها بتكوين ولاية مقدونية ذات حكم ذاتي، عاصمتها سلانيك، يحكمها حاكم نصراني.

ترتب على هذه الأحداث أن قامت العصابات البلغارية الأصل - والتي تعيش في مقدونيا - بعبور الحدود، ووقع الصدام بينها وبين الدولة العثمانية، مما صعد وتيرة العنف وأعمال الإرهاب المتوالية من المنظمات المختلفة، التي قام أفرادها بقتل الكثير من موظفي الدولة من المسلمين والنصارى الموالين للدولة، كما قاموا بمهاجمة قطارات السكك الحديدية وعربات البريد، كما قاموا بختف عدد من الأجانب ومن وجهاء وأثرياء مقدونيا، واحتفظوا بهم رهائن لتحقيق مطالبهم، كما قاموا بعمل خبيث، وهو إلقاء القنابل على الكنائس، وقتل بعض النصارى، من أجل إثارة الدول الأوروبية الصليبية ضد الدولة العثمانية، بزعم أن الدولة تفجر الكنائس، وتقتل النصارى.

وكانت نهاية الأمر أن وقفت أوروبا الصليبية في صف واحد، لتضغط بقوة على السلطان عبد الحميد، الذي لم يجد بداً من تقسيم مقدونيا إلى ثلاث ولايات، كلٌّ منها قائم بذاته، وإنشاء إدارات، تختص بكل ولاية، وتعيين حاكم نصراي على كل ولاية، وإنشاء محاكم مختلطة.

وبرغم ما قدمته الدولة من تنازلات - تحت الضغوط الأوروبية - إلا أن هذا الأمر لم يرض بعض الدول الأوروبية وخاصة النمسا وروسيا، اللتان ساعدتا المنظمات الإرهابية بقيام ثورة كبرى في موناستير، أوقعت أعمالاً إرهابية مختلفة، مما أدى إلى فرار الآلاف من المسلمين إلى إسطنبول، كما فرَّ عدد كبير من النصاري إلى صوفيا.

أدى ذلك إلى تدخل روسيا والنمسا، بتقديم مشروع مححف بالدولة العثمانية، يعطي النصاري في مقدونيا الحق الأكبر والحظ الأوفر، مما اضطر السلطان إلى القبول بهذا المشروع، خشية التدخل العسكري الأوروبي، مما ساء ذلك المسلمين هناك، وظلت الاضطرابات قائمة، وازدادت تفاقماً بثورة الألبان المقيمين في كوسوفا، كما قامت منظمة imro بقطع الطرق، وخطوط السكك الحديدية، وزرع الألغام البحرية أمام السفن، ووضع المتفجرات في مقرات البنك العثماني في سلانيك.

أدى هذا الوضع المتفاقم إلى اجتماع كلٍّ من إمبراطور النمسا فرانسيسر جوزيف، وقيصر روسيا نيقولا الثاني، لوضع مشروع للإصلاح، يتيح للدولتين التدخل المباشر في مقدونيا؛ وقد حصلت كلتا الدولتين على موافقة الدول الأوروبية الموقعة من قبل على معاهدة برلين؛ مما اضطر السلطان عبد الحميد لقبول هذا المشروع، خشية مواجهة الدول الصليبية مجتمعة في حرب، لا قدرة للدولة عليها.

يقول د. عبد العزيز الشناوي^(١): كان السلطان عبد الحميد الثاني - في مواجهة الزحف الاستعماري الأوروبي على الولايات العثمانية في البلقان - مضطراً إلى التخلي عن سياسة الحكم المركزي في مقدونيا، وقد شهد منذ أن تبوأ العرش شراسة الزحف الاستعماري، كما شهد تساقط الولايات العثمانية تباعاً في أوروبا وآسيا وأفريقيا، وكان حريصاً على

(١) عبد العزيز الشناوي «الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها»، بتصرف.



أن يدراً عن الدولة مزيداً من الخسائر الإقليمية في مقدونيا، وأدرك بما لا يدع مجالاً للشك تألّب خمس دول أوروبية كبرى عليه، ولم يكن في استطاعته وقّف هذا الزحف الاستعماري الضاري؛ ولكنه سعى للتخفيف من وطأته ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. ١. هـ.

- السلطان عبد الحميد والوحدة الإسلامية (جامعة الشعوب الإسلامية):

كان على السلطان عبد الحميد أن يواجه الضغوط الغربية والتحالفات الصليبية بإحياء وحدة الشعوب الإسلامية - فيما يسمى: بالاتحاد الإسلامي - لمواجهة هذه التجمعات الصليبية.

إذ إن السلطان يمثل رأس الدولة وأمير المؤمنين وخليفة المسلمين، غير أن عوامل كثيرة سبقته أدت إلى ضعف الوحدة بين الشعوب الإسلامية المختلفة، وبرغم أن الدولة العثمانية كانت تحكم شعوباً مختلفة القوميات، إلا أنهم جميعاً انضؤوا تحت قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢]، وتحت قوله تعالى: ﴿وَلِإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢].

وقد أدركت الأمة ذلك جلياً، وترفعت عن كل مظاهر الاختلاف والتباين بين أفرادها: عرقية أو قومية، مقتدية بقول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنْآ خَلَقْتَكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

ومقتدية بقول النبي ﷺ: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى ها هنا - ويشير إلى صدره ثلاث مرات - بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه»^(١)، وبقوله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحيمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»^(٢).

ولقد عاشت الشعوب الإسلامية أفرحاً وأترحاً وفتناً وأزمات، لم تزعزع هذه الوحدة، ولم تأت على هذه اللحمة إلا بعد أن تعلقت النفوس بالدنيا، وسعت تلهث وراء تحقيق شهواتها، مدعومة بيد العون من أعداء هذه الأمة.

(١) رواه مسلم من حديث أبي هريرة (٩٨/٨/٩٨: ح: ٢٥٦٤).

(٢) رواه الشيخان من حديث النعمان بن بشير، البخاري (١٢/٥٣٨/١٢: ح: ٦٠٠١)، ومسلم (٨/١١٥/٨: ح: ٢٥٨٦).



وعندما تولى السلطان عبد الحميد سعي سعيًا حثيثاً لإحياء هذه القيم العظيمة في النفوس، بصفته خليفة لكل مسلمي العالم، حتى أصبح رمزاً للمسلمين، يقلق أعداء وخصوم الإسلام، الذين سَعَوْا سعيًا حثيثاً للقضاء عليه، وقد تمكنوا من ذلك في النهاية، ولعل ما أصاب المسلمين بعد عزله إلى يومنا هذا أدل دليل على أهمية الخلافة، ونجاح عبد الحميد في إدارة الأمة الإسلامية بشكل ناجح في إقامة الوحدة بين أبنائها.

لقد تبنى السلطان عبد الحميد فكرة إنشاء الجامعة الإسلامية، وتحفيز الطاقات البشرية التي لديه، من أجل الاتحاد والتعاون فيما بينهم، وإصلاح أحوال بلدانهم؛ ولقد كانت هذه الفكرة مواجهةً لأطماع الدول الصليبية، التي أفلقتها عودة عاصمة الخلافة إسطنبول لاستقبال زعماء المسلمين من كل مكان، وقيام السلطان عبد الحميد بإرسال الدعاة إلى الأقطار الإسلامية المختلفة، مما زاد من التفاف المسلمين حول خليفتهم الذي لم يفرق بين عربي وعجمي من شعبه.

وكان المسلمون يتطلعون إلى هذه الوحدة، خاصة بعدما أصاب مسلمي الهند على يد الاحتلال الإنجليزي، الذي لم تسلم منه أيضاً مصر والسودان، وغزو الروس لوسط آسيا في طشقند وسمرقند وبخارى، وفرض فرنسا احتلالها على الجزائر ثم تونس، كما أن ألمانيا لم تنس نصيبها بفرض حمايتها على دار السلام في شرق أفريقيا.

ولقد تعرضت شعوب هذه البلدان إلى أشكال مختلفة من الاضطهاد الاستعماري، والظلم، والتعسف، والتنكيل بأبنائها.

- السلطان عبد الحميد وقضية فلسطين:

كان اليهود يحلمون بإقامة وطن لهم في فلسطين، وزعموا أن الله تعالى قد وعدهم به، ليجمعوا شتاتهم في آخر الزمان، وليواجهوا الأمم الأخرى التي هي دونهم من وجهة نظرهم، كما زعموا أنهم شعب الله المختار، وقد عملوا على إعادة مملكة داود عليه السلام، كما يزعمون، ومن أجل إنشاء الهيكل (المعبد) الذي بناه سليمان عليه السلام في بيت المقدس، وقد بنوا هذه الضلالات على ما ورد عندهم في التوراة المحرفة، وكتاب (التلمود) الشارح لها، والذي خطّه أhabارهم من شياطين الإنس.



من أجل ذلك عمل اليهود - باستخدام كل الوسائل المشروعة وغير المشروعة - من أجل تحقيق هذا الهدف، فأباحوا المحرمات، وانتهكوا الأعراض، واستباحوا الدماء، وأوقعوا الفتن بين الحكومات والشعوب، وأسسوا المنظمات والمحافل التي اتخذوها وسيلة لتحقيق ذلك، كالمحافل الماسونية وأذرعها بعد ذلك مثل: الروتاري، واللايونز، وغيرها من الوسائل القذرة، والتي سيطروا بها على الإعلام والتعليم، بعد أن سيطروا على الأموال في كثير من دول العالم؛ حتى أصبح الكثير من حكوماته كالأحجار على رقعة الشطرنج، تحركها حكومة العالم الخفية اليهودية.

وعندما تمكن اليهود - الذين فتحت لهم الدولة العثمانية ذراعيها رافعةً ورحمة بهم لما جرى معهم في الأندلس - من تثبيت أقدامهم داخل أروقة ودهاليز الكثير من القصور الحاكمة في العالم، قرروا عقد المؤتمر الصهيوني الأول، لمناقشة ما سَمَّوه بمشروع الرب لقيام دولة لهم في فلسطين.

- المؤتمر الصهيوني الأول: (١٣١٥هـ / ١٨٩٧م):

قام اليهود بعقد المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة بال (بازل) في سويسرا، بقيادة زعيمهم تيودور هرتزل^(١)، والذي أعلن بصريح العبارة عن هدف المؤتمر بقوله: (نحن هنا لنضع الأساس للبيت الذي يأوي كل يهودي في العالم)، ثم أضاف: (فإن هدفنا من هذا المؤتمر الصهيوني هو إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين).

وقد اتخذ هذا المؤتمر قرارات من أجل تحقيق هذا الهدف، منها: اتخاذ العلم الصهيوني، والنشيد القومي لليهود، وإنشاء مصرف تُجمع فيه الأموال اللازمة لإنشاء الدولة الجديدة - هو مصرف روتشلد - كما منح المؤتمر زعيمهم هرتزل بمخاطبة الدولة العثمانية صاحبة الحق على فلسطين، كما له أن يتخذ السبل اللازمة للحصول على تأييد دول العالم لمنح هذا المشروع الشرعية الدولية؛ وعمل المؤتمر على تشجيع هجرة اليهود إلى فلسطين، كما أقر

(١) تيودور هرتزل: صاحب كتاب «دولة اليهود» - محاولة لإيجاد حل حديث للمسألة اليهودية.

بنيامين زئيف هرتزل اشتهر باسم تيودور، ولد في (٢ مايو ١٨٦٠م) ببودابست بالمجر، أقام بفينا عاصمة الامبراطورية النمساوية المجرية، درس القانون، وتخرج من جامعة فيينا، عمل بالصحافة وكتابة المؤلفات والمسرحيات، توفي بفينا في (١٩٠٤م)، ونقلت رفاته في سنة (١٩٤٩م) إلى بيت المقدس في فلسطين بعد احتلالها.

المؤتمر تشكيل الجهاز التنفيذي للقرارات فيما سمي: بالوكالة اليهودية لتنفيذ قرارات المؤتمر. وقد توجه هرتزل إلى ألمانيا، لما لها من علاقات وصلات مميزة وقوية بالخلافة العثمانية، دون سائر الدول الأوروبية.

قام هرتزل بالاتصال بإمبراطور ألمانيا للتوسط بينه وبين الدولة العثمانية للحصول على تصريح بإقامة شركة يهودية تحت الحماية الألمانية، وتكون ألمانيا المستفيد الأكبر من هذه الصفقة. رفض الإمبراطور الألماني هذا العرض من هرتزل، وعَدَّ أن هذه الصفقة مساءة لإمبراطوريته^(١).

عندئذ سارع هرتزل بطلب مقابلة الخليفة العثماني عبد الحميد، لعرض القضية عليه بواسطة سفير النمسا في إسطنبول، كما استغل الصحفي نيولونيسكي، الذي تربطه بالسلطان عبد الحميد علاقةً ودّية لمساعدته في ذلك، وجاء هرتزل بعد أن سمح له في وفد مصغر، كان المتحدث فيه المحامي اليهودي السلانيكي عما نويل قره صوه، وقد لقي الوفد السلطان في الأول من صفر سنة (١٣١٩هـ) / التاسع عشر من مايو (١٩٠١م)، وقد بين هرتزل والوفد المرافق له مدى امتنان اليهود لموقف الدولة العثمانية منهم، ولاستقبالهم عند قدومهم من الأندلس في أراضيها سنة (٨٩٧هـ / ١٤٩٢م)، وأنهم لن ينسوا للدولة العثمانية بأي حال هذا الجميل.

وقدّم عما نويل مقترحات الوفد، وهو أن يبيع لهم المزارع السلطانية الواقعة على سواحل فلسطين، أو تأجيرها لمدة تسع وتسعين سنة، بهدف إقامة قرى خاصة لهم مستقلة عن قوانين الدولة العثمانية (مستعمرات)، مقابل ليرات ذهبية، تعادل ثلاث ميزانيات عثمانية سنوية، كما أظهروا رغبتهم وولاءهم للدولة العثمانية وإخلاصهم، وطلبوا من السلطان أن يفتح باب الهجرة أمام اليهود إلى أرض الميعاد، وقد عرضوا على السلطان ملايين الليرات الذهبية لمساعدة الدولة^(٢).

(١) د. هدى درويش: «العلاقات التركية اليهودية»، (١/ ٣٢٧-٣٢٨).

(٢) عرض اليهود على السلطان عبد الحميد تقديم معونة مالية، تنقذ دولة الخلافة من أزمتها التي كانت تمر بها على النحو التالي: ١. تسديد ديون الدولة العثمانية كاملة، والبالغة قدرها (١٣٣) مليون ليرة ذهبية إنجليزية. ٢. تقديم قروض للدولة العثمانية بدون فوائد ربوية، قدرها (٣٥) مليون ليرة ذهبية لإنعاش خزينة الدولة. ٣. القيام ببناء أسطول بحري عثماني، بتكلفة مئة وعشرين مليون فرنك سويسري.



جاء رد السلطان بالرفض حازماً وقاطعاً أمام هذه الإغراءات والمطالب اليهودية، وقال: (فليحتفظ اليهود بملايينهم، وإذا مُزقت دولتنا يوماً، فإنهم يستطيعون عندئذ أن يأخذوا فلسطين بلا ثمن، أما وأنا حي، فإن عمل مشرط الجراح في بدني لأهون عليّ من أن أرى فلسطين قد بترت من دولتنا، وهذا أمر لن يكون، لأنني لا أستطيع الموافقة على تشريح أجسادنا، ونحن على قيد الحياة).

وقد أمر السلطان بإخراج الوفد من قصره، فعندئذ قال المتحدث باسم الوفد عما نويل قره صوه لتحسين باشا كبير أمناء القصر السلطاني: سأتي هنا مرة أخرى، لكن سيكون دوري غير دوري الآن^(١).

يقول السلطان عبد الحميد في مذكراته^(٢): (انتظم يهود العالم، وسعوا عن طريق المحافل الماسونية للعمل في سبيل الحصول على الأرض الموعودة بزعمهم، وجأؤوا إليّ بعد فترة، وطلبوا مني أرضاً، لتوطين اليهود في فلسطين، مقابل أموال طائلة، وبالطبع رفضت ذلك). ١.هـ.

سارع السلطان عبد الحميد باتخاذ التدابير القانونية، وإصدار الفرمانات (القرارات) السلطانية الحاسمة، التي يمنع فيها تملك اليهود أراضٍ داخل فلسطين، كما حدد إقامة الزائرين من اليهود لفلسطين بمدة لا تتجاوز ثلاثة أشهر، مما زاد من عداة اليهود وحركتهم الصهيونية للسلطان عبد الحميد، الذي دفع عرشه بعد ذلك ثمناً لقراره ذلك، وهو منع اليهود إنشاء كيان لهم في فلسطين، كما دفعت الأمة ثمناً أكبر بعد ذلك، وهو إلغاء الخلافة الإسلامية من سماء الدنيا.

ومما يذكر في هذا الجانب أن الصدر الأعظم محمد صالح كامل باشارفع مذكرة إلى السلطان عبد الحميد بتاريخ (٢٠ ذي الحجة سنة ١٣٠٨ هـ) / (٢٦ يوليو ١٨٩١ م)، تتضمن طلب قبول منح الجنسية (التبعية) العثمانية لأربعمئة يهودي، قدموا إلى صفد في فلسطين،

(١) ولقد تم ذلك بالفعل، إذ إن عما نويل قره صوه كان على رأس الوفد الذي أبلغ السلطان عبد الحميد قرار خلع، بل هو الذي تلا ذلك عليه.

«مذكرات السلطان عبد الحميد»، تقديم وترجمة د. محمد حرب (ص: ٥٨).

(٢) «مذكرات السلطان عبد الحميد»، تقديم وترجمة د. محمد حرب.

- وأربعين آخرين في حيفا، فردَّ السلطان عبد الحميد على ذلك بالرفض التام، موضحاً أسباب رفضه في وثيقة تاريخية، ذكرها الأستاذ أحمد آق كوندز^(١)، وهذه الأسباب هي:
١. يضر اليهود إنشاء دولة يهودية من وراء تجمعهم في أراضي فلسطين، وفي القدس خاصة، ومن الضرورات القاطعة مقاومة مآربهم.
 ٢. ليست الممالك العثمانية أراضي خالية ومفتوحة لاستيطان من يشاء، فلا تتعدى أن تكون ملكاً خاصاً أو أرضاً وقفية، أو أرضاً أميرية مملوكة للدولة.
 ٣. المنطق والحق لا يستسيغ إسكان اليهود في الممالك العثمانية، بسبب طردهم من دول أوروبا التي نصبت نفسها ممثلة للحضارة، فلا قاعدة حقوقية أو إنسانية تلزم بذلك.
 ٤. انقلاب الأرمن على الدولة العثمانية - بعد أن مدت لها يد العون لقرون من الزمان - يدفع الدولة إلى أن تتنبه إلى الخطر العظيم المهدق بها، إن هي قبلت بقاء اليهود داخل الدولة.

- السلطان عبد الحميد وإنشاء خط سكك حديد الحجاز الحميدي^(٢):



أراد السلطان عبد الحميد أن يترجم فكرة الوحدة الإسلامية بوسائل عملية، يستفيد منها جميع المسلمين، ومن هذا إنشاء خط سكك حديد الحجاز، الذي يقوم بنقل الحجاج من العاصمة إسطنبول إلى الأماكن المقدسة في الحجاز، مع إنشاء أفرع له، تنقل الحجاج من مصر والشام والعراق.

وكان هذا المشروع من أواخر المشاريع التي قام بها السلطان عبد الحميد قبل عزله، وهو دعمٌ لحركة الجامعة الإسلامية، وخدمةٌ لحجاج بيت الله الحرام.

(١) «الدولة العثمانية المجهولة»، (ص: ٤٤٢/٤٤٣).

(٢) د. سيد الدقن «سكك حديد الحجاز الحميدية».



لقد كان هذا المشروع - بما له وعليه - مشروعاً يُحسب للسلطان عبد الحميد رحمه الله، فلقد أحيا هذا المشروع روحَ التظافرِ والبذلِ عند المسلمين، فلقد فُتحت أبواب التبرع أمام الأفراد والهيئات، لكل مسلمي العالم، ولقد تسابق الجميع في دعم هذا المشروع.

إلى جانب هذا الباب، كانت هناك موارد رسمية ثابتة من داخل الدولة، تدعم إقامة هذا المشروع؛ منها: جمع جلود الأضاحي، والاستفادة منها، ومنها: أوقاف خُصصت لهذا المشروع، كذلك: طوابعُ بريد خُصصت لدعم هذا المشروع، كذلك: خصم عُشرِ الراتب من جميع موظفي الدولة اختياراً مرة واحدة في السنة، وغيرها من الوسائل التي قامت بدعم هذا المشروع.

ومما يذكر ويُشكر أن التبرعات الفردية والجماعية استمرت، حتى بعد وصول الخط إلى المدينة، وكان لمسلمي الهند النصيبُ الأكبر في هذه التبرعات؛ ولقد قاموا بتقديم هدية للسلطان عبد الحميد هي عبارة عن لوحة رائعة الجمال، على أحد جانبيها صورة لقاطرة حديدية، وعلى الجانب الآخر صورة للمسجد، ونُقش عليها اسم السلطان، وفي أسفلها خريطة للبلاد التي سيمر بها الخط الحديدي.

وبرغم الصعوبات التي واجهت إنشاء خط سكك حديد الحجاز، من السيول، والرمال المتحركة في الصحاري، والوقود، ومع الأسف هجوم العربان على الخط ومنشآته، إلا أنه من فضل الله تعالى تمَّ إنشاء هذا الخط، بعد أن تغلبت الدولة على هذه الصعوبات، وأوصلت الخط إلى المدينة النبوية في خلال فترة وجيزة بالنسبة لتلك الأزمان؛ فلقد انتهى في خلال ثمان سنوات من بداية الإنشاء.

ولقد تحققت من فضل الله عز وجل نتائج متعددة لبناء هذا الخط الحديدي، منها أنه حقق فائضاً وليس عجزاً قبل الحرب العالمية الأولى، وقام بنقل ٩٢,٠٠٠,٠٠٠ مليون طن من المواد الغذائية من الشام وحدها إلى المدينة النبوية، كما كانت إيراداته في ازدياد مستمر.

ومنها: انفتاح بلاد الحجاز على الشام، التي تُعد مدينة دمشق بها واحدة من أكبر المراكز التجارية في الدولة، وإلى إسطنبول عاصمة الخلافة.



كما حقق إنشاء هذا الخط نتائج عمرانية غير متوقعة، منها: ظهور مجتمعات جديدة عبر الطريق الذي يمر منه الخط، ومن ذلك: اتساع مدينة حيفا بشكل كبير، والتي كان يسكنها أربعة آلاف إلى ستة آلاف نسمة قبل إنشاء الخط، فأصبح عدد سكانها بعد ذلك اثنين وعشرين ألفاً.

كما أحدث الخط تغييراً كبيراً في مدن الحجاز، وخاصة المدينة النبوية، والتي تطورت عمرانياً وزادت بها رقعة البناء لاستقبال عدد الزائرين الهائل، الذي لا ينقطع على مدى العام، ولقد كان يسكنها قبل إنشاء خط سكك حديد الحجاز عشرون ألف نسمة، ارتفعت إلى ثمانين ألف نسمة بعد إنشاء الخط، ثم تراجعت إلى ثلاثة عشر ألف نسمة في سنة (١٣٥٥هـ / ١٩٣٦م).

كما كان إنشاء هذا الخط سبباً في إضاءة المدينة النبوية بالكهرباء لأول مرة سنة (١٣٢٥هـ / ١٩٠٨م)، كما أصبحت المدينة محافظةً مستقلة مرتبطة بوزارة الداخلية العثمانية مباشرة، وتم مدها بخطوط تلغرافية مستقلة بالأستانة.

كما ساهم الخط في إنشاء مكاتب البريد بالمدن على الطريق المار، تسهياً للمعاملات التجارية.

ولقد أثار هذا المشروع اهتمام المسلمين في جميع أقطار العالم، حيث ضاعف التفاهم حول الوحدة الإسلامية المتمثلة في الخليفة، كما أظهر الدولة العثمانية بمظهر الدولة العصرية الحديثة، وأظهر السلطان عبد الحميد بمظهر الخليفة الحريص على أمته.

ولقد وضع هذا الخط فكرة الجامعة الإسلامية موضع التنفيذ، خاصة بعد أن اختصر المسافة بين المدن الإسلامية في الحجاز والشام ودولة الخلافة.

كما عمل هذا الخط على نقل الجنود بسهولة ويسر، وقد استفادت منه الدولة في سنة (١٩٠٥م) بإرسال (٥٨) كتيبة من سورية لإخماد اضطرابات اليمن، وفي نقل الأسلحة والذخائر إلى الأماكن الهامة في الدولة.



وأخيراً كان لهذا الخط نتيجة مباشرة هي أن عجلت الدول الصليبية - بمعاونة أذناها داخل الدولة العثمانية - بإلغاء الخلافة قبل أن تتسع المشاريع الإصلاحية في الدولة، بل وعجل هذا الخط وغيره من العوامل بإقصاء السلطان عبد الحميد عن الحكم.



سكك حديد الحجاز

- جمعية الاتحاد والترقي وعزل السلطان عبد الحميد عن الحكم:

كانت الأفكار الرئيسة والمعتقدات التي قامت عليها جمعية الاتحاد والترقي هي موروثة لأفكار منحرفة هدامة، لأصحاب الأهواء والشهوات التي التقت مع الخصومة اللدودة للإسلام - من الحركات الماسونية ذات الأصول اليهودية - ووجدت يد العون من الدول الصليبية الحاقدة على الدولة العثمانية.

وكانت هذه الأفكار في مجموعها تشكل الأساس الفكري لحركة (العثمانيين الجدد)، متخفين تحت مسمى تحديث الدولة، ثم ورثتها حركة (تركيا الفتاة)، وانتهت مجتمعة جميعاً في (جمعية الاتحاد والترقي)، والتي تشكلت من طلاب المدرسة الحربية والطب العسكري، وعملت على تنظيم المعارضين للسلطان عبد الحميد في صف واحد، باسم القضاء على تخلف الدولة، وإنهاء الحكم الاستبدادي المنفرد للسلطان عبد الحميد كما زعموا.

وقد تشكلت هذه الجمعية خفية في سنة (١٣٠٨هـ / ١٨٩٠م)، وقد ازداد عداؤها السافر للسلطان عبد الحميد، خاصة في أواخر سنوات حكمه، ووضعت يدها بيد أعداء الدولة، بدلاً من أن تأخذ في نقدها السلطان بالوسائل الصحيحة، التي أقرتها الشريعة،

والتي تقر بها العقول السليمة، وهي المناصحة لولاة الأمور، ببيان عوار الأمر المنتقد، وإظهار البديل الصحيح له، من غير صدام أو خروج يؤدي إلى مفسدة، تضيع معها المصالح، وتجتر على الأمة الخيبة والمفاسد، كما حدث بعد ذلك.

فقد عملت جمعية الاتحاد والترقي بكل قوة، وبأي وسيلة على إقصاء السلطان عبد الحميد، كخطوة في إنهاء الخلافة الإسلامية من سماء الدنيا، لتحقيق الحلم الذي ظل أعداء الإسلام يحلمون به مئات السنين، ولقد استعانوا في ذلك بالمحافل الماسونية اليهودية الصنع، والمنتشرة في الدولة، يؤازرها يهود الدونمة، الذين لعبوا دوراً كبيراً في إقصاء السلطان عبد الحميد عن منصبه، ثم في إلغاء الخلافة بعد ذلك.

شيئاً فشيئاً بدأت تظهر رائحة هذا العمل الخفي، واستطاعت الدولة أن تفضح الجمعية، وتفككها، وتتبع رؤوسها بعد سبع سنوات من عملها المفسد، وبالتحديد في سنة (١٣١٥هـ / ١٨٩٧م)، مما اضطر قادة الجمعية إلى القرار إلى باريس مأوى كل مناوئ للإسلام^(١).

وفي باريس استمر نشاط الجمعية تحت رئاسة أحمد رضا بك، الذي وجد الترحيب والدعم من الحكومة الفرنسية وقناصل الدول الصليبية في باريس، وأسست الجمعية صحفاً ومنابر إعلامية، تبث من خلالها أفكارها الهدامة، وتجهز بخصومتها للإسلام وللخليفة، كما سودوا تلك الصحف بالأكاذيب والافتراءات على السلطان عبد الحميد، بما لا يصدقه إلا أصحاب الأهواء، وكان أشهر هذه الصحف جريدة المشورة، التي كان يصدرها أحمد رضا بك بن علي بك الملقب: بعلي بك الإنجليزي^(٢)، والذي اعترف بعد ذلك في مذكراته التي كتبها في العهد الجمهوري بالندم والحزن على ما كتبه ضد السلطان عبد الحميد؛ وأنه افترى على رجل لم يعرفه حق المعرفة وهو السلطان عبد الحميد، وهذا

(١) أرسل السلطان عبد الحميد الفريق أول أحمد جلال الدين باشا مدير الأمن العام ليستميل أعضاء الجمعية، وينصحهم بالعودة إلى وطنهم الأم، وقد نجح في استئالة الكثير منهم، ومنحهم السلطان عبد الحميد مناصب كبيرة في الدولة. «مذكرات السلطان عبد الحميد»، ترجمة وتقديم محمد حرب (ص: ٥٦).
(٢) أحمد رضا بك: أحمد رضا بك بن علي بك الإنجليزي، لُقّب أبوه بهذا اللقب لميوله الإنجليزية وولائه ووجهه لهم رغم أنه تركي، وأم أحمد رضا بحرية نمساوية، تربى وتعلم على الطريقة الأوروبية وعلى الثقافة الليبرالية الحرة في فرنسا، حيث تعلم أيضاً الفرنسية، وكان يتقنها إتقاناً تاماً، تقلد مناصب مختلفة منها دائرة المعارف في بروسيا، وكان يكتب مقالات آنذاك في مديح السلطان عبد الحميد محاولاً التقرب إليه، ثم سرعان ما انقلب عليه، وأصبح على رأس المناوئين له، وقد استطاع الحصول على رخصة للسفر إلى باريس لزيارة معرضها الدولي العام، ففر إليها خشية بطش الدولة العثمانية به بعد أن انكشف أمره ورفاقه. «الانقلاب العثماني وتركيا الفتاة»، روجي الخالدي (ص: ٥١-٥٢) / بتصرف.



تماماً ما فعله أيضاً رؤوس هذه الجمعية وقادتها، بالاعتراف بالفضل للسلطان عبد الحميد، والندم على الخروج عليه، ومن هؤلاء أنور باشا^(١)، وطلعت باشا^(٢)، وجمال باشا^(٣)، وقد اضطروا لترك أوطانهم بعد ذلك.

ندموا حين لا ينفع الندم، ندموا بعد ماذا!!!، بعد أن وضعوا الخلافة الإسلامية والدولة العثمانية على حافة الهاوية، لتسقط بعد ذلك على يد تلامذتهم الذين رُبُّوا في أحضانهم.

• عزل السلطان عبد الحميد:

كانت خلايا الاتحاد والترقي قد تغلغلت بأفكارها وأفرادها داخل الجيش العثماني، وبين موظفي الدولة ورجالها من المدنيين، وقاموا بالضغط على السلطان من أجل إعلان المشروطة، والعمل بالدستور، وهو أحد الأسباب التي أودت بالدولة إلى ما وصلت إليه كما أسلفنا.

(١) أنور باشا: إسماعيل أنور باشا الشهير بأنور باشا، ولد في سنة (١٢٩٩هـ / ١٨٨١م) بمدينة إسطنبول، وتخرج من الكلية الحربية ضابطاً عثمانياً، وعين بالفيلق الثالث في سلانيك الذي اشتهر بأن معظم ضباطه من حركة الاتحاد والترقي، أحد قادة حركة تركيا الفتاة، شارك في الثورة ضد السلطان عبد الحميد في سنة (١٩٠٨م)، والتي انتهت بعزل السلطان، وأصبح ناظراً للحرية - وزيراً - للدولة العثمانية، وعند قيام الحرب العالمية الأولى قاد الجيش الثالث العثماني في معاركه ضد الروس، كما قاد القوات العثمانية في العراق ضد الإنجليز، وانهزم هناك حيث انتهى الأمر بانسحابه واحتلال الإنجليز لبغداد سنة (١٣٣٥هـ / ١٩١٧م)، شارك في حروب الدولة العثمانية ضد الحكومة الشيوعية في وسط آسيا، حيث قتل نهاية الأمر في بخارى سنة (١٣٤٠هـ / ١٩٢٢م).

(٢) طلعت باشا: محمد طلعت باشا، ولد في (١٢٩١هـ / ١٨٧٤م) في أدرنة، حيث تربى ودرس هناك، وتخرج من المدرسة العسكرية بأدرنة، عمل مأمور بريد في سلانيك لمدة عشر سنوات، حتى أصبح رئيساً لبريد سلانيك، اتقن اللغة الفرنسية إلى جانب الرومية، انضم إلى المحافل الماسونية المقدونية، أحد كبار معارضي السلطان والخلافة، أسس مع بعض رفاقه جمعية الحرية العثمانية المعارضة في البلقان، ثم أصبح أحد أقطاب الاتحاد والترقي، وتفرغ للجمعية حتى أصبح من أهم الإداريين فيها، وكان أحد أبرز قادة الانقلاب على السلطان عبد الحميد في سنة (١٩٠٨م)، مما جعله ينال منصب أول أكبر أستاذ في المحافل الماسونية لمدة سنة كاملة، في الوقت الذي عمل فيه وزيراً للداخلية لمدة سنة ونصف، ثم وزيراً للبريد والتلغراف، ثم عاد وزيراً للداخلية مرة أخرى، ولعب دوراً أساسياً في توجيه سياسة الدولة، خاصة في دخول الحرب العالمية الأولى، ثم تولى منصب الصدر الأعظم: رئيس الوزراء، كأول نائب برلماني يعين في هذا المنصب، لعب دوراً بارزاً في مفاوضات السلام مع روسيا بعد أن قامت بها الثورة الشيوعية، ووقع اتفاق السلام ممثلاً عن الدولة العثمانية، وبعد هزيمة الدولة في الحرب العالمية قدم استقالته، ثم قرر قادة الاتحاد والترقي نفي طلعت باشا وأنور باشا خارج البلاد، مما أدى بهم إلى الهروب إلى برلين، وتمت محاكمتها غيابياً والحكم عليهم بمصادرة الأموال وإسقاط الرتب والنياشين التي كانت لطلعت باشا، مما دفعه أن يعيد إدارة جمعية الاتحاد والترقي خارج البلاد تحت اسم مستعار هو علي ساعي في برلين، وأنشأ نادياً أسماه: نادي الشرق، والتف حوله جمع من المناوئين لبقاء الخلافة والسلطنة العثمانية وعلى رأسهم مصطفى كمال، وتطورت معه الأمور حتى انتهت باغتياله على يد عملاء الاتحاد والترقي في برلين، ودفن بالمقبرة التركية في برلين، وكان قد كتب مذكراته في تلك الفترة، والتي أظهر فيها أشد الندم على مشاركته في الانقلاب ضد السلطان عبد الحميد.

أحمد آق كوندز «الدولة العثمانية المجهولة»، (ص: ٤٦٣).

يقول يلماز أوزتونا عنه: قومي متحمس، شعوره الديني غير كاف، مكار كالثعلب، حركي لا يهاب أحداً، جاهل من حيث العلم، كل عالمه الاتحاد والترقي، كان عديم الرحمة تجاه خصومه. «تاريخ الدولة العثمانية»، (٢/ ٢٢٦).

(٣) جمال باشا: أحمد جمال باشا، ولد في مدينة متليني في مايو (١٨٧٢م)، أحد زعماء الانقلاب على السلطان عبد الحميد، وأحد أقطاب الاتحاد والترقي، شغل منصب وزير الأشغال العامة سنة (١٩١٣م)، ثم منصب قائد البحرية (١٩١٤م)، وعُيِّن والياً على الشام، وحاول كسب العرب إلى جوار حكومته أثناء الحرب العالمية الأولى، غير أنه اعتمد سياسة البطش والإرهاب عندما ابتعد العرب عنه، وكل بهم حتى أطلق عليه اسم: جمال باشا السفاح، وبرغم قصر مدته في الشام إلا أنه ارتكب بها الفظائع، وقاد الجيش الرابع العثماني لصعد المهجوم على مصر سنة (١٩١٥م)، وقد خسر خسارة فادحة على ضفاف قناة السويس في معركة رمانة، انتهى به الأمر أن قُتل في تفليس في جورجيا سنة (١٩٢٢م)، وعمره (٥٠) سنة.

فلقد استطاعت هذه القوى المضادة للسلطان أن تسيّر مظاهرات صاخبة في عدة مدن، على رأسها مركز الماسونية في الدولة: سلانيك، فخرجوا مطالبين بعودة الحياة البرلمانية والعمل بالدستور، وهدّدوا بالزحف على العاصمة إسطنبول، مما اضطر السلطان أن يعلن المشروطة الثانية وعودة الحياة البرلمانية سنة (١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م)، وفي الرابع والعشرين من ذي القعدة (١٣٢٦هـ) / السابع عشر من ديسمبر (١٩٠٨م) تم افتتاح البرلمان بعد أن أُجريت الانتخابات؛ وكان بعضويته مئتان وخمسة وسبعين مبعوث، منهم مئة وأربعون تركيا فقط، والبقية من العرقيات الأخرى، الذين عملوا من أجل قومياتهم ومللهم ونحلهم والدفاع عن استقلالهم وانفصالهم عن الدولة، فكان البرلمان مسماراً دق في نعش الدولة، وكان واحداً من العوامل التي أدت إلى تفتيتها^(١).

- أحداث (٣١) مارت: (٢٤ ربيع الأول ١٣٢٧هـ / ١٤ أبريل ١٩٠٩م)^(٢):

قام الاتحاديون بتدبير مؤامرة لإخفاء مظالمهم عن أعين الناس، فلقد انتشرت جرائم القتل المسجلة ضد المجهولين في أنحاء العاصمة، في الوقت الذي بدأ الغليان الشعبي يظهر مطالباً بتغيير مجلس النواب الذي يدعو إلى تقسيم الدولة؛ إلى جانب رغبة الاتحاديين في خلع السلطان عبد الحميد، وذلك بمساعدة من المخابرات البريطانية، فقاموا بتدبير الفوضى وزعزعة أمن العاصمة، والذي ترتب عليه قتل بعض العسكر، وبشكل مجهول وقعت الاضطرابات في العاصمة، وقد فوجئ السلطان بها، وفي خديعة كبرى رفع هؤلاء شعارات باسم الدين، ليقضوا على ما تبقى منه في الدولة، ومثال ذلك: هتفوا: ضيّعت الشريعة، الشريعة تُنتهك، واحتشدوا أمام مسجد آيا صوفيا، والسلطان أحمد مطالبين بعزل الصدر الأعظم حسين حلمي باشا، وعزل رئيس مجلس النواب أحمد رضا بك، ونفي الاتحاديين، ليخدعوا الجماهير للانضمام إليهم، فاحتشدت جموع من الشعب ومن الحمالين - خاصة - إلى هؤلاء.

وظاهر هذا الاحتجاج أنه ضد الاتحاد والترقي، ونصرة للشريعة ولحاميتها الخليفة عبد الحميد الثاني، ولكنه في حقيقته مؤامرة، دبرها الاتحاديون مع المخابرات البريطانية لخلع السلطان

(١) أحمد آق كوندز «الدولة العثمانية المجهولة»، (ص: ٤٤٨).

(٢) راجع أحمد آق كوندز «الدولة العثمانية المجهولة»، (ص: ٤٥٠ - ٤٥٣).



وردد الشعب، وازداد الطين بلة أن قام هؤلاء المحتججون بقتل وزير العدل ناظم باشا، ظناً منهم أنه أحمد رضا بك، كما قاموا بقتل غيره من رجال الدولة.

اضطر السلطان أمام هذه الأحداث أن يستدعي قائد الفرقة الثانية: محمود مختار باشا، ويطلبَ منه إخماد العصيان، ولكن مع الأسف رفض هذا القائد تنفيذ التعليمات السلطانية، بحجة انتظار الأمر من قائد الجيش، وانضم إلى هؤلاء الجنود المتمردين، الجهلة والغوغاء، الذين أحدثوا الفوضى العارمة، وكان بينهم نفر من أهل الدين فاقدو البصيرة، فانفلت زمام الأمور، وحاول بعض العلماء المنصفين تحذير الجنود والحمالين من الانسياق في المؤامرة، فاستجاب بعضهم، وأما الكثرة، فبقيت على ما هي عليه، وقد لُطخت أيديهم بالدماء.

وفي هذه الأجواء المشحونة سَيرَ الاتحاديون عسكرهم - من سلايك إلى العاصمة إسطنبول - وسيطروا عليها تحت شعار حراس الحرية، وحماة المشروطة، ونجدة السلطان بقيادة محمود شوكت باشا، وبلغ السلطان عبد الحميد الأمر عن طريق قائد الجيش الأول ناظم باشا، الذي حذر السلطان من عواقب الأمور، وقرّر ضرورة التدخل والحسم، لكن السلطان عبد الحميد امتنع عن إصدار الأوامر له لمواجهة جيش سلايك، خشية قتل المسلم لأخيه المسلم، بل أخذ عليه عهداً، وجعله يقسم قسماً ألا يشهر السلاح في وجه قوات الحركة.

دخل جيش الحركة إلى العاصمة في السادس من رجب (١٣٢٧ هـ)، وسيطر على العاصمة، وأعلن الأحكام العرفية وحالة الطوارئ التامة في البلاد، وبدأ بإعدام الآلاف، ومعظمهم من الأبرياء، وقام بنهب قصر يلدز مقر السلطان، حتى أنهم تخاطفوا أثاث القصر، وحطموا سيارة السلطان قطعاً، ونهبوها، وكأنه جيش يوناني دخل إسطنبول فاتحاً.

وبعد هذه الأعمال التي دبرها الاتحاديون، وأشعلوا نارها، كانت الخسارة على الدولة والشعب، ثم أقام الاتحاديون المحاكم العسكرية، التي أعدمّت الكثير من الأبرياء، وما بقي من الأمر إلا عزل السلطان.

قام رجال الاتحاد والترقي بإصدار فتوى من شيخ الإسلام (ألعبوة الماسونية) محمد ضياء الدين أفندي بعزل السلطان، كما أخذوا الموافقة بالإجماع من البرلمان على عزل السلطان، فقام الاتحاديون بتشكيل لجنة وأرسلوا معها نص بيان بعزل السلطان، ذهبوا به إلى قصر يلدز، حيث يقيم السلطان، وكان أعضاء هذه اللجنة من أصحاب ديانات حاقدة على الإسلام، وفي ذلك دليل على أن الاتحاديين إنما كانوا ألعبوة في يد القوى الصليبية واليهودية المعادية للإسلام.

تشكلت هذه اللجنة من:

١. آرام أفندي، وهو نصراني أرمني، من أبرز أعضاء مجلس الأعيان العثماني.
 ٢. عما نويل قره صوه اليهودي، أحد الذين طُردوا مع الوفد اليهودي، الذي لقي السلطان من أجل إنشاء وطن لليهود في فلسطين، وكان آنذاك نائباً عن سلانيك في البرلمان، وقد لعب أدواراً خبيثة في إنهاء الدولة والانقضاض عليها.
 ٣. أسعد طوبطاني^(١)، علماني ألباني، ممثل في البرلمان عن منطقة دراج.
 ٤. عارف حكمت^(٢)، كردي عراقي، وقيادي عسكري برتبة فريق بحري، وعضو مجلس الأعيان.
- وقد تلوا على السلطان قرار عزله^(٣) ونفيه إلى سلانيك، وبذلك تم خلع السلطان في واحدة من المؤامرات التي توالى على الدولة.

(١) أسعد باشا الطوبطاني: كان أسعد باشا مجاور السلطان، وأدين أثناء حرب البلقان باغتيال حسن رضا باشا القائد الذي دافع عن مدينة شقودرة، وكان أسعد على صلة وتعاون مع الإيطاليين أعداء الدولة العثمانية، من أجل أن يتولى رئاسة بلاد ألبانيا، وقد اغتاله أحد الشبان الألبان في باريس. «مذكرات السلطان عبد الحميد»، (ص: ٢٠٣).

(٢) عارف حكمت باشا: كان من مرافقي السلطان عبد الحميد، ومن الذين نالوا الكثير من أفضاله. «مذكرات السلطان عبد الحميد»، (ص: ٢٠٣).

(٣) يقول السلطان عبد الحميد في مذكراته: إن ما يحزنني ليس الإبعاد عن السلطة، ولكنها المعاملة غير المحترمة التي ألقتها بعد كلمات أسعد باشا: عزلتك الأمة، بطريقة ينعدم فيها الأدب لسلطان وخليفة لم يسئ إليه، وبطريقة خرجت عن كل حدود الأدب.

التفتُ إلى عارف حكمت باشا وقلت: إنني أنحني للشرعية ولقرار البرلمان، إني مستريح الضمير، وإننا أريد أن يكون معلوماً جيداً أنه لم يكن لي أدنى علاقة لا من بعيد ولا من قريب للأحداث التي تفجرت في (٣١) مارت، وعلى أمتي أن تبحث عن هؤلاء الذين كانوا السبب في هذه الأحداث، وعليها أيضاً أن تحاسبهم، إن ما أصاب البلاد العثمانية لكبير في ضرره، وإنني أشكو إلى رب العالمين هؤلاء الذين أسأؤوا إلى بلادي.

يضيف السلطان عبد الحميد متذكراً هذا الحدث: كان ابني الأمير عبد الرحيم بجواري يبكي، والصراخ يعلو من ناحية مكان الرحيم، وكانت أصوات الجنود قادمة من فناء القصر، كما كانت أصوات المدافع آتية من خارج القصر وهي تعلن مراسم جلوس السلطان الجديد محمد رشاد.

شيء غريب! أحس بالراحة والسكينة إلى آخر حد، وكأن جبلاً انزاح من فوق صدري، رغم أن حياتي لم تعد آمنة، كما كان في ذهني كل المصائب التي حاقت بعلمي السلطان عبد العزيز، كما أن التفكير في أنني متوضئ يمنحني قوة ذات طعم مختلف. «مذكرات السلطان عبد الحميد»، (ص: ٢٠٥-٢٠٨) / بتصرف.



انتقل السلطان عبد الحميد إلى منفاه بصورة لا تليق به ولا بمقام الخلافة؛ حيث نفوه إلى سلانيك، ووضعوه في قصر أحد اليهود: (قصر ألاتيني)، وظل منفياً هناك إلى أن وقعت أحداث الحرب العالمية الأولى، وقد عاش أحداثاً مؤلمة في تلك السنوات، يمكن مراجعتها من مذكرات السلطان نفسه، ومن مذكرات ابنته الأميرة عائشة.

أحضر السلطان عبد الحميد من منفاه عندما اشتدت الحرب، وبدأت الدولة تفقد سيطرتها على ما تبقى لها في أوروبا، ووضعوه في قصر بايليربي بإسطنبول، وشاء الله تعالى أن ينزل هذا المكان الذي ولد فيه ومات فيه أمه مما سرى عن نفسه، حتى أسلم روحه لربه في يوم الأحد الثامن والعشرين من ربيع الأول (١٣٣٦هـ) / العاشر من فبراير (١٩١٨م).

توفي رحمه الله مغموماً ومهموماً بسبب ما جرى من أحداث، شاهد خلالها هذه الدولة العظيمة وهي تنهار، بعد هذه المسيرة الطويلة، فرحمه الله رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته، ودفن بإسطنبول إلى جوار عمه السلطان محمود.



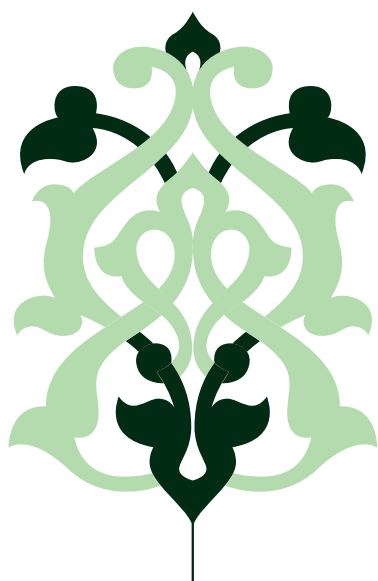
الفصل الثالث عشر



الخلفاء

مُحَمَّدُ رَشَادِ الْخَامِسُ

مُحَمَّدُ وَحِيدُ الدِّينِ السَّادِسُ - عَبْدُ الْمَجِيدِ الثَّانِي



تَراجِمُ الخُلفاءِ العُثمانيِّينَ

(٧)



ال خليفة السابع والعشرون: محمد رشاد «الخامس» بن عبد المجيد الأول (١٣٢٨هـ - ١٣٣٦هـ) / (١٩٠٩م - ١٩١٨م):

السلطان محمد رشاد بن السلطان عبد المجيد الأول، ولد في سنة (١٢٦٠هـ / ١٨٤٤م)، وهو أصغر من أخيه السلطان عبد الحميد بسنة واحدة، كان عمره عندما تولى الخلافة ثمانياً وستين سنة هجرية، حيث تولى في السابع من ربيع الآخر سنة (١٣٢٨هـ)، أي خمساً وستين بالسنوات الميلادية، حيث تولى في السابع والعشرين من أبريل سنة (١٩٠٩م). حظي منذ الصغر بنصيب وافر من التعليم، وخاصة العلوم الإسلامية والفنون المختلفة، فأصبح شاعراً وخطاطاً، كما أجاد عدة لغات إلى جانب التركية، منها: العربية والفرنسية والفارسية.

• أهم الأحداث في عصره:

تولى السلطان محمد رشاد بعد مؤامرة خلع أخيه السلطان عبد الحميد من الخلافة على أيدي جمعية الاتحاد والترقي، الذين نصبوا محمد رشاد صورة غير فعالة في واجهة الدولة، إذ إن الأمور أصبحت في أيدي رجالات الجمعية، وعلى رأسهم رؤوس الفتنة الثلاثة: طلعت باشا، وأنور باشا، وجمال باشا، الذين تضعضعت أركان الدولة على أيديهم، عليهم من الله ما يستحقونه.

لم يكن لدى السلطان محمد رشاد القدرة أو الوسائل لمواجهة هؤلاء القوم، لذلك أصبح السلطان خاضعاً لكل ما يملئ عليه منهم ولطالبهم.

وترتب على ذلك السياسة الخاطئة للاتحاد والترقي الذين تسلطوا على الدولة خاصة بعد الانتخابات النيابية التي جرت سنة (١٣٣٠هـ / ١٩١١م)، والتي حقق فيها الاتحاديون فوزاً ساحقاً، بسبب الدعاوى القومية والعصبية الجاهلية، التي كانت تؤيدها العصابات المحلية لكل قومية داخل الدولة.



لقد ظهرت آثار السياسة الخاطئة والمنحرفة للاتحاديين واضحةً وجليّة في سياسة الدولة، وتعاملها مع الأحداث المتوالية؛ وكذلك ظهرت أكثر عند تغيير الأفراد الذين تناوبوا على منصب الصدر الأعظم^(١).

وكذلك اتضح مدى سوء الإدارة العثمانية في مواجهتها لإيطاليا، والتي أدت إلى ضياع طرابلس الغرب، وبنغازي (ليبيا) من يد الدولة، بسبب سياسة هؤلاء، كما فقدت الدولة أيضاً جزيرة رودس أثناء ذلك، وخسارتهم كذلك في مواجهتهم لثورات البلقان، وغيرها من السياسات الخاطئة التي أودت بحياة الدولة العثمانية.

- موقف السلطان محمد رشاد من الأحداث:

من المؤسف أن السلطان محمد رشاد خضع لمطالب الاتحاديين من غير رضئ منه، مما أدى إلى خرق الأصول والقواعد المتبعة في نظام الدولة، والذي ترتب عليه دفع الدولة إلى أتون حرب، من غير علم السلطان.

(١) أكثرت حكومة الاتحاديين التغيير في منصب الصدر الأعظم، وذلك لعوامل عدة منها: أن بعضهم لم يوافقهم في سياستهم، وأبى أن يكون ألعوبة في أيديهم، فبعد تولي السلطان محمد رشاد للسلطنة استقال توفيق باشا الصدر الأعظم بعد ثلاثة أسابيع من تعيينه، وتولى حسين حلمي باشا الصدارة، فاستقال بعد سبعة أشهر.

ثم قام الاتحاديون بتعيين إبراهيم حقي بك صدراً أعظم دون روية أو نظر، فلقد كان إبراهيم حقي بك يعمل آنذاك سفيراً للدولة في روما، وتم تعيينه في الصدارة رغم أنه لم يكن وزيراً أو ذا رتبة عسكرية كبرى، تؤهله لذلك، فلقد تخرج من المدرسة الملكية (الحقوق) كرجل قانون متخصص في القانون الدولي، غير أن مؤهلاته بالنسبة هؤلاء كانت تتمثل أنه رجل صاحب ثقافة غربية، جاهل تمام الجهل بتركيا العثمانية، معتاد على الحياة الأوروبية، متفرنح، غافل، قليل الذكاء، محروم من الشعور بالمسؤولية.

وبعد سنة وتسعة أشهر كانت استقالته أو إقالته بسبب فاجعة ليبيا، واجتماع البرلمان واتهام نواب ليبيا له شخصياً في المجلس ومطالبتهم برأسه وقلته، ولقد قال في اجتماع الوزارة معترفاً: كان السلاطين قديماً يأمرهم بقطع رؤوس الذين هم في مثل وضعي على حجر مسلة ركوب الخيل. وتحت ضغط الاتحاد والترقي قام السلطان بحل مجلس النواب، في لعبة برلمانية من الاتحاديين، الذين ضمنوا عدم مناقشة التقرير الذي قدم ضد حقي باشا، ثم قاموا بإرساله إلى لندن على عجل لإنقاذ حياته.

تم تعيين كوجك سعيد باشا رئيس مجلس الأعيان صدراً أعظم بعد حقي باشا، فاستقال بوزارته بعد ثلاثة أشهر، وفي اليوم الثاني قام بتشكيل الوزارة مرة أخرى، ثم استقال بعد ستة أشهر ونصف، فتم تعيين قاطورجي أوغلو غازي أحمد مختار باشا صدراً أعظم، وكان طاعناً في السن، ذا شهرة عسكرية واسعة، منذ زمان السلطان عبد الحميد، وقد عينوه، وقد استمر في منصبه ثلاثة أشهر وثمانية أيام، ولم يستطع الاستمرار مع هؤلاء القوم، فقدم استقالته، وانسحب. عُيِّن بدلاً عنه قنبر صلي محمد كامل باشا، والذي كان عدواً للاتحاديين، لكنهم أتوا به ليتخلصوا من حرب البلقان بأقل ضرر، وسقطت وزارته بعد شهرين وخمسة وعشرين يوماً في حادثة اقتحام الباب العالي على يد الاتحاديين، وقد توفي بعد ذلك بعدة أشهر.

قام الاتحاديون بعد ذلك بتعيين محمود شوكت باشا صدراً أعظم، ثم قُتل بعد أربعة أشهر من توليه المنصب، وكان يميل إلى الاتحاديين مخدوعاً بهم، وقد اعترض السلطان على تعيينه، وما يذكر أنه عند لفظ أنفاسه الأخيرة قال عن الاتحاديين: مخلوقات عديمة المخ.

قام الاتحاديون بعد ذلك بتنصيب محمد سعيد حليم باشا صدراً أعظم، وقد اعترض السلطان على ذلك، كما اعترض على الذي سبقه لميلهما للاتحاد والترقي، والرجل أصبح ألعوبة في يد الحزب، حتى إنه لم يُبلغ بالدخول للحرب العالمية الأولى من قبل الثلاثي الاتحادي، وبعد ثلاث سنوات وثلاثية أشهر تم عزله.

تولى بعد ذلك طلعت بك منصب الصدارة وهو لا يحمل أية رتبة، وقد منحوه رتبة وزير، ثم مباشرة عيّنه صدراً أعظم، وهذه الحادثة هي الوحيدة في التاريخ العثماني، وكما هو معلوم عمل ناظرًا للدخول للحزب، ومثل الرأس الحقيقي في وزارة سعيد حليم باشا، وظل في مقامه هذا لمدة سنة وثمانية أشهر، ثم استقال بعد خروج الدولة بخسارة فادحة في الحرب العالمية الأولى، ثم قُتل بعد ذلك على يد أرمني في برلين. يلماز أوزتونا: «تاريخ الدولة العثمانية»، (٢٠٤-٢٠٧).

يقول د. أحمد آق كوندز^(١): إن إدارة الدولة العثمانية لم تنحط هذا الانحطاط، ولم تسقط في أيدي فاسدة أشد مما حصل في هذه المرحلة، حتى إن شيخ الإسلام موسى كاظم أفندي ماسوني، لا تخفى ماسونيته. ا.هـ.

أدت هذه الفوضى وسوء إدارة الحكم إلى ثورات للفرق المنحرفة وغيرها في الدولة، فلقد ثار الدروز في بلاد الشام، والشيعية الزيديون في بلاد اليمن، كما ثار الأرناؤوط الألبان في البلقان.

اضطرت هذه الأحداث المؤسفة - وخاصة ثورة الأرناؤوط في ألبانيا - السلطان أن يخرج لزيارة الولايات الأوروبية بصحبة الصدر الأعظم وأركان الدولة وعلماء الإسلام؛ مما أدى إلى إخماد نار العصيان لثورة الأرناؤوط بأداء الخليفة الصلاة مع أكثر من مئة ألف من الألبان في ميدان كوسوفا في جمادى الآخرة (١٣٢٩هـ) / يونيو (١٩١١م)^(٢).

وسبحان الله القائل: ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، فلقد أطفأت الصلاة وحر الصدور، والفوران والغليان الذي كان يجري في دماء الشعب الألباني الذي واجهه من قبل محمود شوكت باشا قائد الجيش بقوات كبيرة، بلغت اثنين وثمانين سرية عسكرية، وبأسلحة كثيرة^(٣)، ولم يستطع إخماد ثورتهم، وفي هذا بيان بأن اتباع أمر الله تعالى والعمل بما جاء في كتابه وسنة نبيه ﷺ هو المحقق لاستقامة الأمة شعوباً وحكاماً.

- الاحتلال الإيطالي لطرابلس الغرب وبنغازي «ليبيا» (١٣٣٠هـ / ١٩١١م):

كانت إيطاليا ترقب عن كثب السياسات التي تتحكم بالدولة العثمانية، لتنال نصيبها هي الأخرى من التركية، كما نالت من قبل بريطانيا وفرنسا وروسيا؛ وكانت قد رتبت لاحتلال ليبيا مع الدول الأوروبية، خاصة أن تونس قد ضاعت منها بسبب فرنسا، مما أتاح لها الفرصة والضوء الأخضر لأن تلتهم ليبيا، وقد عقدت بينها وبين فرنسا اتفاقية

(١) «الدولة العثمانية المجهولة»، (ص: ٤٥٦-٤٥٧).

(٢) أحمد آق كوندز «الدولة العثمانية المجهولة»، (ص: ٤٥٧).

(٣) يلماز أوزتونا «تاريخ الدولة العثمانية»، (٢/ ٢٠٨).



بإقرار فرنسا لإيطاليا احتلالها لليبيا، وأيضاً اعتراف ليبيا لفرنسا بنفوذها في تونس المجاورة ومراكش.

وقد أدت السياسات الخاطئة - على يد رجال الاتحاد والترقي في التعامل مع قضايا الأمة - أن تستغل إيطاليا الموقف، فقامت بشراء أراضٍ داخل ليبيا، وعملت على إنشاء مشروعات زراعية وتأسيس شركات نقل بحري بين أوروبا وليبيا، كما قامت بتأسيس مدارس إيطالية، وإرسال بعثات تنصيرية كاثوليكية، باعتبارها أنها تحتضن مقر الباباوية، وأنشأت الكثير من المستشفيات في المدن الرئيسية، كما شجعت الإيطاليين على الهجرة إلى ليبيا، واستيطانها، وهيأت لهم سبل الإقامة هناك.

وبمساعدة عميلها وعميل كل الدول الصليبية اليهودي عما نويل قره صوه قدمت إنذاراً للدولة العثمانية لاحتلال ليبيا، مستغلةً سوء إدارة جماعة الاتحاد والترقي للدولة العثمانية، حيث قاموا بنقل رجب باشا - والي طرابلس - إلى إسطنبول وزيراً للحرية، وساقوا إلى اليمن الفرقة التي عينها السلطان عبد الحميد في ليبيا لحمايتها، وقد أبقى عليها بإصرار، إذ إنه كان يعلم بأطماع إيطاليا تجاه ليبيا، فأصبحت ليبيا دون جيش ودون رئيس، وكأنها قدمت دعوة لإيطاليا نتيجة لعبة قدرة^(١).

وقد سوّغت إيطاليا فعلها ذلك بالتخلف الذي تعيشه ليبيا تحت حكم الدولة العثمانية؛ غير أن الدولة رفضت هذا الإنذار، واحتجت لدى الدول الأوروبية، ولكنه احتجاج من يستغيث بالنار من الرمضاء.

عندئذ تذرعت إيطاليا بالزحف الفرنسي والأسباني على مراكش وادّعت أنه يهدد المصالح الحيوية لإيطاليا، وأنها ستعمل على حفظ مصالحها وحماية رعاياها في شمال أفريقيا.

تقدمت القوات الإيطالية بأسطوفا الضخم، وقصفت السواحل الليبية، ولم تجد مقاومة كبيرة لضعف الوجود العثماني هناك، واحتلت طرابلس وبنغازي والخمس ودرنة وطبرق، وأعلنت ضمها واحتلالها لهذا الجزء من شمال أفريقيا، في خلال ثلاثة أسابيع.

(١) يلماز أوزتونا «تاريخ الدولة العثمانية»، (٢/ ٢٠٩).



حاولت الدولة العثمانية مواجهة ذلك بثلاثة من الضباط: الرائد أنور بك، والرائد فتحي بك، ونقيب متقدم مصطفى كمال بك^(١)، لتدريب سكان ليبيا، الذين استطاعوا كونهم مقاومة شعبية أن يوقفوا القوات الإيطالية عند السواحل، ولم يتمكن الإيطاليون أمام هذه المقاومة أن ينفذوا إلى الداخل، غير أنها ظلت في حرب مع الإيطاليين، الذين استطاعوا بعد ذلك أن يخضعوا ليبيا لهم في عهد موسوليني، ومما يذكر أنه انضم إلى المقاومين الضابط عزيز المصري^(٢).

كما قامت إيطاليا باحتلال جزيرة رودس - مركز جزر البحر الأبيض المتوسط للدولة العثمانية - في جمادى الأولى (١٣٣٠هـ) / مايو (١٩١٢م).

وانتهت حرب إيطاليا بمعاهدة لوزان الأولى، في ذي القعدة (١٣٣٠هـ) / أكتوبر (١٩١٢م)، والتي تخلّت خلالها الدولة العثمانية عن ليبيا رسمياً، مقابل أن تقوم إيطاليا بدفع تسعين ألف ليرة ذهبية ضريبة عنها في كل عام، كما يعيّن موظفٌ عثماني برتبة وزير مثلاً للسلطان بلقب نائب السلطنة، كما يُعيّن أصحاب الوظائف الدينية الرسمية من خلال الدولة العثمانية.

وأما رودس والجزر الاثنتي^(٣) عشرة، فقد أعيدت إلى العثمانيين.

(١) مصطفى كمال ضابط تركي يأتي ذكره عند إلغاء الخلافة، فهو رأس البلاء المكنى بأبي الأتراك (أتاتورك).

(٢) عزيز بن علي المصري: شخصية مربية غامضة، تاريخها يدل على مدى تغلغل الماسونية وأعداء الإسلام في بلداننا الإسلامية.

أصل أسرته من البصرة!!!! هاجر أجداده من أجل التجارة بالقفقاس، ثم نزح والده علي إلى الأستانة، ومنحه السلطان عبد الحميد أرضاً في مصر، فانتقل إليها، وهناك ولد عزيز، وتعلم في أول حياته، ثم التحق بالمدرسة الحربية بإسطنبول، وتخرج سنة (١٣٢٤هـ / ١٩٠٤م)، انخرط في عدة جمعيات منحرفة في العهد العثماني، منها الاتحاد والترقي، وشارك في حرب طرابلس في ليبيا، وكان له موقف مشين مع الليبيين، ثم عاد إلى الأستانة، انفصل عن جمعية الاتحاد والترقي، وشارك في تأليف حزب العهد العربي، واتصل بالإنجليز، واجتمعوا به في طهران!!!! تزوج بامرأة أمريكية، عمل مستشاراً للشريف حسين أثناء الحرب العالمية الأولى لثلاثة أشهر، ثم عاد إلى مصر، كُلف بإدارة مدرسة البوليس (الشرطة) من سنة (١٣٤٦هـ / ١٩٢٨م) إلى سنة (١٣٥٤هـ / ١٩٣٦م)، كلفه الملك فؤاد برعاية ولي عهده فاروق أثناء دراسته في لندن، كما عُيّن مفتشاً للجيش المصري في سنة (١٣٥٥هـ / ١٩٣٧م)، هرب من مصر في بدايات الحرب العالمية الثانية، والتحق بالقوات الألمانية في ليبيا، ثم ذهب إلى ألمانيا وأقام بها حتى سقوط برلين، عاد بعدها لمصر، لينقلب على ملكها فاروق مع حركة الجيش في سنة (١٣٧٢هـ / ١٩٥٢م)، عيّنه تلميذه جمال عبد الناصر سفيراً لمصر في موسكو، وتوفي بالقاهرة في أواسط السبعينيات. الزركلي «الأعلام»، (٢٣١ / ٤) - د. هدى درويش: «العلاقات التركية اليهودية»، (٣٨٦ / ١) نقلاً عن موفق بني المرجى: «صحوة الرجل المريض».

(٣) جزر الاثنتي عشرة: صغيرة في بحر إيجة بين تركيا واليونان، وقد فتحها السلطان سليمان القانوني، وقد استولت عليها اليونان بعد الحرب العالمية الثانية، وما زالت مشكلتها قائمة بين البلدين.

– انكماش الدولة العثمانية:

لقد استغلت الدول الأوروبية الصليبية هذه المواقف المتردية للدولة، وبدأت تتنافس على تركة الدولة العثمانية التي سميت: بالرجل المريض، فيما يسمى: بالمسألة الشرقية^(١)، وكان من هذا التخبط والتردي قيام الاتحاديين بتسريح مئة وعشرين سرية مدربة من الجنود العثمانيين في الولايات الأوروبية، واستبداهم بغير المدربين، وذلك بسبب وعود وضمانات كاذبة، قدمتها روسيا للحكومة العثمانية، على أنها لن تسمح بإشعال حرب في البلقان^(٢).

توالى بعد ذلك إعلان البلغار الحرب على الدولة العثمانية، ثم بعدهم الصرب، ثم بعدهم الجبل الأسود، ثم بعدهم اليونان، وكلهم قاموا بالتنسيق مع روسيا، فقامت ما يسمى بحرب البلقان (١٣٣٠هـ / ١٩١٢م).



(١) راجع المسألة الشرقية بالكتاب.

(٢) كانت صربيا قد ابتاعت من ألمانيا مدافع ثقيلة من طراز حديث، لكن خصاها: (النمسا والمجر) لم يسمحوا بمرور هذه الأسلحة من أراضيها إلى صربيا، ومن المؤسف أن الحكومة العثمانية الخاسرة لعبت دور حمامة السلام، فقامت بنقل هذه الأسلحة إلى ميناء سالانيك العثماني، ثم نقلتها إلى بلغراد بواسطة السكك الحديدية العثمانية. يلماز أوزتونا «تاريخ الدولة العثمانية»، (٢/ ٢١١) بتصرف.

قلت: شر البلية ما يضحك، نقلوا السلاح إلى الصرب وشركائهم من البلغار والجبل الأسود واليونان لتشتعل به حرب البلقان.

- حرب البلقان:

قامت حرب البلقان بسبب ما أسلفناه عن السياسات الخاطئة للحكومات المنحرفة التابعة للاتحاد والترقي؛ والتي أثخت العثمانيين بالجراح والآلام، إذ أن جيشها المدرب لا وجود له، وقد استُبدل به أشباه عسكري، وكان في هذه الأثناء أيضاً على رأس وزارة الخارجية العثمانية الأرمني النصراني جبريال نوراد أفندي، والذي خان الدولة العثمانية بعد ذلك.

هزمت القوات العثمانية المواجهة للصرب واليونانيين؛ وقام تحسين باشا في ذي القعدة (١٣٣٠هـ) / نوفمبر (١٩١٢م) بتسليم سلانيك إلى اليونان، والتي كان منفيّاً بها السلطان عبد الحميد بأمر من ضيَعوها، وكانوا يسمونها مهد الحرية، وقاموا بنقله إلى سراي بيليربي في إسطنبول^(١).

ومن المؤسف أن الألبان - المنادين بالبنانيا الكبرى - انضموا إلى هذه الحرب إلى جوار غير المسلمين، ضد الدولة العثمانية.

وتوالت الهزائم على القوات العثمانية، واندحر جيشها أمام البلغار، في شهر ذي الحجة (١٣٣٠هـ) / نوفمبر (١٩١٢م).

(١) يصف لنا السلطان عبد الحميد مشاعره عن الحالة التي وصلت إليها الدولة، وضياع سلانيك بسبب سياسة هؤلاء المنحرفين قائلاً لمبعوث الحكومة التي كلفته بنقل السلطان وأسرته إلى إسطنبول: يا راسم بك، سلانيك معناها باب إسطنبول، أين جيشنا؟ بل أين هم عساكرنا؟ كيف ترك سلانيك ونذهب؟ لو تركناها وذهبنا، ألن يصبق التاريخ وأجدادنا على وجوهنا؟ هل وافق حضرة السلطان أخي على إخلاء سلانيك؟ لا، أنا غير راض عن هذا، لا أوافق، لا تهتم أني في السبعينيات من عمري، أعطني بندقية، سأدافع عن سلانيك حتى آخر نفس في مع أولادي الجنود. ثم قال لذلك الرسول: يا راسم بك، إنني لن أخرج من هنا إلا جثة هامدة. وأضاف رحمه الله: إن الذي هزمتنا ليس الدول الأربع، وإنما تدخل الجيش في السياسة، وقال: اللهم! اقهر هؤلاء الذين وضعوا دولتي في هذا الموقف. اضطر السلطان في نهاية الأمر إلى المغادرة إلى إسطنبول، وهو يقول: أيمكن للسرور أن يدخل قلبي في يوم نكد عظيم كهذا اليوم؟ وخاصة أني قد علمت أن كل الطرق المؤدية إلى إسطنبول قد سقطت، ولا نستطيع الدخول إليها إلا عن طريق هذه السفينة التابعة للسفارة الألمانية فقط. ثم يضيف: كانت قمرة السفينة قد أُعدت لي، وفي لحظة جاءني قائد السفينة بمفرده، وأبلغني تحية الإمبراطور الألماني الخاصة، ثم قال لي: إن السفينة تحت أمركم المباشر يا صاحب الجلالة؟! لقد تلقيت أمراً شخصياً من الإمبراطور الألماني بأن تبحر السفينة إلى أي مكان تأمرون جلالتم بالتوجه إليه. ثم يقول: إلى أي مكان يستطيع أحد أفراد آل عثمان أن يذهب إليه تحت راية غير رايته العثمانية؟!، ليس لنا بعد الله إلا دولتنا. شكرت قائد السفينة، وقلت له أن يبحر بنا إلى إسطنبول، وأنا كل ما يحزنني التوبة التي حلت ببلادي. «مذكرات السلطان عبد الحميد»، ترجمة محمد حرب (ص: ٢٤٩-٢٥٣) / بتصرف.



وتوالت بعد ذلك الأحداث بما هو مؤسف، حيث سلمت أدرنة^(١) إلى البلغار، ويانيا^(٢) إلى اليونان، كما خان الدولة أسعد طبوداني باشا الألباني أحد المشاركين في فريق خلع السلطان عبد الحميد، وظهر الاتفاق بين البلغار والصرب والألمان واليونان ضد الدولة العثمانية.

- اقتحام الباب العالي «مجلس الوزراء»:

وبعد هذه الهزائم المتوالية^(٣) - والتي لم يمرّ على الدولة مثلها من قبل - وقع الاتحاديون في صراعات فيما بينهم، وانقسموا انقساماً شديداً إلى فريقين، الأول: باسم اتحادي، والثاني: خلاص كار، وكلاهما معادي للآخر.

ولقد ظهر ذلك جلياً حين قام أنور باشا - أحد هؤلاء الاتحاديين - بقيادة مجموعة من أنصاره باقتحام الباب العالي، مما أدى إلى إراقة دماء بعض الضباط والجنود، كما قُتل وزير الحرية ناظم باشا، وأصبحت الحكومة ومناصبها ألعوبة في أيدي أنور باشا ومجموعته، وقد نصب طلعت بك نفسه ناظراً للداخلية، وبعث أمراً برقياً إلى كل الولايات، كما أرغم المتمرّدون السلطان على تعيين محمود شوكت صدراً أعظم.

- معاهدة لندن:

خلال هذه الأجواء من النزاعات الداخلية، وفقدان الدولة لهذه المساحات الهائلة من ولاياتها في أوروبا، بدعم من روسيا، كان لابدّ للإنجليز الخصم اللدود من التدخل لإنهاء حرب البلقان في جمادى الآخرة (١٣٣١هـ) / مايو (١٩١٣م)، والتي وقّعت

(١) أدرنة: إحدى محافظات تركيا اليوم، وتقع في أقصى الجهة الشمالية الغربية من تركيا الأوروبية قريباً من الحدود البلغارية واليونانية، فتحها العثمانيون في عهد السلطان مراد الأول سنة (٧٦٣هـ / ١٣٦٢م)، واتخذها عاصمة للدولة، وبقيت كذلك إلى عهد السلطان محمد الفاتح، حيث نقل العاصمة إلى القسطنطينية، التي أطلق عليها إسطنبول (٨٥٧هـ / ١٤٥٣م)، وتعدّ أدرنة من أجمل المدن التاريخية في العالم، حيث إنها متحف مفتوح بها حوته من معالم تاريخية وحضارية رائعة.

(٢) يانيا: مدينة تاريخية، تقع اليوم شمال غرب اليونان، فتحها العثمانيون في عهد مراد الأول سنة (٧٦٣هـ / ١٣٦٢م) بعد فتح أدرنة، وضاعت منهم بعد حرب البلقان (١٣٣٠هـ / ١٩١٢م).

(٣) كان الاتحاديون مغرورين للغاية، حتى أنهم أقنعوا أنفسهم بأن النصر حليفهم بالبلقان، وأظهروا ذلك، حتى إن الدول الكبرى قلقت في بداية الحرب قلقاً شديداً لإيقانها بانتصار العثمانيين بشكل قطعي.

ومن أمثلة هذا الغرور ما أجاب به ناظر الخارجية عاصم بك في خطابه على مناقشات البرلمان، وقلق النواب على البلقان، وطلبهم اتخاذ التدابير اللازمة، فقال: إنني معتمد على البلقان بقدر اعتمادي على إيماني. وهي كلمات تدل على أدب الغفلة، وتدل على أنه كان مغفلاً مغروراً، أو كان يخادع الأمة. يلماز أوزتونا «تاريخ الدولة العثمانية»، (٢/ ٢١٢) بتصرف.

فيها الحكومة العثمانية على معاهدة لندن، والتي بموجبها أعلنت الانسحاب الكامل من بلاد البلقان، وترك أدرنة للبلغار، وكأنهم يعلنون نعي الدولة، حيث فقد العثمانيون الولايات الأوروبية كاملة (الرومي) بعد أن بقيت جزءاً من الدولة لمدة خمسة قرون ونصف، فضاعت بذلك حصيلة العصور؛ وأضحت الدولة ضائعة في طريقها للنهاية.

وأما الألبان الذين خانوا الدولة من أجل تحقيق حلم ألبانيا الكبرى، فلم يتحقق لهم ذلك في هذه المعاهدة، حيث مُنح إقليم قوصوا (كوسوفا) ومناستر إلى الصرب، فذاقوا من نفس الكأس التي شرب منها العثمانيون.

فلقد أعلنوا الاستقلال عن الدولة العثمانية، وانتخبوا - بموافقة الدول الكبرى الصليبية - بهاء الدين أفندي الابن الأوسط للسلطان عبد الحميد، فرفض، وأبى عليهم ذلك، وكان يأمل ألا يضيع حقه في تولي الخلافة!!!.

فقامت الدول الصليبية الكبرى بإرسال أحد الأمراء الألمان الصغار أميراً على ألبانيا، وسمي بأمير ألبانيا، فتم تعيين حاكم نصراني على دولة، يدين أكثر من سبعين بالمئة من شعبها بالإسلام^(١).

- الاتحاديون وموقفهم بعد معاهدة لندن:

صُدم الاتحاديون بفقدانهم للبلقان كاملاً، بل وأدرنة، فأعلنوا الأحكام العرفية في البلاد، لمواجهة كل معارضة لهم، وفي هذه الأثناء قاموا باغتيال محمود شوكت باشا الصدر الأعظم، الذي نصبوه بأنفسهم^(٢)، كما أُغتيل محمود باشا المتهم بالتعاون مع الإنجليز، وأُعدم على أثر ذلك تسعة وعشرون رجلاً، كما أُعدم صالح باشا صهر الأسرة العثمانية^(٣).

(١) يلماز أوزتونا «تاريخ الدولة العثمانية»، (٢/ ٢٢٠).

(٢) كان محمود شوكت باشا الصدر الأعظم في سيارته مع مرافقه، حيث هجم عليه ثمانية من المتآمرين، وأطلقوا عليه وإبلاً من الرصاص، فأردوه قتيلاً هو ومرافقه.

وكان محمود شوكت باشا قد وقع في أخطاء وجرائم سياسية وعسكرية وإنسانية كبيرة، غير أنه بعد ذلك نضح، وأدرك أهمية الدور المناط به، خاصة بعد فقدان الدولة للرومي، فأصبحت بين أتراك وعرب، وأدرك شوكت باشا أن أي خلاف مع العرب من شأنه أن يقضي على الدولة تماماً، خاصة وأن بريطانيا اقتربت من خليج البصرة (الخليج العربي)، وأظهرت مطامعها في الكويت وقطر، واستغل شوكت باشا إجادته للغة العربية، فكان يتحدث بها مع الأشراف والنواب، ويقول: إنه عربي، وكان يحاول أن يكسب ود العرب، ولمْ شعث الدولة، ومنع بريطانيا من تحقيق أطماعها، مما أدى إلى تحرك بريطانيا مستخدمة أذنانها للتخلص من الرجل الوحيد في نظرها الذي يستطيع صيانة الدولة من كارثة الحرب العالمية القادمة، والقضاء على مؤامرات الصبية المراهقة من الاتحاديين. يلماز أوزتونا «تاريخ الدولة العثمانية»، (٢/ ٢٢١-٢٢٢) بتصرف.

(٣) أحمد آق كوندز «الدولة العثمانية المجهولة»، (ص: ٤٥٩).



ثم أجبروا السلطان محمد رشاد على تنصيب الأمير سعيد حليم باشا صديراً أعظم ووزيراً للخارجية، وبقيت الداخلية بيد طلعت بك، وقام أنور بك بكل صلاحيات الجيش كافة، كما أنيط بجمال بك القيام بقيادة الأسطول، وإدارة الولايات العربية، ليصبح الحكم حكماً دكتاتورياً للدولة العثمانية.

- تطور الأحداث:

- حرب البلقان الثانية: اندلعت هذه الحرب الثانية في محاولة من الطغمة الحاكمة لمحو العار السابق؛ وذلك بعد مقتل محمود شوكت باشا بثمانية عشر يوم، واستطاعوا استرداد أدرنة وتراقيا الغربية^(١)، وانتهت هذه الحرب بعد اثنين وأربعين يوماً من معاهدة أكريش (بوخارست) في رمضان (١٣٣١هـ) / أغسطس (١٩١٣م).

- قرار دخول الحرب العالمية الأولى: منح انتصار أدرنة هذه الطغمة مكانة مؤقتة بين الناس، وأصبحت الدولة في أيديهم، وظل الوضع على ما هو عليه إلى أن اندلعت الحرب العالمية الأولى، والتي شاركت فيها الدولة العثمانية من غير تأنٍ، ولا بصيرة، فلقد أصدرت هذه الطغمة قراراً بدخول الحرب إلى جوار دول المحور أو الوسط (ألمانيا والنمسا والمجر)، ضد دول الحلفاء أو الوفاق (بريطانيا وفرنسا وروسيا)، وكان هذا القرار بغير علم السلطان؛ وقد دخلت الدولة الحرب في العاشر من ذي الحجة (١٣٣٢هـ) الموافق (٢٩ أكتوبر ١٩١٤م)، أي بعد ثلاثة أشهر من انطلاق هذه الحرب^(٢).

ولم تحصد الدولة العثمانية من وراء هذا القرار سوى الخسارة في الأموال والأرواح والأراضي الشاسعة، لقد خسرت في صالي قامش^(٣) من جبهة روسيا فقط تسعين ألفاً من أبنائها، كما خسرت ولاية وان^(٤) بعد دخول الروس إليها، ثم انسحابهم، وتسليمها للأرمن، الذين قتلوا الآلاف من المسلمين في مذابح سميت: بتهجير الأرمن للمسلمين، أو التطهير العرقي في سنة (١٣٣٦هـ / ١٩١٨م).

(١) تراقيا الغربية: مدينة حدودية تقع بعد أدرنة مباشرة، استولت عليها اليونان، ولا يزال معظم أهلها يدينون بالإسلام.

(٢) راجع ملف الحرب العالمية الأولى بالكتاب.

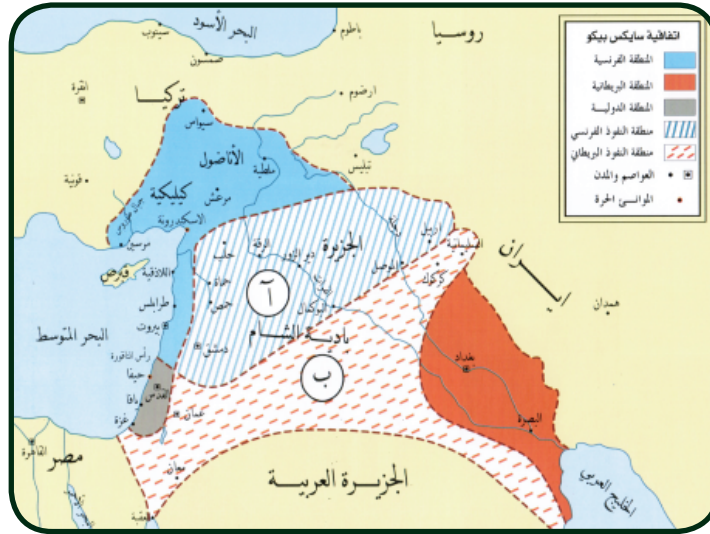
(٣) صالي قامش: مدينة تقع بولاية قارص شرقي تركيا، نشبت بها معركة بين الجيش العثماني الثالث، والجيش الروسي، قُتل فيها تسعون ألفاً من الجيش العثماني، معظمهم مات بسبب شدة البرد.

(٤) وان: مدينة تدعى اليوم بمحافظة وان، وهي في أقصى شرق الأناضول بتركيا، غالب سكانها من الأكراد.

ومما ترتب على السياسات الخاطئة لهذه الطغمة قيام الشريف حسين شريف مكة وأبنائه بما يسمى بالثورة العربية، والوقوف إلى جوار بريطانيا ضد الدولة العثمانية، أثناء الحرب أملاً بنيل الاستقلال، وتكوين دولة عربية تحت زعامته.

– اتفاقية سايكس بيكو^(١):

وفي غضون ذلك اتفقت كل من روسيا القيصرية وبريطانيا وفرنسا في معاهدة سرية تامة على اقتسام أملاك الدولة العثمانية، على النحو التالي: روسيا تفوز بالمضايق: البسفور والدردنيل وما حولهما، وفرنسا بسورية ولبنان، وبريطانيا بالعراق وشرق الأردن وفلسطين؛ وهذه المعاهدة تم الكشف عنها بعد قيام الثورة الشيوعية في روسيا (١٩١٧م)، وخروجها من الحرب، وفصح الشيوعيين لروسيا القيصرية ودورها في هذه الاتفاقية.



خريطة اتفاقية سايكس بيكو

– وعد بلفور:

ومما زاد الطين بلة إعلان بريطانيا على لسان وزير خارجيتها آرثر بلفور إعلاناً بوعد لليهود، بإنشاء وطن قومي لهم في أرض المسلمين بفلسطين.

(١) عرفت هذه الاتفاقية بهذا الاسم نسبة إلى مارك سايكس ممثل بريطانيا، وجورج بيكو ممثل فرنسا.



ثم كانت الخاتمة للحرب بهزيمة الدولة في كافة الجبهات، وسقوط الولايات العربية فريسةً للمستعمر الصليبي الأوروبي، وذلك كله بسبب انفراد هؤلاء الاتحاديين بقرارهم، يدفعهم الغرور والشعور بالقدرة على تسيير الأمور، فأسقطوا الدولة في الهاوية، وأوصلوها إلى ما وصلت إليه^(١)، ولم يبق أمام الدول الصليبية إلا القضاء على نظام الخلافة الإسلامية، كما سيأتي.

حدثت هذه الهزيمة للدولة بسبب هذه الطغمة؛ فأفرادها هم الذين أدخلوا الدولة في هذا الجحيم، دون دراية منهم بعواقب الأمور، وشهد الأناضول الاستيلاء على بعض مناطقه لأول مرة منذ أكثر من سبعة قرون، وجاءت الدول الصليبية التي كانت تنظر إلى الدولة العثمانية أنها (مانعة الصواعق) للإسلام، جاءت لتنفث سموم حقدتها، وكانت إنجلترا في مقدمتهم، لقد ظهر ذلك جلياً عندما اقتحم اللورد ألنبي بيت المقدس، بمساعدة الشريف حسين وأبنائه قائلاً: اليوم أُخْتُمَت الحروب الصليبية بالنصر.

فهذه حقيقتهم، لقد أطالت بريطانيا الحرب سنتين آخرين في محاولة لإفناء الدولة العثمانية، وتكبدت خسائر ليست بالهينة، وبمساعدة الروس والفرنسيين ساقطت بريطانيا أكثر من مليون جندي، وأنفقت سبعمئة وخمسين مليون جنيه إسترليني ذهبٍ في حرب بلغت تكلفتها (٣٣٢) مليار دولارٍ ذهبي، إلى جانب أضرار وثورات وأرواح لا يمكن حصرها أو حسابها من أجل إفناء الدولة العثمانية، قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّىٰ رُدُّوكُم مِّن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧].

ولقد مات في هذه الأثناء السلطان المعزول عبد الحميد رحمه الله مغموماً ومهموماً بسبب ما جرى من أحداث، كما تقدم، وكذلك لحق به أخوه السلطان محمد رشاد، في الخامس والعشرين من رمضان (١٣٣٦هـ) الموافق للثالث من يوليو (١٩١٨م)، ودفن بمقبرة أيوب.

(١) يقول أ.د. محمد رجب البيومي: اندلعت الحرب العالمية الأولى، فأسرع الاتحاديون للانضمام إلى ألمانيا عن نزع عجل، لم يزن الواقع السياسي بميزان الانتاد المطنش، لأن إعلان الحرب ليس ملهاة يقوم بها ثلاثة أو أربعة ممن يلون الزمام، انخدعوا بأوهام يلفقها سفير محنك ليضم البلهاء إلى صفه، وكانت الكارثة محققة حين هزمت الدولة العثمانية، وفر زعماء الاتحاديين من البلاد مكللين بالعار. «النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين»، (٣/ ٤٨٤).

ال خليفة الثامن والعشرون: محمد وحيد الدين «السادس» بن عبد المجيد (١٣٣٦هـ - ١٣٤١هـ) / (١٩١٨م - ١٩٢٢م):

هو السلطان محمد وحيد الدين خان (محمد السادس)، اشتهر على لسان الشعب باسم السلطان وحيد الدين، ولد في شعبان (١٢٧٧هـ) الموافق لـ فبراير (١٨٦١م) بقصر ضوله بهجه.

نشأ نشأة علمية، كالتى كان ينشأ عليها السلاطين برعاية وإشراف أخيه الكبير السلطان عبد الحميد الثاني، فنشأ فقيهاً في علوم الدين، وعلوم الكلام، ومن المؤسف أنه كان مولعاً بالموسيقى، وكان ملحناً محباً لها.

تولى ولاية العهد بعد مقتل ولي العهد يوسف عز الدين بن السلطان عبد العزيز^(١)، وتسلم السلطنة في الخامس والعشرين من رمضان (١٣٣٦هـ) الموافق (٤) يوليو (١٩١٨م).

كان السلطان محمد وحيد الدين قبل توليه الخلافة كثيرَ الرحلات إلى أوروبا، وقد حمل لقب (مارشال) الإمبراطوري من ألمانيا، وحصل على رتبة المشير في الدولة العثمانية، ومع الأسف كان مرافقه في رحلاته في أوروبا معاونه الشخصي الضابط مصطفى كمال، والذي استمر معاون الفخري له بعد توليه السلطنة والخلافة.

• أهم الأحداث في عصره:

تولى في مرحلة عصيبة من حياة الدولة، حيث إن الأمور كانت قد ساءت للغاية، فقد خرجت الدولة العثمانية مهزومة من الحرب العالمية الأولى، فكان أول ما وقع عليه من المعاهدات معاهدة مودروس، لوقف إطلاق النار في المحرم (١٣٣٧هـ) / (٣٠) أكتوبر (١٩١٨م).

وبعد توقيع هذه الاتفاقية قامت دول الائتلاف المنتصرة باحتلال الولايات العربية وأراضي الدولة العثمانية، كما وصلت سفنها إلى مياه إسطنبول في (١٣٣٧هـ / ١٩١٨م)،

(١) يوسف عز الدين: كان ولياً لعهد السلطان محمد رشاد، لأن ولاية العهد في الدولة العثمانية كانت لأكبر أفراد الأسرة سنّاً بعد الجالس على العرش، كان يوسف عز الدين شخصية محبوبة من كافة الأوساط، وكان الناس يأملون منه الخير للبلاد، غير أن الاتحاديين قتلوه سنة (١٣٣٤هـ / ١٩١٦م)، وأشاعوا أنه مات منتحراً على إثر نوبة جنون أصابته، كنوبة الجنون التي أصابت أباه السلطان عبد العزيز فانتحر، وهذا كله محض كذب، إذ إن الاتحاديين كانوا يخشون ارتياع الناس لهذا الأمير، في أن يدعموه في الوقوف في وجههم. د. إحسان حقي / تحقيق كتاب «تاريخ الدولة العلية العثمانية» لمحمد فريد بك (ص: ٧١٧).



ثم احتلت العاصمة إسطنبول رسمياً في السادس والعشرين من جمادى الآخرة (١٣٣٨هـ)، الموافق للسادس عشر من مارس (١٩٢٠م).

لعب الضابط مصطفى كمال، المرافق للسلطان، دوراً مكوكياً في إنهاء ما تبقى من حطام الدولة، وكان السلطان يأمل فيه خيراً، فأوكل إليه أن يقود السلطة الشعبية في الأناضول، وساعده في الوصول إلى سامسون^(١)، في شعبان (١٣٣٧هـ) / مايو (١٩١٩م)، وقد ودّع بنفسه مصطفى كمال، بعد اجتماع سريّ معه، وكان آخر ما قال له: وفقك الحق تعالى^(٢).

– مؤامرة وخيانة:

قامت دول الوفاق المنتصرة بخيانة معاهدة مودروس، وضربت بها عُرْضَ الحائط، فاجتاحت جيوشها العاصمة إسطنبول، وعجز السلطان عن إبداء أي رد فعل على ذلك، في الوقت الذي كان مصطفى كمال يحقق انتصارات إعلامية مع رفاقه في الأناضول، نتيجةً للتضحيات العظيمة من شعب الأناضول المسلم، وأعلن معارضته للسلطنة^(٣).

(١) سامسون: عاصمة محافظة سامسون التركية، تضم المدينة ميناء هاماً على البحر الأسود في شمال تركيا.

(٢) أحمد آق كوندز «الدولة العثمانية المجهولة»، (ص: ٤٧٣) / نقلاً عن كتاب شاه بابا مراد برداقجي.

(٣) صناعة الزعيم: عرضنا فيما سبق أن الزاعمين لدعوة الإصلاح في الدولة العثمانية قد شكلوا جمعية العثمانيين الجدد، ثم شيئاً فشيئاً حل محل هذه الجمعية جمعية تركيا الفتاة، والتي بدأت بين طلاب المدارس الحربية في سلانيك باليونان، ثم تشكل منها جمعية الاتحاد والترقي، والتي تمكنت في النهاية من إزاحة الخليفة السلطان عبد الحميد وعزله عن الحكم، وقامت هي بتسلم الحكم، وأدارت البلاد دون أن تأبه بالسلطان الجديد محمد رشاد الذي أتوا به، وسارت الأمور كما رأينا من سيء إلى أسوأ، واتخذوا قرار دخول الحرب دون العودة إليه، وترتب على ذلك الهزيمة الكبرى التي لحقت بالدولة العثمانية.

وقد تبنت جمعية الاتحاد والترقي الدعوة إلى القومية الطورانية والتنكر للأخوة الإسلامية، مما دفع القوميات الأخرى ضمن الدولة العثمانية في مواجهة ذلك إلى الدعوة إلى قومياتهم والثورة على الدولة، وخاصة العرب الذين دعوا إلى القومية العربية.

كان من بين هؤلاء الذين يعملون على إنهاء الخلافة الإسلامية ودورها في التاريخ الضابط مصطفى كمال، والذي عهد إليه السلطان العثماني محمد وحيد الدين السادس بالقيام بعمل مضاد (ثورة) في الأناضول ضد رجال الحكم، الذين تسببوا في هذه الهزيمة الفادحة للدولة العثمانية.

استطاع مصطفى كمال أن يجمع حوله عدداً من أعضاء الجمعية المدنية والعسكريين، وشعر رجال الحكم بأنه يضادهم، فأعلنوا إقالته، فلم يمثل لأمرهم، وأعلن أنه باقٍ في الأناضول حتى يحقق استقلال البلاد.

أعلن مصطفى كمال قيام ثورته ضد نظام الدولة برمته، فانضم إليه معظم المثقفين، وقادة الجيش، ورجال الفكر، بل وطلبة العلم الشرعيين، وقد اشتروا عليه جميعاً عدم المساس بالخلافة الإسلامية.

قبل مصطفى كمال ذلك، وقام بخداع الناس، ورفع شعار الإسلام، ورفع المصحف في قتاله ضد اليونانيين الذين كانوا يحلمون باحتلال الأناضول كاملاً بعد احتلالهم لأزمير، وانتشروا في قرأها، ودمروا كل ما وصلت إليه أيديهم دون مراعاة لحرمة.

وفي مناورة وخداعة للجهاير أعلن تجدد القتال بين مصطفى كمال وبين اليونانيين سنة (١٣٣٨هـ) / (١٩٢١م)، وأُشيع أنه حقق انتصارات متتالية، وأن اليونان اضطرت فجأة أن تنسحب من أزمير، لعدم قدرتها على مواجهة الأسد المغوار مصطفى كمال، فدخلها الجيش العثماني دون إطلاق رصاصة واحدة، وانتشر الخبر في كل مكان بأن مصطفى كمال استطاع أن يخرج اليونانيين من أزمير، فارتفع شأنه بين الناس، وغنوا له الأغاني، ونظمت فيه قصائد الشعر، حتى إن أحمد شوقي شبهه بخالد بن الوليد قائلاً:

يا خالد الترك جدد خالد العرب

الله أكبر كم في الفتح من عجب

كانت الأمة متعطشة إلى شخصية أسرة تقودها إلى بر الأمان بعد هذه الفترة العصيبة التي مرت بها، مؤملة في شخصية مصطفى كمال أن يجدد شباب =

وعلى أثر احتلال دول الائتلاف العاصمة أسس مصطفى كمال مجلس الأمة التركي في أنقرة في رجب (١٣٣٨هـ) الموافق أبريل (١٩٢٠م).

وفي واحدة من سلسلة المعاهدات تمّ التوقيع على معاهدة سيفر؛ والتي تُعدّ معاهدة القضاء على الدولة العثمانية بشروطها القاسية، وتضمنت تخلي الدولة عن جميع الأراضي العثمانية التي يقطنها غير الناطقين باللغة التركية، إلى جانب استيلاء الحلفاء على أراضي تركية.

وفي مسلسل آخر قام البرلمان التركي برفضه لمعاهدة سيفر، كما قام مصطفى كمال بعد ذلك بتجريد الذين وقّعوا على المعاهدة من جنسيتهم.

- إلغاء السلطنة:

بذل مصطفى كمال جهوداً كبيرة لتأسيس الجمهورية، وتنصيب نفسه رئيساً لها، كما استصدر قراراً من البرلمان بإلغاء صلاحيات السلطنة في الحكم والسياسة، وإبقاء الخلافة

= الخلافة، وأن يعيدها إلى عهدها الأول، خاصة وأن الإعلام كان يوازن بين كفاح مصطفى كمال المظفر (زعموا) واستسلام الخليفة محمد وحيد الدين في الأستانة، وظن الناس أن مصطفى كمال مبعوث العناية الإلهية لإقالة عثرة الخلافة، وإحياء مجد الإسلام:

يومٌ كبدٍ فخيّل الحقّ راقصةً على الصعيدي وخيلُ الله في السحب

لقد صوّر مصطفى كمال بطلاً مكافحاً، وعلى النقيض صوّر الخليفة على أنه قابع مستكين خانع في ذل بإسطنبول، فكبر الأول في أعين المسلمين، ونال الخليفة السخط، ولكن ماذا يمكن القول سوى أنه عندما ترعى الذئاب الغنم تُخدع الجاهير التي فرطت في أمر ربه، فبدلاً من أن تعود لرشدتها، وتبحث في نفسها عن الأسباب الحقيقية التي أدت بالأمة إلى ما هي فيه، ذهبت تغني لمصطفى كمال، وتلقي بالآمال عليه.

عاد مصطفى كمال إلى أنقرة، واجتمع به المجلس الوطني الكبير، ومنحوه لقب غازي، وهو اللقب الذي ينفرد به السلاطين العثمانيون، وفي خطوات سريعة انتخبه المجلس رئيساً شرعياً للحكومة، ومتحدثاً رسمياً باسم الأمة، ولتكملة المسرحية أرسل مبعوثاً له هو عصمت باشا إلى بريطانيا، ليفاوضها على استقلال تركيا، وكانت بريطانيا قد أعدت الشروط مسبقاً لهذا الاستقلال المزعوم، وهي كالتالي:

١. إلغاء الخلافة الإسلامية.

٢. أن تتعهد الدولة الجديدة بإخضاع جميع الحركات التي يقوم بها أنصار الخلافة.

٣. أن تصدر الدولة الجديدة دستوراً مدنياً، وتلغي الدستور العثماني المستمدة أحكامه من الشريعة الإسلامية.

٤. أن تقطع الدولة الجديدة علاقاتها بالعالم الإسلامي.

وقد وقع عصمت باشا على هذه الشروط، غير أنهم طلبوا تعليق أمر إلغاء الخلافة إلى ما بعد ذلك الوقت.

بدأ مصطفى كمال في تنفيذ هذه الشروط على وجه السرعة، فقام باختيار دستور سويسري للبلاد، ثم قام بإعلان إلغاء السلطنة وفصلها عن الخلافة، مع تجريد الخليفة من كل سلطاته الزمنية والدينية كاملة، على أن تبقى الخلافة رمزاً من آثار الماضي، ثم أعلن نفسه رئيساً للجمهورية التركية وأزاح كل من وقف في وجهه في البلاد.

ثم نفّذ الشرط الهام بالنسبة للإنجليز، وهو إلغاء الخلافة عندما حانت له الفرصة، في السابع والعشرين من رجب سنة (١٣٤٢هـ) الموافق للثالث من مارس سنة (١٩٢٤م) كما أسلفنا.

وهكذا تمت صناعة الزعيم، بمعركة وهمية، تولى العسكر الحكم بعدها بدلاً من الخلفاء، ليتحقق قول النبي ﷺ: «ثم تكون ملكاً جبرياً».



فقط^(١)، كواجهة للدولة دون تدخل الخليفة في أي قرار داخلي أو خارجي؛ وذلك في الحادي عشر من ربيع الأول (١٣٤١هـ) الموافق للأول من نوفمبر (١٩٢٢م)، فعرض بذلك اليد التي امتدت له، وأوصلته إلى ما هو فيه، وأظهر وجهه القبيح المعادي للإسلام وأهله.

ولما أدرك السلطان أنه استعان لإنقاذ البلاد بهذا الرجل، وأولاه ثقةً في غير موضعها، وأنه كان يعمل لحسابه، وليس لحساب الدولة، ورأى أن الأمور تسير على غير ما كان يرجو، لما أدرك ذلك اضطر أمام هذه الإجراءات أن يترك العاصمة في الثامن والعشرين من ربيع الأول (١٣٤١هـ)، الموافق الثامن عشر من نوفمبر (١٩٢٢م) خشية أن يتعرض إلى مزيد من الإهانات^(٢)، فانتقل إلى مالطا، فانتهدت بذلك سلطة الدولة وهيمنة الخلافة بحاكمية الدولة العلمانية، بقيادة مصطفى كمال.

بعد أن انتقل السلطان إلى أنقرة انتقل منها إلى مالطا، ثم منها إلى مكة المكرمة والمدينة النبوية، ومكث في مكة مدة، ثم انتقل إلى مصر، ومكث فيها مدة، ثم انتقل إلى سان ريمو في إيطاليا، وبقي بها إلى أن مات مهموماً مغموماً حزيناً على دولة، أسسها أجداده، وبقيت في جبين الدهر لأكثر من ستة قرون، ولا أدري هل خلف خلفه لحناً موسيقياً حزيناً من ألحانه على ذلك؟ أم إنه وعى الدرس، وتاب إلى الله، وأنا، وعلم أن كل الخير في اتباع مَنْ سَلَفَ، وأن كل الشر في ابتداء مَنْ خَلَفَ؟!.

توفي السلطان مهموماً - بسان ريمو - في الرابع من ذي القعدة (١٣٤٤هـ) / السادس عشر من مايو (١٩٢٦م)، ونُقل جثمانه إلى دمشق، ليدفن في مقبرة العثمانيين في حديقة جامع السلطان سليم^(٣).

(١) قال السلطان وحيد الدين في «مذكراته»: في الحقيقة كنت أعاني من مواجهة دول الائتلاف المنتصرة في الحرب، والمهددة لمركز الخلافة، ومن قيودها المفروضة عليّ، وفي الطرف الآخر من الخيانة والتصرفات المتمردة ضدي، والصادرة من مصطفى كمال ياورى (الياور الضابط المرافق له)، الذي أرسلته موظفاً إلى الأناضول، ليبذل الجهد والوسائل السرية لمقاومة اليونانيين المحتلين للأناضول. «مذكرات السلطان وحيد الدين»، د. أحمد آق كوندز «الدولة العثمانية المجهولة»، (ص: ٤٧٦) / نقلاً عن مراد برداقجي.

(٢) يقول السلطان وحيد الدين في مذكراته: لقد اخترت طريق التضحية، وسرت فيه بإصرار من أجل مصالح وطني العزيز. د. أحمد آق كوندز: «الدولة العثمانية المجهولة»، (ص: ٤٧٧) / نقلاً عن مراد برداقجي.

(٣) لما سمع مصطفى كمال بوفاة السلطان وحيد الدين قال: مات رجل سامق (عالي) الشرف، كان في وسعه - إذا شاء - أن يأخذ معه جواهر سراي طبقاً بآي كلها، ثم يؤسس جيشاً بها، ويعود كما ذهب. د. أحمد آق كوندز «الدولة العثمانية المجهولة»، (ص: ٤٧٧) / نقلاً عن مراد برداقجي.



آخر خلفاء المسلمين

الخليفة التاسع والعشرون: عبد المجيد الثاني بن عبد العزيز (١٣٤١هـ : ١٣٤٢هـ) / (١٩٢٢م : ١٩٢٤م):

عبد المجيد الثاني بن عبد العزيز، ولد في إسطنبول في المحرم (١٢٨٥هـ) الموافق لمايو (١٨٦٨م) بسراي ضومله بهجه، نشأ نشأة راقية، وتعلم تعليماً جيداً، أجاد على أثره ست لغات، على رأسها: العربية والفارسية والفرنسية، كان خطاطاً ماهراً، ورساماً ومؤلفاً، له مصنف من اثني عشر مجلداً، يضم مذكراته الشخصية، محفوظ عند ابنته، ولا شك أنه ذو أهمية عالية.

تولى الخلافة في الثامن عشر من ربيع الأول (١٣٤١هـ) / نوفمبر (١٩٢٢م)، وكانت رتبته العسكرية فريق أول، ونودي: بال خليفة عبد المجيد الثاني، وأيضاً عبد المجيد أفندي، بقي في منصبه سنة وثلاثة أشهر، وكان منصب الخلافة قد أصبح منصباً تراثياً، لا حول ولا قوة لصاحبه، في شأن من شؤون الدولة، حيث أصبحت السلطة بيد العسكر وزعيمهم مصطفى كمال.

هو آخر من تولى منصب الخلافة من أمة الإسلام، من لدن أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى زماننا، وهو الخليفة الأول بعد المئة من خلفاء المسلمين.

ومع الأسف كان الخليفة عبد المجيد مغرمًا بالموسيقى الغربية، مُلحناً لها، وكان عازفاً على البيانو والكمان، وكان أكثر بني عثمان تقدماً في الموسيقى والرسم، وله ثلاثمئة لوحة فنية، تُعدُّ ذات قيمة كبيرة، وتعرض في المتاحف العالمية.

اعتلى الخلافة - وعمره نحو خمس وخمسين سنة - في الوقت الذي كانت فيه أنقرة عاصمةً للجمهورية والعسكر ، واسطنبول عاصمة للخلافة الإسلامية .



- عزل الخليفة وإلغاء الخلافة:

لقد كان مصطفى كمال الكنز الذي وجدته الدول الصليبية لتدعمه من بين حطام الدولة العثمانية بعد الحرب، ليكون على يديه قرار إلغاء الخلافة، ولقد أتاحت الإجراءات التي اتخذها مصطفى كمال وزملاؤه العسكر - لعلمنة الدولة، وإبعادها عن دينها - أن يتجرأ بالإعلان عن إلغاء الخلافة الإسلامية، وذلك في السابع والعشرين من رجب سنة (١٣٤٢هـ)، الموافق للثالث من مارس (١٩٢٤م)، ليقضي بذلك على رمز هام لوحدة المسلمين، معلناً إنهاء دولة، لطالما ذبَّت عن بلاد المسلمين وأرواحهم وأعراضهم وأموالهم، وأنفقت في سبيل ذلك الغالي والنفيس من الأرواح والأموال في سبيل الله تعالى؛ يذكرها ويشكرها أهل الوفاء والإنصاف والفضل، وينكرها ويحجدها أهل الجحود والكبر والاستعلاء، الذين لا همَّ لهم سوى النقد الهدام، دون النظر إلى الأمور بضوابطها الشرعية.

لقد استيقظ الخليفة، وبعد صلاة الصبح من ذلك اليوم، في تمام الخامسة والنصف صباحاً، بلغ بالقرار، وأخذ مع أسرته والمقربين إليه من سراي ضو له بهجه، وسيق إلى محطة القطار، حيث ركب قسراً ومن معه، وأخرجوا إخراجاً نهائياً من تركيا^(١).

كما تم إخراج الأسرة العثمانية إلى خارج البلاد، وجردتهم الحكومة من جنسياتهم، وصودرت ممتلكاتهم، وأبعدوا إلى ديار الغرب، ففرقوا بين فرنسا، وبيرت، ثم استقرَّ معظمهم بالقاهرة والإسكندرية^(٢).

اضطر الخليفة أن يقيم بمدينة نيس الفرنسية، منذ خروجه إلى سنة (١٣٥٦هـ / ١٩٣٨م) في السراي القديم الخاص بولي عهد بريطانيا في نيس، وكان يسكنه بالأجرة، ثم انتقل إلى باريس، وأقام بها حتى وفاته رحمه الله في التاسعة مساءً ليلة الخامس من رمضان (١٣٦٣هـ)، الموافق الرابع والعشرين من أغسطس (١٩٤٤م)، مات فقيراً مديناً، لا يملك حتى بيته الذي أقام فيه في فرنسا، وقد تجاوز الثامنة والسبعين سنة هجرية، قضى منها في المنفى نحو إحدى وعشرين سنة هجرية، وصلى عليه المسلمون في مسجد

(١) ترجمة الخليفة عبد المجيد بن عبد العزيز جمعت من ما كتبه الأستاذ يلماز أوزتونا في كتابه «تاريخ الدولة العثمانية»، ود. أحمد آق كوندز في كتابه «الدولة العثمانية المجهولة»، بتصرف من المؤلف.

(٢) يلماز أوزتونا «تاريخ الدولة العثمانية»، (٢/ ٢٦٠-٢٦٣) - د. أحمد آق كوندز «الدولة العثمانية المجهولة»، (ص: ٤٧٨-٤٧٩).



باريس، وبقي جثمانه مدفوناً في باحة المسجد، ينتظر إنفاذ وصيته بدفنه في إسطنبول إلى جوار آبائه، غير أن الحكومة التركية رفضت ذلك مراراً، مما اضطر ابنته أن تنقل النعش بعد عشر سنوات من وفاته إلى المدينة النبوية، فدفن هناك رحمه الله رحمة واسعة، وغفر له هذه الهنات والزلات التي دفعت الأمة ثمنها غالياً.

• مصطفى كمال ومحاولة إزاحة الإسلام من حياة الأتراك:

لم يكتفِ مصطفى كمال الذي لقبه العلمانيون بأبي الأتراك (أتاتورك)^(١) بما فعله من إلغاء الخلافة، بل أعلن عن قرارات وإجراءات، الهدف منها قطع صلة الأتراك بدينهم، فلقد أعلن القرارات التالية بعد إلغاء الخلافة:

١. إعلان دولة تركيا العلمانية^(٢).
٢. حل جميع الجمعيات الدينية.
٣. إلغاء المحاكم الشرعية.
٤. إلغاء الأوقاف الإسلامية.
٥. إلغاء التعليم والمدارس الدينية.
٦. إلغاء الأذان باللغة العربية، وجعله نداءً للصلاة باللغة التركية.
٧. إلغاء اللغة العربية، وأحل مكانها التركية الحديثة بالحروف اللاتينية.
٨. إلغاء العمل بالتأريخ الهجري، واستبدال التأريخ الميلادي به.
٩. إلغاء العطلة يوم الجمعة، وجعلها يوم الأحد، كما تفعل أوروبا النصرانية.
١٠. إلغاء العمامة والثوب واللحية، وفرض القبعة والملابس المدنية.
١١. إلغاء النص الدستوري المقرر أن الإسلام دين الدولة.
١٢. إباحة زواج النصراني من المسلمة.
١٣. نقل العاصمة من إسطنبول إلى أنقرة.

(١) كان الأولى بهم أن يلقبوه بأتاكفر، فلقد أتى أمراً عظيماً، واقترب ذنباً لم يقتربه إلا أهل الكفر والضلال، لقد ألغى الخلافة من حياة المسلمين، وكفاه أن يلقي الله عز وجل بذلك.

(٢) المعنى الصحيح للعلمانية هو: فصل الدين عن الدولة.



إن ما قام به مصطفى كمال من إجراءات بالقهر والقوة لم يستطع بها أن يقطع صلة الأتراك بدينهم وإخوانهم المسلمين في كل مكان في العالم، ولعل تركيا المعاصرة أدل دليل على ذلك.

أراد مصطفى كمال أن يجعل تركيا دولة علمانية، لتبتعد تماماً عن الإسلام، وهذا لجهله ولقلة فهمه بطبيعة الإسلام الممتزج بشكل قوي بالدولة، بل إن الدين هو المسيطر على حركة الأفراد والمجتمعات، بل على الدولة بمكوناتها من أرض وشعب وحكومة، فقد تصلح العلمانية في دول أوروبا الصليبية، التي عاشت فترات مظلمة في ظل حكم الكنيسة وهيمنتها (الحكم الثيوقراطي)، والتي حرمت على الناس أن يعيشوا حياتهم الطبيعية، وعطلت عنهم حركة الحياة العلمية الكونية.

وقد ظن العلمانيون في بلاد الإسلام أن الخليفة يقوم مقام بابا النصارى، وأن حكم الشريعة الإسلامية يقوم مقام الحكم الكنسي، ولكن شتان بين هذا وذاك، فالإسلام دين ودنيا، شريعة أنزلها الله تعالى، نظم بها علاقات الأفراد والجماعات والأمة بعضها ببعضها الآخر؛ بل وبسائر المخلوقات، فلا تماثل بين الإسلام وبين النصرانية المحرفة أو اليهودية المزيفة، وكلاهما قام على مجموعة من عبادات منحرفة، وضعها لهم أحبارهم ورهبانهم بما تجري به أهواؤهم، وأما الإسلام، فهو شريعة الله عز وجل، التي أنزلها في كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، والذي قال فيه لنبيه ﷺ ولأتمته التي هي تبعاً لنبيها ﷺ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجن: ١٨].

والذي يمعن النظر فيما قام به مصطفى كمال أتاتورك يرى عجباً من المدى الذي وصل إليه في تقليد الغرب ومحاكاته، فها هو يغير الأحرف العربية التي كُتبت بها اللغة التركية إلى الأحرف اللاتينية، ويمنع الحج إلى مكة، ويمنع إذاعة القرآن الكريم من الإذاعة؛ بل ومن المضحك أنه يمنع الموسيقى التركية القديمة بأغانيها، حتى لا تذكر الناس بأيام الدولة العثمانية^(١).

(١) من الطرائف أن مصطفى كمال كان يجلس في مجلس شراب في إحدى الفنادق، فلما سكر استدعى مطرباً ليغنيه الأغاني التركية القديمة، فلما غنى ذلك المطرب ظل مصطفى كمال يبكي، وأصدر أوامره من جلسة الشراب هذه بإعادة إذاعة الأغاني التركية القديمة. مصطفى رمضان «الخلافة في التاريخ الحديث والمعاصر».



كتب الشيخ محمد شاكر^(١) مقالاً في (المقطم) يصور ما يشعر به من خيبة الأمل بعد ضربات الكماليين، التي حاولوا بها قطع كل الصلات التي تربط تركيا بالإسلام والمسلمين، يقول فيه: خليفة يُخلع، وخلافة تُلغى، وأموالٌ تصادر، وأوقاف تُضم إلى أملاك الدولة، وتعليمٌ ديني يُمحى، ومحاكم شرعية تُغلق، وأسرةٌ عثمانية تطرد من آفاق البلاد، وتُحرم من جنسيتها التركية! فما معنى هذه العاصفة الهوجاء، عاصفة الجنون التي تهب على العالم في مشارق الأرض ومغاربها من عاصمة الجمهورية التركية بقرارات الجمعية الوطنية في أنقرة؟!؟

ثم أضاف قوله عن الخلافة العظمى: هي الباقية من مجد الإسلام وعهد النبوة الأول، وهي العزاء الوحيد، الذي كنا نتعزى به في نكبات الأيام وصروف الليالي... عجيب أمر هؤلاء الذين تسللوا في جناح الظلام إلى كهوف الأناضول، وظلوا يهتفون باسم الإسلام، حتى حازوا فخار النصر، كيف ارتدوا على أدبارهم، يحاربون الإسلام بأسوأ أداة ملكتها أيديهم في أعز عزيز على العالم الإسلامي، وهو نظام الخلافة^(٢).

(١) محمد شاكر بن أحمد بن عبد القادر من أسرة أبي علياء، من علماء مصر، عمل بالقضاء، وعُيِّن قاضي قضاة في السودان، ثم شيخاً لعلماء الإسكندرية سنة (١٣٣٢هـ)، ثم وكيلاً للأزهر، وعضواً من أعضاء هيئة كبار العلماء، ومن أعضاء الجمعية التشريعية، والد كل من المحقق المحدث العلامة أحمد محمد شاكر، والعلامة محمد محمد شاكر، ولابنه الشيخ أحمد رسالة في سيرته، سَمَّاها: محمد شاكر علم من أعلام العصر. الزركلي «الأعلام»، (١٥٦/٦).

(٢) نقلاً عن: «الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر»، د. محمد محمد حسين (٢/٤٢).



إلغاء الخلافة الإسلامية وأثره على المسلمين

استيقظ العالم الإسلامي في يوم السابع والعشرين من رجب (١٣٤٢هـ) الموافق للثالث من مارس (١٩٢٤م) على نبأ إلغاء الخلافة العثمانية، ولأن الخلافة الإسلامية لم تكن تخص العثمانيين وحدهم، بل تهم العالم الإسلامي كله أفراداً وجماعات، لأنها جزء من عظمة المسلمين، ومحور لتاريخهم، ورمز لوجودهم ووحدتهم، وهي التي تمثل رئاسة وقيادة المسلمين الدينية في كل الدنيا، لذلك صُدم المسلمون بهذا النبأ الذي كان له وقع أليم على جميع المسلمين، وخاصة في مصر، التي بها مقر الجامع الأزهر الشريف، والحفيظة على تراث وعلوم الإسلام، ولذلك تزعم الأزهر الدعوة إلى إعادة الخلافة إلى حياة المسلمين، وبدأ عهد جديد في حياتها.

وانتهى الرأي في مصر بين علماء الأزهر والقيادة السياسية إلى ضرورة عقد مؤتمر إسلامي دولي، يحضره علماء المسلمين من كل مكان، ويكون مقره القاهرة، تحت رعاية وإشراف الأزهر الشريف، ليتناول بحث هذه المسألة.

ولقد أصدر العلماء بالأزهر الشريف بياناً بهذا الصدد، ومما جاء فيه: كثر تحدث الناس في أمر الخلافة بعد خروج الخليفة عبد المجيد الثاني من الأستانة، واهتموا بالحدث الكبير فيما يجب عليهم عمله، قياماً بما يفرضه عليهم دينهم الحنيف، وإن الضرورة القصوى التي تستلزم وجود خليفة وإمام للمسلمين كافة يلزم أنه لابد من عقد مؤتمر ديني إسلامي، يدعى إليه ممثلو جميع الأمم الإسلامية، للبحث فيمن يجب أن تُسند إليه الخلافة الإسلامية، ويكون المؤتمر بمدينة القاهرة، وتحت رئاسة شيخ الإسلام بالديار المصرية، وهو شيخ الأزهر، في شهر شعبان سنة (١٣٤٣هـ / ١٩٢٥م).

يقول شيخ الأزهر السابق محمد الأحمد الطواهري رحمه الله معلقاً على فداحة الأمر: عندما أقدم مصطفى كمال على فعله الشنيع اهتزَّ العالم الإسلامي له اهتزازاً كبيراً، وثارت أفكار المسلمين في أنحاء الأرض، وطفق كبارهم في مختلف الأمم الإسلامية يكتبون في هذا الموضوع، فالعلماء بالهند وكبار مسلميهم، وقادة العراق وساستهم، وزعماء



الشام ولبنان وتونس والجزائر ومراكش والحجاز والسودان، وباقي أمم الإسلام في آسيا وأفريقيا، كل هؤلاء اهتزت مشاعرهم، واشمأزت نفوسهم من جراء هذا الحدث الكبير، الذي أقدم عليه مصطفى كمال، فهو حَدَثُ الأحداث في الإسلام بلا ريب؛ فإن تراث أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضوان الله عليهم، وما كان هؤلاء من شرف الخلافة عن رسول الله ﷺ في جمع كلمة المسلمين، قد أصبح الآن في خطر الزوال، أو قد تعرّض على الأقل للإهانة والتحقير، بواسطة هذا العسكري التركي الفظ الطاغية (مصطفى كمال)، فأجمع هؤلاء السادة جميعاً على أنه لابدّ من عمل شيء يحمي هذا التراث، ولم يكن أهل مصر وقادة الرأي فيها بأقلّ من أمم الإسلام اهتماماً بهذا الحدث الجلل، بل إن مصر أولى دول الإسلام جميعاً بالاهتمام بحماية الإسلام والذود عنه، أليس فيها الأزهر الشريف؛ وهو معهد القرآن والحديث، وأليست مصر زعيمة الشرق العربي؟ وهي في دول الإسلام شقيقة كبرى، بما للشقيقة الكبرى وما عليها من حقوق^(١).

• جراح وأحزان:

ومن المؤسف أنه أثناء بحث العالم الإسلامي في مسألة الخلافة فاجأ الشريف حسين بن علي شريف الحجاز المسلمين بإعلان نفسه خليفةً على المسلمين، دون تشاور معهم، أو بيعة منهم، ولذلك رفضه العالم الإسلامي، ورفضوا أن يعترفوا به خليفة^(٢).

ولقد عبر عن ذلك أحمد شوقي بقوله في قصيدته الباكية على الخلافة^(٣):

لا تُسلموا بُرْدَ النبي لعاجز	عَزَلٌ يدافعُ دونه بالراح
بالأمس أوهى المسلمين جراحه	واليوم مُدَّ لهم يد الجراح
فلتسمعن في كل أرض داعياً	يدعو إلى الكذاب أو سجاحي
ولتشهدن بكل أرض فتنة	فيها يُباع الدينُ بيعَ سماح

(١) «السياسة والأزهر»، مذكرات الشيخ الظواهري (ص: ٢٠٨) نقلاً عن محمد رجب بيومي «النهضة الإسلامية»، (٥/ ٤٢٨).

(٢) محمد رجب بيومي «النهضة الإسلامية»، (٥/ ٤٢٨).

(٣) الشوقيات (١/ ١٠٩).



وكذلك عبّر شاعر مصر حافظ إبراهيم عن شعور المصريين أصدق تعبير في قوله^(١):

آيا صوفيا حان التفرُّقُ فاذكري عهودَ كرامِ فيكِ صلُّوا وسلِّموا
إذا عُذتِ يوماً للصليبِ وأهله وحلَّ نواحيكِ المسيحُ ومريمُ
ودُقَّتْ نواقيسُ وقامَ مُزَمَّرٌ من الرومِ في محرابه يترنَّمُ
فلا تُنكري عهدَ المآذنِ إنه على الله من عهدِ النواقيسِ أكرمُ

وبرغم هذه الحادثة فإن الجهود استمرت لعقد المؤتمر آنف الذكر، وقد اتجهت الجهود إلى إقناع الملك فؤاد - ملك مصر - بقبول ترشيحه، نظراً لمكانة مصر، وقد استجاب على شريطة أن يُعقد المؤتمر الشامل لكل بلاد الإسلام.

وفي وسط هذه الأحوال المتردية صدر كتابٌ في مصر بعنوان: «الإسلام وأصول الحكم»، للشيخ علي عبد الرازق^(٢)، القاضي الشرعي، وأحد خريجي الأزهر، وذلك بالتزامن مع الموعد المقرر للمؤتمر.

حاول المؤلف فيه - مع الأسف - أن يعرض آراءً شاذة عن الخلافة، ويثبت آراء من دعموه، ووقفوا خلفه للقيام بهذه المهمة، وهي إثبات أن الخلافة ليست من الإسلام، وعلل ذلك أن الإسلام دينٌ، والدين ضدُّ الدنيا، فلا علاقة للإسلام بشؤون الدنيا، ومنها الخلافة، وأن الإسلام مجموعة من العبادات والعلاقات الخاصة بين العبد وربّه، ولا صلة له بالحكم، ولا بالمجتمع، ولا بالدنيا، وأن قرار إنهاء الخلافة من حياة المسلمين، قرارٌ صائبٌ.

(١) ديوان حافظ إبراهيم (٢/ ٨٨-٨٩).

(٢) علي عبد الرازق: علي بن حسن بن أحمد عبد الرازق، ولد بأبي جرج بمحافظة المنية بمصر، وتعلم بالأزهر حتى نال العالمية سنة (١٣٢٩هـ/ ١٩١١م)، وعمل مدرساً لمادة البلاغة بالأزهر لعام واحد، ثم سافر إلى بريطانيا ليدرس بجامعة أكسفورد السياسة أو الاقتصاد، فلم يُنح له أن يتفرغ لفرع معين، ونشبت الحرب العالمية الأولى بعد سنتين من ذهابه (١٣٣١هـ/ ١٩١٤م) مما اضطره أن يعود إلى مصر، ليعين قاضياً شرعياً بعد وقت قصير!!؟؟ كان وأسرته أعضاء في حزب الأحرار الدستوريين الموالي للإنجليز، حُوكم من قبل هيئة كبار علماء الأزهر، وجُرد من شهادته، فانصرف إلى المحاماة، وانتخب عضواً في مجلس النواب، ثم مجلس الشيوخ، ثم عُيِّن وزيراً للأوقاف. عُيِّن عضواً بمجمع اللغة العربية بمصر، استمر لعشرين سنة محاضراً لطلبة الدكتوراه بجامعة القاهرة في مصادر الفقه الإسلامي، له مؤلفات متعددة، أشهرها «الإسلام وأصول الحكم»، والذي وصفه سعد زغلول بالتفاهة والبطلان، ووصف الكاتب بقوله: جاهل بقواعد دينه. قيل: إن علي عبد الرازق قد تراجع عن الكثير مما كتبه في هذا الكتاب، في مقال نُشر في مجلة رسالة الإسلام، العدد الثالث من السنة الثالثة رمضان (١٣٧٠هـ/ يوليو ١٩٥١م)؛ (ص: ٢٤٦-٢٤٧)، وقد رد د. محمد ضياء الدين الرئيس، أستاذ النظم الإسلامية بجامعة القاهرة على الكاتب والكتاب فأجاد وأفاد، وكذلك رد عليه شيخ الأزهر السابق الخضر حسين رحمه الله، فجاء رداً علمياً رصيناً. الزركلي «الأعلام»، (٢٧٦/٤) - محمد رجب بيومي «النهضة الإسلامية»، (٥/ ٤٢٧).

وهو بذلك يفصل الدين عن الدنيا، وهو شعار العلمانيين، الذين قالوا: (دَعِ مَا لِلَّهِ اللَّهُ، وما لِقَيْصَرَ لِقَيْصَرُ، والدينُ لِلَّهِ، والوطنُ للجميع)، ويحاول بذلك أن يُنزل الإسلام منزلةً شريعة النصارى واليهود المزيفة المحرفة، ويزعم أن الديانة مجموعة عبادات وروحانيات تؤدي في الكنيس أو في المعبد أو المسجد.

واستطرد الكاتب مبيناً بأن الخلافة التي قامت في التاريخ لم تكن دينية، بل كانت ملكاً دنيوياً، وأنَّ أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان أول ملوك الإسلام، وأن شريعة الجهاد ليست من شريعة الإسلام، وأن غزوات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان الهدف منها هو توسيع سلطان دولته، وليست من صميم الرسالة.

إلى غير ذلك من آرائه الشاذة، التي أحدثت دويّاً في أوساط المسلمين، وخاصة بين علماء الأزهر وطلابه، الذين ضجت بهم مصر، وهم يعلنون الاحتجاج على الكاتب والكتاب، كما رُفعت عرائض، وقع عليها علماء الأزهر، وقدموها إلى شيخ الأزهر، وطالبوه فيها أن ينهض الأزهر بواجبه في الدفاع عن الإسلام والرد على هذه الدعوات الإلحادية.

اجتمع علماء الأزهر بقرار من شيخهم، وناقشوا الكتاب، وقرروا حسب مواد القانون المعمول به آنذاك، تقديم المؤلف إلى محكمة تأديبية أمام هيئة كبار العلماء^(١).

كان لهذه المحكمة دوي كبير لما تتعلق به من مسألة هي من صميم الشريعة، وقد حصرت المحكمة مؤاخذاتها العلمية على الكاتب في النقاط التالية:

١. القول بأن الشريعة الإسلامية شريعة روحية محضة، لا علاقة لها بالحكم والتنفيذ في أمور الدنيا.
٢. القول بأن الدين لا يمنع من أن جهاد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان في سبيل الملك، لا في سبيل الدين، ولا لإبلاغ الدعوة إلى العالمين.
٣. القول بأن نظام الحكم في عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان موضع غموض، وإبهام، واضطراب، ونقص، وموجباً للحيرة.
٤. القول بأن مهمة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانت بلاغاً للشريعة مجرداً عن الحكم والتنفيذ.

(١) محمد رجب بيومي «النهضة الإسلامية»، (٥/ ٤٢٢-٤٢٣).



٥. إنكار إجماع الصحابة على وجوب نصب الإمام، وعلى أنه لا بدّ للأمة ممن يقوم بأمرها في الدين والدنيا.

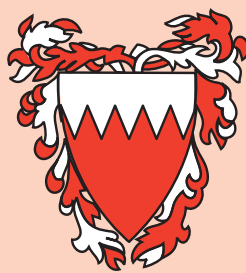
٦. إنكار أن القضاء وظيفة شرعية.

٧. القول بأن حكومة أبي بكر والخلفاء الراشدين من بعده كانت حكومة لا دينية.

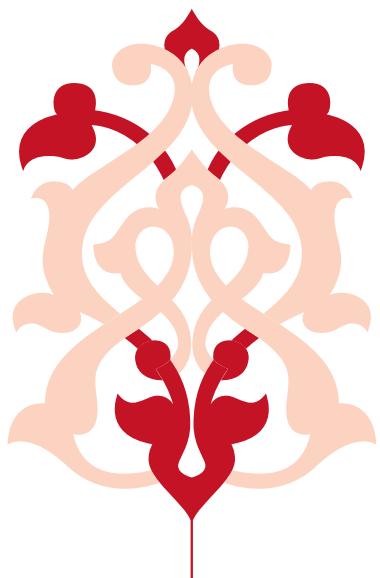
وبعد مناقشة الرجل ومحاورته جاء قرار المحكمة بطرده من الأزهر الشريف، وتجريده من كل إجازاته ودرجاته العلمية، غير أن ذلك لم يوقف صحيفة (السياسة) الناطقة بلسان حزب الأحرار الدستوريين - الذي ينتمي إليه الكاتب -، والتي كانت دائماً تقف وراء كل ناعق ضد الإسلام، إلا من رحم الله فيها، فلقد وقفت موقفاً معادياً لقرار المحكمة العلمية، غير أنها لم تستطع أمام حكم المحكمة شيئاً، لمكانة الأزهر وعلمائه آنذاك، سوى أن تنشر ألقاباً أسبغت بها على الكاتب علي عبد الرازق، لا يستحقها، ومن بينها (العلامة الكبير، والأستاذ المحقق، والمصلح المجدد)، لكنه قد نال جزاءه من هذه المحكمة.

ومجمل القول أن هذا الكتاب قد ساهم مع عوامل أخرى في نسف فكرة عودة الخلافة لجمع شمل المسلمين، وقد تأخر المؤتمر لعام آخر، ثم انعقد في القاهرة في سنة (١٣٤٤هـ/ ١٩٢٦م)، غير أنه منذ أول جلساته ظهر أنه من المتعذر الوصول إلى اتفاق بين المسلمين على عودة الخلافة، أو تنصيب خليفة، لذا رأى القائمون على المؤتمر أن أسلم طريق لحفظ كلمة المسلمين من التفرق هو السعي لفضّ هذا المؤتمر، قبل اتخاذ قرارات من شأنها أن تزيد الهوة والنفرة بين المسلمين، وأن يكتفي العالم الإسلامي بالحكام القائمين على كل ولاية فيه أو دولة أو إمارة أو سلطنة، فالحاكم آنذاك هو أمير للمؤمنين في تلك الولاية، وَجَبَ له السمع والطاعة، فيما أطاع الله فيه، فهو يقوم مقام الخليفة في ذلك المصر من أمصار المسلمين.

وبإلغاء الخلافة انتهت مرحلة الملك العاض، لتبدأ مرحلة الملك الجبري، بحكم العسكر للمسلمين إلى أن يشاء الله تعالى، ثم يرفعها، لتأتي بعدها بشرى النبي ﷺ بالخلافة الراشدة على منهاج النبوة.



الباب السابع آل خليفة في البحرين



قال النبهاني عن آل خليفة في تحفته^(١):

خَلَدَ اللهُ مُلْكَهُمْ، وَأَعَزَّ شَوْكَتَهُمْ، وَجَعَلَ النَّصْرَ حَلِيفَهُمْ،
فَإِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا خُلَفَاءَ فِي الْأَرْضِ يَحْكُمُونَ بَيْنَ النَّاسِ
بِالْقِسْطِ، كَيْفَ لَا وَهُمْ أَهْلُ الْمَجْدِ الْبَادِخِ، وَالشَّرَفِ
السَّامِخِ، الَّذِينَ لَمْ يُظْهِرِ اللهُ مِنْ نَسْلِهِمْ مَنْ يُخَالِفُ أَهْلَ
السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، مِثْلَمَا ظَهَرَ فِي غَيْرِهِمْ مِنْ أُمَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ،
وَذَلِكَ بِأَمْتِنَتِهِمْ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾،
فَإِنَّهُمْ لَمْ يُنْفِذُوا أَمْرًا مِنْهُمْ إِلَّا بِمُرَاجَعَةِ الْأَفْضَلِ مِنَ الْعُلَمَاءِ،
وَبِمُشَاوَرَةِ الْوُزَرَاءِ الْأَتْقِيَاءِ، وَفَقَهُمُ اللهُ لِذَلِكَ. آمِينَ.

(١) (ص: ٨٨).

آل خليفة

تُعَدُّ أسرة آل خليفة واحدةً من أقدم الأسر العريقة الحاكمة في العالم ومنطقة الخليج العربي.

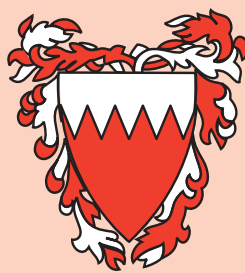
ولا شك أن هذا الامتداد التاريخي البالغ أكثر من قرنين ونصف من الزمان لم يكن اعتباطاً أو أمراً عشوائياً، فلقد مرت الأسرة، بك والعالم برمته، خلال هذه الفترة بتغيرات مختلفة، وعواصف سياسية وعسكرية شديدة، أدت إلى تغيير خارطة العالم عدة مرات، فدول زالت، ودول قامت، وممالك كانت، وممالك أتت، حتى الخلافة الإسلامية ألغيت من سماء الدنيا، وظلت هذه الأسرة واحدة من الأسر القليلة الباقية في الحكم، ومازالت قائمة برغم كل هذه التغيرات.

ولا شك أن هذا البقاء بمشيئة الله تعالى، ومن فضله، ثم بإخلاص أهل الصلاح والتقى في هذه الأسرة، وقد هيا الله أسباباً وعوامل، ساعدت في ذلك، ولمعرفة هذه العوامل والأسباب لابد لنا أن نلقي الضوء على تاريخ هذه الأسرة التي ظهرت مع وجود الخلافة العثمانية في عالمنا الإسلامي، وبقيت بفضل الله تعالى بعد زوال الخلافة رغم كل التحديات، وصراع الأمم، خاصة في هذه البقعة من العالم، وتبقى إن شاء الله إلى ما شاء الله صرحاً من صروح الإسلام.

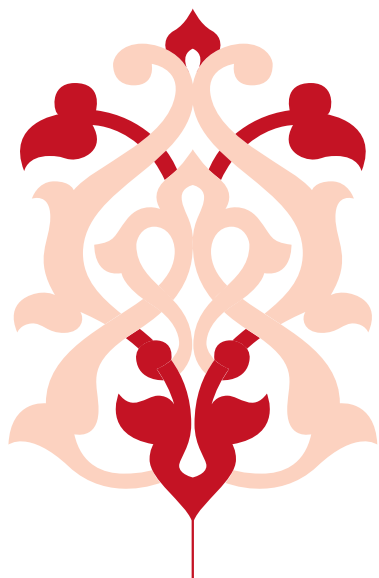




الفصل الأول



آل خليفة في
البحرين



مدخل تاريخي

العتوب



خريطة هجرة العتوب

العتوب تجمع قبلي في صورة تحالف، يسمى: بحلف العتوب، تكون من أسر وقبائل مختلفة، يأتي على رأسها آل صباح، وآل خليفة، والجلاهمة، وآل بن علي، وغيرهم؛ وقد هاجروا من موطنهم الأصلي في نجد إلى سواحل الخليج العربي، وينحدرون جميعاً من قبيلة عنزة العربية، التي انحدرت من بني أسد، الذين انحدروا من ربيعة، والذي انحدر من عدنان من ولد إسماعيل، وهم من العرب المستعربة. وقيل: إن العتوب إحدى قبائل بني سليم القديمة، غير أن أغلب المؤرخين على أن العتوب هم حلف قبائل كما أسلفنا.

تمازجت هذه العشائر في تحالفات ومصاهرات، حتى أصبح هذا الحلف أقوى الأحلاف العربية بشرق الجزيرة العربية، بعد أن ضم أفخاداً كثيرة، انضوت جميعاً تحت مسمى العتوب، نسبة إلى بني عتبة، أقوى العشائر المتحالفة.

هاجر العتوب في أول أمرهم إلى سواحل الخليج العربي، في القرن الحادي عشر الهجري، وذلك لأسباب متعددة، وقد اختلف الباحثون حول الأسباب التي أدت إلى الهجرة، منها ما أصاب إقليم نجد من القحط وشظف العيش، مما أهلك الكثير من الناس والدواب،



وكذلك النزاع القبلي بين العشائر من جميلة^(١)، وأيضاً ترحيب بني خالد^(٢) بهجرة العتوب إليهم، ليستعينو بهم في مد نفوذهم على الأحساء والقطيف - البحرين قديماً -.

استقر العتوب في أول أمرهم في شبه جزيرة قطر، حيث اعتادوا ركوب البحر والغوص لاستخراج اللؤلؤ، والذي وفر لهم تجارة هائلة، حتى تكون لهم أسطول قوي، عملوا من خلاله بالتبادل التجاري.

ثم انتقلوا بعد ذلك من قطر إلى الكويت، والسبب الظاهر لذلك هو طبيعة الترحل، والشعور بالقوة البشرية والاقتصادية من خلال تحالفهم، فكأنهم انطلقوا إلى الكويت بحثاً عن مكان، ينفردون فيه بالنفوذ والسيطرة، دون مزاحمة لآل مسلم^(٣) من الخوالد: حكام قطر.

كما تذكر الوثائق العثمانية أن سبب هجرة العتوب هو الخلاف بينهم وبين العشائر العربية، بتحريض من حاكم الفرس المعين على البحرين: مهدي قلي خان، ف وقعت معركة رأس تنورة^(٤)، التي خسر فيها العتوب خسائر فادحة، فقرروا الاتصال بوالي البصرة العثماني، واستأذنه في النزول بالكويت^(٥)، تحت حماية الدولة العثمانية في سنة (١١١٣هـ / ١٧٠١م)^(٦).

(١) جميلة: إحدى القبائل العربية الأصيلة، وقد سميت بهذا الاسم نسبة إلى جدهم اجميلة بن هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن ربيعة، وهي بطن من بطون بني هلال بن عامر، قال الفلقشندي في «صبح الأعشى»: ومن بني عامر بن صعصعة أيضاً بنو هلال، وهم بنو هلال بن عامر بن صعصعة، قال الحمداني: وكان لهم بلاد صعيد مصر كلها. صلاح الجميلي «الدرر الجليلية في تاريخ بني جميلة»، (ص: ٢١) / بتصرف.

(٢) بنو خالد: قبيلة عربية ينسبها البعض إلى الصحابي الجليل خالد بن الوليد من بني مخزوم من قريش، وهي في الحقيقة يرجع نسبها إلى بني عامر بن صعصعة بن معاوية بن منصور بن عكرمة، وقد أشار بعض المؤرخين إلى الخلط الذي ذكر في نسب دولة بني خالد أن هناك فرقاً بين بني خالد، وبين بنو خالد، فبنو خالد هم بنو خالد حصص ويرجع نسبهم لبني مخزوم، أما بني خالد فهم بني خالد بن عامر بن صعصعة، وقد كانوا حكاماً على معظم البحرين القديمة وبعض مناطق نجد والقصيم والحواف، ولقد ازدهرت المنطقة في أيامهم، وعم فيها الأمن، وقد تحالفوا مع الدولة العثمانية لطرد البرتغاليين من الخليج العربي، وقد تولى على حكم البلاد منهم اثنا عشر أميراً، أشهرهم براك بن غرير، وقد ضعفت بعد ذلك دولتهم بسبب عوامل عدة، منها النزاعات، وصراعاتها مع آل سعود.

وأما بنو خالد عرب حصص، فهم يدعون النسب لخالد بن الوليد، ولعلمهم من قرابته، وليسوا من نسله، لأن المؤرخين والنسابة أجمعوا على انقطاع نسل خالد بن الوليد ﷺ. جبارة النصوري «إمارة النصور الخالدية» (ص: ٩).

قلت: ولا أرى الفرق بين بني خالد وبنو خالد إلا في النصب والرفع.

(٣) آل مسلم: قبيلة ترجع بنسبها إلى آل حميد من بني خالد، حكموا شبه جزيرة قطر بتفويض من القبيلة الأم آل حميد، ثم أصبح لهم كيان مستقل ظلوا محافظين على روابط القرابة ببني عمومهم من بني خالد، وقد امتد حكمهم لشبه جزيرة قطر قرابة أربعة قرون، واستطاعوا التصدي للبرتغاليين في معركة البدع في قطر، كما أنزلوا بالفرس خسائر فادحة عند هجومهم على قطر. عبد الله بن خالد «البحرين عبر التاريخ» (١/ ٣٥٦) - عبد الله آل بن علي «العتوب و قبائل الخليج العربي»، (ص: ١٥٧).

(٤) رأس تنورة هو ميناء وإحدى المحافظات في شرق المملكة العربية السعودية لتصدير البترول، كان قبل ظهور النفط منطقة خالية من السكان، سوى العاملين من الأتراك العثمانيين في الميناء، وبعض رجال من عشيرة المساريير من بني هاجر، وقد رُسم هذا الميناء في خريطة هولندية سنة (١٥٩٦م)، وما زالت آثار الميناء العثماني باقية في السجلات التاريخية، وقعت قريباً منه أحداث تاريخية هامة، أهمها معركة رأس تنورة بين العتوب وبين الهولة في أوائل القرنين، والذين وقفوا إلى جوار الحاكم الفارسي في أوائل، وانتهت بهزيمة العتوب وطردتهم سفن عرب الهولة، مما ألجأ العتوب إلى بلدة القرين شمال الخليج العربي، ليؤسسوا هناك بعد ذلك الكويت. جلال الهارون «تاريخ رأس تنورة» الشبكة العنكبوتية/ شبكة الطواش.

(٥) كانت الكويت آنذاك أرضاً صحراوية، لا يسكنها أحد من الناس، لطبيعتها المناخية القاسية، ولقلة وجود الحياة الطبيعية بها، وكانت تسمى بالكوت.

(٦) د. محمد أحمد عبد الله «تاريخ البحرين الحديث»، (ص: ١٢٣).

وقد تتابعت عشائر العتوب للاستقرار في الكويت، ومنهم آل خليفة، وقام شيخهم وجدُّهم خليفة بن محمد آل خليفة ببناء مسجد آل خليفة هناك، وبعد وفاته خلفه ولده محمد بن خليفة، الذي تزوج ابنة الشيخ صباح بن جابر، وأنجبت له ولده البكر خليفة^(١). كان العتوبُ الأساسُ المكوّن لمدينة الكويت، التي تأسست في سنة (١١٢٠هـ / ١٧٠٨م)، والتي توفي فيها الشيخ خليفة بن محمد جدُّ آل خليفة.

تقاسم العتوب إدارة المكوّن الجديد، وتمّ الاتفاق فيما بينهم على أن يتولى آل صباح الحكم، ويتولى آل خليفة الشؤون التجارية، ويتولى آل جلاهمة الأعمال البحرية من الصيد والغوص، وعلى أن تقسم الأرباح بين هذه القبائل الكبرى بالتساوي.

وشيئاً فشيئاً بدأت الكويت تزدهر اقتصادياً، ويصبح لها شأنٌ، فاجتمع العتوب على تنصيب الشيخ صباح بن جابر^(٢) حاكماً عليهم، فكان ذلك اللبنة الأولى في تأسيس مشيخة الكويت، التي اتسعت شيئاً فشيئاً، حتى أصبحت دولة الكويت.

وفي خلال القرن الثاني عشر الهجري قام آل خليفة بالانفصال عن الحلف، وقرروا العودة إلى قطر، وذلك في عهد الشيخ عبد الله بن صباح بن جابر آل صباح^(٣)، في سنة (١١٧٦هـ / ١٧٦٢م)^(٤)، حتى وصلوا إلى الزبارة في الشمال الغربي لشبه جزيرة قطر، فقاموا بالاستقرار بها، وأنشؤوا قلعتها الشهيرة، المسماة: بقلعة صباحا سنة (١١٨٢هـ / ١٧٦٨م).

حدث ذلك بسبب الخلاف الذي وقع بينهم وبين آل صباح، بسبب دية قتيْل من بني

(١) الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة «البحرين عبر التاريخ»، (١/ ٣٥٠)، (٢/ ١٦)، بتصرف.

(٢) الشيخ صباح بن جابر: أول حاكم من العتوب للكويت، قيل: إنه بدأ الحكم من سنة (١١٢٩هـ / ١٧١٦م)، وهو الذي استطاع أن يقنع والي بغداد العثماني بمنحهم الأرض التي نزلوا بها، ومنحه الوالي لقب قائم مقام سنة (١١٣٠هـ)، ومنذ هذه اللحظة أصبح أول حاكم للكويت، وأنشأ في عهده السور الأول للكويت، توفي سنة (١١٩٠هـ / ١٧٧٦م). د. محمد أحمد «تاريخ البحرين الحديث»، (ص: ١٢٤).

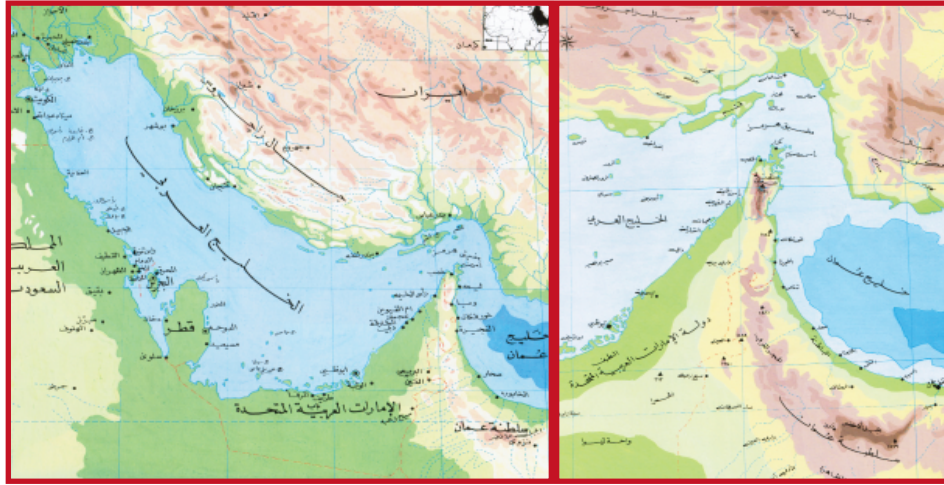
(٣) عبد الله بن صباح بن جابر الصباح: الحاكم الثاني للكويت، تولى بعد وفاة أبيه، حكم الكويت برغم أنه كان أصغر إخوته، وبقي في الحكم نحو تسعة وثلاثين عاماً، إلى أن توفي في (١٢ جمادى الأولى ١٢٢٩هـ) / (٣ مايو ١٨١٤م) بعد أن ناهز عمره المئة. وفي زمانه خرج آل خليفة من الكويت إلى الزبارة. الموسوعة الحرة.

(٤) سبق آل خليفة للهجرة إلى قطر آل بن علي، هاجروا من الكويت إلى الفريجة، وسكنوها حوالي سنة (١١٤٥هـ / ١٧٣٢م)، وهم أخوال الشيخ أحمد بن محمد آل خليفة الملقب بالفاتح. الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة «البحرين عبر التاريخ»، (٢/ ١٨) - عبد الله آل بن علي «العتوب وقبائل الخليج العربي»، (ص: ٤١).



كعب^(١)، قُتل على يد أحد أبناء الشيخ محمد بن خليفة، والذي رفض تسليم ابنه لهم، لأن ولده كان في حالة دفاع عن نفسه من اعتداء بني كعب، ولم يمتنع عن دفع ما يطلبونه من الدية، فوقع الخلاف الشديد بينهم، مما أدى إلى هجرة آل خليفة واستقرارهم في الزبارة (١١٧٦هـ / ١٧٦٢م)^(٢).

هناك في الزبارة كان المكون الأول لإنشاء كيان سياسي لآل خليفة، فسرعان ما اتسعت، ونمت في عهد الشيخ محمد بن خليفة آل خليفة.



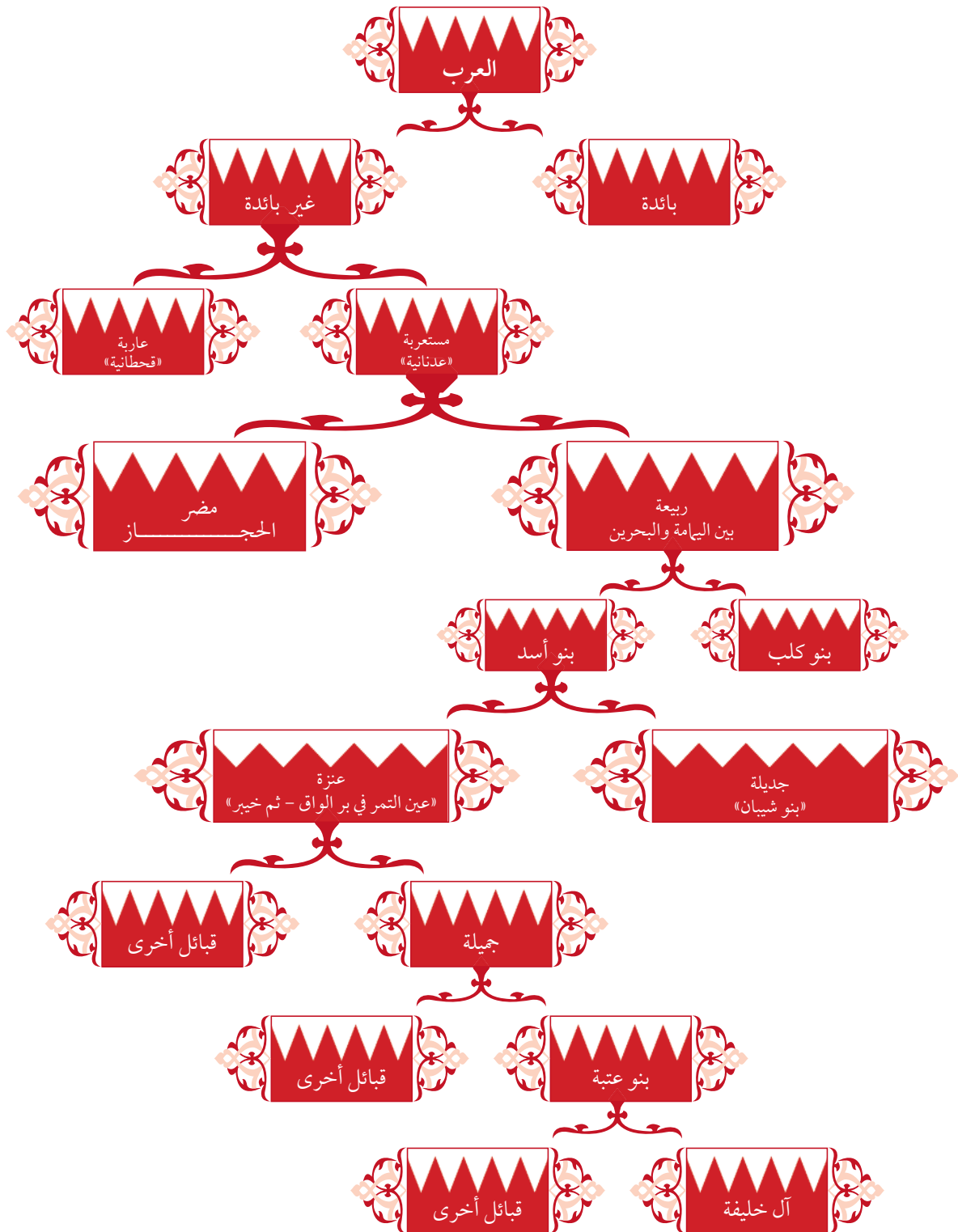
جزر وموانئ مضيق هرمز والخليج العربي

(١) قبيلة بني كعب تنسب إلى كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، ينتشرون اليوم في قطر والبحرين باسم الكعبان، ويعتبرون جدهم كعب الأبحار، وتوجد في قطر قرية باسمهم، كانوا يسكنون الأفلاج في البهامة، ثم هاجروا إلى شرق الجزيرة والعراق، وقد حكموا الأهواز، وكان آخر ملوكهم خزعل الكعبي، الذي غدر به شاه إيران سنة (١٣٤٣هـ / ١٩٢٥م)، وقتله، واستولت إيران على الأهواز. عبد الله آل بن علي «العتوب وقبائل الخليج العربي» (ص: ١٥٣).

(٢) يقول الشيخ عبد الله بن خالد في كتابه «البحرين عبر التاريخ»: كانت أهم الأسباب لهجرة آل خليفة هي أن أبناء الشيخ محمد بن خليفة ذهبوا إلى الدورق (الفلاحية) لجلب التمر للكويت، فهاجمهم وهم في وسط النهر بعض قطاع الطرق من بني كعب، فقتلوا واحداً من المهاجرين، وفر الآخرون، فأنت كعب إلى الشيخ عبد الله بن صباح بن جابر تطالب بدم قتلها، فطلب الشيخ عبد الله من الشيخ محمد بن خليفة أن يسلم له أبناءه، ليمشي بهم إلى كعب في الصلح. فأبى الشيخ محمد ذلك، وقال له: إن كعب اعتدت على أبنائي الذين دافعوا عن أنفسهم، فقتلوا واحداً منهم، فإذا هم يريدون الدية، فأنا مستعد أن أدفع لهم بدلاً من الدية ديات. فاشتد الخلاف بينهما مما أدى إلى أن يهاجر الشيخ محمد بن خليفة من الكويت وأبناؤه مع من آزره من عشائر العتوب، والتي تابعت هجراتهم بعد ذلك إلى الزبارة، فانقسمت كل عشيرة إلى قسمين، قسم هاجر، وقسم بقي في الكويت، وكل فتح الله عليه. ثم أضاف: إن عوامل كثيرة تضافرت مع بعضها البعض، أدت لهجرة آل خليفة ومن تبعهم إلى الزبارة. (١٨ / ٢).



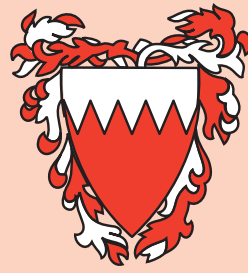
شجرة نسب آل خليفة^(١)



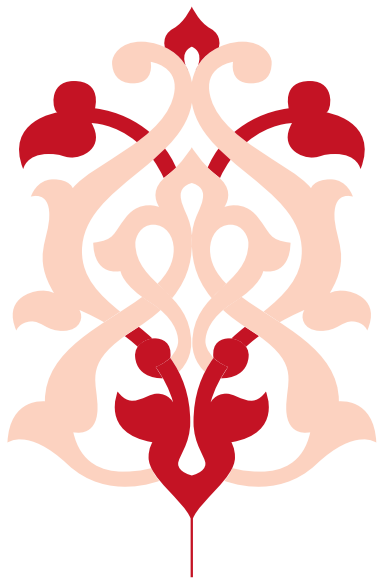
(١) نسب أسرة آل خليفة كما ذكره الشيخ خليفة النبهاني في «التحفة النبهانية»، (ص: ٨١-٨٢).



الفصل الثاني



آل خليفة في البحرين

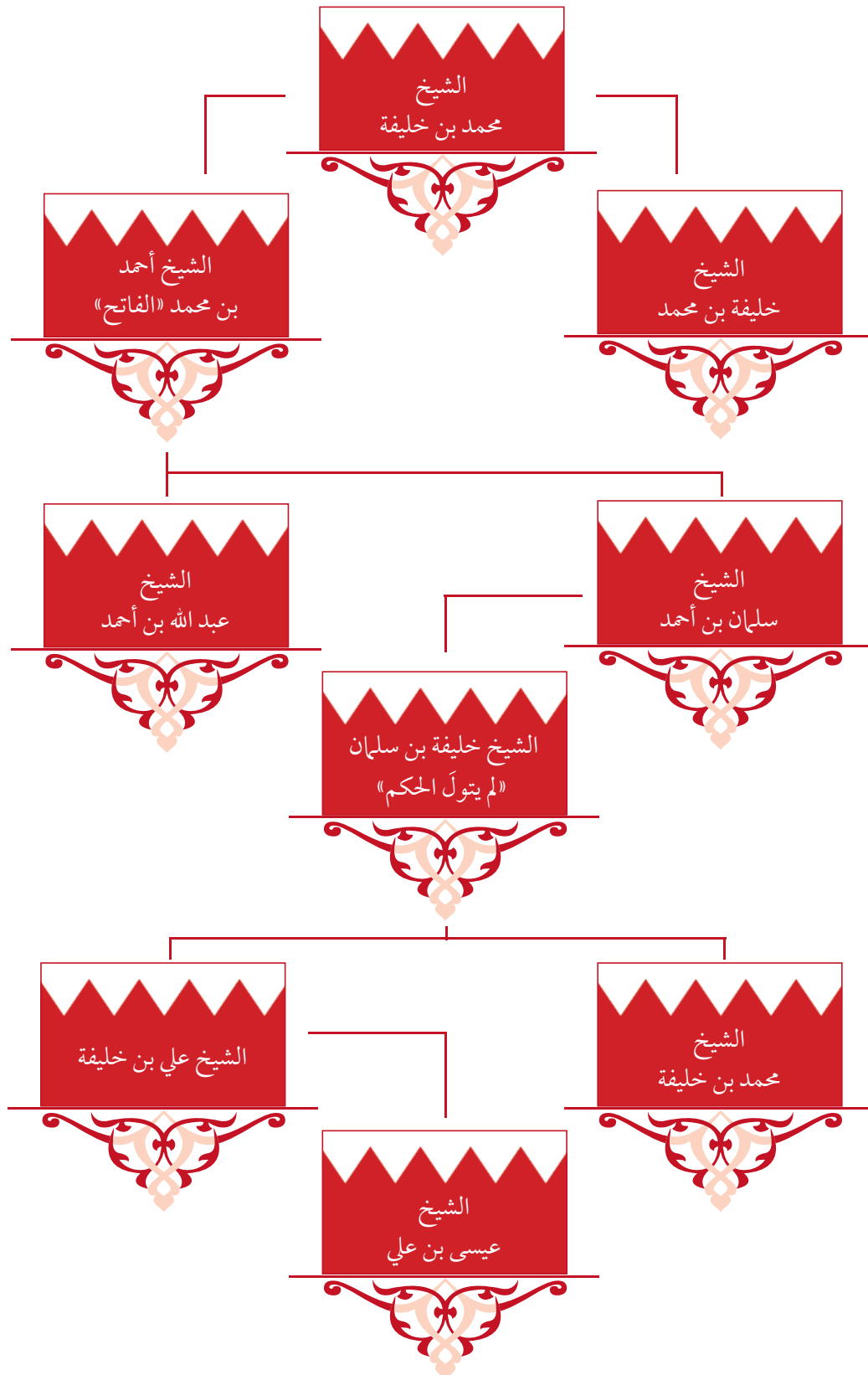


آل خليفة في الزبارة





حکام آل خلیفة فی البحرین





الشيخ محمد بن خليفة آل خليفة

(١١٧٦هـ - ١١٨٦هـ) / (١٧٦٢م - ١٧٧٢م)

• أهم الأعمال التي قام بها:

١. تأسيس الزبارة^(١).

٢. إقامة التحالفات السياسية مع القبائل العربية في قطر، ووطدها برابطة القرابة والدم، عن طريق مصاهرة هذه القبائل، فقد تزوج من آل بوكوارة^(٢) لقيام العلاقات الودية بينه وبين قبائل قطر، وتوثيق الروابط الاجتماعية.

٣. بناء قلعة حصينة سنة (١١٨٢هـ / ١٧٦٨م) لتحصين الزبارة، ومنع وصول أي اعتداءات خارجية عليها، وقد كتب عليها - تمت بعزٍّ وعونِ الله حاميتها -، كما قام ببناء المزيد من الحصون والقلاع، أشهرها قلعتي: فريجة وحلوان.

ساهم كل ذلك في ازدهار الزبارة الاقتصادي، مما ساهم في اتساعها وبرز دورها، وجعلها أكبر مدينة في قطر، وقد ساهمت هذه الحياة المزدهرة والحصينة في امتناع الشيخ محمد بن خليفة من دفع الرسوم إلى آل مسلم حكام قطر، والتي كان يدفعها منذ أن نزل إلى الزبارة، فأدى ذلك إلى امتناع قبائل قطر الأخرى عن دفع الرسوم لآل مسلم، مما أوقع الحرب بين آل خليفة وأعوانهم من جهة، وآل مسلم وأعوانهم من جهة أخرى، في معركة (سمسمة) التي انتصر فيها آل خليفة، مما أبرز دور الزبارة وتراجع دور الحويلة^(٣) التي كان يسكنها آل مسلم.

(١) الزبارة مدينة قديمة تقع على الساحل الغربي لدولة قطر اليوم، يذكر النهاني صاحب «التحفة النبهانية» أن أول من نزل الزبارة وعمّرها الشيخ أحمد بن رزق، وقد أتاه الشيخ محمد بن خليفة قبل استقراره بها زائراً وتاجراً، فرأى من ود أصحابها ما رغبه في الإقامة بها بعد ذلك. عبد الله آل بن علي «العتوب وقبائل الخليج العربي»، (ص: ٨٢).

(٢) آل بوكوارة: قبيلة عربية عريقة تنتمي إلى المشارفة من الوهبة من بني تميم، يقيم معظمها في قطر، وقليل منهم في البحرين، وجمعها آل بوكوارة، ومفردا كوارى. عبد الله آل بن علي «العتوب وقبائل الخليج العربي»، (ص: ١٤٤).

(٣) الحويلة قرية في الشمال الشرقي لقطر على الساحل، ولبعض شيوخ آل ثاني استراحات بها.



وبهذا انطلق آل خليفة - في عهد الشيخ محمد - لتأسيس أول كيان لهم بهيئة وحدة سياسية مصغرة.

وقد توفي الشيخ محمد رحمه الله بالزبارة، ودفن هناك، وتولى الأمر من بعده أكبر أبنائه الشيخ خليفة بن محمد، وذلك في أواخر سنة (١١٨٦هـ / ١٧٧٢م).



الشيخ خليفة بن محمد آل خليفة^(١)

(١١٨٦هـ - ١١٩٧هـ) / (١٧٧٢م - ١٧٨٣م)

الشيخ خليفة بن محمد آل خليفة، ولد بالكويت وأخواله من آل صباح، وجده لأمه الشيخ صباح بن جابر، أحد أمراء آل خليفة، هاجر مع أبيه وإخوته الأربعة الذين يلونه وهم: أحمد، وعلي، ومقرن، وإبراهيم، وتولى مشيخة آل خليفة بعد أبيه كما سبق وأسلمنا.

• أبرز مظاهر عصره:

١. نَعِمَت الزبارة في عهد الشيخ خليفة بالرخاء الاقتصادي، وأصبحت منطقة جذب للتجار من حولها، وكذلك لقربها من مصايد اللؤلؤ، كما هاجر إليها بعض كبار التجار، إلى جانب أنها شهدت حركة علمية وأدبية، بسبب هجرة بعض العلماء إليها من البصرة والأحساء، كما اتسعت الزبارة اتساعاً هائلاً، بسبب انتقال الكثير من العلماء والتجار بأسرهم من البصرة والكويت إلى الزبارة والأحساء ومناطق البحرين المختلفة، وذلك بسبب:

• هجوم الزندين على البصرة في سنة (١١٩٠هـ / ١٧٧٦م)، الذين نهبوا، وفعلوا بها وبأهلها الأفاعيل، بعد أن استسلم أهلها، وصالحوهم على دخول البلد، فغدروا بأهلها، وفعلوا ما فعلوا^(٢).

ساهمت هجرة أهل البصرة إلى الزبارة في تنشيط الحياة الاقتصادية، وانعكس ذلك على الانتعاش العمراني والعلمي، ففتحت المدارس واتسع العمران، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

• وباء الطاعون الذي انتشر في البصرة، وفتك بالكثير من أهلها ساهم في نزوح عائلات كثيرة إلى الزبارة، حتى قيل: خراب البصرة عمار الزبارة، والذي راح ضحيته أكثر من مئتي ألف من سكان البصرة^(٣).

(١) خير الدين الزركلي «الأعلام»، (٣١٢/٢) - الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة «البحرين عبر التاريخ»، (٢٢/٢).

(٢) لوريمر «دليل الخليج»، (١٨٣٩/٤) من القسم التاريخي - الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة «البحرين عبر التاريخ»، (٢٢/٢).

(٣) الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة «البحرين عبر التاريخ»، (٢٣/٢).

٢. ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب^(١) الإصلاحية في نجد، وانتشارها في الجزيرة العربية.

ظهرت دعوة دينية إصلاحية على يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب التميمي النجدي، تدعو إلى العودة إلى الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة، وإعادة المجتمعات في الجزيرة العربية إلى المنهج القويم في فهم الإسلام.

كانت الجزيرة العربية يغلب عليها آنذاك العقائد المنحرفة والتعصب المذهبي، الذي راق لكثير من الدعاة آنذاك.

وقد اصطدمت دعوة الشيخ بما يعتقدونه هؤلاء وبمصالحهم، لما فيها من توجيه وإرشاد الناس لعدم التقرب أو الاستغاثة بالموتى وأصحاب القبور والأضرحة.

وكان ممن اصطدم مع هذه الدعوة الإصلاحية الشيخ خليفة بن محمد آل خليفة، والذي نسب إليه النبھاني في «تحفته» منظومة في الرد على الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، وعلى دعوته الإصلاحية، في نحو أربعة وخمسين بيتاً، ومما جاء فيها:

ويا بدعة ما قد سمعنا بمثلها تكفر كل الناس حتى الموحد

ولا يلزم من ذلك كله أبداً صحة ما قال الشيخ خليفة رحمه الله، ولا صحة ما نقله النبھاني في تحفته، من أن الشيخ خليفة رحمه الله كانت له كرامات على مفهوم الصوفية المنحرفة، ولعل الشيخ خليفة تأثر بالحياة الدينية والعلمية التي كانت منتشرة وسائدة آنذاك، والتي عدّها الناس ديناً موروثاً عن آبائهم، فأخطؤوا في فهمهم، واحتجوا بما لا ينبغي لهم به الاحتجاج، فالشريعة تبقى بمراد الله تعالى عقائداً وأحكاماً، وليس بفهم الآباء والأجداد، وإنما بفهم السلف الصالح من القرون الثلاثة الأولى المفضلة، والمشهود لهم بالخيرية، على لسان رسول رب البرية ﷺ، وتبقى دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وما ينسب من أبيات شعرية للشيخ خليفة رحمه الله توزن بميزان الشريعة، لا بميزان الأهواء والآراء.

(١) راجع ما سبق بالكتاب عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب.



فلقد كانت حجتهم - مثل حجة الأمم الهالكة في الرد على أنبيائهم، الذين أرشدوهم إلى التوحيد - أن قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ﴾ (٢٢) وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُّرفُوهُآ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ [الزخرف: ٢٢-٢٣].

٣. ظهور قوة آل سعود على نجد والبادية، بعد أن تغلبوا على آل عريعر من بني خالد^(١)، مما دفع بعض سكان الأحساء ونجد من أنصار آل عريعر إلى الرحيل إلى الزبارة والكويت، وخاصة من العلماء والتجار.

ولقد ساهم النظام الاقتصادي في الزبارة - والقائم على حرية التجارة، وعدم فرض الضرائب على السلع التجارية - في تشجيع هجرة التجار إليها، من كل مكان في شرق الجزيرة العربية، إلى جانب اشتهاها بتجارة اللؤلؤ، وقربها من المناطق الغنية به.

٤. المنافسة بين شيوخ الهولة في الساحل الشرقي للخليج العربي وبين العتوب في الكويت والزبارة: وقع ذلك في أصفهان بتحريض من علي مراد خان^(٢) حاكم شيراز، الذي رأى في ظهور قوة العتوب الاقتصادية في الساحل الغربي للخليج خطراً عليه.

كما أقلق هذا الازدهار الاقتصادي للعتوب الشيخ نصر آل مذكور^(٣) البوشهري في البحرين، مما حدا به أن يهدد استقرار العتوب في الزبارة والكويت، كما أن بني كعب كانوا يأخذون إتاوات (ضرائب كبيرة) من العتوب في الكويت، أدى ذلك كله إلى عدم استقرار السواحل، مما هيا لمرحلة جديدة في حياة العتوب والمنطقة برمتها.

• معركة الرقة (١١٩٥هـ):

تعدّ معركة الرقة أول غزوة بحرية على الكويت، شارك فيها قبيلة العوازم إلى جانب العتوب من آل خليفة وآل صباح والجلاهمة، وبين بني كعب، الذين قادهم كعب النصار

(١) آل عريعر من قادة أسرة بني خالد، وأصلهم يسمى بآل حميد نسبة إلى جدهم حميد بن مسعود بن ربيعة، ثم أطلق عليهم آل غرير، ثم آل عريعر حتى اشتهروا بهذا الاسم في شرق الجزيرة العربية. مجلة الوثيقة العدد الثالث (١٩٨٣م)، (ص: ٩٧).

(٢) علي مراد خان الحاكم الخامس للدولة الزندية الكردية، التي أسسها كريم خان زند في فارس واتخذت من شيراز عاصمة لها.

(٣) نصر آل مذكور: حاكم بو شهر، يرجع نسبه إلى قبيلة المطاريش العربية، وكان يتبع في حكمه الأسرة الزندية في فارس، استطاع السيطرة على جزيرة البحرين سنة (١١٦٦هـ).



ضد العتوب، بدعم من نصر آل مذكور حاكم بوشهر وأوال، ووقعت في عهد الشيخ عبد الله آل صباح الحاكم الثاني للكويت، وقد تكبد فيها العتوب خسائر فادحة، مما كان له الأثر في اجتماعهم وهجومهم على البحرين انتقاماً لأنفسهم، وقاموا بنهب مدينة المنامة وتخريبها، والاستيلاء على عدة قوارب بحرية وذلك مما مهدّ لوقوع معركة الزبارة.

• معركة الزبارة (١١٩٦هـ / ١١٩٧هـ):

كان السبب المباشر لمعركة الزبارة هو الانتقام من آل خليفة بعد غزوهم للمنامة؛ فلقد قام الشيخ نصر آل مذكور البوشهري بطلب العون من مراد خان حاكم شيراز، للانتقام من آل خليفة، فساعده في ذلك، ودفعه إلى الهجوم على الزبارة، بمساعدة شيوخ بنادر الساحل الشرقي للخليج العربي.

قام الشيخ نصر آل مذكور في بادئ الأمر - قبل هجومه - بمناورة وخدعة سياسية للوقية والفصل بين الحلفاء من العتوب في الزبارة والكويت، إذ إنه كتب إلى شيخ آل صباح يطلب منه عقد المصالحة معه، فوافق مقابل نصف إيراد البحرين، وأيضاً قسم كبير من دخل بوشهر.

ثم أعد قوة كبيرة، قوامها ألفا مقاتل، وقيل أربعة آلاف، وحاصرت هذه القوة الزبارة نحو شهر، مستهدفة بذلك منع تجارة الزبارة وخنقها، حتى تخضع لشروطه عند التفاوض، ونسي في غفلة منه أن الامتداد البري خلف الزبارة متسع في قطر، ويستطيعون من خلاله تأمين احتياجاتهم الحياتية، مما اضطر نصر آل مذكور إلى التفاوض مع آل خليفة، غير أنه طرح شروطاً غير مقبولة لديهم.

فلم تنجح المفاوضات والوساطة بينهم، ومن هذه الشروط على سبيل المثال، لا الحصر، أن آل مذكور طلبوا من آل خليفة الاستسلام دون قيد أو شرط، ومنها سبي النساء والأطفال والخدم، وأن يقرر الشيخ نصر آل مذكور مصيرهم ومصير الزبارة.

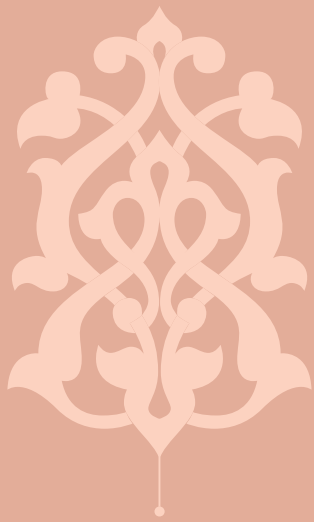
رفض شيوخ آل خليفة رحمهم الله في عزة وإباء وغيره هذه الشروط، حفاظاً على دينهم وأعراضهم وكرامتهم، وأصرروا على عدم قبولها.



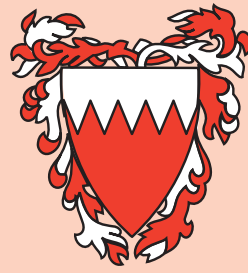
وفي هذه الفترة - التي أقبل فيها موسم الحج - كان الشيخ خليفة قد عزم، وأعد أمره للسفر إلى مكة، لأداء فريضة الحج، وفوض أخاه الشيخ أحمد بإدارة دفعة الحكم في الزبارة، وشاء الله أن يتوفى الشيخ خليفة بعد أدائه فريضة الحج، ودفن بمكة رحمه الله رحمة واسعة، ولعله ممن يدخل في قول النبي ﷺ: «من خرج حاجاً، فمات، كتب الله له أجر الحاج إلى يوم القيامة»^(١).

غير أن ذلك لم يغير من الأمر شيئاً، ووقعت الحرب بين الطرفين كما سيأتي في ترجمة الشيخ أحمد بن محمد.

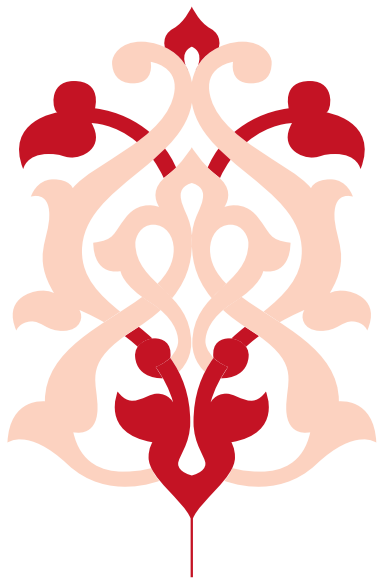
(١) الألباني/ السلسلة الصحيحة (١٦/ ١١٦/ ح: ٢٥٥٣).



الفصل الثالث



آل خليفة في البحرين



آل خليفة في البحرين: فتح أوام ومرحلة الصراعات وإثبات الذات



الشيخ أحمد بن محمد آل خليفة «الفتاح»

(١١٩٧هـ - ١٢٠٩هـ) / (١٧٨٣م - ١٧٩٤م)

الابن الثاني للشيخ محمد، ولد بالكويت، وهاجر مع أبيه وإخوته إلى الزبارة، خلف أخاه الشيخ خليفة في حكم الزبارة، وبايعه أهل الزبارة على تولي الحكم عليهم، بعد إعلان وفاة الشيخ خليفة، وذلك أثناء حصار آل مذكور للزبارة.

• أبرز مظاهر عصره:

• معركة الزبارة:

استفتح الشيخ أحمد أولى أهم الأحداث في فترة حكمه بمعركة الزبارة، التي استعد لها استعداداً جيداً، فلقد قام بالتعبئة للقتال، وتموين الزبارة باحتياجاتها من المؤن والماء والسلاح والذخيرة، كما قام بنشر المقاتلين وتوزيعهم على القلعة والأسوار، كما أمّن النساء والذرائع في مكان آمن من القلعة، وعيّن على القيام بأمرهم الكبار سناً من آل خليفة.

وبعد أن أخفق الحصار البحري للزبارة - بفضل الله، ثم لموقع الزبارة العسكري المحصن، والمحكم بالقلعة والأسوار حول المدينة - نزلت قوات آل مذكور إلى المدينة في منطقة، تسمى رأس عشرين، حتى تمكنوا من الوصول إلى قلعة الزبارة، ومحاصرة المدينة وقت صلاة الجمعة، وذلك لمباغطة الناس أثناء انشغالهم بصلاة الجمعة، فأُتي عليهم من حيث دبروا، وجعل الله كيدهم في نحورهم، فلقد تجمع المصلون في الزبارة أثناء الصلاة في وجه آل مذكور، ولديهم الشعور بالقوة، وأن النصر حليفهم، إذ إنهم كانوا في طاعة عظيمة، وشاء الله سبحانه وتعالى أن يجتمع المصلون في فريجة^(١) على نجدة إخوانهم في الزبارة، وبدأت الحرب، وأصبح آل مذكور وجيشه بين فكي أسد، بين المقاتلين في الزبارة، وبين القادمين من أهل فريجة من خلفهم^(٢).

(١) فريجة: قرية كبيرة تقع شمال الزبارة في شمال قطر، كان يعيش بها آل بن علي، ثم هُجرت وأصبحت أطلالاً.

(٢) يذكر الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة أن امرأة استنجدت بأهل فريجة ضد الغزاة، مما دفعهم للتحرك لنصرة إخوانهم في الزبارة. «البحرين عبر التاريخ»، (٣٠ / ٢).



وقعت المعركة في يوم الجمعة من أيام شهر ذي الحجة سنة (١١٩٦هـ) الموافق لعام (١٧٨٢م)، ودارت رحى معركة عظيمة وملحمة اشتهرت في التاريخ بمعركة الزبارة، قُتل فيها الشيخ محمد آل مذكور أخو الشيخ نصر آل مذكور، وعددٌ من قادة جيش شيخ هرمز البارزين، مما أضعف معنويات الجنود الغازين.

وفرَّ الجنود إلى السفن الراسية في عرض البحر، والتي انحسر عنها الماء بفعل الجزر، ولم يستطيعوا الإبحار بها، فلحق بهم المقاتلون من الزبارة، حتى أدركوهم، وأعملو السيوف في قتلهم، وقد سميت إحدى الجزر الصغيرة هناك باسم (مقتلية)، بسبب كثرة القتلى من جيش آل مذكور.

وتحقق النصر الساحق بفضل الله لآل خليفة الذين استبسلوا، وتفانوا في البذل والجهد والقتال، ثم باستعانتهم بإخوانهم من آل بن علي، وفر الشيخ نصر آل مذكور إلى بو شهر تاركاً خلفه كل شيء حتى سيفه^(١).

- نتائج معركة الزبارة وبداية المكون الأساسي لدولة آل خليفة في البحرين:

- فرار نصر آل مذكور إلى بو شهر تاركاً خلفه الساحل الغربي للخليج العربي.
- تدهور أحوال البحرين -أوال- بعد هذه الهزيمة، مما أدى إلى انقسام سكان الجزيرة فيما بينهم بين مؤيد للعتوب، وبين مؤيد لنصر آل مذكور، وكان من أهم المؤيدين للعتوب أسرة آل فاضل من العتوب، الذين أقاموا بالبحرين من قبل.
- زيادة النشاط التجاري للزبارة، والانتعاش الاقتصادي، مما حوَّها إلى عهد جديد، تميَّز بالقوة والمكانة في المنطقة.
- وكان من أهم النتائج أن أعدَّ الشيخ أحمد بن محمد آل خليفة العدة للسيطرة على البحرين -جزيرة أوال- بعد أن تأكَّد لديه عجز نصر آل مذكور بالعودة إليها وحمايتها،

(١) يذكر الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة في كتابه «البحرين عبر التاريخ»، (٣٢/٢)، أن هذا السيف آل (انتقل) إلى سلامة بن سيف آل بن علي، ثم إلى ولده سلطان بن سلامة، ثم إلى مريم بنت سيف بن سلطان، ثم إلى راشد بن فاضل آل بن علي، والذي أهدها إلى الملك عبد العزيز آل سعود مع بيت من الشعر قال فيه:

إنَّ المأثرَ تبني ذكرٍ صاحبها ما عليه من الأفعال مذكور. نقلاً عن التحفة النبهانية (ص: ١٧).



وانشغالُ الفرس بالصراع الداخلي في الأسرة الزندية الحاكمة على الزعامة، بعد وفاة علي مراد خان، فترتب على ذلك الحدثُ الكبير الذي غير مجرى التاريخ في حياة آل خليفة، وحياة ساحل الخليج العربي الغربي برمته، وهو فتح أوّال، وقيام دولة آل خليفة.



فتح أوال «البحرين»^(١)

تقدم الشيخ أحمد بن محمد آل خليفة بقواته نحو البحرين في صفر (١١٩٧هـ / ١٧٨٣م)، ولم يكن بها سوى حامية شكلية، مع عائلة نصر آل مذكور داخل قلعة الديوان، ولذلك لم يجد الشيخ أحمد أي مقاومة، أو مشقة في الدخول إلى البحرين، ومحاصرة القلعة، مما أدى إلى استسلام الحامية بمن معهم من عائلة الشيخ نصر آل مذكور.

• ديانة وأمانة:

أمر الشيخ أحمد بن محمد آل خليفة بتجهيز السفن والمراكب لنقل أسرة الشيخ نصر آل مذكور إلى بو شهر، دون المساس بهم وأمنهم، حتى وصلوا إليها معززين مكرمين، ولقيهم الشيخ نصر آل مذكور، والذي أكبر هذا الصنيع من الشيخ أحمد، الذي لم يفعل بالنساء والذراري ما أراد فعله آل مذكور في نساء وذراري آل خليفة عند مفاوضاتهم للشيخ أحمد قبل معركة الزبارة.

وهذا مما يدل على أن الشيخ أحمد كان صاحب ديانة، وفقه، وغيره على أعراض المسلمين، وخلق رفيع، وبمثل هذه الأخلاق والمعاني الراقية التي حث عليها القرآن، تُنصر الأمم، وترتقي، ويبقى عزها إلى ما شاء الله. قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

ومنذ دخول الشيخ أحمد بن محمد آل خليفة إلى البحرين لقب بالفاتح، ويُعدُّ هو أول حكام آل خليفة في البحرين، وهو المؤسس الحقيقي للكيان السياسي لأسرة آل خليفة في البحرين، والتي استقرت إلى زماننا هذا، أدام الله بقاء الإيمان في قلوبهم، وأبقاهم على دينهم وملكهم، وأزال من بينهم أهل الفسوق والعصيان، وأرشدتهم إلى الخير والصلاح.

لم يتخذ الشيخ أحمد الفاتح من البحرين مقراً له ومركزاً للحكم، بل أصبحت البحرين

(١) ذكر النبهاني في التحفة أن البعض أرخ فتح الشيخ أحمد لجزيرة أوال واستيلائه عليها بقوله: (أحمد صار في أوال خليفة)، يساوي ١١٩٧هـ. «التحفة»، (ص: ٨٨).



تابعة للزبارة مركز حكم آل خليفة، لذا عين الشيخ أحمد رجلاً من أتباعه، يسمى علي بن فارس الشاعر الأديب والياً على البحرين من قبله، كما عين على القلعة رجلاً، يقال له عجاج، فأقام بالقلعة التي سميت باسمه: قلعة عجاج، وهو جد آل عجاج المعروفين اليوم بجزيرة المحرق، وقد اتخذت هذه القلعة سجناً في عهد الشيخ أحمد الفاتح.

وكان الشيخ أحمد يقوم بالتردد على البحرين في الصيف، من كل عام، ويقضي الشتاء بالزبارة، إلى أن توفاه الله تعالى، مما حدا بهجرة الكثير من آل خليفة من الزبارة إلى البحرين، التي بدأت تشهد تطوراً وازدهاراً اقتصادياً وعمرانياً، واستقراراً للحكم فيها لآل خليفة إلى عصرنا الحالي.

• توسع الدولة السعودية الأولى:

كان آخر الأحداث التي وقعت في عهد الشيخ أحمد الفاتح توسع الدولة السعودية الأولى، بشرق الجزيرة العربية، مما أوقع الصراع بين آل عريعر - حكام المنطقة - وبين آل سعود، وقد التجأ آل عريعر إلى الدولة العثمانية، يطلبون منها المساعدة، فأمدتهم بقوة كبيرة، اتجهت لحرب آل سعود بالأحساء والقطيف عن طريق البحر، فلما نشبت الحرب، خشي الشيخ أحمد في الزبارة من امتداد الحرب إليه، فاستشار قومه في الزبارة والبحرين الذين وافقوه على إنشاء خندق بين البحرين وقلعة مريز في الزبارة، وبناء الحصون والأبراج التي تحمي السفن حتى تؤمن في الطريق إلى القلعة، فكان هذا آخر الأعمال الجليلة التي قام بها رحمه الله، قبل أن يتوفى بالبحرين سنة (١٢٠٩هـ / ١٧٩٤م).

كما كانت هناك مخاطر عديدة، تحيط بالمنطقة التي لم تستقر بعد من جهة فارس وعمان، وهذا لعله أبرز الدوافع التي منعت الشيخ أحمد من نقل مركز الحكم من الزبارة إلى البحرين، لأنها كانت تتمتع بموقع جغرافي متميز، وبتحصينات أفضل بكثير من البحرين. ثم توفي الشيخ رحمه الله بالمنامة في سنة (١٢٠٩هـ / ١٧٩٤م)، ودفن بها، رحمه الله رحمة واسعة^(١).

(١) الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة «البحرين عبر التاريخ»، (٢/ ٣٥).



الشيخ سلمان بن أحمد بن محمد آل خليفة

(١٢٠٩هـ - ١٢٣٦هـ) / (١٧٩٤م - ١٨٢١م)

ولد بالزبارة سنة (١١٥١هـ / ١٧٣٨م)، وتولّى الحكم بعد أبيه الشيخ أحمد في سنة (١٢٠٩هـ / ١٧٩٤م)، وعمره آنذاك نحو ثمانية وخمسين عاماً، اتصف الشيخ سلمان بالصفات العامة لآل خليفة من: التواضع، والكرم، وحسن الخلق، والشجاعة^(١)، وكان رحمه الله تقياً ورعاً، وقد عاصر الشيخ جدّه وأباه، وعاصر الأحداث التي جرت آنذاك، وكانت سياسته التي سار عليها تقوم على السلم واللين، وذلك بسبب الظروف والصراعات التي وقعت في عهده.

• أهم الأحداث في عصر الشيخ سلمان بن أحمد:

تطورت الأحداث تطوراً سريعاً في المنطقة، خاصة بعد العواصف السياسية والصراعات الإقليمية، ثم قيام الدولة السعودية الأولى، بقيادة عبد العزيز بن محمد آل سعود^(٢)، والتي استطاعت أن تتغلب على مساحات واسعة في نجد، وتقضي على نفوذ الأمراء بها، وخاصة من الخوالة آل عريعر، الذين وقفوا في وجه الدعوة الإصلاحية للشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، التي تبنتها الدولة السعودية، غير أن كلّ محاولات آل عريعر كان مصيرها إلى الفشل، وخاصة بعد أن قاد سعود بن عبد العزيز^(٣) حملة لغزو الأحساء والقطيف، وتمكن من دخولها في سنة (١٢٠٧هـ / ١٧٩٣م).

مما أرغم بني خالد على الفرار إلى البحرين والزبارة، في الوقت الذي توجه قادتهم إلى الوالي العثماني في بغداد، يطلبون منه المساعدة في استرجاع الأحساء والقطيف من آل سعود.

(١) إن من أهم الصفات السائدة في أسرة آل خليفة إلى زماننا هذا صفة التواضع والأدب مع القاصي والداني، صغيراً كان أو كبيراً مواطناً كان أو مقيماً، نحسبهم كذلك، ولا نزكي على الله أحداً، وهذا يشهد به كل من تعامل معهم عن قرب، ولا شك أن منهم من هو مخالف لذلك، فلكل قاعدة شواذ.

(٢) الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود بن محمد بن مقرن بن الإمام محمد بن سعود، تولى الحكم بعد وفاة أبيه سنة (١١٩٦هـ) / (١٧٦٥م)، وسار سير أبيه في بناء الدولة ونشر الدعوة، حتى امتد نفوذ الدولة إلى الرياض والخرج، ووادي الدواسر والقصيم، ودومة الجندل وتبء وخيبر، والأحساء والبريمي، وامتد نفوذ الدولة في زمانه إلى البحرين وعمان، كما امتد إلى شرقي الحجاز والطائف والخزعة وتربة وما حولها، ووصل إلى بيشة والليث وجيزان. شهد عهده نشاطاً كبيراً من الحملات العسكرية والانتصارات المتوالية، انتهى أمره بتدبير اغتياله من المتلويين من الشيعة في العشر الآخر من شهر رجب سنة (١٢١٨هـ)، حيث قاموا باغتياله، وهو يصلي صلاة العصر في مسجد الطريف بالدرعية، وهو ساجد، رحمه الله، وعفا عنه، وقد تولى من بعده ولده سعود الكبير. عبد الله آل بن علي «العتوب وقبائل الخليج العربي»، (ص: ١٣٩).

(٣) سعود الكبير بن عبد العزيز بن محمد آل سعود، أحد أئمة وحكام الدولة السعودية الأولى، وتولى الحكم منذ وفاة والده سنة (١٢١٨هـ) حتى وفاته سنة (١٢٢٩هـ)، عاصر أحداثاً متنوعة، وتولى بعد وفاته ابنه عبد الله. عبد الله آل بن علي «العتوب وقبائل الخليج العربي»، (ص: ١٤٠).



وبناءً عليه قام الوالي العثماني في بغداد بتشكيل قوة عسكرية - من الأكراد، وعرب العراق - انطلقت إلى القطيف، فلما علم سعود بن عبد العزيز بذلك، اضطرَّ إلى الانسحاب إلى مدينة الأحساء، وتحصن بها، فحاصرت القوات القادمة من العراق، التي استعانت بسفن العتوب في الكويت والبحرين لنقل الإمدادات إليها.

ولا شكَّ أن العتوب من آل خليفة كانوا يربون هذا الموقف بقلق بالغ، خشية زوال نفوذهم، واتساع دولة آل سعود على حسابهم، لذلك أثروا الوقوف إلى جانب الدولة العثمانية، لما فيه مصلحة لهم، ولأن الدولة العثمانية هي دولة الخلافة المسؤولة عن بلاد المسلمين.

طال حصار القوات العثمانية ومن معها للأحساء، مما أدى إلى تملل القوى العربية، فاستغلَّ سعود بن عبد العزيز ذلك، وبدأ الاتصال برؤساء هذه القوى، ليستميلهم إليه، مما حدا بقائد الحملة إلى أن ينسحب بجيشه، وأن يرفع الحصار، ويعود إلى العراق خشية تأمر القوات العربية عليه.

وعند وصول قائد الحملة إلى بغداد قدَّم شرحاً وافياً للوالي العثماني عن أسباب فشل الحملة، والذي برره وعلله بخيانة رؤساء القبائل له، وتأمرهم مع سعود بن عبد العزيز عليه، فأصدر الوالي فرماناً -أمرأ- بالإعدام شنقاً لرؤساء القبائل الذين ذكروا في تقرير قائد الحملة.

- فقدان الزبارة:

وقع ما كان يخشاه آل خليفة من تمكن سعود بن عبد العزيز في المنطقة، فلقد استطاع أن يفرض نفوذه على المنطقة الشرقية برمتها بعد هذه الأحداث، وتسارعت القبائل هناك لمبايعته على السمع والطاعة، مما أغراه أن يرسل سراياه لتغير على أطراف الكويت وقطر، بقيادة إبراهيم بن عفيصان^(١)، والذي استطاع غزو قطر، واستولى على الكثير من قراها، مثل الحويلة والفريجة.

(١) القائد والأمير والداعية في الدولة السعودية الأولى: إبراهيم بن عفيصان العايدي توفي سنة (١٢٢٩هـ)، عمل أميراً لآل سعود على الأحساء، وغزا قطر، واستولى على الكثير من قراها، مثل الفريجة والحويلة، وغزا الزبارة، واستولى عليها في سنة (١٢٠٧هـ)، كما توجه لغزو الكويت في سنة (١٢٠٨هـ)، وقاد الجيش الذي ساعد آل خليفة للتخلص من سيطرة حاكم مسقط على البحرين، وضمها إلى سلطان آل سعود، مما أوقع الحرب بينه وبين آل خليفة والتي اعتقل فيها أكابر آل خليفة، ومنهم الشيخ سلمان بن أحمد، وأرسلهم إلى الدرعية لسعود بن عبد العزيز الذي أصدر أمراً بتعيين إبراهيم بن عفيصان أميراً على الدرعية. عثمان بن بشر «عنوان المجد في تاريخ نجد»، (ص: ١٤٠-١٤٣، ٢٢٧).



مما أدى إلى أن يرسل الشيخ سلمان بن أحمد - الحاكم لتلك الجهات والمناطق - قوةً من الزبارة، أغارت على تلك المناطق، وأدّبتها نظير خروجها عن طاعة آل خليفة، وتحالفها مع القوة السعودية في السيطرة على قطر، فأرسل أهل هذه المناطق لإبراهيم بن عفيصان، يشتكون له ما حل بهم من الشيخ سلمان بن أحمد آل خليفة، فكان ذلك دافعاً قوياً بالنسبة لابن عفيصان لأن يهاجم الزبارة، التي صمدت لفترة طويلة بفضل الله، ثم بقلعتها، غير أن ابن عفيصان استطاع أن يدخل إلى الزبارة، بعد أن هاجر معظم أهلها بالذراري والنساء والأموال إلى البحرين، واتخذوا من منطقة جوّ مقراً لهم في سنة (١٢١١هـ / ١٧٩٦م).

- التهديدات الفارسية لآل خليفة:

سارت الأحداث والصراعات الإقليمية متلاحقةً، وأصبح الشيخ سلمان بن أحمد وآل خليفة في حرج شديد، وليس لهم إلا الله، ثم أبناء عموماتهم من عتوب الكويت، الذين لم يكونوا أحسن حالاً من آل خليفة، إذ أن إبراهيم بن عفيصان قد هاجمهم، وهدّد ملكهم، وبعد أن سيطر آل سعود على الزبارة، كانت التهديدات الفارسية هي الخطوة الثانية لتهديد آل خليفة في البحرين، إذ أن والي شيراز شاه حسين ميرزا أرسل رسالة إلى الشيخ سلمان وأخيه الشيخ عبد الله آل خليفة، يطلب منهم الخضوع له^(١).

قام الشيخ سلمان بالردّ على هذه الرسالة بما يدفع عنه وعن بلاده وقومه الضّر، ولا يلتزم فيها بما يضرّ، قال الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة^(٢): ولو حلّلنا معاني هذه الرسالة نجد أنهم لم يلتزموا فيها بأي شيء، ثم استطرد: ولكنهم استفادوا من هذه الرسالة فائدة كبيرة، حيث أخرجوا بها الهجوم المتوقع عليهم، وأصبح لديهم فرصة من الوقت، استغلّوها في تحسين أوضاعهم في البحرين، وبَنَوْا بيوتهم وقلعتهم في جو، كما أعطتهم الوقت لتحسين أوضاعهم مع إخوانهم في الجزيرة العربية، وبذلك استطاع الشيخ سلمان أن يتجاوز هذه المواجهة الخطيرة.

(١) الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة «البحرين عبر التاريخ»، (٢/ ٩٥).

(٢) الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة «البحرين عبر التاريخ»، (٢/ ٩٦).

- الصلح بين العرب وموقف خصوم آل خليفة منه:

بعد أن فقد آل خليفة الزبارة كتب عبد العزيز بن محمد بن سعود إلى القواسم - في رأس الخيمة - يطلب منهم الهجوم على البحرين، وسيتكفل هو بالمال والرجال، ويمدهم القواسم بالسفن والبحارة.

فكان جوابهم بالامتناع عن ذلك، لأنهم لا قدرة لهم على مواجهة العتوب، وبرروا ذلك بأن العتوب أكثر منهم دولة وقوة، ورغبوه في السعي إلى الصلح بينهم وبين آل خليفة، فاستجاب لذلك، وشاء الله تعالى أن يقع الصلح بينهم، وعادت الزبارة لآل خليفة، مما أثار حفيظة سلطان مسقط سلطان بن أحمد البوسعيدي، وأثار حكومة شاه فارس في آن واحد.

وكان سلطان مسقط البوسعيدي تطلع إلى مد نفوذه، والسيطرة على البحرين، خاصة بعد عقد اتفاقية صداقة مع الإنجليز، والتي تعدّ أول معاهدة عقدت بين الإنجليز وأمير عربي، مما دفعه إلى محاولة السيطرة على أراضي الدولة اليعربية السابقة^(١)، وخاصة بعد الصلح والتقارب الذي تم بين آل خليفة وآل سعود والقواسم، واستياء حكومة بريطانيا وشاه فارس من هذا التقارب؛ فاستغل سلطان مسقط كل ذلك، وبدأ يتحين الفرصة للهجوم على البحرين، فأعلن فرض رسوم على جميع السفن التي تجتاز مضيق هرمز الذي تتحكم فيه، ومن تلك سفن العتوب الذين رفضوا دفع هذه الرسوم والإتاوات، فقامت قوات سلطان عمان بأخذ ثلاث سفن للعتوب محملة بالبضائع، قادمة من الهند، مما أدى إلى وقوع الخلاف بينهم، فاستغل سلطان مسقط ذلك فقام في سنة (١٢١٧هـ/ ١٨٠٢م)^(٢) بالهجوم على البحرين، وحاصرها حصاراً شديداً، وشعر آل خليفة بخرج

(١) دولة اليعاربة من (١٠٣٣هـ: ١١٥٤هـ)، دولة عربية شملت عُمان، وما يسمى الآن بالإمارات العربية المتحدة، وشرق أفريقيا، وجزءاً من فارس، وكانت عاصمتها الروستاق، دامت قرابة (١٢٠) سنة، وتميزت فترتها الأولى بإقامة الشرايع ومواجهة البرتغاليين، وقد استطاع إمامهم ناصر بن مرشد تحرير رأس الخيمة، كما استطاع الإمام سلطان بن سيف أن يقوم بطرد البرتغاليين نهائياً من عُمان، وهي دولة، مذهبها العقدي الخارجي الإباضي، انتهت دولة اليعاربة سنة (١١٥٤هـ) بظهور أحمد بن سعيد، وتأسيس الدولة البوسعيدية. محمود شاكر: «التاريخ الإسلامي / العهد العثماني»، (٨/ ٣٣٤).

(٢) ذكر الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة في: «البحرين عبر التاريخ»، (٢/ ١٠٠): أن هناك مخطوطاً يسمى: «بعقد جيد الدرر في معرفة حساب نوروز أهل البحرين»، لكتابه جابر بن عبد الخضر بن هلال بن محمد بن بدر، وهو شاهد عيان، سجل حوادث هذا الهجوم وحددها باليوم والساعة، وقد أوردها الشيخ في كتابه «تاريخ الخليفة في البحرين»، وقد استفتح الكاتب تأريخ أول يوم الهجوم (١٧) سبتمبر (١٨٠٢م / ١٢١٧هـ).



الموقف، وأنهم لا طاقة لهم بقتال هؤلاء القوم، وأن المؤامرة كبرى، فلا بد من التفاوض حقناً للدماء، وحفظاً للأعراض، مما اضطر الطرفين إلى عقد التفاوض والمصالحة بينهما، والذي جاء فيه:

- يتخلى آل خليفة عن حكم البحرين لسلطان مسقط.
 - يدفع آل خليفة إتاوة سنوية لسلطان مسقط، ورسوم سفنهم القادمة من الهند عبر مسقط.
 - يتعهد السلطان بترك أملاك آل خليفة من الأراضي والسفن والأموال في أيديهم، دون التعرض لهم.
 - أن يسلم الشيخ سلمان بن أحمد أحد أفراد عائلته رهينة للسلطان، لكي لا يسترجعوا البحرين، فتقدم الشيخ محمد بن أحمد آل خليفة رهينة، فداءً لأهله وقومه.
- وبهذه الشروط المجحفة اضطر آل خليفة إلى أن يقبلوا الصلح حقناً لدمائهم، وهو ما حثت عليه الشريعة بصون الأرواح والأعراض والأموال، درءاً للمفسدة وجلباً للمصلحة.
- قام سلطان مسقط بتعيين ابنه سالم أميراً على البحرين، كما أمر ببناء قلعة في منطقة عراد، مازالت قائمة إلى اليوم.

- الأيام دول والابتلاءات تترى:

ثم تطورت الأحداث تطوراً سريعاً، حيث قُتل سلطان مسقط سلطان بن أحمد بن سعيد البوسعيدي، قتله رجال من القواسم من رأس الخيمة بالبحر، مما ترتب عليه وقوع صراع بين ابنه سعيد، وأخيه قيس بن أحمد، وذلك لم يُخرج البحرين من السيطرة العمانية.

انتهى الصراع بين الابن والعم بانتصار سعيد على عمه قيس، وعندما تمكن السلطان سعيد من الحكم أساء معاملته أمراء آل خليفة والعتوب، ولم يُقم بالوفاء تجاه الاتفاق مع آل خليفة، مما دفعهم أن يرتحلوا من البحرين إلى الزبارة، يتحينون الفرصة لاستعادة حكمهم مرة أخرى فيها.



أثّرت هذه الأحداث وخروجُ أمراء آل خليفة من البحرين على الكثير من التجار وكبار الوجهاء في المجتمع؛ فهاجر الكثير منهم إلى الكويت والبصرة، مما أدى إلى تراجع النمو الاقتصادي، والتفاعل الاجتماعي في البحرين، وخلال هذه الفترة تحرك آل خليفة على نطاق واسع، من أجل استرداد حكمهم للبحرين؛ فقاموا بالاتصال بآل سعود، وخاصة بعد وفاة الشيخ محمد بن أحمد الرهينة في مسقط، وطلبوا المساعدة من الأمير سعود بن عبد العزيز، الذي لم يخذلهم، وأمدّهم بالمال والسلاح والرجال، وأرسل قوة سعودية بقيادة إبراهيم بن عفيصان، الذي تمكن من مواجهة العمانيين، وهزيمتهم، وطردهم من البحرين في سنة (١٢٢٣هـ).

- ابتلاء جديد:

ثم قام إبراهيم بن عفيصان بقيادة الجيش - الذي ساعد آل خليفة في التخلص من حكم حاكم مسقط للبحرين -، وأعلن ضمّها إلى سلطان آل سعود، لتخرج من يد العمانيين إلى يد السعوديين، في مناورة، كان الهدف منها ضمّ البحرين إلى آل سعود، مما أوقع الخلاف والحرب بين آل سعود وبين آل خليفة، الذين لم يتمكنوا من طرد آل سعود من البحرين، بل قام ابن عفيصان على أثر ذلك باعتقال أكابر شيوخ آل خليفة، ومنهم الشيخان سلمان وعبد الله ابنا أحمد، وأرسلوا إلى الدرعية.

قام الأمير سعود بن عبد العزيز بمكافأة إبراهيم بن عفيصان على هذه المناورة؛ وعينه أميراً على الدرعية.

في ظل هذه الأحداث العصبية اضطرّ العتوب - وعلى رأسهم آل خليفة - إلى التحرك السريع، من أجل إنهاء هذه الأزمة، وفكّ أسر رؤسائهم، فاجتمعوا بزعامة الشيخ خليفة بن سلمان بن أحمد آل خليفة، وعبد الرحمن بن راشد الفاضل - ابن أخت الشيخ سلمان -، والشيخ عبدالله، وتم الاتفاق على إرسال وفد إلى سلطان عمان: سعيد بن سلطان، ليطلبوا منه المساعدة في حل هذه الأزمة، وليعود مسلسل التصالح والتفاوض مع الخصوم، وسياسة الانتفاع من خصم على حساب آخر.



ترأس وفد العتوب إلى عمان عبد الرحمن بن راشد الفاضل، وكانت فرصة ذهبية، استغلها سلطان عمان عندما لقيه وفد العتوب، وطلب منه المساعدة، فأمدّه بالمال، وزوّده بشيء من المدافع، وقدم له سيفاً هدية يقال له (السلموني).

ولا شك أن سلطان عمان - الذي يخالف آل سعود في المنهج العقدي - أراد من وراء هذه المساعدة تضعف وتفتت قوة آل سعود وكيانهم، خاصة بعد أن هاجموا، وكبّدوا من الخسائر الكثير، واضطر أن يدفع لهم الخراج.

توجه عبد الرحمن الفاضل بعد ذلك إلى فارس، حيث عرب الساحل الشرقي للخليج العربي، واستحث همم العتوب، الذين هاجروا إلى هناك، للعودة والقتال إلى جوار إخوانهم، كما استطاع أن يوظف المال الذي حصل عليه من سلطان عمان في تجنيد أعداد من رجال قبيلة النصور^(١).

التقى عبد الرحمن - في موعد محدد مسبقاً - مع العتوب القادمين من الزبارة عبر البحر، للهجوم على البحرين، وكان ذلك باتفاق سري بينه وبينهم.

- نحو النصر:

التقى جيش الزبارة جيش عبد الرحمن الفاضل، وقاموا سوياً بمهاجمة ابن عفيصان، الوالي السعودي في البحرين، وهزموا، واستردوا حكمهم فيها، وانسحب ابن عفيصان إلى قطر، وانضم إلى القائد السعودي سليمان بن طوق في الزبارة، في الوقت الذي كان من تبقى من سكان الزبارة قد تسلل راحلاً إلى البحرين، برغم محاولات سليمان بن طوق منعه، فلم يستطع إلى ذلك سبيلاً، حتى لم يتبق في الزبارة إلا سليمان بن طوق ورجاله، مما اضطره إلى مغادرتها إلى الأحساء، وبقيت خالية على عروشها، كأن لم تغن بالأمس.

(١) قبيلة النصور: واحدة من أكبر القبائل العربية الخليجية، التي كان لها دوراً بارزاً في الأحداث السياسية في خمسة القرون الهجرية الأخيرة، وكان يطلق عليها قديماً آل جبور من بني خالد، وكان موطنهم بالأحساء والقطيف والبحرين، وقد سقطت الدولة سنة (٩٣٠هـ) على يد الغزاة البرتغاليين، فتفرقت القبيلة، جزء منهم تحالف مع قبيلة بني خالد بالأحساء، وقاموا بعد ذلك بطرد البرتغاليين بمعاونة الدولة العثمانية، وجزء آخر هاجروا إلى سواحل الخليج العربي الشرقية، وبقوا هناك لفترة تزيد على الثلاثة قرون، ولما استقروا هناك سموهم بال منصور أو المنصوري، نسبة إلى أميرهم منصور بن خالد المهنا الجبوري. جبارة بن حاتم المنصوري الخالدي: «إمارة النصور الخالدية»، (ص: ٥٣).

وغادر الزبارة أيضاً إبراهيم بن عفيصان متوجهاً إلى الخوير، في الشمال الشرقي منها، ونزل على أرحمة بن جابر الجلاهية^(١) خصم أبناء عمومته من العتوب، فلمّا وصل إلى هناك، وجدها أرحمة فرصةً لأخذ ثأر أبيه من العتوب أبناء عمومته، فوضع يده في يد ابن عفيصان الذي نزل عليه، وجمع له السفن، واستعدّاً استعداداً واسعاً لمهاجمة البحرين.

- إطلاق سراح المعتقلين في الدرعية (١٢٢٥هـ):

شاء الله تبارك وتعالى أن يفرّج عن شيوخ آل خليفة المعتقلين بالدرعية عند آل سعود؛ فانطلقوا إلى الساحل، وامتطّوا مركباً، توجهوا به إلى البحرين، في يوم مشهود من أيام أوّال، التقاهم ابن أختهم عبد الرحمن الفاضل، وهو الذي سعى من أجل إخراجهم من الاعتقال.

- موقعة تنورة «أخيكرة»:

وقعت هذه الموقعة في سنة (١٢٢٥هـ) بين ابن عفيصان - متحداً مع أرحمة الجلاهية - وبين آل خليفة بالبحرين، حيث تقدّم ابن عفيصان مع أرحمة نحو البحرين بالسفن التي جمعوها، وذلك لمهاجمة البحرين والسيطرة عليها، وطرّد آل خليفة، الذين كانوا قد استعدوا مع شيخهم سلمان بن أحمد لصّد الغارة عن البحرين.

قاد الشيخ عبدالله بن أحمد سفن البحرين لملاقاة خصومه، ووقعت معركة بحرية، قُتل فيها من الطرفين أعداد من الرجال، بلغت نحو ألف وخمسمئة قتيل في المكان المسمى: أخيكرة، وشبّت النار في السفن، مما دفع أرحمة وابن عفيصان إلى القفز في مياه الخليج، ثم تمكّنوا من الهرب في قارب صغير إلى قطر.

وقد ساهم الشيخ جابر بن عبدالله بن صباح الأول في القتال مع آل خليفة هو وولده دعيج بن جابر، الذي قتل في المعركة، وبقي الشيخ جابر في البحرين إلى وفاة والده

(١) أرحمة بن جابر الجلاهية، أحد أبناء العتوب، ممن اختلف مع أبناء عمومته، ووقف منهم موقف العداء، بسبب الخلاف الذي جرى بين فخيذتي الجلاهية وآل بن علي، والذي ترتب عليه نزوح الجلاهية مع أميرهم جابر بن عذبي إلى العديد، ولحق بهم آل بن علي، ووقعت بينهم مقتلة، قُتل على أثرها كلا أميرَي الفريقين؛ وكان أرحمة بن جابر فتى صغيراً، وقد عاصر هذه الأحداث، وحفرت في ذاكرته، فلما شب، عمل بكل ما أوتي من دهاء وقوة لأخذ ثأر والده، فتارة مع ابن سعود على قومه، وتارة مع البوسعيد العمانيين على قومه، وظل يعمل من أجل هذا الثأر، والذي أودى به في النهاية إلى الموت، وهو يخوض المعركة ضد قومه من العتوب. الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة «البحرين عبر التاريخ»، (٢/ ١١٠).



حاكم الكويت، ثم انتقل إليها ليتقلد مقاليد الحكم بالكويت، كما قتل فيها الشيخ راشد بن عبدالله بن أحمد آل خليفة.

بعد هذه المعركة شعر آل خليفة بأن الله تعالى قد قَدَّرَ لهم حُكْمَ هذه البلاد، والاستقرار بها، لذا قام الشيخ سلمان بن أحمد آل خليفة بتأسيس مدينة الرفاع، وبناء القلعة بها، واتخذها مقراً له ولسكناه، كما قام أخوه الشيخ عبدالله بن أحمد ببناء قلعته في حالة (أبو ماهر)، وقام بتأسيس مدينة المحرق.

وبعد هذه المعركة استقرت البلاد، ونعمت بقدر من الهدوء، طال لأكثر من أربع سنوات (١٢٢٥ - ١٢٢٩ هـ، ١٨١١ - ١٨١٥ م)، غير أن التغيرات والصراعات في المنطقة كانت على أشدها.

- صراعات وتغيرات:

كان من أهم الصراعات التي أشرنا إليها صراعُ الدولة العثمانية مع آل سعود، حيث أمر الخليفة العثماني محمود الثاني محمد علي باشا الوالي على مصر أن يرسل حملات عسكرية إلى آل سعود، للقضاء عليهم، كما سيأتي، حيث تقدّم، وهاجم آل سعود الذين انشغلوا بالحروب معه، مما أبعدهم عن التفكير في التوسع مرة أخرى، وفتح جبهات جديدة، خاصة بعد هزيمة ابن عفيصان وأρχمة الجلاهمة في موقعة أخكيكره، كما توفي الأمير سعود بن عبد العزيز رحمه الله.

فقام آل سعود على إثر ذلك بالانسحاب من قطر، وغادر أرخمّة الجلاهمة أيضاً قطر، واستقرّ بالدمام، وبنى بها قلعة، وأقام فيها مع أهله، كما التف حوله العائلات التي غادرت معه، ولما استقر الأمر له، طلب المساعدة من الأسرة السعودية لغزو البحرين، غير أن الأسرة السعودية لم تستجيب له، بسبب مواجهتها لجيش محمد علي.

فقام أرخمّة باستغلال خلافٍ وقع بين سلطان عمان وآل خليفة، واتصل بسلطان مسقط، يحثّه، ويحرضه على مهاجمة البحرين، مما أثار غضب آل سعود، وعلى رأسها الأمير الجديد عبدالله بن سعود، الذي أمر بمهاجمة قلعة أرخمّة بالدمام، وطرده خارجها، ونقل



كل ممتلكات القلعة إلى الدرعية، فقام أرحمة في سنة (١٢٣٠هـ / ١٨١٦م) بالخروج من الدمام على ظهر السفن البحرية، تصحبه (٥٠٠) أسرة ممن كانوا معه، وتوجه إلى بوشهر، حيث أسس قلاعاً جديدة، واستقر به الحال هناك.

- عُمان مرة أخرى بدعم من فارس:

قام أرحمة بالاتصال بالمقيم البريطاني بروس -الحاكم العام- في إقليم فارس، والذي كان يقيم في بوشهر، فشجعه بروس على الاتصال بسلطان عمان، فأعاد أرحمة الاتصال بسلطان عمان، الذي تدهورت بينه وبين آل خليفة العلاقات، فتفاعل سلطان عمان مع مطلب أرحمة، وقام بالتعرض لخمسة عشرة سفينة من سفن آل خليفة، قادمة من الهند إلى البحرين، ونهب ما فيها من أموال وتجارات، واحتجزها عنده.

وقام بالقبض على من بالسفينة، وكان فيهم الشيخ محمد بن مقرن بن محمد آل خليفة، والشيخ عبدالرحمن بن راشد الفاضل، ومحمد بن صقر المعاودة، وغيرهم من سكان البحرين، وسجنهم السلطان في قلعة يقال لها: الجلالي.

قام سلطان عمان بالاتصال بحاكم شيراز في فارس، واستحثه ليغزو البحرين، وعرض عليه خطة لذلك، وطلب منه أن يمدّه بألف فارس، وأربعمئة جواد، فوافقه حاكم شيراز، بشرط أن يقوم سلطان عمان بدفع تكاليف الحملة مع ضريبة سنوية في حال فشل الحملة على البحرين، وأما في حال نجاح الحملة، فعلى سلطان عمان أن يدفع عشرة آلاف تومان سنوياً لفارس، فتم الاتفاق بين الطرفين على ذلك.

بدأت الحملة العمانية الجديدة على البحرين في سنة (١٢٣٠هـ / ١٨١٦م) بعد أن أبحروا من مسقط، يقودها السلطان سعيد بن سلطان بنفسه، وقد انضم إليه ثلاث سفن من بوشهر، إلى جانب فرق مختلفة من العرب، من موانئ الساحل الشرقي، وكذلك أرحمة بن جابر الجلاهمة بقواته.



- بريطانيا ودورها الماكر:

في هذا الوقت بدأ الدور البريطاني الماكر يعمل متمثلاً في مقيمها بروس، والذي قام بزيارة البحرين للوقوف على قوة آل خليفة الحربية، دون أن يعلن لهم ذلك، وقد التقى بالشيخ سلمان بن أحمد، وبأخيه الشيخ عبدالله بن أحمد، وأظهر لهم بدهاء أنه يريد أن يتعرّف طبيعة الخلاف بينهم وبين سلطان مسقط، فبيّن له - بحسن نية، وعدم سوء ظنٍّ - الأساليب التي استخدمها سلطان مسقط مع البحرين، وأنه استولى على سفنهم، وسجن رجالهم، ثم أرسل إنذاراً لهم بالحرب، وأخبرهم مهدداً بأن السفن الحربية الإنجليزية سوف تدعمه، وتشارك معه، وأن الموانئ التجارية الهندية التي تسيطر عليها بريطانيا ستغلق في وجه السفن التجارية البحرينية.

فأجابهم بروس بأن هذا الكلام خاطئ، وأن موقف الحكومة البريطانية هو موقف حيادي، وأنها لن تساعد أحداً على أحد، وأنه جاء كي يؤكّد ذلك، من خلال توقيع اتفاقية معهما على ذلك، وبالفعل تم توقيع اتفاقية غير رسمية، لأن الحكومة البريطانية لم تفوضه بذلك، وإنما كان هدفه المناورة، بعد أن طمأنهم على حياديته، وبيان أن مهمته التي جاء من أجلها هي التأكيد على ذلك، وعقد الاتفاقية^(١).

- آل خليفة يستعدون للحرب:

وبعد أن غادر بروس البحرين، وصلت الحملة العسكرية، التي يقودها سلطان عمان، فواجهها آل خليفة مع سكان البحرين بالاستعدادات اللازمة، والإجراءات الدفاعية الناجحة التي أثبتت صحتها مجريات الأمور بعد ذلك، وقد قاموا بتقسيم الجيش إلى قسمين:

١. قسم يقوده الشيخ سلمان بن أحمد بالرفاع، وقد أصرَّ - رغم تقدمه في السن - على أن يشارك في المعركة بنفسه، من فوق جمل يركبه، وقد وضعوا الفرسان تحت قيادة ولده الشيخ خليفة بن سلمان.

(١) الدليل على أن هذه الاتفاقية غير رسمية هو عدم العثور عليها في الوثائق الرسمية البريطانية، مما يدل على خبث ودهاء رجال الإنجليز للسيطرة على بلاد المسلمين العرب.

٢. القسم الثاني تحت قيادة الشيخ عبدالله بن أحمد بالمنامة، وزحفوا إلى جد علي، حيث اتخذوا مواقعهم في وسط النخيل.

كما قام آل خليفة بإغلاق خور القليعة بالسفن القديمة والحجارة؛ وذلك لمنع عزل المحرق عن المنامة، وقد تحقق حَدُسُ آل خليفة وتوقُّعهم، إذ إن القوات المعتدية وصلت إلى خور القليعة، ليحققوا نصراً سهلاً سريعاً، ففوجئوا بإغلاق الخور، فتوجهوا إلى جزيرة سترة، فنزلت قوات السلطان بالجزيرة، واحتلتها، ولم يشأ السلطان أن يتعد كثيراً عن الجزيرة، خشية أن تتعد سفنه، وتتسع جبهة القتال، وتتفرق جيوشه شَذَر مَذَر.

وقد انتظرت قوات البحرين - في خطة محكمة - مهاجمة الخصوم لها، حتى يكون لديها القدرة على حزم الأمور على ضوء ما تبرزه الأحداث.

- يومٌ أغرُّ ونصرٌ مبین:

استمرَّ الحال لثلاثة أيام، لم يظهر للسلطان أحدٌ من خصومه، حتى أصيب السلطان بالحيرة والقلق، فقام باستدعاء أرحمة الجلاهمة، ليشاوره بالأمر^(١)، وفي صباح اليوم الرابع ضاق أرحمة ذرعاً بهذا الموقف، وقام بالإبحار بسفنه للالتفاف حول المحرق من الشمال، لمهاجمة المنامة ونهبها، والسيطرة عليها عند انشغال آل خليفة بالقتال مع السلطان، كما كان يتصور، لكن الله تعالى قدَّر أمراً آخر، إذ إن الريح هبت من الشمال، مما أخره عن الوصول لوقت طويل، في الوقت الذي تقدم فيه السلطان نحو منطقة العكر، وفوجئ بقوات البحرين من بين النخل، وهم يرفعون راياتهم، فاشتبكت القوتان، في الوقت الذي قامت فيه قوة الفرسان لآل خليفة بمهاجمة السلطان من الخلف^(٢)، فأدرك السلطان أنه وقع في فخ، وأنَّ قواته يمكن أن تفنى بسبب ذلك.

وبالفعل هاجمت قوات الفرسان الخصوم، الذين بدؤوا يفرون إلى الأرض الطينية الرخوة حولهم، مما ساهم في هزيمة قوات السلطان، وفرار مَنْ بقي منهم إلى السفن،

(١) ذكر الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة في «البحرين عبر التاريخ»، (٢/ ١٢٠): أن السلطان قال لأرحمة: «فين عتباتك يا شيخ أرحمة؟ أغابوا؟» يعني ماتوا، فأخذت الحمية أرحمة ورد عليه قائلاً: يجهزون عشاك يا سيدنا.

(٢) هذا المكان الذي يوجد فيه جسر سترة الحالي بالمعابر.



مخلفين وراءهم عدداً كبيراً من القتلى من بينهم شقيقُ السلطان حمْدُ بن سلطان البوسعيد. كما قتل في المعركة من العتوب قاسم بن درباس من آل بن علي، والشيخ محمد بن إبراهيم آل خليفة، وأحد أبناء الشيخ عبدالله بن أحمد آل خليفة.

دفعت المفاجأة سلطانَ عمان إلى المناورة، حتى استطاع الانسحاب - مع من بقي معه من قواته - إلى السفن، ووصلت أنباء الهزيمة إلى أرحمة بن جابر الجلاهمة الذي كان في كفاحه للريح فلما بلغه الخبر، فرَّ إلى بو شهر.

وعند عودة السلطان إلى مسقط اتخذ قراراً بإعدام المسجونين لديه في قلعة جلاي؛ فوقفت أخته في وجهه، ومنعته من ذلك، مذكّرة إياه بأنهم أسرى، وأنه لا ينبغي قتلهم.

رأى السلطان أن يعدّ العدة لحملة جديدة على البحرين، خاصة بعد مقتل أخيه هناك، فقام بتجميع القوات، وسار بها إلى جزيرة قيس للهجوم على البحرين.

وصل خبر هذا الهجوم إلى الشيخ سلمان بن أحمد، فقام بإرسال وفدٍ من الشيخ حمد بن عبدالله بن أحمد آل خليفة، وعبد الجليل الطبطبائي، وبعض أعيان البلد إلى السلطان للتفاوض معه على ترك الحرب وإراقة الدماء.

فالتقاهم السلطان، وفاوضهم، وقد عرضوا عليه مبلغاً مرضياً من المال لدية أخيه، ومقابل إطلاق سراح الأسرى في قلعة جلاي، وانتهت المفاوضات بموافقة السلطان على الصلح، كما أنه تنازل عن ثلاثة أرباع المبلغ الذي اتفق عليه^(١).

وتدل هذه المواقف بين الطرفين على أنّ المسلمين العرب يميلون إلى السلامة، وحقن الدماء، والتسامح أكثر مما يميلون إلى الحرب، وإراقة الدماء.

كما أن موقف الشيخ سلمان بن أحمد يدل على مدى حُسْنِ طوية هذا الرجل، والذي أحاطت به كلُّ هذه الأحداث في زمانه، وهو شيخ فاني، إلا أن الله تعالى كان يخرج من كل أزمة بفضلٍ منه ومنه.

(١) الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة «البحرين عبر التاريخ»، (٢/ ١٢٣).

- السياسة البريطانية تجاه الخليج:

انتهجت بريطانيا سياسةً خبيثة، لها أبعادها ومراميها، من أجل السيطرة على الخليج العربي، تقوم على إذكاء الصراع بين القوى القائمة آنذاك، بحيث يُضعف بعضهم بعضاً، ويضرب بعضهم بعضاً، ويكونون بحاجة دائمة إليها، فيسهل عليها توجيه دفة الأمور، وإحكام سيطرتها على المنطقة.

وقد وضح ذلك جلياً من خلال سياستها في الشرق بصورة عامة، إذ أنها حثّت الخليفة العثماني على ضرب أكبر القوى الناشئة في الدولة العثمانية - وهي قوة محمد علي في مصر - بقوة آل سعود في الجزيرة، ليضرب بعضهم بعضاً، فتنهار بذلك جميع القوى التي يمكن أن تجدّد شباب الدولة الإسلامية، وتعيد القوة والسيطرة للمسلمين على العالم مرة أخرى، بعد أن أصبحت الدولة العثمانية - وهي المسؤولة عن الخلافة - ضعيفةً معلولةً، لا تحسن رؤية المستقبل.

وبدلاً من أن تستثمر الدولة هذه القوة العسكرية لمحمد علي لتجبر ضعفها، وقوة آل سعود الدينية لتصحّح بها المسار المنحرف للعقائد والعبادات المنتشرة في العالم الإسلامي، والتي تبنتها الخلافة نفسها، بدل ذلك عملت على التخلص منها بضربها من خلال القوة العسكرية المادية في مصر، للتخلص أيضاً من قوة محمد علي العسكرية الفتية.

فبدلاً من أن تستثمر القوتين لصالح الدولة، أخذت بمشورة أعدائها من الإنجليز والفرنسيين في ضرب هذه القوى بعضها ببعض، وأهدافهم الخبيثة كما هو معلوم القضاء على الخلافة الإسلامية، وإقصاء قوة المسلمين، والسيطرة على بلدانهم وخيراتهم، وتحويلهم إلى نصارى، يتبعونهم، كما ظهر ذلك جلياً في البعثات الإرسالية التنصيرية، التي جاءت إلى العالم الإسلامي والمنطقة العربية من أجل تحقيق هذا الهدف المنشود، ومازالت هذه الغزوات الفكرية قائمة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنَّ آتِبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].



- حملات محمد علي على الجزيرة العربية:

بناء على تكليف الخليفة العثماني لمحمد علي - الوالي على مصر - بإرسال حملات عسكرية للقضاء على قوة آل سعود في الجزيرة العربية، وجدها محمد علي فرصة لتحقيق أحلامه التوسعية في إنشاء دولة تابعة له، مترامية الأطراف، لذلك أرسل على وجه السرعة أولى الحملات بقيادة ولده أحمد طوسون (١٢٢٥هـ / ١٨١١م)، والذي تقدم، وهاجم آل سعود، وقام باحتلال ينبع، ثم تقدم نحو المدينة النبوية، والتقى القوات السعودية التي قادها عبدالله بن سعود.

استطاع عبد الله بن سعود الانتصار على القوات المصرية، فراجع طوسون، وأرسل في طلب المدد من أبيه، وبعد أن وصلت الإمدادات من مصر، أعاد الهجوم على المدينة النبوية، وضمها إليه، ثم ضمَّ جدة، وتقدم نحو الدرعية، مركز آل سعود، غير أنه في طريقه تعرض لهجوم سعودي في بلدة تربة، تكبدت فيه قواته خسائر فادحة.

دفعت هذه الهزيمة محمد علي باشا لقيادة الجيش بنفسه في سنة (١٢٢٧هـ / ١٨١٣م)، وتوجه نحو بلدة تربة، واستولى عليها، واتخذها معسكراً مركزياً له، غير أنه اضطر إلى العودة إلى مصر بعد عامين في (١٢٢٩هـ / ١٨١٥م)، وذلك بعد أن بلغه أن أحد زعماء المماليك يحاول الاستيلاء على الحكم في مصر، وترك قيادة الحملة لابنه طوسون.

وفي نفس العام اضطر طوسون أن يعود إلى مصر، بسبب سوء حالته الصحية، وقد توفي على أثر ذلك بالقاهرة.

جرت محاولات للصلح بين الطرفين، لم تكلل بالنجاح، وكانت قوات محمد علي آنذاك تسيطر على إقليم الحجاز فقط.

وفي سنة (١٢٣٠هـ / ١٨١٦م) أراد محمد علي باشا أن يحسم أمر الحملات على جزيرة العرب، فأرسل ولده إبراهيم باشا على رأس حملة، انضمت إليها قواته بالحجاز، واستطاع إبراهيم باشا من خلالها السيطرة على الرس وعنيزة وبريدة، وأصبح بذلك على أبواب



الدرعية مركز آل سعود، فحاصرها حصاراً شديداً، واستمات آل سعود في الدفاع عنها، حتى استسلمت بعد قتال عنيف، بعد أن تعهد إبراهيم باشا بالإبقاء عليها كمدينة دون التعرض لأسوارها أو قلاعها ومنشأتها بالهدم، لكنه بعد دخول إبراهيم باشا أرسل محمد علي أمراً له بهدمها، فتم ذلك، ولم يبق منها إلا الشيء القليل.

رجع إبراهيم باشا إلى مصر، بعد أن عين خورشيد باشا حاكماً على نجد من قبل محمد علي، فأسرعت القبائل العربية من البصرة إلى خورشيد باشا، وطالبته بالتقدم إلى العراق، والقضاء على قوة العثمانيين الضعيفة.

- بريطانيا تفرض نفسها في الخليج العربي وتستثمر الأوضاع والأزمات لصالحها:

بعد أن تمكن إبراهيم باشا من تدمير الدرعية، والقضاء على الدولة السعودية الأولى (١٢٣٤هـ / ١٨١٩م) خضعت له معظم الجزيرة العربية، غير أن بريطانيا كانت ترقب سير الأمور، وتحشى من توسع محمد علي في السيطرة على سواحل الخليج العربي، لذلك اجتمع مجلس الرئاسة التابع لها في مومباي، وقرر تسيير حملة عسكرية، على رأسها اللواء ولیم کرانت کیر، لمهاجمة رأس الخيمة بالاشتراك مع سلطان عمان.

هاجمت الحملة القواسم في رأس الخيمة، فقام القواسم بالتصدي لهم، والاستبسال في الدفاع عن أوطانهم، غير أن التفوق العسكري في السلاح - الذي استخدمته الحملة - ساهم مساهمة كبيرة في انتصار الحملة، ودخولها إلى رأس الخيمة خلال ستة أيام.

استسلم شيخ القواسم حسن بن أرحمة القاسمي حقناً لدماء أبنائه، وأبناء رأس الخيمة، لأنه وجد أنه لا فائدة من استمرار القتال.

انتهاز الإنجليز هذه الفرصة، وبدؤوا يتقدمون بمدافعهم الحديثة وقواتهم وأسطولهم المتطور، ليسيظروا، ويدمروا المدن في الخليج العربي، وكان للبحرين نصيب من هذا الهجوم، كباقي الموانئ في الخليج العربي.

قام الإنجليز بتدمير جميع السفن الراسية في الخليج، حتى لا يبقى للعرب قوة في الخليج



العربي، وترتب على ذلك أن أصبحت بريطانيا صاحبة القوة والقرار والسيطرة في الخليج العربي، بالتعاون مع سلطان عمان، الذي وجد في التعاون مع الإنجليز فرصةً للتأثر من خصومه القدامى من العرب.

وفي خطوات عاجلة سبقت بريطانيا محمد علي باشا في صياغة اتفاقيات ومعاهدات، للتوقيع عليها من قبل شيوخ الخليج جميعاً، لتضمن بها ولاءهم، والحق القانوني في السيطرة على الخليج العربي.

- نصوص وشروط المعاهدات^(١):

جاء في نص المعاهدة المكتوب باللغة العربية - بعد حمد الله والثناء عليه - أحد عشر شرطاً هي^(٢):

الشرط الأول: أن يُزال النهب والغارات في البر والبحر من طرف العرب المشروطين^(٣)، في كل الأزمان.

الشرط الثاني: إذا تعرّض أحد من قوم العرب المشروطين للمتددين في البر والبحر، من كافة الناس بالنهب والغارات، فهو عدو كافة الناس، فليس له الأمان على حاله ولا ماله.

الشرط الثالث: أن العرب المتصالحين لهم في البر والبحر علم أحمر، فيه حروف أو بلا حروف على مطلوبهم؛ وهو في كفة أبيض: عرض الأبيض الذي في الكفة يعادل عرض الأحمر، وأن هذا هو علم العرب المتصالحين، فيعملون به، ولا يستعملون غيره.

الشرط الرابع: أن الطوائف المتصالحين كلهم على حالة الأول، إلا أنهم صار الصلح

(١) استطاعت بريطانيا بهذه الاتفاقية أن تأخذ التوقيع من شيوخ الخليج بفرض حمايتها عليه - الخليج - والذي ترتب عليه وجود قوات بحرية بريطانية بالخليج العربي، وزيادة النفوذ العسكري البريطاني على حساب القوة العربية في الخليج.

قامت بريطانيا باستعراض قوتها العسكرية في الخليج، مستغلة ضعف الدولة العثمانية والخلافات بين مشيخات الخليج والصراعات الإقليمية، واستطاعت أن ترقب بنفسها موانئ الخليج العربي، بحجة نشر الأمن ومنع أعمال القرصنة.

كما قامت بتدمير قوة القواسم البحرية في رأس الخيمة، كما قامت بتهديد البحرين بنفس المصير الذي لحق بالقواسم؛ إن هم قاموا بمساعدة القواسم، ثم قام الإنجليز بالاعتداء على بعض السفن الراسية في موانئ البحرين وتدميرها مبررين ذلك بأنها سفن للقواسم.

(٢) ويلاحظ القارئ أن الشروط التي كتبت باللغة المتعارف عليها في ذلك العصر، وهي لغة لا تستخدم اليوم.

(٣) يقصد بالمشروطين، المقيمين في أوطانهم، والذين وافقوا على هذه الشروط.



بينهم وبين دولة سركار الإنكريز (الإنجليز)، وألا يحارب بعضهم بعضاً، والعلم هو الشاهد على ذلك فقط.

الشرط الخامس: أن مراكب العرب المتصالحين كلهم بأيديهم قرطاس مرشوم (مرسوم) بخط أميرهم، فيه اسم المركب وطوله وعرضه، وكم يحمل من كارة، وبأيديهم أيضاً مكتوب آخر، مرشوم بخط أميرهم، فيه اسم صاحب المركب، واسم الناختة وعدد الرجال وعدد السلاح، ومن أين ساروا، وفي أي وقت وإلى أي بندر يتوجه؛ فإن تعرّض لهم مركب من الإنكريز (الإنجليز) أو غيرهم، يعرضون عليه القرطاس والمكتوب.

الشرط السادس: أن العرب المصالحين إن كان مرادهم يرسلون رسولاً إلى سركار الإنكريز في بحر فارس، ومعه الذي يحتاج إليه، فيجلس مع السركار، حتى يقضي غرضهم منهم، وسركار الإنكريز (الإنجليز) إن كان مرادهم يرسل رسولاً أيضاً إلى عندهم، كذلك والرسول يلحق خطه إلى خط أميرهم في قرطاس مراكبهم المذكور، الذي فيه طول المركب وعرضه، وكم يحمل من كارة، وينبغي خط الرسول يحدد في كل سنة، وأيضاً كل من المرسولين خرجة على قومه.

الشرط السابع: إن كان طائفة أو بعضهم لا يزالون من النهب والغارات، فالعرب المصالحون يقومون عليهم، على قدر حالهم؛ ويصير بين العرب وبين الإنكريز (الإنجليز) كلام في ذلك، في وقت وقوع ذلك النهب والغارة.

الشرط الثامن: إن قتل الناس بعد تسليم السلاح، فهو من الغارات، ولا من الحرب المعروف، وإن كان طائفة يقتل الناس مسلمين أو غيره - بعد تسلّم السلاح - فهو قد أخلف الصلح، فإن العرب المصالحين مع الإنكريز يقومون عليهم، وإن شاء الله تعالى، فلا يزال عليهم الحرب إلا بعد تسليم من فعل بذلك وحكم به.

الشرط التاسع: إن نهب الرقيق: الرجال والنساء والأولاد في سواحل السودان، أو غيره، وحملهم في المراكب، فهو النهب والغارات؛ فالعرب المصالحون لا يفعلون من ذلك شيئاً.



الشرط العاشر: إن مراكب العرب المصالحين الحامل علمهم المذكور، يدخلون في كل بنادر دولة سركار الإنكريز (الإنجليز)، وفي بنادر رفيقهم على قدرهم، يشترون، ويبيعون فيها، وإن كان أحد تعرض لهم، فذلك على سركار الإنكريز (الإنجليز).

الشرط الحادي عشر: إن هذه الشروط المذكورة فهي على جميع الطوائف، والناس يتقبلونها في المستقبل كما قبلوها في الحين.

تمت الشروط: وإن تحرير القول في رأس الخيمة، بثلاث نسخ، في تاريخ ظهر يوم السبت اثنين وعشرين من شهر ربيع الأول في سنة (١٣٣٥ هـ)، ورشموه (كتبوه) المشروطون في الأماكن والتواريخ المكتوبة ذيلًا، فرشموه في رأس الخيمة في تاريخ تحرير القول. خط السردار بيده وخاتمه. كتبه حسن بن رحمه بيده. كتبه قضيب بن أحمد بيده^(١).

- عام الكوليرا:

وبعد هذه الاتفاقية بنحو سنة - وبالتحديد في صيف سنة (١٢٣٦ هـ / ١٨٢١ م) - شاء الله أن تُبْتلِي البلاد بوباء الكوليرا، والذي تفشى بشكل خطير، وأصاب عدداً كبيراً من السكان، وذهب ضحيته نحو أربعة آلاف نفس.

- بريطانيا ودور جديد:

قامت بريطانيا بعزل مقيمها السياسي بالخليج بروس، واستبداله بالملازم ماكالويد، والذي قام بزيارة للبحرين، ليؤكد عمق الصلات بين بريطانيا والبحرين، وقد قام بزيارة الشيخ سلمان بن أحمد بالرفاع، ولعل هذه هي آخر ممارسة رسمية للشيخ سلمان لتوجيه السياسة الخارجية، إذ إنه بعد ذلك هم إلى ترك الحكم وقيادة الدولة، بعد أن تقدم في السن كثيراً، وكأنه أراد أن يخلد إلى الراحة والطاعة فيما بقي له من العمر؛ ولذلك قام بتوكيل أخيه الشيخ عبد الله بن أحمد، وابنه الشيخ خليفة بن سلمان لتسيير أمور الدولة.

(١) الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة «البحرين عبر التاريخ»، (٢/ ١٢٤).



• وفاة الشيخ سلمان بن أحمد آل خليفة:

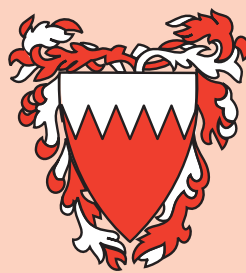
توفي الشيخ سلمان بن أحمد آل خليفة سنة (١٢٣٨هـ)، وصُلي عليه، ودفن في مقبرة الرفاع، وكان قد نُودي بالشيخ عبد الله بن أحمد آل خليفة حاكماً على البحرين، وذلك في سنة (١٢٣٦هـ)، أي قبل وفاة الشيخ سلمان بسنتين.

رحم الله الشيخ سلمانَ رحمةً واسعة، فلقد توفي بعد حياة حافلة، تجاوزت التسعين سنة، عاش خلالها أياماً صعبة، عُزل، وأسر خلالها، وواجه حروباً متعددة، ولكن الله تعالى أبى إلا أن يبقى هذا الرجل في الحكم، ليضع لبنة هامة في بناء الكيان السياسي للخليج العربي والعالم العربي هي البحرين، تحت حكم أسرة آل خليفة.

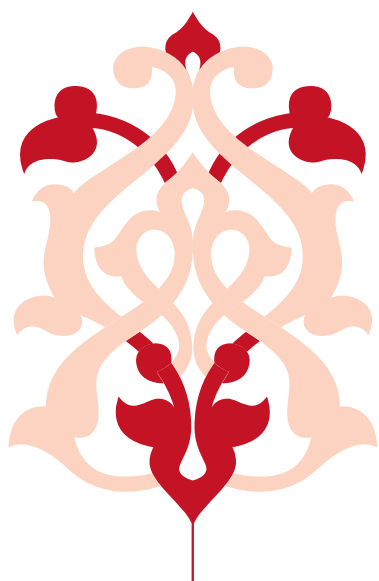
وما هو جدير بالذكر أن الشيخ خليفة بن سلمان قد تبوأ مكانته السياسية ومركزه الاجتماعي، وتقاسم مع عمه مسؤولية الحكم، لكنه توفي سنة (١٢٤٨هـ / ١٨٣٣م)، فخلفه ابنه الشيخ محمد بن خليفة، والذي لعب دوراً فارقاً في تاريخ الأسرة الخليفية، كما سيأتي.



الفصل الرابع



آل خليفة في البحرين



عاصفة الصراعات الدائمة

الشيخ عبد الله بن أحمد آل خليفة^(١)

(١٢٣٦هـ - ١٢٥٨هـ) / (١٨٢١م - ١٨٤٢م)

ولد الشيخ عبد الله بن أحمد آل خليفة بالكويت، وعمل معاوناً لأخيه الشيخ سلمان في الحكم، وقد لعب دوراً هاماً في تسيير دفعة الحكم في حياة أخيه الشيخ سلمان، ثم انتقلت إليه قيادة البلاد، بعد وفاة أخيه الشيخ سلمان.

كثرت الفتن والثورات والاضطرابات الداخلية وخروج الرعية على الحاكم، مما أعطى الفرصة للاستغلال الخارجي لفرض نفوذه على البحرين؛ مما أدى أن تمر البلاد بظروف قاسية، خاصة وأن الشيخ كان قد طعن في السن، ولم يعين ولياً لعهد، فأدى ذلك إلى الصراعات بين أبنائه، وبين أحفاد أخيه الشيخ سلمان.

• أهم الأحداث في عصره:

بعد تولي الشيخ عبد الله مقاليد الحكم في البلاد، صار يعاونه في تسيير أمور الدولة أول الأمر ابنا أخيه: الشيخ خليفة بن سلمان، والشيخ أحمد بن سلمان، وشيئاً فشيئاً أصبح لهما السيطرة على دفعة الحكم والنفوذ الواسع، وخاصة أن البحرين قد مرت بظروف صعبة، إذ أنها ابتليت بوباء الكوليرا الذي أشرنا إليه من قبل^(٢).

- موقعة الحويلة بين الوهم والحقيقة:

يذكر النبهاني: أنه وقعت مواجهات بين الشيخ عبد الله وبين أبنائه، حيث انشق أبنائه محمد، وأحمد، وعلي - علي أبيهم، وغادروا البحرين إلى أخوالهم في قطر من آل بن علي، ونزلوا إلى الحويلة، بسبب الخلاف على الأمور المالية، ورغبتهم في زيادة رواتبهم، فأبى عليهم ذلك، فخرجوا على والدهم.

(١) اعترى المنامة جاك صليب الراس جاك عبد الله بن أحمد ما فوق باسه باس.

بيت من الشعر الشعبي، يفخر بطولات الشيخ عبد الله بن أحمد، وكان يلقب بالشيخ الأشقر للون شعره الأشقر، ولا أظن ذلك، ولكن ظني لشجاعته وأصالته النادرة، كالطير الأصيل النادر الذي يسمى بالأشقر، وهو أشهر قائد بحري في تاريخ آل خليفة، فلقد استطاع أن يرد سلطان مسقط مرتين عن البحرين، وأن يهزم أرمحه بن جابر الجلاهمة وابن عفيصان؛ وثبت حكم آل خليفة في البحرين. الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة: «البحرين عبر التاريخ» (٢/ ١٤٥).

(٢) كان ذلك في سنة (١٢٣٦هـ)، وجاء من بعده وباء آخر سمي عامه: بالضرع الثاني، في سنة (١٢٨٨هـ). «التحفة النبهانية»، (ص: ١٠١-١٤٦).



أرسل الشيخ عبد الله إلى أبنائه المنشقين حفيد أخيه الشيخ محمد بن خليفة عن طريق البحر سنة (١٢٥٠هـ / لعامي ١٨٣٤م - ١٨٣٥م)، فتوجه إليهم، وواجههم في معركة عسكرية، وقع فيها قتال مرير، انتهى بانتصار الشيخ محمد بن خليفة، فانكسر أبناء الشيخ عبد الله، وأذعنوا لأمر أبيهم، وطلبوا منه العفو، فعفا عنهم، وسمح لهم بالعودة إلى البحرين، وسميت هذه الواقعة: بوقعة الحويلة^(١).

قلت: ولا أظن أن الأمر قد بلغ إلى هذا الحد من العداء والقتال، بل أظن أن الأمر تم باتفاق بين الطرفين، ليجمعوا الشمل تحت طاعة الشيخ عبد الله، وهذا ما أكدّه الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة بقوله: فلا صحة لما أورده النبّهاني عن وجود وقعة حدث فيها حربٌ شديدة....

ويرجح الرواية القائلة بأنه تمّ الصلح بين الطرفين، ودخول أبناء الشيخ عبد الله بعد ذلك في طاعته دون قتال.

استمرت الأحداث والصراعات في المنطقة، واتسعت، واستفحلت، وكثرت بسببها الفتن التي استغلها الخصوم في السيطرة على البحرين، ومد نفوذهم إليها وخاصة الإنجليز.

- الدور المصري:

استطاعت مصر السيطرة على نجد والأحساء، وقام خورشيد باشا - نائب محمد علي باشا في قيادة الحملة - بتعيين محمد أفندي رفعت والياً على نجد والأحساء، وأمره بزيارة حاكم البحرين الشيخ عبد الله بن أحمد، والتباحث معه لتوقيع اتفاق، يفضي إلى دخول البحرين ضمن السيطرة المصرية.

يذكر الزركلي^(٢): أن أوراق دار المحفوظات المصرية بعابدين بها تقرير من خورشيد باشا قائد العسكر المصرية في نجد (سر عسكر نجد) يقول فيه: إن المفاوضات تمت بين خورشيد باشا وبين عبد الله آل خليفة في سنة (١٢٥٥هـ / ١٨٣٩م).

(١) النبّهاني «التحفة النبّهانية».

(٢) الزركلي «الأعلام»، (٧٠ - ٦٩ / ٤).



ووقع الاتفاق على الشروط التالية:

١. أن يكون أمير البحرين عبد الله بن أحمد آل خليفة نائباً لمحمد علي باشا على البحرين، ويقدم المساعدة التي يطلبها منه محمد علي على قدر استطاعته.
 ٢. يدفع أمير البحرين سنوياً للحكومة المصرية زكاة البحرين؛ وقدرها ثلاثة آلاف ريال.
 ٣. يقدم أمير البحرين المراكب والسفن لحكومة محمد علي، في حالة تسيير جيوش مصرية، إلى أي جهة من مناطق الخليج العربي، ما عدا الكويت نظراً لما بين الأمير عبد الله وأمير الكويت جابر بن صباح من صلة القربى والمحبة؛ وفي هذا بيان بما كانت عليه أخلاق الطرفين من مراعاة حقّ القرابة وصلات الرحم.
 ٤. يستمر أمر جزيرة البحرين في يد الأمير عبد الله بن أحمد آل خليفة، وليس لأحد غيره أن يتسلط على رعاياه في البحرين وساحل قطر؛ وله أن يحتفظ بقوانينه السائدة في تلك الجهات.
 ٥. أن يقيم بالبحرين وكيل من لدن الحكومة المصرية، يشرف على المصالح المصرية هناك.
 ٦. ليس لأمر البحرين أن يأخذ عوائد من الغواصين، الذين يصطادون اللؤلؤ من القطيف، وله أن يأخذ من غواصي البحرين فقط.
- غير أن هذا الاتفاق لم يظهر له أثرٌ بسبب تسلط بريطانيا، وتوقيع معاهدة لندن بين الدولة العثمانية والإنجليز وروسيا والنمسا، والقاضية بإرجاع محمد علي إلى حدود مصر.

- الموقف البريطاني من الاتفاق المصري البحريني:

ادّعت بريطانيا أن هذه الاتفاقية فيها السيطرة المصرية على البحرين، وتقييد لحريتها واستقلالها، لذا احتجت بها بريطانيا لدى خورشيد باشا، لمنعه من السيطرة على البحرين، وكأن بريطانيا هي الحملُ الوديع، الذي لا يريد للبحرين إلا الاستقلال والحرية.

ثم قامت بريطانيا بطريقة خبيثة بالالتفاف حول الاتفاقية، بأن خولت قائد أسطولها



البحري مفاوضة الشيخ عبد الله بأن يجمّد العمل بهذه الاتفاقية، وأن يمزقها، فرفض الشيخ عبد الله ذلك الأمر من منطلق الوفاء بالعهد الذي حثّه عليه دينه الحنيف، كما أن بريطانيا لم تقدم له أي نوع من المساعدة، فقام هنيل - المقيم البريطاني في الخليج - بتهديد الشيخ عبد الله، فرد عليه قائلاً: «إن البحرين مملكتنا، ورثناها عن أجدادنا، وليس بيننا شروط بأن نكون رعية للسيركار (الحاكم العام)، وليس لكم أن تتعدوا علينا، فإذا كنتم تشرعون في الحرب قوة واقتداراً، فإننا سنبدل كل ما في وسعنا لحماية مملكتنا وأهلنا وعيالنا وديننا، وليحصل بعد ذلك ما يحصل»^(١).

فقام هنيل بتقديم احتجاج كتابي للشيخ عبد الله على هذه الاتفاقية، ثم قفل راجعاً، وتركه وذهب.

قام خورشيد باشا بإرسال محمد أفندي رفعت إلى البحرين، لمقابلة الشيخ عبد الله، والذي استعرض معه ما جرى بينه وبين هنيل المقيم البريطاني في الخليج، وأرسل محمد أفندي رفعت لقائده خورشيد باشا تقريراً حول هذا الأمر، مبيناً له أهمية البحرين، ومحاولة بريطانيا السيطرة عليها.

في الوقت الذي كانت تُعدُّ بريطانيا العدة باتفاقية لندن لتحجيم القوة المصرية العسكرية، ليس بجزيرة العرب فقط، بل في كل الأماكن التي تحت يدها خارج مصر، لذلك قام محمد علي باشا بإلغاء الاتفاقية المعقودة بينه وبين البحرين، خاصة بعد أن قام القنصل البريطاني في مصر بالتفاوض مع محمد علي من أجل إلغاء هذه الاتفاقية، فوافقه محمد علي، وأصدر قراراً لخورشيد باشا بعدم التدخل في شؤون البحرين، واعتبار الاتفاقية ملغاة، وترك الشيخ عبد الله بن أحمد يتدبر أمور نفسه.

- موقف الشيخ عبد الله من إلغاء الاتفاقية:

لم يدفع الشيخ عبد الله إلغاء الاتفاقية من التمسك بعدم الاستسلام للإنجليز، أو الدخول معهم في اتفاقيات تفرض عليه سيظرتهم، مما أدى إلى استغلال بريطانيا هذا الموقف لتثير الفتن ضده، وتعمل على دعم الأجنحة المعارضة له.

(١) الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة «البحرين عبر التاريخ»، (١٦٢/٢).

قام الشيخ عبد الله بمراسلة خورشيد باشا، ليتبين منه حقيقة الأمر، وأوفد خورشيد باشا إلى الشيخ عبد الله الشيخ شافي الهاجري: شيخ الهواجر لاستطلاع رأيه وموقفه من الإنجليز. فكان ردُّ الشيخ عبد الله: «مادمتُ على قيد الحياة فإني لا أستسلم للإنجليز، وإني منذ ثلاثين سنة، وهم يحتالون علي، وسأبذل جميع مالي وقوتي، إني في الثمانين، وقد بلغت آخر العمر، فلئن نموت جميعاً، أولى من أن نكون رعية للكفار، وأفضل شيء وأشرفه ألا نرى ذلك اليوم»^(١).

وهذا موقف يدلُّ على نقاء طوية الشيخ عبد الله بن أحمد آل خليفة وعقيدته، الذي ما كان يهمه إلا أن يكون في إطار دينه وعقيدته، سواءً كان في ظل الحكم المصري، أو مستقلاً عنه؛ وفي هذا بيان بأن هؤلاء القوم كانوا على خير عميم، وفهم عميق لجوهر الإسلام، رحمهم الله رحمةً واسعة.

- تجري الرياح بما لا تشتهي السفن:

فوجئ الشيخ عبد الله بما فوجئ به خورشيد باشا، بقرار محمد علي بإلغاء الاتفاقية بينه وبين البحرين، وعندئذ تراجعت قوة المصريين في المنطقة، وخاصة بعد أن قُتل محمد أفندي رفعت الوالي المصري على الأحساء، فأصبح الشيخ عبد الله يواجه الرياح العاتية القادمة عليه دون سند من البشر، فتوالت عليه الفتن والمصائب واحدة تلو الأخرى، وهو في هذه السن المتقدمة، غير أنه لم يتزعزع يقينه بالله، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

- بريطانيا من خلف ستار الأحداث:

حاولت بريطانيا أن تقضي على حكم الشيخ عبد الله بشكل عاجل، ولذلك عملت على أن تدفع بسلطان عمان سعيد إلى احتلال البحرين في سنة (١٢٥٦هـ / ١٨٣٩م)، غير أن سلطان عمان كان مشغولاً بتوطيد حكمه في شرقي أفريقيا وزنجبار^(٢)، لذا تحيَّن

(١) مجلة الوثيقة/ العدد ١١ / ذو القعدة (١٤٠٧هـ) / يوليو (١٩٨٧م)، (ص: ٤٠).

(٢) د. محمد أحمد عبد الله: «تاريخ البحرين الحديث»، (ص: ١٤٥).



الإنجليز الوقت المناسب ليقوموا بالانقضاء على الشيخ عبد الله بن أحمد وعزله، فما وجدوا بداً إلا بدعم خصومه من أبناء وأحفاد أخيه، مستغلين ما يجري من خلاف بين أبناء الأسرة الخليفية بسبب ازدواجية الحكم، حيث إن الشيخ محمد بن خليفة زعم أن الشيخ عبد الله وأبناءه يحاولون تقليص دوره في الحكم، بعد وفاة أبيه الشيخ خليفة بن سلمان.

ومن هنا بدأت الخلافات تدب داخل الأسرة الخليفية، بين الشيخ عبد الله بن أحمد، وبين حفيد أخيه محمد بن خليفة بن سلمان بن أحمد، الذي دعمته بريطانيا في خلافه مع الشيخ، بعد أن اتصل بالمقيم البريطاني في الخليج، وطلب منه المساعدة ضد الشيخ عبد الله، كما قام الشيخ محمد بالتحالف مع بعض القبائل القطرية، لمواجهة الشيخ عبد الله هناك، وأنشأ لذلك قلعته في خور حسان، في الساحل الغربي لقطر.

ومن هنا بدأت الفتنة، حيث ثارت بعض القبائل إلى جوار محمد بن خليفة، ولم تلتزم الأدب مع ولي أمرها الشيخ عبد الله، والتزام الحياد في الصراع الأسري القائم، مما أدى إلى تدهور الوضع بين الشيخ عبد الله وبين حفيد أخيه، ثم شاء الله تعالى أن تتدهور العلاقة بين الشيخ محمد بن خليفة، وبين تلك القبائل التي كانت تدعمه، وذلك بفرضه ضريبة على سكان البحرين، سواء كانوا عرباً أو أجانب.

أدى هذا الوضع المتدهور إلى تراجع الأوضاع الاقتصادية والأمنية في البلاد، مما أدى إلى مغادرة بعض أثرياء البحرين البلاد، وتبعهم بعض السكان، على حد ما زعم التقرير الذي رفعه القبطان بروكس إلى المقيم البريطاني في الخليج توماس مكنزي، يذكر فيه: أن القبائل لن تتردد في القضاء على كل من الشيخ عبد الله بن أحمد، والشيخ محمد بن خليفة، إذا لزم الأمر ذلك، وأضاف: إن عدداً كبيراً من أثرياء البحرين غادروها تاركين وراءهم أملاكهم، وإن عدد سكان البحرين في تراجع، بسبب أن الناس لا يشعرون بالأمان في البحرين^(١).

(١) الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة «البحرين عبر التاريخ» (٢/ ١٦٤).

قلت: وهذا ما تجرّه دائمة الثورات والخروج على الحاكم المباح المتمكن، وشهوة الحكم والوصول إليه والتحالف مع أعداء الإسلام الذين لا يريدون الخير للمسلمين ولا لبلادهم، وهذا الذي نراه مشاهداً اليوم في ما يسمى بالثورات الشعبية في العالم العربي والإسلامي، والتي فقد معها الناس الأمن والأمان، وتراجعت اقتصادات الدول، وانهارت قوة الكثير منها، وأريق دماء بريئة زكية من أجل شهوة الوصول إلى الحكم؛ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.



أضاف بروكس في تقريره بأن محمد بن خليفة زاره، وأثار معه موضوع النزاع مع الشيخ عبد الله بن أحمد، فطلب منه (بروكس) أن يراجع المقيم السياسي البريطاني، ويبيّن له أن الحكومة البريطانية تلتزم الحياد تجاه الصراعات الأسرية، وهذا الذي يقوله بروكس إنما هو ضوء أخضر للشيخ محمد بن خليفة في صراعه مع الشيخ عبد الله، وطمأنه بأنه لا يخاف أي نوع من التحالف بين بريطانيا وبين الشيخ عبد الله، وقد أضاف بروكس بأن الشيخ محمد بن خليفة أبدى ارتياحه لهذا الموقف، وتفهمه الكامل لما شرحه له.

- النار من مستصغر الشرر:

بدأت الأمور بين الشيخ عبد الله بن أحمد، وبين حفيد أخيه، محمد بن خليفة بن سلمان بن أحمد تنحو نحو العداء، وذلك عندما حاول الشيخ محمد بن خليفة منع زواج أحمد ابن الشيخ عبد الله من إحدى فتيات المحرق، هي ابنة الشيخ عبد الرحمن بن راشد، بحجة أن الشيخ محمد كان قد سبق أن اختار لها شاباً من عائلته هو الشيخ محمد بن مقرن آل خليفة، مما دفع الشيخ عبد الله الذي - كان موجوداً بقطر آنذاك - إلى أن يتوجه لإنهاء هذا الخلاف، ولم يستطع الشيخ عبد الله إنهاء هذه الأزمة، بسبب تعنت الشيخ محمد بن خليفة، الذي استغل هذه الفرصة للوثوب إلى سدة الحكم، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فحشد كل منهما أنصاره في مواجهة الآخر، ووقع بينهما اشتباكات، وقاتل إلى جوار الشيخ محمد أخوه الشيخ علي بن خليفة، الذي كان يقود جموعاً من أنصاره إلى جوار آل سلمان الخليفة وأتباعهم، باستثناء الشيخ محمد والشيخ حمود ابنا الشيخ سلمان، فإنهما وقفا الموقف الشرعي بعدم الخروج على ولي الأمر، والطاعة له؛ فكانا إلى جوار عمهما عبد الله بن أحمد.

- موقعة الحنينية: (١٢٥٨هـ - ١٨٤٢م)^(١):

توجه الشيخ علي على رأس هذه الجموع التي معه نحو الرفاع الشرقي، حتى نزلوا جميعاً عند ماء الحنينية، حيث التقى الجموع الأخرى من جيش الشيخ عبد الله، والتي كان يقودها الشيخ ناصر بن عبد الله بن أحمد، ووقع قتال عنيف بين الطرفين، وما أشدَّ

(١) النبھانی «التحفة النبھانیة»، (ص: ١٠٨).



الأسف على أمر كان يمكن التغاضي عنه؛ ولكن شهوة الوصول إلى الحكم أدت إلى قتل عدد كبير من الطرفين منهم الشيخ محمد بن أحمد بن سلمان، الذي كان يقاتل في قوات عمه الشيخ محمد.

وانتهت المعركة بانتصار الشيخ علي بالقوات التي معه، واستطاع الاستيلاء على الرفاع، التي وصل إليها أخوه الشيخ محمد ببقية الجيوش التي معه، ثم تقدم بعد ذلك بهذه الجموع نحو المنامة، وقام باحتلالها، وتولى الشيخ علي بعد ذلك بعام حكم المنامة في سنة (١٢٥٩هـ / ١٨٤٣م).

- آثار المعركة:

بعد هذه الانتصارات التي حققها محمد بن خليفة، انحازت قوات الشيخ عبد الله مع شيخهم إلى المحرق، التي لم يبقَ له سواها، وتقدمت قوات الشيخ محمد بن خليفة، وحاصرت المحرق، فقام الشيخ عبد الله بإعادة تنظيم قواته، فجهز جيشين من بني هاجر، وأولى قيادة الجيش الأول ابني أخيه محمد وحمود ابنا سلمان، لقتال ابن أخيها الشيخ محمد بن خليفة، وتولى الشيخ عبد الله بنفسه قيادة الجيش الثاني متوجهاً إلى موضع سوق الخميس^(١).

علم الشيخ محمد بن خليفة بهذه الخطة، التي وضعها الشيخ عبد الله، فأراد أن يشل حركة الجيشين، وأن يتقدم لمواجهة كلٍّ منهما على انفراد، فتوجه نحو الجيش الأول الذي يقوده عمّاه محمد وحمود قبل أن يصلا إلى هدفهما، حيث واجه الجيش في مكان، يقال له: الناصفة، واستطاع أن يحقق نصراً سريعاً على الجيش الذي فوجئ بهذا الهجوم.

ثم توجه إلى الجيش الثاني في موضع سوق الخميس، لمواجهة الشيخ عبد الله، لكنه واجه مقاومة شديدة، أدت إلى كسره وخسارته خسارة فادحة في الأرواح، وقُتل أخوه دعيج بن خليفة، كما قُتل حفيد الشيخ عبد الله الشيخ محمد بن مبارك، مما أدى إلى انسحاب الشيخ محمد بن خليفة من ميدان المعركة.

(١) الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة «البحرين عبر التاريخ»، (٢/ ١٦٧).



اجتمع الشيخ محمد بأخيه الشيخ علي، وطلب منه أن ينظم جيشاً بصورة سرية، و ينتظر أمره بالقتال، بينما انصرف هو نحو نجد، يطلب المدد، فعاد خاسراً، ولم يوفق، فتوجه نحو قطر، واستعان بآل ابن علي خصوم الشيخ عبد الله بن أحمد، الذين تركوا البحرين من قبل بسبب خلافهم معه، فوجدوها فرصة لشفاء صدورهم من الشيخ عبد الله، إلى جانب أنهم أخوال الشيخ علي بن خليفة، ولذلك لبوا طلب الشيخ محمد، وعلى رأسهم عيسى بن طريف شيخ آل بن علي، وقد انضم إليه آل بوكوارة وتوجهوا جميعاً إلى البحرين، حيث الشيخ علي الذي كان قد أعد الجيش الذي طلبه منه أخوه من قبيلة النعيم، بقيادة شيخها جبر بن ناصر، ومن الجلاهمة بقيادة بشر بن أرحمة بن جابر الجلاهمة، ومن آل بوكوارة بقيادة محمد بن سعيد الكواري، وتوجهوا جميعاً في ربيع الأول (١٢٥٩هـ) / أبريل (١٨٤٢م) نحو الشيخ عبد الله في المحرق، حيث دارت رحى معركة، سميت باسم المكان الذي نزل عنده، وهو ينبوع الماء العذب في البحر المسمى: بالساية.

- واقعة الساية: (١٢٥٩هـ - ١٨٤٢م):

في أول الأمر أمر الشيخ محمد من معه بإغراق سفنهم، لئلا تحدثهم أنفسهم بالفرار عليها من المعركة، متأثراً بالرواية التاريخية عن طارق بن زياد عند فتحه للأندلس^(١)، ودارت رحى معركة بين هذه الجموع المتحالفة، والتي غلبت المصلحة الذاتية، على المصلحة العامة للأمة، وانطلقت يؤجج صدرها ثارات وخلافات قديمة مع الشيخ عبد الله، وبين جيش الشيخ عبد الله الذي اضطرب لعدم تنظيمه وإعداداته المسبق لهذه المعركة، فانهزمت جموع الشيخ عبد الله، الذي توجه إلى قلعة بو ماهر في جنوب المحرق، واعتصم بعض أبنائه في قلعة عراد.

تقدم الشيخ محمد بن خليفة نحو المحرق، وقام باحتلالها، بينما أخذ أتباع الشيخ عبد الله يغادرونها إلى خارج البحرين، مما اضطرت الشيخ عبد الله في النهاية - بعد هذه المعركة التي قُتل وجرح فيها عددٌ كثير - أن يرحل بمن معه إلى الساحل الشرقي للخليج العربي، في مكان يقال له: (نخل هاشل من بلدة نابند)، بينما سار بعض أولاد الشيخ عبد الله

(١) وهي قصة لا تصح عن طارق بن زياد.



إلى الدمام، فاستوطنوها، ثم توجه الشيخ عبد الله بعدها إلى الكويت مستعيناً بالله، ثم بشيخها جابر آل صباح في قتاله مع الشيخ محمد.

- محاولات الصلح:

حاول الشيخ جابر آل صباح - الذي أحسن استقبال الشيخ عبد الله - الإصلاح بين الشيخين، وتوجّه بنفسه إلى البحرين بثماني سفن، والتقى الشيخ محمدًا، والذي وافق على حضور الشيخ عبد الله إلى البحرين للقاءه، لكنه يبدو أن الشيخ الكبير صاحب هذا التاريخ العريق ولي أمر البحرين اعتبرها مهانةً أن يلتقي بخصمه حفيد أخيه الشيخ محمد، وكأنه لا شيء له في البحرين، لذا لم يلقِ الشيخ عبد الله هذه الدعوة أهميةً، ولم يحضر للقاء الشيخ محمد^(١).

توجه الشيخ عبد الله إلى قطر وسواحل الخليج والقطيف (١٢٦٠هـ / ١٨٤٥م) ليجمع حوله أنصاراً، يعينونه على غزو البحرين من هناك، لكنه فشل، وعاد إلى الكويت، ومنها إلى الأحساء، ثم توجه إلى مسقط في سنة (١٢٦٣هـ / ١٨٤٨م) يستعين بالله، ثم بسلطان عمان لاستعادة حكمه، لكنه بعد وصوله بأيام معدودات لقي ربه في ربيع الآخر (١٢٦٥هـ) / فبراير (١٨٤٩م).

توفي رحمه الله بعد حياة حافلة، ثبتت فيها أركان الحكم لآل خليفة في البحرين، إلى جوار أخيه الشيخ سلمان بن أحمد، وعاش خلالها أحداثاً عظاماً مفرحة ومرحة، وخاض خلالها معارك طاحنة، ليأتي من بعده ذلك الخارج عليه حفيد أخيه، والذي لم يعاصر تلك الأحداث العظام، ولم يوقر للشيخ مقاماً ولا لأعمامه، بل قاتلهم ونازلهم، وقتل بعضهم في المعارك، واضطر الشيخ أن يخرج من بلده وحكمه، يبحث عن مأوى، حتى مات غريباً عن أهله ووطنه، وقد شارف التسعين سنة هجرية، ليموت وحده، وهكذا سنموت جميعاً؛ فياليت كل من يصارع على الحكم ويشتهي يعلم أن مآله إلى التراب، وسبحان من يرث الأرض ومن عليها. ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

(١) لوريمر «دليل الخليج»، (٣/ ١٣١٨) من القسم التاريخي - الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة «البحرين عبر التاريخ»، (٢/ ١٦٩).

الشيخ محمد بن خليفة بن سلمان بن أحمد آل خليفة

(١٢٥٨هـ - ١٢٨٥هـ) / (١٨٤٢م - ١٨٦٨م)

رابع حكام البحرين للأسرة الخليفة، ولد بالبحرين سنة (١٢٢٨هـ / ١٨١٣م)، وتوفي بمكة سنة (١٣٠٧هـ / ١٨٩٠م).

تولى حكم البحرين، وكان عمره نحو ثلاثين سنة، وذلك في سنة (١٢٥٨هـ / ١٨٤٢م)، وبقي في الحكم إلى سنة (١٢٨٥هـ / ١٨٦٨م)، وتوفي وله من العمر تسع وسبعون سنة ميلادية.

• أهم الأحداث في عصره:

أصبح الشيخ محمد حاكماً مشتركاً مع أخيه علي، بعد أن خرج على الشيخ عبد الله بن أحمد عم أبيه، وأقصاه عن الحكم كما أسلفنا.

- صراع المصالح:

بدأ الشيخ محمد بن خليفة حياته العملية قائداً عسكرياً إلى جوار والده، ولما تغلب على الحكم، بدأ في إرساء وتوطيد دعائم ملكه في كل من قطر والبحرين، وخضعت له أغلب العشائر، لأنه أصبح الحاكم المتغلب، ووجب عليهم السمع والطاعة له.

في الوقت الذي كان فيه الإنجليز يُعدّون العدة للعبة جديدة، يمتد بها نفوذهم للسيطرة أكثر على قطر والبحرين، فلقد قاموا باستغلال نقل عيسى بن طريف آل بن علي مقر إقامته إلى الدوحة، وإسناد الشيخ محمد بن خليفة له الحكم في الدوحة، فإذا ببريطانيا ترحب بهذا القرار لأنه الذي سيساعدها على انتزاع الدوحة من شيخ قبيلة السودان -السويدي-، فاستغل عيسى بن طريف آل بن علي الموقف، وأراد أن يستثمره لصالحه، فدعى العشائر لنصرته ومعاونته، فاستجابوا له، سوى قبيلة آل نعيم، التي ظلت على ولائها للشيخ محمد بن خليفة، وأرسل إلى أبناء الشيخ عبد الله بن أحمد في الدمام



يستحثهم على القدوم إليه والوقوف إلى جواره، فوافقه الشيخ مبارك بن عبد الله بن أحمد آل خليفة، وقدم إليه في جيشٍ من بني هاجر، ليعينه في حربه القادمة ضد محمد بن خليفة.

أصبح الشيخ محمد بن خليفة في هذا الوقت بين فكي صراع، بين الشيخ عبد الله بن أحمد المطالب بحكمه ويحاول الاستعانة بالقوة التي حوله من جهة، وبين عيسى بن طريف زعيم آل بن علي من جهة أخرى؛ ولذلك سعى الشيخ محمد إلى أن يوقف أي دعم من جهة الأمير فيصل بن تركي للشيخ عبد الله بن أحمد، وبذل من أجل ذلك زكاةً مقدارها أربعة وثمانون ألف روبية للأمير فيصل بن تركي، ليوقف دعم الشيخ فيصل للأمير البحرين السابق، ويشل حركته وقدرته على الحرب من جهة، ومن جهة أخرى ليضمن لنفسه عدم التدخل السعودي في صراعه مع الشيخ عبد الله، وحتى يتفرغ هو لوضع خطة عسكرية، يستطيع بها أن يقضي على شيخ آل بن علي عيسى بن طريف، خاصة بعد أن أرسل إليه الشيخ عيسى إخطاراً، أغلظ له فيه القول، ومن ذلك: يلزم عليكم أن تردوا أملاك وأموال الشيخ مبارك بن عبد الله المغصوبة منه في ستره، وإلا شققت شقاً لا يرفأ^(١).

في نفس الوقت حاول الشيخ محمد بن خليفة أن يكسب قوى الصراع إلى جواره، وعلى رأسهم الإنجليز، فقام في الثاني والعشرين من جمادى الأولى (١٢٦٤هـ) / الثامن من مايو (١٨٤٧م) بتوقيع اتفاقية مع الإنجليز، يتعهد فيها الالتزام بمكافحة تجارة الرقيق، لكسب وُدّ الإنجليز، وإقراهم به حاكماً على البحرين.

- واقعة أم سويه، أو كسرة «خراب الدوحة الأول»^(٢):

قام الشيخ محمد بترتيب أوضاعه وإعداد جيشه، ووضع على رأس قوته العسكرية أخاه الشيخ علي، ووجهه نحو قطر، في الوقت الذي توجه هو بقوة عسكرية، لنصرة قبيلة آل نعيم، والتي امتنعت عن الانضمام مع العشائر إلى عيسى بن طريف، الذي هدها بالحرب والانتقام منها.

(١) النبهاني «التحفة النبهانية»، (ص: ١١٣).

(٢) النبهاني «التحفة النبهانية»، (ص: ١١٢) - الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة «البحرين عبر التاريخ»، (٢/ ١٨٩).



لذلك استعدت قبيلة آل نعيم لمواجهة عيسى بن طريف، واستنجدت بالشيخ محمد بن خليفة، الذي أتى مع عسكره؛ فتحرك عيسى بن طريف نحو الشيخ محمد بن خليفة وقبيلة آل نعيم، ليقطع على الشيخ محمد الوصول إلى أخيه الشيخ علي، الذي نزل بالجهة الشرقية من قطر، في موضع يقال له: المرونة، ولذلك توجه مباشرة عيسى بن طريف مع أنصاره من العشائر من قبيلة المناصير إلى جانب الشيخ مبارك بن عبد الله بن أحمد آل خليفة، الذي كان يقود بني هاجر، نحو ملاقاته الشيخ محمد بن خليفة.

ومع الأسف والألم وقعت بين الطرفين معركة في يوم (عرفات) التاسع من ذي الحجة (١٢٦٤هـ)، الموافق للسابع من نوفمبر (١٨٤٨م)، بالقرب من موضع ماء يقال له: أم سويه، قريب من فويرط شرق قطر، ودارت رحى معركة شديدة، نال فيها كل فريق من الآخر، غير أنها انتهت بهزيمة جيش عيسى بن طريف ومقتله، وذلك قبل أن يصل الشيخ علي إلى أخيه محمد، الذي أرسل إليه يخبره بالنصر. فقدم إليه، وهناه، وعاد إلى البحرين، وقد خضعت قطر لهما، وانتصر على خصومه^(١).

وبرغم النصر الذي حققه الشيخ محمد، إلا أنَّ البحرين شهدت تراجعاً، بسبب الإهمال الإداري، ونتيجة وثمره الصراع الطويل بين شيوخ أسرة آل خليفة، والذي كان سببه الشيخ محمد بن خليفة، وأخوه الشيخ علي بن خليفة؛ اللذان ظنا أن الأمور ستروق لهما، وكيف ذلك وقد خرجا على ولي أمرهما؟! فالجزء من جنس العمل، لأن الإنسان ينسى في صراعه مع الآخرين أن الله مطلع، ويمهل، ولا يهمل، كما قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبَالْمُرْصَادُ﴾ [الفجر: ١٤].

وفي سنة (١٢٦١هـ / ١٨٤٥م) قدم الدواسر من نجد إلى البحرين، لأول مرة، وسكنوا الساحل بالزلاق والبديع، ومنهم من سكن جزيرة حوار، وقد وصفها بريدو (١٩٠٩م) وقال: إن بها نحو (٤٠) بيتاً، وبها مسجد وبعض المقابر، وقد نقل لوريمر ذلك في دليل الخليج.

(١) «التحفة النبهانية»، (ص: ١١٢). سميت بخراب الدوحة الأول لأن عيسى بن طريف كان يسكن الدوحة، وبمقتله كأنها خربت، وأما خراب الدوحة الثاني، فيأتي في موضعه، إن شاء الله.



- طامة وبلاء:

وفي خضم هذه الصراعات للقوى المختلفة، وفي سنة (١٢٦٤هـ / ١٨٤٨م) أظهر الشيخ محمدٌ للسلطات البريطانية نيَّتهُ في القبول بالحماية البريطانية على البحرين، بل اقترح ذلك بنفسه، فبدأت المشاورات بين الجانبين وبين المقيم البريطاني وحكومته في لندن؛ والتي كانت ترقب عن كثب مجريات الأحداث في البحرين، مما حدا بها إلى أن ترفض مقترح الشيخ محمد في سبتمبر (١٨٤٩م)، فقط أكدت له على صداقتها وحسن نيتها معه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨].

ونتيجة للتدهور الإداري - الذي أشرنا إليه آنفاً - فإنه في سنة (١٢٦٦هـ / ١٨٤٩م) ترك بعضُ التجار الكبار البحرين، وهم يوسف بن إبراهيم الطيور، والشيخ محمد بن سعيد رئيس قبيلة بوكوارة، والشيخ جاسم بن محمد، بسبب أسلوب إدارة ومعاملة الشيخ محمد بن خليفة، واستخدامه عدة إجراءات تعسفية ضدهم، مما حدا بهم إلى أن يتوجهوا نحو جزيرة قيس، والتي التقوا فيها العتوب الذين لهم ثارات وخصومات مع الشيخ محمد.

على الفور قام الشيخ محمد بإرسال أخيه الشيخ علي للتفاوض مع المقيم البريطاني، في الخليج، خشية اتصال هؤلاء بالمقيم البريطاني، وفي نفس الوقت لضمان وقوف بريطانيا إلى جواره في أي صراع قادم.

التقى الشيخ علي المقيم البريطاني، والذي نصحه أن يكون الشيخ محمد ليناً متفاهماً مع التجار والخصوم، وأن يحاول التفاوض معهم لإنهاء هذه الأزمة.

وبالفعل نفذ الشيخ محمد هذه الوصية، وتفاهم مع هؤلاء، حتى تمت المصالحة، وعادوا من حيث خرجوا^(١).

(١) الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة «البحرين عبر التاريخ»، (٢/ ١٩٠-١٩١).

- دور الشيخ مبارك بن عبد الله بن أحمد آل خليفة:

كان لوفاة الشيخ عبد الله بن أحمد في مسقط أثرٌ كبير على نفسية أبنائه، كما كان لهزيمة ولده مبارك في معركة: أم سويه أثرٌ آخر، وكلاهما كان دافعاً إلى أن يتحرك الشيخ مبارك مع إخوته الخمسة، الذين كانوا بالدمام آنذاك نحو أمير نجد فيصل بن تركي طلباً لمساعدته لهم، فأحسن وفادتهم، وأمدّهم بجيش، قاده مبارك بنفسه، واتجه به نحو قطر، واجتمع إليه جموع أخرى من العشائر العربية، ونزل بمسيمر، لينطلق إلى البحرين، لمواجهة الشيخ محمد بن خليفة.

- وقعة التنورة (١٢٦٧هـ / ١٨٥٠م):

علم الشيخ محمد بهذه التحركات، فقام بتجهيز جيشين، أحدهما: بري، بقيادة أخيه الشيخ علي، ووجهه إلى قطر، لمواجهة أبناء الشيخ عبد الله بن أحمد «آل عبد الله»، لياغتهم قبل أن يباغتوه.

والجيش الثاني: جيش بحري، بقيادة الشيخ عبد الرحمن بن عبد اللطيف بن عبد الله بن خليفة، والذي التقى الجيش البحري لأبناء الشيخ عبد الله برأس تنورة، ودارت رحى معركة شديدة، هزمت فيها قوات آل عبد الله، وقُتل فيها الشيخ مبارك وأخوه الشيخ راشد ابنا الشيخ عبد الله، كما قُتل أيضاً بشر بن أرحمة الجلاهمة، ومريط من بني هاجر. واستقرت بذلك قطر للشيخ محمد لفترة ثانية من الزمن.

- تنازلات جديدة:

يذكر لوريمر في «دليل الخليج» أنه قد حدث في سنة (١٢٦٧هـ / ١٨٥٠م) أن العلاقات بين الشيخ محمد وبريطانيا تأزمت، ووصلت إلى التوتر الشديد^(١)، وذلك بسبب أن الشيخ محمد تكلم بكلام أمام حاجي جاسم الوكيل المحلي للإنجليز بالبحرين الفارسي الأصل، والذي كان يلعب دوراً خطيراً، كعادة العجم في إثارة الخلاف بين المقيم

(١) لوريمر «دليل الخليج»، (٣/ ١٣٣٥).



البريطاني والشيخ محمد بن خليفة، والحقيقة أن الشيخ محمد أظهر نوعاً من الغضب والتمرد والنقد الشديد لتصرفات المقيم البريطاني.

– الرد البريطاني:

قام حاجي جاسم بكتابة رسالة للمقيم البريطاني، ضمَّنها الكلمات التي انتقد فيها الشيخ محمد سياسة بريطانيا، ووصف له الحالة التي كان عليها الشيخ من الغضب، غير أنه صاغها بأسلوب ينبي عن خبث طويته.

فلما قرأها المقيم هنيل قام، بإرسال رسالة أخرى إلى الشيخ محمد بن خليفة بتاريخ (٢٠) سبتمبر (١٨٥٠م / ١٢٦٧هـ)، مبيناً له: أنك اهتمتنا بالإهمال، واستخدمت كلمات مهينة للحكومة البريطانية، وبأن لديك من القوة ما تستطيع به أن تهزم الأسطول البريطاني بمجرد سفينة واحدة من سفنك...، ثم أضاف: إني أعرض عليك أن تنفي ما نسب إليك، أو تعتذر للحكومة البريطانية، وأطلب من الحاكم العام أن يسمح لي أن أطلب من حاكم البحرين اعتذاراً رسمياً، وإن رفض ذلك أفرض عليه حصاراً بحرياً، وإن لزم الأمر، أدمر سفن البحرين البحرية.

لقد كان ردُّ هنيل المقيم البريطاني في الخليج مؤلماً وعنيفاً، ومبطناً بتهديد شديد، وذلك جزاء ما قدم الشيخ محمد بن خليفة، ويظهر ذلك جلياً واضحاً في موقف الشيخ محمد من هذه الرسالة، إذ إنه قام بالردِّ عليها، وكتب إلى المقيم يقول: «لقد سمعت من صديقنا محمد بن سعيد بأنك زعلت من الكلمات التي استخدمتها، كما نقلها لك بعض الأشخاص، وقد يكون لك بعض الأساس من الصحة، لكنني لم أتصور أن الموضوع يكبر لهذه الدرجة من الخطورة، نظراً لأنني شعرت بأني مظلوم تجاه تصرفاتك، واستخدمت لهجة خشنة، دون أن أقصد أية إساءة، فأعتذر لك وأرجو أن يشرح لك أخي الموقف، ويزيل سوء التفاهم بيننا، لأنه يمثلني تماماً، ويُعدُّ كلُّ ما يقوله كأنه صدر عني شخصياً، وإن شاء الله هذا يكفيني»^(١).

(١) الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة «البحرين عبر التاريخ»، (٢/ ١٩٣).

وكانت السلطات البريطانية قد بعثت بسفينة بحرية إلى البحرين، فأرسل الشيخ محمد أخاه الشيخ علي إلى بوشهر، لملاقاة المقيم البريطاني بهذه الرسالة ويعتذر له، فلما وصل إلى هناك، استقبله هنيئاً، وقبل الصلح، وهدأت الأمور بينهما، وأظهر هنيئاً المودة واللفظ مع الشيخ علي، وأرسل إلى الشيخ محمد بن خليفة بالشكر على رسالته الكريمة، وأنه أصبح مسروراً بقاء أخيه الشيخ علي، وبأنه يقبل اعتذار الشيخ محمد بن خليفة للكلمات التي صدرت ضده، وأما بالنسبة لبريطانيا، فالأفضل أن يعتذر الشيخ محمد شخصياً لقائد القوات البحرية البريطانية عند زيارته البحرين على متن سفينته^(١).

تطرق الشيخ علي أثناء زيارته للمقيم في بوشهر إلى قضية أبناء الشيخ عبد الله بن أحمد، وتواجههم في كوناك، وعزمهم على شن هجوم على البحرين، فأجابه هنيئاً: إنه سوف يوجه إنذاراً لهم.

وكانت الدوحة في قطر قد انتزعها الأمير فيصل بن تركي، فتدخل بالوساطة بين فيصل بن تركي، وبين آل خليفة الشيخ طحون شيخ أبو ظبي، وبالفعل عادت قطر إلى آل خليفة، وتسلمها الشيخ علي بن خليفة بصورة رسمية، وكان ذلك في نهاية سنة (١٢٦٨هـ / ١٨٥١م).

ثم إن الشيخ محمد طلب من الأمير فيصل بن تركي إخراج أبناء الشيخ عبد الله، فرفض الأمير فيصل بن تركي ذلك، وبقي أبناء الشيخ عبد الله بن أحمد في حمايته بالدمام، ويبقى هذا في سجل الشرف للأمير فيصل بن تركي.

دفع هذا الموقف الشيخ محمد إلى الامتناع عن أداء الزكاة التي كان يرسلها للأمير فيصل، مما أزم الأمور بين الطرفين، ولم تنتهِ الأزمة إلا بتدخل المقيم البريطاني في الخليج، والشيخ علي بن خليفة الذي استطاع أن ينهي هذه الأزمة بدفع الزكاة^(٢).

(١) كأنها مراوغة ومناورة جيدة من المقيم البريطاني هنيئاً، يكسب بها ود الشيخ علي على حساب أخيه الشيخ محمد، وهي سياسة اليهود: فرَّق تسد، والتي تحققت للإنجليز بعد ذلك، إذ انتهى الأمر بالفراق بين الاثنين إلى يوم القيامة كما سيأتي.

(٢) وقد علق الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة في كتابه: «البحرين عبر التاريخ» بقوله عن الشيخ علي أنه كان دائماً أكثر ضبطاً للنفس من أخيه الشيخ محمد. (١٩٤/٢).



- واقعة الدولاب^(١):

لم يندمل جرح آل عبد الله وهم الذين كانوا يتحينون الفرصة، لينقضوا على الشيخ محمد لاستعادة ملك أبيهم، وفي سنة (١٢٧٠هـ / ١٨٥٣م - ١٨٥٤م)، قام آل عبد الله بالهجوم على البحرين في موسم الغوص، ونزلوا في منطقة سنابس بالبحرين، بمكان يقال له: دولاب منى، فبادرهم الشيخ علي - الذي كان يتوقع ذلك الهجوم، وكان إلى جواره أخوه الشيخ راشد الخليفة - بجيش من الفرسان، وانتصروا عليهم بعد معركة سريعة، قتل فيها عشرة من جيش آل عبد الله، وفرّ الباقيون من حيث أتوا.

- حصار الدمام أو شد الدمام^(٢):

على أثر ذلك فكّر الشيخ علي أن يحاصر آل عبد الله في الدمام حصاراً اقتصادياً، فتقدم بجيشه عن طريق البحر، وضرب حصاراً عليهم، لمدة أحد عشر شهراً، يمنع وصول السفن التجارية إليهم، حتى أضربهم، وأضر بمصالحهم، وتمكن من الاستيلاء على إبل لهم، تقدر بأربعين ناقة عمانية، حملها بالسفن، وقفل راجعاً إلى البحرين، وذلك في سنة (١٢٧١هـ / ١٨٥٤م - ١٨٥٥م).

- اتفاقية منع تجارة الرقيق:

في الخامس عشر من رمضان سنة (١٢٧٢هـ) الموافق للعاشر من مايو (١٨٥٦م) قام القبطان جونس القائم البريطاني في الخليج بعقد اتفاقية بينه وبين الشيخ محمد بن خليفة، في منع تجارة الرقيق، مؤكدة للاتفاقية السابقة، التي وقعها الشيخ محمد مع بريطانيا في سنة (١٢٦٣هـ / ١٨٤٧م).

ومن أهم ما جاء في الاتفاقية: أن الشيخ محمد يقوم بعدم السماح للسفن التي تنقل الرقيق أن ترسو بالبحرين، وإذا حدث أن السفن رست بها، يقومون بحجزها مع قائدها، ويمنعها من التحرك، حتى يصل إليه أمر المقيم البريطاني^(٣).

(١) المقصود بالدولاب: الناعور، أو الساقية التي يسقى منها الماء للزراع والنخل.

(٢) يطلق لفظة الشد على الحصار البحري فقط. «التحفة النبهاية»، (ص: ١٢١).

(٣) الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة «البحرين عبر التاريخ»، (٢/ ١٩٦).

- تطور الأحداث وسياسة الإدارة والمصلحة:

في سنة (١٢٧٥هـ / ١٨٥٨ - ١٨٥٩م)، قام الشيخ محمد بن خليفة بفرض حظر على جميع السفن التي تبحر إلى القطيف، حتى تقوم بدفع الرسوم الجمركية والضرائب المقررة عليها من جهته، ويشمل هذا الحظر بعض السفن التي ترفع علم بريطانيا، فلما بلغ ذلك المقيم البريطاني فيلكس جونز، قام بإرسال تحذير للشيخ محمد بن خليفة، وطلب منه رفع الحظر، وتأزمت الأمور بين الشيخ وبين فيلكس، فتدخل الشيخ علي بن خليفة كعادته، وقام بإنهاء الأزمة، والتي أثرت في نفس الشيخ محمد بن خليفة تأثيراً بالغاً^(١).

- نحو الخلافة العثمانية^(٢):

كانت هذه الأزمة بين الشيخ محمد بن خليفة وفيلكس دافعاً للشيخ للتوجه نحو دولة الخلافة العثمانية، والتي رحبت بذلك، إذ أنها المسؤولة شرعاً عن المسلمين: ولاياتهم، وبلدانهم في العالم، فقامت بإرسال وفد برئاسة السيد محمد الديار بكري، الذي أبدى للشيخ حرص الدولة العثمانية على جميع أوطان المسلمين، وطلب منه رفع علم الخلافة العثمانية على جميع أنحاء أرضه، فقبل الشيخ على الفور بذلك، وقام برفع الراية العثمانية في دولته^(٣)، وكان ذلك في عهد الوالي العثماني خورشيد باشا على بغداد.

- نحو الدولة الزندية في فارس:

بعد عام من اتفاق البحرين مع الدولة العثمانية، قام الشيخ باتباع سياسة أكثر استفزازية لبريطانيا في الخليج العربي، حيث قام باتفاق مع الدولة الزندية بفارس، وقام برفع علمها على قلعته.

(١) الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة «البحرين عبر التاريخ»، (١٩٦/٢).

(٢) قلت: سبحان الله، على الرغم من ضعف الخلافة، كان من الممكن أن تسير الأمور أفضل مما وصلت إليه، إن قام الشيخ محمد بالاتصال بالدولة العثمانية قبل ذلك، وكان أولى به بدلاً من اللجوء لأعداء الإسلام لحل نزاعاتهم، ولكن مع الأسف هي سياسة المصلحة الغالبة في كثير من الأحيان، والدليل على ذلك أنه بعد عام من رفع الراية العثمانية على البحرين قام الشيخ محمد بالاتصال بالدولة الزندية في فارس، وقام برفع رايته على البحرين إلى جوار راية دولة الخلافة، والعجيب أن يلجأ إلى الدولة الزندية التي تخالفه في المعتقد والتوجه، وهذه هي سياسة المصلحة.

(٣) الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة «البحرين عبر التاريخ»، (١٩٦/٢).



- موقف بريطانيا:

اعتبرت بريطانيا تصرفات الشيخ محمد بن خليفة رفعاً لحالة التوتر بينها وبينه، وأن سماحه برفع علم الدولة العثمانية، والدولة الزندية، مخالفة صريحة لبنود المعاهدة التي عقدتها بريطانيا مع البحرين في سنة (١٢٣٥هـ / ١٨٢٠م).

ولا شك أن بريطانيا عدت أن هذا الموقف من الشيخ دافعاً لشيوخ الخليج العربي بنقض الاتفاقات معها، وبسط النفوذ العثماني على هذه المناطق التي كانت بريطانيا تعتبرها تابعة لها، ولهذا حركت بريطانيا أسطولاً في الخليج، بقيادة الكابتن فيلكس جونز، وحاصر البحرين، واستطاع الاستيلاء على سفن حربية تابعة للشيخ محمد بن خليفة، كما شددت الحصار على البحرين، مما اضطر الشيخ محمد بن خليفة إلى أن يوقع على اتفاقية مع بريطانيا في سنة (١٢٧٧هـ / ١٨٦١م)، والتي أكدت على استمرار العمل بكل ما سبق من اتفاقيات بين البحرين وبريطانيا، والتأكيد على الصلح والصدقة الدائمة بينهما في إطار المفهوم البريطاني.

ومن المؤسف أن بريطانيا استطاعت من خلال هذه الاتفاقية الحصول على امتيازات أكثر لها في البحرين، من أهمها أن يكون المقيم السياسي البريطاني حَكماً في النزاعات التي تكون البحرين طرفاً فيها، كما أن له الحق في الفصل فيما يعرض من قضايا داخلية بالبحرين، والتي يكون أحد الأجانب طرفاً فيها.

- عام السلام المؤقت (١٢٨٠هـ / ١٨٦٣ - ١٨٦٤م)^(١):

طال زمن العداوة بين آل عبد الله وآل سلمان قطبي الأسرة الخليفية، مما كان له أثر سلبي على سياسة الدولة، إذ إنه ترتب عليه أحقادٌ وقاتل ودماء ونفرة بين أبناء الأسرة الواحدة، وأراد آل عبد الله أن يُنْهَوْا هذه الأزمة، ويضعوا حداً لهذه المفاصد المفجعة، فطلبوا من الأمير فيصل بن تركي أمير نجد التوسط للإصلاح بين الطرفين، فرحب الأمير بذلك، كما رحب آل سلمان عندما عُرض عليهم ذلك، فتمت المصالحة، وسُمح

(١) قال النبهاني في «تحفته» بأن آل خليفة أرخوا لهذا العام بلفظ - فرغ - أي الفراغ والانتها من النزاعات والخصومات. (ص: ١٢٣).

لآل عبد الله بالعودة إلى البحرين، وقام آل سلمان باستقبالهم بصورة حسنة، فاجتمع الشمل بين الطرفين في الأسرة الخليفية الواحدة، لفترة قصيرة من الزمان، عاد بعدها العداء وتفرق الشمل^(١).

• الصراعات في قطر:

١. وقعة الوكرة: (صديق الأمس عدو اليوم): (١٢٨٢هـ):

كان الشيخ أحمد بن محمد بن أحمد بن سلمان آل خليفة والياً للشيخ محمد بن خليفة على قطر؛ وقد قام أهل قطر في سنة (١٢٨١هـ) بمشاعبة ومنازعة الشيخ أحمد، وقاد ذلك قبيلة النعيم، فأرسل الشيخ محمد بن خليفة إلى الشيخ أحمد للقبض على شيخ قبيلة النعيم علي بن ثامر، وإرساله إلى البحرين.

قام الشيخ أحمد بتنفيذ الأمر، وأرسل بشيخ قبيلة النعيم إلى البحرين في سنة (١٢٨٢هـ)، وباندفاعية وعدم تأنٍّ قام الشيخ محمد بوضع علي بن ثامر في السجن، مما أثار غضب قومه، الذين جاهروا بالعداء للشيخ أحمد بن محمد حاكم قطر في سنة (١٢٨٣هـ).

لم يكتفِ آل نعيم بالمجاهرة بالعداء، بل توجهوا إلى الشيخ قاسم بن ثاني^(٢) حاكم البدع - الدوحة - ليستعينوا به على مواجهة الأمر، فأجابهم بإعداد جيش، قاده بنفسه، وتوجهوا جميعاً نحو الشيخ أحمد بالوكرة للقبض عليه، فلما علم الشيخ أحمد بذلك، لجأ إلى قلعة الوكرة ليحتمي بها.

وصل القوم، فحاصروا القلعة حصاراً شديداً، وحاولوا الدخول إليها، مما اضطر الشيخ أحمد إلى الفرار مع بعض خواصه عن طريق الساحل، وذلك بمساعدة رجل يقال له: راشد بن مبارك بن خاطر آل بو عيين، وقدّر الله تعالى أن يغرق بالبحر من خاصية الشيخ عبد المحسن بن عبد العزيز بن علي بن خليفة.

(١) قال النبهاني في «تحفته» معلقاً على هذا (ص: ١٢٣): إلا أنه لم تتحقق أمنيته كما قيل:

ويمكنُ وصلُ الجبل بعد انقطاعه ولكنه يبقى به عقدة الربط.

(٢) الشيخ قاسم بن محمد بن ثاني المعضادي التميمي، شيخ أسرة آل ثاني الحاكمة في قطر، توفي (١٣٣١هـ / ١٩١٣م)، وكان مُعيناً من قبل الشيخ محمد بن خليفة حاكماً على البدع.



استطاع الشيخ أحمد بن محمد آل خليفة الوصول إلى الخوير، في الشمال الغربي من قطر، ثم أرسل إلى الشيخ محمد بن خليفة، ليخبره بمجريات الأمور، ويتتظر أمره.

٢. خراب الدوحة الثاني ١٢٨٣هـ^(١):

أرسل الشيخ قاسم بن ثاني كتاباً إلى الشيخ محمد بن خليفة، أغلظ له فيه القول، وخيّر بين عزل عامله الشيخ أحمد من منصبه في قطر، وبين إطلاق سراح علي بن ثامر رئيس قبيلة النعيم، كما طلب منه أن يمنحهم شبه استقلال إداري.

وقد بين في كتابه هذا - بصريح العبارات - بأنه إذا لم يفعل ذلك فإن أهل قطر سيخلعون طاعته البتة، وأنهم يلتجئون لحكم غيره، يقصد بذلك الأمير فيصل بن تركي آل سعود أمير نجد.

تلقى الشيخ محمد بن خليفة الكتاب بغضب شديد، وأمر بإعداد الجيش بقيادة أخيه الشيخ علي، وأرسله إلى قطر، ليقوم بالردّ العملي على هذه الأحداث، وعلى رسالة قاسم ابن ثاني.

فنزل الجيش إلى الدوحة، وباغت أهلها، ووضع فيهم السيف على حين غفلة منهم، حتى اضطروهم إلى الفرار بأنفسهم تاركين خلفهم بيوتهم وأموالهم والخراب في كل مكان، لذا سُميت هذه الواقعة: بخراب الدوحة الثاني.

٣. وقعة الحمرور^(٢):

وهي وقعة ترتبت على الأحداث السابقة، وقعت قرب الساحل القطري في سنة (١٢٨٣هـ / ١٨٦٦ - ١٨٦٧م)، وكان سببها أن آل نعيم تركوا مقامهم في قطر، وخرجوا منها بعد الذي أصابهم على يد الشيخ علي بن خليفة في خراب الدوحة الثاني، فخرجوا متوجهين إلى سفنهم، فتبعهم الشيخ أحمد بن محمد آل خليفة العامل على قطر، مع جيش، قوامه من قبيلة العجمان، وكان رئيسهم منصور بن محمد، وأيضاً من قبيلة

(١) سبق وذكرنا أن خراب الدوحة الأول هو الذي قُتل فيه عيسى بن طريف آل بن علي.

(٢) «التحفة النبهاية»، (ص: ١٢٥).



المناصير وقائدهما مانع ومحمد ابنا سالمين، كما كان إلى جواره جمعٌ من بني هاجر، وسار خلفهم، حتى أدركهم في موضع يقال له: الحمور، ودارت بين الفريقين معركة شرسة، انتهت بمقتل الشيخ أحمد بن محمد آل خليفة، والشيخ خليفة بن عبد الرحمن آل خليفة، وتفرق الناس بعدها متناصفين.

٤. وقعة دامسة^(١):

وقعت هذه الواقعة في السابع من صفر (١٢٨٤هـ / ١٨٦٧م) في قطر، وكان ذلك بسبب تطور الأمور بين أهل قطر والشيخ محمد بن خليفة، إذ أن الشيخ قاسم بن ثاني مع أهل قطر طلبوا المساعدة من الأمير فيصل بن تركي أمير الرياض، وبلغ ذلك الخبر إلى الشيخ محمد بن خليفة، الذي قام على الفور بإعداد الجيوش وترتيبها، لباغت بهم أهل قطر، دون أن يظهر نيته لأحد بذلك.

ولما علم الشيخ قاسم بن ثاني بذلك، أدرك أن هذا الحشد العسكري المقصودُ به أهلُ قطر، ولذلك خشي من عاقبة الحرب مرة أخرى، فتوجه بنفسه نحو البحرين، ليفاوض الشيخ محمد بن خليفة، وينهيَ معه هذا الأمر، وأن تتم المصالحة بينهما.

ومع الأسف الشديد قابل الشيخ محمد بن خليفة هذه المبادرة من الشيخ قاسم بالقبض على الشيخ قاسم عند وصوله إلى البحرين، وفعل به كما فعل بـشيخ آل نعيم علي بن ثامر، دون أن يعي العبرة مما ترتب على فعله السابق، فلقد قام الشيخ محمد بالزج بالشيخ قاسم في السجن دون أن يلقاه، وكان المفترض من الشيخ محمد أن يعفو ويصفح، كما قال الله عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ [المائدة: ١٣]، خاصة وأنه أتى إليه معذراً ومصالحاً له.

ويذكر الشيخ عبد الله بن خالد روايةً أخرى عن أسر الشيخ قاسم بن محمد بن ثاني^(٢)، وهي أن الذي دفع الشيخ قاسماً للتوجه إلى البحرين، هو دعوة الشيخ محمد بن خليفة له

(١) «التحفة النبهانية»، (ص: ١٢٦).

(٢) الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة «البحرين عبر التاريخ»، (١٩٨/٢).



ليتفاوض معه، فلما وصل إلى البحرين قام بالقبض عليه، وزج به في السجن، وهذا أشدُّ وأعظمُ جرماً مما فعله، إن صَحَّتِ الرواية الأولى، إذ أنه غدر به.

وهذه الرواية هي التي وردت عند معظم القبائل العربية، التي شاركت آنذاك، مثل آل نعيم وآل بوعينين وآل ثاني.

فلما علم أهل قطر بما جرى للشيخ قاسم، تذكروا ما جرى من قبل للشيخ علي بن ثامر شيخ قبيلة النعيم، ووجدوا أن القبض على زعمائهم وشيوخهم عارٌ، لا يمحوه إلا الحربُ وفكُّ أسرهم، فقرروا مهاجمة البحرين، ومواقعة الشيخ محمد بن خليفة، وكان أميرهم في ذلك ناصرُ بن جبر شيخُ قبيلة النعيم، وامتطوا سفنهم، وتوجهوا إلى البحرين لمواجهة الشيخ محمد بن خليفة، وهم يرتجزون:

حرم عليك الصلح منا ما دام قاسم في الحديد
لأبد ماتاردسفننا بالسيف مصقول الحديد

كان الشيخ محمد بن خليفة قد بلغه الخبر، واستعد، وتأهب لمواجهة القوم، فواجههم بمكان في البحر، في ليلة ظلماء كثيفة الضباب، ولذا سميت المعركة: بدامسة، وتلاصقت السفن بعضها ببعض بكلايب الحديد، كما كانت موقعة ذات الصواري، واصطف المقاتلون فوقها، ودارت رحي معركة شرسة، تساقطت فيها جثث الرجال في البحر، حتى أسفر الصبح، فإذا بالمياه وقد أصبحت حمراء، وجثث الرجال تطفو عليها، وكانت الغلبة يومئذ للشيخ محمد بن خليفة، وكانت هذه المعركة هي بداية النهاية له كما سيأتي.

واضطرت سفن أهل قطر إلى الانسحاب إلى قطر، وهي تحمل عليها القبائل من آل نعيم والمعاويد، وآل بوعينين.

ولم ينته الأمر بالشيخ محمد إلى ما جرى، بل تبع قبائل أهل قطر بأسطوله البحري، ليطاردهم في أرضهم.

٥. معركة جبل الوكرة «الطويلة»^(١):

- الحرب خدعة:

أبدى أهل قطر أنهم لا قدرة لهم على القتال فتقهقروا إلى الخلف، حتى صاروا بعيداً عن الساحل، فسار خلفهم جيش الشيخ محمد بن خليفة، وقامت فرقة أخرى من أهل قطر بالتوجه نحو الساحل ليكونوا خلف جيش الشيخ محمد بن خليفة وليقطعوا عليه العودة إلى الساحل، ويوقعوه بين فكي أسد جريح يريد أن ينتقم لما جرى له سابقاً.

أدرك جيش البحرين هذه الخدعة فانسحبوا مسرعين إلى أسطولهم، فطاردهم أهل قطر بقيادة الشيخ جبران بن محمد بن بحر الجبران شيخ الوكرة وقبيلة آل بوعينين، واستطاعوا أن يأسروا الشيخ إبراهيم بن علي آل خليفة، فأصبحت الكفة متكافئة بين الفريقين، مما أدى إلى دخول الفريقين في مفاوضات انتهت إلى النتائج التالية:

١. إطلاق سراح الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني، وعلي بن ثامر شيخ قبيلة آل نعيم من أسرها في البحرين، مقابل إطلاق سراح الشيخ إبراهيم بن علي آل خليفة ومن أسر معه من أهل البحرين في الوكرة.

٢. توقيع معاهدة بين شيوخ قبائل قطر في الوكرة على التحالف بينها بإلزام شيوخ أبي ظبي والبحرين بدفع تعويضات عن الخسائر التي لحقت بأهل قطر.

٣. كان أهم هذه النتائج هو انفصال الدوحة ومعظم قطر عن حكم البحرين، تحت حكم الشيخ قاسم آل ثاني وأسرته آل ثاني لأول مرة، لتبدأ المنطقة في شكل وقالب جديد.

- بريطانيا ترقب الموقف:

وكان من أهم ما ترتب على هذه الأحداث هو التدخل البريطاني الذي أبدى استنكاره لهجوم البحرين على قطر، وأن ذلك خرقاً للاتفاقية الموقعة بين المقيم البريطاني في الخليج وبين الشيخ محمد بن خليفة، واتخذت بريطانيا من واقعة دامية مبرراً للتدخل البريطاني

(١) سميت هذه المعركة بالطويلة نسبة إلى كبرى سفن البحرين التي لحقت بالسفن المنسحبة من معركة دامسة إلى الوكرة.



في البحرين.

- تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن:

بلغ الشيخ محمد بن خليفة توجُّه المعتمد البريطاني إلى البحرين مع بوارجه العسكرية، فأراد ألا يواجهه وجهاً لوجه، وأن يترك أخاه الشيخ علي ليفاوض المعتمد البريطاني مقابل ما يشاء من المال، وذهب هو إلى قطر للقيام ببعض الشؤون هناك، حتى لا يواجه المعتمد البريطاني.

لما علم المقيم البريطاني بتوجه الشيخ محمد بن خليفة إلى قطر، عدَّ ذلك فراراً منه واعتراضاً بمخالفته للاتفاق بينه وبين بريطانيا، فانتهزها فرصة، وقام بإطلاق المدافع على قلعة (أبو ماهر)، فهدمت القلعة، وسقط معها العلمان: العثماني والفارسي، ثم أمر بإحراق ثلاث سفن حربية خاصة بالشيخ محمد بن خليفة، ثم أصدر أمراً للشيخ علي بتوليته حكم البلاد بدلاً من الشيخ محمد، الذي سقطت ولايته في الحكم بمخالفته للاتفاق، وكان ذلك في سنة (١٢٨٥هـ).

- الجزاء من جنس العمل:

أدى هذا إلى وقوع الخلاف والنزاع بين الشيخ محمد وبين الشيخ علي، مما اضطر الشيخ محمد إلى ترك البحرين، والتوجه إلى الكويت، كما توجه عمُّ أبيه الشيخ عبد الله بن أحمد من قبل، بعد أن كان الشيخ محمد السبب في ذلك، وسبحان الله! الجزاء من جنس العمل. انفرد الشيخ علي بن خليفة بالبحرين، ونالت بريطانيا ما كانت تريد من التدخل أكثر في شؤون البحرين.

عندما ذهب الشيخ محمد بن خليفة إلى الكويت، وعلم آل صباح بالأمر، قاموا بمحاولة الصلح بين الأخوين، فأرسل حاكم الكويت الشيخ عبد الله بن صباح رسالةً مع أخيه الشيخ محمد بن صباح إلى الشيخ علي بن خليفة، ينصحه فيها، ويحذره جرّاء ما يترتب على الشقاق والخلاف وتفرق الكلمة، وينصحه فيها بإعادة الحكم إلى أخيه الشيخ محمد.



قام الشيخ علي بتلقي الرسالة ودراستها، بما يتواءم مع الظروف المحيطة، ورد على ذلك بإيجابية، حيث إنه وافق على إعادة الشيخ محمد حاكماً على البحرين.

قام الشيخ عبد الله آل صباح بصحبة الشيخ محمد آل صباح مع الشيخ محمد بن خليفة بالتوجه في موكب بحري إلى البحرين، مستبشرين بما تم من الاتفاق، وقبل أن يصلوا إلى ساحلها تقدم الشيخ عبد الله آل صباح بسفينته، ليخبر الشيخ علي بقدوم أخيه الشيخ محمد الحاكم، ليستعد لاستقباله، ولكن كما قال الشاعر:

ما كلُّ ما يتمنى المرءُ يدركهُ تجري الرياحُ بما لا تشتهي السفنُ

إذ إنه عندما واجه الشيخ عبد الله آل صباح الشيخ علياً وطلب منه الاستعداد لاستقبال الشيخ محمد، فاجأه الشيخ علي بأنه رجع عن ذلك، وسيبقى هو في الحكم، ولن يتنازل لأخيه عن الحكم.

وهنا يذكر النبھاني بأن الأجانب تدخلوا للحيلولة دون ذلك، ولم نجد ما يوثق هذا الكلام، غير أن الذي نراه هو أن الله تعالى قد جازى الفاعل بما فعل، أي الشيخ محمد بفعله بعم أبيه الشيخ عبد الله، وبنفس الذراع التي انتصر بها كُسر، وهي أخوه الشيخ علي والبريطانيون.

والأرجح عندي أنه قد تمَّ تهديدُ الشيخ علي من قِبَلِ المقيم البريطاني، بأنه إذا أعاد الشيخ محمد إلى الحكم، فإن بريطانيا ستقوم بإقصائه عن الحكم واستبداله بغيره من خصومه من آل عبد الله.

وكذلك فإن شهوة الحكم توقع من العداوة والبغضاء - بين الوالد وولده، وبين الأخ وأخيه، وبين أبناء الأسرة الواحدة - ما الله به عليم، وتاريخ الأمم والخلفاء مليء بالأمثلة التي تدل على ذلك، بل إن أدلّ مثال على ذلك قصة وصول الشيخ محمد بن خليفة نفسه إلى الحكم، وفيما مضى من التاريخ بالكتاب عبرة لمن أراد الموعظة والاعتبار.



٦. وقعة الضلع «صراع مصالح جديد»:

لما بلغ الشيخ محمداً الخبر، شكر لآل صباح موقفهم معه، واعتذر لهم، وتوجّه إلى دارين على ساحل الخليج، لينظر في أمر نفسه هناك.

استطاع الشيخ محمد أن يجهز جيشاً في دارين من بني هاجر، كما استعان بالشيخ ناصر بن مبارك من آل عبد الله آل خليفة، والذي أمده بالمال، وعقد معه اتفاقاً، وأصبح مع الشيخ محمد قلباً وقالباً^(١)، وبدأ الشيخ محمد يُعدُّ لمعركة فاصلة بينه وبين أخيه الشيخ علي، ليستردَّ حُكم البحرين، فقام الشيخ محمد بالتوجه إلى البحرين عن طريق البحر، بعد أن أتمَّ استعداداته.

نزل الشيخ محمد مع جيشه إلى البر بالبحرين، ليواجه أخيه الشيخ علي بن خليفة الذي كان في جيش كبير، كان فيه آل عبد الله المقيمون بالبحرين، وعلى رأسهم الشيخ محمد ابن عبد الله، وكان الشيخ علي يقلقه آل عبد الله الذين معه، بسبب اتفاق أخيهام الشيخ ناصر مع الشيخ محمد بن خليفة، فقام بطلب البيعة والعهد منهم مرةً أخرى، فأعطوه ذلك.

ودارت رحى معركة مؤسفة انتهت بمقتل الشيخ علي، وعودة حُكم البحرين لفترة مؤقتة إلى الشيخ محمد بن خليفة.

ويصف النبهاني في «التحفة» ذلك بقوله: ثم التقت جيوش الشيخ محمد والشيخ علي وآل عبد الله وتقاتلوا قتالاً عنيفاً، فالتحمت الصفوف، واختلطت الرماح بالسيوف، ولعبت الأسنة بالتروس، ووطئت الخيل بسنابكها الرؤوس، فأسفرت تلك المعركة عن قتل الشيخ علي بن خليفة، وتفرّق جيوشه، وفرار أتباعه إلى برّ قطر، فعاد حكم البحرين إلى الشيخ محمد بن خليفة، وكان ذلك في الحادي والعشرين من جمادى الآخرة لسنة (١٢٨٦هـ / ١٨٦٩م)، وأرخت بقولهم: «ويل لأوال خربت».

(١) هكذا هي المصالح كما أسلفنا، عدو الأمس صديق اليوم، وصديق اليوم عدو الغد، لأن الموازين موازين شهوات وهوى، وليست موازين تغليب المصلحة الشرعية، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

لقد قُتل في هذه المعركة - غير الشيخ علي - الشيخ الحباب بن محمد بن عبد الله آل خليفة، والشيخ خليفة بن علي بن خليفة بن مقرن آل خليفة، والشيخ سلطان بن عبد الرزاق بن إبراهيم آل خليفة، والشيخ راشد بن عبد الرحمن بن راشد آل فاضل^(١).

- صراعات نحو الاستقرار:

كان للشيخ علي بن خليفة أبناء كثر، ذكر النبھاني أنهم أربعة عشر ابناً، وذكر الشيخ عبد الله ابن خالد أنهم سبعة عشر ابناً، كان من أشهرهم الشيخ عيسى بن علي، والذي توجه إلى قطر، ونزل ضيفاً على قبيلة آل نعيم، ولحق به إخوته وبنو عمه.

استتب الأمر في ظاهره للشيخ محمد بن خليفة بعد قتل أخيه الشيخ علي، وما كان يدري أن هذه ساعة لتصفية الحسابات بينه وبين أبناء الشيخ عبد الله بن أحمد.

فوقع الخلاف بينه وبينهم، وتحينوا الفرصة، حتى تمكنوا ذات يوم من القبض على الشيخ محمد بن خليفة، وسجنوه في قلعة (أبو ماهر)، بعد ثلاثة أشهر فقط من استرداده الحكم، ونصبوا أخاهم الأكبر محمد بن عبد الله آل خليفة حاكماً على البلاد، وذلك في سنة (١٢٨٦ هـ)، ولم يبق في الحكم أكثر من ثلاثة أشهر، موافقاً بذلك الفترة التي حكم فيها الشيخ محمد بن خليفة قبل أن يسجنه.

- الدور البريطاني:

تدخلت بريطانيا من خلال بلي المعتمد الإنجليزي المقيم في بوشهر، والذي أبحر إلى البحرين على سفينة الأسطول الإنجليزي، وتوجه إلى الشيخ محمد بن عبد الله آل خليفة، واستفسر منه عن الشيخ محمد بن خليفة، فأخبره بأنه قُتل أثناء المعركة، غير أن المعتمد البريطاني بلغه الخبر بأن الشيخ محمد بن خليفة (أبو ماهر)، فذهب إليه، وأخذه معه في السفينة.

(١) الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة «البحرين عبر التاريخ»، (٢/ ١٩٩).

قلت: سبحان الله، كيف ميأ للإنسان الحياة بدون إخوته وأهله وعشيرته؟ فكيف بمن صرع أخاه وقتله من أجل الإمارة؟! إنها شهوة الحكم والزعامة التي تجعل أهل الصراع في بعد عن الحق والإنصاف، فأين هؤلاء من قول النبي ﷺ: «إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار، قلت: يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصاً على قتل صاحبه» رواه البخاري ومسلم عن أبي بكره ﷺ.

فسبحان الذي! جعل يوماً مقداره خمسين ألف سنة، يفصل فيه بين الخلائق، ويعطي كل ذي حق حقه هو يوم الفصل، فاللهم لطفك وعفوك.



دفع ذلك بلي المعتمد البريطاني إلى أن يتخذ قرارات وينفذها على الفور، منها:

١. إخراج بني هاجر من البحرين، وهم عماد جيش آل عبد الله، وأطلق من أجل ذلك طلقات المدافع على مقر الحكم بالمنامة، مما اضطر بني هاجر إلى أن يخرجوا من المنامة، تحت قيادة الشيخ ناصر بن مبارك آل عبد الله.

٢. أصدر قراراً بتعيين الشيخ عيسى بن علي آل خليفة حاكماً على البحرين، بعد أن استطلع آراء شيوخ القبائل وأعيان البلد، والذين أقروه على هذا الأمر، وأرسل كتاباً إلى الشيخ عيسى بن علي في قطر، يطلب منه العودة إلى البحرين، ليتولى حكمها بعد أن مرت بهذه الأحداث، وأرسله مع علي بن عيسى آل بن علي.

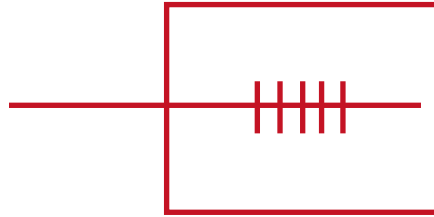
- وتلك الأيام نداولها بين الناس:

قام الشيخ محمد بن عبد الله آل خليفة بتسليم نفسه للمعتمد البريطاني، فوضعه بالسفينة مع الشيخ محمد بن خليفة، فاجتمع الخصمان على مصيبة واحدة، وأرسلهما المعتمد البريطاني إلى الهند، ليسجنا هناك، وذلك في سنة (١٢٨٦هـ / ١٨٦٩م).

ثم نقل الشيخ محمد بن خليفة إلى سجن بقلعة عدن، في صفر (١٢٩٥هـ) / فبراير (١٨٧٨م)، في الوقت الذي سَعَتْ فيه زوجة الشيخ محمد لطيفة هانم بنت سلمان^(١) إلى الخليفة العثماني عبد الحميد، رحمه الله، من أجل التوسط لدى الإنجليز لإطلاق سراح زوجها، فعمل السلطان على إطلاق سراح الشيخ محمد بن خليفة، وإرساله إلى مكة المكرمة، حيث تمَّ إعداد اللازم هناك لإقامة الشيخ، ووصل الشيخ إلى مكة في الرابع والعشرين من رجب (١٣٠٤هـ)، والتقى هناك بأهله وأبنائه وخدمه، وقد أمر السلطان بمنح الشيخ وحاشيته راتباً شهرياً، يستعين به على أموره الحياتية.

(١) قامت زوجة الشيخ محمد بزيارة إسطنبول، واتصلت بعائلة السلطان عبد الحميد، قدر الله تعالى أن إحدى بنات السلطان كانت مريضة بداء عضال، فقامت لطيفة هانم بعلاجها بالكي، فلما علم السلطان بذلك أرسل للطيفة هانم هدية مبلغاً من المال، فرفضت ذلك وقالت: إنني زوجة ملك في بلاده، وقدمت ألتمس من السلطان التوسط لدى الإنجليز للإفراج عن زوجي، والسماح لنا بسكنى مكة، وقصت عليهم ما جرى للشيخ. د. علي أبا حسين «مجلة الوثيقة»، (٣٧/٣١).

أمضى الشيخ محمد بن خليفة ما تبقى له من سنوات عمره في مكة المكرمة، يعمل على استرجاع حكمه في البحرين، ولكن القدر كان أسبق من الأمل، كما جاء في الحديث الصحيح، الذي رواه الإمام البخاري، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: خطَّ النبي صلى الله عليه وسلم خطأً مربعاً، وخطَّ خطأً في الوسط خارجاً منه، وخطَّ خطأً صغيراً إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط، وقال: «هذا الإنسان، وهذا أجله محيطٌ به، أو قد أحاطَ به، وهذا الذي هو خارج أمله، وهذه الخططُ الصغارُ الأعراضُ، فإن أخطأه هذا، نهشه هذا، وإن أخطأه، هذا نهشه هذا»^(١).

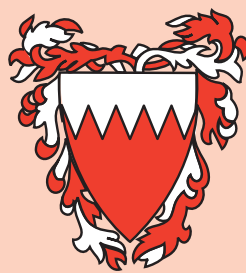


وقد وافت المنية الشيخ محمد، وهو في مكة في الثاني من ذي الحجة سنة (١٣٠٧هـ)، ليلقى الله تعالى وحده، ولعل الله سبحانه وتعالى أراد له خيراً أن أقصاه عن الحكم في سنوات عمره الأخيرة، وأن أماته في هذه البقعة المباركة بعيداً عن البحرين، وذكّرنا ذلك بأنه كان سبباً في إقصاء الشيخ عبد الله بن أحمد آل خليفة رحمه الله عن حكم البحرين، ووفاته بعيداً عن وطنه وقومه، ونرجو الله تعالى أن يكون ذلك خاتمة خيرٍ له، وأن يعفو عنه، ويرحمه، وأن يتجاوز عنا وعنّه وأن يدخلنا في الصالحين.

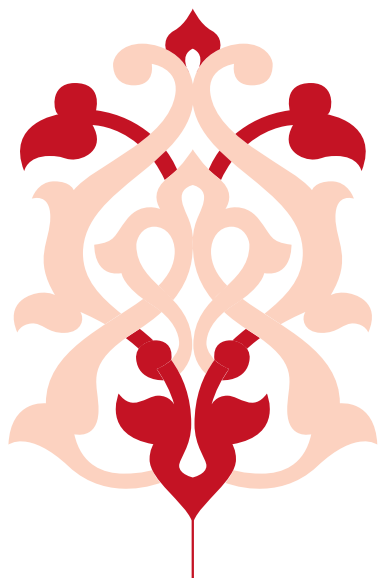
(١) رواه البخاري (١١/٢٨٣/ح: ٦٤١٧).



الفصل الخامس



آل خليفة في
البحرين
الشيخ عيسى بن علي



عصر استقرار البحرين
ونشأة الدولة الحديثة

الشيخ عيسى بن علي بن خليفة بن سلمان بن أحمد آل خليفة

(١٢٨٦هـ - ١٣٥١هـ) / (١٨٦٩م - ١٩٣٢م)

«آخر حكام البحرين في عهد الخلافة الإسلامية»

ولد الشيخ عيسى بن علي في البحرين سنة (١٢٦٥هـ / ١٨٤٩م)، وسماه أبوه باسم خاله: عيسى بن طريف آل بن علي.

• نشأته:

اهتم الشيخ علي بن خليفة بتربية أبنائه، وتنشئتهم النشأة الدينية الفاضلة، حيث هيا لهم المربين والمعلمين من أهل الديانة، الذين عملوا على تنشئتهم النشأة الصالحة، وقد نبغ من أبنائه الشيخ عيسى بن علي، الذي كان فصيحاً وبلغاً، يهتم بالأدب والشعر، ويقرب إليه العلماء، مما هياؤه على صغر سنه أن يتولى حكم المحرق في أواخر حياة أبيه، وكان مجلسه حافلاً يتردد عليه الفقهاء والعلماء والشعراء، وكان محبباً إلى الناس هناك.

أنعم الله تعالى على الشيخ عيسى بالحكمة والذكاء والفطنة، وبعد النظر، والخصال الحميدة، ومنها كرمه الذي يضرب به المثل، وبقي في ذريته من بعده، كما أنه كان رجلاً نحسبه تقياً ورعاً، مقتدياً بهدي النبي ﷺ في ظاهره وهيئته، فالصور الشخصية له تدل على ذلك، مما دفع الناس إلى احترامه ومحبته واختياره شيخاً لهم عندما استطلع المعتمد البريطاني آراءهم.

• أسرة الشيخ عيسى بن علي آل خليفة:

تزوج الشيخ عيسى بن علي من امرأتين، الأولى ابنة عمه الشيخة عائشة بنت محمد بن خليفة آل خليفة، وأنجب منها أربعة من الذكور، أولهم الشيخ سلمان بن عيسى والذي توفي بعد أدائه فريضة الحج في سنة (١٣١١هـ / ١٨٩٣م)، والثاني الشيخ حمد بن عيسى، والذي تولى ولاية العهد كأكبر أبناء الشيخ عيسى آنذاك، ثم تولى حكم البحرين بعد أبيه، وتوفي في سنة (١٣٦١هـ / ١٩٤٢م).



والثالث الشيخ راشد بن عيسى، والذي لحق بأخيه سلمان في رمضان (١٣٣٠هـ/ ١٩١٦م)، والرابع الشيخ عبد الله بن عيسى، والذي تولى تأسيس التعليم النظامي بالبحرين وتوفي في سنة (١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م).

وأما الزوجة الثانية، فهي من بنات أخواله آل بن علي، وهي الشيخة مريم بنت حمد آل بن علي، أنجب منها الشيخ محمد بن عيسى الشاعر والأديب، والذي توفي في لندن (١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م).

• البحرين في عهد الشيخ عيسى بن علي آل خليفة:

تولى الشيخ عيسى بن علي الحكم، والبحرين تمر باضطرابات داخلية وظروف عصيبة، وأحداث دامية، انتهت بمقتل أبيه، كما أسلفنا، كما أصبح لبريطانيا في تلك الآونة اليد الطولى في الخليج العربي، بعد ضعف الخلافة العثمانية صاحبة السيادة على العالم الإسلامي، وعدم قدرتها على حماية أوطان المسلمين، فاستطاعت بريطانيا استغلال هذا الضعف والفرصة المواتية لها بسببه، فامتدت بنفوذها على سواحل الخليج، فكان على الشيخ أن يكون حكيماً متريثاً فيما يعرض له من أحداث ومواقف، متوازناً في قراراته واختياراته، حتى يخرج البلاد من أزمتها.

بدايةً استجاب الشيخ عيسى لرغبة أهل البحرين في تولي الحكم، ورجع من قطر، فاستقبله أهل المحرق استقبالاً منقطع النظير، وكان على رأس من استقبله المعتمد البريطاني، ونُصّب الشيخ حاكماً على البلاد، وتمت له البيعة، وله من العمر إحدى وعشرون سنة، في اليوم الأخير من شهر شعبان سنة (١٢٨٦هـ/ الرابع من ديسمبر ١٨٦٩م)، فاستقبله الناس مع استقبال شهر رمضان، واستبشروا به خيراً، وأملوا من الله تعالى أن يكون عهده عهد استقرار وأمن ورخاء وازدهار.



وكما عُرف الشيخ عيسى من قبل لأهل البحرين بالكرم، فقد أجزل العطاء لأهلها، وبذل الرعاية لهم وللوافدين عليه من العربان، خاصة مع قدوم شهر رمضان، الذي حث فيه النبي ﷺ على البذل والعطاء والصدقة، ولقد كان ﷺ أجود الناس كما في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، قال: كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان، حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان، فيدارسه القرآن، فالرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة^(١).

ويعدُّ عصرُ الشيخ عيسى بن علي مرحلة انتقال من عهد الصراعات والنزاعات والاضطرابات وإراقة الدماء، إلى عهد الأمن والأمان والاستقرار، الذي هياً أن يكون عصر الشيخ مرحلة فارقة في تاريخ البحرين والمنطقة برمتها، فهو الجسر الذي عبرت عليه البحرين إلى العصر الحديث، والتطور المادي، والعلم الكوني.

كان الشيخ ربان سفينة، استطاع أن يرسو بها على شاطئ الأمان، وأن يجلب لها الخيرات والأرزاق بفضل الله تعالى، ثم بما اشتهر به من التقوى والصلاح والعدل؛ ففي عهده ازدهرت تجارة اللؤلؤ، وسمي عصره بالعصر الذهبي للغوص^(٢)، مما أدى إلى ازدهار اقتصادي، ساهم في التطوير الإداري الداخلي للدولة، فلقد تم تأسيس البلدية، وإدارات الشرطة والجمارك، كما يعدُّ عهده الخطوة الأولى لتأسيس التعليم النظامي في البحرين، وأدى أيضاً ازدهار الاقتصاد إلى الاهتمام بالجوانب الصحية في البلاد، حيث تم إنشاء الحجر الصحي، وبعض المستشفيات الصغيرة، كما اهتم بالقضاء، ولذلك أنشأ المحاكم النظامية، واختار لها القضاة الأكفاء.

اهتم الشيخ عيسى بن علي رحمه الله بحقوق العاملين بالغوص، وأمر بتدوين أنصبة كلٍّ منهم، وديونهم، ومستحقاتهم، حتى لا يُظلم أحدٌ، كما اهتم بالضرائب المفروضة على الغواصين، بحسب حداثة وقوة السفينة وعدد العاملين عليها.

(١) رواه البخاري (١/٤١/ح:٦).

(٢) كان عدد سفن الغوص في زمانه نحو ألفي سفينة، وبلغ دخلها ما يقارب ثلاثين ألف (ثلاثين مليون) روبية.



- الإدارة ونظام الحكم في عهد الشيخ عيسى آل خليفة:

كان نظام الحكم السابق يقوم على الحاكم، وهو ما يسمى بشيخ البحرين، وكان قديماً يتقلد الحكم عن طريق بيعة مجلس العائلة له؛ وأما في حالة الشيخ عيسى، فلقد بايعه آل خليفة وأهل الحل والعقد في البلاد من العلماء والأعيان، بل عاد من قطر لتولي الحكم بناءً على رغبة هؤلاء في إمارته، ولقد استطاع الشيخ عيسى أن يستقر بالبلاد بعد ما مرت بها من فتن وابتلاءات، فقام بعدة إصلاحات إدارية، واتخاذ إجراءات هامة، ووضع نظم جديدة في جميع المجالات على النحو التالي:

أولاً: ولاية العهد:

كان نظام الحكم في الأسرة الخليفة نظاماً ثنائياً، تكون ولاية العهد فيه لأحد أفراد الأسرة الخليفة كالأخ أو العم، أو ابن الأخ، مما أدى إلى وقوع الخلافات والنزاعات التي أسلفنا ذكرها، ولقد رأى الشيخ عيسى أنه إذا توفي دون أن يعين حاكماً من خلفه، فقد يؤدي ذلك إلى عودة الفوضى والاضطرابات بين الأسرة الخليفة، كما يفتح الباب على مصراعيه لبريطانيا في امتلاك زمام الأمور، وتوجيه الخلافات بين الأفراد، لتحقيق غاياتها، دون النظر لمصلحة البلاد التي ستدخل في دائرة التخلف والانحيار^(١).

قام الشيخ عيسى بطلب الحصول على موافقة بريطانيا لتولي العهد لأكبر الأبناء لتولي الحكم من بعده من المعتمد البريطاني في البحرين، في الوقت الذي كانت بريطانيا في حاجة لاستقرار منطقة الخليج العربي، كوحدات سياسية مصغرة، تصبح تابعة لها، فتفاعلت مع هذا المطلب الذي قدمه الشيخ في مكتوب، وقّع عليه أربعة وأربعون شخصية لها مقامها في الأسرة الخليفة، ومن أعيان البحرين، كإقرار وشهادة منهم على رضاهم بولاية العهد، وقد تمّ ذلك في سنة (١٣١٥هـ / ١٨٩٨م).

(١) ولقد كان له في ذلك سلف من القرون المفضلة الأولى، فالنبي صلى الله عليه وسلم أمر بإمامة أبي بكر للناس في مرضه الأخير، وأيضاً أبو بكر الصديق رضي الله عنه أخذ البيعة لعمر بن الخطاب في حياته، حسماً لمادة النزاع والخلاف من بعده، وهذا ما سار عليه عمر رضي الله عنه في وصيته وعهده لأهل الشورى الستة، وكذلك فعل الصحابي الجليل معاوية بن أبي سفيان، الذي تولى خلافة المسلمين في ظروف صعبة، واستطاع أن يخرج الأمة إلى الاستقرار والأمن والأمان والازدهار، وولى ولده يزيد ولاية العهد في حياته، ليحسم أيضاً مادة الشر والخلاف والنزاع، حرصاً على سلامة الأمة، اتباعاً لقول الله تعالى: (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم)، يراجع: ولاية العهد فيما سبق من الكتاب.



أرادت بريطانيا أن تستثمر المطلب لصالحها، فوضعت شروطاً لموافقتها على تعيين الشيخ حمد بن عيسى ولياً للعهد، وهو أن تكون هي المشرفة على إدارة الجمارك بالبحرين، ووضع نظام جديد لإدارتها، وتعيين موظفين إنجليز لرئاستها، فلم يستجب الشيخ عيسى لمطلبهم، فأجّلت بريطانيا الإعلان بالموافقة على مطلبه.

وشاء الله تبارك وتعالى أن يُبتلى الشيخ عيسى بالمرض في سنة (١٣١٨هـ / ١٩٠٠م)، مما دفع بريطانيا إلى موافقة على الشيخ حمد ولياً للعهد ووريثاً لوالده في حكم البلاد، وقد فعلت ذلك خشية وفاة الشيخ عيسى، وأرسلت خطاباً رسمياً للشيخ عيسى عن طريق المعتمد البريطاني في البحرين، تخبره بالموافقة، فأعلن ذلك رسمياً بالبحرين، مما أدى إلى ارتياح شديد من الناس الذين فرحوا فرحاً عارماً بهذه البشري.

ثانياً: الوزير:

وهو بمثابة معاون في تحمّل أعباء الحكم، وهو بمثابة مدير إدارات الدولة، ولقد كانت وظيفة الوزير معتبرة عند الدول والأمم من القديم، كما قال تعالى على لسان نبيه موسى: ﴿وَجْعَلْ لِي وِزيراً مِّنْ أَهْلِي﴾ (٢٩) ﴿هَؤُلَاءِ أَخِي﴾ (٣٠) ﴿أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى﴾ (٣١) ﴿وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي﴾ [طه: ٢٩-٣٢].

ولقد استوزر الشيخ عيسى من أول عهده الشيخ عبد الوهاب بن سلمان بن أحمد الفاتح عم أبيه، والذي كان موضع ثقة الشيخ عيسى من قبل، وكان ملازماً له قبل أن يتولى الحكم، وهو من خيرة مَنْ عملوا إلى جوار الشيخ عيسى، وقد تولى عدة مهام، منها:

١. الإشراف على أملاك الشيخ عيسى.

٢. مستشار للشيخ عيسى.

٣. الإشراف على الجمارك التي تعدُّ أحد أهم الموارد المالية في البحرين.

وكان الشيخ عبد الوهاب محبوباً ومقرباً عند أهل البحرين، لما تمتّع به من سيرة حسنة، وخلق راقٍ، يدل على ديانة وتقوى.

وقد أوكلت إلى الشيخ عبد الوهاب مهام متعددة إلى جانب مهامه الرئيسة، ولقد عانى



المرض حتى ذهب بصره وأصبح ضريراً، وبرغم ذلك لم يعزله الشيخ عيسى عن منصبه لأمانته، ولأنه موضع ثقة للشيخ عيسى.

توفي الشيخ عبد الوهاب رحمه الله في سنة (١٣٠٦هـ)، فولى الشيخ عيسى مكانه ولده الشيخ عبد الرحمن بن الشيخ عبد الوهاب، والذي سار على نهج أبيه موضع ثقة للشيخ عيسى بن علي لنحو ثمانية وعشرين عاماً، ثم عزل نفسه من العمل، لأسباب لم نستطع الوقوف عليها، لعدم توافر الوثائق التاريخية التي تبين لنا ذلك.

ثالثاً: الحاجب:

اتخذ الشيخ عيسى حاجباً له، يقوم بتنظيم الدخول على الشيخ من الضيوف والمراجعين، وهي الوظيفة التي يقوم صاحبها بإعطاء الإذن للدخول على الشيخ أو منعه، وهي أقرب ما يكون إلى وظيفة مدير مكتب الأمير في عصرنا، ولقد ولى الشيخ عيسى مهمة الحاجب يوسف بن حسن بن فلاح^(١).

رابعاً: الدوائر الإدارية:

قسّم الشيخ عيسى الدوائر الإدارية في البحرين إلى عدة أقسام؛ كل قسم بحسبه، وجعل البلدية هي رأس هذه الأقسام والمشرقة على تسيير أمورها.

١. البلدية:

أصدر الشيخ عيسى بن علي آل خليفة مرسوماً بتاريخ الرابع والعشرين من ذي القعدة (١٣٣٨هـ) الموافق للعشرين من شهر يوليو (١٩٢٠م) بإنشاء بلدية المنامة، للعناية بحفظ الصحة العامة، وتنظيم الإنشاءات، وشق الطرق ورفاه وفلاح سكانها، كما ورد في بداية نظام الأساس الذي أصدره الشيخ بعد ذلك، وكذلك كانت البلدية تقوم بترقيم البيوت والحوانيت «المحلات التجارية»، وترقيم الشوارع والمناطق وتنظيفها، وقد

(١) يوسف بن حسن بن فلاح: ولد بجزيرة المحرق في البحرين سنة (١٣٠٠هـ)، كان شاعراً، وكان على قدر من الثقافة والأدب والمعرفة، عمل حاجباً للشيخ عيسى بن علي، وقد ذكره النبهاني في تحفته بقوله: أما حاجبه، فهو يوسف بن حسن بن فلاح ذو الآداب الحميدة، توفي في الوفاء المسمى سنة الرحمة والتي ألغيت فيها الخلافة الإسلامية (١٣٤٢هـ / ١٩٢٤م) عن عمر تجاوز الأربعين. جريدة «الأيام» البحرينية/ العدد ٧٧٧٨/ الثلاثاء (١٥) شعبان (١٤٣١هـ) / (٢٧) يوليو (٢٠١٠م). تحت عنوان: شاعر من البحرين.

تطورت مهام البلدية فأصبحت تشرف على تنظيم الأسواق العامة، ومراقبة المذابح، وتوحيد الأوزان والمقاييس، وتشديد المغاسل العامة، وشق قنوات صرف مياه الأمطار. وقد وضع الشيخ عيسى بن علي ميزانية خاصة للبلدية، في أول تأسيسها، وأوكل إليها مهام أخرى بعد ذلك، جعلتها تقوم بمقام مجلس الوزراء اليوم، وخاصة بعد أن صدر نظام الأساس، فلقد أوكلت إليها مهمة الأمن والشرطة، ومهمة المستشفيات والصحة، ومهمة التعليم، ومهمة المواصلات والأشغال العمومية.

- مجلس البلدية:

تكون مجلس البلدية في أول أمره من ثمانية أعضاء، مُعيَّنين من الحكومة مباشرة، يرأسهم رئيس البلدية، وهو منصب رفيع، أول من تصدر له الشيخ عبد الله بن عيسى بن علي آل خليفة.

وبعد نجاح إدارة البلدية ومجلسها، قرر الشيخ زيادة عدد أعضاء المجلس إلى أربعة وعشرين عضواً، ينتخب الأهالي نصفهم.

وتعدُّ بلدية المنامة واحدة من أوائل الدوائر الرسمية التي أنشأت في البحرين، كما تعد من أوائل البلديات التي أنشئت في دول مجلس التعاون الخليجي، بل والعالم العربي، فعلى سبيل المثال أنشئت بلدية الكويت بسبب زيارة الشيخ يوسف بن عيسى القناعي من الكويت للبحرين في يوليو (١٩٢٨م)، ومشاهدته لبلدية البحرين وآثارها على المجتمع، فكتب مقالاً بعنوان: الحكم الشرعي في تاريخ البلديات، مما أثر في أن تطرح الفكرة بإنشاء بلدية بالكويت على الشيخ أحمد الجابر حاكم الكويت، الذي أعجب بالفكرة، واقتنع بها، وأصدر قراراً بإنشاء البلدية في (١٣) أبريل (١٩٣٠م)^(١) بالكويت.

كما نشأت بلدية دولة عمان في سنة (١٩٣٨م)، وتمّ تعيين أول مجلس بلدي لها في سنة (١٩٣٩م)، وتمّ إصدار قانون تنظيم البلديات في سنة (١٣٦٩هـ / ١٩٤٩م)^(٢).

(١) موقع بلدية الكويت على الشبكة العنكبوتية.

(٢) أحمد الطيب/ سامية الطائي «نشأة بلدية مسقط وتطور أجهزتها»/ موقع بلدية مسقط على الشبكة العنكبوتية.



ونشأت بلدية دبي في عهد الشيخ راشد بن سعيد آل مكتوم في سنة (١٩٥٤م)، وتم تعيين عددٍ من الأعيان والتجار أعضاءً للمجلس البلدي، ثم صدر مرسوم بذلك في الثامن والعشرين من رجب (١٣٧٦هـ) الموافق الثامن والعشرين من فبراير (١٩٥٧م)، ثم صدر أمر بتأسيس مجلس بلدية دبي «إعادة تكوين البلدية» في سنة (١٣٨٠هـ/ ١٩٦١م)^(١).

كما أنشئت أول بلدية في الشارقة سنة (١٣٤٥هـ / ١٩٢٧م) في عهد الشيخ سلطان بن صقر القاسمي.

وأما رأس الخيمة، فأنشئت أول بلدية بها في عهد الشيخ صقر بن محمد القاسمي، وذلك في سنة (١٣٧٩هـ / ١٩٥٩م).

٢. الأمن والشرطة:

يعدُّ جهاز الأمن والشرطة من الأجهزة الهامة في أي دولة، وقد اهتمت الدولة الإسلامية من عهد الخلافة الراشدة بهذا الأمر اهتماماً كبيراً، حتى تطور تطوراً كبيراً على مدار تاريخ الأمة.

ونظراً لأهمية وجود الشرطة للحفاظ على الأمن العام والخاص في المجتمع، أنشأ الشيخ عيسى بن علي تنظيمًا أمنياً، أطلق عليه تنظيم الفداوية، وذلك في سنة (١٢٨٦هـ / ١٨٦٩م)، وكان الفداوية يتمركزون في المنامة والمحرق ومناطق البحرين، ويرأسهم أمير الفداوية.

كان تنظيم الفداوية النواة الأولى لجهاز الأمن، الذي تطور بعد ذلك إلى تنظيم النواطير، والذي كان يُعدُّ البداية الأولى لإدارة التدريب والعمليات، ثم تطور إلى إدارة الشرطة، فيما سُمي بمديرية شرطة البحرين؛ وكان يرأسها رئيس الشرطة والأمن العام، وتطور بعدها العمل الأمني، واستخدمت وسائل وأجهزة متعددة، حتى استقرت إلى مسمى وزارة الداخلية.

(١) حسين نصر لوتا «كتاب بلدية دبي» / وثائق تاريخية / موقع بلدية دبي على الشبكة العنكبوتية.

٣. إدارة الجمارك:

تعدّ الجمارك في عهد الشيخ عيسى بن علي واحدة من أهم الموارد الأساسية للدولة، وكان قد تمّ تأسيس أول دائرة لها سنة (١٨٦٠م) في عهد الشيخ محمد بن خليفة، وعندما تولى الشيخ عيسى بن علي الحكم، جعل الجمارك تحت إشرافه المباشر، وكان يجمع عوائدها عن طريق متعهدين محليين، وكان معظمهم من التجار الهنود في سنة (١٨٨٠م)، وأبرم بينه وبينهم اتفاقاً، هو أن يجعلوا للشيخ سيولة نقدية، تغطي ما يحتاجه عند الأزمات، مقابل أن يأخذوا نسبة من الأرباح، نظير جبايتهم للجمارك، وعلى أن تحدد التعرفة الجمركية على الوارد والصادر، وقد حدد الشيخ لهم فترة العقد لمدة زمنية، يتم تجديدها بعد ذلك بأمر من الشيخ.

حاولت بريطانيا التضييق على الشيخ عيسى بإضعاف مركزه المالي، وذلك في محاولاتها الدائمة للسيطرة على شؤون الجمارك، وإبعاد الشيخ عنها، وقد ألحت السلطة البريطانية على الشيخ - تحت مسمى إصلاح الجمارك - أن يعين موظفاً مختصاً لإدارة الجمارك من الإنجليز، فرفض الشيخ ذلك، بل إن الوثائق تثبت مدى تشدّد الشيخ عيسى في هذا الأمر، فلقد أرسل المعتمد البريطاني بالبحرين رسالة إلى رئيسه في بوشهر، جاء فيها: إن شيخ البحرين أبلغني بأنه لم يُعطِ أية وعودٍ لأيّ موظف بريطاني عن قيامه في المستقبل بالاتصال، أو التشاور مع المقيم السياسي في الخليج العربي، قبل تجديد عقد إيجار الجمارك بواسطة المتعهدين الهنود، وطلب إحضار أية وثيقة تدل على عكس ذلك^(١).

وكان هدف بريطانيا - من وراء سيطرتها على الجمارك - هو ليّ ذراع الشيخ مالياً واقتصادياً، حتى يكون دائماً في حاجة إليها، ولذا فإن الشيخ - رحمه الله - استعان بالله، واتخذ موقفاً واضحاً صريحاً في رده على اللورد كريزون المقيم البريطاني في الخليج، والذي كان في زيارة للبحرين في سنة (١٣٢٠هـ / ١٩٠٣م)، حيث قال: إن مشكلة الجمارك تخصني، وأحبّ تأجيل هذا الأمر، حتى موتي، رغم أن اللورد حاول إغراء الشيخ من أجل قبول نظام جديد للجمارك، يُخرج البحرين من أزمتها المالية، ويزيد من موارد الثروة، ويؤسس استقراراً لولي عهده الشيخ حمد.

(١) عبد الرحمن النجدي / دراسة وثائقية، «مجلة الوثيقة».



ولما لم يصل اللورد كريزون في هذه المسألة إلى حل قطعي مع الشيخ عيسى، وجهت بريطانيا له إنذاراً، مما أوقع الخلافَ بينها وبين الشيخ عيسى، الذي أصرَّ على موقفه، واستمر الخلاف، فكانت هذه المسألة أحد أهم الذرائع التي دفعت بريطانيا إلى زيادة نفوذها في البحرين، وتحجيم سلطات الشيخ عيسى بن علي آل خليفة.

وفي سنة (١٣٢٩هـ / ١٩١٢م) تم تشييد أول مبنى للجمارك في المنامة، تضمن عدداً من المرافق والمخازن والملاحق التابعة له، التي خصصت لأغراض الجمارك.

ظلت بريطانيا تترقب الفرصة المواتية لها، لتفرض سيطرتها على إدارة الجمارك في البحرين، فلما تحيَّن لها ذلك، أصدرت قراراً بتقييد سلطة الشيخ عيسى بن علي الفعلية في سنة (١٣٤١هـ / ١٩٢٣م).

وبدأت بريطانيا بعد ذلك تعدُّ لتولي موظف بريطاني للجمارك، وإعادة تنظيمها، وهو الأمر الذي تمَّ متزامناً مع إلغاء الخلافة الإسلامية العثمانية في سنة واحدة (١٣٤٢هـ / ١٩٢٤م)، حيث أعادت بريطانيا هيكلة إدارة الجمارك وفق رؤياها الخاصة، وقامت بتعيين أول مدير للجمارك، وهو الضابط البريطاني كلودي جرينير، والذي قام بتطوير الجمارك بإدخال بوليصة الشحن لأول مرة، كجزء من العملية الجمركية.

وهكذا قاوم الشيخ عيسى - رحمه الله - بكل ما استطاع الإنجليز في فرض سيطرتهم على أهم الموارد المالية بالبحرين في عهد سلطته الفعلية، حتى استطاع دفع بريطانيا عن الجمارك، هذا المورد المالي الهام إلى أن قُيدت سلطته داخل البلاد.

٤. النظام القضائي والمحاكم:

يعدُّ النظامُ القضائي في الإسلام عمليةً محورية هامة في حياة الفرد والمجتمع والأمة، ولذلك اهتمت بها الدولة الإسلامية اهتماماً بالغاً منذ نشأتها، مؤصلة الأحكام الشرعية النافذة على جميع الناس أميراً ومأموراً وحاكماً ومحكوماً.



ولقد كان القضاء في أول عهد الشيخ على ما كان عليه فيمن سبقه من الحكام، والذي كان يتولى فيه القضاة للمذاهب الفقهية الأربعة الفصل في القضايا بين الناس.

وكان الحاكم يعين قاضياً عاماً للفصل في المنازعات، والنظر في القضايا، ويفصل في الصغير منها دون العودة إلى حاكم، وكان يحيل القضايا الكبيرة إلى الحاكم، والذي كان يفصل فيها وفق اجتهادات المذهب المالكي، الذي كان عليه حكام البلاد.

كما اضطر الشيخ بعد فرض الحماية البريطانية على البحرين سنة (١٢٩٧هـ / ١٨٨٠م) إلى موافقة على إيجاد محاكم قنصلية على نسق المحاكم التي اتخذتها الدولة العثمانية للأجانب، والذي يقرر فيها فصل القضاء الوكيل السياسي بالبحرين، والتي كانت من أبرز اختصاصاته، وكان ينظر في كل القضايا التي تتعلق بالبريطانيين أو الأجانب، أو القضايا التي بها طرف عربي وآخر أجنبي، وذلك وفق معاهدة (١٢٧٨هـ / ١٨٦١م)، والتي أبرمت مع الشيخ محمد بن خليفة سابقاً.

• القضاة في عهد الشيخ عيسى:

تولى القضاء في عهد الشيخ عيسى عدداً من القضاة المعتمدين عند أهل السنة والجماعة منهم:

١. الشيخ محمد بن راشد الحسني المالكي.
٢. الشيخ عبد الرحمن بن جعفر المالكي.
٣. الشيخ قاسم بن مهزح المالكي.
٤. الشيخ عبد الرحمن بن عبد اللطيف آل مبارك المالكي.
٥. الشيخ إبراهيم بن عبد اللطيف بن محسن الصحف المالكي.
٦. الشيخ سعيد بن أحمد بوبشيت المالكي.
٧. الشيخ خالد بن يوسف بوبشيت المالكي.
٨. الشيخ شرف بن أحمد المالكي.



٩. الشيخ علي بن محمد الباشا المالكي.
 ١٠. الشيخ عيسى بن راشد بن عيسى المالكي.
 ١١. الشيخ إبراهيم بن جامع الحنبلي.
 ١٢. الشيخ محمد بن فضل الفضالة السلفي.
- كما عيّن الشيخ عيسى بن علي القاضي أحمد بن سلمان الشاخوري قاضياً لأتباع المذهب الجعفري.

٥. النظام الصحي:

اهتم الشيخ عيسى بن علي اهتماماً خاصاً بالخدمات الصحية من أجل الارتقاء بالمواطن، فقام بإنشاء المستشفيات في سنة (١٩٠٠م)، والتي تطورت بعد ذلك وأصبحت محط أنظار المرضى في أنحاء الجزيرة العربية، كما أرسل في عهده ما يشبه المستشفى العائم في مركب بحري، مجهز بالخدمات الصحية والأطباء والأدوية، إلى بعض المناطق المطلة على سواحل الخليج العربي، كما اهتم الشيخ ببناء مستشفى خاص للنساء والأطفال في سنة (١٣٤٢هـ / ١٩٢٤م).

ولقد أصبحت البحرين صاحبة اليد البيضاء في الخدمات الصحية على منطقة الخليج والجزيرة العربية، حتى إن الملك عبد العزيز آل سعود رحمه الله أرسل إلى البحرين، يستعين بالله ثم بالأطباء، يجلبهم من البحرين، لعلاج الأمراض الوبائية، ولمعرفة طرق الوقاية منها.

كما كان ذلك مطلب شيخ قطر الشيخ عبد الله بن قاسم آل ثاني، والذي وجه رسالة شكر إلى الشيخ عيسى بن علي، لتفاعله الإيجابي معه.

فكانت هذه الخطوات التي قام بها الشيخ عيسى بن علي - رحمه الله - هي الأساس، الذي أدى إلى تطور الخدمات الصحية، ليس في البحرين فحسب، بل في منطقة الخليج العربي برمتها.



٦. التعليم:

ظهرت بواكير التعليم النظامي في البحرين في عهد الشيخ عيسى بن علي - رحمه الله - حيث اهتم بالمدارس الشرعية، التي كانت قائمة آنذاك، وأوقف عليها الأوقاف، لتستمر في عطائها، ثم أنشأ مدرسة لتدريس السنة النبوية، والعلوم الشرعية، بسوق المنامة في سنة (١٣٠٨ هـ / ١٨٩١ م).

كما أنشئ في عهده التعليم الأهلي، وظهرت أول مدرسة أهلية سنة (١٣٣٦ هـ / ١٩١٩ م)، والتي كانت نواة لإنشاء مدرسة الهداية الخليفية، أساس مدارس التعليم النظامي بالبحرين.

كما أنشئت في عهد الشيخ عيسى بن علي المراكز الثقافية، والأندية الأدبية، والمنتديات الفكرية، مثل النادي الإسلامي، الذي أسسه الشيخ محمد بن عبد العزيز المانع، والذي قام بتأسيس أكبر مدرسة في الخليج آنذاك، لنشر العلوم الإسلامية واللغة العربية، كما أنشئ النادي الأدبي الذي تأسس سنة (١٣٣٧ هـ / ١٩٢٠ م)^(١).

وهكذا ظل الشيخ عيسى رحمه الله يعمل بخطوات ثابتة متأنية في مجال التطوير والتنمية والإصلاح، من أجل ازدهار البحرين، حتى استطاع أن يضع اللبنة الأولى في البحرين الحديثة.

(١) الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة «البحرين عبر التاريخ»، (٢/ ٢٦٢).



الشيخ عيسى بن علي وأهم الأحداث في عصره

قضى الشيخ عيسى بن علي أطول فترة في الحكم من أسرة آل خليفة، حيث بقي فيها نحو أربعة وستين عاماً هجرية، فقد تولى الحكم سنة (١٢٨٦هـ / ١٨٦٩م) حتى سنة (١٣٥٠هـ / ١٩٣٢م)، عاصر خلالها أحداثاً عظاماً، وتحولات كبرى على المستوى الدولي والمحلي، كما عاصر نهايات الخلافة العثمانية، وإلغاء الخلافة من سماء الدنيا، وفرض الهيمنة الأوروبية الصليبية على العالم الإسلامي، ومرحلة الصراع بين المسلمين وبين خصومهم من الغزاة الصليبيين، كما عاصر الحرب الكونية الأولى والصدام الدولي الكبير، والذي مثلت فيه البحرين قاعدة عسكرية للاستعمار البريطاني في الخليج.

وكان على الشيخ عيسى أن يستعين بالله، ثم بالصالحين ممن حوله، للخروج ببلده الصغير سالماً من بين هذه الأمواج المتلاطمة، التي أطاحت بالكثير من حوله ممن هو أعظم منه قوة وقدرًا.

- الحماية البريطانية على البحرين:

كان من أعظم ما ابتلي به الشيخ عيسى بن علي، وشعبُ البحرين آنذاك هو فرض الحماية البريطانية على البحرين، وذلك بسبب أن الدولة العثمانية أرادت أن تعيد نشاطها في الخليج العربي، حيث إن هذه المناطق ضمن الدولة الإسلامية العثمانية من جهة، ومن جهة أخرى قامت سفن فرنسية وأمريكية ويابانية بزيارة مياه الخليج العربي، مما أقلق حكومة بريطانيا، فأرادت بريطانيا أن تقطع الطريق على العثمانيين، بفرض هيمنتهم على المنطقة، وألزمت أمراء الخليج بتوقيع اتفاق، تضمن بموجبه عدم اتصال المشيخات بالدولة العثمانية، أو غيرها من الدول الأخرى.

كان من ضمن من ألزم بهذه الاتفاقيات البحرين، حيث وقع الشيخ معاهدة مع الحكومة البريطانية، سميت في التاريخ: بالمعاهدة المانعة الأولى في سنة (١٢٩٨هـ / ١٨٨٠م).



وخلاصة هذه المعاهدة: أنَّ الشيخ يلتزم بموجب هذه الوثيقة - هو ومن يخلفه في الحكم - بالامتناع عن المفاوضات، أو إبرام أي معاهدات، من أي نوع مع أي دولة، أو حكومة أخرى غير الحكومة البريطانية، سواءً بإقامة وكالات تجارية أو دبلوماسية أو قنصلية، أو محطات للفحم، ما لم توافق الحكومة البريطانية^(١).

- المعاهدة المانعة الثانية (١٣٠٩هـ / ١٨٩٢م):

تدخلت بريطانيا مرة أخرى بإلزام الشيخ عيسى بن علي بتجديد الاتفاق الذي تمَّ بينها وبينه في المعاهدة المانعة الأولى؛ وذلك بسبب أن العثمانيين والفرنسيين قاموا بنشاط موسع في الخليج العربي.

ولم تختلف بنود هذه الاتفاقية كثيراً عن الأولى، سوى أن الشيخ يلتزم بعدم بيع أو رهن أي جزء من الأراضي، إلا بإذن من الحكومة البريطانية.

كما تلتزم بريطانيا بحماية البحرين ضدَّ أي تدخل خارجي، كما تلتزم بحماية المصالح الاقتصادية والسياسية للبحرين، وتنوب عن شيخها في الأعمال ذات السيادة الخارجية، كتوقيع الاتفاقات والمعاهدات.

توجهت بريطانيا إلى الدولة العثمانية في سنة (١٣١٢هـ / ١٨٩٥م) لتُثبت لها حقَّ سيادة بريطانيا على البحرين بصفة رسمية.

- الإجراءات الاستعمارية في البحرين:

سارعت بريطانيا بعد هذه الاتفاقات بترتيب الإجراءات والوسائل، التي تهيمن بها على البحرين، ومن ذلك تعيين وكيل سياسي مقيم بالبحرين بصفة دائمة، لمتابعة فرض الحماية على البحرين، وقد منحته الحكومة البريطانية سلطات واسعة، تشبه السلطات التي منحت للمقيم السياسي البريطاني في بوشهر^(٢).

(١) د. محمد أحمد عبد الله «تاريخ البحرين الحديث»، (ص: ١٥٧).

(٢) كان المقيم السياسي البريطاني في بوشهر يتمتع بامتيازات واسعة، فهو الممثل الرسمي لمصالح بريطانيا في الخليج العربي، والقائم على تنظيم علاقات بعض مشيخات الخليج مع بعض، ومع بريطانيا، كما يقوم بتوقيع وتنفيذ المعاهدات المبرمة بين بريطانيا ومشيخات الخليج، كما كان له حق الفصل في القضايا المتعلقة بالأجانب المقيمين في المشيخات.



كان من أشهر وأبرز هؤلاء كلايف دلي، والذي تولى هذا المنصب في سنة (١٣٣٩هـ/ ١٩٢١م)، والذي عمل بكلّ قوة على إقصاء الشيخ عيسى بن علي عن منصبه، وتجميد فعاليته وقراراته، كما قام بفرض قانون المستعمرات الإنجليزي على البحرين، واستطاع أن يحقق ما سعت إليه بريطانيا طويلاً، وهو السيطرة على جمارك البحرين، فقام بالسيطرة عليها وتعيين موظفين بريطانيين لإدارتها.

- البحرين قاعدة عسكرية بريطانية:

كانت الأجواء الدولية مهيئةً لصدام دولي موسع، وكانت بريطانيا قد أعدت العدة لخوض هذا الصدام، فيما سمي: بالحرب العالمية الأولى، فعملت بكلّ قوة على الاستفادة من مستعمراتها في الخارج، لذلك جعلت البحرين قاعدة عسكرية لها في سنة (١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م)، وذلك لأهمية موقعها الاستراتيجي الذي يفتح لها الطريق إلى العراق.

- الغزو الفكري للبحرين (التنصير):

تعرضنا فيما سبق للتنصير وبعض آثاره في عالمنا الإسلامي؛ ولقد أتاح ضعف الدولة العثمانية ومجيء الاستعمار الصليبي المسلح لبلدان المسلمين أن يأتي معهم أو خلفهم الحملات الصليبية الفكرية، التي كان للبحرين نصيب منها، ففي سنة (١٣١٠هـ/ ١٨٩٣م) وصل إلى البحرين فريق من الأمريكان، على رأسهم القس زويمر^(١)، فقام باستئجار بيت مع بعض رفاقه من أحد المواطنين، هو الحاج يوسف بن عبد الله الشتر.

وكان زويمر على ثقة كبيرة بنفسه، وبما يعتقد، وكان يعتمد على اللغة العربية التي كان يجيدها بطلاقة في الاحتكاك بالناس، كما كان يتميز بينهم بما يحمله من آلة تصوير فوتوغرافي، لم يعهدها الناس من قبل^(٢)، وكذلك بما يمتطيه من دراجة أيضاً، لم يعهدها الناس من قبل، أتى بها معه من أمريكا.

(١) صموئيل زويمر، قس أمريكي، ولد في سنة (١٨٦٧م) بالولايات المتحدة الأمريكية، ودرس اللاهوت ووسائل التنصير والاستشراق بها، وكان من أوائل الطلاب المتفوقين، قام بتأسيس مركزاً للتنصير أطلق عليه اسم: الإرسالية الأمريكية للتبشير (التنصير) في سنة (١٨٨٩م)، وأطلقوا عليها اسم: الإرسالية العربية، وكان الهدف منها هو نشر النصرانية بمناطق سواحل الخليج العربي، وفي سنة (١٣١٠هـ/ ١٨٩٣م) وصل زويمر إلى البحرين، فهو المؤسس لحركة التنصير في البحرين، هلك في سنة (١٩٥٢م).

(٢) استطاع زويمر أن يقوم بتصوير القاضي ابن مهزغ رحمه الله دون أن يشعر به، وأرسل هذه الصورة إلى أمريكا.



بدأ زويمر يحتك بالناس، ويتصل بهم في محافلهم، كالأسواق والتجمعات، ويخصّ الشباب منهم بمناقشة قضايا العقيدة وأمور الشريعة، فاستطاع أن يجمع معلومات جيدة، أوقفته على خامات الشباب آنذاك، وعلى آمالهم وأحلامهم، غير أنها أوقفته أيضاً على نفورهم الشديد منه ومن كل غريب، يشكّكهم في دينهم.

وكان زويمر يتحدث مع الشباب بقوله: إنه جاء إلى البحرين ضيفاً عليهم، فإذا لم يقبلوه فهو ضيف الله، فيجيبوه: لست بضيفنا، ولا بضيف الله، أنت ضيف إبليس. وظل هذا اللقب ملاصقاً له ما دام في البحرين^(١)، وكان زويمر مازال يدرس المكان المناسب في الخليج لتأسيس مركز التنصير، فانطلق إلى الأحساء، ليستطلع أحوالها، فرجع مسرعاً إلى البحرين، لأن الوالي العثماني قام بطرده من هناك، فأيقن أن البحرين هي أنسب الأماكن لتأسيس مركز الخليج للتنصير.

وبالفعل شرع في إقامة هذا المركز في سنة (١٨٩٤م)، وبدأه بإنشاء مدرسة تنصيرية صغيرة، كما أنشأ حانوتاً لبيع الكتب الدينية النصرانية كالنوراة والإنجيل (العهد القديم والجديد)، وشيئاً فشيئاً انطلق زويمر بعد ذلك يطلب من الشيخ عيسى بن علي رحمه الله السماح بشراء قطعة أرض، ليقم عليها مستشفى ومركزاً للإرسالية التي يتبعها، فقبل طلبه بالرفض التام، وعدم السماح ببيع أي أرض لهذا القسيس، رغم أن زويمر قد تعهد للشيخ عيسى بأن هذه الأرض لن يقام عليها مركز للتنصير، ولا كنيس يدق فيه ناقوس، ولا شيء من شعائر النصرانية، ولكن الشيخ عيسى رحمه الله أصر على موقفه.

توجه عندئذ زويمر إلى أبناء عقيدته البروتستانتية، من الممثلين السياسيين الإنجليز في الخليج، ليساعده في الضغط على الشيخ عيسى، بالحصول على إذن السماح بشراء الأرض، فتدخل هنا المقيم السياسي البريطاني الكولونيل ميد، وطلب من الشيخ عيسى في سنة (١٣٢٦هـ/ ١٨٩٩م) أن يسمح لزويمر بشراء أرض بالبحرين، فقبل طلبه بالرفض أيضاً.

(١) يذكر أ. مبارك الخاطر في كتابه: «القاضي الرئيس قاسم بن مهزح»، أن أولئك الشباب هم خليل المؤيد، ومحمد صالح يوسف، ويوسف الشتر، ويوسف كانو، وناصر الخيري، ومحمد حسن العريض، وعلي يتييم، وسلطان التاجر، ومحمد كانو، ومحمد علي التاجر. وأن هؤلاء الشباب كان بعضهم يدرس في جامعة علي كره بدلي في الهند، وقام بزيارتهم في سنة (١٩١١م) القس زويمر والذي حضر إلى دلي ليرأس مؤتمر لكهنة التبشيري التنصيري، فدخل عليهم الفصل الدراسي، ومعهم طلاب من جنسيات أخرى، فألقى عليهم السلام، فرد عليه الجميع تحيته، إلا شباب البحرين، فقد ردوا قائلين: أهلاً بضيف إبليس، فأجابهم قائلاً: أما زلت تذكرونها، ولا تنسونها. (ص: ١١٢).



غير أن زويمر لم يهدأ، وعاد مرة أخرى يطلب من الكولونيل كومبول - المقيم السياسي البريطاني الجديد - الذي طلب من الشيخ عيسى، فوافقه هذه المرة، لما ارتآه من مصلحة، يجيب عنها رب العالمين يوم القيامة.

وبذلك استطاع القس زويمر أن يشتري قطعة أرض كبيرة بأربعة آلاف روبية، وقبل البناء رأى زويمر أن هذه الأرض لا تكفي لأحلامه ببناء مستشفى ومدرسة في آنٍ واحدٍ، فتزلف إلى رجل يقال له: عبد العزيز القصيبي، له أرض مجاورة للأرض التي اشتراها، فمع الأسف قام القصيبي بإهدائها له في سنة (١٣٨٢هـ / ١٩٠١م)، فبذلك تمَّ له ما أراد، وأقام المستشفى في سنة (١٩٠٢م)، وفي سنة (١٩٠٦م) كانت جميع المباني ملحقة بالمشفى والمدرسة تامةً مكونةً هذا المركز التنصيري في البحرين، وسميت: مستشفى ماسون الأمريكي، والذي اشتمل على غرفة للعمليات معدة إعداداً كاملاً، وفيها أدوات، لم تتوفر من قبل، وكانت الاستشارة الطبية والكشف والدواء يقدم مجاناً للذين يحضرون صلاة الصبح التي يقومون بها في مركزهم.

ومن الوسائل التي استخدمتها الإرسالية الأمريكية لتحقيق أهدافها؛ إنشاء أول مدرسة نظامية في البحرين، هي مدرسة الإرسالية الأمريكية^(١)، في سنة (١٨٩٤هـ)، والتي تحولت إلى مدرسة الرجاء بعد ذلك، وكانت تدرّس الطلاب الإنجيل في بداية أمرها، ثم انقطعت عن ذلك بعد أن نشأت وزارة التربية والتعليم، ووضعت اللوائح بتنظيم التعليم الخاص بالالتزام بالمنهاج التي لا تتعارض مع طبيعة البلاد وقوميتها وتقاليدها وشريعتها، كما ألزمت تلك المدارس بتعليم الديانة الإسلامية، واللغة العربية، وتاريخ وجغرافية البحرين.

• موقف البحرين الرسمي من التنصير:

تعرفنا فيما سبق موقفَ الشيخ عيسى بن علي رحمه الله من وجود الإرسالية التنصيرية في البحرين، وكذلك كان موقفُ العلماء المُعلن من هذه الإرساليات التنصيرية موقفَ

(١) عبد العزيز بن أحمد البдах: «المدارس الأجنبية في الخليج»، واقعها وآثارها. وهذا المرجع دراسة ميدانية تحليلية قدمه الكاتب كبحث لنيل درجة الماجستير من كلية الدعوة الإسلامية، جامعة الأزهر، ويمكن للقارئ الاستفادة من هذا البحث في الوقوف على خطر المؤسسات التعليمية النصرانية في بلاد المسلمين.

الرفض والإنكار، ولا شك أن هذا هو موقف الدولة والشعب، إذ إن هؤلاء العلماء كانوا يمثلون الصفوة الرسمية في البحرين، ومنهم الشيخ قاسم بن مهزغ^(١) قاضي البحرين، والذي انبرى للدفاع عن عقيدة المسلمين والوقوف في وجه المنصرين بأساليب ووسائل مختلفة، كالشوكة في حلوقهم، ويمنعهم أن ينفذوا إلى المجتمع بالوعظ والإرشاد، والتعليم، والبيان، والتربية للشباب، فأصبح كالحصن للمجتمع المسلم آنذاك، والذي كان يرفض ذلك بفطرته رغم الإغراءات التي عرضها المنصرون.

وكذلك الشيخ أحمد بن مهزغ، الذي سعى لإنشاء مدرسة، تقف في وجه التنصير ومخططاته، وقد أزره الشيخ عيسى عن طريق وزيره المقرب الشيخ عبد الرحمن بن عبد الوهاب آل خليفة، والذي قام بتنفيذ أمر الشيخ بإنشاء المدرسة، وأوقفت عليها الأوقاف، وعرفت بمدرسة الشيخ أحمد بن مهزغ، والتي ظلت باقية إلى يومنا هذا باسم: المعهد الديني.

وغيرهما من المشايخ والعلماء من أهل البحرين الكرام الذين لفظوا بفطرتهم أن يقولوا إن الله هو المسيح بن مريم، أو يقولوا إن الله ثالث ثلاثة، لعلمهم اليقيني الثابت كالجبال لا يتزعزع بأنه كفر حَكَمَ الله به على النصارى في كتابه العزيز بقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ ۖ﴾ (٧٢) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ [المائدة: ٧٢-٧٣].

ومما هو جدير بالذكر أن فريق الإرسالية الأمريكية العربية - بقيادة صموئيل زويمر - لم يقتصر على البحرين فقط، وإنما كان لهذا الفريق صولات وجولات على متن السفن في الخليج العربي، وفي موانئ سواحل الخليج.

(١) قاسم بن مهزغ بن فايز، ولد سنة (١٨٤٧م) في بلدة عسكر، تعلم العلوم الشرعية منذ الصغر، وحفظ القرآن الكريم وحفظ متون العلم وقلد المالكية في الفقه، ثم رحل إلى الأحساء، ونزل على الشيخ العلامة عبد اللطيف بن إبراهيم آل مبارك، ودرس عليه العلوم المختلفة لثلاث سنوات، ثم عاد إلى البحرين، حيث عينه الشيخ علي بن خليفة مستشاراً له، ثم عينه الشيخ عيسى بن علي قاضياً على البحرين، ومما يذكر أن الشيخ رحمه الله لم يتقاض على منصبه في القضاء درهماً واحداً أو مكافأة من أحد، وقد بقي فيه خمسة وخمسين سنة، غفر الله له، وأحسن مثواه. مبارك الخاطر: «القاضي الرئيس قاسم بن مهزغ»، (ص: ٣٣-٥٦).



- مفترق طرق:

أرادت بريطانيا فرض الأنظمة والقوانين الإنجليزية الوضعية على شعب البحرين المسلم، مما أدى إلى استشارة فئات الشعب المختلفة، وعلى رأسها العلماء والقضاة، الذين اندرجوا في مجلس وطني برئاسة الشيخ عبد الوهاب بن حجي الزباني^(١) رافضين هذه القوانين، بسبب مضاهاتها ومخالفتها للشريعة الإسلامية، وقام الشيخ الزباني - مع جمع من الأعيان - بعرض مطالب شعب البحرين على كلايف دلي، والتي كانت كالتالي:

١. تشكيل مجلس وطني للقضاء.

٢. تشكيل جمعية وطنية.

٣. إنشاء جهاز شرطة محلي.

٤. إصدار لائحة إصلاحات إدارية.

رفض كلايف دلي هذه المطالب واعتبرها تمرداً على السلطة البريطانية.

وإزاء رفض دلي هذا تمّ عقد مؤتمر وطني موسع في سنة (١٣٣٨هـ / ١٩٢٠م)، انتهى بالمطالب التالية:

١. الالتزام بالشريعة الإسلامية منهجاً وحكماً للبحرين.

٢. انتخاب مجلس شورى، يساعد الشيخ عيسى بن علي في تسيير أمور البلاد.

٣. تشكيل محكمة خاصة بالغواصين.

٤. ضرورة التزام المعتمد البريطاني بالمعاهدات السابقة، وعدم تعرضه للشأن الداخلي للبحرين.

(١) عبد الوهاب بن حجي الزباني: ولد الشيخ المحرق سنة (١٢٨٢هـ / ١٨٦٥م)، درس بالعراق، وبرع في علوم الفقه والأدب العربي، كما درس بالأحساء. أسس مسجد ومدرسة الزباني الدينية بالمحرق، كان عصامياً، يعمل إلى جانب الدعوة في الغوص، كما كان له دور فعال في القضايا الاجتماعية والتربوية، فهو أحد المؤسسين لمدرسة الهداية الخليفية سنة (١٣٣٦هـ / ١٩١٩م).

قاوم الاستعمار البريطاني، وأسّس لجنة مقاومة الاستعمار، نُفي إلى مومباي بالهند بعد أن عُرض عليه النفي للعراق، لكنه أصر على الهند، حتى يتمكن من رفع دعوى ضد دلي المعتمد البريطاني، وقد تمكن من ذلك، وكان وكيله المحامي محمد علي جناح مؤسس دولة باكستان وعدد آخر من المحامين، وحكم القاضي بطلان النفي، وأنزل في مومباي مع جالية إسلامية هناك، كما أُخلي سراح عدد من البحرينيين الذين كانوا هناك، وراسل الشيخ عيسى بن علي الذي أعطاه وكالة لمقاومة الحكومة البريطانية على تصرف دلي الغير قانوني، وبالفعل استطاع رفع الدعوى التي كانت تُنظر في بريطانيا، وعُرض عليه العودة للبحرين لحين البت في الدعوى، لكنه رفض ذلك، حتى ينتهي أمر الدعوى، غير أنه رحمه الله وافقه المنية أثناء النظر في الدعوى بالهند سنة (١٣٤٣هـ / ١٩٢٥م)، غفر الله له ورحمه رحمة واسعة. أحمد عبد الرحمن الزباني: «سنوات التحدي»، (ص: ٢٦).

- تصاعد الأمور:

كانت ردة فعل كلايف دلي عنيفةً وحادة، حيث أمر باعتقال الشيخ عبد الوهاب الزبيري، وبعض قادة المؤتمر، وأصدر قراراً بنفيهم إلى الهند، مما أدى إلى صدامه مع الشيخ عيسى بن علي حاكم البحرين الفعلي، والذي رفض هذه الإجراءات، غير أنه لم يستطع إيقاف شيء منها لوقوعه تحت الحماية البريطانية.

نفذ دلي قرار نفي الشيخ الزبيري ومن معه إلى الهند، ولم يكتف بذلك بل عمل على محاولة عزل الشيخ عن منصبه، ولكنه لم يستطع ذلك، فعمل على تقليص صلاحياته، والحد من فاعليته، وخاصة بعد أن أصدر الشيخ نظام الأساس «الدستور»، الذي جاء متناغماً مع مطالب وطبيعة شعب البحرين، وكان ذلك فرصة لتدبر بريطانيا المكائد بعد ذلك لعزل الشيخ عيسى، وتولي ابنه الشيخ حمد بن عيسى من بعده.

عملت بريطانيا في أول الأمر على تهدئة الأمور، وامتصاص غضب الشعب البحريني، فقامت بعزل كلايف دلي، وتعيين تشارلز بلجريف في مكانه، والذي تولى دور تحقيق أهداف بريطانيا الاستعمارية بأساليب غير التي كان عليها دلي.

- نظام الأساس ومفترق الطرق مع بريطانيا:

استمرت البحرين في تطور إداري، ونمو اقتصادي، بفضل الله تعالى، ثم بفضل رجالها الأوفياء المخلصين، وعلى رأسهم الشيخ عيسى بن علي آل خليفة، والذي قفز بالبحرين قفزة هائلة في كل الجوانب، ولقد قام الشيخ بعمل كأنه أراد به أن يترجم عملياً موقفه إلى جوار شعبه في مطالبه، واعتراضه على نفي الشرفاء منهم إلى الهند، فأعلن عن نظام أساس للحكم، أو دستور ينظم القوانين الأساسية في الدولة، والأنظمة الإجرائية المسنونة آنذاك، وذلك في سنة (١٣٣٨هـ / ١٩٢٠م)، وضعه على أساس الشريعة الإسلامية التي هي مصدر التشريع في البلاد.

ولعل هذا النظام كان أحد الأسباب المباشرة التي دفعت بريطانيا - متمثلة في وكيلها السياسي بالبحرين - إلى أن يقيّد فعالية الشيخ ويقصيه عن اتخاذ القرار في البحرين.



والمطلع على هذا النظام يعي جيداً أن الشيخ عيسى بن علي صاحب ديانة، ورجل دولة من الطراز العالي، فلقد تضمن نظام الأساس أربعة فصول أساسية:

الأول: القانون الأساسي للدولة.

الثاني: قانون الأنظمة الإجرائية.

الثالث: ما يتعلق بالبلدية.

الرابع: قانون البوليس والشرطة.

وهذا النظام تمّ نشره بين الناس والعمل به، بعد تصديق مجلس البلدية وتوقيع الشيخ عيسى على إنفاذه، وجاء في أوله:

«نحن - حاكم البحرين - بناءً على الأمر الصادر بتاريخ (٢٤) ذي القعدة الحرام سنة (١٣٣٨هـ)، و(٢٠) من شهر جولاى - يوليو - (سنة ١٩٢٠م)، بإنشاء إدارة بلدية في مدينة المنامة للعناية بحفظ الصحة ورفاه وفلاح سكانها، ونظراً للنتائج الحسنة التي ظهرت منها، وإلى نتائج دائرة أعمالها وما قامت به من الأعمال النافعة والمشاريع المفيدة، اقتضت إرادتنا أن نوسع سلطتها، ونجدد نظمها».

ولقد راعت النظم والإجراءات التي تضمنها هذا النظام كلّ ما يتعلق بالفرد والمجتمع في الحياة الخاصة أو العامة، وفق ما جاء في الشريعة الإسلامية، والتي يتحقق بها مصالح العباد، ونذكر هنا على سبيل المثال - لا الحصر - قانون تنظيم السيارات، فلقد جاء في المادة الثانية والعشرين للنظام الفقرة الثالثة ما يلي:

ممنوعٌ اختلاطُ الرجال بالنساء الأجنيات في السيارة الواحدة والأصحاب، أما العائلات والأقارب، فلا بأس من ركوبهم جميعاً.

قلت: وهذا يدل على ديانة ورجولة، يندر مثلها اليوم عند الكثير من الرجال، إذ إنها تمنع الوسائل المفضية إلى الفاحشة، ومنها الاختلاط بين الرجال والنساء، وأقول: سبحانه الله، ماذا لو رأى الشيخ حالنا اليوم؟ وماذا عساه أن يقول؟؟ وماذا سيعلق بعض المتهوكين من العلمانيين والليبراليين ومن ينتسب إليهم ويسخر من شريعة الله تعالى؟ فإلى الله المشتكى.



- نماذج مما جاء في نظام الأساس الذي وضعه الشيخ عيسى بن علي رحمه الله:

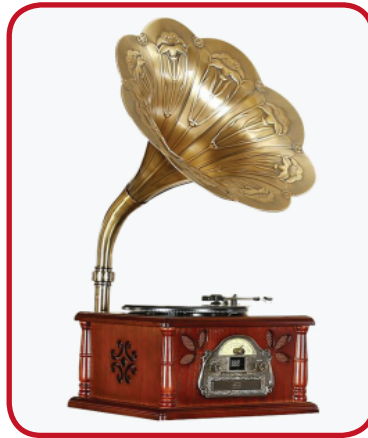
جاء تحت عنوان عامة الممنوعات المادة الثالثة والعشرين ما يدل على استيعاب الشيخ ومعاونيه الذين ساهموا في وضع هذا النظام لمعالم الشريعة الإسلامية ومراعاة المصالح العامة للمجتمع، فقد وضعوا تسعة عشر بنداً كلها تدل على ذلك، ومن ذلك:

١. ممنوع جلب وبيع الأفيون والحشيش وجميع المخدرات والمسكرات كالخمر وغيره.
٢. لا يجوز لأحد من الأجانب القاطنين في البحرين توريد شيء من الخمر بحجة أنه خصيصاً لشربه مالم تكن بأيديهم إجازة من المعتمد البريطاني في البحرين مقدراً له فيها ما يكفيه شهرياً لشربه.
٣. ممنوع لعب القمار في البيوت والقهاوي - المقاهي - والشوراع والطرق.
٤. لا يجوز لأصحاب البيوت أن يأجروا بيوتهم على ذوي القمار والمتجاهرين بالفساد.
٥. كل من يعتمد على تأجير بيته على أولئك يكون مسؤولاً بعد إنذار البلدية إليه.
٦. ممنوع بكل شدة تجاهر النسوة الفاسدات بالفساد جهراً على الأبواب والأزقة وكل من تكون عملها ذلك تطرد بواسطة الحكومة من البلدة إذا هي أجنبية، وأما الوطنية فتعاقب بواسطة الحكومة أيضاً.
٧. ويجوز إبعاد كل مشتبّه بأفعاله سواء من الرجال أم النساء إذا اشتكوا من أذيته مجاوريه إلى محلة أخرى.
٨. ممنوع ضرب - ضرب - الطبول وآلات الملاهي على اختلاف أنواعها من بعد الساعة الرابعة من الليل - عصراً - إلا لذي مأذونية من إدارة البلدية للعرس أو النذر أو شيء من الأفراح.
٩. ممنوع بكل شدة ضرب الطنبور (آلة موسيقية)، وإقامة حفلات الزار، ليلاً كان أم نهار، والمتعمد لفعل ذلك يعاقب بأشد العقوبات الصارمة.



الطنبور (من آلات العزف)

١٠. ولا يجوز تفتيح الفنوغراف^(١) بعد الساعة الخامسة عربي من الليل - عصراً - في فصول الصيف، وأما في الشتاء، فيجوزُ على حسب رغبة صاحب البيت، إن شاء شطراً من الليل أو الليل كله.



الفنوغراف

١١. ممنوع على أصحاب القهاوي - سواء في السوق أو في البلدة - استعمال الفنوغراف، أو ضرب بطبل أو ضرب أي آلة من آلات الغناء أو الغناء نفسه، فالذي يتعمد ذلك ستوصد قهواته بواسطة البوليس.

١٢. ممنوع اختلاط الرجال بالنساء في المياه الداخلية أو الخارجية.

١٣. ممنوع اتخاذ الألعاب الرياضية وغير الرياضية، ما لم تكن بيد أصحابها إجازةً من البلدية، وذلك بعد دفع الرسوم.

(١) الجهاز الخاص بتشغيل أسطوانات الموسيقى.

١٤. ولا يجوز للنساء أن يذهبن إلى المياه الخارجية، إلا في الأسبوع مرتين، وذلك يوم الجمعة والإثنين، وممنوع ذهابهن بتاتاً إلى عين عذاري، ولا بأس من ذهابهن إلى بابها، كما لا يجوز للرجال الذهاب للمياه في اليومين المذكورين أعلاه، ما عدا عين عذاري. ولم يخلُ نظام الأساس من وضع قائمة بنود خاصة لحرمة شهر رمضان المبارك، ولقد جاءت البنود تحت عنوان: حرمة شهر رمضان المبارك:

١. يحظر على العموم من وطنيين وأجانب، مسلمين وغير مسلمين، التدخين والأكل والشرب في شهر رمضان المبارك نهائياً في الطرق والشوارع.
٢. ممنوع فتح القهواوي والمطاعم، سراً كان أم جهرًا، طيلة شهر رمضان المبارك، ولا بأس من فتحها ليلاً.
- كما جاء في نظام الأساس بنود تهتم بالحفاظ على النظافة العامة والحالة الصحية للمواطن، منها:

١. ممنوع رمي الخمام «النفايات والمهملات» في الأزقة والشوارع.
٢. ممنوع التغوط ونشر البول في الأزقة والشوارع، إلا في الأماكن المعدة لذلك.
٣. ممنوع صب فضلات المياه في الطرق والشوارع.
٤. ممنوع رمي الحيوان الميت على الأسياف^(١)، أو بالطرق أو في المزابل أو في البر، بل على صاحبه إخبار إدارة البلدية، فهي المكلفة به من بعد أخذها الرسم عن كل رأس من الأغنام.
٥. لا يجوز لأحد ما أن يُطَبَّبَ بالحكمة، ما لم يكن لديه شهادة رسمية من كليات الطب، ومصديق عليها من جانب المعتمد السياسي في البحرين، ومن طبيب الحكومة أيضاً، وكلّ طبيب لا توجد لديه شهادات تخول له التطبيب والمعالجة عقاباً الطرد من البحرين، إذا هو أجنبي، ويعاقب الوطني بواسطة الحكومة.

(١) الأسياف: جمع سيف، ويقصد به سيف البحر، وهو الحد الساحلي: أي يمنع رميها على شواطئ وسواحل البحر.



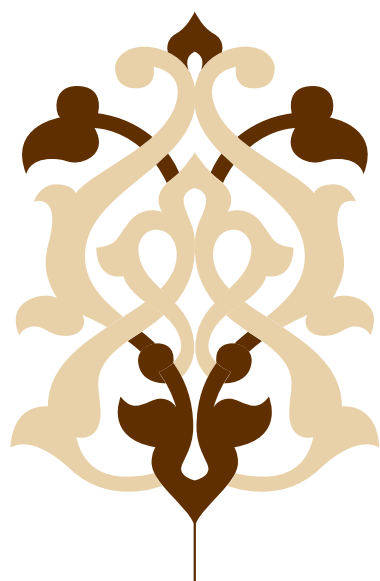
٦. ممنوع على أصحاب المطاعم والقهاوي إطعام المصابين بالأمراض المعدية.
 ٧. لا يجوز لأي فرد من الأفراد أن يحزّ كلباً، ما لم يأخذ له رخصة من إدارة البلدية بعد دفع الرسوم عنه في كلّ سنة خمس روبيات، ووضع النمر عليه، وللبلدية الحق بقتل كلّ كلب، لم يدفع عنه الرسوم، ولم تكن عليه النمرة، وذلك بعد إخطار صاحبه لمدة لا تقل عن سبعة أيام.
 ٨. ممنوع على السقاين أخذ ماء الشرب من غير المحلّ المعروف: بشريعة الصاغة.
 ٩. ممنوع التغسيل بالصابون في العيون الداخلية كالآبار الإرتوازية، والعيون الخارجية، أيضاً إلا في الأماكن المعدة للغسيل.
 ١٠. ويحظر على عموم الجزارين ذبح الأغنام وغيرها في غير المحلّ المعدّ من جانب البلدية، كما أنهم ممنوع عليهم جلب الحيوان المريض والضعيف إلى المذبح، وللمأمور البلدية السلطة بترجيع الضعيف من الأغنام، والقبض على المريض منها، في حين جلبها إلى المذابح.
- ومما تضمنه قانون نظام الأساس، قانون رعاية الحيوان، ومما جاء فيه:
١. ممنوع تحميل الدواب كالحمير وغيرها زيادةً على طاقتها.
 ٢. ممنوع تشغيل الحيوانات الضعيفة المصابة بالقروح.
 ٣. ممنوع أذية جميع الحيوانات على اختلاف أصنافها من ذات الرجلين والأربع.
- كما جاء في قانون البوليس التعليمات الملزمة لرجال الشرطة بإزالة كلّ ما يخالف القوانين العامة وملاحظة ومتابعة الحياة العامة في المجتمع، ومن ذلك:
١. منع المنجمين والمتسولين بالطرق والمحلات العمومية.
 ٢. منع بيع الصور والألعاب المخلة بالآداب.
 ٣. منع كلّ من يغتسل بحالة منافية للآداب، وكل من وجد بالطرق العمومية على هذه الحالة.

٤. القبض على كل من وجد بحالة سكر، بين الطرق والمحلات العمومية.
 ٥. القبض على كل من يحض المارين على الفسق، بالطرق والمحلات العمومية.
 ٦. ضبط أوراق المصاحف الشريفة، وكُتُب الأحاديث النبوية، التي تستعمل في لف البضايح عند أصحاب الدكاكين.
- كما جاء تحت بنود الآداب العمومية:

١. لا يجوز لأحد كشف عورته حين دخوله البحر، أو عند غسله في العيون الخارجية، أو على الآبار الإرتوازية.
 ٢. ممنوع الرقص، وكل ما يخالف الآداب في الشوارع والطرق.
- هذه أمثلة مما وضعه الشيخ رحمه الله في «نظام الأساس» لدولة البحرين في زمانه، وحرى بنا النظر فيها، وتأملها، والعمل بما يتواءم منها مع طبيعة عصرنا، مما تحث عليه الشريعة الغراء.

وهكذا ظل الشيخ عيسى بن علي يعمل بكل ما أوتي من قوة، برغم تقدم عمره وطعنه في السن، لكنه كان مثابراً وجاداً للارتقاء بالبحرين والمحافظة على هويتها، والسهر على أمنها وأمانها، حتى وافته المنية، وهو قائم يصلي صلاة الفجر، من يوم العاشر من شعبان سنة (١٣٥١هـ) الموافق للتاسع من ديسمبر (١٩٣٢م)، وله من العمر ست وثمانون سنة قمرية (ثلاث وثمانون سنة شمسية)، قضى منها نحو خمس وستين سنة حاكماً للبحرين، يبذل ويرعى ويعطي، ونحسبه أنه قد خُتم له بخير، فرحمه الله رحمة واسعة، وعفا عنه، وأسكنه فسيح جناته، وقد مات رحمه الله تاركاً خلفه دولة قائمة بحدودها الجغرافية، ومعالمها السياسية، ونظمها الإدارية، لها مقامها بين دول العالم.

أدام الله البحرين، وأبقاها على الخير، وحفظ لها دينها، وحفظ قادتها، وحكامها، ومحكميها، بلطفه وكرمه، وأجاد عليهم من واسع رحمته، وهدى ضالهم، وردّه إلى دينه رداً جميلاً، والحمد لله رب العالمين.



المصادر والمراجع



١. أبجد العلوم - صديق حسن القنوجي - عناية عبد الجبار زكار - وزارة الثقافة والإرشاد القومي - دمشق - ١٩٧٨ م.
٢. الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر - د. محمد محمد حسين - مؤسسة الرسالة - ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٦ م.
٣. أثر أهل الكتاب في الفتن والحروب الأهلية في القرن الأول الهجري - د. جميل عبد الله المصري - مكتبة الدار - المدينة المنورة ١٩٨٩ م.
٤. أحداث مثيرة في تاريخ الخليج العربي - مركز الذاكرة - القاهرة ٢٠١٠ م - ط ١.
٥. الأحواز - د. صالح أحمد العلي - الدار العربية للموسوعات ١٤٣١ هـ / ٢٠١٠ م.
٦. أخبار الخليج العربي التاريخية في مجلتي لغة العرب والعرب والهندسة - أ. د. طارق نافع الحمداني - دار الوراق - بغداد ٢٠١٠ م.
٧. استشهاد الحسين - الطبري (ت: ٣١٠) - تحقيق د. سيد الجميلي - دار الريان للتراث - مصر - ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م.
٨. الاستيعاب في معرفة الأصحاب - يوسف بن عبد البر - تحقيق علي محمد البجاوي - نهضة مصر - القاهرة.
٩. الإسلام في القرن العشرين - عباس محمود العقاد - هندأوي - القاهرة - ٢٠١٢ م.
١٠. الإسلام والحضارة الغربية - د. محمد محمد حسين / المكتب الإسلامي - بيروت - ط ١ ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م.
١١. الإسلام والحضارة الغربية - د. محمد محمد حسين - مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م.
١٢. الإصابة في تمييز الصحابة - أحمد بن حجر العسقلاني - تحقيق عادل أحمد - علي معوض - ط ١ - دار الكتب العالمية - بيروت - ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م.
١٣. أصول الكافي - محمد الكليني - تحقيق محمد جعفر - دار المعارف - سورية - ١٤١١ هـ / ١٩٩٠.
١٤. أطلس تاريخ الإسلام د. حسين مؤنس - دار الأزر - مصر.
١٥. أطلس تاريخ الحضارات - د. سيف الدين الكاتب - دار الشرق العربي - بيروت ١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧ م.
١٦. الأعلام - خير الدين الزركلي - ط ١٤ - دار العلم للملايين - بيروت - ١٩٩٩ م.
١٧. الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ - محمد السخاوي - تحقيق مراكز روزنثال - ترجمة صالح العلي - ط ١ - الرسالة - بيروت - ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٦ م.
١٨. إغاثة اللفهان في مصايد الشيطان - ابن قيم الجوزية - تحقيق علي الحلبي - ط ٢ - دار ابن الجوزي - الدمام - ١٤٢٧ هـ.
١٩. اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم - أحمد بن تيمية - ط ٦ - دار العاصمة - الرياض - مركز الدعوة والإرشاد - الدوحة - ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م.
٢٠. الإكسير في فكك الأسير - محمد بن عثمان المكناس - المركز الجامعي للبحث العلمي - الرباط - ١٩٦٥ م.
٢١. ألبوم السلاطين العثمانيين - الرسام قسطنطين - ط ٢ - دار كاكوس - إسطنبول - ٢٠١٥ م.

٢٢. ألبوم العثمانيين - عبد القادر ده ده أغلو - ترجمة محمد جان - الدار العثمانية للنشر - إستانبول.
٢٣. إمارة النصور الخالدية - الشيخ جبارة بن حاتم النصورى الخالدي - الدار العربية للموسوعات - بيروت ١٤٣٤هـ / ٢٠١٣م.
٢٤. إمارة النصور الخالدية - جبارة الخالدي - تحقيق محمد خليل - ط ١ - الدار العربية للموسوعات - بيروت - ١٤٣٤هـ / ٢٠١٣م.
٢٥. إمام الأئمة وقائدها (أبو بكر الصديق) - د. محمد حامد الخليفة - دار الإيوان - الرياض - ط ١ ١٤٣٢هـ / ٢٠١١م.
٢٦. أمراء عرب المهولة - عبد الله دريائي - الدار العربية للموسوعات - بيروت (لبنان) ١٤٣٣هـ / ٢٠١٢م.
٢٧. الانحرافات العقيدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر وآثارهما في حياة الأمة - علي بن نجيب الزهراني - دار طيبة - مكة المكرمة - ط ٢ - ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م.
٢٨. الإنصاف فيما وقع في العصر الراشدي من خلاف - د. حامد محمد الخليفة - دار القلم - دمشق - ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م.
٢٩. الإيجاز في تاريخ البصرة والحجاز ونجد والأحساء - عارف مرضي الفتح - الدار العربية للموسوعات - بيروت.
٣٠. البحرين عبر التاريخ - الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة، د. أبا حسين - مركز الوثائق التاريخية - مملكة البحرين ٢٠٠٥م.
٣١. البحرين في صدر الإسلام - عبد الرحمن العاني - ط ١ - الدار العربية للموسوعات - بيروت - ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م.
٣٢. البداية والنهاية - الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي - تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي - ط ٢ - دار عالم الكتب - الرياض - ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م.
٣٣. البدر الطالع لمحاسن من بعد القرن التاسع - الشوكاني - دار الكتاب الإسلامي - القاهرة.
٣٤. بلاد الشام في العهد العثماني - بحوث مركز إرسىكا - منظمة المؤتمر الإسلامي - مكتبة إرسىكا - إستانبول - ٢٠٠٥م.
٣٥. البلاد العربية في الوثائق العثمانية - فاضل بيات - ط ٢ - مكتبة إرسىكا - إستانبول - ٢٠١٥م.
٣٦. بنو إسرائيل في ميزان القرآن - البهي الخولي - دار القلم - دمشق ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م.
٣٧. البيان المغرب في إظهار أخبار ملوك الأندلس والمغرب - أحمد عذارى - تحقيق بشار عواد وولده - ط ١ - دار الغرب الإسلامي - تونس - ١٤٣٤هـ / ٢٠١٣م.
٣٨. تاريخ الأستاذ الإمام - محمد رشيد رضا - دار الفضيلة - ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م.



٣٩. تاريخ الإسلام - الحافظ محمد الذهبي - تحقيق عمر تدمري - ط ١ - دار الكتاب العربي - بيروت - ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م.
٤٠. تاريخ الأندلسي - عبد الرحمن حجي - وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - قطر - ١٤٣٣هـ / ٢٠١٢م.
٤١. تاريخ البحرين الحديث - محمد أحمد ، بشير زين العابدين - ط ١ - جامعة البحرين - مملكة البحرين - ٢٠٠٩م.
٤٢. تاريخ البحرين السياسي والاجتماعي والثقافي الحديث - أ.د طارق نافع الحمداني - دار الوراق - بغداد - ٢٠١٠م.
٤٣. تاريخ الخلفاء الراشدين - د. محمد بن إبراهيم أبا الخيل - دار الهدي النبوي - مصر - دار الفضيلة - السعودية ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.
٤٤. تاريخ الدولة العثمانية - يلماز أوزتونا - ترجمة عدنان سلمان - ط ١ - مؤسسة فيصل للتمويل - تركيا - ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
٤٥. تاريخ الدولة العلية العثمانية - محمد فريد بك المحامي - تحقيق إحسان حقي - ط ٢ دار النفائس - بيروت - ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.
٤٦. تاريخ بني زيان ملوك تلمسان - محمد بن عبد الله التنسي - تحقيق محمود آغا بو عباد - موفم للنشر - الجزائر - ٢٠١١م.
٤٧. تاريخ خليفة بن خياط - تحقيق أكرم العمري - ط ٢ - دار طيبة - الرياض - ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
٤٨. تاريخ عرب الهولة - محمد غريب حاتم - المؤسسة العربية للدراسات والنشر ٢٠٠٣م.
٤٩. تاريخ عرب الهولة والعتوب - جلال خالد هارون الأنصاري - الدار العربية للموسوعات - لبنان - ١٤٣٢هـ / ٢٠١١م.
٥٠. التحفة النبهاية في تاريخ الجزيرة العربية - محمد خليفة النبهاية - المكتبة الوطنية ٢٠١٠م - ط ٢ البحرين - المؤسسة العربية للنشر - بيروت.
٥١. التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان - محمد ناصر الدين الألباني - ط ١ - دار باوزير - جدة - ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م.
٥٢. تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد - سليمان آل الشيخ - تحقيق أسامة عطايا - ط ٢ - دار الصميعي - الرياض - ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م.
٥٣. جامع بيان العلم وفضله - يوسف بن عبد البر - تحقيق أبو الأشبال - ط ١ - دار ابن الجوزي - الدمام - ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.
٥٤. الجامع لشعب الإيمان - أحمد البيهقي - تحقيق عبد العلي عبد الحميد حماد - دار السلفية - الهند - وزارة الأوقاف والشؤون القطرية - الدوحة - ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م.

٥٥. جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس - محمد الحميدي - تحقيق بشار عواد وولده - ط ١ - دار الغرب الإسلامي - تونس - ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م.
٥٦. الحياة الأدبية في جزيرة العرب - طه حسين - ط ١ - مكتب النشر العربي - دمشق - ١٤٣٥هـ / ١٩٣٥م.
٥٧. الحياة العلمية في وسط الجزيرة العربية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر وأثر دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب فيها - د. أحمد عبد العزيز البسام - دار الملك ٢٠٠٥م / ١٤٢٦هـ.
٥٨. خصائص جزيرة العرب - بكر بن عبد الله أبو زيد - ط ٣ - أضواء البيان - الرياض - ١٤٢١هـ.
٥٩. الخليج العربي تاريخه حاضره ومستقبله - عماد محمد الحفيظ - ط ١ - دار صفاء للنشر - الأردن - ١٤٣٥هـ / ٢٠١٤م.
٦٠. دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية - سعود الخلف - ط ٥ - أضواء السلف - الرياض - ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م.
٦١. دراسات في تاريخ الدولة العثمانية - د. صبحي عبد المنعم / د. عبد الحميد سليمان - مكتبة الرشد - الرياض - ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م.
٦٢. الدرر الجليلة في تاريخ بني جميلة - صلاح الجميلي - ط ١ - دار الكتب المصرية - القاهرة - ٢٠١١م.
٦٣. الدروس المستفادة من العقوبات الإلهية في القرآن الكريم قبل الرسالة المحمدية - عبد الهادي الشمراني / دار ابن الجوزي - السعودية ١٤٢٧هـ.
٦٤. دعوة جماعة قاضي زاده الإصلاحية في الدولة الإسلامية قبل ظهور دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب وقيام الدولة السعودية - محمد داود كوري - تحرير عبد الحق التركماني - دار اللؤلؤة - بيروت - ١٤٣٨هـ / ٢٠١٧م.
٦٥. دليل الخليج - ج. ج. لوريمر / الديوان الأميري لدولة قطر.
٦٦. الدور السياسي لليهود الدونمة في تركيا - أحمد نور النعيمي - جمعية الدعوة الإسلامية - ليبيا - ط ١ - ٢٠٠١م.
٦٧. دول الإسلام - الحافظ محمد الذهبي - تحقيق حسن مروة - ط ١ - دار صادر - بيروت - ١٩٩٩م.
٦٨. دولة الإسلام في الأندلس - محمد عثمان - ط ٤ - مكتبة الخانجي - القاهرة - ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.
٦٩. الدولة العثمانية المجهولة - د. أحمد آق كوندز، د. سعيد أوزتورك - وقف البحوث العثمانية - ٢٠١٤م.
٧٠. الدولة العثمانية تاريخ وحضارة - إكمال الدين إحسان أوغلي - ترجمة صالح سعداوي - منظمة المؤتمر الإسلامي - إسطنبول - ١٩٩٩م.
٧١. الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها - د. عبد العزيز الشناوي - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة - ١٩٩٢م.
٧٢. الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط - علي الصلاب - ط ١ - دار البيارق - بيروت - ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.



٧٣. الدولة العثمانية وعلاقتها بالعالم الإسلامي - د. مصطفى رمضان - جامعة الأزهر - القاهرة - ١٩٨٤ م.
٧٤. رأس الحسين - ابن تيمية - تحقيق د. سيد الجميلي - دار الريان للتراث - مصر - ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م.
٧٥. الرحيق المختوم - صفى الرحمن المباركفوري - ط ٢ - دار ابن حزم - بيروت - وزارة الأوقاف والشؤون القطرية - الدوحة - ١٤٣٠ هـ / ٢٠٠٩ م.
٧٦. الرد على المنطقيين - ابن تيمية - ط ٣ - معارف الزهور - باكستان - ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م.
٧٧. الرسالة القبرصية - ابن تيمية - تحقيق قصير محمد الدين - ط ١ - المطبعة السلفية - القاهرة - ١٣٩٤ هـ.
٧٨. الروضتين في أخبار الدولتين - عبد الرحمن المقدسي أبو أسامة - تعليق إبراهيم عز الدين - ط ١ - دار الكتب العالمية - بيروت - ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠٢ م.
٧٩. زاد المعاد في هدي خير العباد - ابن قيم الجوزية - ط ٢ - جمعية إحياء التراث الإسلامي - الكويت - ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م.
٨٠. سكك حديد الحجاز - د. سيد الدقن - مطبعة الجبلاوي - القاهرة - ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م.
٨١. سلسلة الأحاديث الصحيحة - محمد ناصر الدين الألباني - ط ١ - مكتبة المعارف - الرياض - ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠٢ م.
٨٢. السلطان محمد الفاتح - محمد سالم الرشيد - ط ٢ - دار البشير - مصر - ٢٠١٣ م.
٨٣. السلوك لمعرفة دول الملوك - أحمد المقرئ - تحقيق محمد عطا - ط ١ - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م.
٨٤. السنة الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية - د. عبد الكريم زيدان - مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م.
٨٥. السودان في العصر العثماني - ترجمة صالح سعداوي - مكتبة إرسিকা - إستانبول - ٢٠٠٧ م.
٨٦. السياسة والأزهر - مذكرات الشيخ الطواهري - مطبعة الاعتماد - القاهرة - ١٣٦٤ هـ / ١٩٤٥ م.
٨٧. سير أعلام النبلاء - شمس الدين الذهبي - تحقيق شعيب الأرنؤوط - ط ٢ - الرسالة - بيروت - ١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٨ م.
٨٨. السيرة النبوية - ابن هشام - تحقيق عمر عبد السلام الترمذي - ط ٣ - دار الكتاب العربي - بيروت - ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م.
٨٩. شذرات الذهب في أخبار من ذهب - ابن العماد الإمام شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي الدمشقي - إشراف عبد القادر الأرنؤوط - تحقيق محمود الأرنؤوط - ط ٢ - دار ابن كثير - بيروت - لبنان - ١٤٣٧ هـ / ٢٠١٦ م.
٩٠. شرح السنة - حسين البغوي - تحقيق شعيب الأرنؤوط - زهير الشاويش - ط ٢ - المكتب الإسلامي - سورية - ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م.



٩١. شرح العقيدة الطحاوية - ابن أبي العز الحنفي - تخرج الشيخ محمد ناصر الدين الألباني - وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - قطر - ١٤٣٥هـ / ٢٠١٤م.
٩٢. شرح لمعة الاعتقاد - صالح آل الشيخ - ط ١ - دار المناهج - الرياض - ١٤٣٢هـ.
٩٣. الشريعة - الإمام أبو بكر محمد بن الحسين الآجري - تحقيق عصام موسى هادي - ط ١ - دار الدليل الأثرية - الجليل - السعودية - ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م.
٩٤. شمس العرب تسطع على الغرب - زجريد هونكة - ترجمة فاروق بيضون وزميله - ط ٨ - دار الجليل - بيروت - ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م.
٩٥. صحيح الجامع الصغير وزيادته - عبد الرحمن السيوطي - تحقيق محمد ناصر الدين الألباني - ط ٣ - المكتبة الإسلامية - بيروت ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.
٩٦. صحيح السيرة النبوية - محمد ناصر الدين الألباني - ط ١ - المكتبة الإسلامية - الأردن - ١٤٢١هـ.
٩٧. صحيح سنن ابن ماجه - تحقيق محمد ناصر الدين الألباني - مكتبة التربية العربية لدول الخليج - الرياض - ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.
٩٨. صحيح سنن أبي داود - تحقيق محمد ناصر الدين الألباني - مكتبة التربية العربية لدول الخليج - الرياض - ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.
٩٩. صحيح سنن الترمذي - تحقيق محمد ناصر الدين الألباني - مكتبة التربية العربية لدول الخليج - الرياض - ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.
١٠٠. صحيح سنن النسائي - تحقيق محمد ناصر الدين الألباني - مكتبة التربية العربية لدول الخليج - الرياض - ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.
١٠١. صحيح مسلم بشرح النووي - تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي - ط ١ - دار الكتب العالمية - بيروت - ١٤١٥هـ / ١٩٢٥م.
١٠٢. صفة جزيرة العرب - الحسن الهمداني - تحقيق محمد الحوالي - ط ١ - مكتبة الإرشاد - صنعاء - ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م.
١٠٣. صفة صلاة النبي صلى الله عليه وسلم - محمد ناصر الدين الألباني - ط ٢ الجديدة - مكتبة المعارف - الرياض - ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م.
١٠٤. الطبقات الكبرى - ابن سعد - دار الكتب العلمية - بيروت ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م.
١٠٥. الطبقات الكبرى - محمد بن سعد - تحقيق محمد بن عبد القادر عطا - ط ٢ - دار الكتب العالمية - بيروت - ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م.
١٠٦. طه حسين من الانبهار بالغرب إلى الانتصار للإسلام - محمد عمارة - مجلة الأزهر هدية - ١٤٣٥هـ / ٢٠١٤م.



١٠٧. العالم الإسلامي في التاريخ الحديث والمعاصر - مصطفى رمضان - الجبلاوي - القاهرة - ١٩٨٥ م.
١٠٨. العبر ديوان المبتدأ والخبر - عبد الرحمن بن خلدون - تحقيق أبو صهيب الكرمي - بيت الأفكار الدولية.
١٠٩. العبر ديوان المبتدأ والخبر - عبد الرحمن بن خلدون - تحقيق خليل شحادة - سهيل زكي - دار الفكر - بيروت - ١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠ م.
١١٠. العتوب وقبائل الخليج العربي - عبد الله حسين آل بن علي - ط ١ - دار ابن زيدون - دمشق - ١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧ م.
١١١. العثمانيون في التاريخ والحضارة - د. محمد حرب - دار القلم - دمشق - ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٢ م.
١١٢. عجائب الآثار في التراجم والأخبار - عبد الرحمن الجبرتي - المطبعة الأميرية.
١١٣. عجائب الآثار في التراجم والأخبار - عبد الرحمن الجبرتي - تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن - ط: بولاق - دار الكتب المصرية - القاهرة - ١٩٩٧ م.
١١٤. عصر الخلافة الراشدة - د. أكرم ضياء العمري - مكتبة العبيكان - الرياض - ١٤٣٠ هـ / ٢٠٠٩ م.
١١٥. عصر دويلات الإسلام (الدويلات الإسلامية في المغرب والمشرق من الميلاد إلى السقوط) - يوسف علي بديوي - دار وحي القلم - مؤسسة كمبيو تايب قرطاج - دمشق - ١٤٣١ هـ / ٢٠١١ م.
١١٦. عقد الدرر - إبراهيم صالح الحنبلي - الأمانة العامة للاحتفال بمرور مئة عام - الرياض - ١٤١٩ هـ / ١٩٩٩ م.
١١٧. العقيدة الواسطية - شيخ الإسلام ابن تيمية - شرح محمد خليل هراس - ط ٨ - الدرر السنية - الظهران - ١٤٣٦ هـ / ٢٠١٥ م.
١١٨. العلاقات التركية اليهودية - د. هدى علي درويش - دار القلم - دمشق - ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م.
١١٩. علاقات مصر بالدول الأفريقية في العصور الوسطى - حامد عمار - ط ١ - الدار العربية للكتاب - القاهرة - ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م.
١٢٠. عنوان المجد في تاريخ نجد - عثمان بشر - مكتبة الملك عبد العزيز الوطنية - الرياض - ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م.
١٢١. العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ - تأليف القاضي أبي بكر بن العربي - تحقيق د. عمار طالبي - مكتب دار التراث - مصر.
١٢٢. عودة الحجاب (معركة الحجاب والسفور) - محمد بن أحمد بن إسماعيل - دار طيبة - الرياض.
١٢٣. غذاء الألباب شرح منظومة الآداب - محمد السفاريني - تحقيق محمد الخالدي - ط ١ - دار الكتب العالمية - بيروت - ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م.
١٢٤. الغزو الصليبي والعالم الإسلامي - علي محمود - ط ١ - دار التوزيع الإسلامي - القاهرة - ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م.



١٢٥. فتح الباري في شرح صحيح البخاري - أحمد بن حجر العسقلاني - ط ١ - دار السلام - الرياض - ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م.
١٢٦. الفرق بين الفرق - عبد القاهر البغدادي - تحقيق محمد الخشت - مكتبة ابن سينا - مصر.
١٢٧. الفصول في اختصار سيرة الرسول ﷺ - ابن كثير - تحقيق عبد الحميد درويش - ط ٢ - دار النوادر - سورية - ١٤٣٢هـ / ٢٠١١م.
١٢٨. فضائح الباطنية - أبو حامد الغزالي - تحقيق عبد الرحمن البدوي - دار الكتب الثقافية - حولي.
١٢٩. فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوروبية - عز الدين فراج - دار الفكر العربي - القاهرة - ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م.
١٣٠. فوات الوفيات - محمد بن شاكر - تحقيق إحسان عباس - ط ١ - دار صادر - بيروت - ١٩٧٣م.
١٣١. في تاريخ العرب قبل الإسلام - سعد زغلول - دار النهضة العربية - بيروت.
١٣٢. قراءة جديدة في التاريخ العثماني - د. زكريا سليمان بيومي - علم المعرفة - جدة - ١٤١١هـ / ١٩٩١م.
١٣٣. قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا التوسعية في الجزيرة العربية والسودان واليونان وسورية - د. سليمان الغنام - المركز الثقافي العربي - الدار البيضاء - المغرب - ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م.
١٣٤. القرامطة - عبد الرحمن بن الجوزي - تحقيق محمد لطفي الصباغ - ط ٥ - المكتب الإسلامي - دمشق - ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.
١٣٥. قصص الأنبياء - ابن كثير - ط ١ - مؤسسة الريان - بيروت - وزارة الأوقاف القطرية - قطر - ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م.
١٣٦. القول المفيد على كتاب التوحيد - الشيخ محمد بن صالح العثيمين - ط ٢ - دار ابن الجوزي - الرياض - ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م.
١٣٧. الكامل في التاريخ - علي بن الأثير - ط ٤ - مؤسسة التاريخ العربي - بيروت - ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.
١٣٨. الكتاب الأقدس - المزنداني - كتاب المقدس - الشبكة العنكبوتية.
١٣٩. كتاب التاريخ الإسلامي - محمود شاكر - المكتب الإسلامي - ١٩٩١م.
١٤٠. كتاب تاريخ الخليج العربي ومصادره في العصر الحديث - أ. د. طارق نافع الحمداني - دار الوراق - بغداد - ٢٠١٠م.
١٤١. كتاب فضائل الصحابة والدفاع عن كرامتهم - عبد الله عبد القادر التليدي - دار ابن حزم - بيروت - لبنان - ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
١٤٢. كشف القناع - منصور البهوتي - عالم الكتب - بيروت - ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.
١٤٣. كنز الأنساب ومجمع الآداب - حمد الحقييل - ط ١٤ - الدار الوطنية السعودية - الرياض - ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م.

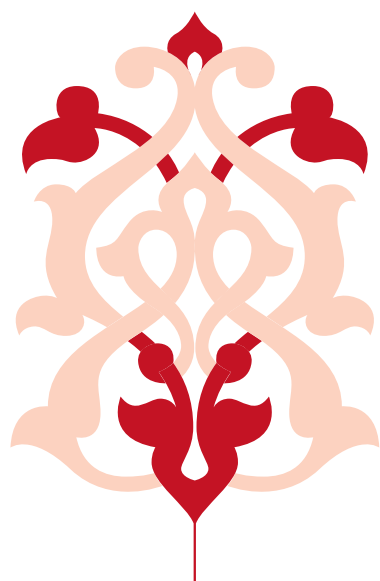
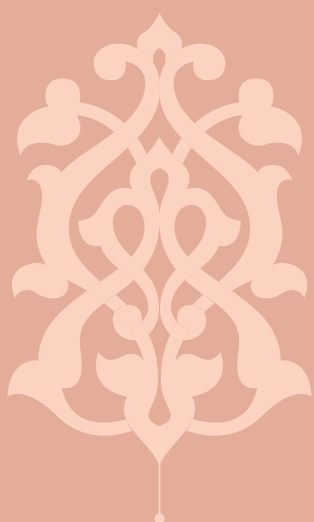


١٤٤. لطائف المنن - ابن عطاء الله السكندري - تحقيق عبد الحليم محمود - ط ٢ - دار المعارف - القاهرة.
١٤٥. مكانة البحرين في التاريخ الإسلامي - الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة - د. علي آبا حسين - ط ١ - مركز الوثائق التاريخية - البحرين - ٢٠٠٥ م.
١٤٦. مئة عام من التعليم النظامي في البحرين - مي الخليفة - المدرسة العربية للدراسات والنشر - ١٩٩٩ م.
١٤٧. مبلغ الأدب في فخر العرب - ابن حجر الهيتمي - تحقيق يسرى عبد الغني - ط ١ - دار الكتب العالمية - بيروت - ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م.
١٤٨. مجلة الهلال المصرية - جرجي زيدان - مطبعة الهلال - القاهرة.
١٤٩. مجموع الفتاوى - ابن تيمية - تحقيق عبد الرحمن بن قاسم وولده - مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف - المدينة المنورة - ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م.
١٥٠. مجموع الفتاوى - شيخ الإسلام ابن تيمية - تحقيق أنور الباز - ط ٣ - دار الوفاء - مصر - ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م.
١٥١. مجموعة أحزاب و أولاد ابن العربي - خواجه كمشخانوي - تحقيق عاصم الكبالي - دار الكتب العالمية - بيروت - ٢٠١٣ م.
١٥٢. محاضرات في تاريخ أوروبا المعاصرة - محمد علي حلة - كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر - قسم التاريخ والحضارة - ١٩٨٦ م.
١٥٣. محمد بن خليفة الأسطورة والتاريخ الموازي - مي الخليفة / دار الجديد ١٩٩٦ م.
١٥٤. المختار من مناقب الأخيار - المبارك ابن الأثير - تحقيق مأمون الصاغرجي وزملاؤه - ط ١ - مركز زايد للتراث - العين - ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م.
١٥٥. المختصر في أخبار البشر - عماد الدين أبو الفدا - ط ١ - المطبعة الحديثة المصرية.
١٥٦. المختصر في علم التاريخ - يحيى الدين الكافيحي - تحقيق محمد عز الدين - ط ١ - عالم الكتب - بيروت - ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م.
١٥٧. المدارس الأجنبية المسيحية والعلمانية من أعمال المبشرين - محمد سعيد العرفي - مركز الدوريات العربية - سورية - دمشق - ط ١ - ١٤٣٦ هـ / ٢٠١٥ م.
١٥٨. المدارس العالمية - بكر أبو زيد - دار ابن حزم - القاهرة - ١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ م.
١٥٩. مذكرات السلطان عبد الحميد - تقديم وترجمة د. محمد حرب - دار القلم - دمشق - ١٤١٢ هـ / ١٩٩١ م.
١٦٠. المستدرك - الحاكم - تحقيق مصطفى عطا - ط ٢ - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠٢ م.
١٦١. المستدرك - الحاكم - تحقيق مقبل الوادعي - ط ١ - دار الحرمين - القاهرة - ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م.
١٦٢. المستقصى في أمثال العرب - محمود الزمخشري - تحقيق محمد خان - ط ١ - دائرة المعارف العثمانية - الهند - ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٢ م.

١٦٣. مسلمو الفليين واقع ومشكلات - ناصر أبو العلا - ط ١.
١٦٤. مسند الإمام أحمد بن حنبل - تحقيق شعيب الأرنؤوط - ط ٢ - مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م.
١٦٥. مصر في مطلع القرن التاسع عشر - د. محمود فؤاد شكري - الهيئة العامة لقصور الثقافة - القاهرة - ٢٠١٩م.
١٦٦. مصطلحات التاريخ العثماني (معجم موسوعي مصور) - د. صالح سعداوي صالح - دار الملك عبد العزيز - الرياض - ١٤٣٧هـ / ٢٠١٦م.
١٦٧. مظالم عثمان في محكمة الشرع والعقل - عبد الله بن عبشان الغامدي - دار ابن الجوزي - الدمام - ١٤٣٠هـ.
١٦٨. المعجم الأوسط - سليمان الطبراني - تحقيق طارق عوض الله وعبد المحسن الحسيني - دار الحرمين - القاهرة ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م.
١٦٩. معجم البلدان - ياقوت الحموي - تحقيق فريد عبد العزيز الجندي - دار الكتب العالمية - بيروت.
١٧٠. المعجم الكبير - الطبراني - تحقيق حمدي عبد المجيد - مكتبة ابن تيمية - القاهرة.
١٧١. معجم المناهل اللفظية - بكر أبو زيد - ط ٣ - دار العاصمة - الرياض - ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م.
١٧٢. المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية - سهيل صابان - تحقيق عبد الرزاق بركات - مكتبة الملك فهد - الرياض - ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م.
١٧٣. المغازي - محمد الواقدي - تحقيق مارسدن جونز - ط ٣ - عالم الكتب - بيروت - ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.
١٧٤. مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث - عثمان الشهرزوري - دار الحكمة - دمشق.
١٧٥. مقدمة ابن خلدون - تحقيق عبد الله الدرويش - ط ٢ - دار يعرب - دمشق - ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م.
١٧٦. مقدمة في مصادر وتاريخ البحرين الحديث والمعاصر - د. بشير زين العابدين - مؤسسة الأوراق الجديدة - الكويت ٢٠٠٦م.
١٧٧. مكانة البحرين في التاريخ الإسلامي - تاريخ آل خليفة في البحرين - موسوعة ملك وسيرة - الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة - د. علي أبا حسين - مركز الوثائق التاريخية - البحرين ٢٠٠٥م.
١٧٨. ملخص التاريخ الإسلامي - مطلق بن محمد بن بادي البراق العتيبي.
١٧٩. ملوك العرب - أمين الريحاني - ط ٨ - دار الجيل - بيروت - ١٩٨٧م.
١٨٠. مملكة الحيرة وقبائل نجد وشرق الجزيرة العربية قبل الإسلام - شياء عبد الباقي السمرائي - الدار العربية للموسوعات ١٤٣٣هـ / ٢٠١٢م.
١٨١. من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني - خليل ساحلي - إرسিকা - إستانبول - ٢٠٠٠م.



١٨٢. المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار - أحمد المقرئ - ط ٢ - مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة - ١٩٨٧ م.
١٨٣. الموسوعة الميسرة في التاريخ الإسلامي - فريق بحوث - مؤسسة إقرأ - القاهرة ٢٠٠٧ م.
١٨٤. موسوعة تاريخ الخليج العربي - حسن عبد الغفار - ط ١ - دار طبية - الجزيرة - ٢٠١٢ م.
١٨٥. موسوعة تاريخ الخليج العربي - محمود شاكر - ط ٥ - دار أسامة للنشر - الأردن - ٢٠١١ م.
١٨٦. موسوعة تاريخ الخليج العربي - مصطفى بدر - مركز الراية - القاهرة ١٤٣٠ م / ٢٠٠٩ م - ط ١.
١٨٧. الموطأ - مالك بن أنس - تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي - دار إحياء التراث العربي - بيروت - ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٥ م.
١٨٨. نبذة تاريخية عن نجد - ضاري الرشيد - الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام - الرياض - ١٤١٩ هـ / ١٩٩٩ م.
١٨٩. ندوة مصادر المعلومات عن العالم الإسلامي - مكتبة الملك عبد العزيز العامة - الرياض ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٤ م.
١٩٠. نسب الأيوبيين - تحقيق صلاح الدين المنجد - ط ١ - دار الكتاب الجديد - بيروت - ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م.
١٩١. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب - أحمد المغربي - تحقيق إحسان عباس - دار صاد - بيروت.
١٩٢. نكبة الأمة الإسلامية بسقوط الخلافة العثمانية (دراسة للقضية العربية في خمسين عاماً ١٨٧٥ م / ١٩٢٥ م) - د. محمد محمد حسين - مكتبة وهبة - الخرطوم - ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م.
١٩٣. النهضة الإسلامية - محمد رجب بيومي - دار القلم - دمشق - ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م.
١٩٤. الوافي بالوفيات - صلاح الدين الصفدي - تحقيق أحمد الأرناؤوط - ط ١ - دار إحياء التراث الإسلامي - بيروت ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م.
١٩٥. وثائق الحروب الصليبية - الغزو المغولي للعالم الإسلامي - محمد ماهر حمادة - ط ٢ - دار الرسالة - بيروت - ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م.
١٩٦. الوثيقة - دورية تاريخية محكمة - رئيس التحرير الشيخ عبد الله خالد آل خليفة - مركز الوثائق التاريخية - مملكة البحرين.
١٩٧. الوجه الخفي للانقلاب التركي - مولان زاده رفعت - مطبعة الوقت - حلب - ١٩٢٩ م.
١٩٨. وقفات تربوية مع السيرة النبوية - أحمد فريد - ط ٨ - دار طبية - الرياض - ١٤٢٦ هـ.
١٩٩. اليهود قافلة الشر في التاريخ - محمد إبراهيم مصطفى - غير مؤرخ ولا يوجد مطبعة.



فَهْرِسُ الْمَوْضُوعَاتِ





الصفحة	المحتوى
٥	• الباب الخامس: الخلافة العباسية في مصر
٩	• شجرة نسب العباسيين
١١	• الفصل الأول: أهم الأحداث وأبرز الوقائع في عهد الخلافة العباسية في مصر
١٢	• إمارة العصفوريين
١٤	• إمارة الجبوريين
١٨	• التصدي للمغول ومحاولة استرداد بيت المقدس
١٩	• موقعة شقحب
٢١	• ظهور سلطنة العثمانيين
٢٥	• السلطان عثمان الأول
٢٥	• السلطان أورخان الأول
٢٧	• السلطان مراد الأول
٢٨	• معركة كوسوفا
٢٩	• السلطان بايزيد الأول (الصاعقة)
٣١	• تيمورلنك والتتار
٣٣	• معركة أنقرة
٣٤	• السلطان محمد الأول
٣٦	• السلطان مراد الثاني
٣٩	• السلطان محمد الثاني (الفتاح)
٤٠	• فتح القسطنطينية
٤٥	• وفاة الفاتح ودور اليهود الخبيث
٤٧	• السلطان بايزيد الثاني
٥٠	• سقوط الأندلس
٥٣	• الفصل الثاني: الحملات الصليبية البرتغالية والإسبانية على العالم الإسلامي
٥٨	• رحلات البرتغاليين الاستعمارية
٦٢	• الحملات الصليبية على عذراء ماليزيا
٦٤	• حملات صليبية جديدة
٦٥	• الفصل الثالث: الحملات الصليبية البرتغالية على البحرين والخليج العربي



٦٩	• الفصل الرابع: ظهور الدولة الصفوية في إيران
٧٢	• قيام الدولة الصفوية
٧٦	• الشاه إسماعيل الصفوي
٧٨	• أوهم القوة
٨١	• الفصل الخامس: تراجم خلفاء العباسيين في مصر
٨٢	• الخليفة المستنصر بالله
٨٢	• الخليفة الحاكم بأمر الله
٨٣	• الخليفة المستكفي بالله
٨٤	• الخليفة الواثق بالله إبراهيم
٨٤	• الخليفة الحاكم بأمر الله
٨٥	• الخليفة المعتضد بالله
٨٥	• الخليفة المتوكل على الله
٨٦	• الخليفة المستعصم بالله
٨٦	• الخليفة الواثق بالله محمد
٨٧	• الخليفة المستعين بالله
٨٧	• الخليفة المعتضد بالله
٨٨	• الخليفة المستكفي بالله
٨٨	• الخليفة القائم بأمر الله
٨٨	• الخليفة المستنجد بالله
٨٩	• الخليفة المتوكل على الله الثاني
٨٩	• الخليفة المستمسك بالله
٨٩	• الخليفة المتوكل على الله الثالث
٩١	• الباب السادس: البحرين في عهد الخلافة العثمانية
٩٣	• الفصل الأول: مدخل وتمهيد
٩٤	• الخلافة العثمانية
٩٥	• ضم الشام للدولة العثمانية
٩٦	• معركة مرج دابق
٩٦	• ضم مصر للدولة العثمانية



٩٧	• معركة الريدانية
٩٩	• جدول الخلفاء
١٠١	• الفصل الثاني: أهم المظاهر والأحداث في عصر الخلافة العثمانية
١٠٢	• دولة إسلامية تقيم الشرائع
١١٠	• دولة عسكرية قوية
١١٥	• التوسع العثماني في البلاد العربية
١١٧	• السيادة العثمانية على الجزائر
١١٩	• السيادة العثمانية على ليبيا
١٢٠	• السيادة العثمانية على تونس
١٢٤	• السيادة العثمانية على المغرب الأقصى (مراكش)
١٢٥	• السيادة العثمانية على العراق
١٢٥	• السيادة العثمانية على شرق الجزيرة العربية وإمارات جزر الخليج العربي.
١٢٧	• طبيعة الحكم العثماني للبلاد العربية
١٢٨	• التنظيم الإداري
١٢٩	• النظام التشريعي والقوانين
١٢٩	• التقسيم الإداري للولايات
١٣٠	• الحامية العسكرية
١٣١	• الحياة الاجتماعية
١٣١	• التعليم في الولايات العربية
١٣٢	• الأوضاع الاقتصادية
١٤١	• الفصل الثالث: دعوات الإصلاح الديني
١٤٢	• قيام دعوة الإمام البركوي الإصلاحية وآثارها
١٤٣	• معاصرون للبركوي في طريق الحق
١٤٩	• دعوة قاضي زاده وجماعته (الفقهاء)
١٥٠	• الشيخ الأسطواني
١٥١	• خطوات نحو التغيير وآثارها
١٥٣	• دعوة جماعة الفقهاء في عصر كوبرلو
١٥٦	• امتداد الدعوة: الشيخ صنع الله في حلب



١٥٧	• الشيخ الرومي بالقاهرة
١٥٩	• ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الإصلاحية
١٦٥	• الفصل الرابع: الحركات المناوئة والإنفصالية عن الدولة العثمانية
١٦٧	• حركة فخر الدين المعني الثاني الدرزي بالشام
١٦٩	• حركة علي بك الكبير في مصر
١٧١	• حركة ظاهر العمر بالشام
١٧٣	• الفصل الخامس: الغزو الصليبي الفكري (التنصير)
١٧٦	• نشاط الجمعيات الأدبية والعلمية
١٧٩	• موقف العلماء
١٨١	• الفصل السادس: الحرب العالمية الأولى
١٨٣	• الأوضاع الدولية بين يدي الحرب العالمية الأولى: التكتلات والتحالفات الدولية
١٨٤	• أسباب الحرب: الأزمات الدولية
١٨٥	• الصراع القومي في البلقان
١٨٦	• الصراع في الشرق الأقصى
١٨٧	• سباق التسلح
١٨٨	• التنافس الاقتصادي
١٨٨	• الدعوات القومية
١٩٠	• حادثة سراييفو
١٩١	• الدولة العثمانية وقرار الحرب
١٩٢	• اتساع نطاق الحرب
١٩٣	• موقف الولايات العربية تحت السيادة العثمانية
١٩٤	• تمرد شريف مكة على الدولة العثمانية
١٩٨	• اتفاقية سايكس بيكو
١٩٩	• وعد بلفور
٢٠١	• موقف الولايات العربية تحت الاحتلال الصليبي الأوروبي
٢٠٣	• مؤتمر الكويت
٢٠٥	• الدولة العثمانية في مهبط الرياح



٢٠٧	• الفصل السابع: تراجم الخلفاء العثمانيين (١)
٢٠٨	• شجرة الخلفاء العثمانيين
٢٠٩	• الخليفة سليم الأول
٢٠٩	• معركة جالديران
٢١٤	• الخليفة سليمان القانوني
٢١٤	• أهم الأحداث في عصره
٢٢١	• الخليفة سليم الثاني
٢٢٢	• أهم الأحداث في عصره
٢٢٢	• معركة موسكو
٢٢٣	• معارك أخرى
٢٢٧	• الفصل الثامن: تراجم الخلفاء العثمانيين (٢)
٢٢٨	• الخليفة مراد الثالث
٢٢٨	• أهم الأحداث في عصره
٢٣٢	• وفاة السلطان مراد الثالث
٢٣٤	• الخليفة محمد الثالث
٢٣٤	• أهم الأحداث في عصره
٢٣٥	• ثورات وفتن
٢٣٧	• وفاة السلطان محمد الثالث
٢٣٨	• الخليفة أحمد الأول
٢٣٨	• أهم الأحداث في عصره
٢٣٩	• الحرب مع الصفويين
٢٤٠	• الحرب على الجبهة الأوروبية
٢٤١	• الحروب البحرية
٢٤١	• الامتيازات الأوروبية
٢٤٣	• الخليفة مصطفى الأول
٢٤٤	• الخليفة عثمان الثاني
٢٤٤	• أهم الأعمال في عصره
٢٤٧	• الفصل التاسع: تراجم الخلفاء العثمانيين (٣)



٢٤٨	• الخليفة مراد الرابع
٢٤٨	• أهم الأحداث في عصره: المرحلة الأولى
٢٤٩	• المرحلة الثانية
٢٥١	• تشجيع العلوم الكونية وحركة العمران
٢٥٣	• الخليفة إبراهيم الأول
٢٥٤	• أهم الأحداث في عصره
٢٥٦	• الخليفة محمد الرابع
٢٥٧	• أسرة كوبرولو
٢٦١	• الخليفة سليمان الثاني
٢٦١	• أهم الأحداث في عصره
٢٦٤	• الخليفة أحمد الثاني
٢٦٧	• الفصل العاشر: تراجم الخلفاء العثمانيين (٤)
٢٦٨	• الخليفة مصطفى الثاني
٢٦٨	• أهم الأحداث في عصره: استعادة جزيرة ساقر
٢٧٠	• اتفاقية كارلوفيتس
٢٧١	• ظهور العتوب العرب على ساحة الأحداث لأول مرة
٢٧٤	• الخليفة أحمد الثالث
٢٧٤	• أهم الأحداث في عصره
٢٧٨	• عصر الزنبق ودور لاله
٢٧٩	• ثورة باترونا
٢٨٢	• الخليفة محمود الأول
٢٨٢	• أهم الأحداث في عصره: الصراع مع إيران ونادر خان
٢٨٤	• الصليبيون يستثمرون الصراع العثماني الإيراني
٢٨٥	• ظهور الدعوة الإصلاحية في جزيرة العرب
٢٨٦	• الخليفة عثمان الثالث
٢٨٦	• أهم الأحداث في عصره
٢٨٨	• الخليفة مصطفى الثالث
٢٨٨	• أهم الأحداث في عصره



٢٩١	• الخليفة عبد الحميد الأول
٢٩١	• أهم الأحداث في عصره
٢٩٢	• فتح أوال (البحرين)
٢٩٣	• القرم ومشكلات لا تنتهي
٢٩٥	• الفصل الحادي عشر: تراجم الخلفاء العثمانيين (٥)
٢٩٦	• الخليفة سليم الثالث
٢٩٦	• أهم الأحداث في عصره: الحرب الروسية النمساوية ضد الدولة العثمانية
٢٩٧	• الثورة الفرنسية وأثرها على الأحداث
٢٩٨	• بدأ العمل بالنظام الجديد في الدولة العثمانية وبدايات العلمنة
٣٠١	• ثورة الصرب
٣٠٢	• الحملة الفرنسية على مصر والشام
٣٠٦	• ثورة الإنكشارية أو حركة عصيان قباقي مصطفى
٣٠٨	• الخليفة مصطفى الرابع
٣١٠	• الخليفة محمود الثاني (الدولة على مفترق طرق)
٣١٠	• أهم الأحداث في عصره
٣١١	• الحرب مع روسيا ومعاهدة بوخارست
٣١١	• ثورة الصرب
٣١٢	• السلطان محمود يعلن الحرب على دعوة التوحيد
٣١٥	• ثورة اليونان
٣١٧	• الواقعة الخيرية إلغاء الإنكشارية
٣١٨	• الموقف على الجبهة الأوروبية
٣١٩	• معركة نوارين
٣٢١	• التوسع الفرنسي
٣٢٣	• موقف محمد علي باشا والي مصر
٣٢٣	• وفاة السلطان
٣٢٤	• صراع محمد علي باشا والي مصر مع الخلافة العثمانية
٣٣٠	• الخليفة عبد المجيد الأول
٣٣٠	• أهم الأحداث في عصره



٣٣١	• إعلان التنظيمات الحديثة
٣٣٢	• السلطان عبد المجيد والقضية المصرية
٣٣٣	• معاهدة لندن
٣٣٦	• معاهدة المضائق البحرية
٣٣٧	• المسألة الشرقية
٣٣٨	• الحرب مع روسيا
٣٣٩	• تنازلات عثمانية جديدة
٣٣٩	• مؤتمر باريس
٣٤٠	• صراعات صليبية
٣٤١	• وفاة الخليفة عبد المجيد الأول
٣٤٢	• الخليفة عبد العزيز
٣٤٢	• أهم الأحداث في عصره
٣٤٣	• ثورة الصرب
٣٤٣	• ثورة اليونان
٣٤٤	• زيارة خليفة المسلمين السلطان عبد العزيز لمصر
٣٤٦	• رحلة السلطان لأوروبا
٣٤٧	• إنشاء مجالس وقوانين جديدة
٣٤٨	• مجلة الأحكام العدلية
٣٤٩	• أحداث متفرقة
٣٥٣	• بداية النهاية للسلطان عبد العزيز
٣٥٥	• خلع السلطان عبد العزيز
٣٥٦	• نهب السراي السلطاني (القصر السلطاني) ضوله بهجة
٣٥٧	• مقتل السلطان عبد العزيز
٣٥٨	• الجزاء من جنس العمل
٣٦٠	• الخليفة مراد الخامس
٣٦٣	• الفصل الثاني عشر: تراجم الخلفاء العثمانيين (٦)
٣٦٤	• الخليفة عبد الحميد الثاني
٣٦٥	• عهد السلطان عبد الحميد وأهم الأحداث في عصره



٣٦٥	• المرحلة الأولى (المشروطة الأولى)
٣٦٦	• مؤتمر ترسانة في إسطنبول
٣٦٦	• الدستور أو نظام الأساس (المشروطة الأولى)
٣٦٨	• عزل مدحت باشا من منصب الصدارة ونفيه
٣٦٩	• نشأة مجلس المبعوثان أو البرلمان العثماني الأول
٣٧٠	• كارثة ٩٣ (الحرب الروسية)
٣٧١	• تعطيل مجلس النواب وتجميد المشروطة الأولى
٣٧٢	• مؤتمر سان إستفانوس
٣٧٣	• المرحلة الثانية (مرحلة الانفراد بالحكم)
٣٧٤	• مؤامرة علي سعاوي: محاولة اغتيال الخليفة
٣٧٥	• موقف الدول الأوروبية من معاهدة إستفانوس
٣٧٦	• معاهدة برلين
٣٧٨	• آثار معاهدة برلين على الدولة العثمانية
٣٧٩	• الاحتلال الصليبي الفرنسي لتونس
٣٧٩	• الاحتلال الصليبي البريطاني لمصر
٣٨٠	• قضية الأرمن
٣٨٢	• محاولة اغتيال السلطان عبد الحميد الثانية
٣٨٣	• حرب اليونان
٣٨٤	• المشكلة المقدونية
٣٨٧	• جامعة الشعوب الإسلامية
٣٨٨	• السلطان عبد الحميد وقضية فلسطين
٣٨٩	• المؤتمر الصهيوني الأول
٣٩٢	• السلطان عبد الحميد وإنشاء سكك حديد الحجاز الحميد
٣٩٥	• جمعية الاتحاد والترقي وعزل السلطان عبد الحميد عن الحكم
٣٩٧	• عزل السلطان عبد الحميد
٣٩٨	• أحداث (٣١) مارت
٤٠٣	• الفصل الثالث عشر: تراجم الخلفاء العثمانيين (٧)
٤٠٤	• الخليفة محمد رشاد الخامس



٤٠٤	• أهم الأحداث في عصره
٤٠٥	• موقف السلطان محمد رشاد من الأحداث
٤٠٦	• الاحتلال الإيطالي لطرابلس الغرب وبنغازي (ليبيا)
٤٠٩	• انكماش الدولة العثمانية
٤١٠	• حرب البلقان
٤١١	• اقتحام الباب العالي (مجلس الوزراء)
٤١١	• معاهد لندن
٤١٢	• الاتحاديون وموقفهم بعد معاهدة لندن
٤١٤	• اتفاقية سايكس بيكو
٤١٤	• وعد بلفور
٤١٦	• الخليفة محمد وحيد الدين السادس
٤١٦	• أهم الأحداث في عصره
٤١٧	• مؤامرة وخيانة
٤١٨	• إلغاء السلطنة
٤٢٠	• آخر خلفاء المسلمين: عبد المجيد الثاني
٤٢١	• عزل الخليفة وإلغاء الخلافة
٤٢٢	• مصطفى كمال ومحاولة إزاحة الإسلام من حياة الأتراك
٤٢٥	• إلغاء الخلافة الإسلامية وأثره على المسلمين
٤٢٦	• جراح وأحزان
٤٣١	• الباب السابع: آل خليفة في البحرين
٤٣٢	• آل خليفة
٤٣٥	• الفصل الأول: مدخل تاريخي
٤٣٦	• العتوب
٤٤٠	• شجرة نسب آل خليفة
٤٤١	• الفصل الثاني: آل خليفة في الزبارة
٤٤٢	•حكام آل خليفة في البحرين
٤٤٣	• الشيخ محمد بن خليفة آل خليفة
٤٤٥	• الشيخ خليفة بن محمد آل خليفة



٤٤٧	• معركة الرقة
٤٤٨	• معركة الزبارة
٤٥١	• الفصل الثالث: آل خليفة في البحرين: فتح أوّال ومرحلة الصراعات وإثبات الذات
٤٥٢	• الشيخ أحمد بن محمد آل خليفة (الفتاح)
٤٥٢	• أبرز مظاهر عصره: معركة الزبارة
٤٥٣	• نتائج معركة الزبارة وبداية المكون الأساسي لدولة آل خليفة في البحرين
٤٥٥	• فتح أوّال (البحرين)
٤٥٦	• توسع الدولة السعودية الأولى
٤٥٧	• الشيخ سلمان بن أحمد بن محمد آل خليفة
٤٥٧	• أهم الأحداث في عصره
٤٥٨	• فقدان الزبارة
٤٥٩	• التهديدات الفارسية لآل خليفة
٤٦٠	• الصلح بين العرب وموقف خصوم آل خليفة
٤٦١	• الأيام دول والابتلاءات تترى
٤٦٢	• ابتلاء جديد
٤٦٣	• نحو النصر
٤٦٤	• موقعة أخكيكره
٤٦٥	• صراعات وتغيرات
٤٦٦	• عمان مرة أخرى بدعم من فارس
٤٦٧	• بريطانيا ودورها الماكر
٤٦٧	• آل خليفة يستعدون للحرب
٤٦٨	• يوم أغر ونصر مبین
٤٧٠	• السياسة البريطانية تجاه الخليج
٤٧١	• حملات محمد علي الجزيرة العربية
٤٧٢	• بريطانيا تفرض نفسها في الخليج العربي وتستثمر الأوضاع والأزمات لصالحها
٤٧٣	• نصوص وشروط المعاهدات
٤٧٥	• بريطانيا ودور جديد
٤٧٦	• وفاة الشيخ سلمان بن أحمد آل خليفة



٤٧٧	• الفصل الرابع: عاصفة الصراعات الدامية
٤٧٨	• الشيخ عبد الله بن أحمد آل خليفة
٤٧٨	• أهم الأحداث في عصره
٤٧٨	• موقعة الحويلة بين الوهم والحقيقة
٤٧٩	• الدور المصري
٤٨٠	• الموقف البريطاني من الاتفاق المصري البحريني
٤٨١	• موقف الشيخ عبد الله من إلغاء الخلافة
٤٨٢	• تجري الرياح بما لا تشتهي السفن
٤٨٢	• بريطانيا من خلف ستار
٤٨٤	• النار من مستصغر الشرر
٤٨٤	• موقعة الحنينية
٤٨٥	• آثار المعركة
٤٨٦	• واقعة الساية
٤٨٧	• محاولات الصلح
٤٨٨	• الشيخ محمد بن خليفة بن سلمان بن أحمد آل خليفة
٤٨٨	• أهم الأحداث في عصره
٤٨٩	• واقعة أم سوية أو كسرة (خراب الدوحة الأول)
٤٩١	• طامة وبلاء
٤٩٢	• وقعة التنورة
٤٩٣	• الرد البريطاني
٤٩٥	• واقعة الدولاب
٤٩٥	• حصار الدمام أو شد الدمام
٤٩٥	• اتفاقية منع تجارة الرقيق
٤٩٦	• تطور الأحداث وسياسة المدارة والمصلحة
٤٩٦	• نحو الخلافة العثمانية
٤٩٦	• نحو الدولة الزندية في فارس
٤٩٧	• موقف بريطانيا
٤٩٧	• عام السلام المؤقت
٤٩٨	• الصراعات في قطر: وقعة الوكرة



٤٩٩	• خراب الدوحة الثاني
٤٩٩	• وقعة الحمرور
٥٠٠	• واقعة دامسة
٥٠٢	• معركة جبل الوكرة (الطويلة)
٥٠٥	• وقعة الضلع (صراع مصالح جديد)
٥٠٧	• وتلك الأيام نداؤها بين الناس
٥٠٩	• الفصل الخامس: عصر استقرار البحرين ونشأة الدولة الحديثة
٥١٠	• الشيخ عيسى بن علي بن خليفة بن سلمان بن أحمد آل خليفة
٥١٠	• نشأته
٥١٠	• أسرة الشيخ عيسى بن علي آل خليفة
٥١١	• البحرين في عهد الشيخ عيسى بن علي آل خليفة
٥١٣	• الإدارة ونظام الحكم في عهد الشيخ عيسى آل خليفة
٥١٣	• ولاية العهد
٥١٤	• الوزير
٥١٥	• الحاجب
٥١٥	• الدوائر الإدارية: البلدية
٥١٦	• مجلس البلدية
٥١٧	• الأمن والشرطة
٥١٨	• إدارة الجمارك
٥١٩	• النظام القضائي والمحاكم
٥٢٠	• القضاة في عهد الشيخ عيسى
٥٢١	• النظام الصحي
٥٢٢	• التعليم
٥٢٣	• الشيخ عيسى بن علي وأهم الأحداث في عصره
٥٢٣	• الحماية البريطانية على البحرين
٥٢٤	• المعاهدة المانعة الثانية (١٣٠٩هـ / ١٨٩٢م)
٥٢٤	• الإجراءات الاستعمارية في البحرين
٥٢٤	• البحرين قاعدة عسكرية بريطانية
٥٢٥	• الغزو الفكري للبحرين (التنصير)
٥٢٧	• موقف البحرين الرسمي من التنصير



٥٢٩	• مفترق طرق
٥٣٠	• تصاعد الأمور
٥٣٠	• نظام الأساس ومفترق الطرق مع بريطانيا
٥٣٢	• نماذج مما جاء في نظام الأساس الذي وضعه الشيخ عيسى بن علي رحمه الله
٥٣٦	• وفاة الشيخ عيسى بن علي آل خليفة
٥٣٧	• المراجع
٥٥١	• فهرس الموضوعات